

الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي

1) الحياة الثقافية بالجزائر

2) جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني (10-13هـ)

3) الشريف بوبغلة بطل ثورة بلاد القبائل

جمع وإعداد
عبد الرحمن دويب

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الخمسين لاستقلال الجزائر

الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي

1) الحياة الثقافية بالجزائر

2) جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني (10-13هـ)

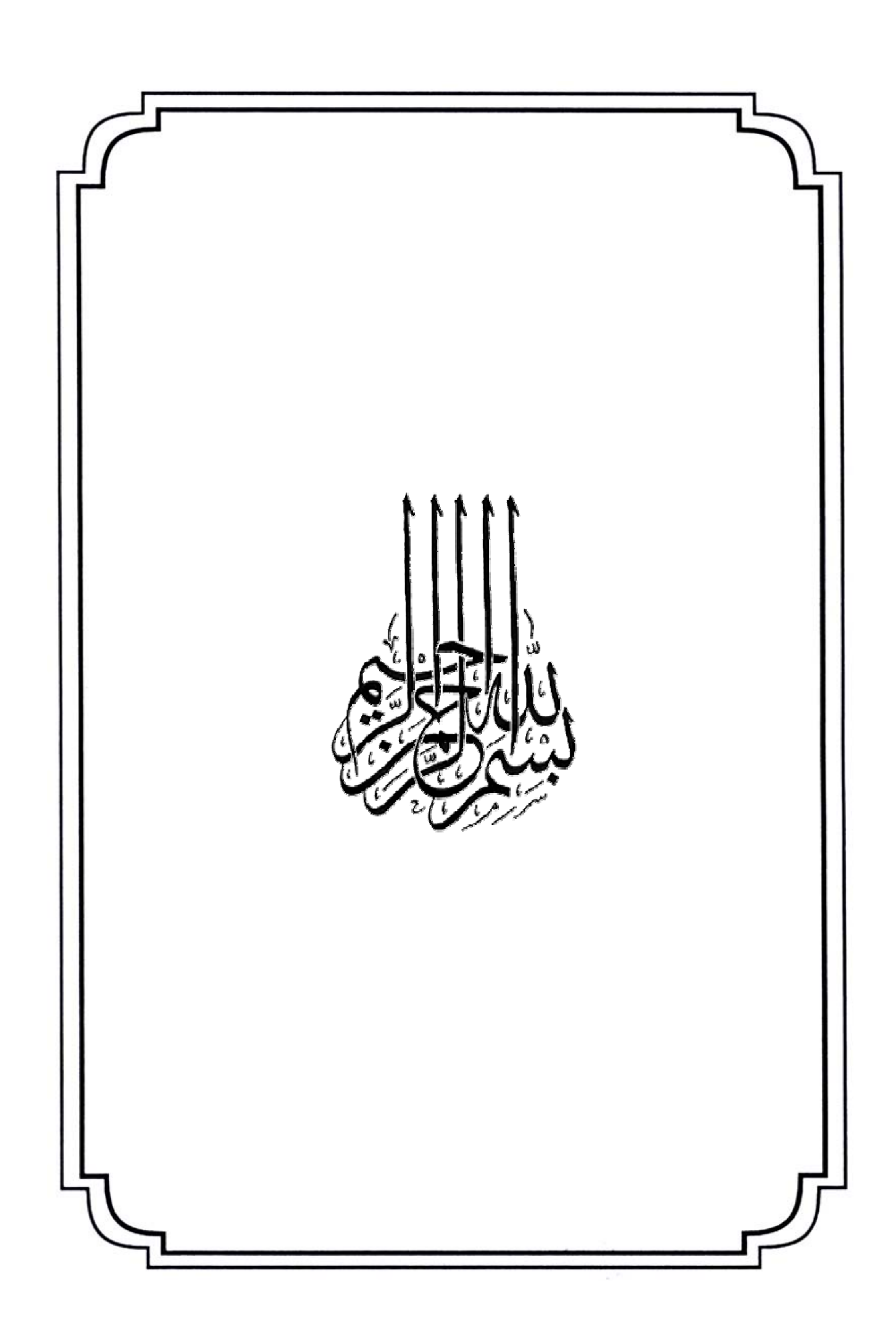
3) الشريف بوبغلة بطل ثورة بلاد القبائل

جمع وإعداد

عبد الرحمن دويب

عالم المعرفة

للنشر والتوزيع

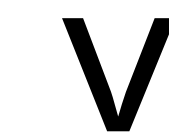


الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي

1) الحياة الثقافية بالجزائر

2) جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني (10-13هـ)

3) الشريف بوبغلة بطل ثورة بلاد القبائل



الطبعة الأولى

2013

الإيداع القانوني: 4290-2012

ردمك: ISBN 978-9947-912-44-7

عالم المعرفة
للنشر والتوزيع

حي باحة 02، فيلا رقم 07، تماريس المحمدية / الجزائر

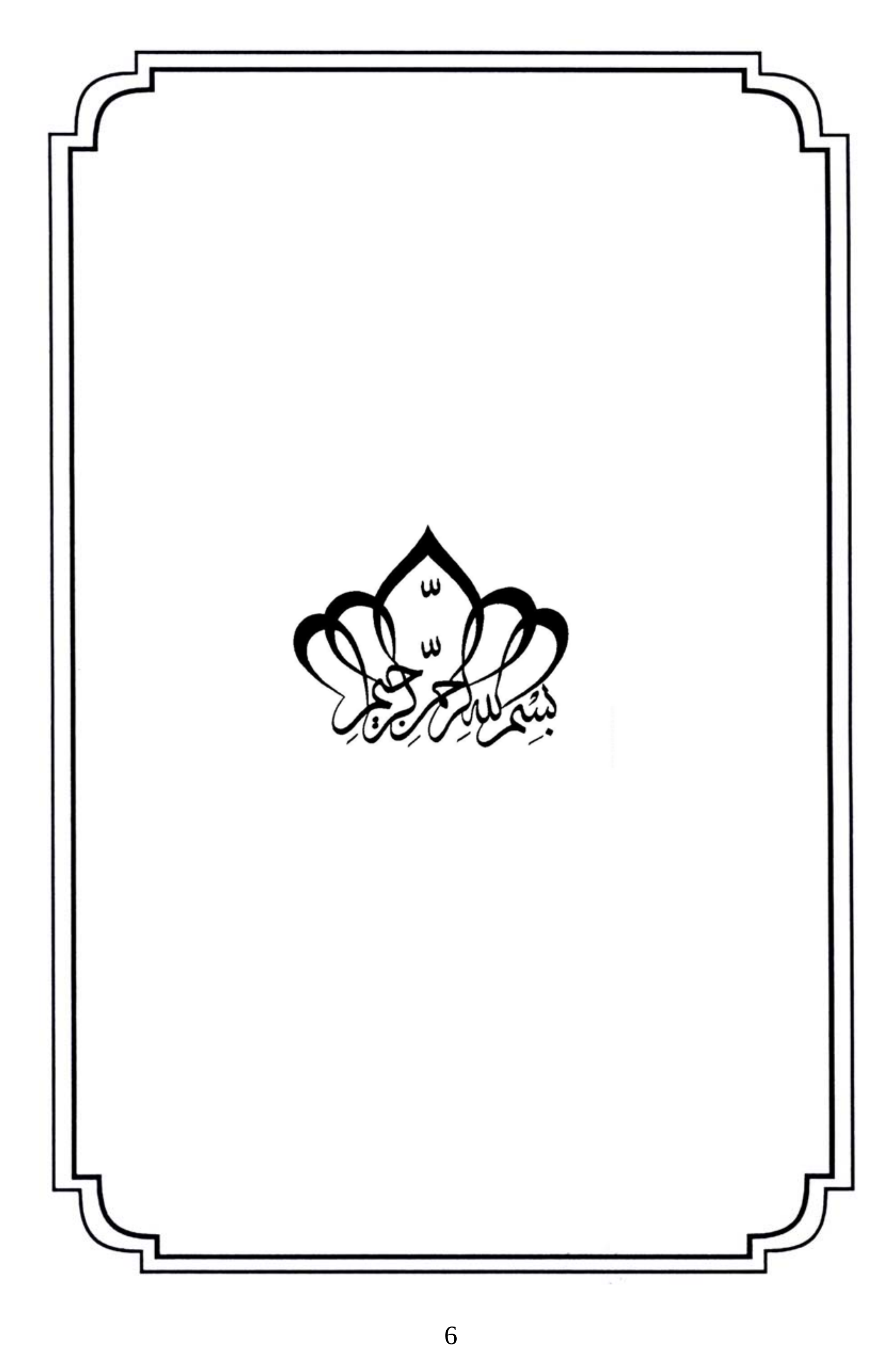
هاتف/ فاكس: 96 -92-21-021

البريد الإلكتروني: alemelmaarifa@yahoo.fr



الفصل الثالث

الحياة الثَّقافية بالجزائر


بسم الله الرحمن الرحيم

يحتوي هذا (**الفصل**) على ما يلي:

1) مراكز الثقافة وخزائن الكتب بالجزائر عبر التاريخ: نشأتها، تطورها، آثارها.

2) اهتمام علماء الجزائر بعلم القراءات.

أ) تعقيب الأستاذ بكير محمد الشيخ بلحاج.

ب) رد الشيخ المهدي البوعبدلي

3) اهتمام علماء الجزائر بعلم الحديث قديما وحديثا.

4) لقطات من ظهور السَّلفيَّة بـ(الجزائر) انطلاقا من أوائل القرن التَّاسع الهجري وتطوُّرها ثمَّ آثارها واستِمراريَّتها إلى أوائل القرن الرَّابع عشر.

5) لقطات من تاريخ دور بعض علماء الجزائر في الاجتهاد.

6) الثَّقافة والتَّوجيه بالجزائر في العهد التركي.

7) العواصم الثقافية في الجزائر (تنس) ـ باللغتين ـ.

8) أهمُّ الأحداث الفكريَّة بـ (تلمسان) عبر التَّاريخ، ونبذٌ مجهولة من تاريخ حياة بعض أعلامها.

9) مساهمة بجاية الحمَّادية في الحضارة والفكر الإسلاميين والعالميين وأسباب وآثار انحطاطها.

10) الحياة الفكرية بـ (بجاية) في عهد الدَّولتَين الحفصية والتركية وآثارها.

11) دور منطقة توات في تمتين الرَّوابط الثَّقافية والحضارية بين مناطق الجنوب والشَّمال.

12) رأيٌ في الإصلاح.

مراكزُ الثَّقافةِ وخَزائن الكتُبِ بالجزائر عَبر التَّاريخ
نَشأتها، تطوُّرها، آثارُها[1]

تنقسمُ هذِه الدِّراسةُ إلى قِسمَين:

(القسم الأول) يشملُ الثَّقافةَ ومَراكِزَها في طَورها الأَول، وسأَتعرَّضُ فيه لنُبذةٍ مُوجَزة مِن تاريخ البلاد، معَ تحليلها وذِكر بَعضِ نَتائجِها.

أمَّا **(القسم الثاني)** فَسأتحدَّثُ فيه عَن المدارس، وتطوُّر الثَّقافةِ في عَهدِها، ثمَّ خزائن الكُتب.

---

(1) **الأَصالة**: صفر ـ ربيع الأول 1392هـ/ مارس ـ أفريل 1972م، السنة: 2، العدد: 7، ص: 5 ـ 12.
ملاحظة: بهامش المقال مجموعة مِن الإحالات على تعليقات الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، ويظهر أنَّ مصحِّح **المجلَّة** أسقطَها ولم يُدرجها في الأصل، ثمَّ رجعنا إلى العدد الذي يليه ـ أي: العدد الثامن ـ لعلَّنا نقفُ على استدراكٍ يصحِّح هذا الخطأ، فلم نظفر بشيء، وفي العدد (11) مِن نفس **المجلَّة** نشر الشَّيخ **المهدي** القسم الثاني من هذا المقال ولم ينبِّه فيه على هذا السَّقط. (ع)

مراكز الثقافة وخزائن الكتب بالجزائر عبر التاريخ
نشأتها، تطورها، آثارُها
(1)

كانت الثَّقافةُ الإِسلامية في أوَّلِ عهدِها كما هو معلومٌ بَسيطة، تقومُ على أَساسِ تعلُّمِ القرآنِ الكريم، حِفظه، وتَفسيره، وكان المركزُ الأولُ لهذا النَّوع مِن التَّعليمِ المسجِد، اقتِداءً بما كان عليه النبيُّ ﷺ في حياتِه، حيثُ اتَّخذ مسجِدَه المبارك مَركزا يجتَمع فيه بِأَصحابِه، يعلِّمهم دينَهم، عمَلا بقَوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ (البقرة: 129).

ثمَّ سار الخلفاءُ الرَّاشِدون والصَّحابةُ والتَّابِعونَ على هذا المنهَج، فكانوا يجلِسونَ في المسجِدِ النَّبويِّ يَعِظُون الناسَ ويعلِّمونَهم أصولَ دينِهم، ويفتُون لهم فيما أَشكلَ عليهِم، ثمَّ عزَّز المسجِدُ في بلادِ المغربِ العَربي عامة، وفي الجزائر بِصفةٍ خاصَّةٍ بِالرِّباط، وذلك ابتِداءً مِن منتَصفِ القرنِ الثاني، ثمَّ بالمدرسةِ بعدَ أَربعةِ قُرون، كما سنَتحدَّثُ عنها بتَفصيلٍ في مَوضعِها.

كانت **الجزائر** بعدَ ما مهَّدها الفاتحون ـ أي: في القرنِ الثاني ـ تَتقاسَمها ثلاث دول:

الدَّولة الأغلبية: ممثِّلة الخِلافة الإسلامية، وكانت قاعِدتها بالجزائر مدينة **طبنة**، وقَد أنجَبت **طبنة** في عهدِها علماء أَجِلَّة، أكثَرهم تخرَّجوا مِن **القَيروان** على **سحنون بنِ سعيد التنوخي** ـ تلميذ **ابن القاسم** و**أشهَب** (تلميذَي **مالك**) ـ كانت مهمَّة تلامذة مدرسة **مالك** نشر الدِّين في إطار مذهبِ الإمام **مالك** بأُمهاتِ المدُنِ الرَّئيسية، ظهر مِن علماءِ

هذه الفترة بالجزائر **النعمان بن المنذر** بـ : **مجانة**، وكان مِن الزُّهاد، قيل إنَّ أستاذه **سحنون** عرضَ عليه القضاء فامتنَع، وظهر **علي بن الصبار** (قاضي ميلة)، تلميذ **سعيد ابن الحدَّاد** المتخرِّج مِن مدرسة **سحنون**، والذي اشتهَر بِنشر مذهب **مالك**، حيثُ إنَّه كان أعلم وأَفقه أهلِ زمانِه، أَلَّف في عِدَّة فنون، وينسبُ إليه تأليفُ ردَّ فيه على **الشافعي**.

ظهرت الدَّولتان **الرُّستمية** بـ: **تاهرت**، و**الإدريسية** بـ: **تلمسان**، وكان لكلٍّ منهما مذهبٌ سياسي وديني، وبطبيعة الحال اتَّخذ كلُّ داعٍ لهاتَين الدَّولتَينِ المسجدَ مقرًّا لنَشر تَعاليم مَذهبِه، وطبيعيٌّ أن يتبعَ تعليمُ المذهبِ تَلقين علومِ اللغة، وهذا ما سارَت عليه الدَّولةُ **الرُّستمية** التي كان أئِمَّتها يَعقِدون مجالسَ التَّذكير، وتدريس الفنون العِلمية، وكوَّنوا مجالسَ عِلميَّة استِشارية، فكانوا كثيرًا ما يتَناظرونَ في المساجِد مع مُعاصِريهم في الخِلافاتِ المذهَبيَّة، إذ كان في المملكةِ **الرُّستمية** كثيرٌ مِن الفقهاءِ المالكية.

كانت الدَّولة الرُّستمية بحكمِ تعاليمِ مَذهبِها مهتمَّة بِالتَّعليمِ الدِّيني، فنبغَ فيها علماءُ ومؤلِّفون اشتَهرت آثارهم إلى زَمانِنا هذا، وكان الأَئِمَّةُ الرُّستميون يَمتازون بِعلوِّ المكانة في العلمِ والاِستِقامة، ومِن هؤلاء **أفلح بن عبد الوهاب** الذي كان يدرِّس في المسجد الجامع بـ : **تاهرت** في شَبابِه، ولما تولَّى الإمامةَ استمرَّ على مُواصلة التَّدريس، وقد حفِظَ لنا التاريخُ مِن عهدِه **تفسيرَ القرآن** لـ : **هود بن محكم الأَوراسي الهواري**[1]، وقصيدةَ رائعةً في الإشادةِ بالعلمِ للإمامِ **أفلح** نَفسه، يحرِّض مُواطنيه على التعلُّم، وقَد تَبارى كثيرٌ مِن الشُّعراءِ في تَشطيرها إلى عهدٍ قَريب، وهذِه بعضُ أبياتها:

العلـمُ بنَـى لأَهـلِ العلـمِ آثـارا ... وليلهم بِشـموسِ العلـمِ قَـد نـارا
حيٌّ وإن مـاتَ ذو علـمٍ وذُو وَرع ... إن كانَ في مَنهجِ الأَبـرارِ مـا مـارا
وذُو حيـاةٍ عـلَى جَهـلٍ ومَنقصـة ... ولا يُبـالي أخَـيرًا نـالَ أَم عـارا

(1) وقَد طبع هذا التَّفسير بتحقيق الأستاذ الشَّيخ **بالحاج بن سعيد شريفي**. (ع)

لله عُصــبة أهــلِ العلــمِ إنَّ لهــم	في كـلِّ أفـقٍ مِـن الآفـاقِ أَنـوارا
العلمُ علـم كفَـى بـالعلمِ مكرمـة	ومَن يُرِد غَير خَير العلمِ ما اختـارا
العلــمُ درٌّ لَــه فَضــلٌ ولا أَحــد	محصله لَـه كـلّ عقـلٍ دُونَـه جـارا
للعلمِ فَضلٌ عـلى الأَعـمالِ قاطبـة	كــان ذووه لِــدين الله أَنصــارا
اشدُد إِلى العلمِ رَحلا فوقَ راحِلـة	وكُــن إِلى طلــبِ التَّعلـيمِ سـيَّارا

ثمَّ يستَرسِلُ في مَنظومتِه التي تَربو أَبياتها على الأَربعين، فَيوصي طالبَ العلمِ بِطريقة سلُوكِه، وقَد ظَهرت واشتهَرت هذِه الوَصايا فيما بعد، يوجِّهها أَصحابُها إِلى الأَبناءِ والتَّلاميذ، كوَصية **لسان الدِّين ابنِ الخطيب السَّلماني** لأَولادِه، ووَصية **محمَّد بنِ حواء المستغانمي** لأَولاده أيضا.

إنَّ ما ذكَرناه في حقِّ الدَّولة **الرُّستمية** هو ما ينطبقُ على الدَّولة **الإِدريسية** المعاصِرة لها، فعندَما فتحَ **إدريس تلمسان** سنة 172هـ أَوَّل عملٍ حَضاري قامَ به هو تأْسيسه للمَسجِد الجامع بتلمسان (**أقادير**) القديمة، وهي الآن مِن أَرباضِ **تلمسان**، وما زالت بَقايا المسجد هُناك، ثمَّ أَسَّسوا عِدَّة مساجد بـ: **أرشقول**، **وتنس**، و**سوق إبراهيم**، و**حمزة** (**البويرة**) التي كان حكمُ **الأَدارسة** يصِلُ إليها شَرقا، ويكفينا دليلا على اهتمامِ الدَّولة **الإِدريسية** بالعلمِ أنَّ **جامعة القرويِّين** أنشِئَت وازدهَرت في عَهدِهم.

كانت بالجزائر عِلاوة على هاتَين الدَّولتين، إِمارات تتمتَّع بشِبه استِقلالٍ داخلي، كإِمارة **مَغراوة** التي يمتدُّ مَركزُها مِن **مليانة** شرقا، إِلى **تلمسان** غربا، وقَد كان لها التَّصرُّف في مَوطنها قبلَ الإِسلام، ثمَّ أقرَّها المسلمونَ عليه، إذ قيلَ إنَّ رئيسَ القبيلة إِذ ذاك: **صولات بن وزمار**، أَسلم على يدَي الخليفة **عثمان**، فمَنَّ عليه وأقرَّه على حكمِ إِمارة آبائِه، فاعترفَت قبيلتُه بالولاءِ لعثمان، ثمَّ لبني أمية مِن بعدِه، ولم يكُن لهم مذهبٌ عقائدي رغمَ أنَّهم لعِبوا أدورًا هامَّةً في تاريخ البلاد، فقَد احتفَظوا بإِمارتهم قُرونا،

وأسَّسوا دولا بالمغرب وبالأَندلس وليبيا، وكانوا يرجِعون المرَّة بعد المرَّة إلى مَركزِهِم الأَصلي بـ : **وَادي شلف**، إلى أن بادَت دولتهم في أَواخِر عهد ملوك **بني زيان**.

وإمارة **بني يفرَن** كانت هي الأُخرى إمارة بربرية أَصيلة، مَوطنها بين **تلمسان وجبل بني راشد (جبل عمور**، قرب مدينة **أفلو**، ولاية **تيارت)**، أَدركَها الإِسلامُ تحكمُ **تلمسان**، إذ هي التي أسَّستها، ولم يُعرف بالضَّبطِ تاريخ إسلامهِم، وكلُّ ما يُعرف عنهم أنَّ زَعيمَهم **أبو قرَّة** كان على رأسِ **الخوارج** عِندَما حاصرُوا مدينة **طبنة** سنة 151هـ، وكان بها **عمر بن حفص** عامل الخليفة العباسي.

هذِه في الجملة حالة البلاد السِّياسية والثَّقافية كما ذكَرنا في هذِه الفَترة، وكان الفقهاءُ يعدُّون تَلاميذهم فِكريًّا ورُوحيا، ثم يوجِّهونهم لنصر المذهَب المالكي.

لما ظهَرت الدَّولة **العُبيدية** الشِّيعية، وهي كسابِقتَيها **الرُّستمية والإِدريسية** قامَت دعوتُها على نَشر المذهب الشِّيعي، واختارَت لمركزها بـ **(أيكجان)** اسم: **دار الهجرة**، ولزَعيمهم: **داعي الدُّعاة** ، ولمذهبهم: **مذهب أهل البيت**.

أمكنَ لهذه الدَّولة النَّاشِئة في مدَّة وَجيزة أن تَقضي على دولة **بني رُستم**، ثمَّ ألحقَت بها إِمارتَي" **(بني يفرن)**، و**(مغراوة)**، ثم ختمت انتِفاضتها ـ على حدِّ تعبير المعاصِرين ـ بِمركز الخِلافة العباسية **القيروان**، التي كانت تحتَ حكمِ **الأَغالبة**.

واتَّخذوا **المهدية** عاصمةً بدلَ **القيروان**، إلَّا أنَّهم رغمَ تَبديل العاصمة فإنَّ **القيروان** بَقيت تَحتفِظُ بِمَركَزها الثَّقافي، حيث لَعِبَت دَورا خَطيرا في نَشر الفِقه المالكي، وجنَّدت له الدُّعاةَ حتى مِن **الأندلس**، ثم ختمت أنفاسها عند غَزوة **بني هلال**، وكان لخرابِها وسقُوطِها دويٌّ ردَّد صَداه العالم، ورَثاها الكتَّابُ والشُّعراء، ومِن هؤلاءِ **ابن رشيق المسيلي** الذي التحقَ بِمَعاهِدها كبقية مُواطنيه إِذ ذاك، اختَرنا فَقراتٍ مِن هذِه القَصيدة

لأَنَّها تَشتمِلُ على وَصفِ حَياتها الثَّقافية، ولها عَلاقة بِمَوضوع دِراستِنا، قال[1]:

كَم كـانَ فيهـا مِـن كِـرامٍ سـادَة	بيض الوجُـوهِ شَـوامخ الإيـمانِ
مُتعـاوِنينَ عـلَى الدِّيانـةِ والتُّقَـى	لله في الإسرار والإعـــــلانِ
ومهـذَّبٍ جـمّ الفَضـائل بـاذِل	لنَوالـــهِ ولعِرضِـــه صَـــوَّانِ
وأئِمَّـة جمعـوا العلُـومَ وهـذَّبوا	سُننَ الحديثِ ومُشكل القُـرآنِ
علماء إن ساءَلتهم كشَفوا العَمى	بفَقاهـــةٍ وفَصـــاحةٍ وبَيـــانِ
كانَـت تعـدُّ القَـيروانُ بهِـم إذا	عُـــدَّ المنـــابِر زَهـــرةَ البلـــدانِ
وزَهَت على مِصر وحُقَّ لهـا كَـما	تَزهُو بهِـم وغـدَت عـلَى بغـدانِ

ظهر المذهبُ الشِّيعي وكان لقضائِه على دولة **بني رستم** وإمارتَي **بني يفرن** و**مغراوة** أثره السيِّئ عندَ ملوكِ **الأندلس**، الذين كانت للإمارتَين المذكورتَين التَّبعية الرُّوحية لهم، كما كانت علائِقهم مع **الرُّستمية** علائق ودٍّ، ارتاع لهذا الظُّهور ملوك **الأندلس** والخلافة **العباسية**، والحديثُ عَن دولة **العُبيدية** الشِّيعية في الميدان الثَّقافي شائِك، إذ ما زال البحثُ فيه لم ينضَب مَعينه، وقَد خصِّص بِعشَرات التآليف، والذي يهمُّنا منه ويتَّفِقُ معَ مَوضوع دِراستِنا هو نَتائجه، إذ لم يقدَّر لهذا المذهَبِ أَن يحتفِظَ بوجُوده، ويبقَى له أثَرٌ بِبلاد المغرب العربي إلَّا مدَّة قليلة، عندَما كان سيفُ الدَّولة فوقَ رِقابِ السكَّان، وذلك أنَّه ارتطمَ بِمَوقفِ الفقهاءِ المالكيِّين الذين كانوا يشخِّصونَ ويمثِّلون المذهبَ السُّنِّي، وإتمامًا لفائدةِ هذا البحثِ نَنقلُ فَقراتِ اختَرناها مِن البحثِ القيِّم الذي كتبَه الدكتور **حسين مؤنس** في مقدِّمتِه لكتاب **(رياض النفوس)** لابن المالكي، ذلك الكتاب الذي تعرَّضَ فيه مؤلِّفه بتَفصيلٍ لمعركة الفقهاء المالكيِّين مع العُبيديِّين، وهو تتمَّة لكتابَي: **(طبقات علماء إفريقية)** لـ: **أبي العرب التَّميمي**، وملحقه لتلميذه **محمد بن الحارث**

---

(1) في المقالة المطبوعة بعض التَّصحيفات، قُمنا بتصحيحها مِن غير تحديد مواطنها. (ع)

الخشني، الذي كان الفضلُ في تحقيقهما وطبعهما للعلَّامة **محمد بن أبي شنب الجزائري، إذ** هذِه التآليف الثَّلاثة تلقي أضواءً على تطوُّر الدِّراسة الدِّينية والسِّياسية في القرونِ الخمسةِ الأولى، وموقف الفقهاء المالكيِّين الذي اختَرناه مِن مقدِّمة الدكتور **حسين مؤنس** هو ما ذكَره في مَعرضِ حَديثه على إمامِ العُبيديِّين **عبيد الله المهدي**، قال: «جاهرَه شيوخُ **إفريقية** بإنكار مَذهبِه وازوَرُّوا عنه، وتَبِعَهم في ذلك عامَّة النَّاس، ووقَفت **إفريقية** كلُّها موقفَ مُعارضة سلبِيَّة... وأحسَّ **عبيد الله الشِّيعي** أنه بينَ رَعيَّة لا تُطيعه، ولا تُقبِلُ علَيه، فحاوَل إرغامَها على السَّير معَه بحدِّ السَّيف، وأراقَ مِن الدِّماءِ شيئا عظيما، فلم يتحوَّل الناسُ عما كانوا عليه... وحسِبَ أنه إذا ندبَ بعض الظَّاهرين مِن فقهاءِ مذهبِه الشِّيعي ودُعاتِه لمساجلة شُيوخ إفريقية لاستطاع إلزامَهم الحجَّة، وتَسفيهَ آرائهِم، ومِن ثمَّ بدأَت هذِه **(المجالس)** الفَريدة التي دارت المناقشات فيها بين دُعاةِ الشِّيعة وفقهاء إِفريقية... وقد انجلَت هذه المجالسُ والمساجَلات عَن هزيمةٍ لدُعاةِ الشِّيعة، إذ ثبتَ لهم فقهاءُ المالكية وأَفحمُوهم بالحجَّة بعدَ الحجَّة... وهذا هو السَّببُ الحقيقي في تفكير **العُبيديِّين** في الانتِقال مِن **إفريقية**» اهـ كلام **مؤنس**.

وبالفعل انتَقلوا، وتركَ **المعزُّ لدينِ الله الفاطمي** ـ بعد انتِقالِه إلى **القاهرة** ـ قائدَه **بلقين بن زيري بن مناد الصَّنهاجي**، الذي تربَّى هو وإِخوته في قَصرِه، وكانت مواقِفُه في الحروبِ وانتِصاره على أمراءِ **مغراوة**، ثمَّ فَتحه لبلادِ المغرب، مما زادَ في مكانتِه عند **العُبيديِّين**، كانت إمارة **صنهاجة** قريبة عَهدٍ بالتكوين، حيث إنه لما ثار **أبو يزيد مخلد بن كيداد** المشهور عند المؤرِّخين بـ **(صاحب الحمار)** على **العُبيديِّين** وحاصرَهم بالجبل المطلِّ على مدينة **القلعة**، أغاثَته صنهاجة القَبيلة البَربرية العَتيدة التي كان مَوطنها يمتدُّ مِن مدينة **المسيلة** إلى حمزة **(البويرة)** فنواحي **الجزائر**، أَقطعَ **المنصور** العُبيدي لزَعيم القبيلة إذ ذاك **زيري بن مناد** (والد **بلقين**) الإمارة التي اشتهَرت بـ : **إِمارة بني زيري**،

توسَّعت الإِمارةُ واستحالت إلى مملكة كما هو مَعروف، ولم تمض إلا مدَّة لا تجاوز الأَربعين سنة حتى تبرَّأَ **بنو زيري** مِن المذهبِ الشِّيعي، وقام **المعزُّ ابن باديس** الذي رفضَ هذِه التَّبعية، وخطبَ مِن أَعلى منبر جامع **القرويِّين** خطبتَه المشهورة التي صرخَ فيها بِقوله: «اللهمَّ العَن الفَسقة الكفَّار، والمارقين الفجَّار، أعداء الدِّين وأَنصار الشَّيطان ...»، ودعا بالنَّصر للخليفة العباسي كما هو معروف، كذلك قيل إنَّ مِن جملة الأسبابِ التي أَلجأت **المعزَّ ابن باديس** إلى هذا الموقفِ هو عِندما أَحسَّ بالخطرِ يهدِّده، إذ بلَغه أنَّ المصلِّين أَنفسهم قاطَعوا صلاةَ الجمعة التي كان أَئِمَّتها يدعُون فيها للملوك العُبيديِّين، انتصَر الفقهاءُ المالكيُّون، وتوحَّدت ثقافةُ البلاد، وهذا لا يَمنع مِن الاِعترافِ بأَنَّ الدَّولةَ العُبيدية كانت مِن أَعظمِ الدُّول لا في الميدانِ السِّياسي فحَسب، بل حتى في الميدانِ الدِّيني والحضاري، فإِنَّها ساهَمت في نَشر العلومِ والفنون.

وظَهَر في عهدِها بالجزائر علماء أَجِلَّة ومؤلِّفون، أَمَّا الكتُب فلا أظنُّ أَنَّ هناك دولة بلغت ما وصلَت إليه مِن الاِهتِمام بالكتبِ وتأسيس الخِزانة ووَفرة نوادر الكتب.

اختلفَ كثيرٌ مِن الكتَّاب والباحثِينَ في الأسبابِ الدَّاعية إلى فشلِ التِّيارات الفِكرية التي اجتاحَت الجزائر وبلاد المغرب العربي طيلةَ أربعةِ قُرون، رغمَ التأييد المادي والأَدبي الذي كانت تَتمتَّع به عندَ الملوكِ والسَّلاطين، ومِن هؤلاء الباحثِين بعضُ المستَشرقين الذين أطلَقوا العنانَ لأَقلامهِم، وذَهبوا إِلى الادِّعاءِ بأَنَّ السكَّان البَرابرة كانوا يثُورون على العَرب المستَعمِرين، والبربر لا يفرِّقون بين ألوانِ وأَجناسِ المستَعمِرين، وقد بلبَلوا أَفكارَ كثير مِن ضُعفاءِ العُقول، واتَّخذوا مِن هذِه المزاعم مَوادَّ دِراسية للنَّشر، وغذَّوا بِكثيرِ مِن الوسائل هذِه السُّموم الصَّليبية، والحقيقة أَنَّ سكَّان البلاد (بربرٌ وعَرب) كانوا يثُورون المرَّةَ بعد المرَّةِ في ذلك العهدِ على الملوكِ والسَّلاطين، ضدَّ طُغيانهِم واستبدادهِم وانحرافهِم عَن الدِّين وتَعاليمه، وقَد ثاروا بالفعلِ حتى على

بقايا ملوكِ الدَّولة **الإدريسية** لما انحَرفوا عَن تعاليمِ الدِّين، وتَجاهروا بالمعاصي.

ولنرجع إلى الحديثِ عن الشِّيعة، ذكَر البحَّاثةُ **الحجوي** في تأليفه: (**الفكر السَّامي في تاريخ الفقه الإسلامي**) أثناء حديثه عَن تاريخ تطوُّر الفقه المالكي بالمغرب العربي فقال: «... ثمَّ في آخِر القرن الرابع دهَم الفقه المالكي في المغرب والقيروان داهية دهياء، أدهى وأمر مِن كلِّ ما مرَّ، وهي ظهور الشِّيعة الذين قتلوا أعيانَ العلماءِ الحاملين لواءَ العلمِ والدِّين، وحملوهم على الرُّجوع عَن مذهبِ **مالك**، وعَن السُّنة، والتَّمسُّك بالرَّفض، فأَبَوا فَقتلوهم شرَّ تَقتيل... وقَد قتلوا في واقِعة **أَبي يزيد مخلد بن كيداد** خمسة وثمانين مِن نُخبة علماءِ القيروان... ومعَ هذا الضَّغط لم يقضُوا على المذهبِ المالكي، بل بقيَ مُنتشِرا سِرًّا» اهـ [نقل] كلام **الحجوي**.

كان منهج التعليم الذي تبِعه **مالك** وتلامذةُ مَدرستِه يقومُ على أساسٍ محكم، طلب المعرفة مِن أَجلِ المعرفة، بَعيدا عَن الغايات الدُّنيوية والحظوظِ النَّفسية، والمقياس الذي يَقيسون به الدَّاعيةَ الدِّيني أن تكونَ أقواله تنمُّ عن أَفعالِه، إذ لم ينتشِر الإسلامُ في ربوع المعمورةِ أوَّلَ ما انتشَر، ولم يتأثَّر السكَّانُ المعتنِقونَ للدِّين إلَّا بسِيَر الفقهاءِ مِن الصَّحابة والتَّابِعين، ثمَّ إن مَدرسةَ **مالك** صادفَت الاهتمامَ في صُفوفِ رواة الحديثِ بإِحداثِ بابِ التَّعديلِ والتَّجريح، الذي كان أشبَه بالاستِعلاماتِ في عَصرنا هذا، ثمَّ إنَّ **مالكا** نفسه كان محافِظا أشدَّ المحافظةِ على تتبُّع سيرة الرَّسول ﷺ، وسيرة خلفائِه مِن بعدِه، وعاش في **المدينة** وجعلَ مِن تلك التَّعاليم بَعض الأُسس التي بنى عليها مذهَبه، فلهذِه الأسبابِ كان تَلامذته يقدِّسونه، ويرَون في شَخصيته وفي تَعاليمِ مذهبِه المثل الأَعلى لمن يمثِّل الدِّينَ في نَظرهِم.

وهذِه الصِّفات والتَّعاليم هي التي تَوارثَها الفقهاء، وكانت السِّلاحَ[1] الوَحيد

(1) في المقال المنشور: «السَّلام». (ع)

الذي انتَصروا بِه في مختلفِ الَّلحظاتِ الحرِجة التي لاقَوها في تاريخ حياتهِم.

هذه الأُسسُ الخلُقية ـ وهي التَّوفيقُ بين الأقوالِ والأَفعالِ ووَسائل الإِقناع ـ هي التي كانت تُوافِقُ في نَظرِهِم ما قالَه الله سبحانه وتعالى مُعرِّضًا بِمَن كانت أَفعالهم تخالِفُ أَقوالَهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ (الصف: 2 ـ 3)، وكَقوله ﷺ: «أصحابي كالنُّجومِ بأَيِّهم اقتدَيتُم اهتَديتُم»[1].

فلنَرجع إلى الحديثِ عن **بني زيري الحماديِّين،** فإِنَّنا نجِدُهم أَسَّسوا مدينةَ **القلعة** المعروفة بِهم، وقد اشتَهرت بأنَّها أَعظم عاصمةٍ عِلمية واقتِصادية، واهتمَّ بها وبآثارِها كثيرٌ مِن العلماء، وما زالت محلَّ اهتمامِ بحوثِهم، وقَد استفادَت كما علِمنا مِن سقُوطِ **القيروان** والْتجاءِ كثيرٍ مِن علمائها إليها، إلَّا أنَّ هذه الِاستفادة لم تدُم طَويلا، فقَد تسرَّب لها داءُ الِانحِلال بِدَورها، وفكَّر ملوكُ **القلعة** في الخطَر الذي كان يهدِّد **القلعةَ** فنَقلوا عاصِمتَهم إِلى **بجاية،** فأَمكَنهم أن ينقذوا كثيرا مِن مآثِرها، واستفادَت **بجاية** مِن علماء **القلعة** و**صقلية** و**الأندلس** فَصارت أَعظم عاصِمة عَرفَها العالم الإِسلامي، تُضاهي عَواصِمَ الدُّنيا.

انهالَ على **بجاية** علماء **القلعة** و**صقلية** و**الأندلس،** وكانَت أَقوَى جاليةٍ بها مِن العلماءِ جالية الأندلس، الذين هاجَروا من بِلادهم إثر انحِلال الخِلافة الأموية، وظهور ملوك الطَّوائف.

استفادت **بجاية** مِن هذِه الهجرة، وازدهَرت بالعلومِ مِن كَثرةِ الواردينَ عليها مِن الفقهاءِ والمحدِّثين والأُدباءِ والفنَّانين والفَلاسِفة، وقابلَ ملوكُ بِجاية سَيلَ هذِه الهِجرة

(1) حديث ضعيف جدا. (ع)

بالعَطفِ على العلماء، فوَلّوهم أسمَى المراتب، وأمدُّوهم بكلِّ ما يحتاجُون إِليه مِن الضَّروريات، إذ كانَت ثَروة البِلاد تُساعِدُهم على ذلك.

تكوَّنت في **بِجاية** بِفَضل هؤلاء المهاجرين نهضةً عِلمية، امتَزجَت فيها العلومُ والآدابُ الأندلسيةِ بالعلومِ والآدابِ الإِفريقية، وكان **الجامعُ الأَعظمُ** الذي بَناه **المنصور** قُربَ **قَصرِ الُّلؤلؤة** هو ينبوعُ هذِه المعارف، كانت الرِّياسةُ إِذ ذاك في الميادين الثَّقافية والدِّينية للفقهاء، وكثيرٌ مِن المؤرِّخين يُرجِعُون ذلك إلى **المرابِطين**، فاتَّهموهُم بأَنَّهم [هم] الذين أيَّدوا الفقهاء، وأطلَقوا لهم حرِّيةَ التَّصرُّف، ويَستدلُّون على ذلك بأنَّ الملكَ **علي بن يوسف بن تاشفين** كان لا يَقطعُ أَمرا في جميع مملكتِه بدونِ استِشارة الفقهاء، بل عيَّن لجميع قُضاةِ مملكتِه مُستشارينَ لا يحكمون حكما إِلَّا بِمُوافَقتهم، والحقيقة أنَّ **المرابطين** أقرُّوا وَضعيةَ الفقهاءِ التي وَجدوهُم عليها في **قرطبة**، وقَد تعرَّضَ لها بِتفصيلٍ الإِمامُ **أبو بكر بن العربي** في كِتابه: (**العواصم من القواصم**)، حيثُ وصَف الفقهاءَ المذكُورين بقَوله: «صار التَّقليدُ دينَهم، والاقتداءُ بُغيتَهم، فكلَّما جاءَ أَحدهُم بعلمٍ حقَّروا أمرَه، ودَفعوا في صَدره، إلا أن يستَتِر عنهم بالمالكية، ويجعل ما عِندَهم مِن علومٍ على وَسمِ التَّبعية، فإِن جاءَهم بفائدةٍ في الدِّين، وطريقةٍ مِن أسلوبِ الصَّالحين، وسردَ لهم البراهين، وعرفوا جَوانبه، ونتَجوا عَجائبه، وعيَّبوا حقَّه استِكبارا وعتُوًّا...».

وكان الحاجب **المنصور بن أبي عامر** لما استبدَّ في **الأندلس** على الملك **هشام** بعدَ موتِ الخليفة **المستنصر الأموي** أخرجَ مِن خَزائنِه جميعَ الكتبِ المشبُوهة عندَ الفقهاءِ والتي أَفتى فقهاءُ **قرطبة** بإِحراقِها، وقَد وصفَ صورةَ ذلك القاضي **صاعد الأندلسي** في تأليفه الشَّهير (**طبقات الأمم**) وذكر أنَّ الدَّاعي إلى هذا التصرُّفِ الحقير للمنصور بن عامر هو تحبُّبه إلى عوامِّ الأندلس مِن جِهة، وإلى تَقبِيحه لمذهبِ الخليفة **الحكَم** عندهم ـ وكانت خزانة **الحكَم** التي جمعَها في عهدِه مِن أَعظمِ خزائن الدُّنيا ـ.

ولم يكن مفكِّرُو **الأندلس** كأَبي بكر بن العربي، أو عوامّهم الذين تقرَّب إليهم **المنصور** بإِحراقِ خِزانةِ الخلافة مُنفردين بالإِنكار على الفُقهاء، بل كانَت طبقة أُخرَى فيهم الأُدباءُ والمستَهترون الذين كان يشخِّصهُم الشَّاعر الزَّجال **أبو بكر بن قزمان** الأندلسي.

ذكَر الدكتور **عبد العزيز الأَهواني** في تأليفه القيِّم: **(الزَّجل في الأندلس)** الذي ترجَم فيه لـ : **ابن قزمان** صُورًا مِن مَعركة وحَملة **ابن قزمان** على فقهاءِ **قرطبة**، ومِن ذلك قوله: «إن الصُّورةَ الغالبة للفَقيه عند **ابنِ قزمان** أنَّه مُنافِق»، ويذكُر زَجلا طَويلا لا يَسعُ المقام لذِكره، ثمَّ يقول: «إنَّ **ابنَ قزمان** كان يشبِّه الفقيهَ في النِّفاق بِنَوع مِن الأَزهار **(الخيرى)**، ينكمِشُ في النَّهار ويتفتَّحُ في الَّليل، فسمَّاه: **(فقيه النوار)**، وفي ذلك يقول:

وفقيــه النــوار إنــما هــو الخــيرى بالنهار يوَّري وقارا وترى بيـع مـرى

وإذا كان الليل يمضي للكـاس جـرى ويصـيح يـا خـلاع بـاراك الله فـيكم

«وللَفقيه بعدَ هذا صِفة أُخرى عِند **ابنِ قزمان**، لمح إليها في (ديوانه)، وقَد عَرفناها أيضًا في بعضِ الأَمثالِ العامية الأَندلسية بعدَ أكثرَ مِن قرنَين، هي الجشَع واستِغلال النُّفوذ في الحصولِ على ما ليسَ له حقٌّ فيه، فابنُ قزمان في زَجلٍ له يُناجي فيه القَمح الجديد مطلعه:

القمــح الجديــد أنــا حبيبــك ليس يهن لي عـيش حتـى نصـيبك

يقول فيه: «أو عمه الفقى يمر في شأنك»، أمَّا الذي يفسِّر هذا النَّص، فَفي كتابِ **(الحدائق)** لابنِ عاصِم: «شرى فقيه طيب ورخيص وموصل للدَّار».

ثمَّ يذكُر **الأَهواني** ما يثبت نفورَ **ابن قزمان** وكَراهيته للفقهاء، أنه كان يسكُن في دارٍ بِضَواحي **قرطبة**، وقَد زيدَ عليه في قيمةِ الكراءِ فَتحمَّل هذه الزِّيادة رغمَ فَقره، لأنَّ

الحيَّ الذي يَسكُن فيه ليسَ فيه فقهاء ولا حجَّاج.

وكان اكريت دويرة من إنسان بربـاعي سـكَنت فيـه زمـان
ثـم قـال لي نريـد ثـلاث أثـمان ونريـد ولـو طلـب مثقـال
بـان فيـه حتـى أمـام السـرير وعقابـا ملـيح بجنـب البـير
وقصـيبة عليـة بابـا كبـير يكشف الفحص من ثلاث أميال
والـربض لا شـيوخ ولا حجـاج وأرامـل مـلاح بـلا أزواج

... الخ

وقَد قال أيضًا في الموضُوع في **عيد العصير** كان يحتفِل فيه **الإسبان** زَمن الخريف، وخرجَ **ابن قزمان** في رجالٍ ونِساءٍ ومعَهم آلات موسيقية يغنُّون ويرقُصون... قال:

في عصـير عمـول مفكرانـا الرقـاع ثـم والشـأن والغنـا

ثمَّ يقول:

عهـدي بـالقرى إذ كنـا خـلاف لا فقيه ولا حاجّ لمن كـان نخـاف
ونـروح ونغـدو فجوهـا نظـاف كـل يـوم تـزاه وفـرح جديـد

إلَّا أنَّ **ابن قزمان** ختمَ حياتَه إِمامًا ومؤذِّنا، ولعلَّه كان يجمعُ بين الخطَّتَين، وفي ذلك يقول **ابنُ قزمان** بعدَ تَوبته وفي نهاية حياتِه:

قد تاب ابن قزمان طُوبَال إنْ دام

قـد كانـت أيـام أعيـاد بالأيـام بعد الطبل والدفِّ وفتـل الأكـمام
إمام في مسجد صار يسجد ويركع مِن صـومعة الأذان يهـبط ويطلـع

وهذا نعدُّه انتصارا للفُقهاء، حيث إنهم لم يضِق بوُجودهِم قادة الفِكر فحَسب، بل

حتى المغنِّين والسُّكارى والإِباحيِّين، فإنَّهم كانوا يجِدونَهم عُرضةً في طريقهم، ويخشَون بأسَهم.

ولنرجع إلى الحديثِ عَن **بجاية** وحياتها الثَّقافية، فنَراها أنَّها هي التي آوَت **المهدي بن تومرت** عِند رجُوعه مِن المشرق في طريقه إلى المغرب، وبها اجتمعَ بتلميذه ووليِّ عهدِه **عبد المؤمن بن علي**، وبرباطِ **ملَّالة** كان يبثُّ أفكارَه، وفيه رسمَ خطَّته التي هزَّت العالم هزَّةً شبيهةً بِالهزَّة التي أَحدثَها **العُبيديُّون**، ومِن الصُّدَف أنَّ **بجاية** أيضا هي التي كانت مَسرحًا لهذه المعركة في الميدانَين الحربي والعقائدي، حيثُ إن فقهاءَ **بجاية** هم الذين انتصَروا لأوَّلِ فكرةٍ ثَورية بسببِ تأْييدهِم لبقايا المرابطين ـ **بني غانية** أصحاب جزيرة ميورقة ـ لما هاجَموا **بجاية**.

والذي يهمُّنا في بحثِنا وأرَدنا تَسجيلَه هو أنَّ هذا العهدَ لم يكُن امتِدادا للمعركة والثَّورةِ الفِكرية التي أَحدثَها **الموحِّدون**، ورَميهم فقهاء **المرابطين** بالكُفر والتَّجسيم فقط[1]، بل كان مبدأ معركةٍ في صفوفِ الفقهاء المرابطين أنفسهم، فقد انقَسموا إلى مجدِّدين ومحافِظين، أو إلى متقدِّمين ومتأخِّرين، والمرادُ بالمتقدِّمين هم أتباعُ طريقة **الفارابي**، والمتأخِّرين أو المجدِّدين هم أتباع طريقة **الفخر الرَّازي**، وبِفَضل هذِه المعركة التي أحدثَها الفقهاءُ المالكيُّون في صفُوفهِم، انقسَموا هذا الانقِسام، واستفادَ الفقهُ المالكي، وانتصَر المجدِّدون أو المتأخِّرون، كما كان يسمِّيهم **الغبريني** صاحب **(عنوان الدِّراية)**، فتطوَّر الفقهُ المالكي تطوُّرا أمكنَه أن يُسايِرَ الرَّكبَ الحضاري، وكان لفقهاءِ **بجاية** و**تلمسان** فضلٌ كبيرٌ في رَبح هذه المعركة، وهذا باعترافِ جلِّ العلماء الاختِصاصيِّين في بحوثِ هذِه المواضيع، كـ: **عبد الرحمن بن خلدون**، و**أحمد المقري**، كما

(1) كذا في المقال المنشور، ولعلَّ الصَّواب: «التي أحدثَها الموحِّدون، الذين رمَوا فقهاءَ المرابطين بالكفر ...»، والله أعلم. (ع)

سُنبيِّنه بِمَزيدٍ مِن التَّفصيل في **القسم الثاني** مِن هذه الدِّراسة.

إلى هنا ينتهي **القسم الأَول** مِن حديثنا عَن **مراكز الثَّقافة بالجزائر في عهدِها الأول،** عندَما كان التَّعليمُ مَسجِديا، ثمَّ ظهَرت المدرسةُ ابتداءً مِن القرنِ الخامسِ الهِجري، وتطوَّرت الثَّقافةُ في عَهدِها.

مراكز الثَّقافة وخزائن الكتُب بالجزائر عَبر التاريخ
نَشأتها، تطوُّرها، آثارُها[1]
(2)

المدارس بالجزائر:

عرَّفها المؤرِّخ الجزائري **أبو راس النَّاصري** (1165 ـ 1237هـ) في تأليفه: (**عجائب الأسفار**) فقال: «المدرسة المتعارفة عندنا الآن هي التي تُبنى لدراسة العلم، أي: لتعليمه وتعلُّمه، كـ: **مدرسة ابني الإمام** بتلمسان، و**القشَّاشيَّة** بالجزائر، و**المحمدية** بأمِّ عسكر... وإنَّ هذه المدارسَ لم تكُن مَعروفة في أوَّلِ الإسلام، وإنَّما كانت دِراسة القرآنِ وسائر العلومِ بالمساجد فقَط، أو بِمَواضع لا يطلِقون علَيها اسمَ المدرسة... كان ابتداء ظهور المدارسِ آخِر القَرنِ الرابع[2]، وأَوَّلُ مَن بنَى المدارسَ واقتدَى به الناسُ في ذلك **أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق**، الملقَّب: **نظام الملك**».

كما ذكر الدُّكتور **حسين أحمد** في (**مجلَّة الأستاذ**) التي تُصدِرُها **كلية التَّربية** بِجامعة بغداد، مَقالا عنوانه: (**المساجد الإسلامية وأثرها في نشر التعليم**)، المجلَّد: 12، سنة 1383 ـ 1384هـ/ 1963 ـ 1964م، قال فيها يخصُّ مَوضوعنا: «كانت المساجدُ الإِسلاميةُ هي مَعاهد التَّعليمِ الأولى في العُصور الإِسلامية، منذُ بدءِ الدَّعوةِ الشَّريفة حتى أَوائل

---

(1) **الأَصالة:** شوال ـ ذو القعدة 1392هـ/ نوفمبر ـ ديسمبر 1972م، السنة: 2، العدد: 11، ص: 85 ـ 107. (ع)

(2) **المدرسة النظامية** أنشِئت ببغداد سنة 457 هـ لتدريس الفقه الشَّافعي، وعلَّم فيها أبو حامد الغزالي من 484 إلى 488 هـ، وحظيت بعدَّة دراساتٍ بِمُختلف اللغات، وقَولُ **أَبي راس**: «آخر القرن الرابع »، غلطٌ مِن النَّاسخ، إذ كان محقِّقا.

القَرنِ الرابع الهِجري ظلَّت المساجد هي المعاهد الأولى والأَساسية التي تمدُّ المدارس الإِسلامية التي أُنشِئَت في القُرونِ الوُسطى، كـ: النظامية ببغداد...».

إنَّ أَوَّلَ مدرسةٍ بُنيت في الجزائر حَسبما يظهَر مِن قولِ المحقِّق **أبي راس الناصري** هي **مدرسة ابني الإمام** بتلمسان، بَناها لهما الملك **أبو حمو الزِّياني** الأوَّل المتوفَّى سنة 718هـ ـ وهو رابع ملُوكِ **بني زيان** ـ قال **ابن فرحون** في **(الدِّيباج)** عند تَرجمتِه لابنَي الإمام المذكورَين: «ولما استقلَّ **أَبو حمو** بِالحكمِ اختطَّ لهما المدرسَة، وابتنَى لهما دارَين على جانبِها، وجعلَ لهما التَّدريس فيها في إِيوانَين مُعدَّين لذلك، واختصَّهما بالفَتوى والشُّورى، فكانت لهما في دَولتِه قَدمٌ عالية».

هذانِ الأَخوان هما: **أبو زيد عبد الرَّحمن**، و**أبو موسى**، ولدا **محمد بن عبد الله بن الإمام**، كان أَبوهما إماما بـ: **جامع برشك ـ برشك**: مدينةٌ قديمةٌ اشتَهرت مِن جملة مُدنِ إِمارةِ مغراوة وبني زيري، وهي بينَ تنس وشَرشال، ومَوقِعُها حيثُ يوجَد ضَريح إِبراهيم الخوَّاص حاليا ـ قتِلَ أَبوهُما في أَواخِر القرنِ السَّابع، فارتَحلا إلى **تونس**، ثمَّ إلى المشرِق، وبعدَ رجُوعهما اتَّصلَ بهما الملكُ **أبو حمو** ـ لخبر يَطول ـ وبنَى لهما المدرسةَ التي ما زالَت مَنارةُ مَسجدِها قائِمة تَحمِلُ اسمَيهما **(جامع أولاد الإمام)**، بلغَ هذانِ العالمانِ شهرةً في العالمِ الإسلامي، إذ كان مِن جملة تَلامذتِهما المؤرِّخ **عبد الرَّحمن بن خلدون**، و**لسان الدِّين ابن الخطيب التلمساني**، وكلٌّ مِنهما تَرجمَهما تَرجمةً وافية، كما تخرَّج عليهما جلُّ علماءِ المغرب العَربي إِذ ذاك، ومِن جملة ما ذكِر في تَرجمتِهما أَنَّهما لما كانا في المشرقِ ناظرا الإِمامَ **تقيَّ الدِّين ابن تيمية** وظهَرا عليه «وكان ذلك سبب محنتِه»[1].

قال [**محمد بن عبد الله بن**] **عبد الجليل التنسي** في تأليفه: **(الدُّر والعقيان في دولة بني**

(1) ولم يعرف موضوع هذه المناظرة، إذ لم تذكره كتب التراجم المتداولة فيما نعلَم، وكلُّ ما ذكروه أنهما ناظرا **ابن تيمية** وظهرا عليه، وكان ذلك سبب محنته.

زيان)، عندَ تَرجمته للملكِ **أبي حمو الأول**، قال: «كان **أبو حمو** صاحب آثار جميلة، وسيرة حَسنة، محبًّا في العلمِ وأَهلِه، وردَ عليه بعدَ مَوتِ **يوسف بن يعقوب** (المريني) الفقيهانِ العالمانِ الجليلانِ **أبو زيد عبد الرحمن**، و**أبو موسى عيسى** ابنا الإمام، فقام بِحقِّهما، وأكرمَ مَثواهما، وبنَى لهما المدرسةَ التي تُسمَّى بهما، وكان يكثِر مجالستهما، والاقتِداء بهما».

المدرسة الثَّانية بتلمسان:

هي التي بنَاها الملك **أبو تاشفين** الأول ولد الملك **أبي حمو** السَّابق الذِّكر، وهذِه المدرسة هي التي اشتهَرت بـ : **(المدرسة التاشفينية)**، وبقيت قائمة إلى سنة 1873م، وبُني على أَنقاضِها **(المجلس البلدي)** بتلمسان الحالي، ذكر القِسُّ بارجيس[1] (BARGES) أنه شاهدَ هذِه المدرسةَ التي هدِّمت سنة 1873م، وكانَت رائِعة.

و**أبو تاشفين** هذا، هو مجدِّد منارة **الجامع الأعظم** المالكي بالجزائر، وما زالت قِطعةُ الرُّخامِ التي كتبت عليها أبياتٌ فيها تاريخ البناءِ محفوظةً على حائطِ المنارةِ المذكورة، مِن جملتها هذِه الأبيات ـ على لسانِ المنارة ـ :

أيُّ منارٍ حالُه في الحسنِ كَحالي

أَقـامَ أَمـيرُ المسـلمينَ تفافحـا ... كساني بهـا حسـنا وتمَّـم بنيـاني

وقابلني بـدر السَّـماء وقـال لي ... عليك سَلامي أيها القَمر الثاني

... الخ[2].

---

(1) كان بتلمسان، وكتب عنها كثيرا، منها كتابه: **(تلمسان العاصمة القديمة)** Tlemcen ancienne capitale، طبع بباريز سنة 1859م، و**(تاريخ بني زيان)**، ثم ملحق فيه فصول من **(الدر والعقيان)** للتنسي... الخ.

(2) في كتاب: **خطط مدينة الجزائر** (ص: 38) للفرنسي ديفولكس، ترجمة وتحقيق وتعليق:=

كما بنَى هذا الملك **(قصر الياقوتة)** عند حصاره لبجاية، وهو شبيهٌ بقصور بجاية الناصرية[1]، وما زال سكَّان بجاية يطلقون على بعض دورهم اسم **(الياقوتة)**، وموضع **قصر الياقوتة** الذي بناه الملك **أبو تاشفين** هو ما يسمَّى الآن بـ **(مدينة القصر)** التي تبعد عن **بجاية** بنحو: (20) كلم.

شاهد القسُّ **بارجيس** (ABBE BARGES) **المدرسة التاشفينية**، واحتفظَ بِبعضِ صوَرها، كما شاهدَ بقايا **مدرسة ابني الإمام**، وبقايا المسجد الملحق بها.

اختارَ **أبو تاشفين** لمدرسته العالم الشَّهير **أبا موسى عمران المشدالي البجائي** (صِهر العالم الذَّائع الصَّيت **ناصر الدِّين المشدالي**)، وتخرَّج عليه مِن هذه المدرسة كثيرٌ مِن علماء البلاد، منهم: **المقري الجد**، وكان **عمران المشدالي** هذا، هو الذي نشَر تعاليمَ صِهره التي سنَتحدَّثُ عنها في مَوضعِها.

قيل: إنَّ **عمران المشدالي** فرَّ مِن **بجاية** أثناء حِصار الملك **أبي تاشفين** لها، وسكَن **الجزائر**، ولما سمعَ به **أبو تاشفين** دَعاه إلى **تلمسان**، إذ كان الملوك يتَسابقون إلى اختيار العلماء.

قال **التنسي** في **(الدُّر والعقيان)**: «كان **أبو تاشفين** مُولعا بتشيِيد القصُور، فَخلَّد آثارا لم تكُن لمن قبلَه ولا لمن بعدَه ـ كـ: **دار الملك**، و**دار السُّرور**، و**الصهريج الأعظم** ـ وكانت عندَه شجرة مِن فِضَّة على أَغصانها جميعُ أصنافِ الطيور النَّاطقة، وأَعلاها

=مصطفى بن حموش، وبدر الدين بلقاضي: «تقافحا»، بدل لفظة: «تفافحا»، وقال المحقِّق: «هكذا جاءت في النص، ولا أفهم معناها، لكن ديفولكس يذكر أن ذلك يعني ثلاث كريات من النحاس ملونة باللون الأخضر، متراصَّة عموديا، تعلو المنارة». (ع)

(1) **قصر بجاية** الذي وصفه بتفصيل **ابن حمديس الصقلي**، واشتهرت قصيدته في تاريخ الأدب العربي هو (قصر اللؤلؤة).

صَقر، فإذا استَعمل المنافخ في أَصل الشَّجرة وبلغَ الرِّيحُ مَواضع الطُّيور، صوَّتت بِمَنطقِها المعلوم، فإذا وصلَ الرِّيحُ موضعَ الصَّقر صوَّتَ فأَقطعَ صوتَ تلك الطيور كلِّها... وأَحسن مِن هذا كلِّه بناء المدرسة الجليلة العديمة النَّظير، التي بناها بإِزاء **الجامع الأعظم**، ما تركَ شيئا مما اختصَّ به قَصره المشيد إلَّا وشيَّد مثله بها، شكر الله صنيعه... وفدَ عليه بتلمسان العالم **أبو موسى عمران المشدالي**، فأكرمَ نُزلَه، وأدام المبَرة له، وولَّاه التَّدريس بمدرستِه الجديدة» اهـ كلام **التنسي**.

وقال المؤرِّخ **عبد الرحمن بن خلدون** في ترجمة شيخِه **محمَّد المقري** ـ تلميذ **المدرسة التاشفينية** ـ قال: «... ثمَّ لزم الفقيه **عمران المشدالي** تلميذ **أبي علي ناصر الدِّين** وتفقَّه عليه، وبرز في العلومِ إلى حيثُ لم تُلحَق غايتُه، وبنَى السلطانُ **أبو تاشفين** مدرستَه بتلمسان، فقدَّمه للتَّدريس بها، يُضاهي به أولادَ الإمام» اه.

المدرسة الثالثة بتلمسان:

هي مدرسة العبَّاد، أسَّسها الملك **أبو الحسن المريني** قرب **مسجد الشيخ أبي مَدين**، وقد درَّس بهذه المدرسة **ابن [مرزوق] الخطيب** (الجد)[1]، إذ كان أفراد أسرته يتوارثون إمامة **جامع العبَّاد** ـ ولهذا عُرف بـ: **الخطيب** ـ كما درَّس فيها حفيده الحافظ **ابن مرزوق الحفيد**، وأستاذه **عبد الرحمن بن خلدون** الذي كان ينوي الإقامةَ بها والانقطاع لخدمة العلم بعدَ خروجِه مِن سجنِ الملك **أبي عنان**، وما زالت المدرسة تحتفظُ بآثار الملك **أبي الحسن**، منها أبيات شعر مكتوبة على قبَّة المسجدِ الخاصِّ بها، الذي اتُّخذ كتَّابا لتعليم الصِّبيان، وهي هذه:

---

(1) ابن مرزوق الخطيب المعروف بالجد، هو صاحب كتاب (**المسند الصَّحيح الحسن في التعريف بالملك مولانا أبي الحسن**)، يقصد المريني، وتوجد منه مخطوطة بخزانة الإِسكوريال، وهو المتوفى بمصر، وقد ترجمه لسان الدين بن الخطيب في (**الإحاطة**)، وابن خلدون.

الحمد لله ربِّ العالمين.

بنــاني كــي يقــيم لــديَّ دينــا	الإســلام (؟) أمــير المومنيــا
أبــو الحســن الــذي فيــه المزايــا	تفــوق الــنَّظم بالــدرِّ الثمينــا
إمــام لا يعــبِّرُ عنــه وَصــف	بــما أجـرى بــه الأَعــمال دينــا
ســليل أبي ســعيد ذي المعــالي	أقــرَّ إلى الأنــام بــه عُيونــا
وقَــد ســمَّاه خالقُــه علِيّــا	فــأعلاه وأعطــاه يقينــا
أبــانَ بصــالحاتٍ منــه دينــا	وإيمانــا يكــون لــه مُعينــا
لشــهر ربيــع الثــاني لسَــبع	خلَــون مِــن السِّــنين وأربعينــا
إلى ســبع مئــين بــدار ســعد	محولــه مناصــده فنونــا
وكــان لــه الإلــه عــلى اتِّصــال	عــلى مَرضــاته دأبــا مُعينــا

ويوجدُ بالمسجد الجامع بالعبَّاد قِطعة رخامٍ كُتب فيها جميع ما حبَّسه الملك **أبو الحسن** على المسجدِ الجامع والمدرسة والزَّاوية ـ ولم نَدر هل الزاوية كانت مَوجودة أو بناها الملك، والحقيقة أنَّ الملكَ جدَّد الزاوية والجامع.

يقول المحبِّس فيما يخصُّ **المدرسة** و**الزاوية**: «أمَر ببناءِ هذا **الجامع** المبارك مع **المدرسة** المتَّصِلة بغربيِّه مولانا السُّلطان... وحبَّس **المدرسة** المذكورة على طلبةِ العلمِ الشَّريف وتَدريسه»، وبعدَ أن يذكُر كلَّ ما حبَّسه، يختمُ ذلك بقوله: «... بِرَسمِ إطعامِ الطعامِ بزاوية العبَّاد (عمَّره الله) للفُقراء والحجَّاج والمقيمين والواردين عليها... الخ»، وبقايا **زاوية العبَّاد** هي مسكن الوكيل حاليا.

المدرسة الرابعة بتلمسان:

هي **مدرسة الشَّيخ الحلوي**، بناها الملك **أبو عنان فارس** المريني لما خلَف والدَه **أبا الحسن**، وقد وُجِدت كتابة تخصُّ المسجِد، منها ما كُتب على كلٍّ مِن السَّاريتَين الَّلتَين

رُفعَ عليهما المحراب، الأولى كتب عليها: «جامع ضَريح الشَّيخ الولي الرَّضي الحلوي (رحمة الله عليه)»، والثانية كتب عليها: «أمر ببناءِ هذا الجامع المبارك عبد الله المتوكِّل على الله **فارس** أمير المؤمنين»، وتوجَد كتابة ثالثة فيها كلمات ممحوَّة، وقَد بنى **أبو عنان** زاويةً ومدرسةً قُربَ المسجدِ **الجامع**، ولم يُعثَر لهما على أثر، وكلُّ ما عُثر عليه هو وصفٌ للزاوية سجَّله الأديب الشَّهير **أبو عبد الله محمد بن جزي الأندلسي** (كاتب **أبي عنان** الخاصّ)، قال في وصفها:

هــذا محــلُّ الفضــلِ والإيثــار ... والرِّفــقِ بالســكَّانِ والــزُّوارِ
دارٌ على الإِحسانِ شِيدت والتُّقى ... فجزاؤها الحسنى وعقبى الدارِ
هــي ملجــأٌ للــواردين ومَــورد ... لابنِ السَّبيلِ وكلِّ ركب ساري
آثــار مَولانــا الخليفــة **فــارس** ... أَكــرِم بهــا في المجــدِ مِــن آثــارِ
بُنيت على يدِ عَبدهِم وخَديم بـا ... بِهِــم العــلي محمــد بــن حــدارِ
في عام أربعة وخمسين انقضَت ... مِن بعد سبع مئين في الأعصار

(754 هـ)

و**ابن جزي** هذا هو الذي حرَّر (**رحلة ابن بطوطة**) المشهورة في بلاط الملك **أبي عنان**، وقَد غادر **غرناطة** لِضَيمٍ أدركَه بها، وقَد اشتَهرت الأبياتُ التي نظمَها عندَ تَوديعِه **غرناطة**، وصارَت مَضرب الأَمثال، قال:

وإني لَمِــن قَــومٍ يهــونُ علــيهمُ ... ورودُ المنايــا في سَــبيلِ المكــارم
يطيرون مَهما ازورَّ للدَّهرِ جانبٌ ... بأَجنحــةٍ مِــن ماضــياتِ العــزائم
وما كلُّ نفسٍ تحمل الذُّلَّ إِنَّني ... رأَيــتُ الــذلَّ شــأنَ البَهــائم
إِذا أَنـا لم أَظفَر بـ (**زادِ مسـافِر**) ... لــدَيكم فَعِنــدي (**تُحفــة قــادم**)

ورَّى بكتاب: (**زاد المسافر وغُرَّة مُحيَّا الأدب السَّافر**) لـ: **أبي بحر صفوان التُّجيبي المرسي**، الذي حقَّقه ونشره الأستاذ **عبد القادر محداد التلمساني**، و(**تحفة القادم**) هو مِن أشهر تآليف **ابن الأبار القضاعي الأندلسي**.

واندثارُ هذِه المدرسة والزاوية[1] كان لا محالةَ في العهدِ التُّركي، إذ عدَّ الرَّحالة الشَّهير **الوزَّان الفاسي** المشهور بـ: **ليون الإفريقي** (Leon L'africain) أنه وَجدَ بتلمسان خمس مَدارس عِندما زارها في أوائل القرنِ العاشر الهِجري.

هذا، وإن فقَدت **تلمسان مدرسة أبي عنان** فإنَّ التاريخَ احتفَظ لنا بـ: **مدرسة أبي عنان** بـ: **فاس**، التي ما زالت تبهر سُوَّاحَ العالم مِن الفنَّانين والأثريِّين والمؤرِّخين، حتى إنَّ كثيرا مِن المهندسين المعماريِّين المتخرِّجين مِن أَرقى المعاهد العالمية يشدُّون إليها الرِّحال سنَوياً، وقد كان مِن الصُّدف أنَّ الملك **أبا عنان** عيَّن لمدرستِه العنانية ـ ما زالت مشهورة بهذا الاسم ـ هذِه، قاضي حضرته بتلمسان العلَّامة الشيخ **محمد المقري التلمساني** قبل أن تتوتَّر العلائق بينَهما، وذلك أنه صرَّح بأنَّ النِّظام الملكي يخالفُ تعاليمَ الإِسلامِ التي تحبِّذ الشُّورى كما يدلُّ عليه عملُ الصحابةِ في عهدِ الخلفاءِ الرَّاشدين الذين تولَّوا انتِخابهم تِلقائيا، كما استدلَّ على أَنَّ مصائبَ المسلمين جاءتهم مِن النِّظام الملكي ـ وقد وافقَه تلميذه **عبد الرحمن ابن خلدون** على تسرُّب التَّدهور للمسلمين في ذلك العهد ـ أي: منتصف القرن الثامن ـ وأرجعَ **ابنُ خلدون** ذلك إلى أسبابٍ أُخرى

---

(1) إن الزاوية التي ظهرت في عهد ملوك بني مرين كانت كما وصفها **ابن جزي**: «ملجأ للواردين، ومورد لابن السبيل»، وهو نفس ما ذكره والد الملك أبي عنان في تحبيسه على زاوية العباد، حيث قال: «برسم إطعام الطعام بزاوية العباد عمرها الله للفقراء والحجاج والواردين عليها»، ثم نجدها بعد القرن العاشر استحالت الزاوية إلى مركز للطرق الصُّوفية يذكرون فيها أورادهم، ثمَّ اتخذوها للدِّراسة، وسنتحدَّث عنها في القسم الأخير من هذه الدراسة.

ذكَرها في (**تاريخه**)، وكان لـ: **محمد المقري** هذا مواقِف، وهو مِن **مقرة**[1] (قرية ما زالت محتفظة باسمِها قرب مدينة **بريكة** بالزاب)، وجاء أحدُ أجدادِه مع الشَّيخ **أبي مدين**، وأسَّسوا أعظمَ شركة تجارية لها نظام وجُند تَعجز عنها الدُّول، وقد خصَّه تلميذٌ مِن تلامذتِه (**ابن مرزوق**) بتأليف سمَّاه: (**النور البدري في التعريف بالفقيه المقري**)، كما أخذَ عن **المقري** هذا إمام القراءات الشَّهير **أبو القاسم الشاطبي الأندلسي**[2]، و**لسان الدين بن الخطيب**، وما زال بعضُ أفرادِ هذه الأُسرة بالمغرب وبِجبال **زواوة**.

المدرسة الخامسة بتلمسان[3]:

هي التي بناها الملك **أبو حمو موسى الثاني** (سادس ملوك بني زيان)، وبنى لها مَسجدا على العادة المتَّبعة إذ ذاك، وكانت المساجدُ الملحقة بالمدارس خاصَّة بالأساتذة وتلاميذ المدرسة، وسماها: (**اليعقوبية**)، تخليدا لاسمِ والده **أبي يعقوب**، ولم يبقَ منها اليوم إلا مسجدها المشهور الآن بـ(**جامع سيدي إبراهيم**)، بنيت هذه المدرسة سنة

---

(1) وقع الخلاف في ضبط كلمة المقري فيهم مَن يقرؤها المقَّري بتشديد القاف وفتحها، ومنهم مَن ينطقُ به بسكون القاف، ونطقُ العلامة الحافظ **ابن مرزوق** بسكون القاف في كتابه الخاص بترجمته دليلٌ على ترجيح السكون، ثم إن السكَّان أنفسهم مازالوا لم يغيِّروا النُّطق بسكونها، وهي من المدن القديمة التي كانت قبل الإسلام، واسمها قديمٌ لم يتغيَّر كثيرا.

(2) كذا قال، وأبو القاسم متقدِّم جدًّا، لم يُدركه محمد المقري، بل قد مات قبل ولادتِه بدَهرٍ طويلٍ جدًّا، وكان مُعاصِرا لجدِّ المقري الأكبر الذي استوطنَ بعض ضواحي تلمسان. (من إفادات الأخ الصديق **الفاضل عمر عشاب**). (ع)

(3) أظن أنه لم يوجد بتلمسان إلا هذه المدارس الخمس إلى العهد التركي إذ ذكر الرحالة الوزان الفاسي المشهور بـ: (Leon L'africain) إنه لما زار تلمسان حوالي 920هـ وجد فيها المدارس المذكورة وهي على غاية من الزخرفة والأبهة، رحلة الوزان المذكور (ج 2، ص: 333).

On compte également cinq beaux collèges, très bien construits et ornés de mosaïques et d´autre ouvrages d'art.

765هـ بعد خروج المرينيِّين، وكان **أبو حمو** هذا عالما أديبا، تربَّى ونشأ في **الأندلس**، وهو الذي أرسل إليه **عبد الرحمن بن خلدون** أخاه **يحيى** كاتبا ببلاطه، وفي قصره ألَّف كتابه المشهور: (**بغية الرواد، في ذكر ملوك بني عبد الواد**)، وفي الحقيقة كان هذا التأليف خاصًّا بمآثر الملك **أبي حمو**.

اتَّخذ **أبو حمو** بعد انتهائِه مِن بناءِ المسجدِ والمدرسة مَقبرةً دفنَ فيها أباه، ثمَّ عمَّيه ـ أبوه كان مجاهدا مَشهورا بالعلمِ والصَّلاح، وتوفي بالجزائر، وعمَّاه دفِنا بالعبَّاد ـ ثمَّ بقية أفرادِ الأُسرةِ المالِكة، ولما توفي العلَّامة الشيخ **إبراهيم المصمودي** حوالي سنة 805هـ دفَنوه بهذه المقبرة، إلا أنَّ اسمَه معَ طول الزَّمانِ تغلَّب على اسمِ والدِ الملك، والملك نفسه، حيثُ دُفن **أبو حمو** بتلك المقبرة، وصارَ يعرف بـ(**مسجد سيدي إبراهيم**).

اندثَرت هذه المدرسة كغَيرها، وكان **أبو حمو** اختار لها العلامة الشيخ **أبا عبد الله الشريف** (دفين تلمسان)، ترجمَ **ابن فرحون** في (**الديباج**) لـ: **أبي عبد الله الشَّريف** هذا، فقال عنه: «علَّامة تلمسان، بل إمام المغرب قاطبة»، وترجَمه الحافظ **ابن مرزوق الحفيد**، فقال: «شيخ شيوخنا، أعلم أهل عصره بإجماع»، وترجمه تلميذه **عبد الرحمن بن خلدون**، فقال: «أنه تعلم بتلمسان فاختصَّ بأولاد الإمام، ثم لزم شيخنا الآبلي، وتضلَّع مِن معارفه واستَبحر، وتفجَّرت ينابيع العلوم من مَداركه، ثمَّ رحل إلى **تونس** سنة 40 ـ أي: وسبعمائة ـ فلقي شيخنا **ابن عبد السلام** وأفاد منه واستعظم رتبتَه في العلم، وكان **ابن عبد السلام** يُصغي إليه ويؤثرُ محلَّه، حتى زعموا أنه كان يخلو به في بيته، فيقرأ عليه ـ أي: على تلميذه **أبي عبد الله التلمساني** ـ فصل التصوُّف من (**إشارات**) **ابن سينا**، لأن **الشَّريف** قد أحكمَ الكتاب على **الآبلي**، ومن (**تلاخيص أرسطو**) لابن رشد، ومن الحساب والهندسة والهيئة، وله اليد الطولى في الخِلافيات». ثمَّ ذكر **ابن**

خلدون أنه لما رجعَ إلى **تلمسان** ملأَ المغرب معارفَ وتلاميذ، وتعرَّض لما لاقاه من محن في عهد المرينيِّين، ويختم ترجمته بقوله: «إنه لما استرجع الملك **أبو حمو الثاني** المذكور مملكته استدعى **الشَّريف** وتلقَّاه براحتَيه وأصهر له في بنته فزوَّجها له، وبنى له مدرسته، فقام يدرِّس حتى هلك سنة إحدى وسبعين[1]، وكان مولده على ما أخبرني عام عشرة» ـ أي: وسبعمائة ـ اهـ كلام **ابن خلدون**.

وهؤلاء العلماء المذكورونَ الذين عيِّنوا بمدارس **تلمسان**، كـ: ابني الإمام و**عمران المشدالي**، وتلميذه **محمد المقري**، و**أبو عبد الله الشريف**، هم الذين شادوا وقادوا الحركة الفكريةَ أَو (**الثورة الثقافية**) التي كان الفضلُ فيها لـ: **ناصر الدين المشدالي البجائي** وتلميذه **عمران المشدالي** مدير المدرسة التاشفينية، كما سنذكُره في مَوضعِه بعد، كما أنَّ ملوكَ بني مَرين وبني زيان المذكورينَ مؤسِّسو هذه المدارس، الذين كانوا كلُّهم ينتمون إلى الدَّولة الموحِّدية قبل انحِلالها وتفكُّكها كان كلٌّ منهم يرَى أنه الأحقّ بوراثة تعاليم **المهدي بن تومرت**، وكانت فكرة الوطنية الضَّيِّقة لم يسرِ مَفعولُها بعد، والدَّليل على ذلك أن **المهدي بن تومرت** مؤسِّس الدَّولة وصاحب الفِكرة لما بُويع في وطنِه ونَصره أَهلُ عَشيرتِه قدَّم تِلميذَيه الجزائريَين المنفَردَين لأَرقَى المناصب، قدَّم **عبد المؤمن بن علي الكومي** لولاية العهد والخلافة، و**أبا محمد البشير الونشريسي**[2] لقيادة الجيش، ولم يُعارِضه في ذلك أهلُ عَشيرته، كما أن **بني حفص** السُّوسيِّين تَوارثوا مملكةَ **تونس** ثلاثة

---

(1) وقد دفن **أبو عبد الله الشَّريف** بروضة بني زيان هذه، وكان **إبراهيم المصمودي** الذي اشتهر به المسجد والمدرسة من تلامذته المتخرِّجين عنه، كما دفن الملك **أبو حمو** مؤسِّس المدرسة وكثيرٌ مِن أفراد أسرته بها، وعثِر على قبورهم بعد نبشها إثر الاحتلال الفرنسي.

(2) **أبو محمد** هذا، كان مِن رفقاء **المهدي ابن تومرت** وعبد المؤمن، رافقهما عندما مرَّ بجبل ونشريس عند رجوعهما مِن المشرق، وقد مات في عهد **المهدي ابن تومرت** في معركة مشهورة مع المرابطين بالمغرب.

قرون، فلم يتعرَّض لهم أي أحد، مع أنَّهم غرباء على البلاد، ولهذا ينبغي لنا أن لا نحكمَ على أحداثِ ذلك العهد بمَناظر زَماننا هذا، وبهذا يتبيَّن لنا أنَّ القبائل الجزائرية والإمارات التي انتصَرت للمرينيِّين أو للمرابطين قَبلهم، والمغاربة الذين انتصروا لـ: **بلقين بن زيري** وللزيانيِّين أو لبني حفص لم يكونوا خوَنة كما أراد وَصمهم بذلك كثيرٌ مِن الكتَّاب الذين كانوا المرَّة بعد المرَّة يقُودون السُّواحَ لآثار المنصورة، ويصحَبون معهم بعضَ تلامذة المدارس الجزائريِّين ليُظهروا لهم أنَّ الوِحدةَ الإِسلاميةَ مِن الأَساطيرِ والخيال، وقَد حضرتُ مرَّة سنة 1935م عندَما انعقد **مؤتمر طلبة شمال إفريقية** بتلمسان، وأقامَ شيخ بلديتها (VALEUR) مأدبة شاي بالمجلسِ البلَدي صرَّح مِن دون حياءٍ ولا خَجل للمؤتمرين: «إِنكم تَزعمون أنَّ البلاد الإسلامية عامة، وإفريقية الشَّمالية خاصة، كانت مُوحَّدة وفرَّقها الاستعمار، وحال بينكم بأسوار... فإن (**برنامج تفسُّحاتكم**) يشمل زيارة آثار **المنصورة**، فعندَما تصِلون هناك راجِعوا ما تفوَّه به رئيس جلستِكم» ـ وكان إذ ذاك المرحوم **علالة بلهوان** ـ وغادَر الجلسةَ يَستشيطُ غَضبا مِن كلماتِ المرحومِ **بلهوان**.

ولنرجع إلى الحديثِ عَن هؤلاء الملوك ـ أي: مؤسِّسي مدارس تلمسان ـ فنجِد معظمُهم مِن أكابر علماء أزمنتهِم، كانوا يشارِكون في المناظراتِ العِلمية، وينسخون الكتبَ ويؤلِّفونَها، وكانوا كذلك يعرِفون كيف يحيون وكيف يموتون، كان الملك **أبو تاشفين الأول**[1] مؤسِّس **المدرسة التاشفينية** لما حُوصرت **تلمسان** ودخَلها الملك **أبو**

(1) وقد ذكر الرحالة الوزان رواية أن سكان تلمسان لما ضاقوا ذرعا بالحصار ذهبوا إلى الملك أبي تاشفين وشكوا له حالهم، فوجدوا على مائدته طعاما مشتملا على حب الشعير وبعض الحشائش، وكان أسوأ من طعامهم، فعندئذ عزم على الخروج هو وأفراد أسرته للقاء العدو المحاصر والاستشهاد، فكان موقفه من المواقف التي أحيا بها صورة رائعة للفداء.

الحسن المريني، وكان المؤرِّخ **ابن خلدون** قريب عهدٍ بذلك، قال عَن موقفِ الملك **أبي تاشفين** وأَقاربِه: «فمانَعوا دونَ القَصر ـ أي: قصر المشور الحالي ـ مُستَميتين إِلى أَن استلحَموا ورفعت رؤُوسهم على عِصيِّ الرِّماح، فَطيفَ بهم، وغصَّت سِكك البلدِ مِن خارجِها وداخِلها بالعساكر، واكتضَّت أَبوابها بالزِّحام... وتَراكمت أشلاؤُهم ما بينَ البابَينِ حتى ضاقَ المذهب... وانطلقَت الأَيدي على المنازل انتِهابا واكتِساحا، وخلص السُّلطان إلى **المسجد الجامع**، واستدعَى رؤساءَ الفُتيا والشُّورى: **أبا زيد عبد الرحمن**، **وأبا موسى عيسى** (ابني الإمام)، قدَّمهما من أعماله لمكانِ مُعتقدِه في أهلِ العلم، فحَضروه ورَفعوا إليه أَمرَ الناسِ وما نالَهم مِن مَعرَّة العَسكر، ووعَظوه فأَنابَ ونادى برَفع الأَيدي عَن ذلك، فسكَن الاِضطِراب».

ونَستدلُّ مما ذكر أَيضا عَلى أنَّ العلماءَ، كـ : ابني الإمامِ المذكورَين، كانوا بِفَضلِ حُسنِ سلُوكهِم ونَزاهتِهم ونفُوذهِم الأَدبي لدَى الرأيِ العام محلَّ احترامٍ وتَقدير عندَ مختلفِ الملوكِ الذين تَداولوا علَى البلادِ رغمَ الخِلافاتِ والخصومات.

ولنرجع إلى الحديث عَن بقيَّة المدارس، فنَجِد **مدرسة القشَّاش** التي اشتهَرت بالجزائر، وذكَرها **أبو راس** في (**عجائب الأسفار**)، إذ شاهدَها بالعاصمة عندَما زارها لأوَّل مرَّة في طريق رِحلتِه إلى الحجِّ سنةَ 1204هـ، اندثَرت هذه المدرسةُ ولم يبقَ عند الاحتِلال الفرنسي منها إلَّا مَسجدها الذي كان في نهج القناصل، ذكر المؤرِّخ **دفولكس** (DEVOULX) [1] في تأليفه القيِّم (**المعاهد الدِّينية بالجزائر**) Les Edifices religieux

---

(1) كان **دوفو** هذا محافظا لوثائق الأملاك إثر الاحتلال، فاطلع على وثائق الأحباس ونشرها في (**المجلة الإفريقية**) التي كانت تصدر بالجزائر، ثم خصَّها بكتاب مستقل سماه: (**المعاهد الدينية**)، وهو مِن أهم الكتب في موضوعه، إذ فيه إحصائيات لجميع المساجد والزوايا والمعاهد التي كانت بالعاصمة إثر الاحتلال.

أنه عثَر على عَقدِ حبسٍ مؤرَّخ في أَواخر القرنِ العاشر الهِجري، يذكُر أحباسَ **زاوية القشاش**، وقد اطَّلعتُ على مصحفٍ محبَّسٍ على طلبةِ القرآن السَّاكنين بزاوية القشَّاش، وتاريخ تحبيسه سنة 1156هـ .

كما كانت بالجزائر (**مدرسة أبي عنان**) أو (**المدرسة العنانية**)، وهي التي هدِّمت وبني على أنقاضِها **الجامع الجديد الحنفي**، وذلك حَوالي سنة 1070هـ/ 1660م.

والمدرسة الثالثة بالجزائر هي **مدرسة الجامع الأعظم المالكي**، وكانت تَشتمِل على مَسجدٍ صَغير مِن دونِ مَنارة، وزاوية خاصَّة بالعلماءِ الفقراء، هي تَشتمل على طابِقَين، بُنيت أَو جدِّدت حَوالي سنة تسع وثلاثين وألف 1039هـ، مِن ريع أَحباسِ **الجامع الأعظم** في عَهدِ المفتي الشيخ **سعيد قدُّورة**، عثر **دفولكس** على وثيقتَي حَبس: **واحدة** تَذكُر أنَّ **مامي رايس**[1] القايد البحري ورفقاءَه أَهدوا للمفتي المذكور أَسيرا مَسيحيًّا ليَبيعه ويشتري بثَمنِه محلاًّ يحبَّس على **المدرسة** المقابلة للمسجِد.

و**الثانية** فيها تاريخ بناء أَو تجديد هذه المدرسة ولواحقِها، وقَد اطَّلعتُ على الوثيقة الثانية بخطِّ المرحومِ الشَّيخ **حميدة العمالي** العلَّامة الشَّهير (1227 ـ 1290هـ)، يقول فيها: «هذِه صورة رسمٍ يتضمَّن ما حبَّسه شيخ الجماعة، خاتمة المحقِّقين، سيدي **سعيد قدُّورة** لما فضل مِن ريع أَوقافِ **الجامع الأعظم** نقلته هنا تبرُّكا به واعتبارا ...»، وبعد ما يذكُر أن جميع ما يأتي ذكره مِن شِراء كتُب وأَملاكٍ وإقامةِ بناء بعضِ الأماكن إنَّما ذلك كله مِن الفاضلِ بِيَده مِن خَراج أَوقافِ الجامع المذكور، يقول: «... فمِن ذلك بناء دار الوضُوء

(1) إنَّ أحباس الجزائر التي تضخمت في العهد التركي حتى صارت تفوق أعظم العواصم الإسلامية كانت بسبب الغنائم التي يخصها بها البحارة فكانوا كلما غنموا إلا وأسهموا للمساجد وسبل الخيرات وبقية المؤسسات حتى كان الطب والتعليم بجميع مراحله وإيواء الفقراء وعابري السبيل والمهاجرين ينفق عليهم من ريع الأحباس.

المسامية للجامع المذكور، والمسجد الراكب عليها، والمدرسة، وإنشاء علوي بإزائها لسُكنى إمام المسجد المذكور... ما قدر الجميع بالإِضافة خمسة عشر ألف دينار... الخ»، وتاريخ الوثيقة 1052هـ.

وكانت هناك مدارس أُخرى لا يتَّسِع المقام لذِكرها كلِّها، كما كانت مدارس بـ: **قسنطينة** و**بجاية** و**أمِّ عسكر** و**مازونة** و**وهران**، ذكر **أبو راس** **المدرسة المحمدية** بأمِّ عسكر التي اشتهَرت في عهدِه، وهذه المدرسة هي التي أنشأَها الباي **محمد بن عثمان الكبير** (فاتح وهران سنة 1206هـ)، فإنه بنَى المدرسةَ والمسجد، وقد وصفَ المدرسةَ والمسجدَ كثيرٌ مِن الشُّعراء، منهم **أبو العباس أحمد المقري القرُّومي**[1] (قرومة: قرية تابعة للأخضرية (PALESTRO) ـ السَّابقة ـ ولاية تيزي وزو كانت دار علم)، قال مِن قصيدة طويلة:

عجَبا له مِن مسجدٍ في الأرضِ قد	حـاكَى السـماءَ تَطـاولًا في المفخـرِ
وتَـرى المـدرِّسَ قـد عـلا كُرسـيَّه	يلقي عـلى العلـماء حـبَّ الجـوهرِ
تَحويـه (**مدرسـة**) غـدَت آثارُهـا	تحييـه بـالعلمِ النفـيسِ الأَشـعري
تمحي رسـومَ الجهـلِ مِـن أَلواحِـه	تحمي شـمائِله مِـن الـزُّور الـرَّدي
بنـاه الأمـيرُ محمـد في الغَـرب قَـد	لاحَـت آثـارُه كالصَّـباح المسـفرِ

(1) أحمد المقري هذا مِن أسرة المقري التلمساني التي سكنت بقرومة، وقد عرف هذا الفرع بسكان زواوة، كما ذكر الشيخ ابن شنب في (**فهرس المخطوطات بالجامع الكبير بالجزائر**)، وقد غلط إذ حسب أن صاحب المخطوط المقري الجد المذكور في هذه المحاضرة، والحقيقة أن صاحب التأليف الذي ذكره ابن شنب ونسبه إلى زواوة (**قرُّومة**) من أهل القرن الحادي عشر.

ملاحظة: وقَفنا على تعليقٍ بهذا الموضع على النسخة المنشورة في **مجلة الأصالة**، وهو بخطِّ الشيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، وهذا نصُّه: «بقيت هذه القرية دار علمٍ إلى عَهدِنا هذا، وهي في منطقة الأخضرية، وكان أفراد الأسرة متَّصِلين بأسرة سيدي علي مبارك ـ دفين القليعة ـ الجزائر». (ع)

وقَد كان إتمام هذه المدرسة سنة 1196هـ، وقد عيَّن البايُ أعظمَ عالمٍ مديرا لها، وهو الشيخ **محمد بن عبد الله الجلَّالي**، الذي اشتَهر بتَنظيمِ رِباط **وهران** ورياستِه، ذلك الرِّباط الذي استعانَ به الباي **محمد بن عثمان** على طردِ الإِسبانِ مِن **وهران**.

لم يبقَ مِن هذه المدرسة إلَّا المسجد المعروف الآن بـ : **مسجد حسن**، وبـ : **مسجد المبايعة**، حيث وقعَت فيه البيعة الثانية للأمير عبد القادر سنة 1248هـ، كما بنَى الباي المذكور مدرسةً بوهران بعدَ فتحِها ولم يبقَ منها الآن إلا مسجدها الصغير وضَريح الباي الفاتح مؤسِّسهما، وهو المشهور الآن بـ : **جامع الباي**، بالرَّبض القديم (ربض خنق النطاح).

وما دُمنا نتحدَّث عَن هذا الباي الفاتح نُلحق بهاتَين المدرستَين: **مدرسة مازونة** التي هي مِن مآثره، وخلَّد فيها صفحةً مِن صفحاتِ الجهاد، **إذ وهران** كما هو معلومٌ بقيت تحتَ حكمِ **الإسبان** ما يقرُب مِن ثلاثة قرون ـ أي: مِن سنة 914هـ إلى سنة 1206هـ ـ الَّلهمَّ إلَّا في فترةٍ قصيرة استَرجعَها المسلمون في عهدِ **باكداش** (باشا الجزائر) مِن سنة 1119 إلى [سنة] 1144هـ.

أسَّس الباي **محمد بن عثمان مدرسةَ مازونة** جزاءً لرئيس **معهد مازونة** الشيخ **محمد بن علي أبو طالب** الذي شاركَ في حرب وهران سنة 1206 على رأسِ مائتَي طالب مِن تلاميذ المعهد وابنَيه اللذَين استشهدَ أحدهما، وهو السَّيد **هني**، في الحرب المذكورة، كان **أبو طالب** لما التحقَ بجيشٍ ورباطِ وهران يَربو عمره على الثَّمانين سنة، وقد ضربَ الفقيهُ المذكور المثلَ لبقية الفقهاءِ الذين التحقُوا بالرِّباط، حيث ذهبَ ماشيًا مِن **مازونة** إلى **معسكر**، ثمَّ منها إلى **وهران**، ورفضَ الرُّكوبَ على الدَّابة الوحيدة التي كانت عندهم، وتركَها للمرضى والعاجزين عَن المشي، بنى البايُ هذه المدرسةَ وحبَّس عليها أحباسا هامَّة وكتبا، ما زالت المدرسة تحتفظُ بجزء مِن (**صحيح مسلم**) عليه نصُّ التَّحبيس بخطِّ

والدِ الباي المذكور **عثمان**، اشتهَرت **مدرسة مازونة** في عهدِها الأخير بأنها تخصَّصت لدراسة الفِقه المالكي، وكان يقصِدها عِلاوةً على طلبة البلاد، طلبة المغرب الذين كانت شهادة **مدرسة مازونة** معتبرة عِندهم، وبقي هذا الاعتبارُ ساري المفعول حتى في عهدِ الحماية، حيث كانت السُّلطاتُ المغربية تعيِّن المجازين مِن **مازونة**[1] في وظائف العدالة والقضاء، إلى أن توقَّفت الدِّراسة بها أو لفظَت أنفاسَها سنة 1940.

و**مازونة** وإن كانت دار علم واشتَهرت بمعاهدها العلمية التي تخرَّج منها فطاحل العلماء، كـ : الحافظ **الرماصي**، و**أبي راس الناصري**، و**محمد بن علي السنوسي** (دفين ليبيا)، فقَد بقيت المدرسةَ الوحيدةَ إلى العهدِ المذكور ـ مدرسة الشيخ أبي طالب ـ يتوارثُ التَّدريسَ بها أفراد الأُسرة، وقد حاوَلت السُّلطات الفرنسية أن تؤمِّمها وتُوظِّف المدرِّسين بها، فامتَنعوا مُعتذرين بأنَّ عِندهم ما يكفيهم لضرورياتهم، وقد زارَها الرحَّالة **صدِّيق خان** سنة 1332هـ، وقد كان على رأسها الفقيهُ الشَّهير الشيخ **محمد أبو راس** (حفيد الشيخ محمد بن علي أبو طالب، وسميُّ جدِّه للأمِّ محمد أبو راس المؤرِّخ الشَّهير)، فمدحَ الرَّحالةُ المذكور المدرسةَ ومُديرها، فقال:

ألمـا عـلى مازونـة وانظـرا العُـلا	فمازونــة بيــت الهــدَى وســلام
وهــل بعــد بيــتِ العلــمِ بيــت	لقاصد دعائمِه فوق السَّما ومقـام
لهـا شــهرة قِـدما ببـثِّ علومهـا	ونشـر التُّقـى بـين الـورَى وأنـام
حِماهـــا منيـــعٌ والمقـــامُ مَشـــيد	وذكـــرٌ لهـــا يســـري كبـــدرِ تمـــام
أبـــى الله إلَّا أن تكـــونَ ككعبـــة	مَـلاذا لمـن قـد ضـلَّ بـين ظـلام
رحلــتُ بــلادا في الزَّمــانِ كثـيرة	لأنظـرَ حـالَ العلـمِ بـين خيـام

---

(1) ما زال كثيرٌ مِن خرِّيجي مدرسة مازونة يشغلون وظائف بشرق المغرب وبلاد الرِّيف، وكان مِن جملتهم المرحوم **محمد بن العالم** (عامل وجدة) بعد استقلال المغرب، وبعض أفراد أسرته.

فشاهدتُ كـلًّا بـين مـثنٍ وشـاكر لهـا خَـير صُـنع في أجـلِّ نظـام
ولا عجَــب فــالله أيَّــد أَزرهــا بهــذا الــذي بــين المــلا كإمــام
عنيــتُ بــه بــدر الأئمــة **مالكــا** فقيـه الثَّـرى بـل رأس كـلِّ إمـام
محمـد أبـو راس لـذا سـار نَهجـه وسـوى سـبيل الفقـه خـير إمـام
وقـام لـه بـين الرجـال بخدمـة وعـزم متـين فـوق حـدِّ حسـام
فـأظهرَ مكنونـا وأبـدى دَقائقـا وأخــرجَ آيــات بخــير قــوام

نكتفي بهذا القَدر، إذ مجالُ هذه المحاضرة لا يسعُ تتبُّعَ موضوعٍ يتطلَّبُ سِلسلةَ محاضرات، ثمَّ إنَّ هذه المدارس امتازَت بنظامٍ خاصٍّ، كـ: القيام بضروريات جميع ما يحتاجُه الطالبُ والأستاذُ مدَّة الدِّراسة، ثمَّ السيرة التي تشترط في الطلبة والمواظبة على الدُّروس وإن لم تكُن هناك امتحانات إلا أنَّ الأساتذة كانوا يجيزون طلبتَهم في مختلف الفنون، وهذه الإجازات تختلفُ حسبَ استعداداتِ الطالبِ وتحصيله، فَهناك نوعٌ مِن هذِه الإجازات هو عبارة عَن شهادةٍ تُمنح لحاملِها بأنه حضَر في الدُّروس المدَّة التي حضرها، والفنون التي قَرأها، وهناك شهادات تُعطى لنبغاءِ الطلبة والمحصِّلين، يأذن لهم فيها الأساتذة بالتدريس وبرواية الحديث... الخ، وكلُّ هذه الإجازات لا تخلو مِن تَوصياتٍ هامة، كقول المجِيز: «اتركوا[1] اليأس مما في أيدي الناس تَعيشوا أعِزَّة»، وكقوله: «إجازة مطلَقة عامة بشرطها المقرَّر، وقيدها المعتبر، وهو الصِّدق والأمانة والتحرِّي، وأن يقولَ فيما لا يدري: لا أدري، موصيا له برفع الهِمَّة، وحفظِ الحرمة، والعمل بالعلم، فإنه يستجلب النور والفهم»، وكذلك نجِد في معظمِ هذه الإجازات الإشادة بالعلم والتَّحريض على تعلُّمه، خصوصا عند المتأخرين، فنجِد مثلا العلامة **محمد بن عبد الله الجلالي** (مدير المدرسة المحمدية) الآنفة الذِّكر، يقول في بعض

(1) كذا في الأصل المعتمد، ولعلَّ الصواب: « تمسَّكوا باليأسِ ...». (ع)

إجازاته: «أمَّا بعد، فإنَّ العلمَ أشرفُ المكاسب، وأفضلُ المناصب، وأرفعُ المطالب، والغاية القُصوى لكلِّ طالب... فهو المفيد لكلِّ مُستفيد، في القديم والجديد، وهو الرافع لكلِّ خامِل، الرادُّ لكلِّ معاتل، المشرف للأَسافل، الخافض للخلو منه قدر أبناء الأفاضل، والجاعل للموالي موالي، في هذه العصور والعصور الخوالي... الخ».

ثم إنَّ التلميذَ نفسه كان يختار الأستاذ، فإذا اطَّلع على ما يقدحُ في مروءته انصرفَ عنه، كما وقع لكثير مِن العلماء في عهدِ شبابهم ودراستهم، مثل المؤرخ **أبي راس الناصري**، فقد حكى في (**رحلته**) أنه حضَر بعضَ دروسِ أستاذٍ مِن أساتذته، ولما رأى منه ما كان ينكِره انصرفَ عنه، ونرى هذا التشدُّد عند علماء الحديث، قال **ابن عبد البر** فيما رواه **محمد بن علي السنوسي**[1] «أن **مالكا** كان يوصي تلامذته بقوله: إنَّ هذا العلم دين، فانظروا عمَّن تأخذون دينكم، لقد أدركتُ سبعين ممن يقول قال رسول الله ﷺ عندَ هذه الأساطين، وأشار إلى مسجده ﷺ، فما أخذتُ عنهم شيئا، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيتِ مال لكان أمينا، إلا أنهم لم يكونوا مِن أهل هذا الشأن»، وكان الرأي العام الثقافي لا يعترف بسهولةٍ لمن لم تتوفَّر فيهم الشروط بلقب العالم أو المدرِّس، فقد قال **أحمد بن يحيى الونشريسي**[2] في الموضوع: «مِن هنا يُعلم أنَّ إطلاقَ اسم: المدرِّس، على المقتَصِر على نقلِ تقاييد (**الرِّسالة**) و(**المدوَّنة**) مِن غير فتش، ولا تَنزيل، ولا كَشف واستِظهار بغيرها، مجاز لا حَقيقة، وهذا الوَصف كاد أن يعمَّ أهلَ الوَقت أو عمَّهم، فنسأَل الله العظيم المغفِرة مِن التَّطفُّل وتَعاطي ما ليس في المقدور»، ثمَّ إن مدَّة إقامة الطالب بالمدرسة كانت محدودة كما ذكَر ذلك **الونشريسي** في (**المعيار**).

ثمَّ ظهرت في **الجزائر** ابتداءً مِن أوائل القرن التاسع مَعاهد، لا هي مساجد ولا

---

(1) **مقدِّمة موطأ مالك**، لمحمد بن علي السنوسي، طبع القصر الملكي بليبيا.

(2) من: **أزهار الرياض**، لأحمد المقري (ج 3، ص: 35)، نشر المعهد الخليفي للأبحاث المغربية.

مَدارس، لها نظامٌ خاصٌّ شبيهٌ بالمدرسة مِن حيثُ الالتزامُ بضَروريات الطالب والأستاذ وشُروط الالتِحاق بهذِه المعاهد، وأما مِن حيث الدِّراسة فكانت مَسجدية (حلَقات)، والموادُّ التي تدرَّس فيها بلغَت في بعضِ الأَوقات ما كان يدرَّسُ في جامِعتَي **الزيتونة** و**القرويِّين**.

ظهَرت هذه المعاهد في كاملِ جِهاتِ القُطر في الرَّاشدية -وكانت مشهورة بالتخصُّصِ في الفقهِ والتَّوحيد- وفي نواحي **تلمسان** و**سطيف**، كـ: **معهد قجَّال**، و**وادي بجاية**، والقبائل الكبرى، وستتحدَّثُ عنها بِمزيد مِن التَّفصيل في القسم الثالثِ والأَخير مِن هذه الدِّراسة، وقبلَ أن نتعرَّضَ للحديثِ عَن خَزائن الكُتب نُواصِل تتِمَّةَ الحديثِ عن تطوُّر الثَّقافة في عهدِ المدارس، ومُساهمةِ علماءِ بجاية وتلمسان في ذلك التطوُّر الذي أشَرتُ إليه في آخِر دراسة القسم الأول مِن هذا الحديث، وقد اعتَرف لهم به جميعُ مَن اهتمَّ بدراسة هذا الموضوع، منهم المؤرِّخ **عبد الرحمن بن خلدون**، و**أحمد المقري التلمساني**.

أَحدثَت دولةُ **الموحِّدين** أولَ ظهورِها رجَّةً في العالم الإِسلامي، وفي المغربِ العربي والأندلس بالخصُوص، رجَّة شَبيهة بالرَّجة التي أحدثَتها دولة العُبيديِّين الشِّيعية، كان مِن الأَقدار أن **بجاية** التي آوَت **المهدي بن تومرت** أيامَ محنتِه وضعفِه هي التي كانت مَسرحًا للثورة على تَعاليم **المهدي** بعدَ انتِصاراتِه واحتِلاله البلاد، كان فقهاءُ **بجاية** كما تحدَّثنا عنهم في القسم الأول مِن هذا الحديث تتكوَّن أغلبيتهم مِن الَّلاجِئين الأندلسيِّين الذين شاهَدوا ما لحقَ بِلادَهم في أيامِ ملوكِ الطوائفِ مِن الذُّلِّ والهوانِ وتفكُّكِ الوِحدة، ثمَّ رأَوا إنقاذَ الفاتح العظيم **يوسف بن تاشفين** للبلادِ والقضاء علَى ملوكِ الطوائف، ومِن هؤلاء الفقهاء الإمام **عبد الحق الإشبيلي**، لم يكُن **عبد الحق الإشبيلي** هذا ولا رفيقُه ومواطنُه **أبو مدين** (دفين تلمسان) مجسِّمين ولا كفَّارا، ولا حتى متزمِّتين، بل

كان الكثيرُ منهم ومِن أفرادِ طبقتِهم المنتصِرينَ للمُرابطين يختلِفونَ معَ الموحِّدين وينكِرون علَيهم فِكرةَ عِصمةِ **ابن تومرت** وبعضِ تَنبُّؤاتِه المهدَويَّة، ثمَّ إنَّ هؤلاء الفقهاءَ الذينَ كانوا مِن أَنصارِ العلمِ، والذين كانوا يُقارنون بَين سير وُلاةِ **المرابِطين** ووُلاةِ **الموحِّدين**، فبِقدر ما كان **المرابِطون** ـ ملوكهم وولاتهم ـ مشهورين بالاستِقامة والورَع كان وُلاة **الموحِّدين** بِعكس ذلك، فإنَّ والي بجاية الذي وقَعت ثورةُ **المرابطين** في عهده ـ وهو **سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن** ـ كاتَب ابنَ عمِّه (والي تلمسان) **عليَّ بن عمر بن عبد المؤمن** يَستَدعيه لمائدة شَرابٍ يومَ جمعة، فقال:

اليــــوم يــــوم الجمعـــة ... يــــوم سُرورٍ ودعــــهْ
وشَـــــملُنا مفــــتَرق ... فهَــل تَــرى أن نَجمعــهْ

فأجابه ابن عمِّه:

اليــــوم يــــوم جمعـــة ... وربُّنــــا قَــــد رفعَــــهْ
والشُّــرب فيــه بِدعــة ... فهَــل تَــرى أَن نَدعَــهْ

لا شكَّ أنَّ مثلَ هذا التَّحدِّي مِن أمير **بجاية** في وسطِ فُقهائها يتركُ أثرا سيِّئًا في أوساطِ الفقهاء، وبالخصوصِ **عبد الحق الإشبيلي** الذي كان مِن أكبر الزُّهاد، وهو الذي كان يردِّد قوله:

ومـــاذا أُؤمِّـــل أَو أَرتَجيـــه ... وقَد جـزتُ سِـتًّا عـلى أَربعينـا
ولو كانَ عَقلي مَعـي حـاضِرا ... سـمعتُ لَعمـري مِنهـا أَنينـا

وكان يقول:

وهـــذه الـــنَّفس لهـــا حاجـــة ... والعمـر عَـن تحصـليها يقصـر
وكلَّـــما تُزجـــر عَـــن مَطلـــب ... كانـــت بـــه أهـــيَم إِذ تُزجـــر
وربـــما أَلقـــت مَعاذيرهـــا ... لـــو أنَّهـــا يـــا وَيحهـــا تُعـــذر

ونـــاظر المـــوت لهـــا نـــاظر　　لـــو أنَّهـــا تُنظـــر إذ ينظـــر

ورائـــدُ المـــوتِ لـــه طَلعـــة　　يبصِرُــها الأكمــهُ والأبصَــر

وروعَـــة المـــوتِ لهـــا ســـكرة　　ومثلُهـــا مِـــن روعـــةٍ تســـكر

وبـــين أطبـــاقِ الثَّـــرى مَنـــزل　　ينزلـــه الأَعظـــمُ والأحقَـــر

يـــتركُ ذو الفَخـــر بـــه فَخـــرَه　　وصـــاحبُ الكِـــبر بِـــه يصـــغر

ثم إنَّ **عبد الحقِّ** هذا زيادة على ما اشتَهر به مِن الزُّهد والورَع كان ينفي الإنسانية عن الجاهل، إذ هو القائل[1]:

إذا أنــــتَ لم تعلَــــم ولم تـــتعلَّم　　وكنــتَ امــرءا عــما يــرادُ بــه عــمِ

فكُــن صــورةً قــد أكمــلَ الله حظَّهــا　　مِن الشَّكلِ والتَّخطيطِ واللَّحمِ والدَّمِ

ولا تــكُ إنســانًا فــما أنــتَ مِــنهمُ　　وإن كنــتَ لم تعلَــم بِــذلك فــاعلَمِ

كان معظمُ فقهاءِ **بجاية** على هذه الحالة، وقد بقَوا ممتازين عَن مُعاصريهِم بالزُّهدِ والورَع إلى أواخر القرنِ التاسع، فمِن ذلك ما ذكَره الشَّيخ **محمد الهواري** (دفين وهران)، إذ تخرَّج على **أحمد بن إدريس** أستاذ **عبد الرحمن بن خلدون** وتلميذه **عبد الرحمن الوغليسي** في أواخر القرن الثامن، فوصف **بجاية**[2] ـ على عادتِه ـ بأبياتٍ مِن الشِّعر الملحون، فقال:

لو وصَفتْ لَكْ ما رِيتْ في بْجاية وهيَ هِيا　　بلادْ الـوَرع والعِلـم وتْرابـى حقيقيـا

... الخ

---

(1) هذه الأبيات المذكورة موجودة في ديوان **عبد الحق الإشبيلي** المخطوط بِخزانة **القرويِّين**، والذي أملاه بنفسه على ناسخه بجامع **بجاية**.

(2) من ترجمة **الهواري** الموجودة في كتاب (**روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين**)، لابن صعد الأنصاري التلمساني ـ دفين مصر ـ، والهواري توفي سنة 843هـ بوهران.

ويقولُ الشَّيخُ **عبد الرحمن الثعالبي** (دفين الجزائر) في **بجاية** التي زارَها في رحلته لطلبِ العلم[1]: «... ثمَّ تَناهَت بيَ الرِّحلةُ إلى **بجاية** فدَخلتُها عامَ اثنين وثمانمائة، فلقيتُ بها الأئمةَ المقتدَى بهم في علمهِم ودينهم وورَعهِم، أَصحاب الشَّيخ الفقيه الزاهد الورع **أبي زيد عبد الرحمن بن أحمد بن إدريس الوغليسِّي**، وأصحاب الشيخ **أبي العباس أحمد بن إدريس**، وهم يومئذٍ متوافرون، أهل ورع ووقوف مع الحدود، لا يعرفون الأمراء ولا يخالطونهم، وسلَكَ أتباعُهم وطلبتُهم مَسلكَهم رضي الله عنهم أجمعين»، ولم يكُن علماء **بجاية** كما اتَّهمهم خصومُهم الموحِّدون بأنهم صورة مصغَّرة مِن فقهاءِ **قرطبة**، بل كان الكثيرُ منهم ينتصِر للموحِّدين في مَواقفهم، كـ: **أبي الفضل ابن النحوي** (دفين قلعة بني حماد)، فإنه صادفَه الحالُ بالمغرب لما أمرَ ملوكُ المرابطين الفقهاءَ بإِحراقِ **(إحياء علوم الدين)** للغزالي، وحلَّفوا المتَّهمين بكسبِه، فإنه أفتى بعدمِ لزومِ تلك الأَيمان، ثمَّ كان يصرِّح بأنَّه نسخَ **(إحياء علوم الدين)** وتمنَّى «أنه لا يَنظر في عُمره سِواه».

انتصر فقهاء **بجاية** على **الموحِّدين** مثل ما انتصروا على مَن قبلَهم، إلا أنهم في هذه المرَّة كانت هذه المعركة مَبدأ معركة أخرى في صفُوفِ الفقهاء الذين انقَسموا إلى مجدِّدين ومحافِظين، أو أنصار المتأخِّرين وأَنصار المتقدِّمين، يقصِدونَ بأَنصار المتقدِّمين المتَّبعين لمذهبِ **الفارابي**، وبالمتأخِّرين [المتَّبعين لمذهبِ] **الرازي**، وقَد علِمنا أنَّ **الموحِّدين** بعدَ وفاةِ **يعقوب المنصور** الذي تجرَّأَ في عهدِه على إحراقِ كتُبِ الفروع وحاكَم عِدَّة علماء، منهم: **ابن رشد**، ثارَ عليه الرأيُ العام حتى أنَّ ولدَه **المأمون** التجأ إلى الوسيلة الوحيدة لإِرضائِه، وهي تَصريحه مِن أعلَى منبر جامع مراكش ـ عاصمة دولة الموحِّدين ـ وقال: «أيها الناس، لا تدعُوه بالمهدي المعصوم، وادعُوه بالغويِّ المذموم، فإنَّه لا مَعصومَ إلَّا الأنبياء، ولا مهديَّ إلا عيسى، وإنا قَد نَبذنا أمرَه النَّحيس... الخ».

---

(1) هذه الفقرات منقولة من (**فهرس الشيخ الثعالبي**)، ذكر فيها رحلتَه العِلمية وترجمته.

أمكَن للفقهاء الانتصار على مخالفيهِم وخصُومهِم **الموحِّدين،** ثمَّ على الفقهاء المحافِظين المنتَصرين لفقهاءِ **قرطبة،** وبفضلِ الانتِصار الأَخير هذا تطوَّر الفقهُ وماشَى الحضارة، واعترفَ الباحثونَ أنَّ الانتصارَ في هذِه المعركة يَرجع فَضله إِلى علماءِ **بجاية وتلمسان،** وكان مِن الصُّدَف أَنَّ العلَّامة المرحوم مفتى الديار التونسية الشيخ **محمد الفاضل بن عاشور** نشَر قبلَ وفاتِه بقليلٍ دراسةً قيِّمةً في هذا الموضوع في: **(مجلة المجمع العلمي العربي)** بدمشق سنة 1389هـ/ 1969م، وهذه الدِّراسة يظهرُ أنَّ الشَّيخَ المرحومَ استمدَّها مِن: **(أزهار الرِّياض)** لأحمد **المقري التلمساني** (ج 3، ص: 21) نشَر المعهد الخليفي للأبحاث المغربية، تحتَ عنوان: **(صناعة التأليف بالمغرب)**، قال بعدها: «ولقَد وقفتُ في بعضِ التَّعاليق لأحدِ المتأخِّرين على كلامٍ في صناعةِ التأليف، رأيتُ أن أجلبَه جميعه لما فيه مِن ذِكر بلاغة القاضي عياض... الخ»، وتبيَّن مِن المقال الطويلِ أنَّ صاحب التَّعاليق مِن علماءِ القرن التاسع.

أما الشَّيخُ **الفاضل** فإنه عنونَ دراستَه القيِّمة بـ : **(الثقافة الإسلامية في المغرب)،** وبعد أن بيَّن موقفَ فقهاءِ **قرطبة في عهدِ المرابطين،** وذكر «أن المجتمع الإسلامي بالمغرب العربي قَد أحسَّ بوطأةِ الضَّغط الشَّديد الذي ضيَّق عليه الأَنفاس في ما أحاطَت به مِن هَيكل جِسمه قَبضة حكمِ المرابطين»، وإن كان الشَّيخ يفرِّقُ بين عملِ المرابطين السِّياسي الذي «أنقذَ الأندلس ووحَّدها وضمَّها إلى مملكة الإسلام في المغرب الإفريقي»، وعملِهم في الحقلِ العقائدي «الذي زادَ في الحسرة التي امتلكَت القلوبَ مِن جرَّاءِ الفِتنة الاعتِقادية التي أبعدَت المجتَمع عن تحقيقِ مُثلِه العُليا»، ويذكُر أنَّ الذي قام بالثَّورة الفِكرية وكان له الفضلُ في القضاءِ على فقهاءِ **قرطبة** هو الإمام **المازري** الذي «كانت حِلَق دروسِه منابع فيَّاضة بالتَّوجيه إلى العملِ الإيجابي في سبيلِ حماية الحرية الدِّينية والحفاظِ على شُعلة الحِكمة الكلامية العالية التي كادَت حركة المرابطين

أن تُطفئ نُورَها»، ثم يتعرَّضُ لظهور **المهدي ابن تومرت**، ويرى «أنَّ الحكمةَ الدِّينية المتمثِّلة في **المهدي بن تومرت** عِندما انتصَرت على المرابطين وأَدالت دولتَهم، كان ذلك الانتِصارُ رافِعا لحاجز كان قائما في طريقِ تقدُّمِ الحِكمتَين، وحائِلا دون تواصلهما»، ثمَّ يذكُر الأَعلام الذين ظهروا بالمشرق والأندلس، ويحلِّل آراءهم وتآليفهم، ويذكر منهم **ابن الحاجب** الذي كان لتأليفه (**المختصر**) صدًى في المشرق، وعند ظهوره وانتشاره عكف الناس عليه، و«هجَر دارسُو الفقه طريقةَ (**المدوَّنة**) وتهاذيبها وشُروحها»، إلى أن يقول: «وكان طريق اتِّصال **مختصر ابن الحاجب الفرعي** ببلاد المغرب العربي أن الشيخ **ناصر الدين الزَّواوي** (مِن فقهاء بجاية) ارتحلَ إلى المشرق في أواخر القرن السابع فلقيَ تلاميذ **ابن الحاجب** بمصر، وتخرَّج عليهم، فجاء معه بمختصر ابن الحاجب ونشَره في تلاميذه ببجاية، ومن هناك انتقلَ إلى عامة أقطار المغرب العربي، فعكفَ الفقهاءُ على دراستِه وشَرحه، واعتنَى به كبارُ فقهاء تونس، مثل **ابن عبد السلام**، **وابن هارون**، **وابن راشد**، وفقهاء تلمسان، مثل ابني الإمام»، ثم يذكُر: «أن منهجا جديدا في الدِّراسة العلمية قد ظهر في البلاد التونسية، وهو منهج القاضي **ابن زيتون** المتخرِّج على تلامذة الإمام **فخر الدين الرازي**، ودرج على طريقته في الجمع بين العقليات والنقليات على الأسلوب التعليمي الراقي»، ثم يذكر أن هذه الطريقة ـ أي: طريقة الرازي ـ كان مِن ينابيعها بتلمسان العلامة الشهير إمام التعاليم والرياضيات **أبي عبد الله الآبلي التلمساني**[1] ـ المتكوِّن في حكمتِه التَّجريبية على طريقة **ابن رشد** ـ فتواصَلت طرقُ التخرُّج على منهج النَّظر الحكمي في التكاليف الدِّينية بين أقطار المغرب في شمالي إفريقيا والأندلس، فظهر

---

(1) سمعتُ في هذا الشَّهر سلسلة محاضرات لعلماء جامعيِّين من الرِّباط أذاعوها في: (أحاديث الظهيرة)، تعرَّضوا فيها للنَّهضة الثقافية في القرن الثامن، وذكروا جلَّ علماء تلمسان، وبجاية، الذين ذكرهم المقري، والشيخ الفاضل، وقد أرجعوا الفضل في الدِّراسات الفلسفية لأَبي عبد الله الآبلي هذا، وإن ابن خلدون نفسه استفاد منه كثيرا.

مِن أعلام تلك الطريقة أعلام درسوا الفقهَ بالتقعيد والمقارنة، وربط الفروع بالأصول، مثل الإمام **أبي عبد الله المقري التلمساني** (خرِّيج المدرسة التاشفينية)، والإمام **أبي إسحاق الشاطبي الغرناطي** (تلميذ **المقري**)، والإمام العلامة **أبي عبد الله العلويتى** (كذا) الشَّهير بالشَّريف (مدير المدرسة اليعقوبية) التلمساني الذي عد من أهل الاجتهاد».

وبعد أن يذكُر أحداثَ المغرب في ذلك العهد، كسقوطِ بعضِ بلدانِ الأندلس، واستِفحال الأزمةِ الاقتصادية بسببِ فَتح طريق **الهند** البحري، [يقول]: «كان القرنُ التاسع قَرنا وضعَ فيه الفقه المالكي مِن جديد على بِساطِ النَّقد والتَّمحيص، حيث دخلَ في مَقايِيس الاختيار والتَّرجيح مِقياس جديد، هو مقياس الفتوَى والعمل»، ثم يذكُر الفقهاء التلمسانيِّين، مثل: **العقباني** الذي نشرَ فتاواه تلميذه **يحيى المغيلى المازوني** في **(الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة)**، **وابن مرزوق الحفيد** ـ الذي سما في فقهِه إلى أفقِ الأَفكارِ وابتكار الأَنظار ـ وقد «درَّس الفقهَ الشَّافعي في تلمسان بكتاب **(التنبيه)** لأبي إسحاق الشِّيرازي، و**(الوجيز)** للغزالي، مع أنه لم يكُن بتلمسان شافعيٌّ»، ثم يختم دراسته القيِّمة بالإِشادة بكتاب **(المعيار)** للونشريسي: «وهو في أسفار ضَخمة يتبيَّن لمتصفِّحِه ـ عندما يقابِله ـ بـ **(جواهر)** ابن شاس، أو بـ**(مختصر ابن الحاجب)**، كم استطاع النظر الفقهي في هذا المغرب أن ينتجَ مِن تطوُّر ويظهر مِن حيوِيَّة، لَّما عدل عن المنهج الإلتزامي وسار على المنهج التَّصرُّفي الذي فتحه **ابن رشد** ومهَّده **ابن عرفة** وتلاميذه، وأقام أعلامه **الونشريسي** في **(المعيار)**» اهـ كلام الشَّيخ **الفاضل**.

وقال **المقري** في الموضوع مما نقله عن «بعض التعاليق لأحد المتأخِّرين»، بعد أن ذكر ما امتازَت به تآليف المشارقة والمغاربة، ووازن بينها، قال: «والعِلَّة في ذلك كون صناعة التَعليم وملكة التلقِّي لم تبلغ **فاسا** كما هي بمدينة **تونس**، اتَّصلت إليهم من

الإمام **المازري**[1] كما تلقَّاها عن الشيخ **اللَّخمي**، وتلقَّاها **اللَّخمي** عَن حذَّاقِ **القرويِّين** ـ يقصد علماء **القيروان** ـ وانتقلت ملكةُ هذا التَّعليم إلى الشيخ **ابن عبد السلام** (مفتى البلاد الإفريقية وأصقاعها) ـ و**ابن عبد السلام** هذا هو الذي أخذَ عنه **أبو عبد الله الشريف التلمساني**، وقيل إنه كان يأخذُ عنه بِدَوره مؤلَّفات **ابن سينا**، وتلاخيص **أرسطو** لابن رشد ـ واستقرَّت تلك الملكة في تلميذه **ابن عرفة**، وفي الشيخ **ابن الإمام التلمساني**، ونجبَ مِن طلبة ابن الإمام تلميذه الإمام **أبو عبد الله الشَّريف**، وانتهت طريقته لولده **أبي يحيى** المفسِّر العالم، واستقرَّت أيضا طريقة **ابن الإمام** في تلميذه **سعيد ابن محمد العقباني** (التلمساني)، وانتهى ذلك إلى ولده شيخنا **أبي الفضل قاسم العقباني** (رحمهم الله جميعا)» اهـ [نقل] كلام **المقري**.

ثمَّ قال: «قال **ابن خلدون**: ولمن ذكرنا مِن أهل المائة الثامنة انتهَت طريقة التَّعليم وملكة التلقِّي»، يعني بذلك **الشَّريف**، و**العقباني** (رحمهما الله)، قال: «لكونهما ألَّفا التَّصانيف البعيدة، وزاحما رتبةَ الاجتهاد مِن غير مُنازع، **قلت**: وكذلك بلغ رتبة التبريز في تحصيل العلم كلُّ واحدٍ مِن وَلَدَيهما: الفقيه السيد **أبو القاسم بن سعيد**، والفقيه الأوحد السيد **أبو يحيى الشريف**، إذ بلغا درجة الإِمامة والفتيا... ومنهم شيخنا الإمام الحافظ المجتهد صاحب التَّصانيف المفيدة **أبو عبد الله محمد بن مرزوق** التلمساني (دَفين تلمسان، وتلميذ **ابن خلدون**، وأستاذ **عبد الرحمن الثعالبي**)، **قلت**: إنما اقتصرتُ على ذكر هذَين الشَّيخين ـ كان ذكرَ قبل **ابن مرزوق** الإمام **البرزلي** تلميذ **ابن عرفة** ـ الإِمامين لما لهما على مِن المشيخة ولشهرتهما بالتآليف التي تقوم مقام الشَّاهد لما قلته حتى نبعد عَن شبهة التَّعصُّب» اهـ [نقل] كلام **المقري** .

ثم قال **المقري** فيما نقله: «وأما ملكة العلوم النظرية فهي قاصرة على البلاد

---

(1) هو **محمد بن علي بن عمر التميمي المازري الصقلي**، توفي سنة 536هـ عن ثلاث وثمانين سنة.

المشرقية، ولا عنايةَ لحذَّاق **القرويِّين** والإفريقيِّين إلا بتحقيقِ الفقه فقَط، ولم يزَل الحال كذلك إلى أن رحلَ الفقيهُ **ابنُ زيتون** إلى المشرق فلقيَ تلاميذ **الفخر ابن الخطيب** ولازمَهم زمانا حتى تمكَّن مِن ملكة التَّعليم، وقدم إلى **تونس** فانتفعَ به أهلها، وانتهت طريقته النظرية إلى تلميذه **ابن عبد السلام** المذكور، واستقلَّ **ابن عرفة** بعده بتلك الطريقة، وكذلك **أبو عيسى موسى ابن الإمام التلمساني** المذكور، ولهذا نجدُ العلومَ النظرية بتلمسان».

نقتصِرُ على هذا القَدر لنبيِّن أن دراسة المرحوم الشيخ **الفاضل** استمدَّها من: (**أزهار الرياض**)، وأفرغَها في بَوتَقة بيانِه السَّاحر، وإن علماء تلمسان وبجاية كانوا في مقدِّمة علماء زمانهم مِن قادة الفكر في العالم الإسلامي.

خزائن الكتب:

إنَّ مركز الكتاب في البلاد الإسلامية كان أيضا المسجد، فالإمام **مالك** صنَّف كتابَ **الموطأ** في **مسجد المدينة**، والإمام **الشافعي** صنَّف كتاب **الأم** في مسجدِ **الفسطاط**، و**ابن حنبل مسندَه** في مساجِد بغداد، و**الخليل بن أحمد** ألَّف كتاب **العين** في مسجدِ البصرة وأتمَّه في جامع دمشق، وقَد اشتهَرت الخزائنُ في الجزائر، ووصف بعضَها كثيرٌ من الرَّحَّالين كـ : **عبد الرَّحمن الجامعي الفاسي** عندما زارها حوالي 1120هـ، و**ابن زاكور الفاسي** في أواخر القرن الحادي عشر، و**الزياني** (1147 ـ 1249هـ) [1] الذي اطَّلع بنفسِه ـ عندما زار تلمسان وأقامَ بها مدةً ـ على عدَّة كتب، مِن ضِمنها: (**تاريخ سليمان بن إسحاق المطاطي**)، و(**تاريخ هاني بن يصدور القوصي**)، و(**تاريخ كهلان بن أبي لؤي الأوروبي في أنساب البربر وأيامهم في الجاهلية والإسلام**)، لأنهم كانوا نسَّابة البربر».

(1) أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**، نشر وزارة الإعلام بالمغرب، 1387هـ/ 1967م، صفحة: 144.

كما ذكر **الزياني** عدَّة كتبٍ لمؤلِّفين جزائريِّين ضاعَ معظمها، ثم نجِد [من] الخزائن التي اشتهرَت في الجزائر، الخزانة التي أسَّسها الملك **أبو حمو موسى الثاني** بالجامع الأعظم، وكلُّ ما بقيَ من آثارها لَوحة على حائط المسجد الأعظم، فيها تاريخ تأسيس هذه الخزانة، وكان الملك **أبو حمو** هذا مِن كبار العلماء، وألَّف كتابه الشَّهير: **(واسطة السلوك في سياسة الملوك)**[1]، وهو مِن باب الوصايا التي ذكرناها في أولِ الحديث، كتبَه وصيةً لولدِه **أبي تاشفين الثاني**، وقال **الزياني** لما اطَّلع عليه في تلمسان: «وجَّهه هديةً لسلطان الأندلس، ومدَحه فقهاء الأندلس، وعجبوا مِن سياسته وأدبِه وحُسنِ صَنيعه، ذكره **ابنُ الخطيب** في **(الإحاطة)**... الخ».

كان الملوكُ يتبارون في التأليف ونسخِ الكُتب بِخُطوطهم، وقَد كتبَ الملك **أبو الحسن المريني** ثلاثة مصاحف أَهداها إلى الحرمَين وبيتِ المقدِس، وحبَّس على قرَّائها أحباسًا هائِلة، وقد شاهدَ **أحمدُ المقري** المصحفَ المحبَّس على بيتِ المقدس، وكذلك اشتهَر كثيرٌ مِن ملوكِ بني زيان بنسخِ الكتب، منهم الملك **أبو زيان** الذي تولَّى المملكة في أواخر القرن الثامن، فما زال مصحفٌ مِن مصاحفِه التي نسخَها بِيده مَوجودا بتونس، وقَد نسخَ عدَّة نسخ مِن **صحيح البخاري** ما زالت بعضُ الأَبياتِ كتَبها على نسخة **(صحيح البخاري)** يتَناقلُها الناس، وهي:

أحق يـدٍ تحـوز مـدَى الفخـار ... يدٌ نسخَت أحاديث **البخـاري**

فقـد عنيـت يـداي بـه جميعـا ... وإن أربى اليمـين عـلى اليسـار

فهــذا ممســك طرســا وهــذا ... بطرفِ براعة في الطـرس جـار

وأخـدمت الجـوارح فيـه طـرا ... مواصــلة العشيـ بالابتكــار

... الخ

---

(1) طبع هذا الكتاب في تونس سنة 1279 هـ، وفي الأستانة سنة 1295هـ .

وهي قصيدة طويلة، وقد مدَح هذا الملك شاعر البلاط الثغري، فقال في الموضوع:

لئن كان بحـرا في العلـوم فـإن في ... بنـانِ يدَيـه للنَّـدا أبحـرا عشرـا

لـه بكتـابِ الله أعنـى عِنايـة ... وبالسنَّة الغـرَّاء هـو المغـرم المغـرا

فـما همُّـه إلَّا كتـابٌ وسـنَّة ... بنسخهما قد أحرزَ الفخرَ والأجـرا

فنسـخ كتـاب الله جـلَّ جلالـه ... ونسخ **البخاري** ضامِنا له النَّصـرا

كان هؤلاء الملوك يستَخدمون الخطَّاطين المشهورين مِن الأندلسيِّين التي ما زال بعضها ـ [أي: بعض ما نسخوا من المخطوطات موجودا] ـ إلى يومنا هذا، كما اشتَهرت إذ ذاك خزانة أسرة **المقري** المتحدَّث عنه في هذه الدِّراسة في ترجمة أسرته الذين اشتَهروا بتأسيسهم لأوَّلِ شركة تجارية، قال: «فخَرجت أموالهم عن الحدِّ، وكادت تفوت الحصرَ والعدّ... ولما درجَ هؤلاء الأشياخ جعلَ أبناؤُهم ينفقون ما تَركوا لهم، ولم يقوموا بأمر التَّثمير.. فها أنا ذا لم أُدرك مِن ذلك إلَّا أثَر نِعمة، اتَّخذنا فصولَه عيشا، وأصولَه حُرمة، ومِن جملة ذلك خِزانة كثيرة مِن الكتُب».

ثم اشتهَرت في **الجزائر مكتبة الجامع الأعظم المالكي** التي كانت شِبه مكتبة خاصَّة، أمَّا الخزانة العامة الدولية فكان مقرُّها بالجامع الجديد الحنفي، مركز شيخ الإسلام الحنفي، ونجِد في بعضِ الوثائق التاريخية قائِمة بعضِ الكتُب اشتراها ناظرُ أحباسِ الجامع المالكي الشيخ **سعيد قدورة** مِن ريع الحبس الفاضل على مصاريف المسجد، ومن بين هذِه الكتب **(شرح الإمام العيني لصحيح البخاري)** في ثلاثة أسفار، اشتراه «بألفِ دينار وأحد وأربعمائة دينار»، والنسخة المشهورة بـ **(الخرُّوبية)** في عشرين جزءًا مكتوبة في الرِّق: «سبعمائة دينار»، وهذِه النُّسخة كان يملِكها العلَّامة **محمد بن علي**

الخروبي[1] إمام الجامع المالكي، وقد كَتب عليها بخطِّه سماعات نقلَها مِن نسخةٍ قديمة كانت مِن أملاك المسجد، يَرجعُ عهدُها إلى أوائل القرن الخامس، أي عليها خط وإجازة **محمد بن عبد بن محمد الهروي،** إمام الرواة، ومَن عليه المدار في رواية البخاري (355 ـ 435 هـ)، كان مجموع ما أنفقَه ناظر الأحباس في شِراء كتُب أسرة **الخروبي** وبناء وإصلاحات المدرسة والكتَّاب ودار العجزَة مِن طلبة العلم (التي تحدَّثنا عن وثيقتها عند الحديثِ على مدارس العاصمة): 302 37 دينار جزائرية خمسينية العدد... وذلك في أوائل شهر ربيع الأول عام اثنين وخمسين وألف هـ».

يذكر **ابن رجب الجزائري** المشهور بـ: **ابن المفتي** في **(مذكِّراته)** التي ترجَمها **دفولكس** الآنِف الذكر نشَرها بـ **(المجلة الإفريقية)،** كما نشَر بعضَ فصولها الشَّيخ **عبد القادر نور الدين،** أنه لما هاجم العدوُّ **الجزائر** بعد موتِ الشَّيخ **سعيد قدُّورة** وهدموا السُّور الخارجي للمسجد الأعظم نُقِلت الكتبُ إلى **(برج مولاي حسن)** خارج **الباب الجديد،** ودام هذا النَّقل ثلاثة أيام على الإِبل ـ والهجوم المذكور وقع سنة 1071هـ/ 1661م من الإنكليز ـ والذي يلفتُ النَّظر هنا هو قيمة الكتاب إذ ذاك والاهتمام به، وهذه المصاريف صرفَها المفتي الناظر للأحباس مِن الفاضل على مصاريف المسجد المذكور، الذي كان عدد مُوظَّفيه يربو على الخمسين موظَّفا، منهم ثلاثون مدرِّسا، وبقي عدد هؤلاء الموظَّفين إلى ما بعد الاحتلال الفرنسي، فحاولَت

---

(1) **محمد بن علي الخروبي**: كان إماما بالجزائر في أوائل القرن العاشر، ولما تولَّى حسن بن خير الدين باشا استعمله في السفارة إلى المغرب مرَّتين، اجتمع خلالهما بعلماء المغرب، ووقعت بينه= =وبينهم خلافات، وتبودلت رسائل وتآليف، تعرَّض لها علماء التراجم والسِّير، فكانت سبب شهرة الخروبي، وقد ترك تآليف قيِّمة، وتوفي بالجزائر حوالي سنة 963هـ.

الحكومة تغيير نِظام حبس الجامع، فتعرَّض لها المفتي **مصطفى ابن الكبابطي**[1] وذلك سنة 1843م، فألقَت عليه القبضَ ونفَته (واختار الإِقامة بالإسكندرية إلى أن توفي بها).

ثمَّ اشتَهرت خزانة الباي، [ذكرها كاتِبُه] **محمد المصطفى بن زرفة الدَّحاوي**، صاحب: (**الرِّحلة القمرية في الأخبار المحمدية**) التي سجَّل فيها حرب **وهران**، قال متحدِّثا عن الباي **محمد بن عثمان** المذكور: «فكان مِن سابغ فضلِه أن زوَّدني مِن خزائن كتبِه (عمَّرها الله تعالى بطول عُمره، ودوام منصبِه) ما أستظهِر به على ما أنا بصددِه، فكان كالدَّليل المعين على السَّفر... الخ».

وكانت خزانة المؤرِّخ **أبي راس** بأمِّ عسكر التي قال عنها في (**رحلته**): «ثمَّ إنِّي أختمُ هذا الباب الأبدَع بما مدحتُ به مصريتنا التي هي بيت المذاهب الأربعة، وهذه مكتوبة في بيت كتبنا، في بَهوها بخطِّ بعض تلامذتنا:

فللــــه قبــــة يعـــزُّ نظيرهــــا   وبهوهـا قـد حـاز المبـاهي مُباهيـا
تقـــول لمـــن يـــأتي لهـــا متنزِّهـــا   تأمَّـل جمـالي تسـتفِد شرحَ حاليـا
بنيـــت لخدمـــة العلـــوم وبثِّهـــا   لمن يروحُ نحوي ومَـن هـو غاديـا

... الخ

ثم كانت خزانة الشيخ **عبد القادر بن يسعد البرذعي** (دفين قرية الدّبة) قرب قلعة هوارة (**غليزان**)، كان صاحبها مِن علماء القرن العاشر، فتخرَّج مِن **مجاجة** على الشيخ

---

(1) ذكر **دفولكس** في (**تاريخ الجامع الأعظم المالكي**) أنه لم يتغيَّر فيه شيء مدة ثلاث عشرة سنة، وفي ماي 1843م عصا المفتي **الكبابطي** أوامر الحكومة علانية، فألقي عليه القبض، وأبعد إلى فرنسا، واغتنمت الحكومة هذه الفرصة لتغيير نظام المسجد المذكور، واتخذ الوالي العام قرارا مؤرَّخا في 4 يونيو 1843م.

ملاحظة: المعروف أنَّ المفتي **الكبابطي نُفي** إلى الإسكندرية. (ع)

محمد بن علي (شيخ **سعيد قدورة**)، كان هذا العالم يستكتِبُ الَّلاجئين للنَّسخ، وقد أسَّس هذه الخزانة وشَحنها بأمَّهات الكتب، وقَد بقيت هذه الخزانة رغم وجُودها في بادية منقطِعة محتفِظة بِبعض ما تبقَّى على طعمِ الأرضَة والإِهمال والنَّهب عليها خطّ المؤسِّس وتَعاليقه، كما احتفظَت ببعضِ كتبٍ نسخَها الَّلاجئُون الأندلسيون، ومن أهمِّ ما كانت تحتفِظُ به المكتبةُ وعثِر عليه منذ خمسِ سَنوات، كتاب: (**الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة**)، منقولٌ مِن نسخة المؤلِّف، وعليه تَقريظ للعلامة الشَّيخ **أحمد بن يحيى الونشريسي** صاحب (**المعيار**) قَبل هِجرته إلى المغرب، ويمتازُ هذا التَّقريظ الذي نقل مِن خطِّه أنَّه ترجمَ فيه لصاحب (**الدُّرر المكنونة**) ترجمةً وافية، إذ أنَّ كلَّ التَّراجم الموجودة في (**ذيل الدِّيباج**)، و(**البستان**) لم تذكُر في ترجمتِه إلَّا سطورا قليلة، كما ذكر **الونشريسي** أنه تلميذ للمؤلِّف، وأنَّ سببَ انتقال المؤلِّف **أبي زكرياء يحيى بن موسى المغيلي** إلى **تلمسان** باستِدعاء الملك **الزياني** المتوكِّل «حين أوردَ هذا الشَّيخ المذكور حضرته العلية صُحبة ركابه، وجعلَه أحدَ مَشيختِه الأَعلام المشاورين بقَصره المنصور وعلى بابِه، وها هو الآن بها يقرئ ويفيد ويعيد»، وهذا التقريظُ مؤرَّخٌ عام 871هـ، وكان معظم مَن ترجَم للونشريسي لم يطَّلِعوا على علائِقه بصاحبِ (**الدُّرر**)، إذ نَجِدُ في ترجمتِه لأحمد بابا في (**ذيل الديباج**) عندما يذكُر مصادِر فتاوى (**المعيار**): «قلت: أما فتاوى إفريقية وتلمسان فاعتَمدَ في ذلك على نوازل البرزلي، والمازوني، فيما يظهر لمن طالعَها ...الخ »، والملك **المتوكِّل** هذا هو الذي نهبَ دار **الونشريسي**، وكان سببا في هِجرته إلى المغرب، وذلك سنة 874هـ.

كما اشتهرَت مكتبة الشيخ **سعيد قدُّورة** إلى أن بِيعت منذ أَربعين سنة، وما زالت بعضُ الكتبِ مِن عهدِ جامعِها ومؤسِّسها قُرئت عليه، وكذلك بعضُ مؤلَّفاتِ **ابن أبي محلي** كان أَهداها له عندَ اجتماعِه به وتَداخلِه في الخلاف الذي كان بينه وبين الشَّيخ **عبد**

القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماحة**، المشهور بـ : **الشَّيخ** ـ مؤسِّس أسرة أبناء **سيدي الشيخ** المشهورين بثورة 1864م ـ .

يمتازُ الكتاب المخطوط الجزائري أنه كثيرا ما كان يُتَّخذ سِجلًّا للولاداتِ والوَفيات للأسرةِ ولأعيانِ العلماءِ والأحداثِ الهامة، أما الولادات فإنَّ معظمَ مَن سجَّلوا ولادات الأسرة إلا ويُلحقونها بهذا الدُّعاء أَو الأُمنية، وهي: أنه ولد له ولد سماه فلانا وهو يرجو أن « يجعلَه الله مِن العلماء العامِلين »، ولم نجِد مَن طلبَ غَير العلم معَ كثرة هذِه التَّسجيلات، كما يذكرونَ فيه عقودَ الزواج والصَّداقِ وقيمةَ الشُّورى والتَّحبيس والإِجازات إن كان الكتاب للمؤلِّف، وما ترتَّب في ذمَّتِه إن اشتَراه دَينا، ومن ذلك ما سجَّله العالم الأديب **محمد أقوجيل**[1] تلميذ الشيخ **سعيد قدورة** الذي اشتَرى كتاب (**فتح الباري**) على شيخِه المذكور، فسجَّل على ظَهر النُّسخة المشتراةِ هذه الأَبيات:

الحمـــدُ للمُهَـــيمِن المُعـــين	عـــلى أداء ثِقَـــل الـــدُّيون
وبعدُ فالقصـدُ بـذي الأبيـات	تـــذكرة خشـــية أَمـــرٍ يـــاتي
في ذمَّتـــي لشـــيخنا العلَّامـــهْ	حاوي العلومِ صاحب الإمامهْ
بالجـــامع الأَعظـــمِ بـــالجزائر	عـــمَّ نَـــداها ثاويـــا وزائـــر
وهـــو ســـعيد نجـــل إبـــراهيما	لا زال في سَـــــعادةٍ مُقـــــيما
سِتُّون بِيضا مِن كبارِ ما ضُرِبْ	بِصُـــنع رُومٍ للرِّيـــال تُنسَـــبْ
ترتَّبـــت عـــليَّ باختيـــاري	مِن اشترائي منـه **فـتحَ البـاري**

(1) هو محمد بن محمد بن علي أقوجيل، قرأ بالمشرق ولقي العلماء، وكان أديبا، ترجمه محمد بن ميمون الجزائري في (**التحفة المرضية في الدولة البكداشية**)، وذكر قصيدته التي وجَّهها سنة 1067 لباشا الجزائر، فيها نصائح وتحريض على محاربة الإسبان الذين كانوا في وهران، توفي سنة 1080هـ.

وأجــلُ الــدراهم المــذكورهْ إلى انقضـــاء ســـنة موفـــورهْ
ومبـــدأ العـــدَد مِـــن شـــوَّال مِن بعـدِ ستِّين مِـن الأَحـوال
بِســنة مِـن بعـدِ ألـفٍ ماضـيهْ بعـــونِ ربِّنـــا أَكـــونُ قاضـــيهْ

ثم نجِدُ خزانة **آل ابن الفقون** بقسنطينة، التي اشتهَرت مِن أوائل القرن السادس (كذا) **!** في عهد عالم الأسرة وأديبها الشَّهير **أبي علي حسن** صاحب الرِّحلة المنظومة التي ضمَّنها سَفره مِن **قسنطينة** إلى **مراكش**.

أما **بجاية** فإنَّها كما نعلَم جميعا أُصيبَت بالاحتِلال الإسباني الذي اشتَهر بأنه كان أشدّ خطَرا على الكتبِ العربية مِن **المغول** و**التتار** و**الصليبيِّين** الأوَّلين، وقَد عَرفنا مَصير الكتبِ بعدَ سقوطِ **غرناطة** و**تونس** كما ذكَر ذلك بتفصيلٍ صاحب **(المؤنس)**.

وكتب الله النَّجاةَ لبعضِ كتبِ **بجاية** بفَضل الَّلاجئين الأندلسيِّين الذين أسَّسوا المعاهد بوادي بجاية، وببني يعلى، وتمقرا، فأَنقذوا الكثيرَ منها، كما أنقذِت مؤلَّفاتُ **عبد الحق الإشبيلي**، ومنها **(ديوانه)** الذي ذكره صاحب **(عنوان الدِّراية)**، وكان مفقودا بعد ذلك، فقد احتفظت به **خزانة القرويِّين** العامِرة، كما احتفَظت بجلِّ تآليفه إلَّا **(العاقبة)**، فإنها بقيت بِبجاية إلى أن اشتَرها المرحومُ الشيخ **أبو الحبال** (مفتي بجاية)[1] ، وهي الآن بـ**(المكتبة الوطنية)** ضِمن كتبه، أما **(ديوان عبد الحق)** فقد أَملاه على ناسخِه حيث يقول: «أنشدني الفقيه الحافظ الزاهد الإمام المحدِّث الخطيب أبو محمد عبد الحقِّ الإشبيلي بجامع بجاية سنة ستٍّ وسبعين وخمسمائة... الخ».

ولم تكُن الكتب مقصورة على الملوكِ والعلماء، فقَد سار داءُ عَدواها إلى رؤساءِ الإِقطاع الذين كانوا يحبُّون أن يتشبَّهوا بالملوكِ في كلِّ شيء، فقد عثرتُ على نسخةٍ مِن

---

(1) مكتبة **أبي الحبال** كانت بيعت للخزانة المذكورة بعد وفاته.

مختصر ابن أبي جمرة يقول ناسِخُها: «نسخَه بيدِه الفانية للخِزانة العِلمية العليَّة، خِزانة أميرنا ومولانا أبي عبد الله محمد الصَّخري بن أحمد الشريف (أيَّده الله بنصره، وأدام حياته حِصنا منيفا لأهلِ طاعته)، وذلك في مجَّانة سنة 1099هـ»، والصَّخري هذا هو رئيس قبيلة الذّواودة الذي ثارَ على الأتراك، وقد سجَّل ثورتَه الأديب **محمد بن راس العين** في رسالةٍ كاتبَ بها الخلافةَ بـ: **الأستانة**، قال فيها يصِف **الجزائر**: «فَبلدتُنا هذه ذات بَساتين وأنهار، وأصوات وأطيار، وغدران وأشجار، وآصال وأسحار، وأعياد ومواسم، وثغور بواسم، ونفحات ونَواسم، وجهاد وملاحم، وكرات ومزاحم، مشايخها تُقاة، وكهولها ثقات، وولدانها طغاة، وعساكرها غزاة... والآن ضعفت الرَّعية، فعظمت البليَّة، وحلت الرَّزيَّة، وضاق المعاش، لما كثرت الأوباش، وضاعت الفقراء، إذ حارت الأمراء، وعظم الخطب، وتضاعف الكرب، ونغَّص العيش طاغية مِن طواغي البادية، فعظم الخطب وحلَّت الداهية...»، وهذا الطاغية الذي نغَّص العيش هو صاحب (**الخزانة العلمية**).

واسمحوا لي أن أختمَ حديثي بالكارثة العُظمى التي أصابت **الجزائر** عندما فقَدت خزانة **الأمير عبد القادر** بواقعة **الزمالة** في طاقين، إذ أن **الأمير عبد القادر** عِلاوة على مركزِه السِّياسي كان شَغوفًا بالكُتب، حتى أن أولَ فرنسيٍّ زارَه لمعسكر بعدَ **معاهدة دو ميشال** سنة 1835 ووصفَ انطباعاته إِثر هذه الزِّيارة ذكَر أنه « وجدَه جالسًا في مكتبِه الخاصِّ الذي هو عبارة عن بَيتٍ صغير له نافِذة، وعندما دخلَ عليه وجدَه واضِعاً على يمينه ويَساره نحو الأَربعين مخطوطة، كلُّها مجلَّدة »، وهذا الكاتب هو (Tartareau)، الذي نقلَ عنه الأستاذ **إمريت** في كتابه: (**الجزائر في عهد الأمير عبد القادر**).

والحديثُ عن خزانة **الأمير** وبعضِ نوادر المخطوطات التي استنسَخها أَو اشتَراها أَو أُهديَت له سنتحدَّثُ عنها في المحاضَرة المقبِلَة.

اهتمام علماء الجزائر بعلم القراءات في القديم والحديث[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّني بمناسبة انعقاد **الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي** الذي خصَّص نقطةً مِن نِقاطه للدِّراسات القرآنية كما سبق له في الملتقى الثالث عشر المنعقد بـ: **تمنراست** أن خصَّص للدِّراسات المذكورة، اخترتُ أن يكونَ موضوع دراستي في هذا الملتقى كما يدلُّ عليه العنوان: (**اهتمام علماء الجزائر بعلم القراءات في القديم والحديث**)، وذلك لعدَّة أسباب، مِن بينها أنَّ في الملتقى الثالث عشر شارك أحدُ الأساتذة المتخصِّصين في فنِّ القراءات بـ: **الرياض**، وكان هدفه مِن زيارته ومشاركته في الملتقى إحصاء المؤلَّفات في القراءات ببلاد المغرب العربي بصفة عامة، وفي **الجزائر** بصفة خاصة، وإحصاء هذه التآليف، أو على الأقل معرفة عناوينها بالجزائر ليس بالسَّهل، إذ جلُّ ما أُلِّف في الموضوع لم يحظ بالنَّشر، اللهمَّ إلا تفسير القرآن للشَّيخ **عبد الرحمن الثعالبي** (دفين الجزائر).

هذا، وإن الظُّروفَ التي اجتازتها **الجزائر** التي ابتُليت باحتلال شبه صليبي طيلة مائة وثلاثين سنة، عَقِب احتلالا صليبيًّا تبنَّته **إسبانيا** ودام حوالي ثلاثة قرون، حالا بين مواصلة النَّشاط في الميادين الفكرية ونشر ما تبقَّى مِن كتبِ التُّراث، خصوصا في فنِّ

(1) ألقيت هذه المحاضرة في ملتقى التَّعريف بالفكر الإسلامي الخامس عشر، المنعقد بمدينة الجزائر سنة 1401هـ/ 1981م، انظر: ملتقى الفكر الإسلامي (1/ 147 ـ 162)، منشورات وزارة الشُّؤون الدِّينية (الجزائر). (ع)

القراءات، إذ مِن المعجزات أن وصلَنا بعض ما تبقَّى منها، اكتشفناه مَغمورا في بعض الخزائن الخاصَّة، وهو في حكم المفقود.

اشتهرت **الجزائر** كبقية البلاد الإسلامية بمقرئيها وبمَعاهدها المتخصِّصة في القراءات حتى في عهدها الأخير، أي بعد سقوط بعض مدُنها إثر الاحتلال الإسباني، كـ: **بجاية** و**وهران،** وكان يقصدها الطلَّاب حتى مِن الأقطار المجاورة، كـ: **تونس** و**المغرب الأقصى،** سنتحدَّث عنها في مَوضعِها مِن هذه الدِّراسة.

ولننتقل إلى صميم الموضوع فنذكر أنَّ للقرآنِ مكانة عُظمَى عند المسلمين في جميع البلاد الإسلامية، لما ورد في ذلك مِن أحاديث نبويَّة تحثُّ المسلمين على صرفِ العناية إلى خدمته، التي تعدُّ مِن أعظم القُرب.

وفي طليعة هذه الأحاديث، حديث **عثمان** الذي قال فيه ﷺ: «خيرُكم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه»، وكان **سفيان الثوري** كما هو معلوم ومشهور يقدِّم تعليم القرآن على الغَزو، وقد عُلِم ما ورد في الغزو والجهاد مِن أحاديث نبوية صحيحة.

ومن جملة الأحاديث الواردة في الحثِّ على قراءة القرآن قوله ﷺ: «أفضل العبادة قراءة القرآن»، وقيل لـ: **عبد الله بن مسعود:** «إنك تُقلُّ الصوم»، فقال: «إذا صمت ضعفت عن تلاوة القرآن، وتلاوة القرآن أحبُّ إليّ»، ولهذا تسابقَ علماء الإسلام على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم على إعطائه الأولوية والأَسبقية، وكان ما جرى به العمل في جميع البلاد الإسلامية أنَّ أول ما يتلقَّاه الصبيُّ في مرحلته الأولى مِن التعلُّم بالكتَّاب أو ما يُعرف بالمدرسة الابتدائية القرآنية، حِفظ سورٍ مِن القرآن، ولا ينتقل الصبيُّ مِن الكتَّاب إلى تتبُّع بقية فنون فروع المعرفة من لغة وفقه وحديث إلَّا بعد حفظه القرآن عن ظهر قلبٍ وإتقان أحكامه، كما كان علماء القراءات يتشدِّدون كثيراً في السند والروايات، ويشترطون في المتصدِّرين لتعليم أحكام القرآن إتقان العلوم التي يحتاجون إليها في ذلك روايةً ودراية،

وتمييز الصحيح من السقيم، والمتواتر من الشاذ، وما لا تحلُّ القراءة به وما تحل.

ولما ذكرناه، حذَّر المقرءُون مِن التساهل في الاعتماد على الأخذ من الكتب مباشرة، بلغَ أصحابها ما بلغوه مِن الشُّهرة في بقية فروع المعرفة، واشترطوا الرواية مشافهة عن المقرئ، إذ الاعتماد على الكتُب مباشرة من دون واسطة الأستاذ لا يخلو من تسرُّب الغلط والخطأ أو عدم الضَّبط.

وقد اشتهر في فنِّ القراءات علماء جهابذة يُشار إليهم بالبنان، كتب لتآليفهم الخلود، وانتشرت في البلاد الإسلامية، وهي محلّ ثقة عند الجميع.

وإن مِن أهمِّ هذه التآليف التي تعدُّ من المراجع الأولى لمقرئي بلادنا، منظومة الإمام **أبي محمَّد الشاطبي الأندلسي** (538 ـ 590)، واسم هذه المنظومة: **(حرز الأماني ووجه التهاني)**.

وقد تسابق كبارُ علماء هذا الفنِّ إلى شرحها والتَّعليق عليها، كالإمام **علم الدِّين السخاوي**، والإمام **أبي القاسم علي بن عثمان القاصح** صاحب كتاب: **(سراج القارئ المبتدي وتذكار المقرئ المنتهي)**، كما اشتهر مِن هذه التآليف ببلادنا كتاب: **(إنشاد الشريد)** لمقرئ بلاد المغرب العربي على الإطلاق في عهدِه الإمام **محمد ابن غازي المكناسي**، وتأليف الإمام المقرئ **علي النوري السفاقسي** التونسي، المسمَّى: **(غيث النفع في القراءات السَّبع)**.

نقتصر على هذه التآليف الثلاثة في فنِّ القراءات التي لا يخلو سندٌ من أسانيد قرَّاء الجزائر مِن ذكرها، واتِّصالهم بأصحابها، إذ السَّند في القراءات له أهمية عظمى، إذ يقول بعض العلماء في الموضوع: «فحملة القرآن القائمون بحقوقه نطقاً وعلماً وعملاً أهل الله وخاصَّته، فأكرم بعلمٍ يتَّصل سنده بربِّ العالمين».

هذه لقطات ذكرناها كتمهيد لموضوع بحثِنا الذي نقتصر فيه على استعراض بعض التآليف التي هي كما يدلُّ عليها عنوان المحاضرة: (**اهتمام علماء الجزائر بعلم القراءات في القديم والحديث**)، وقد اشتهر بعضها عند المعنيِّين بهذا الفنِّ، حيث نجِدُها مذكورة في فهارسهم، إلا أنَّ أكثر هذه التآليف في حكمِ المفقود، ولهذا سأتناول في هذا البحث نُبذا مِن تراجمهم، وفقراتٍ من تآليفهم، لإعطاء ولو صورة مصغَّرة من هذه التآليف كنماذج.

ولنبدأ بالمقرئ الشَّهير الشيخ **علي الزواوي،** أحد مشايخ الشَّيخ **عبد الرحمن الثعالبي** (دفين الجزائر)، و**علي الزواوي** هذا اشتهر في عاصمة **الجزائر** بضريحه، حتى إنه أطلق اسمه على حي مِن أحياء العاصمة، ورغم إحداث حي تجاري إثر الاحتلال الفرنسي مباشرة، وهدم ضريحه خارج **باب عزُّون،** وبالضَّبط قُرب **المركز الثقافي الإسلامي** التابع لوزارة الشُّؤون الدِّينية بالجزائر، نهج **علي بومنجل،** فإنه لا زالت إحدى العجائز تتفقَّد مَوضع الضَّريح يوما في الأُسبوع لاستقبال الزُّوَّار، وهي عادة يتَوارثها هؤلاء العجائز منذ طمسِ هذا القبر، وإحداثِ هذا الحيِّ التِّجاري الذي لا زال كبار السكَّان يطلقون عليه اسم: حي سيدي **علي الزَّواوي**.

وقد احتفظ لنا التاريخُ بتأليف من تآليفه في القراءات، وهو بالضبط في الوقف، قال ناسخه في ختامه: «كملَ بحمد الله وحسنِ عونه وتأييده وتوفيقه في يوم الاثنين الرابع والعشرين من شهر صفر عام اثنين وثمانين وتسعمائة، وكتبه أفقر عبيده إلى رحمة خالقه **أحمد بن عبد العزيز الحاج الزواوي** (غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين)، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» اهـ.

وكُتب على ظهر التأليف في الصَّفحة الأولى عنوان الكتاب بحروف مغلَّظة، وهي هذه: «هذا الوقف للإمام سيدي **علي الزَّواوي** (نفعنا الله به)، آمين».

كما يوجد بقُرب هذا العنوان ما يلي: «في نوبة الفقير إلى رحمة ربه المنان عبده **محمد بن عبد الرحمن** (وفَّقه الله) سنة 1232»، وفَوق الكتابة خاتمه، ثمَّ بقُربه خاتم آخر واسم أحد مالكيه، خرمَه مِقصُّ المسفِّر.

ومالك الكتاب **محمَّد بن عبد الرحمن** هذا، كان مِن كبار علماء **الجزائر**، وكانت له خزانة مُعظم كتبها عليها خطُّه، وإنَّني في هذه المحاضرة لم أقصد سرد أسماء هذه التآليف ومؤلِّفيها فقط، بل التَّسهيل أيضا للباحثين الذين يهمُّهم في بحوثهم تتبُّع تراجم هذه الطبقة المفقودة مِن المقرئين.

وفي انتظار اهتمام أُولي الأمر بنشر ما تبقَّى مِن كتبِ التراث المعرَّضة للتَّلف فنَغتنِمُ هذه الفُرصة للتعريف بهذه المؤلَّفات، ونقلِ ولو بعض فقراتٍ من هذه التآليف التي وَصلتنا.

قال المؤلِّف بعد الحمدلة والتَّصلية على النبيِّ ﷺ: «... والتابعين لهم بإحسان، من حرَّاس مصاحف التنزيل على مراتب التَّرتيل، وسواس مدارج الوقف ومخارج الحروف عَن التحريف بالتعليم والتصنيف، فمِمَّن اشتهر منهم في البراعة والصناعة، الإمام المقدَّم على أقرانه، السابق العنان النحرير، الفائق في البيان والتَّحرير، الساعي في تصنيفه سعي مُجِدٍّ مجيد، الراعي ما يبغيه رعي مبدئ ومُعيد، غير أنه كان مولعا بالإطناب طلبا للتَّبصير، ومبدعا في كل وادٍ بالذهاب عدد التقصير، فتجاوز بطول الإمكان، حد رغبة أهل الزمان، قد عانى صدق همته، من هو واحد في الثقة، أمتعني الله به إلى إملاء هذا الكتاب على قلَّة الرغائب وكثرة المصائب، من تتابع الحسَّاد وعود سوق الفضل إلى الكساد، وحكم الجهل على ظلم الأمر بالفساد، فعملت إذ شرعت فيه عمل مَن طبَّ لمن حَبّ، وسعي مَن رب عالته الرب، في حريم شرطه ما دب من فصول ما انصب عن سعة الخاطر حتى استتب ضامناً لتهذيب، فرأيت الوقوف عن

سمات متداخلة المعاني في التحقيق، متباينة المباني في التلفيق مقصورة على خمس مراتب، اللازم، ومطلق وجائز ومجوز لوجه، ومرخص لضرورة... الخ».

نكتفي بهذه الفقرات من مقدِّمة المؤلِّف، أثبتها كنموذج، إذ كانت الأرَضة خرمت بعض الأوراق فصعب نقلها، ولضيق مجال هذه المحاضرة والوقت اكتفيتُ بهذا القدر أملا أن يقدَّم التأليفُ للنشر ـ إن شاء الله ـ فيشتغل به متخصِّصون في الفنِّ.

ولننتقل إلى التأليف الثاني الذي هو في حكمِ المفقود أيضا، وهو عبارة عن منظومة في القراءات لـ : **محمَّد بن أحمد الوهراني**، نظمها سنة 899هـ، وكان صغير السِّنِّ لم يجاوز العشرين سنة، وقد سمَّى منظومته: **(التقريب)**، وهي تحتَوي على اثنين وثلاثمائة (302) بيت، افتتَحها بقوله:

بدأت بحمد الله معتصما به ... نظاما بديعا مكملا ومسهلا

وثنيت بعد الصلاة على الرضا ... محمد والآل والصحب أشملا

وبعد فلما كان مقرأ نافع ... أجل مقارئ القرءان أفضلا

لما قيل فيه أنه بدار هجرة ... سنة خير المرسلين وكيف لا

أتيت بنظم في روايته التي ... بعشر سميت كيما يكون محصلا

رواية ورش ثم قالون مثله ... الأنصاري إسماعيل إسحاقهم ولا

والاثنان منهم الأولان ثلاثة ... لكل وباقيهم له اثنان فاعقلا

ونجل لإسحاق لقاضيهم سما ... والأنصاري إسماعيل عنه تقبلا

أبو عمرو الدوري روايته التي ... كساها أبو الزهرا ابن عبدوس ذا العلا

وأحمدهم يسمى المفسر مثله ... وأنصافهم عنه ابنه قد تنحلا

كذاك ابن سعدان وللنحو ينتمي ... فرتب أبا جاد على الكل بالولا

ألف لورش ثم باء لأزرق ... وعبد الصمد جيم له قد تمثلا

ودال أصــــبهاني وقـــالون هـــاؤه وزاى أبي نشـــيطهم قـــد تـــأملا

وحـــاء للحلـــواني وضـــاء لقـــاضي وبـــاء للأنصـــاري بهـــا قـــد تهـــلالا

وكـــاف ابـــن عبـــدوس ولام مفســـر وميم لإسحاق ونـون ابنـه انجـلا

وصاد ابن سعدان أخـي الفضـل والتقـى فتمت رموز الكل دونـك مسـهلا

إلى أن قال:

وجئـــت بهـــا وفي الأداء بغربنـــا ليجـري عليهـا الحكـم أول أولا

فـأطلق أن كـل البـدور توافـقت وباللفظ استغنى عن الرمـز أن جـلا

وقد صنف الأشياخ نثـرا ونظمـه كـــذا فـــيهم و التـــنملي فـــأكملا

وكالعـامري النـدب لكنـه أتـى بالأعمال في بعض الأصـول فأشـكلا

ولم يبق ماض للـذي قـد تـلا سـوى اقتفـــاء لأثـــار وبالســـبق فضـــلا

ثم يتعرَّض لعلماء الفن معتذرا لعدم تضلعه في القراءات ولصغر سنِّه، فقال:

أقـــول لأســـتاذ يـــرى لي زلـــة فيصلحها بالصفح جوزيت أفضـلا

وقـــل لعـــذول أن رآه بلفظـــه ألا لبنـــي العشـــرين عـــذر تقـــبلا

فـــما مثلنـــا يعنـــى بهـــذا وإنـــما كفى المرء نبلا عـد عيـب لـه اقـبلا

ولكننـــي إن شـــاء الله ربي مكمـــل بتشهير أو توجيـه مـا كـان مشـكلا

وأسأل ربي العـون و الصـدق والرضـا وتـــسهيل مـا رمنـا لكـل فيسـهلا

وســمَّيته (**التقريــب**) كـي قربـة بـه أنـــال مـــع الآبـــاء في جنـــة العـــلا

فيـــا رب انفـــع قارئيـــه ونـــاظرا ومـــا معـــه نفعـــا مبينـــا فـــيعقلا

وختم منظومته بقوله:

وفي صـــفر تمامـــه عـــام تســـعة وتســـعين بعـــد الثمانمائـــة ولا

ثلاثمائـــة واثنــــان أبياتـــه بـــدت مهذبـــة التوجيـــه و الحكـــم العـــلا

فأحمـــد ربي ثـــم أشـــكره عـــلى تمـــام الـــذي رمنـــاه تعريفـــاً أولا

وأســـأله غفـــران وزري كلـــه كذا ذنب أشياخي والآباء أشـملا

إننا مع الأَسفِ لم نعرف شيئا عَن مؤلِّفها إلَّا ما ذكره في **المنظومة**.

ولنواصل حديثنا عن بقية المؤلَّفات التي تعهَّدنا باستِعراضها، ومِن بَينها كتاب: (**الطراز في شرح ضبط الخراز**) للحافظ الشَّهير **أبي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي التلمساني**، شرح به (**منظومة**) **أبي عبد الله الشريشي** التي استهلها بقوله:

هـــذا تمـــام نـــنظم رســـم الخـــط وهـــا أنـــا اتبعـــه بالضـــبط

كـــي مـــا يكـــون جامعـــا مفيـــداً عـــلى الـــذي ألفيتـــه معهـــوداً

قال **التنسي** في (**شرحه**): «... وبعد، فلما رأيتُ مَن تكلَّم على ضبط الأستاذ **أبي عبد الله الشريشي** الشهير بـ: **الخراز**، وجدتهم بين مختصر اختصارا مخِلًّا، ومطوِّل تطويلا ممِلًّا، فتاقَت نفسي إلى أن أضع عليه شرحا متوسطا، يكون أبسط لقارئيه، وأقرب لفهم طالبيه، فشرعتُ فيه مستعينا بالله تعالى، وسميته بـ: (**الطراز في شرح ضبط الخراز**)»، ثم ابتدأ بشرح أول البيت، وهو:

هذا تمام نظم رسم الخط

فقال: «وقوله: (**رسم الخط**)، اعلم أنَّ الخط هنا هو واقع على المخطوط التي هي المصاحف، وهي يتكلم عليها بوجهَين: **أحدهما** يرجع إلى بيان الزائد والناقص، وهو المسمَّى بـ: **علم الرَّسم**، وفيه نظم المؤلِّف ما تقدَّم، و**الوجه الثاني** ما يرجع إلى علامة الحركة والسكون، والشدِّ والمدِّ، والساقط والزائد، وهو المسمَّى بـ : **علم الضبط**، وفيه نظم المؤلِّف هذا الذي تكلَّم عليه... الخ».

والحافظ **التنسي** مشهور، إذ كان مِن أبرز وأمثل علماء القرن التاسع بتلمسان، وله تآليف عديدة، من أهمِّها وأشهرها، كتاب: **(الدُّر والعقيان في تاريخ ملوك بني زيان)**، كما اشتهر الإمام **التنسي** في قضية شائكة لا زال مَعينها لم ينضب، وهي المعروفة عند المؤرِّخين بـ : **قضية يهود توات**، وكان البطلُ الذي أثارها الفقيه **[محمد بن] عبد الكريم المغيلي التلمساني**، وقد تسبَّب عنها انقسام علماء بلاد المغرب العربي: تلمسان، وفاس وتونس إلى قسمين: قسمٌ أيَّد **المغيلي**، وعلى رأسِه مترجمنا **التنسي**، والإمام **السَّنوسي** صاحب **(التوحيد)**، والقسم الآخر أيَّد خصمَه في القضية، وهو القاضي **العصنوني** (قاضي تمنطيط)، عاصمة بلاد **توات إذ ذاك**، وقد بسط هذه النازلة الإمام **أحمد بن يحيى الونشريسي** في موسوعته الفقهية: **(المعيار المعرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب)**.

كما حظي الإمام **التنسي** أخيراً بدراسة قيِّمة ضمَّنها الأخ الدكتور **محمود بوعياد** مدير **(المكتبة الوطنية بالجزائر)** أطروحته التي نال بها الدكتوراه، ولم يخل تأليف من تآليف التراجم بالمغرب العربي من إثبات ترجمته، كـ : **(ذيل الديباج)** لأحمد بابا التنبكتي، و**(البستان)** لابن مريم، و**(دوحة الناشر)** لابن عسكر... الخ.

أما تأليفه المذكور في فنِّ القراءات فهو متداولٌ عند المقرئين ببلاد المغرب العربي، وبلغنا أنه طبع بالمطبعة الحجرية، إلا أننا لم نطَّلع عليه.

وقبل أن نتعرَّض لبعضِ تآليف المتأخِّرين ـ أي: في القرنين الثاني والثالث عشر ـ نسج عليها العنكبوت خيوطه، وهي في حكم المفقود، نتحدَّث عن عالمين شهيرَين، لكلٍّ منهما عِدَّة تآليف، في طليعتها تفسير القرآن.

الأول منهما: عالم جزائري ودفينها الشيخ **عبد الرحمن الثعالبي**.

وثانيهما: محمَّد بن علي الخروبي.

فتفسير **الثعالبي** نال شهرةً في **الجزائر** شمالها وجنوبها، وحظي بالطبع إلا أن طبعته نفدت منذ زمان، وقد عثَرنا على نسخة مِن هذا التفسير ـ أي: (**الجواهر الحسان في تفسير القرآن**) ـ منذ سنوات قليلة بـ : **مكتبة الجامع الجديد**، المعروف بالجامع الحنفي، عليها أثر حريق، لفتَ انتباهي إليها استجازة صاحب النسخة، وفي أسفلها إجازتان بخطِّ المؤلف الشَّيخ **عبد الرحمن الثعالبي** يرجع عهدهما إلى حوالي ثلاثين سنة قبل وفاة المؤلِّف، وأهم ما في هذه الوثيقة ذكر المستجاز طريقة نشر تآليف **الثَّعالبي**، خصوصا في التفسير، وهذا نصُّ ما كتبه [المستجيز و] المستجاز بخطِّه على ظهر النسخة المذكورة مِن (**الجواهر الحسان**)، قال: «قرأتُ على الشيخ العالم المتفنِّن المحدِّث الزَّاهد سيدي **عبد الرَّحمن بن محمد بن** الشيخ الصالح الزاهد المتبرَّك به سيدي **مخلوف** (نفعني الله بجميعهم، وأعاد عليَّ من بركاتهم)، وختمت عليه مِن تآليفه النفيسة وتصانيفه الرفيعة التي أقام الله بها الدين، وأوضح بها السَّبيل للسالكين، قصد بذلك وجه الله فبلَّغه مِن ذلك مناه، وأظهر صدقَ نيته [كلمات ممحوة في الأصل] عادة الله في أهل العلم المصنِّفين أن تظهر تصانيفهم بعد وفاتهم على حسبِ الميراث، وإِنَّ لشيخنا هذا في تآليفه لسِرًّا بديعا وأمرا رفيعا، لقد ظهرت تآليفه في حياته، وسارت بها الركبان في الآفاق مع وجوده، وما ذلك إلا لسرٍّ أودعَه الله فيه، ولم يطلع عليه أحد مِن خلقِه، مع صدق نيته وصدق النفع لعباد الله أمة رسوله، وربما يكون في أثناء بعض تصانيفه والناس يختطفونه من يده ويتتبعونه بالنَّسخ حتى ربما أدركه النسَّاخ قبل أن يستكمل الكرَّاسة فينظرونه، سر إلهي لم يتسنَّ لمن سبقه، كالغزالي وغيره مِن أئمة الهدى على علوِّ قدرهم، فأَحرى أن يتسنَّى لمن بعده، جزاه الله عن المسلمين خيرا، ونفعنا به وأعاد علينا من بركاته.

وهي عديدة مختلفة الأجناس متباينة الأنواع، لم أقم بمعرفتها، فالذي ختمته عليه منها ورويته: تفسير (**الجواهر الحسان في تفسير القرآن**)، و(**الدر المنتقى**)، و(**كتاب الأذكار**

والدعوات)، و(**كتاب الأنوار المضيئة الجامعة بين الشريعة والحقيقة**)، وكتاب: (**العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة**)».

وكتب الشيخ **عبد الرحمن الثعالبي** تحت استجازة تلميذه ما يلي: «بلغ قراءة تفهُّم وبحث من أول هذا السِّفر إلى هنا، وكتب **عبد الرحمن بن محمد الثعالبي** (لطف الله به، وجعله من خير الفريقين)، والحمد لله، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، في أواخر ذي القعدة عام سبعة وأربعين وثمانمائة».

وكتب المجيز ـ أي: **الثعالبي** ـ بخطِّه أسفل الإستجازة ما يلي: «الحمد لله، سمع عليَّ الفقيه المحبُّ الفاضلُ **إسماعيل بن إبراهيم السنجاسني** جميع هذا السِّفر إلى (سورة سبأ)، وأجزته أن يرويه عنِّي ويقرئه متثبِّتاً ومتحرِّياً بالوقف عن الخوض فيما لم يصل إليه فهمه... الخ».

إني أضفت ترجمة **الثَّعالبي** إلى مَن ذكرتهم قبله ولو حظي تفسيره بالطبع، إذ اغتنمت فرصة تحرير هذه الدِّراسة فأثبت ما اكتشفت من هذه النسخة الأصلية التي عليها إجازته بخطه، وقد كتبها قبل وفاته بثمان وعشرين سنة، إذ كتبها سنة 847هـ، وتوفي سنة 875هـ.

ولهذا النوع مِن الإجازات أهمية عُظمى، حيث أن المستجاز يضبط اسم الأستاذ وتاريخ الأَخذ عنه، ومما تمتاز به هذه الاستجازة الطريقة التي كان تلامذة الشيخ يوزِّعون بها تآليفه، وهي جارية في بعض الجِهات، فبمجرَّد ما يفرغ المؤلِّف مِن تحرير كرَّاسة أو كرَّاستَين، يتقاسمُ أوراقها الخطَّاطون مِن التلامِذة ويوزِّعونها فيما بينهم، وعندما ينتهي المؤلِّف مِن تأليفه يكون عدد نسخه تبلغ العشرات أو المئات، والذي يؤسَف له أن الإجازة الثانية أكثرها غير واضح، وهذه النُّسخة مِن **التَّفسير** عثرتُ عليها منذُ سنوات، واستعَرتُها مِن إمام **الجامع الجديد** إذ ذاك الشَّيخ **محمد اليعقوبي** (إمام جامع كتشاوة)، وأخذتُ منها صوراً نقلية لي وله، وللمرحوم الشيخ **محمد بابا عمر**.

ولنضف إلى **الثعالبي** نبذة من ترجمة العالم الشهير **محمد بن علي الخروبي** المتوفَّى بالجزائر حوالي سنة 962هـ، ولهذا العالم شهرة، أدركه الحكم العثماني إماما خطيبا بالجامع المالكي، قال في التعريف به صاحب: (**الإعلام بمَن حلَّ بمراكش وأغمات مِن الأعلام**): «**محمَّد بن علي الخروبي** الطرابلسي المنشأ، نزيل الجزائر ودفين خارجها، كان من أهل الحديث والفقه والتصوف والصلاح، واقفا على أغراضهم، جمع في فنِّ التصوف والأذكار والأوراد كتبا... »، إلى أن قال: «وحدَّث بعضُ الجزائريِّين أنه رأى (**تفسيراً**) له على القرآن العظيم بجزائر مزغنة، وغير ذلك، وكان جمَّاعا للكتب، خطيبا بالجزائر، وكان له وجاهة عند أمراء بني عثمان، استعملوه في السفارة بينهم وبين أبي عبد الله المهدي الشريف الحسني مرَّتَين، فورد المغرب فأخذ عنه كثير من أهله... الخ»، «... وقد وصلَنا مِن تفسيره مقدِّمتَه، وقد سمَّى تفسيره: (**رياض الأزهار وكنز الأسرار**)».

نقتصر على هذه اللقطات من ترجمة **الإمام محمد بن علي الخروبي**، ونواصل حديثنا عن بقية المقرئين الذين اخترنا استعراضهم في هذه الدراسة، وهم وإن بلغوا شهرة في عهدهم، ونوَّه بهم بعض تلامذتهم في أسانيدهم وفهارسهم، كـ : المؤرِّخ **محمد أبي راس المعسكري**، وغيره بالنسبة إلى عالمين جليلين، وهما: الشيخ **أحمد بن ثابت التلمساني**، وأستاذه **ابن توزينت**، وأختم هذه الدِّراسة بإلحاق مقرئين جليلَين، وهما: الشيخ **محمد بن أبي القاسم البوجليلي**، والشيخ **علي بن الحفاف**، اللذين يُعدَّان مُعاصِرَين.

فالشيخ **أحمد بن ثابت التلمساني** له تأليف مشهور عند القرَّاء بالجزائر، سماه: (**الرِّسالة الغرَّاء في ترتيب اختلاف وجوه القرَّاء**)، ينتمي **أحمد بن ثابت** إلى أسرة بني زيان ملوك تلمسان، وقد ذكر تلميذُ تلامذتِه المؤرِّخ **محمد أبو راس** في (**رحلته**) عند تعداد أساتذته، فقال: «ثم تتلمذتُ للشيخ **منصور الضرير** تلميذ شيخ شيوخنا وآخر أهل الرسوخ، أحد أطواد الأسانيد الثوابت، الشيخ **أحمد بن ثابت** المتوفى سنة 1158هـ، بـ: **جبل ترارة** لما

أخرجَه مِن أرض آبائه قُرغليَّةُ **تلمسان**، فأتقنتُ على الشَّيخ **منصور** القرآن...».

أخذ الشَّيخ **أحمد بن ثابت** المذكور عن المقرئ الشَّهير **أبي عبد الله ابن توزينت**، وقد ترجم **أبو راس ابنَ توزينت** المذكور، فقال في (**رحلته**) المتقدِّمة الذِّكر: «ولما جمعتُ القرآن أتيتُ الشَّيخَ **منصور** الضَّرير صاحب القراءة والأحكام، أخذ بها الشيخ أبو القاسم بن توزينت المستشهد بوهران عند حاسي الأحرش سنة 1118هـ».

وتأليف **أحمد بن ثابت** صغير الحجم، وكان عمدة المقرئين إلى وقت قريب، وهذه فقرات منه كنموذج، افتتحه بقوله: «الحمد لله الذي أرشدنا بكتابه واصطفانا لخدمته وأهَّلنا لفهم خطابه، وجعله رحمة لنا ووقاية مِن عذابه ...»، إلى أن قال: «... وبعد، فهذه (**الرِّسالة الغرَّاء في تَرتيب اختلاف وجوه القرَّاء**) سأَلنيها بعض الثِّقات ليعرف المقدَّم في وجوه الرواة، فاستبنتُ القوي مِن الضَّعيف، وباينت المشروف من الشريف، وما توفيقي إلَّا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب...»، ثم قال بعد ذلك: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمَّد، ذكر اختلافهم في التعوُّذ والبسملة وبيان الراجح من ذلك، فاعلم أنَّ المستعمل عند الحذَّاق واتفقت الأئمة عليه هو: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لجميع القراء، ونُقِل عن **حمزة وورش**: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ووردت عن **حفص** أيضا في بعض الطرق، ونقل عن **ورش** وا**بن كثير**: أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم، وروي عن **أبي عمرو** و**نافع** وا**بن عامر** و**الكسائي** و**حمزة**: أعوذ بالله من الشيطان إن الله هو السميع العليم... الخ».

نكتفي بهذا القدر فيما يخص **أحمد بن ثابت** وننتقل إلى ترجمة أستاذه **ابن توزينت** الذي خصَّص تأليفه لكيفية جمع الطرق وتحرير نسبتها على قراءة الإمام **نافع المدني** من روايتي **عيسى قالون** و**عثمان ورش**.

وقد استهلَّ تأليفه بما يلي: «قال كاتبه العبد الفقير لرحمة ربه **محمد بن علي بن محمد**

بن محمد بن أحمد المعروف بـ: **ابن توزينت** العبَّادي مولدا، التلمساني دارا، كان الله له ولوالديه ولأشياخه في الدَّارين، ونفعنا ببركاتهم، آمين ...».

ثم قال: «الحمد لله الذي أطلق ألسنتنا بلفظ القرآن، ووفَّقنا لحفظه وتلاوته، ووعدنا عليه بجزيل الامتنان، وجعل حمَلَته مِن أهله وخاصَّتِه ففازوا بجميل الرضوان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الرحيم الرحمن، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله المصطفى من ولد عدنان، الآتي للمؤمنين بالرأفة والشفقة والحنان ...»، إلى أن قال: «وبعد، فهذا تقييد يشتمل على كيفية جمع الطرق وتحرير نسبتها بقدر الاستطاعة على قراءة الإمام نافع المدني مِن روايتي عيسى قالون وعثمان ورش (رضي الله عن الجميع)، حسبما قرأتُ بذلك على شيخنا المقرئ **أبي عبد الله سيدي محمد بن علي العبادي** المعروف بـ : **ابن العطار**، كما قرأ على الأستاذ المقرئ إمام الجماعة بحضرة تلمسان الشيخ **السنوسي** المقرئ، كما قرأ على الأستاذ المقرئ بحضرة **الجامع الأزهر** من الديار المصرية **أبي الضياء سلطان** قدَّس الله أرواحهم وأرواح أشياخهم في أعلى فراديس الجنان، وأسلك في ذلك طريق **الشاطبية**، فأبدأ الكلام على رواية **قالون**، ثم أردفه برواية **ورش**، لترتيب ذلك فهما وليس بملتزم، إلا أن الأحسن أن نبدأ بما بدأ به المؤلِّفون في كتبهم، قال الإمام **القيجاطي**: ولنبدأ بالراوي الذي بدأوا به، ولكن هذا ربما عد سهلا، وبذلك أقرأني الشيخ المذكور، ثم اعلم والله العالم وبه التوفيق وهو حسبي ومنه الإرشاد إلى سواء الطريق... الخ».

وختم **ابن توزينت** تأليفه بِقوله: «وهذا آخر ما يسَّره الله سبحانه مِن تقييد قراءة شيخنا، جعله الله خالصا لوجهه الكريم، ووسيلة للفوز في جنات النعيم، وألتمس من المارِّ به أن يغضَّ الطَّرف عن الهفوات، ويسامح فيما عثر عليه مِن الهفوات، فإنني لست من أهل هذا الشَّان، ولا ممن له سَبقٌ في هذا الميدان، ولكن حملني عليه بعض الطلبة لما قدم

علينا مِن أرض المغرب، وكان قد قرأ هنالك، ولم يعهَد هذه الصِّناعة بفاس، ولا عند أحد من الناس، لأن الشيخ **السَّنوسي** هو الذي أتى به، فسألوني فاستشرتُ الشَّيخَ فأذِن لي، مع أني قليل البضاعة، غير دَرِيٍّ بهذه البضاعة، فشرعتُ بما ذكرت، والحمد لله على التمام، ونسأله المماتَ على الإسلام... الخ».

نكتفي بهذه الفقرات من التأليفَين المذكورَين اللذين نالا إقبالا وشُهرة في أواخر العهد العثماني وأوائل عهد الاحتلال.

ولنختم دراستنا بتأليفَين آخرَين هامَّين، الأول للشَّيخ **محمد بن أبي القاسم البوجليلي** تلميذ الشيخ **محمد أمزيان بن الحداد** بطل ثورة 1871م، والثاني للشيخ **علي بن الحفاف** المتوفَّى سنة 1307هـ.

هذا، وإن تأليف الشيخ **البوجليلي** على صِغَر حجمه يزخَر بالفوائد، إذ أثبت سنده في علم القراءات ببلاد **زواوة** التي اشتهرت بمعاهدها الخاصة بفنِّ القراءات، تلك المعاهد التي كانت محطّ رجال المقرئين طيلة العهد العثماني، وكان يقصدها الطلاب من القطاع القسنطيني وتونس.

قال الشيخ **محمد بن أبي القاسم البوجليلي** في رسالته بعد الدِّيباجة: «وبعد، فهذه تبصرة لما قرأناه من روايات العشر عن أساتذتنا المشايخ الأعلام. ..»، إلى أن قال: «... مقدِّمة مشتمِلة على فوائد: **الأولى**: بيان إسناد قراءتنا مع تاريخ وفيات بعض أشياخنا (رحمهم الله)، **الثانية**: ذكر بعض فضائل القرآن العزيز، **الثالثة**: رمز المنقول عنهم، **الرابعة**: تسمية الرواة ووضعهم في جدول، **الخامسة**: بيان ما يبدأ به في القراءة من العشرة».

ثم شرع في التفصيل فقال: «أما إسناد قراءتنا فأقول: إني افتتحتُ قراءتي صغيراً عن والدي (رحمه الله)، ثم انتقلتُ عام 1261هـ إلى مقام **الولي الصالح سيدي عبد الرحمن**

اليلولي، فقرأتُ هناك على أشياخي السيد **العربي الأخداشي** بعض ختمة برواية قالون، والسيد **معمر الطاهر الجنادي** حين كان هناك تلميذا، والسيد **محمد بن علي بن مالك** قالون عشرا في مدَّة نحو أربعة، ثم أقرأت بعد نحو ثلاثين سنة في المقام المذكور على حسب وقت الرقم وتمام عامه سبعة أعوام أولها عام 1297هـ، وقرأ **الجنادي** على **الشيخ السيد محمد بن يحيى اليراثني**، وقد أدركني إماما في المقام، وعن **الأخداشي** إفرادا وعشرا، وعن **الشيخ** السيد **محمد بن علي المزبور** عشرا ونحوا، وابتدأ السبع عنه وترك الختمة في سورة الأعراف، ولم يتممها، وقال: ما قرأنا قراءة صحيحة... الخ».

وهذا السَّند يعدُّ جوهريا بالنِّسبة لدراستنا، إذ استعرض الشيخ **البوجليلي** معظم المقرئين ببلاد **زواوة في عهدِه**، كما يعدُّ هذا السَّند جوهريا بالنسبة لموضوع دراستنا، وحتى لتاريخ الجزائر هو كشف الغطاء عن الغموض الذي كان يحيط بمكانة **الشيخ ابن حداد** العلمية، حيث ذكر الشيخ **البوجليلي** أنه أخذ عنه عدة فنون، كـ : السُّلم والسمرقندية... الخ، وإلى ذلك أشار بقوله في سنده المذكور: «وأما شيخنا فقها وطريقة السيد **محمد أمزيان بن الحداد**، فتوفي في **قسنطينة** بسبب الحرب الواقعة في ذلك الوقت، ليلة الثلاثاء ثانية ربيع الثاني بعد العشاء بساعة عام 1290هـ وهو (رضي الله تعالى عن جميعهم، وحشرني وأهل الحبِّ في الله تحت لواء الرَّحمة) له طريق مشهور بها بالعلم والعمل، وله فيها طرقَ سمعي ستمائة مقدَّم في الطريقة الصوفية، ومن جملتهم **السيد أحمد بن موسى** بسوس الأقصى، مسيرة أربعة أشهر مِن هنا، وقرأتُ أنا عنه ختمة في **سلَّم المنطق**، وأُخرى في **الجوهر المكنون على المعاني والبيان**، وأخرى في **الاستعارات السمرقندية**، ولهم مناقب تركتُ ذِكرها خشيةَ التطويل... الخ ».

وإنَّنا كما سبق لنا ذكره لو لم نستفِد مِن هذا السَّند إلا ترجمة **ابن الحداد** لكان لهذا السَّند أهميته ووزنه، إذ تواطأ كثير مِن المتساهلين في تَسجيل التاريخ، تصوير الشَّيخ **ابن الحداد**

بأَنَّه أُمي، مع أَنَّا عثَرنا على تأليف له ذكر فيه أطوار **الطريقة الرحمانية** بعد موتِ ناشرها **الشيخ محمَّد بن عبد الرحمن الجرجري**، ووصف حالة البلاد بعدَما أذن له شيخه **المهدي السكلاوي اليراثني** في رياسة **الطريقة الرَّحمانية**، لما عزم على الهِجرة إلى **الشَّام** سنة 1262هـ.

ولنختم هذه الدِّراسة بترجمة آخر مقرئ بالجزائر، هو العلَّامة **علي ابن الحفاف** المفتي المالكي بالجزائر في عهدِه، هو **علي بن عبد الرحمن بن محمد**، المدعو: **ابن الحفاف**، أخذ عن كثير من علماء عهده أدركه الاحتلال الفرنسي في ريعان الشَّباب، فالتحق بجيش **الأمير عبد القادر**، لما كان مرابطا بـ : **مليانة**، فعيَّنه الأمير كاتبَه الخاصّ، وحينئذ أصدر فتواه الشَّهيرة التي حكم فيها على كلِّ العلماء الذين لم يهاجروا مِن مدينة **الجزائر** بالكفر، وردَّ عليه **الشيخ محمد ابن الشاهد** مبينا ظروف كثير من علماء البلاد ـ أي مدينة الجزائر ـ الذين لم تُساعدهم ظروفهم الخاصة على مغادرة البلدة، وجواب **ابن الشاهد** هذا يعدُّ مِن أهمِّ الوثائق الأصيلة في تاريخ الاحتلال.

ذهب مترجمنا **علي بن الحفاف** إلى الحجِّ سنة 1280هـ واجتمع بالعلَّامة **الشيخ دحلان** مفتي السادة الشافعية بـ : **مكَّة** المكرمة، ودار بينهما في حكم قراءة البسملة في الفاتحة في الصلاة، وبعد رجوعه أَلَّف رسالة في الموضوع سماها: **(الدقائق المفصلة في تحرير آية البسملة)**، هذه فقرات منها: «الحمد لله الذي فتح أقفال قلوب العلماء بدقائق الأنظار، وادَّخر للأواخر منهم دقائق رقائق الأفكار، وأمدَّ الجميع بنور منبع الأنوار ...»، إلى أن قال: «وبعد، فإنه لما منَّ الله على العبد الحقير، بالوصول إلى الحرم الشريف، واتفق الاجتماع بالعلَّامة الشيخ سيِّدي **دحلان** مفتي السادة الشافعية، وانجرَّ الكلام على البسملة... الخ».

كان تاريخ هذه الرِّسالة في 26 جمادى الثانية 1286هـ، وذيَّل هذه الرِّسالة بردٍّ علَى رسالةٍ كتَبها في الموضوع **الشَّيخ عليش** (إمام المذهب المالكي بالأزهر) أيَّد بِها نَظريةَ **دحلان**، وإلى ذلك أشارَ **علي ابن الحفاف** بقَوله: «وذيَّلتُ **(الدقائق المفصَّلة في تحرير آية**

البسملة) بما وردَ عليَّ مِن بعضِ فُضلاءِ **مصر**، وهو العلَّامةُ الشَّيخ **محمَّد عليش** الذي استدلَّ بكلامِ الشَّيخ **الأمير** المنقولِ مِن تأليفه: **(ضَوء الشُّموع على شرح المجموع)** »، وقَد ردَّه متَرجمنا ولم يسلِّمه.

ترك مترجمنا **علي ابن الحفاف** تأليفا ضَخما قيِّما في القراءات، سماه: **(مِنَّة المتعال في تكميل الاستِدلال)**، تَناقله المقرؤونَ والطلَّاب، وواظبَ مدَّةَ حياتِه على تَدريسه، استهلَّ تأليفه المذكور بقَوله: «الحمدُ لله الذي شرَّفنا بتلاوة كتابه، وتفضَّل علينا بخدمته وفهم خِطابه، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيِّدنا محمد أفضل مَن بلَّغ الكتاب، وأشرف مَن بُعث بفصل الخِطاب، وعلى آله وذرِّيَّته والأصحاب، وبعد، فيقول العبد الفقير، المعترف بالعجز والتقصير، **علي بن عبد الرحمن بن محمد**، المعروف بـ : **ابن الحفَّاف**، الجزائري أصلا ومَنشأ، لما كان **(غيث النفع)** للشَّيخ سيدي **علي النوري** خاليا مِن الاستدلال بكلام الإمام **أبي القاسم الشاطبي**، وكان **(إنشاد الشريد)** للشيخ سيدي **محمد ابن غازي** مقتصراً على ضوالِّ القصيد، أردتُ أن أجعل تأليفا مشتملا على تمام الاستدلال بها في المحلِّ، مع زيادة ما يسَّره الله، قاصداً وجه الله لنفع الإخوان، معترفا بأني لست مِن فرسان الميدان، مرتكبا طريقة سيدي **علي النوري**، مشيراً بـ : **اللام** للإمالة، وبـ : **الصاد** للإدغام الصَّغير، وبـ : **الكاف** للكبير، وسمَّيته: **(مِنَّة المتعال في تكميل الاستدلال)**، والله أسأل أن ينفع به كما نفع بأصله، إنه سميع مجيب».

وقال في ختامه: «قد تمَّ كتاب **(مِنَّة المتعال في تكميل الاستدلال)**، في القراءات السَّبع على يدي كاتبه ومؤلِّفه المعترف بذنبه وبتقصيره وبعجزه، عبد ربه **علي بن عبد الرَّحمن بن محمد بن احمد المدعو الحفاف** ـ الجزائري أصلا ومنشأً ـ كان الله له وللمسلمين. وذلك بتاريخ اليوم الثامن من جمادى الأولى سنة تسعة وثمانين ومائتين وألف مِن هجرة مَن له المجد والشَّرف صلى الله تعالى وعلى آله وسلم تسلميا».

توفي **ابن الحفَّاف** كما سبقَ لنا ذِكره سنة 1307هـ، وكان مِن جملة مُترجميه **الشَّيخ بيرم الخامس** صاحب الرِّحلة: **(صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار)**، اجتمع به عند زيارته للجزائر، فقال: «ومن الأَخيار الذين اجتمعتُ بهِم ومنَحوني فضائلَ أخلاقهِم النّحرير العالم الشَّيخ **علي ابن الحفَّاف** المفتي المالكي بقاعدة الجزائر، وهو مِن تلامذةِ علَّامة القُطر الإِفريقي الشَّيخ **إِبراهيم الرياحي**، كما أخبَرني بذلك عَن نفسِه، وله فَضائل كامِلة، وتقوَى وسَكينة واطِّلاعٌ واسعٌ في الفِقه والحديث... الخ».

أما تأليفه المذكور فهو يحتَوي على (467) صفحة، كلُّ صفحةٍ تحتَوي على (27) سطراً، وكلُّ سَطر يشمَل (14) كلمة، وبه الختام.

تعقيبُ الأستاذِ بكير محمد الشَّيخ بلحاج
(الجزائر)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أشكُر فضيلةَ الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** على جهدِه القيِّم حِينَما أبرزَ لنا مجهودات العلماء الجزائريِّين في موضوع القِراءات، وإنَّنا بِحاجة إلى مَعرفتها، وليس لي ما أَستَدركُه عليه، غيرَ أنِّي أُضيفُ إلى قائمة المترجَم لهم في علمِ القراءاتِ واحدا مِن مَشاهير المؤلِّفين في الجزائر، وأنا أَعذره سلَفا على عدمِ ذِكره، لأنَّ الكتابَ لا يزالُ في الظُّلمات، ولأنه مخطوطٌ ويحتاجُ إلى مَن يخرجُه مِن الظُّلماتِ إلى النُّور.

المؤلِّف قطب الأئِمة الشَّيخ الحاج محمد بن يوسف اطفيش، والمؤلَّف هو: **(تلقين التالي لآيات المتعالي)**، شرحَ فيه منظومةً نظَمها بِنفسه، سمَّاها: **(جامعة حرف ورش)**، طبِعت بِمَطبعةٍ حَجرية سابِقا، أمَّا الكتاب فلا يَزال مخطوطا، وأنا بِنَفسي اهتدَيتُ إليه في هذِه الشُّهور الأَخيرة، والكتابُ يحتاجُ إلى جهودٍ ودِراسة مِن متَخصِّصين، الكتاب في نظَري الشَّخصي عظيمُ الأهمية، لأنه جمعَ فيه بين علمِ القراءاتِ وعلمِ الشَّكل، كما فعلَ ذلك بالنِّسبة للمَنظومة، يقعُ الجزءُ الأَكبر مِن المنظومة في مَوضوع القراءات علَى رواية **ورش** عن **نافع**، والقسمُ الأَخير مِنه مخصَّصٌ للشَّكل، وهذِه الطريقةُ لم أرَها حسبَ اطِّلاعي ومَعرفتي، والكتابُ كذلك عظيم الأهمِّية في استِطراداتِه، وفي مَوضوع القراءاتِ ومواضيعَ أُخرى كثيرة.

الكتاب باختصار يقع في 487 صفحة، ويشرحُ المنظومة التي بها 518 بيتا، في مَوضوع رواية **ورش**، والشَّكل كذلك، على حسبِ ما اختارَه النُّقادُ المغاربة على رواية ورش، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ردُّ الشَّيخ المهدي البوعبدلي
عضو (المجلس الإسلامي الأعلى)
و(المركز الوطني للدراسات التاريخية)
ـ الجزائر ـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الملاحظة الأولى: صديقنا الشَّيخ **ابن يوسف داود** تكلَّم عن الشَّيخ **بلحداد**، ورأى أنَّني لو أطلتُ في تَرجمته، فأَنا لم أتعرَّض للشَّيخ بلحدَّاد كمفسِّر، وإنَّما كرَجلٍ ذكَره أحدُ المقرئين، وهو الشَّيخ **محمَّد بن أبي القاسم البوجليلي**، ذكره مِن جملة القرَّاءِ المشهورين ببلاد زواوة، والشَّيخ **بلحدَّاد** لما كان أحد أبطالِ الثَّورة ـ ثورة 1871م ـ كتبَ عنه كثيرٌ مِن الأوروبيِّين بالخصوص، ومِن جملة ما تَرجمه هؤلاءِ الكتَّاب بل أَكثرهم أنَّه أُمِّي، لأنه يحملُ اسمَ حدَّاد، والدُه كان حدَّادا، وهو شِبهُ أمِّيٍّ أو أُميٌّ، ولكن في سندِ تلميذه الشَّيخ **محمد بن أبي القاسم البوجليلي** ذكر أنه قرأَ عليه ـ زيادة على كونه شيخه في الطَّريقة الرَّحمانية (**الخلواتية**) ـ قرأَ عليه فُنونا غَريبة في ذلك الوقت، بالخصُوصِ مِن بعدِ عهدِ الاحتِلال الفرنسي، وفي أَوائل عهدِ الاحتلال الفرنسي قرأَ عليه (**السُّلَّم**)، و(**الجوهر المكنون**)، و(**السَّمرقندية**)، وغيرها، فبيَّن لنا أنَّ هذا الرَّجلَ كان عالما، لا كما يدَّعيه كثيرٌ مِن الكتَّاب، هذِه هي الناحية التي تعرَّضنا لها، لم نتعرَّض للشَّيخ **بلحداد** ولا لقيمتِه، هذا هو ما ذكَره الشَّيخ **ابن يوسف**، وأتمنَّى أن تكونَ فُسحة أُخرى ونكتُب عَن الشَّيخ **بلحداد** ـ إن شاء الله ـ كتابةً على الأقلّ تَرفضُ هذِه التُّهمة، تهمة الأُميَّة أَو شِبه الأُميَّة، والسَّلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته.

اهتمام علماء الجزائر
بعلم الحديث قديما وحديثا[1]

المهدي البوعبدلي
عضو (المجلس الإسلامي الأعلى)
و(المركز الوطني للبحوث التاريخية) بالجزائر

حضَرات السَّادة والسيِّدات ...

سبق لي في الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي، المنعقد في السنة الماضية بعاصمة الجزائر تناول هذا الموضوع، أي: (**اعتناء علماء الجزائر بعلم القراءات**)، حيث خُصِّص ذلك الملتقى للدراسات القرآنية، ولما خُصِّص الملتقى السادس عشر في هذه السنة لدراسة علم الحديث، اخترتُ العودة إلى موضوع السَّنَة الماضية وهو كما يدلُّ عليه عنوانه: (**اعتناءُ علماء الجزائر بعلم الحديث قديما وحديثا**)، وذلك للتَّسهيل على الباحثين بهذه الدِّراسات كشف اللِّثامِ على كثيرٍ مِن هذه المؤلَّفات التي تعرَّض الكثير مِنها للإهمال والضَّياع، وبقي البعضُ الآخَر مِنها مَغمورا مجهولا، خصُوصًا وأنَّ كثيرًا مِن المؤلِّفين الجزائريِّين كان يُطلَق عليهم مَغاربة، فَصار مِن الصَّعبِ فَرزُهم، إذ كانت نِسبةُ علماءِ المغربِ تَشملُ المغربَ الأَقصَى والجزائر وتونس، وحتى ليبيا.

---

(1) ألقيت هذه المحاضرة في ملتقى التَّعريف بالفكر الإسلامي السادس عشر، المنعقد بمدينة تلمسان سنة 1402هـ/ 1982م، انظر: ملتقى الفكر الإسلامي (4/ 349 ـ 362)، منشورات وزارة الشُّؤون الدِّينية (الجزائر). (ع)

ولما كان هذا الموضوعُ مُتشعِّبا لا تَسعُه المجلَّدات، فإِنِّي سأَقتصِرُ في بَحثي هذا على ذِكر نَماذجَ أركِّزها على **صحيح البخاري** ووُصوله إلى بِلادِ المغرب، وبعضِ الفهارس لمشاهير الجزائريِّين، وذِكرِ نُبذةٍ عَن نُسخ **صحيح البخاري** التي ختمَ بِها المطافُ في خَزائن الجزائر العامَّةِ والخاصَّة.

وأَغتَنِمُ الفُرصةَ لأَختِمَ مُحاضَرتي هذِه بدراسةٍ خاصَّةٍ لتأليف قيِّم في علمِ الحديثِ وَصلَ إلى الجزائر، وما زال الباحِثونَ لم يَهتدوا إلى كشفِ الغُموضِ الذي يكتنِفُه، حيثُ اشْتَبَهَ عليهم مؤلِّفُه المجهولُ عِندَهم بِسَمِيِّه، وظنُّوا أنَّ مؤلِّفهما واحِد، وهذا التأليف هو: **(الفرائد المرويات في شرح ثلاثيات البخاري)** للحَضرمي، وقَد خُتِمَ به المطافُ بالجزائر، كما سنُبَيِّن ذلك بِمَزيدٍ مِن البيانِ والتَّفصيل، ومِن حُسنِ الحظِّ أنَّ هذا التأليفَ يهمُّ الباحِثينَ في العالَم الإِسلامي، إذ سبقَ أن طرَحَ بعضُ كبارِ المحدِّثين السُّؤالَ عَن الغُموضِ الذي اكتَنفَه ولم يُجِبْ عنه، والنُّسخةُ التي خُتِمَ بها المطافُ بالجزائر تُعدُّ مِن ناحية ثانية مِن نَوادرِ المخطوطاتِ الحديثية [1] الأَندلُسية.

هذا، ولما كان **(صحيح البخاري)** قَد وصلَ إلى الجزائر ضِمنَ ما وَصلَ إلى بِلادِ المغربِ مِن طَريقَين اثنَين:

1) أولاهما طريق النَّسفي [2] إبراهيم بن معقل بن الحجاج المتوفَّى عام (295هـ/ 908م).

---

(1) في الأصل: «الحديثة». (ع)

(2) هو الإمام الحافِظُ الفقيه القاضي، أَبو إِسحاقَ النَّسفي، قاضي مدينة **(نَسَف)**، سَمِعَ من أعلام عصره، وله رِحلةٌ واسِعة، توفي في ذي الحِجَّة سنةَ 295هـ، له: **(المسنَد الكبير)**، و**(التَّفسير)**، وغيرُ ذلك، وحدَّثَ بـ: **(صحيح البخاري)** عن المؤلِّف، وكان فقيها مجتهدا، انظر: **السير** (13/ 493)، و**تذكرة الحفاظ** (2/ 686 ـ 687)، و**العبر** (2/ 100 ـ 101)، و**الوافي بالوفيات** (6/ 149)، و**النجوم الزاهرة** (3/ 164)، و**شذرات الذهب** (2/ 218). (ع)

2) و**الطَّريق الثاني** الفَربري[1] **محمد** بن يوسف بن مطر بن صالح المتوفَّى عام (320هـ/ 932م).

وفي هذا قال **القاضي عياض** في تأليفه **(مشارق الأنوار)**: «ولم يَصِل إلينا مِن غَير هذَين الطَّريقَين عنه، ولا دَخَلَ المغربَ والأَندلسَ إلَّا عَنهما، على كَثرةِ رُواةِ **البخاري** عنه لِكتابه»[2].

وكانت طريق **الفربري** هي التي اشتهرت ـ أكثر ـ في العالم الإسلامي، وإلى هذا أشار أيضًا الإمام **ابن حجر العسقلاني** في **(مقدمته لفتح الباري)** بقوله: «والرواية التي اتَّصَلت بالسَّماع في هذه الأعصار وما قبلَها، هي رواية **محمد بن يوسف بن مطر بن صالح الفربري**»[3].

وقد دخلَت هذه الطريقُ الأَخيرة إلى بلاد المغربِ في وقتٍ مُبكِّر، وانتقلَت إليه بِواسِطة رِوايات، اشتهَر مِنها سِتَّة يتَّصِل أَصحابُها **بالفربري** مُباشرة[4]:

1) الأولى رواية **أبي علي ابن السكن** المتوفى عام 353هـ.

2) والثانية رواية **أبي زيد المروزي** المتوفى سنة 371هـ.

---

(1) هو محمد بن يوسف بن مَطِر بن صالح بن بِشْر، أَبو عبد الله الفِرَبْري، نِسبةً إلى (فِرَبر)، بِكسر الفاء وبفَتحِها، وهي مِن قُرى **(بخارى)**، المحدِّثُ الثِّقةُ، العالم، راوي **(الجامع الصَّحيح)** عن أبي عبد الله البخاري، سمِعَه منه بـ (فربر) مرَّتَين، ولد سنة 231هـ، وتوفي سنة 320هـ وقد أَشرفَ على التِّسعين، وعنه اشتهرَ ورُويَ **(الصَّحيح)**، انظر: **الأنساب** (9/ 260 ـ 261)، و**معجم البلدان** (4/ 246)، و**وفيات الأعيان** (4/ 290)، و**العبر** (2/ 183)، و**الوافي بالوفيات** (5/ 245)، و**تاج العروس** (مادَّة: فربر). (ع)

(2) انظر: **مشارق الأنوار** (1/ 19) للإمام القاضي عياض. (ع)

(3) انظر: مقدِّمة **فتح الباري** (ص: 493) لابن حجر العسقلاني. (ع)

(4) انظر: **إفادة النَّصيح بالتعريف بإسناد الجامع الصَّحيح**، لابن رشيد الفهري. (ع)

3) والثالثة رواية **أبي أحمد الجرجاني** المتوفى عام 373هـ.

4) والرابعة رواية **أبي إسحاق المستملي** المتوفى سنة 376هـ.

5) والخامسة رواية **السرخسي** المتوفى سنة 381هـ.

6) والسادسة رواية **أبي الهيثم الكُشْمِيهني** المتوفى سنة 389هـ.

ثمَّ ظهَرت في بلادِ المغربِ والأندلس رِوايات، كان خِتامُها رواية **ابنِ سَعادة** التي أجمعَ علَيها المغاربة [1].

وابنُ سَعادة هو الحافظ **أبو عمران موسى بن سعادة الأندلسي البلَنسي**، وهو يروي بها **صحيح البخاري** عَن **أبي علي الصّدفي**[2]، عن **الباجي**، عن **أبي ذَرٍّ الهروي**، توفي **ابن سعادة** سنة 566هـ.

---

(1) توجد بالمغرب نسخة مقابلة على أصل الصدفي بالخزانة الملكية تحت رقم 5053 في مجلَّد ضخم، عورضت وقوبلت على أصل الصدفي، المأخوذ عن نسخة الإمام الباجي، كما يوجد بالخزانة العامة بالمغرب تحت رقم (1339/ د) السِّفر الثاني والثالث والرابع والخامس، أما السفر الأول فقد فُقِدَ منذ فترة طويلة، وأما السِّفر الثالث فقد استعاره المستشرق ليفي بروفنسال لدراسته وتحقيقه، غير أنه توفي قبل أن يعيده إلى مكانه، فبقي ضائعاً، وقد نشر المستشرق المذكور الخمس الثاني مِن الرواية منقولاً بالتصوير الشَّمسي مِن خطِّ ابنِ سَعادة الأصلي، وقد صدر هذا السِّفر بمقدِّمتَين: **(الأولى)** باللغة العربية وهي: **التَّنويه والإِشادة برواية ابن سعادة**، للشَّيخ عبد الحي الكتاني، و**(الثانية)**: باللغة الفرنسية للمستشرق المذكور، وقد نشر ذلك بباريس سنة 1347هـ كما في: **مدرسة الإمام البخاري** (1/ 83 ـ 84)، وانظر أيضا: مقالة الدكتور عبد الهادي التازي: **صحيح البخاري بخطِّ الحافظ الصدفي**، مجلَّة معهد المخطوطات العربية (1/ 21) ، المجلد: 19، سنة 1393هـ. (ع)

(2) انظر ترجمته في: **الغنية** (194)، و**الصِّلة** (1/ 143)، و**تذكرة الحفاظ** (1253). (ع)

وقد احتفظت مكتبةُ **(الجامع الأعظم المالكي)** بالجزائر بِعِدَّة نُسخ مِن رواية **ابنِ سَعادة**، مُعظمُها بخطِّ إمامِ المغرب في عَهدِه الشَّيخ **عبد القادر الفاسي**[1].

منها نسخة كُتِبَ في آخرِها ما يلي: «نَجَز السِّفرُ الخامس بِحمدِ الله وحسنِ تأييده مِن **(صحيح الإمام البخاري)** تجزئة ثمانية، من أصلٍ صحيحٍ مَنقولٍ مِن خطِّ الحافظ **أبي عمران موسى بن سعادة** على يد عُبيد الله أفقر عبيده[2] إلى رحمته **عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي**، كفاه الله همَّ الدنيا وعذابَ الآخرة، أوائل ذي حجَّة عام تسعة وستين وألف، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وآلِه وصَحبِه أفضل الصَّلاة وأزكى السَّلام، يتلوه أول السادس ـ إن شاء الله ـ (سورة الرعد)»[3].

وفي نسخة أخرَى مِن **(الخزانة)** المذكورة كُتِبَ على ظَهرها ما يلي: «الحمدُ لله، السِّفر الأولُ مِن **(الجامع الصَّحيح المختصَر مِن أمور رَسولِ الله ﷺ وسُنَنِه وأيَّامه)**، تأليف إمام المحدِّثين **أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري** (رحمه الله)، رواية الحافظ **أبي ذرّ عبد بن أحمد** [بن محمد] **الهروي** عَن شيوخِه الحفَّاظ الثلاثة:

1) **أبي [محمد] عبد الله بن أحمد بن حمويه بن أحمد بن يوسف بن أعين الحموي السَّرخسي** قراءةً عليه بـ: **هَراة**، سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة.

---

(1) هو عبد القادر بن علي الفاسي، عالم فاس وإمامها ومسندها وبركتها المتوفى بها سنة 1091هـ بعد أن انتهت إليه رياسة العلم في هذه الديار، انظر: ترجمته في: **خلاصة الأثر** (2/ 444)، **وصفوة مَن انتشر** (181)، **وشجرة النور** (314)، ونشر **أزاهير البستان** (ص: 57) لابن زاكور، **وسلوة الأنفاس** (1/ 309)، **والأعلام** (4/ 166)، وفي **فهرس الفهارس** (2/ 763 ـ 772) ترجمة حافلة له، له **(ثبَت)** نقل للغة الفرنسية وطبع بفرنسا مع تراجم رجال أسانيده ووفياتهم بقلم المؤرِّخ البحاثة محمد بن أبي شنب اللمداني الجزائري في مجلَّد. (ع)

(2) في النسخة المعتمدة، وهي بخطِّ الشيخ **المهدي**: «عباده». (ع)

(3) وفيها بدل: «السلام »، لفظة: «التسليم». (ع)

2) وأبي **إسحاق إبراهيم بن أحمد [بن أحمد] المستملي** قراءةً عليه بـ : **بَلخ**، سنة أربع وسبعين وثلاثمائة.

3) وأبي **الهيثم محمد بن المكي بن زُراع الكُشْمِيهَني المَروزي** قِراءةً عليه بها سنة تسع وثمانين وثلاثمائة.

كلُّهم عَن الحافظِ **أبي عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن إبراهيم الفربري** بـ: **فربر**.

1) الأول سنة ست عشرة وثلاثمائة (316هـ)

2) [والثاني سنة أربع عشرة وثلاثمائة] (314هـ).

3) والثالث سنة عشرين وثلاثمائة (320هـ).

و**الفربري** عنه، سمعه مرَّةً بـ : **فربر**، سنة ثمان وأربعين ومائتين (248هـ)، ومرَّةً بـ : **بخارى**، سنة اثنين وخمسين ومائتين (252هـ)، من خطِّ شَيخ شيوخنا سيدي **عبد القادر الفاسي**، انتهى الجزء الأول من **(الجامع الصحيح)** للإمام الحافظ **أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري** تجزئة ثمانية، يتلوه إن شاء الله في أول الثاني أبواب العيدين بحمد الله وحسن عونه، رواية الحافظ **أبي عمران موسى بن سعادة** (رحمه الله).

مَنقولٌ مِن خطِّ العالمِ العلَّامة سيِّدي **عبد القادر الفاسي**، وهو نقلَ مِن خطِّ **ابنِ سَعادة** المذكور (رحمهما الله).

كتَبه بِيده الفانية العبدُ الفقيرُ المضطرُّ إِلى رحمةِ مَولاه الغَني، **محمد [بن علي] بن رمضان الجزائري**، أسعد الله في الدَّارَيْن عُقباه، وجعلَ خيرَ أيَّامِه وأَسعدَها يومَ لقاه، وغفَر له ولوالدَيه.

وكان الفراغُ منه أواخر شهر رمضان عام تسعة [1] وأربعين ومائة وألف، عرَّفنا الله خَيرَه وخيرَ ما بعدَه، ووَقانا شرَّه وشرَّ ما بعدَه، آمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آلِه وصَحبِه وسلَّم تَسليما، والحمدُ لله ربِّ العالمين».

كما احتفَظت لنا (**خِزانة الجامع الأَعظم المالكي**) [2] المذكُور بِنُسخةٍ نادرة مخطوطة مِن **صحيح البخاري** كُتِبَتْ كلُّها على رَقِّ الغَزال تَجزئة عشرين جزءا، كان يَملكُها العلَّامةُ الشَّيخُ **محمَّد بن علي الخروبي** [3]، الإِمام المالكي في عَهدِه بالجزائر، وقَد توفي **الخروبي** بالجزائر سنة 962هـ، وكان مِن أشهَر علماءِ عهدِه، وقَد أدركَه الاحتِلال[4] العثماني إِماما بالجامع المالكي، فعيَّنه باشا الجزائر **حسن بن خير الدِّين** سَفيرا، فذَهبَ إلى المغرب الأَقصى مرَّتين تَناظرَ فيهما مع علماءِ البلادِ في قَضايا عِلمية.

وقَد سجَّل هذه المناظرة علماءُ التَّراجِم بالمغرب، كصاحب: (**دوحة الناشر في بيان**

---

(1) في المطبوع: «سبعة»، والتصحيح من المرجع المعتمد. (ع)

(2) جاء في النسخة التي اعتمدنا عليها في مقابلة نصوص هذه المحاضرة ما يلي: «يوجَدُ في الجامع الأعظم المالكي جزآن من عشرين جزءٍ لصحيح البخاري، كان يملكها العلامة الشيخ محمد بن علي الخروبي ... ». (ع)

(3) هو الإمام المفسِّر أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الجزائري، توفي بالجزائر سنة 963هـ، له مؤلفات، منها: الأنس في شرح عيوب النفس، شرح الحكم العطائية، حلية العبيد، وغيرها، انظر: **تعريف الخلف** (2/ 482)، و**شجرة النور الزكية** (رقم: 681)، و**الأعلام** (6/ 292)، و**تاريخ الجزائر العام** (3/ 107)، و**تاريخ الجزائر الثقافي** (1/ 442 ـ 504)، وللشيخ **المهدي** مقالة عرَّف بها بالشَّيخ **الخروبي**، نشرها بالفرنسية في المجلة الإفريقية، العدد: 96، ص: 330 ـ 341، السنة 1952م. (ع)

(4) قالها تجوُّزًا، وإلا فالشيخ **المهدي** (رحمه الله) مِن العلماء الذين أنصفوا الأتراك في فترة حكمهم بالجزائر، انظر مقدِّمة تحقيقه لكتاب: (**الثغر الجماني**) لابن ميمون الراشدي. (ع)

علماء القرن العاشر)[1]، وصاحب: **(نزهة الحادي في بيان علماء القرن الحادي)** [2]، وأخيرًا صاحب: **(الإعلام بمَن حلَّ بمراكش وأغمات من الأعلام)** [3]، وقد ترك **الخروبي** تآليف قيِّمة، وهي وإنْ لم تحظ بالنَّشر[4] فلا تخلو منها خِزانة مِن خزائن بلاد المغرب العامة والخاصَّة.

كتبَ الإمامُ **الخروبي** على نُسخَتِه المذكورة، علَى ظَهرِ أولِ سِفر مِنها، واحتفَظت لنا بِه خِزانةُ **(الجامع الأعظم المالكي)** ما يلي: «يقولُ عبدُ ربِّه سبحانَه **محمد بن علي الخروبي الطرابلسي** (سامحه الله): قابلتُ كتابَ **الجامع الصحيح**، تأليف **أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري**، الذي هو أولُ سِفر مِنه، رِوَايةَ **أبي عبد الله محمد بن يوسف** [عنه ...] رواية **أبي ذر** ...»، إلى أن قال **الخروبي**: «وَوَجَدْتُ على ظَهرِ الأَصلِ ما نصُّه: يقولُ **محمد بن عبد الواحد بن إبراهيم الغافِقي**[5] (وفَّقه الله): قابلتُ جميعَ هذا السِّفر وصحَّحتُه بِجهدي بِكتابِ شَيخي ومُفيدي الفقيه القاضي المحدِّث **أبي محمد عبد المنعِم**

---

(1) تأليف الشيخ محمد بن علي بن عمر بن حسين بن مصباح، الشريف الحسني الشفشاوني، أبو عبد الله ابن عسكر، القاضي المغربي المتوفَّى سنة 986هـ/ 1578م).

(2) تأليف الشيخ محمد (الصغير) بن محمد بن عبد الله بن علي الإفراني الأصل (اليفرني) المراكشي، المؤرخ الأديب، توفي بعد سنة 1155هـ/ 1742م.

(3) تأليف الشيخ الفقيه القاضي العباس بن إبراهيم السَّملالي المغربي المالكي، المتوفَّى سنة 1378هـ.

(4) كان هذا قبل وفاتِه (رحمه الله) سنة 1992م، أمَّا اليوم فقد نُشر مِن مؤلَّفاته كتاب: **الأنس في شرح عيوب النفس**، بتحقيق: الشيخ مصطفى مرزوقي، والأستاذ مالك كرشوش، عن دار ابن حزم سنة 1431هـ/ 2010م، و**الدرة الشريفة في الكلام على أصول الطريقة**، وقد يسَّر الله لنا تحقيق رسالة له في الحِكم، ونشرت ضِمن موسوعة: **ذاكرة الجزائر**، مِن إعدادنا. (ع)

(5) أبو القاسم محمد بن عبد الواحد بن إبراهيم الغافقي، يُعرَفُ بالملاَّحي، والملاحي نسبة لقرية على بريد من غرناطة.

بن **محمد بن عبد الرَّحيم الخزرجي** (رضي الله عنه)، وهو [الكتابُ] المسموعُ على الحافِظ **أبي ذرٍّ الهروي** وعليه خطُّه، وقيَّدتُ منه[1] جميعَ ما أَلْفَيْتُه[2] في أوَّل السِّفر الأول مِنه وفي أواخِره، والأَصلُ المذكُورُ في سَبعةِ أَسفارٍ مِن خطِّ شيخٍ أَو سماع، ونَقلتُ جميعَ ذلك إلى هذا السِّفر»، يشيرُ **محمدُ بن عبد الواحد** المذكورُ إلى كتابِه.

يقولُ **محمد بن علي الخروبي** المذكور: «وأنا ـ إن شاء الله سبحانه ـ أنقُلُ جميعَ ذلك [أو] ما استَطعتُ إلى هذا السِّفْر الذي هو جزءٌ مِن عشرين جزءٍ.

قال **محمد بن عبد الواحد**: فمِمَّا وجدتُه في أوَّلِ السِّفْر المذكُور ما نصُّه:... قَرأَ [أبو جعفر أحمد بن يحيى الأَنصاري جميعَ] هذا السِّفْر على الفَقيه الحافظِ الأكمل، العدل الأَفضلِ **أبي عبد الله محمد بن عبد الرَّحيم الخزرجي**.

وكَتَبَ **إبراهيم بن علي بن مُنعم العبدري** في شهر جمادى الأخيرة سنة اثنَتَين وستِّين وخمسمائة».

وفيه أيضا: «ناولَني جميع هذا الدِّيوان الفقيه الأجلُّ المحدِّث الإمامُ الأَفضلُ **أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم** (رضي الله عنه) في شهر جمادى الأخيرة سنة اثنتين وستِّين وخمسمائة.

وكَتَبَ **محمد بن عبد الملك بن نصير** بِخَطِّه في التاريخ[3].

وفي أول السِّفر أيضا ما نصُّه: سَمِعَ جميع هذا السِّفر على الفقيه الأجل المحدث الأفضل **أبي عبد الله محمد بن الفقيه أبي القاسم عبد الرحيم بن محمد بن عبد الرحيم**

---

(1) في المطبوع: «فيه». (ع)

(2) في المطبوع وفي النسخة المعتمدة: «ألقَيتُه». (ع)

(3) أي: التاريخ المذكور سابِقا. (ع)

الخزرجي بـ : **مرسية، محمدُ بن محمد بن عيشور بن عمر بن صفاح اللخمي**، في شهر جمادى الأولى مِن عامٍ سبعة وخمسين وخمسمائة، وكتبَ السامعُ المذكور (**محمدٌ**) بخطِّ يدِه الفانية، حامِدًا لله تعالى ومُصلِّيا على نبيِّه».

وفيه أيضا: قَرَأَ جميعَ هذا السِّفر على [الفقيه] الأجلِّ، المحدِّثِ الأَكمَل، القاضي الأَعدَل **أَبي عبد الله محمد بن الفقيه الأَجلِّ المقرئ أَبي القاسم عبد الرَّحيم بن محمد الخزرجي** (رضي الله عنه)، **أحمدُ بنُ يحيى بن عبد الكريم الأَنصاري** (وفَّقه الله تعالى) في الثالث عشر مِن محرَّم سنة ثلاث وستين وخمسمائة.

وفي آخر السِّفر المذكور: قَرَأَ على الفقيه الأَجلِّ القاضي المحدِّث **أبي عبد الله محمد بن عبد الرَحيم الخزرجي** (وفَّقه الله تعالى)، **عبدُ الرَّحمن بن عبد الجليل بن يحيى الفهري** جميع هذا السِّفر، وذلك في ربيع الأول الذي منه سنة تسع وخمسين وخمسمائة.

وعلى ظهر (**الأصل**) المقابَل هذا، ما نصُّه: سماع **لمحمد بن حسين بن عابد الأَسدي** (نفعه الله به).

وبعده: يقولُ **عبدُ بن أحمد بن محمد الهروي**[1]: سَمِعَ مِن كتابِ (**الجامع الصحيح**) مِن أوَّله إلى آخره، **محمدُ بن حسين بن عابد الأندلسي** (نفعنا الله وإياه)، بـ : **مكة**، في شهور من سنة خمس عشرة وأربعمائة » اهـ.

فمِمَّا نقلَه الإِمامُ **الخروبي** مِن نُسخةِ (**صحيح البخاري**) العَتيقة التي كانت بخزانة (**الجامع الأعظم**) يتبيَّن لنا أنَّ علماء الجزائر كانوا في طليعة البِلادِ الإِسلامية الذين اقتنَوْا نُسَخَ (**صحيح البخاري**) التي كانت تُعدُّ على الأصابع في خَزائن العالم الإِسلامي، خصُوصًا فيما يَرجعُ مِنها إلى التُّراثِ الأَندلسي.

---

(1) إمام الرُّواة ومَن عليه في الدنيا المدار في رواية البخاري، وُلِدَ سنة 355 وتوفي بمكة سنة 435.

وقَد أثارَت نُسخة (**صحيح البخاري**) التي كتَبها الإِمام **الصدفي** بخطِّه وانتقلَت مِن (**اسطنبول**) إلى (**ليبيا**)، وكَتب عنها كثيرٌ مِن الباحثين، آخِرهم صاحب (**فهرس الفهارس**)، كما سنذكُر ذلك.

أثبتَ الباحِثونَ ورواةُ الحديثِ أنَّ **أبا علي الصدفي** المتوفَّى سنة 514هـ تركَ نُسختَين مِن (**صحيح البخاري**) كتبَهما بِخطِّه، وكانت إِحدَى هاتَينِ النُّسخَتين بِخزانة العالم الجليل **محمد بن مرزوق الخطيب التِّلمساني**، المعروف بـ: **الجدِّ**، كما سنُبيِّن ذلك.

ذكر المحدِّثُ الشَّهيرُ الشَّيخ **عبد الحي الكتاني** في (**فهرس الفهارس**) دراسةً قيِّمة لنسخة **صحيح البخاري** التي كتبَها الإمام **أبو علي الصدفي** بخطِّه، وانتقلت مِن **اسطنبول** إلى **ليبيا** قال: «وقد عثَر المتأخِّرون بـ (**طرابلس**) الغرب عام 1211هـ على أصلٍ عظيمٍ مِن (**الصحيح**) بخطِّ الحافظِ **الصَّدفي**، أسهبوا في وصفه ونعته »، ثم قال **الكتاني**: «وها أنا أنقلُ لك كلامَهم في شأنِه، قال الحافظ **ابن عبد السَّلام النَّاصري** في كتابِه (**المزايا**) بعد أن تكلَّمَ على نُسخة **ابنِ سَعادة** التي هي مِن أحباسِ (**خزانة القرويين**): ولقد عثرتُ على (**أصلِ**) شيخِه الحافظ **الصدفي** الذي طافَ بِه البلادَ بِخطِّه، بـ (**طرابلس**)»[1].

وبعدَ ما ذكَر هذه النُّسخة، وسببَ انتِقالها إلى (**طرابلس**)، ختم **الكتاني** دِراستَه عنها بقَوله: «وقد انقطع خبرُ هذه النُّسخة، من عام 1211هـ لم أرَ لها ذاكِرًا ولا ناعِتًا مِن الرَّحَّالين والباحثين، فإنْ لم تكُن دخلَت خِزانةَ الزَّاوية السَّنوسية بِصَحراء (**طرابلس**)، فلا تكونُ إِلَّا انتقلَت إلى بعضِ مكاتبِ (**أوروبا**)، والله أعلم، ثمَّ صدَّقَ الله الظَّنَّ فأَخبَرني بعضُ طلَبتِنا ممَّن كان هاجَر إلى المشرِق ولقيَ صَديقنا الماجِد الأَصيل الشَّيخ سيدي **أحمد الشريف بن محمد السَّنوسي** وصَحِبَه وخالطَه، أنَّ الأصلَ المذكورَ بِخطِّ

(1) انظر: **فهرس الفهارس** (2/ 706 ـ 707). (ع)

الصدفي موجودٌ في كتبِ السَّيد المذكور (صانَه الله وحَفِظه)، فالحمدُ لله على وصُوله لِيَد هذا السيِّد الذي يَعرفُ قيمةَ الكتُبِ ويَصونُها ويقدِّرُها قَدرَها، ثمَّ كتبتُ له أسأَلُه عن ذاك، فأَجابني بما نصُّه: نسخةُ (**البخاري**) التي بخطِّ **الصدفي** عِندي في الكتُبِ التي بـ (**جغبوب**) يحفَظُها الله»[1].

وهذه النُّسخة التي ختمَ بها المطافُ في (**طرابلس**) الغرب هي التي ملكَها عالم تلمسان الشَّهير **محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي التِّلمساني**، المعروف بـ : **الخطيب**، وبـ : **الجدِّ**، المتوفَّى بـ (**مصر**) سنة 781هـ، إذ وُجِدَ بأوَّلها قِراءته لبعضِ الجوامع [2] الصَّحيح في هذا (**الأصل**) ذاته على **أَبي جعفر الطنجالي** بسنَدِه، مع إجازته له ولبنيه الثَّلاثة، وذلك بمدينة (**غرناطة**) بتاريخ 8 جمادى الأولى عام 754هـ.

وقَد ذهب العلَّامةُ الباحِثُ **محمد المنوني المكناسي** إلى أنه لا يستبعد أن يكونَ **ابن مرزوق** نقلَ معه هذِه النُّسخةَ إلى (**القاهرة**)، ومن (**القاهرة**) كان مُنطلقُها إلى (**اسطنبول**) ثمَّ (**طرابلس**).

هذا، وإنَّ أسرةَ **ابن مرزوق** اشتهرت في بلاد العالم الإسلامي، إلا أنَّ كثيرًا مِن المعاصرين يشتبِهِ عليهم **محمد بن مرزوق** هذا مع حفيده **محمد بن مرزوق (الحفيد)**، فعُرِف الأول بـ : **الجدِّ**، والثاني بـ : **الحفيد**، كما أنَّ الأولَ توفي بـ (**القاهرة**)، والثاني توفي بـ (**تلمسان**)، حيث نُقِل جثمانه بعد الِاحتلال الفرنسي إلى ساحةِ (**الجامع الأعظَم**) المالكي.

وابنُ **مرزوق (الحفيد)** هذا هو شارح **صحيح البخاري**[3]، وما دمنا نتحدث عن

---

(1) انظر: **فهرس الفهارس** (2/ 709). (ع)

(2) كذا بالأصل، ولعلَّ الصواب: «الجامع». (ع)

(3) يشير إلى كتابِهِ: **المتجر الرَّبيح في شرح الجامع الصحيح**، طبع بعضه في جزأين بدار التنوير (الجزائر)، ط/ 1، سنة 2011م، دراسة وتحقيق الأستاذة حفيظة بلميهوب. (ع)

اهتمام علماء الجزائر بنوادر المخطوطات التي رغم الحروب والأهوال والاحتلال الصليبي، حافظت بعض خزائن الجزائر العامة والخاصة على نسخ قيمة لها شهرة عالمية، والتي ذكرنا نماذج منها، وما دُمنا في مدينة **تلمسان** الخالدة بكثير من آثارها، نختم هذا الفصل بوثيقة أصلية، وهي عبارة عن قصيدة علَّق فيها صاحبها على نسخة من **صحيح البخاري،** كتبها ملك تلمسان في عهده، قال كاتب الوثيقة ما يلي: «الحمد لله، وجدتُ بِخطِّ مَنْ نَقَلَ مِن خَطِّ **السلطان أمير المسلمين الغني بالله أبي زيان**: آخر الجزء الأول من (**البخاري**): الحمدُ لله دائما كثيرًا.

أحــقُّ يــدٍ تحــوزُ هُــدى الفخــارِ	يــدٌ نســخَت أحاديــثَ البخــاري
رجَــوت الله يغفــر كــل ذنــب	جنَتــــه ولا يعـــــذِّبها بنــــارِ
ومــا أســلفت مِــنْ عِظَــمِ الخطايــا	يقابلــــه الإلــــهُ بالاغتِفــــارِ
فقــد عنيــت يــداي بــه جميعــا	وإن أربــى اليمــينُ عــلى اليســارِ
فهــذا ممســك طرســا وهــذا	بطــرفِ يَراعــة في الطــرسِ جــارِ
وأخــدمتُ الجــوارحَ فيــه طــرًّا	مُواصــلة العشــي بالابتكــارِ
لهجــتُ بــما يغنــي فهــو عنــي	يحــطُّ جميــعَ أوزاري الغــزارِ
قــررت بنســخه عينــا وطابــت	بــه نفســي ووافقَــه اختيــار
ولم لا والبخــاري روضُ علــم	أنيــق الزَّهــر حلــو جنــت ثــمارِ
فكــم علــم أفــدتُ بــه وحكــم	وأخبــار ووَعــظ وأذكــارِ
وقــد أحكمــت جملتــه اعتنــاءً	مرتَّبــة بــأجزاء صــغارِ
وراق بــه بنفســج بــاللازورد	وفــتح فيــه نــور الجلنــارِ
وأفــدتُ كــلّ فاتحــة لربــه	وخاتمــة شموســا مــن نظــارِ
ألا يَــا خلــقَ الله شــكوى	ذنــوب أثقلــت ظهــر كبــارِ

وأنـــتَ وســيلتي في العَفــو عنهــا	إلى مــــــولىً مُقِيــــــلٍ للعثــــــارِ
شـــفاعتُك العظيمـــة أرتجيهـــا	فـــإني للشَّـــفاعة ذو افتقـــارِ
شـــفيعٌ أنـــتَ والمـــولى كـــريمٌ	عليـــه تـــوكُّلي وبِـــكَ انتِصـــاري
أجِـــــرني يـــــا رســـــولَ الله إنِّي	غـــارقٌ مـــن ذنـــوبي في بِحـــارِ
أَبَــتْ نفســي عــليَّ سِــوَى الخطايــا	وإنِّي في الــــتَّمادي ذو اغـــــترارِ
تجيــــبُ إذا دعــــا داع التَّصــــابي	وتُعْـــرِضُ إن دَعــــا داع الوَقــــارِ
نهتنــــي الأَربعــــونَ ونبَّهتنــــي	طوالـــع في العـــذار فَـــما اعتِـــذارِ
أعلِّـــل بـــالمنى نفســـي لعـــلِّي	أحـــطُّ الرَّحـــلَ في تلـــك الـــدِّيارِ
يقـــال لي انْتظِـــر زمنـــاً ومَـــن لي	بِــــأَنَّ العُمْــــرَ يَنْتَظِــــرُ انْتِظَــــاري

وفي خِتامِ القصيدة بَيتانِ صَعُبَ عليَّ نَقلهما[1].

وقال ناسِخُها: «انتهَت الأبياتُ بِحَمدِ الله وعَونه، وصلَّى الله وسلَّم على محمَّد نبيِّه وعَبدِه».

ثمَّ قال: «نَسختُه للشَّيخ الوليِّ الصالح العالم العلامة القدوة المحقِّق، وحيد عصره وفريد دَهره، **أبي عبد الله سيدي عبد القادر بن يسعد الرَّاشدي البردعي** (نفعَه الله)».

إنَّ **عبد القادر بن يسعد** المذكور هو مِن أجَلِّ علماء أوائل القرن الحادي عشر، تخرَّج من **(معهد مجاجة)** الذي تخرَّج منه **سعيد قدُّورة** صاحب **(الفهرسة)** المذكورة في هذه المحاضَرة.

---

(1) وقد تيسَّرت لنا قِراءتهما ـ ولله الحمد ـ حين وقفنا على الأصل المخطوط الذي اعتمده الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى):

ولا عجــــب فـــإن الله بلغنــــي	بتقريــــب عــــلى بُعــــدِ المــــزار
عـــلى الهـــادي صـــلاة الله تَـــترا	كعــدِّ الرَّمــلِ وصَــوب القطــار

وامتاز **عبد القادر بن يسعد** بأنه كوَّن خِزانةً تَشتَمِلُ على أمَّهاتِ الدَّواوين، وكان يستَخدِمُ لنَسخِها بعضَ المهاجرين الأندلسيِّين، ورغمَ مُرورِ الأَحداثِ احتفَظت هذه الخِزانة الموجودة بقرية (**الدَّبَّة**)، وقرب **قلعة بني راشد** (**غليزان**)، بِبقايا مِن الكتُبِ لا يُستهانُ بها.

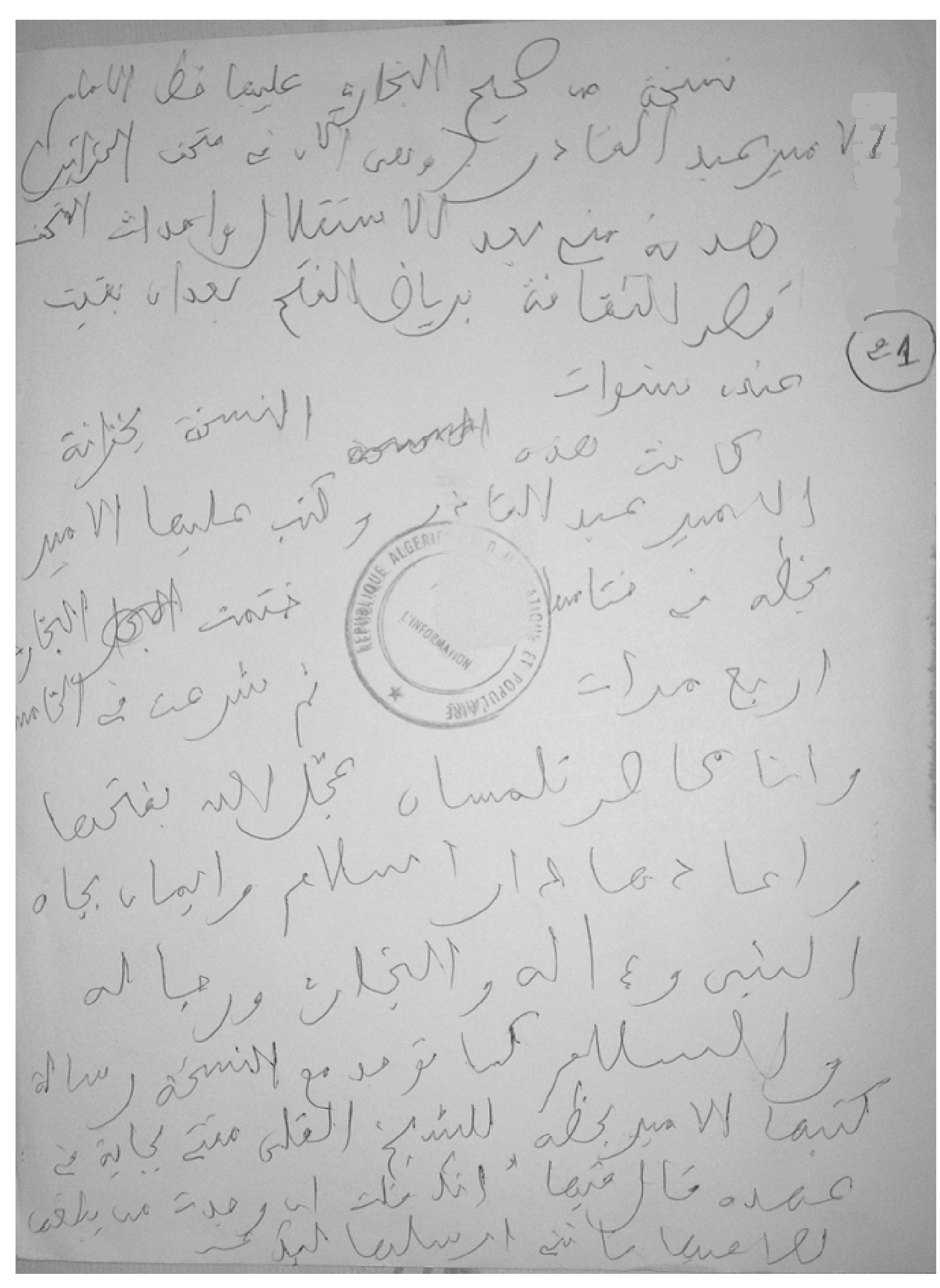
وعلى ذِكر هذِه النُّسخة التي كتَبها ملكُ تِلمسان في عَهدِه بِخَطِّه، نَذكُر مَلِكا آخر، وهو **الأمير عبد القادر الجزائري** الذي قاومَ الاِحتِلالَ الفرنسي حَوالي خَمس عشْرةَ سَنة، كان يَملِكُ نُسخةً مِن **صحيح البخاري** (رواية **ابن سعادة**)، كتَبَ عليها بِخطِّه ما يلي: «ختمتُ **البخاري** أربعَ مرَّات، بعضُه رِواية وبعضُه دِراية، وأنا الفقير إلى مولاه كثير الذُّنوبِ والأَوزار، **عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن المختار الراشدي** أمير المجاهدين (لطفَ الله به في الدُّنيا ودار القَرار)، ثمَّ شَرعتُ في ابتداء الخامِسة في 19 ذي الحجة 1251هـ وأنا محاصِرٌ تلمسان، عجَّل الله بِفَتحِها، وأعادَها دارَ إيمانٍ وإِسلام، بِجاه النَّبيِّ وآلِه والبخاريِّ ورِجالِه»[1].

---

(1) ضاعت هذه النُّسخة من الأمير **عبد القادر** عندما استولى الجيش الفرنسي على **الزمالة**، فوقعت في نَوبة الشيخ **المرتضى القلِّي** في حياة **الأمير**، فحاول استرجاعها وهو بالمنفى في **سوريا** بعدما اتَّصل به الشَّيخ القلي، لكنَّه لم يوفَّق، وبقيت هذه النسخة في خزانة الشيخ القلي إلى أن اشترى هذه الخزانة مِن أحفاده الشَّيخُ **المهدي** (رحمه الله تعالى) عندما كان مفتيا بمدينة **بجاية**، وبعد الاِستقلال أهداها لمتحف المجاهد بالجزائر العاصمة، وقد كتبنا بحثا في التعريف بهذه النسخة، يسَّر الله نشره. (ع)



صورة عن نسخة الأمير من صحيح البخاري



نسخة من صحيح البخاري عليها خط الامام
الأمير عبد القادر وهي الآن في متحف التراث
هدية مني بعد الاستقلال واحداث المتحف
قصر الثقافة برياض الفتح بعدان بقيت
عندي سنوات
كانت هذه النسخة بخزانة
الأمير عبد القادر وكتب عليها الأمير
بخطه في [illegible] ختمت [illegible] البخاري
اربع مرات ثم شرعت في الخامس
وانا حاكم تلمسان عجل الله بفتحها
واعادها لدار الاسلام وايمانا بجاه
النبي وآله والبخاري ورجاله
والسلام كما توجد مع النسخة رسالة
كتبها الأمير بخطه للشيخ [illegible] مفتي بجاية في
عهده قال فيها انك [illegible] ان وجدت من يبلغه
[illegible] ارسلها اليك [illegible]

تعليق الشيخ المهدي بخطِّه على ظهر الصُّورة السَّابقة

ولننتقل الآن إلى الحديث عن الفهارس ونقتصر على ما يسمح لنا به الوقت، فنجد **(فهرسة)** الشيخ **سعيد قدورة** المفتي المالكي بالجزائر في عهده، وبالضبط في منتصف القرن الحادي عشر الهجري، وقد ركَّز على هذه **(الفهرسة)** تلميذه العالم الشهير **محمد بن محمد بن سليمان الروداني السوسي** في **(فهرسته)** التي كُتِبَ لها الخلود، وهي وإن لم تنشر[1]، فإنها موجودة بكثير من الخزائن العامة والخاصة في العالم الإسلامي، وقد سميت: **(صلة الخلف بموصول السلف)**.

وُلد **الروداني** بـ: **(تارودانت)** جنوب المغرب الأقصى سنة 1037هـ وتوفي بدمشق سنة 1094هـ ، وقد اجتمع في طريق رحلته من المغرب الأقصى إلى المشرق بالشيخ **سعيد قدورة** فأجازه، وفي ذلك قال **الروداني** في **(فهرسته)**: «أما بعد، فيقول كاتبه أفقر عبيده وأحوجهم إلى رحمته ونواله **محمد بن محمد بن عيسى السوسي** عامله الله بفضله ولطفه، لما أنْ منَّ الله عليَّ بالاجتماع مع شيخ الإسلام وقدوة الأنام شمس الوقت وضيائه، وأعجوبته وسنائه، القائم بتفسير كتاب الله، الكاشف عن أسرار آياته المبينة، الكافل بإيضاح الأحاديث النبوية، شيخنا وبركتنا ووسيلتنا إلى ربنا **أبي عثمان سيدي سعيد ابن المرحوم الناسك الحاج إبراهيم الجزائري** مسكنا أدام الله بقاءه...»، إلى أنْ قال: «... حضرنا مجلسه النافع الذي لا يحرم منه إلاَّ خبيث السريرة، مبغض للحق دافع، فسمعنا قراءته مع تفهم وبحث وتحقيق في معظم الصحيحين البخاري ومسلم، وحضرنا أيضا مجلسه للبخاري (حفظه الله) سردا نحو ثلاث مرَّات أو ما يزيد على ذلك...»، إلى أن قال: «أُخِذَ كلُّ ما تقدَّم من الضِّيافة على التمر والماء، والمصافحة، والتحديث بالحديث المذكور، والوصية المذكورة، وذلك كله في ضحوة يوم الخميس

(1) وقد نُشِرت بتحقيق محمد حجي، بدار الغرب الإسلامي (بيروت)، الطبعة الأولى سنة 1408هـ/ 1988م. (ع)

لعشرين خلت من شوال سنة أربع وستين وألف بداره بمدينة الجزائر...»، إلى أن قال: «... وخصَّه بجميع ذلك على ما بيَّنَ وسطَّر عن شيخه العالم العلامة رأس المحدثين وبقية الأئمة المسندين **أبي عثمان سيدي سعيد بن أحمد المقري القرشي،** قال شيخنا المذكور:« أخذتُ ذلك عن شيخي هذا المذكور صبيحة يوم الجمعة أواسط ذي القعدة سنة ثلاثة عشر وألف بداره بمدينة تلمسان حرسها الله وبحضرة ابنه الفقيه النجيب **أبي العباس سيدي أحمد** (أحمدَ الله عاقبته، وأدامَ عافيته)... الخ».

هذا، وإني أقفُ وقفةً قصيرةً نلفتُ انتباهَ المستمعين والمستَمعات إلى أنَّ هذه الفهارس كان لها فضلٌ على الثقافة الإسلامية في جميع فُروعها، إذ اتَّفق علماءُ الإسلام أنَّ الله أكرمَ الأمةَ الإسلامية وشرَّفها بالإسناد، وليسَ لأحدٍ مِنَ الأمم قديما وحديثا إسنادٌ مَوصول، إنما هي صُحُفٌ في أَيديهم، وقَد خلطوا بكتبهِم أَخبارَهم، فليس عندهم تمييزُ ما نزَلَ مِنَ التوراة والإنجيل، وبين ما ألحقوه بكتبهم مِن الأخبار التي أخذوها مِن غَير الثِّقات [1].

وإلى هذا أشار الإمام **ابنُ حزم** بقوله: «ما نقله الثقة عن الثقة كذلك، حتى يبلغ إلى النبيِّ ﷺ، شيءٌ خُصَّ به المسلمون دونَ جميع المِلَل والنِّحل ...»، إلى أن قال **ابن حزم:** «وهذه الأمة الشَّريفة (زادها الله شرفا) إنما تنقل الحديثَ عن الثقة المعروف في زمانه بالصِّدق عن مثله، حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون أشدَّ البحثِ حتى يعرفوا الأحفَظ فالأحفَظ، والأطول فالأطول مجالسةً لمن فَوقه، مِمَّن كان أقصَر مجالسة، ثمَّ يكتبون الحديثَ مِن عشرين وَجهًا وأكثر، حتى يهذِّبوه مِن الخلطِ والزَّلل، ويضبطوا حروفَه، ويعدُّوه عَدًّا»[2].

---

(1) نقل هذا القول الحافظُ السَّخاوي عن محمد بن حاتم بن المظفر، انظر: **فتح المغيث** (3/ 3). (ع)

(2) نظر: **فتح المغيث** (3/ 3). (ع)

وقال الحافظ **السَّخاوي** في **(فتح المغيث)** على ألفية الحديث في **(معرفة الوفيات وتاريخ الرواة)**: «وهو فنٌّ عظيمُ الوقع مِن الدِّين، قديمُ النفع به للمسلمين، لا يُستغنَى عنه ولا يُعتنَى بأهمّ منه، خصُوصًا ما هو القصد الأَعظم منه، وهو البحثُ عَن الرُّواة، والفَحصُ عَن أحوالِهم في ابتِدائهِم وحالِهم واستِقبالِهم... فكان التَّعريف بهِم مِن الواجِبات، والتَّشريفُ بِتَراجمِهم مِن المهمَّات، ولذا قامَ به في القَديمِ والحديثِ أَهلُ الحديث، بل نُجومُ الهدَى ورُجومُ العِدى»[1].

فوضَعوا تواريخَ كشَفَتْ ما للمُتَرجَم لهم من الحالات، واشتملَت مع ذلك على تَعيين أوقاتِ سَماع الرِّوايات، ودخولِ الرُّواةِ البِلادَ، وغَير ذلك مِن المهمات.

وقال الحافظ **ابن عبد البر**: «معرفةُ أعمار العلماء والوُقوفُ على وَفياتِهم مِن علمِ خاصَّةِ أهلِ العلم، وإنه لا ينبغي لمن وَسمَ نفسَه بالعلمِ جَهل ذلك، وأنه ممَّا يلزمُه مِن العلمِ العناية بِه والقيام بِحفظِه»[2].

ولهذا اتخذتُ **(فهرسة الروداني)**[3] التي ركَّزها على روايته عن الشَّيخ **سعيد قدورة** كنَموذَج، فإنَّ فَوائِدَها لم تقتَصِر على رواة الحديث، بل أفادتنا فَوائدَ جمة، إذ تُعرِّف بعضَ رجالِ سَندِها، زيادةً على ضَبطِ روايتِهم عَن مشايخِهم، [مع] فوائد تاريخية هامة،

---

(1) انظر: **فتح المغيث** (3/ 309 ـ 310). (ع)

(2) انظر: **الاستذكار** (3/ 54) لأبي عمر بن عبد البر، تحقيق: سالم محمد عطا، ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى، سنة 1421هـ/ 2000م، بتصرُّف. (ع)

(3) وقفتُ على نسخة من هذه **(الفهرسة)** بخطِّ الشَّيخ **المهدي**، وقارنتها بـ: **صلة الخلف**، المطبوعة، فوجدتُ بينهما بعضَ الفروق، وتبيَّنَ لي بأن نسخة الشيخ **المهدي** بها زيادات غير موجودة في المطبوعة، لهذا قمنا بنشرها ضمن كتاب: إجازات جزائرية، بمناسبة تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011م. (ع)

مثل ما ذكَره **سعيد قدورة** عِندَما تحدَّث عن أول شيوخه **سعيد المقري التلمساني**، فقال: «قال شيخنا المذكور: أخذتُ ذلك كله عَن شيخي هذا المذكور صبيحة يوم الجمعة أواسط ذي القعدة سنة ثلاثة عشر وألف بداره بمدينة تلمسان (حرسها الله) »، إلى أن قال: «عن شيخه سيِّدنا البَركة الفقيه الصَّالح الولي النَّاصح المسمَّى: **أبي العباس سيدي أحمد حجي الوهراني**، عن شيخِه شيخ الإِسلام وقُدوة الأنام **أبي سالم سيدي إبراهيم التازي اللنتي** (نفَعنا الله بِبَركاتِهم) أجمعين، قال شيخنا **أبو عثمان سيدي سعيد المقري** المذكور: وكان سببُ أخذي عن السَّيد **أحمد حجي** وتلقي ذلك منه أنَّ وهران لما أخذها النَّصارى مِن أيدي المسلمين (أعادها الله للإسلام) كان سيِّدي **أحمد** قاطنًا بها فخرج مع بناته وهو يتلو سورة ﴿**لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ** ...﴾»، إلى أن قال: «فأعمى الله أبصارَ الكفارِ عنه، حتى وصل إلى (**تلمسان**)، فنزلَ بموضعٍ منها يقال له: (**أجادير**)، فأتى الناسُ إليه يأخُذون عنه ما أخَذَ مِن الشَّيخ سيدي **إبراهيم التازي** مِن الضِّيافة ولُبْسِ الخِرْقَة، قال **المقري**: وكنتُ إذ ذاك صغيرًا، فحَملتني أمِّي إليه، مَعها حبَّة تمر وإناء مِن ماء، ليُضيفَني علَيهما، فأَضافَني ولقَّنني ما ذكر»، ثمَّ قال **المقري**: «وكانت الأمَّهات حِينئذٍ راغباتٍ في الخير وأهلِه»، ثمَّ قال : «ثمَّ فتحَ الله وأطالَ عمرَ الشَّيخ المذكور ـ وهو سيِّدي أحمد حجِّي ـ حتى كبرتُ وعقلتُ، فجوَّدْتُ عليه القرآن، وجدَّدتُ عليه الأَخذ في ذلك».

فمِن هذه الفقَرات التي تعرَّض فيها **سعيد المقري** للظروفِ التي اجتمعَ فيها بشَيخه **أحمد الحجي الوهراني** استفَدنا فوائدَ جَوهرية ترجعُ إلى تاريخ احتلالِ **وهران**، وطرقِ هجرة كثير مِن سكَّانها، وفي طليعتهم العلماء، كما استفَدنا أيضًا يقظةَ سكَّانِ تِلمسان الذين كانوا يتتبَّعون أخبارَ الغَزوِ الصَّليبي، وعاداتِ نِساءِ تلمسان اللَّاتي كانت تهتمُّ بتَربية أَولادِهِنَّ تَربيةً دينيه، وكيفَ تَشقى أمةٌ يتَعاونُ علماؤُها وملُوكُها ونِسوَتُها على خِدمة الدِّين، وتَربية النَّشءِ تَربيةً دينية؟

ولنواصِل حَديثَنا عَن (**الفهرس**).

قال **الروداني**: «وحدَّثنا (حفظه الله) بالحديثِ المشهور وهو: الرَّاحمون يرحمهم الله، ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء، وأوصانا بِتَقوى الله العظيم، ومُلازمة ذكره، وقال: اقطعوا اليأس مما في أيدي الناس تعيشوا أعِزَّة... الخ».

وهذه الوصية الأخيرة أي: «اتركوا اليأس مما في أيدي الناس تعيشوا أعزة »، تُبطل ما كاد أنْ يتمالأَ عليه بعضُ المعاصرين مِن كيل التُّهم لرجال السَّلف، فيتَّهِمونهم بالتملُّقِ والتقرُّب للملوك والسَّلاطين طمَعًا في عَرَضِهِم الفاني، وقد علِمنا أنَّ شعار هذه الطبقة ومبادئها كانت تنافي ذلك.

وقد اشتهرت عدَّة فهارس كتب لها الخلود كـ: (**فهرسة**) **أبي مهدي عيسى الثَّعالبي**، و(**فهرسة**) **محمد بن علي السنوسي** (**الشموس الشَّارقة في التعريف بمشايخنا المغاربة والمشارقة**)... الخ ، كما اشتهَرت فهارس لعلماء المشرق والمغرب تَبادلها أصحابُها مع علماء (**الجزائر**)، لا زال بعضُها محفوظا عِند أُسَرِهِم، مِن بينها إِجازات الشَّيخ **مرتضى الزَّبيدي** لعلماء بِجاية، وإجازة **محمد الطيب الفاسي** للشيخ **مصطفى العنابي الجزائري**، ولأَهمية هذه (**الفهرسة**) وأهمية المجيز والمجاز والظُّروف التي أجازَ فيها **محمَّدُ الطيِّب الفاسي، مصطفى العنابي** (مفتي الجزائر في عهده)، نذكُر بعضَ الفقرات منها:

قال كاتبها تلميذ **مصطفى العنابي**: «الحمدُ لله، وممَّن أجازَ شيخَنا سيِّدي **مصطفى العنَّابي** العلامةُ سيِّدي **محمد الطيب بن محمد بن عبد القادر الفاسي** لما وردَ الجزائر، فأجازَه جميعَ مَروياتِه ومؤلَّفاتِه، ونصُّها: الحمدُ لله الذي مَنِ استندَ إليه فازَ وغنِم، ومَنْ لاذَ بِجَنَابه المتين نَجا وسلِم»، إلى أن قال: «أما بعد، فانِّي لما دَخلتُ مَدينةَ **الجزائر** كان ممَّن أتحفَني الله بِلقائِه مِن أَعلامِها، الفقيهُ النَّبيه، العلَّامةُ الدرَّاكة، المشارِكُ النِّحرير، **أبو**

الخير **مصطفى بن رمضان الحنفي**، الشَّهير بـ : **العنابي**، فَتذاكرتُ معه في فنونٍ عِلمية، واستفَدتُ مِنه فوائدَ سَنية، وذكَرتُ له زوائدَ ودُررًا عَلِقَت بذِهني مما سَمِعتُه مِن جَهابذةٍ علومهُم مَرضية، فحمَله حسنُ نيَّته، وخلوصُ طويَّته أَنِ استدعَى مِنِّي إجازةً في ذلك وغَيره »، إلى أن قال:

أَجَزْتُ الفَقِيهَ المُصْطَفَى التُّرْكَمَانِي	أَقُولُ مُجِيبًا مُفْصِحًا بِلِسَانِي
وَكُلِّ الَّذِي أَلَّفْتُهُ دُونَ تَوَانِ	بِكُلِّ الَّذِي حملتُه مِنْ مَشَايِخِي

قلتُ هذا، واستغفِرُ الله تَعالى، وأنا العبدُ الفقيرُ **محمد الطيب بن محمد بن عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي** دارا ولقَبا، في أواسط ذي الحجَّة الحرام متمِّ سنة ثلاثٍ بعدَ مائة وألف (رزقَنا الله خيرَه، ووَقانا ضَيرَه)».

وهذِه قَصيدتُه في ذلِك :

نجلُ محمد الفاسي اللَّقَب	يقولُ أفقَرُ العَبِيد الطيِّب
مجيزَنا قبلَ السُّؤَالِ بالنِّعَم	نَحمدُك اللَّهمَّ باري النَّسَم
محمَّدٍ وآلِه ذَوي العُلا	ثمَّ أصلِّي وأُسلِّمُ على
إلى جَوامع الحديثِ المسنَدِ	هذا وقَصدي ذِكر طرق سَندي
والدَّارمي الحافظِ الأَمينِ	كالكُتبِ الخمسةِ والقَزويني
في رَجزٍ أو على حِفظٍ لِذلِك	وأحمد والشَّافعي ومالك
ذكَرتُ مِنها نُبذةً مُفيدهْ	ولي فيها طُرقٌ عَديدهْ

إلى أن قال عن روايته لـ (**صحيح البخاري**):

شيخ الشُّيوخ ذي العُلا والمجدِ	حدَّثني بِه أبي عَن جدِّي
العربي الفاسي ذي القَدرِ الخطير	وقَد روَى لي عَن الشَّيخِ الشَّهير
محمَّدٍ بالفاسي يُدعَى أَبدا	وعَن أبي القاسم نَجلِ أحمدا

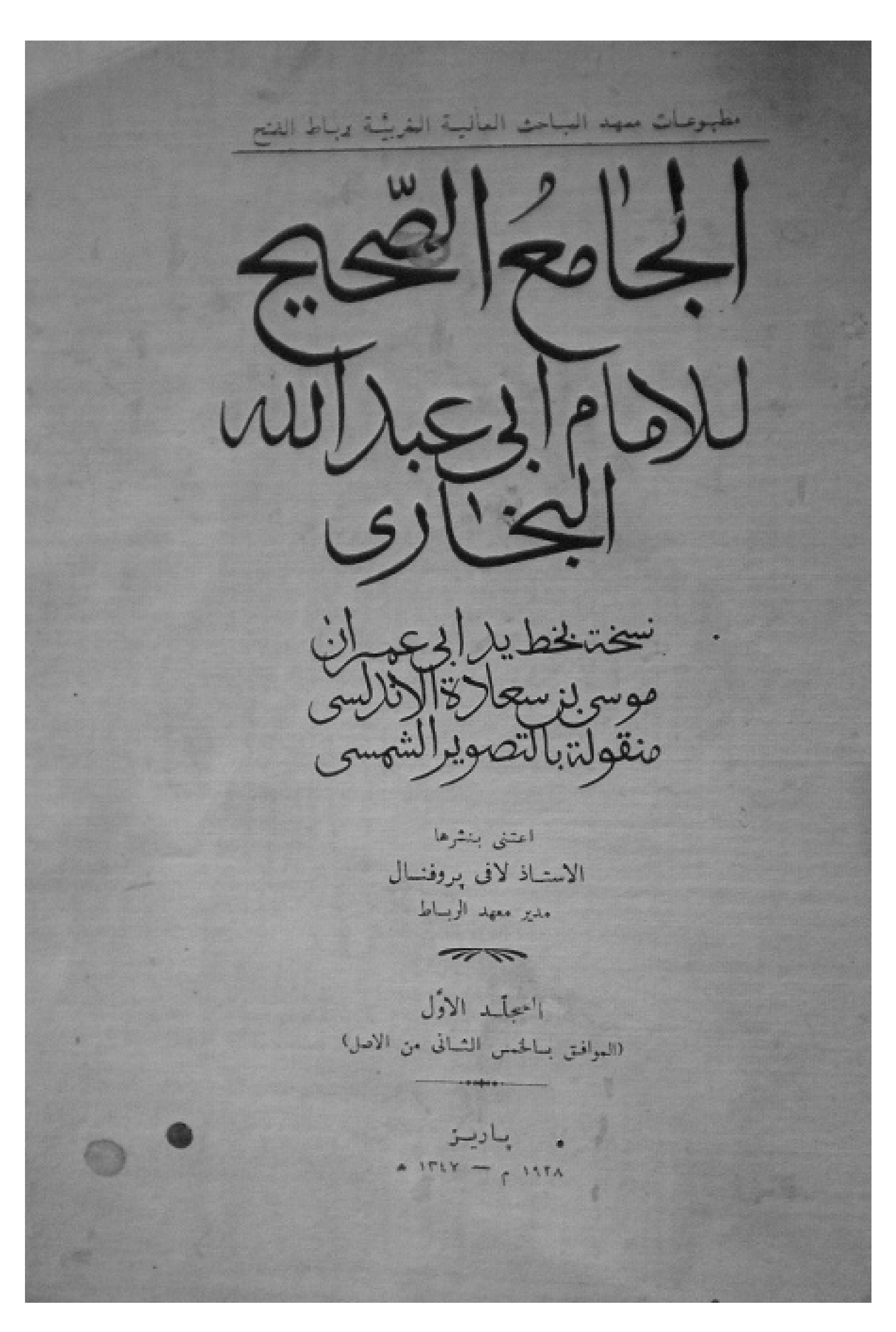
هذا، وقبلَ نهاية **القسم الأول** مِن هذِه المحاضَرة، نَرجعُ إِلى الحديثِ عَن أهمية نُسخِ **صحيح البخاري** التي كانَت مُعتَمدة بِبلاد الجزائر والمغرب، خصُوصًا نسخةَ الإِمام **أبي علي الصدفي** التي كتَبها صاحبُها بِخطِّه، ونقلَها تلميذُه **أبو عمران موسى بن سعادة**، فقد تقدَّم لنا اعتناء المحدِّثين بالنُّسخة التي خُتِمَ بها المطاف بـ (**ليبيا**)، وأثبتَ بعض الدَّارِسين لها أنها كانت مِن أملاك **محمد بن مرزوق الخطيب**، وربما كان منطلقُها مِن عنده (أي: **ابن مرزوق**) قبل رِحلتِه إلى (**مصر**)، ومن (**مِصر**) انتقلت إلى (**اسطنبول**) عاصمة الخلافة الإسلامية، ثم إلى (**طرابلس**) الغرب، ولم يقتَصِر الاهتمامُ باقتِناءِ هذا النَّوع من نُسَخ (**صحيح البخاري**) النادرة علَى العلماء المسلمين والملوكِ والسَّلاطين، بل شاركَهم في ذلك الهواةُ مِن الأجانبِ وبعضِ المستَشرقين، مِن بَينِهم المستشرقُ الفرنسي **ليفي بروفنصال** (levy provençal) المتخصِّص في الدراسات والتراث الأندلسي، فإنه عندما كان مديرا لمعهد الرباط سنة 1928م نشَر نُسخةَ (**صحيح البخاري**) بخطِّ **أبي عمران موسى بن سعادة** منقولة بالتَّصوير الشَّمسي، وقدَّم لها مقدِّمةً مفيدة[1].

وفي سنة 1976م عقَدت الدولة الباكستانية (**مؤتمر السيرة النبوية**) دام (12) يومًا، حضره كثيرٌ مِن جهابذة العالم الإسلامي، وجمٌّ غفير مِن المستشرقين الذين كانت بعض دراساتهم ممتازة[2].

---

(1) وقد قام بترجمتها الصديق الفاضل **مصطفى فرحات**، نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يعجِّلَ بِنشرها. (ع)

(2) عن هذا الملتقى، انظر: **انطباعات حول المؤتمر الإسلامي العالمي للسُّنة النَّبويَّة الذي انعقد بالباكستان في شهر ربيع الأول** 1396 (**مارس** 1976)، ضمن قسم الرحالات، وقد ضمَّناها في رسالة: **أربع رحلات للشَّيخ المهدي البوعبدلي**، مِن إعدادنا، دار عالم المعرفة 2011م. (ع)



مطبوعات معهد المباحث العالية المغربية برباط الفتح

الجامع الصحيح
للامام ابى عبد الله
البخارى

نسخة بخط يد ابى عمران
موسى بن سعادة الاندلسى
منقولة بالتصوير الشمسى

اعتنى بنشرها
الاستاذ لافى بروفنسال
مدير معهد الرباط

المجلد الاول
(الموافق بالخمس الثانى من الاصل)

باريز
١٩٢٨ م — ١٣٤٧ هـ

صورة عن الكتاب المطبوع من نسخة (زاوية الهامل)

PUBLICATIONS
DE L'INSTITUT DES HAUTES-ÉTUDES MAROCAINES
TOME XIX

LE "ṢAḤĪḤ" D'AL-BUḪĀRĪ

REPRODUCTION EN PHOTOTYPIE
DES MANUSCRITS ORIGINAUX DE LA RECENSION OCCIDENTALE
DITE « RECENSION D'IBN SA'ĀDA »
ÉTABLIE A MURCIE EN 492 de l'Hégire (1099 de J.-C.)

PUBLIÉE AVEC UNE INTRODUCTION

PAR

E. LÉVI-PROVENÇAL

VOLUME I
RECENSION D'IBN SA'ÂDA
TITRES XXV A LVIII

PARIS
LIBRAIRIE ORIENTALISTE PAUL GEUTHNER
13, RUE JACOB (VIe)
1928

صورة عن الكتاب المطبوع من نسخة (زاوية الهامل)



صورة عن الكتاب المطبوع من نسخة (زاوية الهامل)

نكتفي بهذا القَدر الذي سمح لنا به مجال هذه المحاضَرة، ولنَنتقِل إلى (**القسم الثاني**) مِنها.

وهو **كشف اللثام** عَن مخطوطٍ نادرٍ ختمَ به المطافُ في الجزائر، وهو كتاب (**الفرائد المرويات في فوائد الثلاثيات**)، أي: ثلاثيات الإمام **البخاري**، وهو مِن صَميمِ مَوضوع مُلتقانا هذا، وهو زيادةً على فَوائدِه الفنية الحديثية، يُعَدُّ مِن أهمِّ التُّراثِ الأَندلسي الذي كان في حكمِ المفقُود، إنَّني كما ذكَرتُ ذلك في أوَّل هذِه المحاضَرة، أَختِمُ محاضَرتي بِدراسةٍ مُوجزةٍ لكتاب: (**الفرائد المرويَّات في فوائد الثلاثيات**) [1].

هذا التأليف هو للعلَّامة المحدِّث **أبي عبد الله محمد الحضرمي**، ورغم أنَّ صاحبه كان من أبرز علماء الأندلس في عهده، وتوفي سنة 777هـ فإنه ما زال مكتنفا بالغموض حتى عند الباحثين المتأخرين في علم الحديث، إذ مؤلفه له قريب اشتهر في العالم الإسلامي بفهرسته وروايته للحديث، فنسبت [إليه] روايات صاحب (**الفرائد المرويات في فوائد الثلاثيات**).

وقريبُ مؤلِّفِ (**الفرائد المرويات**) المذكور هو الإمام الشهير **عبد المهيمن الحضرمي** شيخ الإمام **ابن خلدون**، وسأحاول في هذه الدِّراسة أن أسلِّط الأضواء على هذا الغموض.

ولنبدأ بالتعريف بـ: **عبد المهيمن الحضرمي** الذي عرَّفه صاحب (**فهرس الفهارس**)[2] بقوله: «هو الإمامُ الأوحدُ، إمام المحدِّثين وعلمُ المسنِدين، العالم العَلَمُ

---

(1) وقد تيسَّر لنا الِإطلاع على هذه النُّسخة وعلى نسخة **المكتبة الوطنية الجزائرية**، ولاحظنا الفروقَ الموجودة بينهما، والحمد لله على فضلِه وكرمِه. (ع)

(2) انظر: **فهرس الفهارس** (1/ 348 ـ 351)، وذكر محقِّق الكتاب مصادر ترجمته، منها: **التعريف بابن خلدون** (ص: 20، 38)، و**مستودع العلامة** (ص: 50)، و**تاريخ ابن خلدون** (7/ 247)،

رئيسُ الكُتَّابِ بالحضرة السُّلطانية وكاتبُ العَلاَمَةِ بها، **أبو محمد عبد المهيمن [ابن الفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد المهيمن] الحضرمي**، السبتي الدار، التونسي القرار، المتوفى سنة 747 بتونس، [ومولده بسبتة سنة677]، قال عنه **اللؤلؤي** في **(تاريخه)**: كان إمامًا في الحديث وحجَّة في حِفظه ورجاله... الخ .

وقال عنه ـ تلميذه ـ **ابن خلدون** في **(تاريخه)**: «كانت بِضاعتُه في الحديث [وافرة، ونحلته في التقييد والحفظ كاملة، كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة آلاف سفر في الحديث] والفقه والعربية والأدب [والمعقول] وسائر الفنون، مضبوطة كلها مقابلة، ولا يخلو ديوانٌ منها عَن ضبطٍ بخطٍّ بعضِ شيوخِه المعروفينَ في سندِه إلى مؤلِّفه حتى الفقه، والعربية القَريبة الإِسناد إِلى مؤلِّفيها في هذِه العصُور ».

وفي ترجمة **الكتاني لعبد المهيمن** طرح السؤال الذي أشرنا إليه بقوله: «وهناك **حضرميٌّ** آخر يُعرف **بأبي عبد الله الحضرمي** له **(فهرسة)** ينقل عنها كثيرًا صاحب **(النيل) ـ ذيل الدِّيباج للتنبكتي** ـ وقال فيه مرَّة: إنه كان صاحَبَ **البَلَوي** مؤلِّف **(الرحلة)**، وليس هو المترجَم هنا قطعا، لأنه مات كما علمتَ سنة747هـ، وهذا الذي ينقل عنه صاحب **(النيل)** متأخِّرٌ عنه جدًّا، لأنَّ صاحب **(النَّيل)** نقل عنه وفاة **أبي البركات ابن الحاج** التي كانت سنة 771هـ».

ثم قال **الكتاني**: «ثم وقفتُ على ذكر **حضرميٍّ** عند **المقري** في **(أزهار الرياض)** نَقَلَ عن **ابن خاتمة** تَحْلِيَتَهُ بـ: صاحبنا القاضي **أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي**، له **(الدُّرُّ النَّفيس مِن شِعر ابن خميس)**، والأقرب أنه هو الذي ينقل عنه صاحب **(النيل)** والله أعلم».

و**الإحاطة** (4/ 11)، و**نفح الطيب** (5/ 240 ـ 464)، و**جذوة الاقتباس** (ص: 444)، و**نثير الجمان** (ص: 223). (ع)

ثم واصل **الكتاني** حديثه بقوله: «ثم وقفتُ على (**التِقَاط الدُّرَر**) **للقادري** فوجدته لما رفع سلسلته في النحو إلى **المنتوري** قال: عن **الخطيب أبي جعفر ابن سالم** عن القاضي **أبي عبد الله الحضرمي**، عن **ابن آجروم**، فقال: هكذا في (**فهرسة**) **أبي عبد الله الطيب بن محمد الفاسي**، ولم أدر مَنْ **أبو جعفر** هذا، وكذا **أبو عبد الله الحضرمي**».

ثم قال **الكتاني**: «ثمَّ وجدتُ في ترجمةِ **الرَّاعي** شارح (**الآجرومية**) من (**نفح الطيب**)، وفي حرف (**الجيم**) من (**صلة الخلف**) **للرداني** أنَّ **الراعي** روى المتن المذكور عن شيخه **المنتوري** عن **الخطيب أبي جعفر أحمد بن محمد بن سالم الجذامي**، عن القاضي **أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي**، عن مُؤَلِّفها **أبي عبد الله محمد بن محمد بن آجروم**، فظهر أنَّ **الحضرمي** المذكور هو القاضي **أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي** صاحب (**الدُّرُّ النَّفيس**)، وصاحب كتاب (**السلسبيل العذب من المنهل الأحلى، المرفوع للخلافة العزيزية التي لا تزال مناقبها على ممرِّ الدهر تتلى، في سلك مَن تحلَّى سلكهم في الأربعين في الجيلين، جيل فاس ومكناسة وسلا**)، وهو كتابٌ عجيب، حلوُ السِّياقِ، في نحو أربع كراريس، ولم أقف على (**فهرسته**) المذكورة ولا على شيءٍ من ترجمته الآن، ولا أحفظ به اتصالاً، وقد كانت وفاة **ابن آجروم** شيخه بفاس سنة 723هـ، فعلى هذا أخذ عمَّن مات سنة 23 من المائة الثامنة، وعمَّن مات سنة 71 بها أيضا.

ثم وجدتُ في ترجمة **ابن آجروم** من (**سلوة الأنفاس**) أنَّ مِنَ الآخذين عنه القاضي **أبا عبد الله محمد بن عبد المهيمن الحضرمي**، فانظر.. هل المراد **ابن إبراهيم** كما في (**نفح الطيب**) و(**التقاط الدرر**) وغيرهما، فتصحَّف عليه، أو **ابن عبد المهيمن** حقيقة؟ وهو إمَّا والد **عبد المهيمن** المترجَم، أو ولده، والله أعلم» اهـ ما كتبه **الكتاني** في ترجمة **عبد المهيمن الحضرمي** في (**فهرس الفهارس**)[1].

---

(1) انظر: **فهرس الفهارس** (1/ 348 ـ 351). (ع)

والحقيقة أنَّ طرحَ **الكتاني** للسُّؤال الذي بيَّن فيه أنَّه يوجد حَضْرَمِيان صحيح، فإنَّه يُوجَد **عبد المهيمن الحضرمي** المتوفى بتونس سنة 747هـ، ويُوجد القاضي **أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي** المتوفى سنة 777هـ، وهو صاحب كتاب: (**الفرائد المرويات فوائد الثلاثيات**) موضوع دِراستِنا ما في ذلك شكٌّ، إذ عَثَرْنا على نسخةٍ مِنَ (**الفرائد المرويات**) صاحبُها **أبو عبد الله محمد الحضرمي**، كُتِبَت سنة 761هـ، وعليها تعاليق للمؤلِّف **أبي عبد الله الحضرمي**.

وعندما ملكتُ هذه النُّسخةَ التي طافَت شَرقا وغَربا، وجَدتُ المستشرقَ الألماني **بروكلمان** ذكرَها في كتابه (**تاريخ الأدب العربي**) وذكرَ أنه توجَدُ منها نسخة في **المكتبة الوطنية بالجزائر**، فَراجعتُ نسخةَ **المكتبة الوطنية** وقابلتُها مع نُسْخَتي فوَجدتُ خطَّهما واحِدًا، أي: كَتَبَهُما نفسُ النَّاسخ، كما عليهما تَعليق المؤلِّف بِخطِّه.

وتمتازُ نسخةُ (**المكتبة الوطنية**) بزيادةٍ فيها ترجمة المؤلِّف **أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرَمي**، وتاريخ وفاته، أي سنة 777هـ/ 1375م.

كما تمتازُ نسخة (**المكتبة الوطنية**) بأنَّها احْتفَظَت بصحَّتِها فلم يُؤَثِّر فيها البلَى، وبقِيَتْ كِتابتُها واضحة كأنَّها كُتِبَتْ في عهدٍ قريب.

ولِضَيقِ مجَال هذه (**المحاضرة**) اكتفيتُ بتعاليق قصيرةٍ عليها، مِنها أنَّ المؤلِّف **أبا عبد الله الحضرمي** كان يسكنُ مدينة (**المرية**) في أوَّل عهدِه، أي: سنة 726هـ، وفي ذلك قال مؤرِّخًا لرواية حديث: «بِحانوتي حيثُ قُعودي لِعَقْدِ الشُّروط».

كما استَفدنا مِن بَعضِ اللَّقطات على نُسختِه أنه روَى عَن قَريبِه **عبد المهيمن الحضرَمي**، حيثُ قال في ذلك: «وشيخنا الرَّئيسِ العالِمِ المتفنِّنِ الكاتبِ **أبي محمَّد عبد المهيمن بن محمَّد بن عبد الله بن محمَّد بن علي بن محمَّد الحضرمي السَّبتي**».

هذا، ولما كان منطلقُ كشف القناع عَن هذا التأليف القيِّم النادر مِن مدينة **(تلمسان)**، وكان مؤلِّفُه يتَّصِل في أسانيده بكثيرٍ مِن محدِّثيها، نذكُر مِن بَينهم اثنين، وهما العالمانِ الجليلانِ: **أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد بن عبد الله الكتامي التِّلمساني، وأبو إسحاق التِّلمساني**، صاحب الأُرجوزة في الفرائِض، المتوفَّى في **(غرناطة)** في 30 شوال عام تسعة وسبعين وستمائة، ثم قال: «وكان مولدهما معا في سنة واحدة بتلمسان».

إلى هنا ننتهي بحديثنا، آمِلا أن يوقِظَ الله بعضَ الباحثينَ أن يحيُوا هذا الأثَر النَّادِر المفيد.

لقطات من ظهور السَّلفيَّة بـ(الجزائر)
انطلاقا من أوائل القرن التَّاسع الهجري وتطوُّرها
ثمَّ آثارها واستمراريَّتها إلى أوائل القرن الرَّابع عشر[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ظهرت السَّلفية في البلاد الإسلاميَّة من عهد الخلفاء الرَّاشدين، والأصل فيها ما صرَّح به الإمام **مالك بن أنس** وهو بمسجد المدينة المنوَّرة حيث قال: «كلُّكم رادٌّ ومردود عليه، إلاَّ صاحب هذا القبر، فإذا وجدتم كلامي موافقا لكلامه فاعملوا به، و إلاَّ فاضربوا به عرض الحائط» أو كما قال.

كما يستدلُّ السَّلفيُّون على مذهبهم بما ثبت عن خطابه ﷺ في حجَّة الوداع: «إنِّي تركت فيكم ما استعصمتم به لن تضلُّوا أبدا: كتاب الله، وسنَّة رسول الله ﷺ».

ومع طول الزَّمان وتحوُّل الخلافة الإسلاميَّة المركزيَّة بعد (**واقعة صفِّين**)، ثمَّ ظهور مذهب الخوارج والشِّيعة، ظهرت الفرق التي من بينها فرقة علماء التَّصوُّف الذين أسرف بعض أئمَّتهم في الدَّعوة إلى التَّحرُّر من التَّقاليد وإسقاط التَّكاليف، فحينئذ ظهر

(1) ألقيت هذه المحاضرة في ملتقى التَّعريف بالفكر الإسلامي الواحد والعشرون، المنعقد بمدينة معسكر سنة 1407هـ/ 1987م، انظر: ملتقى الفكر الإسلامي (4/ 1297-1312)، منشورات وزارة الشُّؤون الدِّينية (الجزائر)، وهو **القسم الأول** من المحاضرة، وقد اعتمدنا في إثباته أيضا على النصِّ المخطوط الذي وقفنا عليه بمكتبة الزاوية البوعبدلية، وهو بخط الشيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، ويقع في 38 صفحة. (ع)

رد فعل من الفقهاء والمحدِّثين، خصوصا بعد اتِّهام الحسين بن منصور الحلاَّج بالحلول ومحاكمته، اتهم الفقهاءُ والمحدِّثون المتصوفةَ بأنَّ تعاليم مذاهبهم مستمدَّة مِن مذاهب غير إسلامية.

وهذه كلها بحوث خُصِّصت بتآليف إسلامية وأجنبية نكتفي بالإشارة إليها ونجنِّب مستمعينا الدخول في التفاصيل، ونكتفي بالإشارة إلى الخطوط العريضة من عنوان الدِّراسة: (**لقطات من ظهور السلفية بالجزائر انطلاقا من أوائل القرن التاسع وتطورها و آثارها إلى أوائل القرن الرابع عشر**).

بقيت الحالة على ما ذكرناه إلى أن ظهر الإمام أبو حامد الغزالي في القرن الخامس فأمكنه أن يهذب علم التصوف ويجعل منه طريقا إلى المعرفة اليقينية وأثار مذهب **الغزالي** رد فعل بعض معاصريه، في طليعتهم الإمام **عبد الرَّحمـٰن ابن الجوزي البغدادي** المتوفى سنة 597هـ، الذي سمى تأليفه (**الناموس في تبليس إبليس**) وكان من جملة الردود التي ردَّ فيها أصحابها على **ابن الجوزي** هذا، ردّ عالم الجزائر الشَّهير **عبد الرحمـٰن الثعالبي** المتوفى سنة 875 هـ قال في رده: « وقد وقفت على كتاب (**تلبيس إبليس**) الذي ذكر فيه مؤلفه أنواعا من الكلام يقع في أكابر العلماء الذين جمعوا بين العلم الظاهر والباطن، المجمع على فضلهم، فوقع في **الغزالي** وفي **المحاسبي** و**أبي القاسم القشيري** وبالجملة طعن على هؤلاء وأضرابهم المجمع على فضلهم في زماننا هذا. ثم ظهر بعد **الغزالي** أئمة آخرون أثاروا بتأليفهم وسلوكهم شبه ثورات فكرية انقسم بسببها الرأي العام إلى قسمين، ومن هؤلاء العلماء **محيي الدين ابن عربي** صاحب الفتوحات المكية و**ابن سبعين** وتلميذه **الششتري،** وقد تصدى لهم كثير من معاصريهم بالتأييد والإنكار، ومن جملة من خلد له التاريخ مواقفه في الإنكار الإمام **أحمد ابن تيمية.**

وما دمنا مرتبطين بموضوع الدراسة: (**ظهور السلفية في الجزائر**)، وكان كثير من

المؤرخين والباحثين في الموضوع يَرون أن السلفية التي تسرَّبت إلى **الجزائر** في تلك الفترة منبعها إلى السلفية التي كان من أئمتها ودعاتها قاضي فاس العالم الشهير **أبو الحسن علي الزرويلي** الملقَّب بـ: **الصغيِّر**، قاضي فاس في عهده، المشهور بشرحه على (**المدوَّنة**)، المتوفَّى سنة 719هـ.

كانت مكانة **أبي الحسن الزَّرويلي** هذا في نشر الدَّعوة السَّلفيَّة ببلاد المغرب العربي شبيهة بمكانة الإمام **ابن تيمية** بالمشرق، والفرق بينهما أن **أبا الحسن الزرويلي** كانت سلفيته في إطار المذهب المالكي فكان سكان المغرب العربي إذ ذاك كلهم على مذهب الإمام مالك ولم يتحوَّلوا عنه، بخلاف المشرق فإنَّ **ابن تيمية** كان حنبليًّا وسكان المشرق [كانوا] معتنقين لعدَّة مذاهب .

كان أول من قام بالدعوة السلفية من علماء الجزائر إذ ذاك الإمام الشهير **محمد بن مرزوق الحفيد** (دفين تلمسان)، وكانت مدينة **تلمسان** هي العاصمة العلمية في الغرب الجزائري وكان على رأس العلماء المنكرين على السلفية بـ (تلمسان) **سعيد العقباني** ومؤيده الإمام **محمد بن يوسف السنوسي** صاحب التآليف المشهورة في علم التوحيد.

ألف **محمد بن مرزوق** تأليفا ردَّ فيه على زميله **سعيد العقباني** سماه: (**النصح الخالص في الرد على مدَّعي رتبة الكامل للناقص**)، وقال **ابن مرزوق** في ترجمة شيخه (كذا) قاضي فاس **أبي الحسن الزرويلي**: «إنه شيخ الإسلام ما عاصره مثله، ولا كان مثله فيما قارب عصره، وبمقامه في الفقه يضرب المثل، قد جمع بين العلم والعمل... الخ».

وحينئذ ظهر تأليف بالمغرب الأقصى جمع فيه صاحبه مثالب المتصوفين وضمّن هذا التأليف فتاوى لعلماء المغرب و الأندلس حكموا فيها على المنكرات التي أحدثها المتصوفون، كان صاحب هذا التأليف الفقيه **أبو الحسن الصّغير السُّوسي**، وقد تصدّى

للرد عليه الإمام **محمد بن يوسف السنوسي** وسمّى تأليفه: (**نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير**) فنقض فيه الفتاوى التي جمعها **أبو الحسن الصغير** ونشرت في الموسوعة الفقهية: (**المعيار المعرب في فتاوى علماء إفريقيا و الأندلس والمغرب**) لـ: **أحمد بن يحيى الونشريسي**.

وانطلاقا من هذه المرحلة ظهر في الميدان عالم لعب دورا في هذه المعركة أزيد من نصف قرن خلد له التاريخ مواقفه النزيهة الحكيمة، وهذا العالم هو **أحمد زرُّوق البرنسي الفاسي** المتوفى بمسراتة (**ليبيا**)، وقد احتفل العالم الإسلامي بذكراه منذ عشر سنوات، ولنترك الكلمة للإمام **محمد بن يوسف السنوسي** الذي قال في تقديم تأليفه (**نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير**) مبينا الظروف التي ألّف فيها تأليفه فقال: «لمّا لقيت الشاب الفقيه **أبا العباس أحمد زروق** وسألته عنه ـ أي عن **أبي الحسن الصغير** المتقدِّم الذِّكر ـ لما قدم سنة 841هـ قاصدا الحج وأخبره عنه وعن أحواله قال السنوسي: «أما بعد، فإني رأيت الهمم قاصرة عن الله تعالى وعن طريق الوصول إليه سبحانه، ورأيت لها شعوبا وقواطع عن الله تعالى، وأكثرهم الذين يدعون علم الظاهر، إذ هم في حجاب عن الله أخذوا بظاهر الشرع وتركوا ما كانت عليه بواطن أصحاب رسول الله ﷺ، واتخذوا الظاهر عمادا والإنكار في الباطن وسادا، والتشديق والتحريف مهادا، ورفضوا الحقيقة وأسبابها، وحُجِبوا بالغفلة وفتحوا أبوابها...»، إلى أن قال: «فأردت الكلام على بعض ما يتعلق به حالهم لا سيما أوراق تشبه الطرر بعثها **أبو الحسن الصغير المكناسي** فطالعتها فهالني ذلك منه لما وجدت كلاما فيها مكسوفة أنواره، مطموسة آثاره، فأمرت بضع طلبة تلمسان وبضع علمائها واتفقوا على حرقها فأضرموا نارا فحرقت بعد ما أخذنا منها نسخة الاعتراف»، هذه هي بعض الظروف التي انطلقت منها شرارة الخلاف بين علماء الجزائر ـ بين السلفيين والمتصوفين ـ وهي كما سبقت

الإشارة إلى ذلك، أن السلفية التي تسربت إلى الجزائر إذ ذاك، كان ينبوعها من قاضي فاس **أبي الحسن الزرويلي**، لا سلفية **أحمد ابن تيمية**، وقد تعرض الإمام **السنوسي** الذي كان من مقاوميها في تأليفه: (**نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير**) لنقض آراء السلفيِّين لخبر يطول بعد اجتماعه بالشاب **أحمد زروق** لمـّا مر عليه بـ (**تلمسان**) في طريقه إلى الحج وختم به المطاف في بلاد الجزائر إذ أقام **أحمد زروق** حوالي نصف قرن بضواحي (**بجاية**) انتصب في بعض معاهدها للتدريس وتخرج عليه نخبة من كبار علماء عهده تركوا بصماتهم في هذه الثورة الفكرية، وامتاز **أحمد زروق** مدة إقامته بالجزائر أن ساهم في التخفيف والتلطيف من حدة النِّزاع بين الفريقين وكاد أن يجمع فيه بين النقيضين حيث اعترف له مترجموه وفي طليعتهم **أحمد بابا التنبكتي** أن الفريقين المتخاصمين ـ أي السلفيين والمتصوفين ـ اتخذوه قدوةً وتمكن بتبحره في علوم الدين وإخلاصه ونزاهته أن يجرد تعاليمه في دروسه وفي تآليفه ككتاب: (**قواعد التصوف**)، و(**أصول الطريقة**)، و(**البدع**)، وكانت آراؤه في الميدان تتلخص في قوله: «إن التعاليم الإسلامية مرجعها كلها إلى الكتاب والسنة، فما وافق منها هذين الأصلين فهو مقبول، وما خالفهما فهو مردود»، وقد بسّط تآليف **زروق** ابن تلميذه العالم الشهير **عبد الرحمـٰن الأخضري** دفين بنطيوس نواحي (**بسكرة**) ـ الذي احتفلت الجزائر بذكراه منذ سنة وقد كان هذا العالم رغم صغر سنه ترك تآليف علمية في مختلف فروع المعرفة كالبلاغة والمنطق والفقه حظيت بشروح أساطين علماء الجامعات الأزهرية والزيتونة والقرويِّين، حيث كانت تدرس فيها من عهده إلى زماننا هذا، وامتازت تآليف **الأخضري** بمنظومة سماها: (**القدسية**)، تحتوي على 357 بيتا، ضمَّنها مذهب شيخ والده **أحمد زروق** أشار إليها في منظومته بقوله:

وفي كتــاب شــيخنا الــزروق　　　فوائـــد بديعـــة الفتـــوق

وفي هذه المنظومة التي كتب لها الخلود في موضوع دراستنا قال الأخضري:

من كان في نيـل الأمـان راجيـا	وعــن شريعـة الرســول نائيـا
فإنـــــه ملتــــبس مفتــــون	وعقلـــــه مختبــــل مجنــــون

إلى أن قال:

واعلــم بــأن الــولي الربــاني	لَتــــابعُ الســــنة والقــــرآن
والفرق بين الإفك والصـواب	يُعـــرفُ بالســـنة والكتـــاب

ولم يكن **الأخضري** متحيزا لفريق من الفريقين أي المنسوبين إلى السلفية أو للمتصوفين كما أراد أن يُوهم بعضُ المغرضين القراءَ، ويستدلون بآرائه النزيهة للوصول إلى أهدافهم فإنه لم ينكر التصوف من أصله بل كان يتأسف على المنحرفين عن مبادئه فيقول:

هـذا زمـان كثـرت فيـه البـدع	واضطربت عليه أمواج الخـدع
وخسفت شمس الهدى وأَفَلَتْ	من بعدما قد بزغـت وكملـت
والــدين قــد تهـدمت أركانـه	والـزور طـابق الهـوى دخانـه
وظلـــمات الـــزور والبهتـــان	تزخرفــت في جملــة الأوطــان

إلى أن يقول:

يـا ويلتـى هـذا زمـان البـدع	مات بـه أهـل التقـى والـورع
واحسرتى على الكـرام الـبررهْ	قـد أخلفـوا بالمـدعين الفجـرهْ

ولم يغفل **الأخضري** عن طبقات من العلماء المعاصرين الذين أطلق عليهم اسم: «علماء السوء».

قال فيهم:

واحـــذر علـــماء الســـوء فقـــد	خصـــوا بالإفـــك و بالخطـــل
حفظـوا الأقـوال ومـا عملـوا	بـــالعلم فســـاء القـــوم قـــل
مـا حـرفتهم إلا لعـب وأكـل	لحـــوم النـــاس بـــلا قلـــل
أربـــــاب قلـــــوب قاســـــية	للطاعـــــة أصـــــلا لم تمـــــل
لا نطـــقَ لـــذكر الله لهـــم	إلا بـــــــاللهو وبـــــــالهزل
لا يكســـبون العلـــم ســـوى	لريـــــاء النـــــاس وللجـــــدل

إلى أن يقول فيهم:

طمـــس الأقـــوال تملّقهـــم	لـــولاة الســـوء ذوي الخطـــلِ
يَصـــلَونَ نـــارا كـــما وردا	مِـــن قبـــلِ الأوثـــان قُـــلِ
فـــاترُك أفعـــالهم أبـــدا	وخـــذ الأقـــوال ولا تمِـــلِ
حاشـــا علـــماء الخـــير أولي	حـــظ في العلـــم وفي العمـــل
فعليـــك أخـــي بمجالســـهم	واظفـــر بمحبـــتهم تَصِـــلِ

ولنرجع إلى مواصلة دراستنا عن تطور الخلافات بين السلفيين والمتصوفة الذي امتاز بفترة ظهور **أحمد زروق** الذي خلَّد له التاريخ مواقفه ببلاد المغرب العربي موضوع حديثنا، إذ **أبو الحسن الصغير** جمع فتاوى بعض علماء الأندلس والمغرب وكان نص الاستفتاء يتلخص في قوله: «ما قولكم في قوم تسموا بالفقراء يجتمعون على الرقص والغناء فإذا فرغوا من ذلك أكلوا طعاما كانوا أعدوه للمَبِيت عليه، ثم يَصِلون ذلك بقراءة عشر من القرآن والذكر، ثم يغنون ويرقصون ويبكون، ويزعمون في ذلك كله أنهم على قُربة، و يَدْعُون الناس إلى ذلك، ويطعنون على من لم يأخذ بذلك».

كما سئل في نفس الموضوع **أبو سعيد بن لب**، والشيخ **عبد الرحمٰن الوغليسي** (دفين بجاية)، والشيخ **أبو إسحاق الشاطبي الأندلسي**، فكان جواب **أبي فارس** تلميذ

أبي الحسن الصغير ما ملخَّصه: «وإنما تكون من الله الكرامة لمن ظهرت منه الاستقامة، وإنما تكون الاستقامة باتِّباع الكتاب والسنة، وما كان عليه سلف هذه الأمة، فمن لم يسلك طريقهم، ولم يتبع سبيلهم، فهو ممن قال الله فيهم: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ (النساء : 115)، فمن خالف كتاب الله، أو ترك العمل به أو عطّله فقد افترى على الله كذبا، واتخذ آيات الله هزوا ولعبا، فإذا رأيتم من يعظم القرآن فعظموه، ومن رأيتموه بجانب العلماء فجانبوه، فإنه لا يجانبهم إلا ضال مبتدع، غير مقتد بالشرع ولا متبع، فإن الشرائع لا تؤخذ إلا عن العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، كيف وقد جعل الله شهادته وشهادة ملائكته كشهادة أولي العلم، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: 18)»، ثم استرسل **أبو فارس** تلميذ أبي **الحسن الصغير** فبين العلماء الذين عناهم في فتواه فقال: «ولست أعني بالعلماء المشتغلين في زماننا هذا بعلوم الجدال والمحاورات، ولا المعتنين بدرس مسائل الأقضية والشهادات ـ فيتقربون بذلك إلى الولاة والحكام، ونيل الرياسة عند العوام، وإنما نعني بالعلماء الذين قال فيهم النبي ﷺ: « يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين » اهـ .

بقي هذا الصراع مستمرا بين الطبقتين في الجزائر في الفترة التي سبقت العهد العثماني وظهرت فيها الحملة الصليبية التي قادتها إسبانيا وسقطت من جرائها وهران فبجاية وتونس وسبتة ومليلية التي خصِّصت بالتآليف العربية والأجنبية.

كانت هذه المعارك التي جرتها الخلافات بين الفريقين ـ أي: السَّلفيِّين والمتصوِّفة ـ في محيطها الفكري لم تتعداه، أي لم يتداخل فيها العوامُّ والمغرضون، ولهذا لم تحدث القطيعة في صفوفهم، فكان **عبد الرَّحمـٰن الثَّعالبي** وهو تلميذ الإمام **ابن مرزوق** المنتصر

للسَّلفية، انتصر بدوره للصُّوفية، وكان نفس الخلاف بين **ابنمرزوق** المذكور وزميله **سعيد العقباني** رغم رد **ابن مرزوق** على **العقباني** في تأليفه (**النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل للناقص**) ومع هذا كانا متعاونين في خدمة العلم وتبادل الاحترام والتقدير، وقد تعرَّض كثير من الرَّحَّالين والمؤرِّخين لوصف المحيط الثَّقافي بالجزائر، عند زياراتهم لها، أو اجتماعاتهم مع علمائها الذين كانوا يتبادلون معهم الإجازات العلمية .

ولنواصل حديثنا عن تطور هذه المعارك بين السلفيين والمتصوفين، في العهد العثماني فقد أدرك الاحتلال العثماني عالمين جليلين لهما مكانة في الجزائر أولهما **محمد بن علي الخروبي** الإمام المالكي بعاصمة الجزائر وهو تلميذ **أحمد زروق** وشارح بعض تآليفه وكان سلفيا متشددا، وثانيهما **أحمد بن يوسف الراشدي** دفين (**مليانة**) وهو طرقي متطرف، وكلاهما متخرِّج من معهد **أحمد زروق** بـ (**تامقرا**) ضواحي (**بجاية**)، وقد وقف الأتراك مواقف شريفة خلدها لهم التاريخ بمداد الفخر وهي تكليفهم الإمام **الخروبي** المالكي بالسفارة بينهم وبين ملوك المغرب الأقصى، وفي هذه السفارة اكتُشِفت آراء **الخروبي** السلفية حيث كانت على عادة تلك العهود لا تمنعه مهمته الدبلوماسية عن مهمته العلمية تبادل الزيارة مع علماء البلاد وتبادل الإجازات، وقد وقعت بينه وبين علماء المغرب مناظرات تنُمُّ على تشدُّدِه في السلفية وإنكار البدع.

ونغتنم هذه الفرصة لنثبت فضل العهد العثماني بالجزائر، وهو أنهم علاوة على اعتماد الإمام المالكي بالسفارة رغم أن مذهب الخلافة العثمانية العقائدي (كذ) هو المذهب الحنفي، فقد تركوا للمالكية التصرف التام في الأحباس وريعها ولم يفرضوا أئمة أو قضاة حنفيين إلا في المدن التي كانت فيها جاليات عثمانية، وقد ازدهرت الأحباس المالكية وخزائن الكتب في العهد العثماني، إلا أنه من ناحية أخرى ظهرت في أفق

الجزائر إذ ذاك تمردات داخل البلاد وخصوصا بالمناطق الجبلية، كما ظهرت طرق صوفية **كالدرقاوية** و**التجانية** و**القادرية** و**الرحمانية**، وكان موقف السلطات العثمانية من معظم هذه الطرق وزواياها الحذر خصوصا في أواخر العهد العثماني بالجزائر لمّا اندلعت ثورة **درقاوة**، وكان قائد ثورتها الشيخ **عبد القادر بن الشريف الفرندي**، وهذه الثورة وإن كانت حرب كرٍّ وفرٍّ، تظهر وتختفي، إلا أنها هي سبب القضاء على الدولة العثمانية، إذ طال أمدها حوالي ربع قرن، وقد خصصها بتأليف قيم تعرض فيه بإسهاب وتفصيل لمراحلها وأسبابها وآثارها العالم **محمد بن يوسف الزياني** في تأليفه القيم (**دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**)، وقد تشرفت بتحقيقه وتقديمه ثم طبعه.

كما ظهرت في الأفق الطريقة **التجانية** التي أحدثها الشيخ **أحمد التجاني** بمسقط رأسه (**عين ماضي**) نواحي مدينة (**الأغواط**)، وجهز لها الباي محمد بن عثمان فاتح وهران سنة 1206 هـ جيشا عرمرما، وقد سجل هذه المسيرة الكاتب **أحمد بن هطال التلمساني** كاتب الباي **محمد بن عثمان** وحققها بعد استقلال الجزائر الدكتور **محمد بن عبد الكريم الزموري**، وطبعها. وقد كلف الباي **محمد بن عثمان** - السابق الذكر- رئيس مجلسه العلمي **محمد بن عبد الله الجلالي** ليناقش الشيخ **أحمد التجاني** ويحذره من مغبة دعوته.

كما ظهرت إذ ذاك الطريقة **القادرية** التي توارث أجداد الأمير **عبد القادر** نشرها بإذن من رؤسائها ببغداد . وقد تولى قيادتها إذ ذلك العالم الجليل الشيخ **مصطفى بن المختار** جد الأمير **عبد القادر** مؤسس معهد **القيطنة** حيث خلفه على إدارته ولده السيد **محيي الدين** والد الأمير **عبد القادر**، وفي هذا المعهد وُلِد الأمير **عبد القادر** وتربى فيه وتلقى معلوماته، إلى أن بويع بعد الاحتلال الفرنسي، ومات بعد توليته والدُه **محيي**

الدين بسنة، وقد كان من ضحايا قمع العثمانيِّين السيد **محيي الدين** وولده الأمير **عبد القادر**، فقضيا مدَّةً بسجن **(وهران)** الذي استبدل بالإقامة الإجبارية كما هو مفصَّلٌ ومعلومٌ في كتب التاريخ، وبالخصوص الكتب الأصيلة التي اكتشِفَ مُعظمها بعد استقلال البلاد.

ومن جملة هذه الطرق التي ظهرت بالجزائر في العهد العثماني الطريقة **الرحمانية**، وكان رئيسها **محمد بن عبد الرحمـٰن الخلوتي الجرجري** خريج الأزهر، وكان عند رجوعه للبلاد ضاقت به السلطات العثمانية ذرعا خصوصا بعد ما التف حوله ثلثا سكان القبائل، وكان العثمانيون يعتمدون على موظفي السلك الديني من قضاة ومفتين للتضييق ومحاربة الطرق الصوفية، وقد قيد **محمد بن عبد الرحمـٰن** أمام مجلس علمي ترأسه الشيخ **علي ابن الأمين** المفتي المالكي، إلا أن أنصار **محمد بن عبد الرحمـٰن** تمكنوا من نقله إلى **(جرجرة)**، حيث أسس معهدا علميا انهالت عليه الأنصار من طلبة وعلماء، وانتشرت الطريقة **الخلوتية** لا في بلاد القبائل [وحسب]، بل في الجنوب الجزائري وغربه إلى أن ظهر الاحتلال الفرنسي واستسلم الجيش العثماني، وفي طليعته داي الجزائر، وهنا نذكر أن مقاومة الاحتلال الفرنسي من طرف السكان إذ بالغ كثير من البايات في تشويهها وكل ما وصلنا عنها ما كتبه الأجانب، وإن من أعظم المصادر التي تعرض أصحابها إلى الوقائع ما كتبه العالم الخبير **بيرم** التونسي صاحب الرحلة المشهورة الذي عقد في رحلته فصلا ممتعا جوهريا في موضوع الاحتلال الفرنسي، فقد ذكر أن الولاة العثمانيين خسروا الصفقة في كامل البلاد الجزائرية بولاياتها الثلاث: **قسنطينة، والجزائر ووهران**، وفقدوا ثقة السكان، وتعرض نقيب الأشراف قبله في مذكِّراته فبيَّن بتفصيل تدهور البلاد وسريان داء الرشى والتَّمردات ، وظلام المرتزقة الذين صاروا يثورون المرة بعد المرة لأسباب تافهة ويستبدون بالحكم، وتعرض بيرم

لقضية هامة ما زال كثير من المغرضين يردِّدونها لوصم عهد الأمير **عبد القادر** ومكانته، فيذكرون أن الأمير رفض بأن يضم جهوده لجهود الباي **أحمد** ويعدون موقف الأمير في هذا الميدان من غلطاته التي لا يغفرها التاريخ، فماذا قال **بيرم** الذي هو من نخبة الأتراك أنصار الخلافة العثمانية وتوارث أفراد أسرته الوظائف السامية (خصوصا في تونس) مثل الوزارة ومشيخة الإسلام، قال في رحلته بعدما أشاد بمقاومة الأمير في ميدان القتال: «إن الأمير عرض على الباي **أحمد** توحيد جيش المقاومة فامتنع **أحمد باي** من إجابته تكبُّرا وتعنُّتا، وفاته ـ أي: **أحمد باي** ـ أن الأتراك فقدوا ثقة الشعب الجزائري.

هذه صفحات ذكرناها في هذه الدراسة من دون [مُراعاة] ما يتطلَّبه الموضوع من منهجية وترتيب ودِقَّة.

ثم جاء عهد الاحتلال الفرنسي فكانت مقاومة الأمير التي دامت خمس عشرة سنة، وقف فيها قادة جيش الأمير الذي كان معظمهم من خريجي معهد **القيطنة** الفقهي ، وكانت حرب الأمير حرب كرّ وفرّ ، وكان مقاوموه يقودهم ضباط سامون، تخرجوا من معاهد عسكرية عالمية وخاض كثير من قادة الجيش الفرنسي معارك حاسمة مع **نابليون الأول** في مختلف مادين القتال بأوروبا، وقد سجل التاريخ أن معظم المعارك التي خاضها الأمير ابتداء من معركة **(وادي المقطع)** وانتهاء من واقعة **(سيدي ابراهيم)** اللتين خسر فيهما الجيش الفرنسي، ست مائة قتيل **بالمقطع** وجميع العتاد، ومائتي أسير ومائتي قتيل بواقعة **سيدي ابراهيم**، وهنا نتعرض للحالة التي استحق بها جيش الأمير هذه الانتصارات والتي لم تتغير بعد كل الانتفاضات والثورات التي أعقبتها، فقد تعرض كثير من المؤرخين الأجانب وفي طليعتهم المؤرخان الفرنسيان **موريس واهل** (Maurice Wahil)، و**أوقستان برنار** (Augustin Bernard) في كتاب **(الجزائر)**

(Algérie Edition alcan 1903 Paris) قالا وهما من غلاة المعمرين: «إن الذي يجمع بين سكان الصحراء وفلاحي التل هو الدين، فكلهم مسلمون، فالمساجد والزوايا والأضرحة (القباب) هي مراكز تجمعاتهم، إن الكثير منهم منخرطون في الطرق الصوفية: **الرحمانية الطيبية** و**التجانية** و**السنوسية** و**القادرية**، وهذه الطرق قوية، وأخطرها **السنوسية** ، إن الكثير منهم متشبثون بتعاليم دينهم، وقليل منهم من لم يراع هذه التعاليم، وضوء، صلاة، صيام رمضان، وفي كل سنة يذهب الآلاف منهم إلى الحج، فمنهم من يموت في طريق الذهاب أو الإياب، ومنهم من يرجع منهوك القوى من أثر التعب والحرمان، إلا أنهم مسرورون بأداء الواجب المقدس، إن هذه الروح الحماسية في التعلق بالدين، هي العائق الوحيد الذي وجدناه في طريقنا، فهي التي تعزز الروح الوطنية لإيقاد نيران الغضب وتشجيع المقاومة، إن معظم الثورات التي اجتاحت البلاد كانت بسبب دعاية رجال الدين، و الأنكى أنهم بمجرَّد إعلانهم للحرب على العدو الكافر تزول الخلافات بين الأفراد والقبائل، فهذه هي الحقيقة دائما والتي ربما نصل إلى التخفيف من مفعولها، إلا أن القضاء عليها صعب جدا...».

إلى أن يقول: «أما تنصير المسلمين الذي يحلم به بعضهم فهو خيال وحلم محفوف بالأخطار، فتعاليم الإسلام ومعنوياته واضحة، فهو من هذه الناحية لا يختلف عن بقية الأديان...الخ ».

وقد صادرت الحكومة الفرنسية أملاك المسلمين من بينها الأحباس وهدمت كثيرا من المساجد، ثم حاولت إرسال لجان برلمانية أشهرها **(لجنة أعضاء مجلس الشيوخ)** التي كان يترأسها الوزير **جول فيري** (Jules Ferry)، الذي صرح بعد رجوعه إلى فرنسا للصحافيِّين بِحصيلة بحثه ومفاوضاته مع نواب الجزائر، فقال: «إنهم لم يريدوا أن يقبلوا حقوقنا السياسية، ولا تعليمنا، ولا خدمتنا العسكرية، إنهم يطلبون المحافظة على

قوانين أحوالهم الشخصية وتعاليم دينهم الإسلامي بتمامها»، وقال عضو آخر من أعضاء هذه اللجنة جوابا عن تذمر السكان من منع التعليم بالمساجد والزوايا، قال: «بعد توقف ومحاولات إصلاحية باءت بالفشل تأكد لدى السلطات العسكرية أن هذه المراكز أي المساجد والزوايا لا يرجى من التعليم فيها أية فائدة، بل رأت تلك السلطات أنها مراكز تنبثق من تعاليمها العداوة والبغضاء لفرنسا، ولهذا حطمتها الواحدة بعد الأخرى ، ومنعت التعليم بها»، وقال عضو آخر من أعضاء اللجنة المذكورة: «إن الطرق الصوفية تتطلب من أتباعها الطاعة التامة لشيخ الطريقة والمعارضة للقوانين الفرنسية ، ولهذا فرضت الحكومة الفرنسية في ميزانية الدولة ابتداءً من سنة 1892م مائة وعشرين ألف فرنك (120.000) لتتبع ومراقبة هذه الطرق ونشاطاتها، كما وجدنا أثرا آخر في ميزانية الجزائر لمحاربة هذه الطرق وذلك برفع مرتبات رجال السلك الديني الرسميين من أئمة وقضاة ومفتين، فإن هذه الطريقة (أي الزيادة في عدد الموظفين ورفع مرتباتهم) لا يرجى منها نتائج إيجابية فكل ما جنيناه هو نيلنا احتراما صوريا من هؤلاء الموظفين، إلا أن التعصب الديني يشملهم جمعا ».

وفي هذه الظروف أنشئ نادي صالح باي بـ **(قسنطينة)** ، وكان يترأسه المفتي الشيخ **المولود بن الموهوب،** وكان يلقي فيه سلسلة محاضرات فاحتفظ لنا التاريخ بسلسلة منها ترجمها إلى الفرنسية الكاتب الشهير **الشريف ابن حبيلص** في كتيب تعرض فيه لحالة مدينة **(قسنطينة)** الثقافية، وفي تلك الأثناء زار الشيخ **محمد عبده** الجزائر، وبالضبط سنة 1903م ، وألقى عدة محاضرات واتصل بكثير من أعلام الجزائر، وقد نشرت مجلة **(المنار)** المصرية المهمة التي قام بها الشيخ **محمد عبده،** كما تعرض لها الدكتور **عثمان أمين** في أطروحته التي كان موضوعها **(حياة الإمام محمد عبده)،** وتعرض لزيارته إلى الجزائر، وقد منّ الله علينا بنشر نبذ من انطباعات عالم الجزائر

الشيخ **عبد الحليم ابن سماية** عن هذه الزيارة وآثارها والإشادة بصاحبها، كانت موضوع محاضرة بمقر المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر، وطبعت بمجلة (**الأصالة**).

وفي هذه الأثناء ظهرت حركة بل معركة بين علماء الجزائر شارك فيها علماء المغرب الأقصى وعلى رأسهم **المهدي الوزاني** شيخ الإسلام إذ ذاك بالمغرب الأقصى تركت آثارها، وبها نختم هذه الدراسة، وهذه المعركة قام بها عالم جزائري وهو **صالح بن مهنا،** تخرج من جامعتي الأزهر والزيتونة، وكان سلفيا بأتمّ معنى الكلمة، توفي حوالي 1910م، أثارت آراؤه زوبعة بالقطاع القسنطيني، وعزل من وظيفة الإمامة ببعض مساجد قسنطينة، وقد خصصه أخيرا صديقنا الأستاذ **سليمان الصيد،** المتخرج من جامعتي الزيتونة والقرويين، وهو يشغل الآن المحاماة بمدينة (**قسنطينة**) بتأليف قيم نشره تحت عنوان : (**من رواد الإصلاح بالجزائر: صالح ابن مهنا القسنطيني، حياته ، تراثه**)، وإننا الآن في حاجة إلى إعادة النظر في تاريخنا المشوّه، ولنرجع إلى المصادر الموثوقة التي ظهر الكثير منها، إذ معظم كتابنا وباحثينا اعتمدوا مصادر أجنبية زائفة، ضللت الرأي العام، وقد اكتشفت مصادر ووثائق أصيلة تعرض أصحابها لإثبات حقائق بعيدة عن تأثيرات المغرضين.

وإلى فرص أُخرى ـ إن شاء الله ـ

المهدي البوعبدلي

[القسم الثَّاني][1]

لم يدخل في هذه المعارك التي جرّتها الخلافات بين الفريقين أي السلفيين والمتصوفة في محيطها الفكري، العوام والمغرضون، ولهذا لم تحدث القطيعة في صفوفهم، فكان **عبد الرحمٰن الثعالبي** دفين الجزائر المتوفَّى سنة 875 هـ ، وهو تلميذ الإمام **محمد بن مرزوق** الحفيد دفين **(تلمسان)**[2] المنتصر للسلفية، قد انتصر بدوره للصوفية إذ كان الخلاف الذي أثير في تلمسان بين الفريقين وانتصر له ابن **مرزوق** وقاومه الإمام **سعيد العقباني**[3] الذي انتصر له الإمام **محمد بن يوسف السنوسي**، محيي علم التوحيد، فحينئذ ردّ عليه الإمام **محمد بن مرزوق**، وضمّن ردوده في تأليفه المعنون: **(النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل للناقص)**، ومع هذا كانا متعاونين في خدمة العلم وتبادل الاحترام والتقدير، وقد تعرض كثير من

---

(1) اعتمدنا في إثبات **القسم الثاني** من هذه المحاضرة على النص المخطوط الذي وقفنا عليه بمكتبة **الزاوية البوعبدلية**، وهو بخط الشيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، ويقع في 55 صفحة، وعلى ما نشرته **جريدة الشعب** في عددها الصادر في شوال 1408هـ/ ماي 1988م، وقدَّمت الجريدة **القسم الثاني** بما يلي: «تحدث الشيخ **المهدي البوعبدلي** في الحلقة الأولى عن ظهور السلفية في البلاد الإسلامية، فأرجع جذورها إلى عهد الخلفاء الراشدين، ثم صاحبها في مختلف الأماكن والعصور. وأشار إلى أسباب ظهور الخوارج والشيعة وعلماء التصوف، وركز على أبي حامد الغزالي وردود الفعل التي أثارها باعتماده على التصوف طريقا إلى المعرفة اليقينية، ويتابع اليوم توضيح الطريق إلى ظهور السلفية في الجزائر مع الخصام بين السلفية والصوفية». اهـ تقديم الجريدة. (ع)

(2) لأن سَميَّه محمد بن مرزوق الجد هو دفين مصر، وكثيرا ما يشتبه دفين تلمسان بجدِّه دفين مصر.

(3) **سعيد العقباني**: مؤلف شهير من أصل أندلسي وله حفيد بتلمسان بقي له تأليف قيم في الحسبة.

الرحالين والمؤرخين لوصف المحيط الثقافي في الجزائر عند زيارتهم لها، أو اجتماعاتهم بعلمائها الذين كانوا يتبادلون معهم الإجازات العلمية ورواية الحديث.

تطوُّر المعارك بين السَّلفيِّين والمتصوِّفين في العهد العثماني بالجزائر:

لقد أدرك الوجود العثماني عالمين جليلَين لهما مكانة في الجزائر:

(أوَّلهما) محمد بن علي الخرُّوبي: الإمام المالكي في عاصمة الجزائر، وهو تلميذ **أحمد زرُّوق**، وشارح بعض تآليفه، وكان سلفيا متشدِّدا.

و**(ثانيهما) أحمد بن يوسف الراشدي** ـ دفين مليانة ـ: وهو طرُقيٌّ متطرِّف.

وكلاهما متخرِّج من معهد **أحمد زرُّوق** في **(تمقرا)** بضواحي **(بجاية)**.

وقد وقف الأتراك مواقف شريفة خلَّدها لهم التَّاريخ بمداد الفخر، وهي تعيِينهم الإمام **محمَّد بن علي الخرُّوبي** المالكي سفيراً بينهم وبين ملوك المغرب الأقصى، وفي هذه السّفارة اكتشِفت آراء **الخرُّوبي** السَّلفيَّة، إذ كانت مهمَّته السِّياسيَّة لم تنسه عن مهمَّته العلميَّة، وهي تبادل الزِّيارات مع علماء البلاد، والإجازات في رواية الحديث، التي كان علماء تلك العهود يشدُّون إليها الرِّحال، ونغتنم هذه الفرصة لنثبِت من جهة أخرى فضل العهد التُّركي بالجزائر، وهو أنَّهم علاوة على تعيينهم للإمام المالكي سفيراً، ومذهب الخلافة العثمانية العقائدي الرسمي حينئذ هو المذهب الحنفي، ورتبة شيخ الإسلام الحنفي في نظام الدَّولة العثمانيَّة في التَّشريفات، تلي رتبة الخليفة، ونفس مكانة شيخ الإسلام بـ **(اصطنبول)**، جرى بها العمل بالجزائر، فكانت رتبة شيخ الإسلام ـ أي: المفتي الحنفي ـ تأتي بعد رتبة **(الباشا)**، كما كان المفتي الحنفي يُعيَّنُ من طرف **(الخليفة)**، ولمدَّة سنتين فقط.

وكان من جملة تقدير الخلافة العثمانية للمذهب المالكي أنَّ **(باشوات)** الأتراك إذ

ذاك لم يفرضوا قضاة أو مفتين حنفيِّين على المدن التي لم توجد فيها جاليات حنفية، التي كانت تتمثَّل إذ ذاك في الجيش التُّركي.

وقد ازدهرت الأحباس المالكية في عهدهم، وكانت مستقلَّة تماماً عن الدَّولة، يتصرَّفُ فيها المفتي المالكي تصرُّفاً مطلقاً، كما كانت خزائن الكتب المالكيَّة مزدهرة، إلا أنَّه ظهرت في الأفق تمرُّدات، بل ثورات.

كما ظهرت طرقٌ صوفيَّة كـ (**الدَّرقاوية**)، و(**التِّجانية**)، و(**القادرية**)، و(**الرَّحمانية**)، وكان موقف السُّلطات العثمانية من معظم هذه الطُّرق الحذر واليقظة، خصوصا في أواخر العهد العثماني لمَّا اندلعتْ ثورةُ (**درقاوة**) التي أثارها الشَّيخ **عبد القادر بن الشَّريف الفرندي** بالقطاع الغربي، وانضمَّ إليها الشَّيخ **ابن الأحرش** بالقطاع القسنطيني، وهاتان الثَّورتان وإن كانتا حرب كرٍّ وفرٍّ متنقِّلة، تظهر وتختفي، إلا أنَّها كانت من أسباب القضاء والإطاحة بالعهد العثماني في الجزائر، وقد خصَّصها أحد كبار علماء الجزائر ومفكِّريها بتأليف قيِّم، استوعب فيه مراحلها من بدايتها إلى نهايتها، وهذا العالم هو الشَّيخ **محمَّد بن يوسف الزَّيَّاني** الذي أدرك الاحتلال الفرنسي وتولَّى القضاء بمدينة (**سيق**)، وتأليفه هو: (**دليل الحيران وأنيس السَّهران في أخبار مدينة وهران**)، طُبع أخيراً، وكنتُ تشرَّفت بتحقيقه.

الطَّريقة التِّجانيَّة:

كما ظهرت في الأفق الطَّريقة (**التِّجانية**) التي أحدثها الشَّيخ **أحمد التِّجاني** بمدينة (**بوصمغون**) قرب (**الأبيض سيدي الشِّيخ**)، ثمَّ انتقل إلى (**عين ماضي**) ولاية (**الأغواط**)، حيث غزاه بها الباي **محمَّد بن عثمان** ـ فاتح وهران ـ وقيَّد مسيرة هذه الغزوة العالم **أحمد بن هطَّال التِّلمساني** ـ كاتب الباي المذكور ـ وقد حقَّقها ونشرها الدُّكتور **محمَّد بن عبد الكريم الزَّموري** بعد استقلال الجزائر، تحت عنوان: (**رحلة الباي**

محمَّد بن عثمان الكبير)، وقد احتفظ لنا التَّاريخ بوثيقة جوهريَّة في الموضوع، هي عبارة عن رسالة كتبها العالم الشَّيخ **محمَّد بن عبد الله الجلاَّلي المعسكري** رئيس المدرسة المحمَّديَّة التي أسَّسها الباي **محمَّد بن عثمان** بـ (**معسكر**)، وتولَّى أساتذتها إحداث رباط (**وهران**) المشهور، الذي مهَّد للجيش النِّظامي غزو (**وهران**)، وكتِبَ له النَّصر، حيث فتحها الباي **محمَّد بن عثمان** المذكور سنة 1206هـ/ 1792م، بعد بقائها ما يربو الثَّلاثة قرون تخلَّلها فتح الباشا **محمَّد بكداش**، واسترجعها الإسبان في فترة قصيرة.

كتبَ هذه الرِّسالة **محمَّد بن عبد الله الجلاَّلي** المذكور إلى الشَّيخ **أحمد التِّجاني** ـ نشرنا الخطوط العريضة منها في الجزء الرَّابع من كتاب: (**الجزائر والتَّاريخ**) الذي نشره المركز الوطني للبحوث التَّاريخية، التَّابع لوزارة الثَّقافة بالجزائر، في القسم الذي ساهمتُ فيه: (**التَّاريخ الثَّقافي بالجزائر في العهد العثماني**) ـ وهي رسالة هامَّة جوهريَّة في موضوعها، إذ هي مجهولة تماماً في الأوساط العلميَّة التِّجانيَّة، خصوصاً بـ (**المغرب الأقصى**)، وبـ (**تونس**).

ومن هذه الرِّسالة[1] يظهر أنَّ الباي **محمَّد بن عثمان** كلَّف **محمَّد بن عبد الله الجلاَّلي** رئيس مجلسه العلمي بكتابتها إلى الشَّيخ **أحمد التِّجاني**، فناقشه بأدب في كثير من محتوياتها، إذ يظهر أنَّ الشَّيخ **التِّجاني** كاتبَ الجلاَّلي الذي كانت بينهما صلة ودِّيَّة، ليجسَّ نبضه، حيث كان هو رئيس مجلس العلماء، الذين كان جلُّهم أساتذة (**المدرسة المحمَّديَّة**) بقاعدة المملكة إذ ذاك (**معسكر**)، وهم الذين شاركوا أيضا في فتح (**وهران**) تحت رياسة وقيادة **محمَّد بن عبد الله الجلاَّلي** المذكور.

---

(1) أهمِّيَّة هذه الرِّسالة لها ارتباط متين بموضوع دراستنا: (**الصِّراع بين السَّلفيَّة والطُّرق الصُّوفيَّة في الجزائر**) في محيطه الفكري النَّزيه.

لقطات من تاريخ
دور بعض علماء الجزائر في الاجتهاد[1]

الشّيخ المهدي البوعبدلي
(عضو المجلس الإسلامي الأعلى) الجزائر

إِنَّ الحديثَ عَن الاجتهادِ عند العلماء المسلمين قُتل بحثا ـ على حدِّ تَعبير المعاصرين ـ وقَد خصَّصوه بِمئات التآليف التي ما زال مَعينها لم ينضَب بعد، وقَد شارك علماء المسلمين فِي هذِه البحوث نُخبة مِن الباحثين والمفكِّرين مِن مختلفِ الأَديانِ والأَجناس، كما خصَّصوا لبحوثهم مُلتقياتٍ ومُؤتَمرات، لم يقتَصِروا فيها على دِراسة المذاهب الإِسلامية البَحتة، بل تَناولوا في أَبحاثِهم الفِرقَ المتعدِّدة التي ظَهرت في البلادِ الإِسلامية، وإِنَّني في هذِه المحاضَرة سأَقتصِرُ على عيِّناتٍ مِن قَضايا هامَّة شائِكة، وقفَ فيها بعضُ علماءِ الجزائر مَواقفَ حاسِمة، فأَبدَوا آراءَهم لإِيجادِ الحلول التي رأَوها صالحة، إذ هذِه القضايا كانت في حاجةٍ مُستَعجلة إلى وجُود الحلِّ، فأَفتى هؤلاءِ العلماء مِن دونِ أن يتوقَّفوا علَى ما يَشترطه علماء الاجتهاد، بل راعَوا المصالح العليا للإِسلام، كما سأَتحدَّث عَن مَوقفِ عالمٍ جزائريٍّ أيضا، أدَّى خدَماتٍ جليلة في إِطار تطوُّر الدِّراساتِ الفِقهية والمذهَبِية، لا إِلى بلادِه فحَسب، بل إلى بِلاد المغربِ العربيِّ كلِّه، ثم إِنَّنا لا نَنسى أنَّ الخِلافات التي طرأَت على البلادِ الإِسلامية بعدَ عهدِ الخلفاءِ الرَّاشِدين

(1) ألقيت هذه المحاضرة في ملتقى التَّعريف بالفكر الإسلامي السَّابع عشر، المنعقد بمدينة قسنطينة سنة 1403هـ/ 1983م، انظر: ملتقى الفكر الإسلامي (2/ 259 ـ 273)، منشورات وزارة الشُّؤون الدِّينية (الجزائر)، ونشرتها نفس المؤسَّسة في رسالة مفردة. (ع)

أَحدَثت بلبلةً في الأَفكار، وأَثارت ضَغائنَ في النُّفوس، كان مِن آثارها السَّيِّئة تَبادل تُهمِ الكُفر والزَّندقة والتَّجسيم، التي كان يكتُبها المتخاصِمونَ لبعضهم بَعضا، وإن اقتصرنا على بلادِنا المغربية نَجِد شَظايا هذِه الخِلافات أَودَت بِحياةِ كثير مِن الأَبرياء، ومِن هذا ما ذكَره العلَّامة **محمد الحجوي** (وزير المعارف) في عهده بالمغرب الأقصى، قال في كتابه: (**الفكر السَّامي في تاريخ الفقه الإسلامي**) في أَطوار الفقه والفقهاء، قال: «ثمَّ في آخر القرن الرابع دهَم الفقهَ المالكي في المغرب والقيروان داهيةٌ دهياء، أَدهى وأمرّ مِن كلِّ ما مرَّ، وهي ظهور الشِّيعة الذين قَتلوا أعيانَ العلماءِ الذين كانوا حامِلين لواءَ العلمِ والدِّين، وحملوهم على الرُّجوع عَن مذهب **مالك**، وعَن السنة ...»، إلى أَن قال : «وقَد قَتلوا في واقعةِ أَبي يزيد مخلد بن كيداد خمسةً وثَمانين مِن نُخبة علماءِ القيروان» اهـ.

ثمَّ قال **الحجوي** مُعلِّقا على ما ذكَره: «ومعَ هذا الضَّغطِ لم يقضُوا على المذهَبِ المالكي، بل بقيَ ينتَشِر سِرًّا» اهـ.

ونرَى بعدَ ظهور دَولة المرابطين، تمكَّن لكثير مِن فُقهائهِم استِغلال النُّفوذ، فَرماهُم خصُومهم، وفي طَليعتهِم القاضي **أبو بكر ابن العربي**، فقال عنهم، في (**العواصم من القواصم**): «صارَ التَّقليدُ دَيدَنهم، والاقتِداء بُغيتهم، فكلَّما جاءَ أحدُهم بعلمٍ حقَّروا أمرَه، ودَفعوه في صَدره... الخ»، كان الخلافُ في بِدايته بَسيطا، ولكنَّه بعدَ الإِطاحة بِدَولة **المرابطين**، وتَولية دولة **الموحِّدين** مكانها، اغتنَم ملوكُ بني غانية ـ أَقارب المرابطين ـ فُرصةً، فاحتلُّوا مَدينةَ **بجاية**، فاتَّهم الملك **يعقوب المنصور** الموحِّدي فقهاءَ **بجاية** بأَنَّهم مُدبِّرو الانقِلاب، وفي ذلك قال الملكُ **يعقوب المنصور** في رِسالةٍ بعثَها إلى **إشبيلية** يبشِّرهُم فيها باستِرجاع **بجاية**، قال عَن مَلِك **بني غانية**: «الكافر الغادر، الَّلعين الخائن الخاسر، بقيَّة الحثالة الغاوية وسُؤر الكفر الدَّائر، شقي **ميورقة** (لعنه الله)... الخ»، ثمَّ أَشارَ في نفسِ الرِّسالة إلى فُقهاءِ بجاية فقال: «قد أخلَّ أَوباشًا ممَّن كان ببجاية،

ممَّن رقَّ دينه، وضَعفَ إيمانه ويَقينه، ورانَ على قلبِه شَيطانه المضلُّ وقَرينه، فيسَّروا له تمهُّدَ صَهوتها، وأَعانوه على تسنُّمِ ذِروتها».

وإثر تطوُّر هذه الخِلافات واستِغلالها مِن طرفِ المصطادينَ في الماءِ العكر، رأَى بعضُ العلماءِ استِئصالَ هذِه المذاهب، وأَفتَوا بِحَرقِ الأُمَّهاتِ الفِقهية وعوَّضوا **موطأ مالك** بـ : **موطأ المهدي ابن تومرت**، وحرِّقت كثيرٌ مِن هذه الأمَّهات بمدُن **المغرب الأقصى**، كما حرِّقَت بعضُ الكتُب العِلمية في عهدِ دولة **المرابطين** بمدُن **الأندلس**، ورأَينا أنَّ توحيدَ المذاهب بِحَرق كتبِ المذاهبِ ليس بالدَّواءِ النَّاجع، ولهذا رأيتُ مِن المفيد أن أُثبِت رأيَ أَحدِ كبار علمائنا، يعدُّ مُعاصِرا أَختَتِم [به] هذا التَّقديم.

وهذا العالم هو الشَّيخ **مصطفى عبد الرازق** المصري (شيخ الأزهر) في عهدِه، قال في تقديمه لتأليفه: **(الشافعي واضع علم الأُصول)** في مَوضوعِنا هذا ما يلي: «والتَّنافسُ بين المذاهبِ الأَربعة على الغلَبَة والاِنتِشار والسُّلطانِ قَديم، يَرجعُ إلى عهُودها الأُولى، ولعلَّ بعض آثاره لا تَزال باقيةً إلى اليَوم، وإن كان هذا التَّنافسُ قَد أدَّى في بعضِ الأحايين إلى إثارة أَحقادٍ وفِتَن بينَ العامة، فإنَّه في أَكثر أَمره كان سببَ حياةٍ عَقلية، ونَشاطٍ فِكري، وتَسابقٍ إلى الإتقانِ والكمالِ في البحثِ العلمي، فإنَّ أهلَ كلِّ مذهبٍ كانوا لا يفتَئون في جَعلِ مَذهبِهم ميسَّرا لأَفهامِ النَّاسِ وأَذواقِهم، متَّسِعا لما يتجدَّد مِن حاجتهِم، متَميِّزا بِلُطفِ الاِستِنباط، وحُسنِ التَّخريج، وكثرةِ الجمع للمَسائل، وجَودةِ التأليف، حتى أَصبحَت علومُ الأَحكام الشَّرعية أَكمل مَظهر للمَجهودِ العقلي العظيم في الإِسلام، بِوَفرة أَبحاثها ومؤَلَّفاتها التي لا يحصى عَديدها، ولِمَا في كثيرٍ مِن هذِه المؤلَّفاتِ والأَبحاثِ مِن ابتِكار وإِبداع، لا جرَمَ كان التُّراثُ الفِقهي الإِسلامي مِن أَنفَسِ ما ادَّخر البشَر مِن مَباحث المتفقِّهين ولا نِزاعَ في أنَّ لأَشخاصِ واضِعي المذاهب أَثرا مِن رواج مَذاهبِهم، وإِقبال النَّاسِ عليها، وتَغلُّبِها على ما عَداها، وقَد تمتازُ عِند

الجمهور مَقالات المفكِّرين عَن صُوَرهم وأَشخاصِهم، ومِن أَجلِ هذا كان مِن وَسائل أهلِ المذاهب الأربعة نَشر مَذاهبهم والدَّعوة لها» اهـ كلام الشَّيخ **مصطفى عبد الرازق**.

نقَلنا هذه الجمل مِن مقال الشيخ **مصطفى عبد الرازق** الذي عِلاوةً على ثَقافتِه الإِسلامية المعمَّقة في الموضوع، فلَه اطِّلاعٌ واسع، وتَضلُّعٌ في الثَّقافة الغَربية، وحقيقة إنَّ الثقافةَ الأصيلة تتجلَّى بأَكمل مَظاهرها في التآليف التي تعرَّض فيها أَصحابُها للخِلافات المذهَبيَّة المتميِّزة « بِلُطفِ الإِستِنباط، وحُسنِ التَّخريج، وكثرةِ الجمع للمَسائل، وجَودةِ التأليف، حتى أَصبحَت علومُ الأَحكام الشَّرعية أَكمل مَظهر للمَجهودِ العقلي العظيم في الإِسلام... الخ».

ويؤَيِّد نَظرية الشيخ **مصطفى عبد الرزاق** هذه، العلَّامةُ المحقِّق الدُّكتور **معروف الدَّوالبي** في أُطروحتِه التي نالَ بها الدكتوراه مِن **(جامعة السُّوربون)** بـ: **باريس**، في الخمسينات مِن القَرنِ الجاري، تلك الأُطروحة التي ركَّزها على الاجتهاد عندَ الإِمامِ الشَّاطبي صاحب **(الموافَقات)**.

ولنُواصِل حَديثَنا عن العالم الجزائري الذي لفتَ أَنظارَ العلماءِ والباحثِينَ المعتَنين بهذا النَّوع مِن الدِّراسات الفِقهية، وكان مِن جُملة مَن لفتَ الأَنظارَ إليه العلَّامة **عبد الرحمن ابن خلدون**، فإنَّه قال في الفَصل الذي عقدَه لقراءةِ الفِقه واستِعراضِ تطوُّره بِبلاد المغرب العربي، قال: «إِنَّ ابن أَبي زيد القيرواني الفقيه المالكي المشهور، جمعَ ما في الأُمَّهاتِ في كتابِ **(النوادر)**، [فاشتمل على جميع أقوال المذاهب وفرّع الأمّهات كلّها في هذا الكتاب ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدوّنة وزخرت بحار المذهب المالكيّ في الأفقين][1] إلى انقِراضِ دولة قرطبة والقيروان، ثمَّ تمسَّك بهما أَهل المغرب بعد ذلك، إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب، فلخَّص فيه طُرقَ أهلِ المذهَب

(1) ما بين المعقوفتين زيادة مِن المرجع يقتضيها السِّياق. (ع)

...»، إلى أن قال: «... فجاءَ كالبرنامج للمذهب»، ثمَّ قال: «ولما جاء كتابه ـ أي: **ابن الحاجب** ـ إلى المغرب آخر المائة السَّابِعة عكفَ كثيرٌ مِن طلبةِ المغرب ـ وخصُوصًا أهل **بجاية** ـ عليه، لما كان كبير مَشيختهِم **أبو علي ناصر الدين الزواوي** هو الذي جلبَه إلى المغرب، فإِنَّه قرأَه على أَصحابِه في **مصر**، ونسخَ مختَصره ذلك فَجاءَ بِه وانتشَر بقُطر **بجاية**» اهـ.

وتأيِيدا لما قاله **ابن خلدون** عَن تأثير **مختصر ابن الحاجب الفقهي** الذي نقلَه مِن **مصر** عالم بجاية **ناصر الدِّين المشدالي الزواوي**، وانتشَر بكامل بلاد المغرب العربي، نَذكُر ما كتَبه في الموضوع العلَّامة المرحوم الشيخ **محمد الفاضل ابن عاشور** (مفتي الجمهورية التونسية) في عهده، ونشَره في (**مجلَّة المجمع العِلمي العربي**) بدمشق في عدَدِها المؤرَّخ سنة 1389هـ الموافق لسنة 1969م، نشر هذِه الدِّراسةَ تحت عنوان: (**الثقافة الإسلامية بالمغرب**)، ركَّزها على **مختصر ابن الحاجب الفقهي** المذكور، ودارسة الفاضل **ابن عاشور** التي نشَرها قبلَ وفاتِه بأَشهُر، هي عبارة عَن تحليلِ وتَبسيط وإِتمامِ ما قالَه **ابن خلدون** في الموضوع، ذكَر الشيخ **الفاضِل** بعدَ أَن استَعرض تطوُّر دراسة الفقه في عهدِ الفاطميِّين ثمَّ في عهدِ المرابطين الَّلمتونيِّين، فالموحِّدين مِن بعدِهم، فقال: «وكان طريق اتِّصال **مختصر ابن الحاجب الفرعي** ببلاد المغرب العربي أنَّ الشَّيخَ **ناصر الدين الزَّواوي** ـ مِن فقهاءِ بجاية ـ ارتحَلَ إلى المشرق في أَواخر القرن السابع، فلقيَ تلاميذَ ابن الحاجب بمصر، وتخرَّج عليهم، فجاءَ معه بـ (**مختصر ابن الحاجب**) ونشَره في تلاميذِه بِبجاية، ومِن هناكَ انتقلَ إلى عامَّةِ أقطار المغرب العربي، فعكَف الفقهاءُ على دراستِه وشَرحِه، واعتنَى به كبار فُقهاءِ **تونس**، مثل **ابن عبد السلام**، و**ابن هارون**، و**ابن راشد**، وفقهاء تلمسان، مثل **ابنَي الإمام**»، ثمَّ قال الشيخ **الفاضل ابن عاشور**: «إنَّ مِنهاجًا جديدا في الدِّراسة العِلمية قَد ظهرَ في البلادِ التونسية، وهو منهج القاضي **ابن**

زيتون المتخرِّج عن تلامِذة الإمام **فخر الدِّين الرَّازي**، ودرجَ على طريقتِه في الجمع بين العَقلياتِ والنَّقليات على الأُسلوبِ التَّعليمي الرَّاقي »، ثمَّ يَذكر الشَّيخُ **الفاضل**: «إنَّ طريقة **الرازي** كان مِن يَنابيعها بتلمسان العلَّامة الشَّهير، إمام التَّعاليم والرِّياضيات **أبو عبد الله الآبلي التلمساني** المتكوِّن في حكمتِه التَّجريبية على طريقة **ابن رشد**، فتواصَلت طرقُ التَّخرج على منهج النَّظر الحكمي في التآليف الدِّينية بين أقطار المغرب في شمالي إفريقيا والأندلس، فظهَر مِن أَعلامِ تلك الطريقة أعلام دَرسوا الفقهَ بالتَّقعيدِ والمقارنة، ورَبطِ الفُروع بالأصول، مثل **أبي عبد الله المقري التلمساني**، والإمام **أبي إسحاق الشاطبي الغرناطي**، والإمام **أبي عبد الله الشريف العلويني التلمساني** الذي عُدَّ مِن أهلِ الاجتهاد» اهـ. مقال الشيخ **الفاضل ابن عاشور**.

وقال في مَوضع مِن نفسِ المقال: «وازدانَ القرنُ السَّابع بظُهور علَمٍ مِن أَعلامِ الثَّقافة الإسلامية الجامِعةِ بين مختلفِ فنُونها في مَعرض الصِّناعة التَّعليمية التي تفرَّعت عَن مَناهج أصول الفقه، فَجمعَت بين أسلوبٍ تَعليمي واحِد، علومَ اللغةِ العربية والدِّين والحكمة، ذلك العالم هو **جمال الدِّين ابن الحاجب**، وبانتِشار **مختصر ابن حاجب** وعكوفِ الناسِ عليه، هجَر دارِسو الفقه طريقةَ **(المدوَّنة)** وتَهاذيبها وشُروحها...»، إلى أن قال مُتحدِّثا عن الإمام **ابن عرفة التونسي**: «ابتدأ **ابنُ عرفة** تخرُّجه العلمي بالاختِصاصِ في الكلامِ والحِكمة والمنطقِ وأصولِ الفقه، ثمَّ انصرفَ إلى الفقه مُتأثِّرا بتكوُّنِه الحكمي، فاتَّجه إلى الضَّبط والجمع والتَّنظير، واهتمَّ بصِفةٍ خاصَّة بالتَّحديد، وشَرح مَواهي الأبواب الفِقهية بتَمييز بَعضِها عَن بعض، وأكثرَ مِن البحثِ والنَّظر والاستِشكال، ففنَّد كثيرا مِن الأقوال واستَبعدَها، مبيِّنًا وجهَ ذلك بتَصوير الوقائع، ومُلاحظة ما يتحقَّق فيها مِن المصالح المقصودة للشَّرع وما لا يتحقَّق، ففتحَ بذلك في الفقهِ المالكي طريقةَ البحثِ النَّظري المعبَّر عنه بـ: **التفقُّه**، الذي هو منهجُ الدِّراسات

القانونية الجامِعية »، ثمَّ قال: «وبهذِه الدِّراسات النَّظرية الممحِّصة للأَقوال الفقهية نَقدا وتَحريرا، ومشاركةً في المباني والمدارك، اقتَرنت أَحداثٌ جديدةٌ في حياةِ البلادِ المغربية عامَّة، والقطر التونسي خاصَّة، ختمَ بها القرن الثامنِ مِن دخُول سلطنة الإِسلام بالأَندلس في الدَّور الأَخير، وإيواءِ الَّلاجِئين مِن المناطقِ المفتكَّة، إلى الرقعة الباقية، والعدوة الإفريقية، وتَضارب الدول المرينية والزِّيانية والحفصية في سَبيل تَوحيد المغرب، واستِفحال الأَزمة الاقتصادية بِسَبب سقوطِ منزلة البلاد في التِّجارة العالمية، بِفَتح طريق الهند البَحري، زيادةً على ما مرَّ ببِلاد المغرب مِن الأَحداثِ الإِسلامية التي تَوالت بعدَ سقُوطِ الخِلافة العبَّاسية ببغداد مِن تجدُّد هَجمة المغول، بِقيادة **تيمورلنك** وإِشراق نَجم العثمانيِّين، فكان هذا المجموعُ مِن الأَحداثِ أَن ما كان يسودُ[1] الدِّراسات الفقهية مِن الاِطمِئنان، إلى الاختيارات والتَّرجيحات التي استقرَّ عليها الفقهُ المذهَبي...» اهـ.

هذه دراسةٌ قيِّمة تظهِر لنا أنَّ عنوان محاضرتنا وهو: **(لقطات من تاريخ دور بعض علماء الجزائر في الاجتهاد)** في مَوضعه مِن دون مُغالاةٍ أَو تَضخيم.

وقبلَ أَن أُواصِلَ الحديث، اسمَحوا لي أَن أَقِفَ وقفةً قصيرةً جرَّنا سياقُ الحديثِ إليها، وذلك أن الدكتور **طه حسين** (عميد الأدب العربي) في عهدِه بمصر، تعرَّض لما قالَه **ابنُ خلدون** في مَعرضِ حديثه عَن **مختصر ابن الحاجب الفقهي**، وأَنكَر وجُودَه، وانتقدَ **ابنَ خلدون**، ورماه بالتَّزوير، وقال: «إنَّ الذي اطَّلع عليه **ابنُ خلدون** هو **(مختصر ابن الحاجب الأصلي)**، إذ لم يؤلِّف **ابن الحاجب** غيره »، ثم قال: «إنَّ دعوَى **ابن خلدون** بأنه قرأ **مختصر ابن الحاجب الفقهي** ـ الذي لا وجودَ له في زعمه ـ مجرَّد دعوَى»، علَّلها **طه حسين** بقَوله: «لكَي لا يَبدو أقلَّ شأنا مِن مُنافسيه أَساتِذة **الأَزهر**».

(1) كذا في الأصل. (ع)

ذكر العَميدُ **طه حسين** خِرِّيج **الأزهر** هذِه النَّزَّهات في تأليفه (**فلسفة ابن خلدون الاجتماعية**)، فقال: «يُقرِّر **ابن خلدون** أن **مختصر ابن الحاجب** كان مِن بين الكتُبِ التي درسَها في **تونس**، ويعدُّه ضِمنَ كتبِ الفِقه المالكي في تَرجمتِه، وفي مقدِّمته، مع أنَّ **مختصر ابن الحاجب** ليس كِتاب فقه، بل هو كتابٌ في أصول الفقه »، ثمَّ يقول **طه حسين** ـ بكل ارتياح ـ: «وهو ـ أي: (**مختصر ابن الحاجب الأصلي**) ـ مؤَلَّف جمُّ الإِنتِشار، لا يزال يُدرَّس في **الأَزهر** حتى يَومنا هذا، ومؤلِّفه مالكي المذهب، ولكنَّه لم يقتَصر على الكلام على الفِقه المالكي، بل شرَح مبادئ التَّشريع في المذاهب كلِّها، وهو علمٌ خاصٌّ» اهـ.. ما كتبه **طه حسين** في الموضوع.

ولا نُبالغ إن قلنا إنَّ **طه حسين** في حملته هذه، سقطَ إلى مضيقٍ [كثيرا] ما يسقط فيه كثيرٌ مِن المعاصرين الذين يُسرعون إلى إصدار أَحكامهِم القاسية على القُدامى مِن دون تثبُّت، وكثيرا ما يُقَوِّلوُنهم ما لم يقُولوه، أو لربَّما [لم] يتصوَّروه أو يخطر لهم بِبال.

ولنَرجع إلى الحديثِ عن الإيهام الذي أورده **طه حسين** حيثُ أنكَر وجودَ **مختصر ابن الحاجب الفقهي**، ولم يعتَرف إلَّا بِوجود **مختصره الأصلي**، فإِنَّ **ابن خلدون** تكلَّم عن الإثنين ـ أي: الفِقهي، والأصلي ـ أمَّا **الأصلي** فقد قالَ في الفصل الذي عقدَه للتَّعريف بأصول الفقه ما يلي: «وأمَّا كتاب (**الأحكام**) للآمِدي، وهو أكثر تحقيقا في المسائل، فلخَّصه **أبو عمرو بن الحاجب** في كتابِه المعروف بـ (**المختصر الكبير**)، ثم اختصَره في كتابٍ آخَر تَداوله طلبةُ العلم، وعُني أهل المشرق والمغرب بِه وبِمطالعتِه وشرحِه» اهـ.

وإنَّ استِنتاج **طه حسين** مِن أنَّ الدَّاعي لابن خلدون ادِّعاء قراءة (**مختصر ابن الحاجب الفقهي**) «لكي لا يبدو أقل شأنا مِن مُنافسيه أساتذة الأَزهر »، فهو باطل مردود، إذ لم نجد من الكُتّاب الذين أشادوا بمصر وأزهرها، فيمن تقدم عنه أو تأخر، مثل ما أشاد بها ابن خلدون، كما أنّ ابن خلدون كان يُقدِّر قِيم الرّجال والدُّوَل ولا

يجهل قيمة نفسه وقدره ولكن ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ (عبس: 17)، وما أَسرعه إلى استعمال مَعاول الهدم.

ثمَّ إنَّ **ابن خلدون** امتازَ بأنه عاش عيشةَ عالمٍ مُواظب على الإفادةِ والاستِفادة، ولم تَشغَله مختلف المناصِب التي تولَّاها في حياتِه عَن الدِّراسة، ومن ذلك ما قالَه عَن نفسِه عندَما كان حاجِبا ببجاية، فقال: «وأَنا مع ذلك عاكفٌ بعدَ انصِرافي مِن تَدبيرِ المُلك... لتدريسِ العلمِ بجامع القَصبة، لا أنفَكُّ عَن ذلك».

هذه **الحلقة الأولى** مِن مُحاضَرتنا أُتبِعها بـ: **الحلقة الثانية** التي تَشتَمِل على نماذج مِن مَواقف بعضِ العلماء الجزائريِّين لم يتوقَّفوا عن إبداءِ آرائهِم، وإِصدارِ فَتاويهم في قَضايا شائِكة باغَتت الأمة الإسلامية، أشارَ إلى بعضِها الشَّيخُ **الفاضل ابن عاشور** في دراستِه القيِّمة، والتي قال فيها: «وبهذه النَّظرية المُمَحِّصة للأقوالِ الفِقهية نَقدا وتحريرا، ومشاركة في المباني والمدارك، اقترنَت أحداثٌ جديدة في حياة البلاد المغربية عامة والقطر التونسي خاصة، خُتم بها القرن الثامن مِن دخول سلطنة الإسلام بالأندلس في الدَّور الأخير، وإيواء اللاّجئين مِن المناطق المُفتكَّة إلى الرُّقعة الباقية والعُدوة الإفريقية... الخ».

حقيقة إنَّ قضيةَ **الأندلس** أحدثَت هزَّةً عنيفةً إذ ذاك في البلاد الجزائرية، بل في بلادِ المغرب العربي بأَكملِه، خصوصا قضية الهجرة التي اهتمَّ بها علماء البلاد، وقد خصَّص لها العلَّامة **أحمد بن يحيى الونشريسي** في مَوسوعتِه الفقهية: (**المعيار المعرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب**) دراسةً قيِّمةً سماها: (**أسنى المتاجر فيمن أغارت عليه النصارى ولم يهاجر**)، ثمَّ تفاقمَ أمرُ **الأندلس** إلى أن سقَطت آخِر دولة إسلامية، وفاجأَ السكَّانَ العاجزين عَن الهجرة التَّنصيرُ أَو الإِبادة.

وفي هذِه الحِقبة ظهَرت فتوَى أحدُ كبارِ علماء **الجزائر**، اكتشَفها أَحدُ الباحثين

المشهورين حَوالي سنة 1951م، وهي مَوضوع حَديثنا، اكتشَف هذِه الوثيقةَ العالم المؤرِّخُ **محمد عبد الله عنان** المصري بِمُستَودع الوثائق العربية بالخِزانة البابوية في **روما**، ونشَرها مُبيِّنًا الظُّروفَ التي اكتشَفها فيها، بـ: **مجلَّة الثقافة المصرية**، بعدَدِها المؤرَّخ في 10 نوفمبر 1952م.

وقبلَ أَن أتعرَّض للظُّروفِ التي اكتُشِفت فيها الوثيقة أَذكُر ما قالَه عنها واضعُ فهرس المخطوطات المستَشرق الشَّهير الإيطالي **دوالا فيدا**، قال في وَصفِ الوثيقة: «صورةٌ مِن خطابٍ مؤرَّخ في أوَّل رجب سنة 910هـ بقَلم مَن يُدعى **جمعة المغراوي الوهراني** مُوجَّه (**إلى الغرباء**) الذين يَعيشون تحتَ حكمِ النَّصارى يَعِظُهم في الدِّين ويوضِّحُ لهم طريقةَ مُراعاةِ أحكامِ الإِسلام، مع التَّظاهُر باعتِناقِ النَّصرانية، مَقرونة بِبثِّ الأَمل إليهم بنَهضةِ الإِسلام على يدِ التُّرك».

ثمَّ قال **عنان**: «وأولُ ما يلفِت النظرَ هو تاريخها، وهو غرَّة رجب سنة 910هـ، وهو يوافق 28 نوفمبر 1504م، ونحنُ نعرفُ أنَّ **غرناطة** آخِر القواعد الأندلسية المسلِمة سقَطت في أَيدي **الإسبان** في سنة 1492م، وأنه لم تمضِ على ذلك أعوامٌ قلائل حتى قامَ **الإسبان** بإِرغامِ المسلمين الذين بقَوا تحتَ حكمِهم على التَّنصير، فاعتنقَ الكثيرُ مِنهم النَّصرانيةَ كُرها وخَشيةَ القتل والمطاردة، وكان ذلك سنة 1499م/ 905هـ.

ولكنَّ الكثيرَ مِن هؤلاء الذين أُرغموا على التَّنصير بقَوا مُسلمين في سَرائرهم، يحرِصون سرًّا على اتِّباع أَحكامِ دينِهم، ويحاوِلونَ باتِّباع الشَّرائع النَّصرانية ذرة مِن الرَّيب[1]، ويلتمِسون مِن جهةٍ أُخرى سائر الوسائل والأَعذار الشَّرعية التي يمكن أن تبرِّر مَسلكَهم وتَشفع لهم لدَى ربِّهم مما يرغمون على اتِّباعِه مِن الشَّعائر النَّصرانية.

وهذا ما يرمي إليه كاتبُ الوثيقة المشار إليها، وهو خطابٌ موجَّهٌ إلى جماعةِ العرب

(1) كذا في الأصل. (ع)

المتنصِّرين ممَّن يُسمِّيهم: (**الغرباء**)، يُقدِّم لهم بعضَ النَّصائح التي يُعاون العمل بها على تَنفيذِ أحكامِ الإسلامِ بطريق التَّورِيَة والتَّستُّر والخفاء.

وهذا نصُّ الوثيقة: «الحمدُ لله، والصلاة والسَّلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليما، إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر، مَن أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصيَّروا النفوس والأولاد في مَرضاته، الغرباء ـ إن شاء الله ـ من مجاورة نبيّه في الفردوس الأعلى مِن جناته وارثوا سبيل السلف الصالح في تحمُّل المشاقِّ، وإن بلغت النفوس إلى التَّراق، نسأل الله أن يلطف بنا، وأن يعيننا وإيَّاكم على مُراعاة حقِّه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم مِن الأمور فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، بعد السَّلام عليكم، مِن كاتبه إليكم عبد الله وأصغر عَبيده، وأحوجهم إلى عفوه ومَزيده، عبيد الله **أحمد بن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني** (كان الله للجميع بلطفه وسِتره)، سائلا مِن إخلاصِكم وغُربتِكُم حسنَ الدُّعاء بحسنِ الخاتمة، والنَّجاة مِن أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعمَ الله عليهم مِن الأبرار، ومؤكِّدا عليكم في ملازمةِ دينِ الإِسلام، آمرين به مَن بلغَ مِن أَولادِكُم، إن لم تخافوا دخولَ شرٍّ عليكم، مِن إعلام عدُوِّكم بطوِيَّتكم، فطُوبى للغرباء الذين يُصلِحون إذا فسد النَّاس، وإنَّ ذاكر الله بين الغافلينَ كالحيِّ بين الموتَى، فاعلموا أنَّ الأصنامَ خشبٌ منجور، وحجرٌ جُلمود، لا ينفع ولا يضرُّ، وأنَّ الملكَ مُلكُ الله، ما اتَّخذ الله مِن ولد، وما كان معه مِن إله، فاعبدوه واصطبِروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنَّها هدية لفقيركم أَو رياء، لأنَّ الله لا ينظر إلى صُورِكُم ولكن إلى قلوبكم، والغُسل مِن الجنابة ولو عَومًا في البحُور، وإن مُنعتِم فالصَّلاة قضاءً بالليل لحقِّ النَّهار، وتَسقط في الحكمِ طهارة الماء، وعليكم بالتَّيمُّمِ ولو مَسحاً بالأَيدي للحيطان، فإن لم يُمكن فالمشهور سقُوط الصلاة وقَضاؤها لعدم الماء والصَّعيد، إلَّا أنَّه يُمكنكم الإِشارة إليه بالأَيدي والوجه إلى ترابٍ

طاهر أو حجَر أو شجَر مما يُتيمَّم به، فاقصدوا بالإيماء ما نَقَله ابن ناجي في (**شرح الرسالة**) لقوله (عليه السلام): فأتوا مِنه ما استَطعتم، وإن أكرَهوكُم في وقتِ صلاةٍ إلى السُّجود للأصنامِ أو حضُور صَلاتهِم فأَحرموا بِالنِّية وانوُوا صلاتكم المشروعة، وأشيروا إلى ما يُشيرون إليه مِن صنمٍ ومَقصودكم الله، وإن كان لغير القِبلة، تَسقط في حقِّكم، كصلاة الخوفِ عندَ الالتِحام، وإن أَجبَروكم على شربِ الخمر فاشربوه لا بِنيَّة استِعماله، وإن كلَّفوكم أكل خنزير فكُلوه ناكرين إيَّاه بقلوبكم، ومُعتقدين تحريمه، وكذا إن أكرهوكم على مُحرَّم، وان زوَّجوكم بناتهم، فجائزٌ لكونهم أهل الكتاب، وإن أكرهوكُم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقِدوا تَحريمَه لولا الإكراه، وأنَّكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتُم قوةً لغَيَّرتُموه، وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوه منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم وتتصدَّقون بالباقي إن تُبتم لله تعالى، وإن أكرهوكُم على كلمة الكفر، فإِن أَمكنكم التَّورية والإِلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مُطمئِنِّي القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمَّدا، فإِنَّهم يقولون له: ممدا، فاشتموا ممدا ناوين به الشيطان أو ممدُّ اليهود، فكثير بهم اسمه، وإن قالوا: قولوا عيسى ابن الله، فقولوها إن أكرهُوكم، وانوُوا إسقاط مضاف، أي: عبد الإله مريم[1] معبود بحقٍّ، وإن قالوا: قولوا المسيح ابن الله، فقولوها إكراها، وانوُوا بالإضافة للملك، كَبيتِ الله، لا يلزم أن يسكنه أو يحلَّ به، وإن قالوا: قولوا مريم زوجةٌ له، فانوُوا بالضَّمير ابنُ عمِّها الذي تزوَّجها في بني إسرائيل، ثمَّ فارقها قبل البِناء، قاله **السهيلي في تفسير المُبهم من الرِّجال في القرآن الكريم**، أو زوَّجها الله منه بِقَضائه وقَدره، وإن قالوا: عيسى تُوُفِّي بالصَّلب، فانووا من التَّوفية الكمال والتَّشريف مِن هذه وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره وإظهار الثَّناء عليه بين الناس، وأنَّه استَوفاه الله برفعه إلى العلو،

(1) كذا في الأصل. (ع)

وما تعسَّر عليكم فابعثوا فيه إلينا نُرشِدكم ـ إن شاء الله ـ على حسبِ ما تكتبون به، وأنا أسأل الله أن يُديل الكَرَّة للإسلام، حتَّى تعبدوا الله ظاهرا بِحَول الله مِن غير محنةٍ ولا وجلة، بل بصدمة التُّرك الكرام، ونحن نشهدُ لكم بينَ يدَي الله أنَّكم صَدقتُم الله ورَضيتُم به، ولا بُدَّ مِن جَوابِكم، والسَّلام عليكم جميعا.

بتاريخ غرَّة رجب عام عشرة وتسع مائة، عرَّفنا الله خيرَه [1]، يصِلُ إلى الغرباء إن شاء الله» اهـ.

ثمَّ أضاف **محمد عبد الله عنان** كتَعليقٍ على الوثيقة ما يلي : «وهذِه الرسالة تُلقي ضياءً على أمور كثيرة ممّا يتعلّق بأحوال العرب المُتنصِّرين بعد التَّنصير، وتعلُّقهم بدينهم القديم، وكيف كانوا يتحيَّلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية سِرًّا، وما كانوا يَلْقَوْن في ذلك مِن عنَتٍ وخشية، وتاريخ هذه البقية الباقية مِن الأُمَّة الأندلسية فياضٌ بهذه السِّير والمناظِر المؤثِّرة، وهذه الوثيقة التي ننَشرها هي إحدَى الوثائق العربية النادرة التي تمسُّ هذه الصَّفحة المنسية مِن استشهاد الأمة الأندلسية، ومِن ثم كانت قيمتها» اهـ. **محمد عبد الله عنان**.

انتهَت هذه الوثيقة المنقولة مِن **مجلة الثقافة**، وكلُّ ما يُمكننا أن نَزيدَه هو التَّعريفُ بكاتبها: **أحمد بن أبي جمعة المغراوي الوهراني**، إذ هو سليلُ عالمِ مدينة **وهران** ودَفينها **محمد بن عمر الهوَّاري**، توفي حوالي سنة 843هـ، ولا يخلو كتابٌ مِن كتبِ التَّراجمِ المتداولة مِن تَرجمتِه، ولحفيده هذا عدَّة تآليف، مِن بَينها منظومة في القراءات، سبقَ لنا أن ذكَرنا فُصولا منها في **الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي** الذي كان موضوعه: «**القرآن الكريم**»، كما له تأليف مشهور: (**جامع جوامع الاختصار والتِّبيان فيما يعرض للمُعلِّمين وآباء الصبيان**)، وقد نُشِر هذا التأليف أخيرا بالجزائر، وقد تُوُفِّي حوالي

(1) وقد عثَرنا على ذلك خلال بحثنا في المصادر القشتالية على ترجمة لهذه الوثيقة.

920هـ، وكان مِن أَشهرِ مشايخه **محمد بن غازي المكناسي**، وجمعَ مراثيه.

أمَّا الوثيقة الثانية في مَوضوع دراسَتِنا فهي للعلَّامة الشيخ **أحمد بن الحاج اليبدري التلمساني**، وهي عبارة عن فَتوى أجابَ بها أحد تلامذتِه، وهو الشيخ **أحمد البجائي** بعد رجُوعِه إلى **بجاية** أَرسلها إليه وطرحَ عليه أسئلةً فأَجاب شيخه جَوابا له أهمية في مَوضوعه، وهذا نصُّ السؤال: «سيِّدي (رضي الله عنكم، وأدام عافيتكم)، ما جوابكم في مَوضع كثُر فيه الظلم والأَشرار، وانتشر فيه الباطل والمسكر كُلَّ انتشار، وذلَّ فيه المسلمون وعزَّ الكفَّار، وارتفع فيه الجَوْر والظلم، واتَّضَع فيه أهل المعرفة والعلم، تُمكس فيه جُلُّ المبيعات على المسلمين، وأَشكل الأمرُ على المُستَشردين، ولم يظهر من فضائله [1] ناكرٌ لمنكر، فلا أدري أَخَوفًا على أنفسهِم أم استهزاءً بالأمر، ثمَّ إنَّ إنسانا اضطرَّ إلى أخذِ العلم مِن علماء الموضع المذكور، وخشيَ على نفسِه ممَّا هو قبلُ مَسطور، فهل ـ أعزَّكم الله ـ يسوغُ له المكثُ في ذلك الموضع معَ عدمِ قُدرتِه على تَغيير المنكر إِلَّا قَليلا، ويكونُ بذلك ممتثِلا لأَمرِ ربِّه ؟ وهل يسوغُ له الشِّراء مِن بعضِ المبِيعات المُمْكَسَات إن اضطُرَّ إلى ذلك، ويكونُ آمِنا مِن الوقوع في المهالك ؟ وهل يسوغُ له أخذُ العلمِ مِن علمائه معَ عدم تَغييرهِم لما ذُكِر وإِقامتهِم بالموضع المذكور، ولا يناله تَوبيخٌ مِن المولى سُبحانه يوم النُّشُور ؟ أم يجِبُ عليه أن ينتقِلَ مِن ذلك الموضع لغَيره، لأنَّ الرَّاتِع حولَ الحِمَى يوشكُ أن يقعَ فيه، بيِّنوا الأَمرَ لمن اضطُرَّ إليه في خاصَّة نفسِه، واحتاج إليه كُلَّ الاِحتياج، فلكم الأجر التَّام، والسَّلام».

فأَجابه الشَّيخُ **أحمد بن الحاج اليبدري التلمساني** بما هو نصُّه: «الحمد لله، الواجبُ على المؤمن المُحقِّق النَّظَرَ لنفسه نظر مُشفِق، وأن يفرَّ بدينه مِن الغشِّ، ولا يُقيم إلا في مَوضع تُقام فيه السُّنَّة، ولا يأخذ مِن علمِ دينِه ما يحتاجُ إليه إِلَّا ممَّن تَظهر آثارُ الخشية والخضوع

(1) كذا. (ع)

علَيه، ويطلب ذلك في أقطارِ الأرضِ ونَواحيها، بدليل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ (النساء: 97)، هذا مع الإِمكان ووجود بُغيته في غَير ذلك المكان، فإِن تعذَّر عليه ذلك وانسدَّت عنه المسالك، ولم يجِد مَوضِعًا صالحا مَرضِيًّا، ولا مُعلِّما ناصِحا مَهديا، فليُقِم هناك صابِرا صَبرا جميلا، ويكونُ مِن المستَضعفين مِن الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلدانِ الذين لا يَستطيعونَ حيلةً ولا يَهتدونَ سَبيلا، وليقُل كما قالوا إذ لم يجدوا مُعِينا على الدِّين ولا ظَهيرا: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ (النساء: 75)، ويأخُذ مِن العلم ما يضطرُّ إليه مِن كلِّ مَصدرٍ للأَخذِ عنه، فرُبَّ حاملِ علمٍ أَهدَى ممَّن هو أَعلم منه، وقد يُعالجُ المريضُ المؤمنُ بِدَواءِ الطَّبيبِ الكافر، وقَد يؤيِّد الله الدِّينَ بالرَّجلِ الفاجِر، ويشتري مِن المبِيعاتِ ما يحتاجُ إليه لبسًا وطعما، ولكن لا يغشِمُ المعيشةَ غَشما، وليُعطِ الورعَ حقَّه، ويَستعمِل في ذلك اجتِهادَه ورفقَه، ويتجنَّب اشتِراءَ المأخوذ في المَكْس مِن غاصِبه، ويشتَري مما بقي على مُلكِ صاحبِه، مع مُراعاةِ قَواعد الشَّريعة المقرَّرة، ومسائل الفقه المسطَّرة، والوقوفِ في حدودِ الضَّرورة، وعدمِ الإِسترسالِ في الشَّهواتِ المباحات، فَضلا عَن المحظورات، فإن اقتَصر على ضَرورياته لم يخَف على دينه اختِلالا، إِذ لو كانت الدُّنيا جِيفة لكانَ قوت المؤمنِ منها حَلالا، وقَد أحسنَ الفقيهُ **الكلاعي** في مثلِ هذا المساغ :

وطاعــة مَــن إليــه الأَمــر فــالزَم ... وإن جــاروا وكــانوا مُســلمينا
وإن كفــروا ككُفــر بنــي عبيــد ... فــلا تَســكن ديــار الكافرينــا
فــربَّما يقــومُ الحــقُّ يومــا ... فتهلــك في غــمار الهالكينــا
تجِــد في الأرض مُتَّسَــعا فَهــاجر ... إلى دار الهــداة الواصــلينا

والله سبحانه أعلم وبه التوفيق » اهـ، وقد علَّق **ابن مريم** صاحب **(البستان)** الذي نشر هذه الفَتوى وجَوابها بقوله: «وهو عجيب ».

والظروفُ التي كُتبت فيها هذه الفتوَى غير الظروف التي أفتى فيها العالم **الوهراني** لبقايا الأندلسيِّين الذي لم يبقَ فيه للأندلس أدنى سلطة.

أمَّا **بجاية** فكانت عِندما استفتى عالمها **أحمدُ البجائي** شيخَه، كانت ما زالت تحتَ حكمِ بقايا الدَّولة الحفصية، وذلك حَوالي سنة 880هـ، إلَّا أنَّها لم يبقَ لها أيُّ نفوذ، بل تمكَّن للجالية الأَجنبيَّة أن تتَّخِذَ شبهَ دُويلاتٍ ذات تَصرُّفٍ تامٍّ في عاصمة البلاد، أي: في الفترة التي تفرَّق ما بين انهيار الدولة الحفصية والاحتلال الإسباني، إذ اشتبه على بعضِ المؤرِّخين أنَّ هذه الفتوَى صَدرت بعد احتلال الإِسبان لبجاية، وقد تعرَّض المؤرِّخُ الفرنسي **فيرو** (feraud) في **تاريخ بجاية** إلى نَشر نماذج مِن الوثائق عقدَها ملك **بجاية** مع الجاليات الأَجنبية، وذلك حوالي سنة 880ه.

لنختَتِم هذه الدِّراسة بفَتوى لعالم جزائري إثر الاحتلال الفرنسي، وهي شَبيهة بالنوع الذي ذكَرناه، وذلك بعد الاحتلال الفرنسي وظهورِ مقاومة **الأمير**، أَصدر الشيخ **علي بن الحفَّاف** العالم الجزائري الذي التحقَ بالأَمير **عبد القادر**، وتولَّى الكِتابةَ بِديوانه، أصدرَ فتوَى لعلماء العاصِمة، مَفادها أنَّ كلَّ مَن رَضيَ بالبقاءِ في العاصمة ولم يُهاجِر فهو كافر، وعلَّل فَتواه بِتَفاصيل... علماء الجزائر ـ أي: العاصمة ـ الذين كان في طلبتِهم **محمد بن الشاهد** لم يُشاطروا المفتي **ابن الحفّاف** في صحَّة حكمِ فَتواه، بل ناقشُوه فيها جملة جملة.

لنكتفي بنشر جَوابهم الذي حرَّره **محمد بن الشاهد،** وقال : «وبعد، فقَد وَصلتنا رسالتكم التي أَطنبتم فيها وأوجزتُم، وأظهرتُم عُلوَّكم علينا وأَضمرتُم، ومِن سبِّنا تَصريحا والتزاما أكثرتُم، تحومون فيها حولَ تكفيرنا بِسَببِ مكثِنا في هذِه البلدة، وعدمِ

انتِقالنا، فرشقتُمونا بسهامٍ واهية، أنشَأَتها تخيُّلات وأوهام هي عن اتِّباع الحقِّ ساهية، وبارتكابِ الدَّعوى ومُتابعتها للهَوى لاهية، فأَنتجَت لكم أنكم بمَعزل عَن غرضِ الإصابة، وأَنكم مِن العلمِ في غاية البُعد ومِن الجهلِ في غايةِ القَرابة، ولكن لَّما جَرت بحورُ الأغراضِ بأَفكاركم، وهاجَت بِقلوبِكُم أمواج الحقدِ والحسدِ حتى ظهَرت مِن بين أَظفاركم، عمدتُم إلى تكفيرنا مِن غير استنادٍ لدليلٍ يقومُ ويشفى به غليل العليل.

كان مِن حقِّكم أن تَسألوا عن أحوالنا، هل وقَعت بنا فتنة في الدين، وهل بطلت من المساجد الباقية الصلوات والتَّأذين، وهل تعطَّلت عنها تلاوة القرآن، وهل مُنع القراءةَ في مكاتبهم الصِّبيان، وهل الذَّبائح والأنكِحة والمواريث بأَيدِينا على العهدِ القديم، بحيث لم يتسلَّط على شيءٍ مِن ذلك هذا الكافر الَّلئيم، فإِن ظَهر لكم ذلك في الخارج صحَّ قولنا إِنَّنا مُتمكِّنون مِن إقامة الدين، وكان مِن حقِّكم أن تَسألوا عَن سببَ مكثِنا في هذِه البلدة، هل هو رضًا بالكُفر، ومحبَّة في مُعاشرةِ أهلِه، أو هو لغَير ذلك، وكيف يُتصَوَّر في أذهانكم أنَّنا نرضى بالكفر، ونحبُّ مُعاشرة أهله، وقد غلَت أسعارنا، وتعطَّلت صَنائِعنا، وانهدَمت حَوانيتنا، وتعسَّرت مكاسبنا، وحُفرت مقابرنا، ونُبشت ضَرائح أوليائِنا، وما حصلت هذه الأشياءُ إلَّا بسببِ دخُوله، فأيُّ عِزٍّ لنا في هذِه الأَشياءِ حتى نرضَى بها كما ذكرتُم، وقلتم إنَّ النفوسَ الَّلئيمة إذا أَلِفت العزَّ فلا تحبُّ مُفارقتَه، أبهذه الأشياء عزٌّ لنا، والله الذي لا إله إلَّا هو نَحن إذا أصبَحنا لا نريدُ أن يُصبحَ معنا، كيفَ ونحنُ في ضيقِ مَعيشة، وجُهْدٍ جَهيد، ولكن لا قُدرةَ لنا على دَفعِه، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ (الأحزاب: 38)، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ (الأنعام: 112).

ثمَّ انتقل **ابن الشاهد** إلى تَوضيح طبقاتِ السكَّان الذين لم يهاجروا إثر الاحتلال مباشرة، وهي وثيقة جَوهرية في تاريخ تِلك الفترة التي أعقَبت الِاحتلالَ مُباشرة، فتغيَّرت فيها الأحوال، حيث عُزِل الماريشال **دو بورمون** قائد الحملة، وتولىَّ مكانَه

الماريشال **كلوزيل** الذي عاثَ في الأرضِ فسادا، لأَنَّه كان مِن العسكريِّين القلائل الجُمهوريِّين.

ثمَّ استرسلَ **ابن الشاهد** في جَوابِه، وبدأَ بطبقة علماء البلاد الذين انصبَّ عليهم حكم الفَتوى ـ وهو: الكفر ـ لعدمِ هِجرتِهم، فقال **ابن الشاهد**: «ولِنُبيِّن لكم الآن سبب عجزنا عَن الهجرة، فنقول: إنَّكم نصبتم المناظرة للعلماء والطلبة، فلنبدأ بهم، فنقول: معلومٌ عند كلِّ أحدٍ أنَّ الطَّلبةَ لا حِرفةَ لهم، وإنَّما يكتَسِبون مِن الأحباس، كمساجد وأَحزاب وأذانٍ وإمامةٍ، وربما يكون لبعضِهم حانوت يَبيع ويشَتري فيها، ولا تُعطِّله عن القراءة، وربما يكون لبعضٍ آخَر دورٌ أو بستان تَركَه له أجداده، وربما يموتُ لهم بعضُ الناسِ فيرثونهم »، وبعد أن بيَّن بِتفصيلٍ عَجزَ هذه الطبقة المادِّي، وعدمَ توفُّرها على الزَّائد حتى تدَّخِره للطوارئ، بيَّن ما يُكلِّفه الإِنتقال بَرًّا أَو بَحرا مِن المصاريف والصُّعوبات، ختمَ فصلَه الذي بيَّن فيه حالةَ طبقة الطَّلبة، فقال: «هذا في حقِّ الطلبة، وأمَّا غيرهم مِن العامة، فمِنهم مَن هو ملحقٌ بالطلبة في الفَقر، ومنهم مَن يلحقُ بهم، وهم بقية ذَوي الأَموال، لأنَّ الجُلَّ الكثيرَ مِن ذوي الأموال ارتحَلَ وسافَر مِن هذه البلدة برًّا أو بحرًا، شَرقًا أو غربا، كما هو مُشاهدٌ محسوسٌ لكلِّ أَحد، وهذه البقية اختلفَت أسبابُ تأخُّرهم عَن الارتحال، فمِنهم مَن له عَقارات يريدُ أن يَبيعها ولم يُيسِّر له ذلك إِليها الكافر[1]، ومنهم مَن له ديونٌ لم تَطِب نفسُه أن يُسافِر قبلَ قَبضِها، ومنهم مَن له عيالات كثيرة تعلَّقت برقَبته ينتظِر الوقتَ الذي يحصل له تَيسير الارتحال فيه، وهِجرة أصحاب النبيِّ ﷺ لم تكُن في يومٍ واحد، ولا في شَهرٍ واحِد ...»، إلى أن قال: «فالناس قاطبة على نية الإِرتحال والخروج، لكن كلٌّ يتربَّص وينتظِرُ الوقتَ الذي يحصل له فيه التَّيسير، وهذا حاصلُ سببِ مَكثِنا في هذه البلدة، وما بلغكم مِن بعضِ

(1) كذا، وفي الرِّسالة المحقَّقة المشار إليها: «ولم يتَيسَّر له ذلك إلى الآن». (ع)

النَّاسِ ممَّن صار مِن أعوان الكافِر، وتولَّى خِدمتَه [الحاملُ] لهم [على] ذلك حبُّ الدنيا، والله أعلم بما في قلوبهِم ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (القصص: 56).

هذا حاصلُ ما يتعلَّق بأَمر الهِجرة، ثمَّ إنَّكم لم تقنعوا بتلك الرِّسالة في تكفيرنا حتى قَذفتُمونا بأنَّ نِساءنا وأولادَنا مع الكَفرة، وهل هذا إلا رجم بالغَيبِ ارتكبتُموه، إذ لم يخبركم بِه الثِّقات ولا بأَعيُنِكم شاهَدتموه، بل هو ممَّن يحطب الأَخضرَ واليابسَ أخَذتموه، تَقولون بأَفواهكم ما ليسَ لكُم به علم، وتحسبونَه هَيِّنا وهو عِند الله عَظيم... وكان ينبغي لكم أن لا تَتكلَّموا به حتى تَتحقَّقوه كيف [لا وأَنتم] [1] مِن أَهل الفتوى والمناصب، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ (الحجرات: 12)».

إلى هنا نَنتهي بهذه اللَّقطات التي أظهرنا فيها نماذج مِن الوثائق الدَّالة على دور بعض علماء الجزائر في ميادين الاجتهاد.

(1) زيادة مثبتة من الرِّسالة المطبوعة بتحقيق الدكتور **محمد بن عبد الكريم الجزائري**. (ع)

الثَّقافة والتّوجيه بالجزائر في العهد التركي[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والصَّلاة والسَّلام على رسول الله.

إن الثَّقافة العربية بالجزائر كانت لا تختلف عن الثقافة العربية ببقية البلاد الإسلامية في العالم، وإن اختلفت مع بعض الجهات قوة وضعفا، أو في بعض الشكليات، وإنني وإن اخترت الحديث في هذا الموضوع فلأنَّ العهد التركي ببلادنا مازال يكتنفه الغموض وبالخصوص من الناحية الثقافية التي بالغ كثير من الباحثين في أحكامهم عليه بأنه عهد انحطاط وعقم.

والحقيقة أنه رغم خطورة الحالة، والمصائب التي تكبَّدتها البلاد إذ ذاك فلم يصب الحركة الثقافية توقُّف أو تعطيل، بل نجدها بالعكس استفادت وتطوَّرت تطوُّراً محسوسا كما سنبيِّن ذلك.

إنَّ تاريخ العهد التُّركي ببلادنا ـ كما ذكرت ـ مازال معظمه مجهولا إذا قارنَّاه ببقية البلاد الإِسلامية، خصوصا بلاد المغرب العربي، فإنَّ جلَّ ما أُلِّف في تلك الفترة حظي

---

(1) ألقيت هذه المحاضرة في ملتقى التَّعريف بالفكر الإسلامي الثالث، المنعقد بمدرسة ترشيح المعلِّمين ببوزريعة، من 26 / 12/ 1969 إلى 2/ 1/ 1970م، ومحاضرات هذا **الملتقى** لم تنشر، وقد وقفنا على هذه المحاضرة مرقونة بمكتبة الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، وتقع في (31ص).

بالنَّشر، أما الإنتاج الجزائري علاوة على ضياع الكثير منه، فإنَّ ما تبقَّى لازال مخبوءا في بعض الخزائن الخاصة والعامة، أو مبعثرا عِند مَن لا يَعرف له قيمته أو يقدِّرها حقَّ قدرها.

والذي ساعدَ في انتشار فكر الرُّكود والعقمِ بعض المؤرِّخين الأجانب، الذين بالغوا في اتِّهام الأتراك وعمَّالهم باضطهاد العلماء، ومحاربة الثَّقافة، وإننا وإن كنا لا ننكر فضل كثير من هؤلاء المؤرِّخين على اهتمامِهم بتاريخ تلك الفترة، حيث اعتنَوا بالبحث والتَّرجمة، وتلخيص كثير مِن المصادر ودَرسها في المؤتمرات العِلمية العالمية، وتخصيصها بسِجلَّات ومجلَّات زيادة على الكتُب، إلَّا أنَّ هذا لا يَمنعنا أن نُلاحِظ أنَّهم إن كان هدف البعض منهم هو البحث العلمي النَّزيه، فإنَّ كثيرا منهم شوَّهوا الحقائق، وطمَسوا معالمها، وإنَّنا لما كنَّا في حاجة إلى فَهمِ تاريخ ماضينا فهما صحيحا، وتصحيح كثير مِن الأغلاط، فالواجبُ يحتِّم علينا أن نَعتني بدراسته دراسةً عِلمية دقيقة مجرَّدة مِن الأغراضِ والإرتجال، وهذا يتوقَّف قبل كلِّ شيء على جمع الوثائق المختلِفة، ودَرسها مِن جديد وتَعميمِ نَشرها.

وإنَّني في هذا الحديث المحدود أريدُ أن أُساهِمَ في إظهار جوانب مِن حياة مجتمعِنا الثَّقافية إذ ذاك، إلا أنَّني أعتذرُ سلفا بأنَّني سأكتفي بِنقل بعضِ الوثائق التي لربَّما لم يتعوَّدها المستَمِعون في مثلِ هذه المحاضرات، حيث يجدون فيها بعضَ الطُّول والملَل أو التكرار، أو يعدُّها البعض منهم خروجاً عَن الموضوع، كما أنَّني رأيتُ قبل الشُّروع في الموضوع أن أتعرَّض لوصفِ حالة البلاد قبلَ العهدِ التُّركي، إذ مازالت الآراءُ إلى الآن مختلِفة ومتناقِضة في تفسير كثير مِن الأحداثِ الهامة، ونتجَت عن ذلك بلبلة، سواءً عن بعض المستشرقين أو ممَّن نقلَ عنهم، وإنَّني اخترتُ بعضَ هذه الوثائق مِن مصادرها الأصلية، وفيها كثير باللغة الدَّارجة أو بأسلوبٍ مُهلهَل، إلَّا أنَّ قيمتَها التاريخية لها أهمية، كما أنَّني لا أكتفي بإِحالة المستمِع إلى بعض المصادر حيث تعوَّد المحاضرون أو

المؤلِّفون الإِشارة إليها، فإِن وَجدنا ما يبرِّر ذلك في الماضي حيث كانت هذه المصادر منتشِرة ومعروفة في مظانِّها، فإنَّنا اليوم يَصعبُ على الكثير مِنَّا ـ خصوصا في بلادنا ـ الحصول على بعضِ المصادر المطبوعة، فضلا عن المخطوط، فَمعذِرة.

لا يخفى على حضراتكم أنَّ عوامل الضَّعفِ والانحِطاط التي عمَّت البلاد الإسلامية كلها ابتداءً من منتصف القرن الثامن الهجري كما ذكر ذلك العلامة المؤرِّخ **عبد الرحمن ابن خلدون**، وشاركه في رأيه أستاذه العلامة الجزائري **محمد المقري** التلمساني، وإن اختلفا في الأسباب فـ: **محمد المقري** كان يرى إذ ذاك أن النظام الملكي هو من أسباب ذلك التدهور ويراه منافيا لتعاليم الإسلام التي تحبذ الشورى، و**ابن خلدون** يرى غير ذلك وقد بينه بتفصيل في تأليفه ديوان العبر.

نالت الجزائر بالطبع حظها من هذا التدهور، ولم تتغير الحالة طيلة القرن التاسع ثم طرأ عامل آخر نشر الرعب والفزع بعد كارثة الأندلس، وسقوط غرناطة في أواخر القرن التاسع، كانت علائق الجزائر بالأندلس وثيقة ومتينة، بزيادة على العلائق السياسية التي كانت بين البلدين ابتداءً من القرن الثالث حيث لم ينس عبد الرحمن الداخل للجزائريين فضلهم عليه، حيث آووه وسهلوا له العبور إلى الأندلس، فإن كثيرا من أعلام الأندلسيين استوطنوا بعض العواصم الجزائرية كبجاية وتنس وتلمسان وعنابة ابتداءً من القرن الخامس ولحقت بهم البقية الباقية بعد سقوط غرناطة، كانت المراسلة بين علماء الجزائر والأندلس متصلة حتى بعد سقوط غرناطة، فمنذ خمسة عشر سنة تقريبا اكتشف المؤرخ الشهير **محمد عبد الله عنان** وثيقة هامة بمكتبة الفاتيكان في روما، أرسلها أحد علماء الجزائر إلى الأندلس بعد سقوط غرناطة كتب عليها المستشرق الإيطالي (Della Vide) بالإيطالية ما يلي: صورة من خطاب مؤرخ في أول رجب سنة 910هـ الموافق لسنة 1504 المسيحية بقلم من يدعى [**أحمد بن**

بو]جمعة المغراوني الوهراني، موجه إلى الغرباء الذين يعيشون تحت حكم النصارى يَعظهم في الدين ويوضِّح لهم طريقة مُراعاة أحكام الإسلام مع التظاهر باعتناق النصرانية، مقرونة ببثِّ الأمل إليهم بنهضة الإسلام.

وبعد سنوات قليلة هاجم الإسبانيون مدن شواطئ الجزائر فتساقطت الواحدة بعد الأخرى كوهران وبجاية وتونس وطرابلس وفي الحقيقة كانت الحروب الصليبية هي التي تجددت واستأنفت، كانت حالة البلاد عندما فوجئت بهذا الاحتلال سيئة جدا فعاصمة الجزائر ومتيجة كانت إقطاعا لقبيلة **الثعالبة** تحت حكم **آل المقراني**، الذي كان مركزه بقلعة بني عباس، ثم بمجانة، والقبائل الكبرى تحت تصرف ابن القاضي صاحب جبل كوكو، وكانت مدينة بجاية فقط من بلاد القبائل تحت حكم أمير حفصي، وأما شلف أي ما بين **العطاف** و**غيليزان** فكانت قبيلة سويد هي المهيمنة على البلاد وسكان **وانشريس** **والسرسو** و**مازونة** يدفعون لهم الخفارة، وما بين **غيليزان** والحدود المغربية كان تحت تصرف ملوك بني زيان، وكانت العاصمة تلمسان، وأما قسنطينة فالبلدة كانت تحت حكم أمير حفصي ومعها **عنابة** **والقل**، وبقية العمالة كانت إقطاعات، فـ: **تقرت** كانت تحت حكم **أولاد سعيد** الذين لقَّبوا رؤساءَهم بالسلاطين، وبقية البلاد الأخرى تحت تصرُّف قبيلة **الذواودة**، الذين كان يرأسهم **بوعكاز** وقبائل سد ويكش والأحرار.

هذه حالة البلاد الجزائرية عندما فوجئت بالاحتلال الإسباني، ذكر المؤرخ الجزائري **أبو راس الناصري** حالة البلاد إذ ذاك فقال: «والحاصل أن الجزائر كان ملوك تلمسان وملوك إفريقية ـ يقصد الحفصيِّين ـ يتداولون عليها فتكون لمن غلب عليها ومرة يتغلب عليها بعض مشايخها ـ والمشايخ هم رؤساء القبائل العربية وكان هذا اللقب يطلق عليهم من عهد الموحدين ـ إلى أن دخلها ملوك الأتراك، وأول من ملكها

خير الدين... وكان لـ: **خير الدين** أخوان **عروج** وهو أكبرهم و**إسحاق**، ولما دخل تلمسان استعمل عليها أخاه عروج ثم بعد منصرفه تعصب المسعود من ملوك بني زيان وهجموا على عروج فأخرجوه عنهم ثم زحف إليهم بمن معه، وكان شديد البأس، فدخل تلمسان وقتل سبعة من المترشِّحين للملك، ونحو الستين من الأمراء، ولما رأى المسعود ما وقع ذهب إلى وهران واستنجد بالملك الإسباني، فأرسل معه جنده إلى تلمسان، يحاصر عروج فلما طال أمر الحصار عليه خرج بمن معه من الجيش والبطانة فلحقوه بجبل بني موسى[1] وقتلوه ومن معه يوم عيد الفطر سنة خمس وثلاثين وتسعمائة، أمام موقف الملك الزياني اجتمع كثير من أعيان البلاد وفي مقدمتهم علماء الدين، ودعوا للجهاد، وإحياء الرباطات والاعتماد على النفس، وقد حافظ لنا التاريخ على عرض حال الاجتماع من هذه الاجتماعات التي هي عبارة عن مؤتمرات تتعهد فيه القبائل على تعيين مناطق النفوذ وتسليح المجاهدين وتموينهم، إذ كان كثير منهم يتوقع هجوم الإسبان بعد كارثة غرناطة، وهذا العالم الأديب الشيخ محمد التواتي خاطب سكان وهران في الموضوع قبل سقوطها فقال من قصيدة طويلة :

يا أهل وهران انظروا نظرة شفقة	لبلدتكم من قبل أن تتردتي
وقبل مجيء المنشآت ببحرها	وأي قلوب عندها مستقرتي
ولا تكلوها غيركم ولئن يكن	فما غائب مثل المقيم ببلدة
ولا ينفع الترياق إن بعُدَ المدا	وقد نال منهم السم شاك بعلة
فإن لكم في الغرب أكبر عبرة	وفي الأندلس فجعة أي فجعة
بلاد لدين الله أمست وأصبحت	وللكفر منها شرعة شر شرعة

(1) جبل بني موسى: ببني يزناس (شرقي المغرب)، خلاف ما يدَّعيه كثير مِن الكتَّاب مِن أن عرُّوج قتل بشعبة اللحم (قرب عين تيمشنت).

فـما البرتغـال اليـوم يطلـب غـيركم ومرسـاكم لا فـاز منهـا بمنيتـي
وقد هـال أمـر البرتغـال إلى وحـدة فكيـف وذو الفنشـي لـه في الحمية
فـلا تهملـوا أمـر الأعـادي فـإنهم بحـال اجـتماع واتفـاق وشـدة
وقد قطعوا قطعا فـإن ظفـروا بكـم فقـد ظفـروا طـرا بأهـل الجزيـرة
وكانت بلاد المغرب تحمـي ديـارهم وتنجـدهم بـالعون في كـل وجهـة
فهـا هـي للكفـار مـأوى ومسـكنا فعـاد علـيهم نفعهـا بالمضـرة
فيـا قـادرا عـن دفـع ذاك منصـرا فما العذر يـا ذا الطـول يـوم القيامـة
ولا يحمي مرساكم ضعاف رجالكم ولا البدو بـل تحميـه أهـل الجزيـرة
فـإن لهـم بـالطعن والضـرب خـبرة وكـم فتكـوا بـالكفر أكـبر فتكـة
فلـم يعبـأوا مهـما رأوهـم بكثـرة ولم يشـتكوا مـنهم لقـوهم بقـوة

أمام هذه الأحداث وقع اتصال بين علماء الجزائر والمغرب وتبادلوا وجهات النظر، وحرضوا بعضهم بعضا على المقاومة إذ كانت حالة البلدين شبيهة ببعضها، فنجد أحد علماء المغرب[1] وصف حالة بلاده إذ ذاك فقال: «... قلت: وهو أشبه شيء بزماننا هذا منذ سنين أو أكثر، والأمر قد مرج، والهرج فيه عن الحد من كل وجه قد خرج، والأمة ما اتفقت فيها على واحد، وكل من تغلب على جهة قليلة منهم، إنما يبايعه مَن لا بال له، أو مكره على بيعته، خوفا من ظلمه، فسابت الأمة وعمت البلية والغمة، وفاض الكفر، وغاض النصر، حتى أُخِذَت السواحل ولا مغيث لأهلها مع استغاثتهم لجميع القبائل، وعُطِّل فيها الأذان، وضرب الناقوس في مساجدها ونصبت الصلبان، وعبدت في محارب الله من دونه الأوثان، وكل عالم بزعمه أو صالح بوهمه أو أمير بدعواه... »، ثم

(1) وهو العلامة أحمد بن القاضي المشهور بابن أبي محلي في تأليفه المشهور: (**تهييج الأسود السود لتهجيج القردة والفهود**).

يوجه خطابا للسكان المغاربة والجزائريين فيقول: «إنه نزل بكم يا معشر المسلمين خزي وذل وهوان وخسران، ومعرة ومضرة في المال والعاقبة، فما هذه الرقدة وقد غشيكم من عدوكم سيل قحاف، وويل رجَّاف... فلا النار تخافون، ولا العار تتقون، كأني بنسائكم وأبنائكم خدما ومغنما عند الكفار والفجار، فوا أسفي على همم راقدة، وقرائح نيرانها خامدة، كم لي أضرب في الحديد البارد، ومتى تنفع الذكرى في القلب الراقد، والميت البائد ...»، ويختم نداءه بقصيدة طويلة نقتطف منها بعض الأبيات خاطب فيها القبائل الجزائرية والمغربية:

فيا معشر الإسلام هل من مجاهد	يريد رضاء الله أومن مساعد
من التل والصحراء ما بين راشد	وطلحة والأحلاف ومن مصامد
فمن لي بوفد من نهار ومثلهم	زواوة أهل السيف من بعد راشد
وكل سويد سيد ومسود	وحام وتيطري وابن يعقوب عاضد
فيا أهل هذا الغرب عار عليكم	تؤدون للكفار جزيةَ هائد
وأموالكم مغنومة وستوركم	مهتكة وذلكم في تزايد
وأخياركم أشراركم ورؤوسكم	أكارعكم سحقا لكم من روافد

هذه حالة البلاد قبل الاحتلال التركي والحديث عن الاحتلال التركي هل وقع تلقائيا كما هو الشائع أو كان بطلب بعض الجزائريين أو باتفاق معهم لا يسع الحديث عنه مجال هذه المحاضرة، وكل ما نستطيع قوله فيها هو أن الاتصال وقع قبل الاحتلال بين كثير من الجزائريين وعروج وإخوته وأن الأتراك قوبلوا من طرف السكان كمواطنين مسلمين جاؤوا لإنقاذ البلاد من سيطرة الصليبيِّين، ووصفنا لهذه الحملة الإسبانية بالصليبية ليس من المبالغة، بل هي الحقيقة التاريخية المؤيَّدة بالحجج والبراهين.

إن حملة الإِسبان على شواطئ الجزائر كانت ابتداء من سنة 910هـ الموافق ل 1504م، حيث سقط المرسى الكبير بوهران ثم مدينة وهران سنة 914هـ وبجاية سنة 915 وطرابلس 917هـ.

وفي سنة 924 هـ الموافق لـ: 1518م أعلن البابا الحروب الصليبية، وطلب بل أمر ملوك أوروبا بمهادنة لمدة خمس سنوات، حتى تتفرغ إسبانيا لاحتلال الجزائر والشمال الإفريقي، قلنا إن الجزائريين قابلوا الأتراك من أول مرة كمواطنين مسلمين جاؤوا لإنقاذهم من الإسبانيين، ولم يكن مفعول الوطنية الحالية المحدودة ساريَ المفعول إذ ذاك، بل كان المسلمون يعتبرون أنفسهم رعايا، وبلاد الإسلام بلادهم يتمتعون فيها بما يتمتع به إخوانهم، فمن ذلك نرى ابتداءً من القرن السادس في عهد الموحِّدين أن **المهدي بن تومرت** لما أدركه المنون أوصى بالخلافة بعده لتلميذه عبد المؤمن بن علي الكومي الجزائري، رغم عصبية مواطنيه السوسيِّين وقبلها عن طواعية معظم أصحاب المهدي ابن تومرت، ولما تولى أبناء **عمر الهنتاتي الحفصي** على **تونس**، وتوارثوا ملكها ثلاثة قرون لقوا التجِلَّة والتأييد من التونسيين، وهكذا كان الحال في الجزائر عندما اشتدت الخلافات بين **المرينيِّين وبني زيان** الذين كان كلٌّ منهم يدَّعي أنه الأحق بوراثة مبادئ وتعاليم **الموحِّدين**، ووسيلتهم الوحيدة هي إقناع الأنصار ولهذا ينبغي لنا أن نحكم على هذه الأحداث بمنظار ذلك العهد، لا بما استند إليه كثير من الساسة المستشرقين الذين كانوا يخدمون مصالح خاصة تُظهِر للمسلمين أن آباءهم وأجدادهم كانوا في حروب مستمرة.

والآن أشرع في الموضوع وإنني إذا تحدثت على الثقافة والتوجيه، فإنني أقصد مدلوليهما في ذلك العهد، حيث كانت الثقافة عبارة عن التعليم بجميع أنواعه، وفنونه، ومراحله، ومعظمه يرجع إلى تكملة وتمتين العقيدة الروحية الإسلامية، وتكوين

الرجل العالم الذي يقوم بأعباء الرسالة المقدسة في المجتمع، إذ لم يكن العلماء إذ ذاك مجرد فقهاء أو محدثين أو وعاظ ومرشدين بل زعماء قادة، تحقيقا للوصف الذي كانوا يوصفون به «بأن العلماء ورثة الأنبياء»، وهذا يتفق تماما مع ما عرَّف به أحد العلماء المعاصرين الثقافة بأنها: «هي كل ما يتناوله الفكر الإنساني».

والتوجيه كذلك نجده كان متمما للثقافة، مرتبطا بها، ينشر الروح الدينية بشتى الوسائل، وعند سائر الطبقات، المتعلم منها وغير المتعلم، أو بعبارة عصرية تحليل معلمه للنفس البشرية وفي هذين الميدانين أي الثقافة والتوجيه لم تكن الجزائر عالة على غيرها، كما يتوهمه كثير من الكتاب وهي وإن استفادت من التراث المنتشر في العالم الإسلامي فإن علماءها تعرضوا لكثير من التآليف وأمهات الكتب بالشرح والتلخيص والنقد والتجديد وزاحموا معاصريهم ومن قبلهم وطبعوا كثيرا من التآليف في مختلف الفنون، بطابع محلي، أمكن للكثير منها الانطلاق خارج حدود الجزائر، واحتلال المكانة المرموقة في مختلف الجامعات الإسلامية شرقا وغربا وكانت عمدة ومصادر لكثير من المؤلفين عدة قرون، وما قلناه في الثقافة، نقوله في التوجيه، فإن الجزائر وإن اجتاحتها تيارات فكرية، عالمية، ومذاهب شتى في تاريخها كمذاهب الخوارج والإباضية، والشيعة الإسماعيلية، إلا أن المذهب السائد في المغرب العربي في الفترة المتصلة بالعهد التركي هو المذهب السني المالكي ولم يمنع هذا من ظهور حركات صوفية تَغالى بعض أصحابها فيها غلوا نتج عنه رد فعل من بعض الأوساط العلمية، خصوصا علماء الحديث، فظهرت حركة إصلاحية، سلفية قوية كونت أنصارا وخصوما، وكان لها فضل حيث جنبت الثقافة الإسلامية بالجزائر، والمذهب السني، مذاهب الزيغ والانحراف، وجعلت منها قوة بناءة وسلاحا روحيا ساعد في توحيد الجهود لمحاربة البدع.

امتاز العصر التركي في الجزائر بانتقال المراكز الثقافية من المدن إلى الجبال والقرى

وخصوصا بالشواطئ، حيث كانت هذه المعاهد يشد بها أزر الثغور والرباطات فكانت علاوة على قيامها بنشر الثقافة مأوى للمجاهدين ومراكز لافتداء الأسرى، اشتهرت عدة معاهد إذ ذاك في كامل القطر، ففي نواحي **بجاية** وبعد سقوطها كانت الجالية الأندلسية هي التي انتقلت إلى تلك المعاهد، كـ: معاهد: **بني يعلى العجيسي، وعبد الرحمن اليلولي**، و**أحمد ابن إدريس**، و**تاسلينت** بـ: **يلولة**، و**مشذالة**، و**بني يتورغ**، و**آيت غبرين**، و**بني منقلات**، و**محمد أمقران** بـ: **أمعدان**، و**قجال** بنواحي **سطيف** و**عنابة** و**قسنطينة**، و**قرُّومة** بنواحي **الجزائر**، و**بني خليل**، و**سماتة**، ولمدية، ثم معاهد الراشدية التي أحصاها المؤرخ **أبو راس** إذ ذاك بنحو الستين، و**مجاجة**، و**مازونة**، و**وانشريس** و**اليعقوبي** بـ: **ندرومة**، ونواحي **تلمسان**، كـ: **عين الحوت**، والشيخ **أحمد بن الحاج البيدري**... الخ، ولنقتصر على وصف بعضها، قال **أبو الحسن الشريف** في **(كامل البغية)** يصف **معهد مجاجة** قال: «خرجنا إلى ثغر **تنس** فلقينا سيدي **محمد بن علي** [1]، وأنزلنا بزاويته في **مجاجة**، وكنا في جوع ونحن نحو1300 فارس فقصدناه للزيارة فأنزلنا خارج الزاوية لكثرتنا وكانت خيولنا ذكورا وإناثا، فقال لنا: اُتركوها من ألف بين قلوبكم، يؤلف بينها، وأمرنا بالجلوس على 24 جلسة، وأفاض علينا الثريد واللحم والعسل والسمن، ومعهد مجاجة كان من أعظم معاهد القطر إذ ذاك، ذكر خرِّيجه العلامة الشيخ سعيد قدُّورة ما يلي: «سافرتُ لطلب العلم ـ وذلك في أواخر القرن العاشر ـ فقصدتُ زاوية الشيخ العارف بالله سيِّدي **محمد بن علي** وأخيه **ابن علي** ابني **ابهلول المجاجي** (نفعنا الله بهم)، آمين، وكان الشَّيخ **محمد بن علي** شديد الاعتناء بتدريس العلم وفنونه، كالتفسير، والحديث، والأصول، والبيان، والمنطق، واللغة، وعلم النجوم، والطب، وغيرها، وقد جمع علمَ الشريعة وعلم الحقيقة، ولا نظير له في

---

(1) **محمد بن علي**: عالم جليل توفي سنة 1008هـ.

عصره، وكان يشدُّ له الرِّحال لقراءة الصِّحاح عليه مِن بلاد مصر وتونس وغيرها، وحضرتُ وفاة الشَّيخ سيِّدي **محمد بن علي** المذكور، وقد انتهى في التَّفسير إلى سورة سبِّح، وقتل بداره فمات شهيدا سنة 1008هـ».

والشيخ **سعيد قدُّورة** مِن أكبر علماء القطر، إذ بعد مُغادرته لـ : **معهد مجَّاجة**، انتقل إلى **تلمسان**، فأخذ على عالمها الشيخ **سعيد المقري**، وكان زميله في الدِّراسة ابن اخيه **أحمد المقري** صاحب (**نفح الطيب**)، وكانت بينهما مودَّة ومساجلات أدبية، كما تخرَّج من **معهد مجاجة** عشرات العلماء مِن جهات القطر، وخصُّوا بتآليف قيِّمة في تراجمهم، كـ : **العقد النَّفيس في بيان علماء وأشراف غريس**.

ثمَّ ننقل إجازة معهد بني يعلى العجيسي بالقبائل الصُّغرى، فنجد أن الفنون التي كانت تدرَّس بهذه المعاهد حتى في العهد الأخير من العهد التركي لا تقلُّ عن الفنون التي كانت تدرَّس بأَرقى المعاهد الإسلامية، كـ : الأزهر، والزَّيتونة، والقرويِّين.

قال العلَّامة الفقيه الشيخ **العربي بن مصباح**، خرِّيج **معهد بني يعلى** بعدَ أن ذكر بعض مَن أجازه ما يلي: «وقَد أجازني قبله شيخي ومولاي وسميط محياي، علامة الدُّنيا على الإطلاق، الشهير علمه وعدله في كل الآفاق، **أبو أحمد** سيِّدي **الحسن بن أحمد زروق بن مصباح**، حشرني الله تعالى معهم في زُمرة أهل الصلاح، مِن علم الحديث بصحيحي **البخاري** و**مسلم** وغيرها مِن الكتبِ السِّتة وغيرها، ومن علم التفسير بابن عطية، والواحدي، والبيضاوي، وابن الجوزي، وذي الجلالين، والجواهر الحسان، وغير ذلك، ومن علم الفقه بـ : **مختصر** الشيخ **خليل** وشرَّاحه وحَواشيه، والرِّسالة وشرَّاحها، ومختصر ابن الحاجب، وغير ذلك، ومن علم الكلام بـ: **المقاصد** وشرحها له أيضا، و**أم البراهين** وشرحها لمؤلِّفها وحاشيتي الشَّيخ عيسى السَّكتاني، والشَّيخ **يحيى الشاوي** عليها، و**الكبرى** و**الوسطى** وغيرها مِن مؤلَّفات الشَّيخ السَّنوسي، و**الجوهرة**

لِلُّقاني، وشرحَيها الكبير والصغير لناظمها المذكور، ومن علم النحو بـ : (**الكافية**) و(**التسهيل**) وشروح كلٍّ، وغيرها من مؤلفات ابن مالك والشذور وقطر الندى والمغني وقواعد الإعراب وغيرها من مؤلفات **ابن هشام الأنصاري** والتصريح والأزهرية وجميع مؤلَّفات الشيخ **خالد الأزهري**، ومن علم التصوف بكتب ابن عطاء الله وتآليف **القشيري** والشيخ **زروق**، ومن علم الأصول بـ: **جمع الجوامع** وشروحه ومن علم البيان بالتلخيص وشراحه، و**الجوهر المكنون** و**شفاء عياض**، وبـ: **إحياء** الغزالي، ومن علم السير بـ: **ألفية العراقي** وشروحها وابن سيد الناس، وغير ذلك من صرف ومنطق وحساب وفلك وفرائض وعروض وتلاوة كتاب الله، وبقراءة دلائل الخيرات وأحزاب الشاذلي والنووي والوظيفة الزروقية ونظم الدِّمياطي والبردة والهمزية والمنفرجة وغير ذلك مما هو مرسوم في ثبته الذي أجازنا به (رحمه الله، ورحمنا به)، وقد مدحته بقصائد، ورثيتُه بعد موته بأخرى، ويعلم ذلك بالوقوف عليها...»، ثم نجد كثيرا من علماء الجزائر تخرَّجوا إذ ذاك من المعاهد الإسلامية الشهيرة، كـ (**الأزهر**)، و(**الزيتونة**)، و(**القرويِّين**)، وظهرت تآليف قيِّمة، ففي التَّفسير زيادة على (**الجواهر الحسان**) للثَّعالبي، وتفسير **محمَّد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني**، نجد تفسير **محمد بن على الخروبي** الذي كان مؤلِّفه يرى رأي كثير مِن العلماء المتأخِّرين، كـ: **جمال الدِّين الأفغاني**، و**محمد عبده**، و**إقبال**، و**طنطاوي جوهري**، بأن التفسير يتطلَّب التجديد حسبما تتجدَّد قضايا المجتَمع للأمم الإسلامية، وقد ذكر في مقدِّمة تفسيره: (**رياض الأزهار وكنز الأسرار**) ما يلي: «وبعد فلما كان ما اشتملَ عليه القرآن العظيم من لطائف الأسرار، ودقائق الحقائق وغوامض العلوم، وخفي الرقائق، أكثر من أن تدرك، وفي نظم كلماته وتراتيب آياته، رموزا وإشارات ترمز وتشير إلى أسرار لا تحصل كلها لواحد، ولكن تكلَّم كل عالم بحسب ما ظهر له منها، وعبَّر كل عارفٍ بحسب ما كُشِف له عنها ... فلما رأيت ذلك، بادرت أجتني مما هنالك، موقنا أن من كشف لهم

الغِطا لا يملُّ مِن العَطا...»، وخالف من سفه من المفسرين الذين اشتغلوا كثيرا بأشياء رأى الإعراض عنها أجدى فقال: «جرت عادة المفسرين أن يقدموا بين يدي التفسير في كتبهم أبوابا وفصولا يذكرون فيها ما ورد في فضل القرآن العظيم وبفضل المفسرين ومراتبهم وما أعده الله سبحانه لهم من الحسنات ترغيبا في الاشتغال بتفسيره، وإظهار معانيه، واستخراج كنوزه، وفك رموزه، وبيان أحكامه، وتفتيق أسراره وكشف حقائقه ورقائقه... وربما قدَّموا بين يدي التفسير كيفية جمع القرآن، ومن جمعه وسبب جمعه، ونظمه، وعدد آياته، وحروفه وغير ذلك مما ناسب هذا المعنى، لكن نحن لا نتعرض لشيء من ذلك، وإنما ذكر أنه تتميما لفائدة تفسيره سينبه على الآيات التي حاد فيها صاحب الكشاف عن طريق أهل السنة...».

وما قلناه في التفسير نقوله في القراءات، اشتهر كثير من المقرئين كالعلامة المُقري الشَّيخ **علي الزواوي اليتورغي**، و**أحمد بن ثابت التلمساني** المتوفى في منتصف القرن الثاني عشر، والذي كان تأليفه عمدة المقرئين، وكان أحد علماء **زواوة** مِن تلامذة الشَّيخ **اليلولي** تشدُّ له الرِّحال حتى مِن **تونس**، وانتقل سند القراءات العشر إلى **تونس**، وهو معروف عندهم إلى الآن بسند **زواوة**.

وأما الحديث فقد ظهر فيه أئمة لهم شهرة عالمية وتركوا فهارس في السند ما زالت عمدة كثير من علماء الحديث، وذلك كالعلامة الحافظ **أبي مهدي عيسى الثعالبي** المتوفى سنة 1080 صاحب (**كنز الرواية المجموع في درر المجاز ويواقيت المسموع**)، وقد كان الثَّعالبي هذا مِن الحفَّاظ العِظام، ونال شهرةً وسُمعةً في المشرق، العلامة الحافظ الشيخ **بن عبد الله المشرفي** وزير الأمير عبد القادر فإن له تعليقا على البيضاوي وكان يستخرج معاني الكشاف السنية من غوامض الاعتزال على حد تعبيره وتبعه في ذلك نقله الشيخ **مصطفى بزناز التركي** حيث شدَّ الرحال وأقام عند تلميذ **اليلولي** المذكور مدة وترك

تآليف قيمة وهو يعد بحق من أئمة علماء الحديث، وكذلك زميله **يحيى الشاوي** الملياني، ونجد مِن أشهر علماء الحديث الشيخ **سعيد قدورة** وكان هو عمدة **الرُّوداني** صاحب الفهرسة المسماة بـ: (**صلة الخلف بموصول السلف**) وهي من أشهر الفهارس في العالم الإسلامي، كما اشتهر العلامة **أحمد بن عمار** صاحب (**الرحلة**)، إذ أَلَّف ثبتا سماه: (**منتخب الأسانيد في وصل المصنَّفات والأجزاء والمسانيد**)، وقد جمعه تلميذه بتونس الشَّيخ **إبراهيم سيالة**، كما اشتهر مِن علماء الحديث الجزائريِّين الشيخ **محمد المنور التلمساني** الذي أخذَ عنه الشيخ **مرتضى الزبيدي** وذكره في أرجوزته: (**ألفية السند**)، وقال:

العالم الفاقد للأشباه

الجهبـــذ البـــارع في الفنـــون عـــالم قطـــر المغـــرب الميمـــون

لقيتـــــه بمصـــــر لمـــــا وردا أجـــازني ونلـــت منـــه المـــددا

وقد توفي الشَّيخ **المنور** هذا بمصر سنة 1173 في طريق رجوعه مِن الحج، وشيخ الإسلام العلَّامة **أبو الحسن علي الونيسي القسنطيني** الذي شرح **صحيح البخاري** في اثني عشر جزءًا، والحافظ **أبو راس**، والشَّيخ **مصطفى بن المختار** (جد الأمير **عبد القادر**) الذي كان يروي عن **مرتضى الزَّبيدي**، وخاتمتهم العلامة الحافظ الشَّيخ **بن عبد الله المشرفي** (وزير الأمير **عبد القادر**) والمتوفى بمكناس بعد سنة 1247م، كان خاتمة الحفاظ فعندما ذهب في مهمة دبلوماسية مِن طرف الأَمير **عبد القادر**، اجتمع به علماء **القرويِّين** بفاس، وكان مِن ضمنهم العلامة الشيخ **عمر بن سودة المري**، وأفضى بهم الحديث إلى الحفظ، فذكر الشيخ **ابن سودة** أنه لحق ببعض حفَّاظ **صحيح البخاري** بالمغرب، فأجابه الشَّيخ **بن عبد الله** بقوله: فلا غرابة في ذلك، لئن كان عندكم بعض العلماء بهذه المثابة، فإن جلَّ علمائنا على هذا، فقال: أو تحفظه أنت ؟ فقال: نعم، قال

الشيخ **ابن سودة** ـ هو راوي القِصَّة لأَحدِ أقارب الشيخ **ابن عبد الله** ـ فأمرتُ بإحضار نسخة مِن **صحيح البخاري** من **خزانة القروِيِّين** ونحن بها، فأُحضِرت ففَتحتُ الجزء الأول، وذكرتُ أوَّل الحديث، فجعل يقرؤه بسنده إلى آخره، ثمَّ ذكرتُ ثانيا مِن وسط الجزء، وثالثا وهو في ذلك يتلوه كما يتلو القرآن مِن غير تردُّدٍ ولا شكٍّ، وكذلك بقية الأجزاء كلِّها، فتحقَّق عندي أنه يحفظُ **الصحيح** بأسانيده (رحمه الله).

أما الفقه فقد ظهر بالجزائر أيضا في ذلك العهد وما قبله بقليل، أجلاء دوَّنوا كتبا قيِّمة، كالشَّيخ **الثعالبي** و**عبد الرحمن الوغليسي**، و**عبد الكريم الزواوي اليتورغي**، والعلامة الحافظ **محمد بن أبي القاسم المشدالي** الذي ألَّف (**تغليق التعليق على تهذيب المدونة**)، واستدرك ما صرَّح فيه **ابن عرفة** في (**مختصره**) بعدم وجوده، وتتبَّع ما في (**البيان والتحصيل**) لابن رشد بغير مظانه، وحوله لها، وحذا به **ابن الحاجب**، وجعله شرحا له، وأسقط التكرار منه، وردَّ كل مسألة إلى موضعها، واشتهرت هذه التآليف في جميع الأقطار الإسلامية.

ثم ظهرت طبقة من الفقهاء بالراشدية، وكان على رأسهم الحافظ الشيخ **مصطفى الرماصي**، و**الرَّماصي** هذا هو الذي ذكر العلامة الإمام **محمد بن علي السنوسي** مؤسِّس المملكة الليبية بأن شيخَه **محمد بن القندوز المستغانمي** ـ تلميذ الشيخ **الدَّردير** المصري ـ أنَّ شيخه المذكور عندما كان بصدد تأليف شرحه المشهور على **المختصر الخليلي**، كان يعتمِد **حاشية الرماصي** هذا على **التَّتائي**، ويقول: إن صاحبها من المحققين، فإنها تُغنيني عن غيرها، وكان **الرماصي** يصرِّح لبعض مَن يستفتيه ويستدل بكلام **عبد الباقي الزرقاني** على **المختصر**، فيجيبه **الرماصي** بقوله: «وأراك أيها السائل تحتفل بكلام عبد الباقي، وذلك بمعزل عن التحقيق، لأن شرحه وشرح الخرشي لا نكترث بهما في بلادنا الراشدية، لعدم تحقيقهما، وعمدتُهما كلام **الأجهوري** وهو كثير الخطأ»، وقد ذكر

الرماصي في مقدِّمة (**حاشيته على التتائي**)، فقال بعد ما بيَّن الأسباب التي جعلته يختار **شرح التتائي** على غيره، قال: «وربما تكلمتُ مع غَيره مِن شرَّاح هذا الكتاب، ومع المؤلِّف، وقصدي بذلك إيضاح الحق، لا إذاعة النطق، وأعوذ بالله مِن ذلك...»، وما زالت **حاشية الرماصي** مرجعا في الفقه شرقا وغربا حتى أن صاحب (**الفكر السامي**) الشيخ **الحجوي** من المعاصرين ذكر أن الشيخ **البناني الفاسي** اعتمدها في (**حاشيته**).

ثم نجد العلامة الشيخ **محمد بن عبد الرحمن البيدري التلمساني** والشيخ **بن عبد الله المشرفي** ـ السابق الذكر ـ فإنه عندما كان قاضيا بأم عسكر في العهد التركي وختم بجامعها الأعظم **مختصر خليل**، وكان ممن قال في الموضوع: «فمختصر خليل أكثر المؤلفات الفقهية صوابا رغما من كون مؤلفه إنما خرجه إلى النكاح كما سبق، وقد وقع للزرقاني أغلاط في النقل وغيره، فاعتنى المغاربة بتصحيحه، ووضعوا عليه حواشي مستمدة مِن حواشي الشيخ **مصطفى الرماصي** على **التتائي** وغيرها، ومنهم الشيخ **محمد بن الحسن بناني** حضر دروسه فيه العلامة الشيخ **السنوسي بن عبد الله الدحاوي** خرِّيج الأزهر وتلميذ الشيخ **مرتضى الزبيدي**، أنشد بعض أبيات بيَّن فيها قيمة الدَّرس المذكور، قال:

بُشراكم بخليل زاد مذ زمن	وقد قضيت هناك أيها القاضي
فلا عليك إذا تولى منثنيا	فقد تولى وعنك قلبه راضي
لم لا وقد طالما أصفيت خلته	والليل مكتحل وذهنك ماضي
حتى إذا ما بدا الصباح مبتسما	حدثت عنه بإقبال وتراضي
وظَلْتَ تسمع والحسود معترف	بأنَّ مثلك لم يوجد في أراضي
أنت الإمام فلا عليك من درك	وأنت آخر نقاد وحفَّاظ
وأنت فينا أنت عبد الله صيتكم	لم تخف عنا كعز الدين في الماضي

أما في اللغة فقد ظهرت تآليف قيِّمة في علم النحو (**أرجوزة القواعد الكافية**)، وشرحها للعلامة الأديب محمد بن العربي بن السنوسي القيزاني المستغانمي وهو من أساتذة العلامة المؤرخ أبي راس، وكان والده قبله من العلماء، إذ فيه يقول مواطنه صاحب: (**سبيكة العقيان فيمن حلَّ بمستغانم وأحوازها من الأعيان**).

وفرعه المبارك الميمون محبُّنا السنوسي المصون

يقول في مفتتحها:

الحمد لله العظيم الجود باعث خير الخلق للوجود
صلى عليه فالق الأصباح ما غرَّد القُمريُّ بالإِصباح
وآله وصحبه الأطهار ما سحَّ وابِلٌ على الأزهار

كما ظهرت تآليف العلامة **عبد الرحمن بن الصغير الأخضري** التي كتب لها الانتشار والخلود وما زالت إلى يومنا تحتلُّ المكانة المرموقة، وكانت طريقة التدريس نفسها لها طابع محلي خاص، فنجد العلامة **محمد بن علي السنوسي** (دفين ليبيا) يقول عند ترجمته لبعض مشايخه بالجزائر، وهو الشيخ المؤرخ **أبو راس** قال: «ومنهم شيخنا وشيخ مشايخنا الهمام الحافظ الإمام سيدي **أبو راس المعسكري** البلد **الناصري** المحتد (رحمه الله)، كنت أتردَّد إليه كثيرا، وأستفيد منه استفادة عظيمة، لتمام حفظه، وإتقانه لكل فن، حافظا لمذاهب الأئمة الأربعة جواب كل ما سئل عنه بين شفتيه، وغالب من أخذنا عنه من أهل ناحيته أخذ عنه، محققا لمذهب الإمام مالك لاسيما مختصر الشيخ خليل، فله فيه الملكة التامة، بحيث يلقيه على طلبته في أربعين يوما كل سنة، يتحين بذلك وقت الخريف، فإذا جاء وقته كتب كتبا لأهل قطره، فيأتونه لذلك، فيختمه لهم في المدة المذكورة يقتصر في ذلك على تقرير المتن، منطوقا ومفهوما، وما يعرض لذلك من إزالة إشكال أو عَزوِ مقال، وربما ظنَّ مَن سمعه أن ذلك منه قصور مع براعته في

كل علم سيما علم الفقه، وخصوصا **المختصر الخليلي**، و**الألفية**، دأبه فيها عشرة أيام كذلك، على ما جرت به عادة أهل قطره من تنويع القراءة إلى نوعين، فعادتهم في النوع الأول أنهم يقرؤون تلك القراءة يقتصرون فيها على تقرير المتن، وحل المشكل، ويطيلون الدروس مع ذلك بحيث يجعلون من طلوع الشمس وقبلها أو بعدها بيسير إلى قرب الزوال درسا واحدا، أو من بعد صلاة الظهر إلى قبيل المغرب درسا، ولا يستطيع ذلك إلا المهرة، ممن لا يحتاج غالبا إلى مراجعة في تقرير المتن وحل إشكاله ويسمون تلك القراءة سردا... وقد حصل لنا بذلك نفع كثير في علوم شتى..

وعادتهم في النوع الثاني أنهم يفتتحون الكتب المرداة لهم أواخِرَ الخريف أو أوائل الشتاء فيقللون الحصص ويبالغون في مطالعة الشروح وما عليها من الحواشي وإكثار مواد الفن، ولا يأتي أحدهم لإلقاء الدرس إلا بعد تحقيقه وتدقيقه، ويخيله في ذهنه، قبل الشروع فيه، بما يحتاج إليه من الأبحاث الفائقة، وأجوبة الإيرادات الرائقة، فإذا شرع فيه أتى بالعجب العجاب في درسه ذلك، من التحقيقات العجيبة والنقول الغريبة.. وبهذين النوعين يقرؤون سائر ما لديهم من العلوم من ألفية وغيرها، وكان شيخنا حافظ عصره وإمام قطره المذكور، من أماثل أئمتهم في ذلك فإن الشائع عنه أنه لا يزيد على مرة في مطالعة أي درس أو أي كتاب لما منحه الله من سيلان ذهنه، وسعة حافظته، وله (رحمه الله) مؤلَّفات عديدة تزيد على الخمسين... وعادته المذكورة وأشياخه في الاقتصار على تقرير المتن وحل المشكل، هي عادة أكابر العلماء كالشيخ **مصطفى الرماصي** والإمام الشيخ **عبد القادر الفاسي**... الخ».

وأما الحركة الأدبية بالجزائر فإنها كانت أخصب من غيرها حيث تلقَّحت بنوع جديد من الأدب لم يكن منتشِرا بها، وهو الزَّجل، وفن التَّوشيح الذي ورد مع المهاجرين الأندلسيِّين، كانت الجزائر تستعمل هذا النوع من الشعر الذي اشتهر به علي

بن المؤذن بتلمسان والشيخ الهواري دفين وهران، أما الشعر الشعبي فإنه كان هو أداة التعبير لمستلزمات الحياة اليومية وقد ارتقى في هذه الفترة إلى أن صار معظمه سجلا لتاريخ البلاد.

وقد ظهر أدباء كثيرون جلهم من أصل أندلسي كمحمد بن راس العين ومحمد ابن الشاهد ومحمد بن للو التلمساني، وكانوا يجمعون بين الأدب والعلوم الدينية إذ كان معظمهم يشغل الوظائف السامية كالقضاء والإفتاء ولم تمنعهم خططهم هذه من الاهتمام بالأدب، خصوصا الزجل والموسيقى حتى إن القاضي المشهور **محمد بن آقوجيل** ورد عليه سؤال في حكم السماع فلم ير مانعا من الجواب بالموافقة ونص السؤال هذا وهو يشغل وظيفة القضاء:

هل في السماع لكم يا سادتي أرب — وفي الرباب الذي يربو به الطرب

أو السماع لآداب مرقرقة — يرون منها الحجا ما دونها حجب

إن الخيار لكم إما موافقة — على السماع وإلا هذه الكتب

فأجاب القاضي ابن آقوجيل بقوله:

إنا نوافق ما رُمتُم ونَحتسبُ — فإن أفعالكم جميعُها قُرَبُ

ما إن يخالِفْ ما قد رامَ سيدُنا — إلا غبيٌّ غليظُ الطبع مُنحَجِبُ

فالقلبُ فيه اشتياقٌ للسَّماع قوي — إذ كل ذي كرم من شأنه الطربُ

كان **محمد بن راس العين** الأندلسي الأصل يشغل منصب نائب الشيخ **سعيد قدورة** بالجامع الأعظم المالكي في منتصف القرن الحادي عشر، وقد ترجمه صاحب **(درة الحجال)** قال عنه: «رجل جواب رحالة من أهل الجزائر له أمداح في النبي ﷺ، وديوان شعر ومقامات وغير ذلك، حيٌّ من أهل العصر»، هذا كل ما وجدناه في ترجمته

وقد كان من المعجزات أن عثرنا على كراسة فيها بعض آثاره، منها رسالة كتبها إلى **الأستانة** يصف فيها حالة **الجزائر** سنة 1057، يقول فيها: «فبلدتنا هذه كانت قبل اليوم محط رحال، ومخط رجال، ومناخ جمال، ومعدن جمال، ومرسى مراكب، ومقر مواكب... ذات بساتين وأنهار، وأصوات وأطيار، وغدران وأشجار، وآصال وأسحار، وأعياد ومواسم، وثغور بواسم، ونفحات ونواسم، وجهاد وملاحم، وكرات ومزاحم، مشايخها تقاة، وكهولها ثقات، وولدانها طغاة، وعساكرها غزاة، وفرسانها عقبان، وأفراسها عقيان، تسبق الأرواح، فتخف على الأرواح، لا يقف لبأسهم واقف، ولا يذعن لرجعيتهم راجف، ما بغى عليهم باغية إلا خصموه، ولا طاغية إلا حاربوه، فهزموه وقصموه، والآن ضعفت الرعية، فعظمت البلية، وحلت الرزية، وضاق المعاش، لما كثرت الأوباش، وضاعت الفقراء إذ حارت الأمراء، وعظم الخطب، وتضاعف الكرب، ونقص العيش طاغية، من طواغي البادية، فعظم الخطب، وحلت الداهية... الخ».

ونجد لـ: **ابن راس العين** هذا رسائل أيضا مفتتحة، ومن رسالة أخرى افتتحها:

لحـــتم في جبهـــة الـــدهر غـــرر ... ولعـــين العصـــر كنـــتم كـــالحور

وطلعـــتم أنجـــما في فلـــك الســـ ... ـــعد غشـــا نورهـــا كـــل قمـــر

وامتطيـــتم صـــهوة المجـــد التـــي ... مـــا امتطاهـــا أحنـــف فـــيها غـــبر

وركضـــتم في ميـــادين العـــلا ... طرفـــا عـــن اســـحم العـــرف أغـــر

وكانت بينه وبين زميله الأديب **ابن شباح** مساجلات طريفة وكذلك بينه وبين كثير من معاصريه وكان فيها يظهر له اتصال قوي بـ: **أبي الجمال يوسف باشا**، وطاغية البادية الذي عناه هو **أحمد الصخري** رئيس قبيلة **الذواودة**.

ثم نجد أديبا آخر هو الأستاذ **محمد بن للو** الأندلسي الأصل التلمساني الدار، كان

تزوج بامرأة مِن نواحي جبال **سيق**، يسمون بـ: **القطارنية**، ورافقها فقاسى بها الشدائد، وتحمَّل من همها وسوء أخلاق ما أبخس في عينه الطارف والتَّالد ـ حسب تعبير صاحب **(الرحلة القمرية)** ـ كان الشيخ **ابن للو** هذا من علماء منتصف القرن الثاني عشر ومن المبرزين في الفقه والحديث والقراءات، وقد كتب شبه مذكِّرات يصف حالته أيام إقامته عند أصهاره، قال في بعضها: «كنت فيها فرط من الزمان، أيام حرز الأمان، لا أظن إلا بالظنين، ولا أنافس في غير الثمين، ولا آتي غير المواتي، ولا أسم العاتي، بمراعاتي، ولا أصافي ما يأبى إنصافي »، إلى أن يقول: «... وهكذا كانت الطباع، حين كان لجام الزمان بأيدينا وأيامنا في الانطباع، ولما وادعنا دار المملكة التي رجعت اليوم أمرارا، أنزل سميري منزلة أميري وأحل أنيسي منزلة رئيسي، وأودع معافي عوارفي، وأولى مرافقي مرافقي.

ويجب العمل بمقتضى العشرتين، على من عاشر البرابر والأعاجم أمد العشرتين، وبعد ما سجلا الحكم بقلم الحكمة لا بقلم البراعة وطبعاه بطابع العبرة دخلت رغما في ذلك الميدان، وامتثلت كل ما حكم علي به على الجديدان، وطفقت أنسخ الأوائل بالتوالي وأخضع تارة إلى العبيد وتارة إلى الموالي... ولم يزل التمثل دأبي، والامتثال مذهبي، إلى أن حللت بالوادي الذي لم تطلع عليه شمس الإخوان، وخيَّمتُ بين البرابر البيض والغرابيب السود الألوان، فنادى علي منادي الخمول، بلا التي لشمول النفي لا التي لنفي الشمول،... وذلك أنه أفل علي في تلك الليلة قمر الحي، الذي كنت أحيا بحياه، وأحيا عند طلوع محياه، ولم أزل أتطلع من حامي السمر وأتطلع برج ذلك القمر، إلى أن هتف بي هاتف الهوى، وقال لي قل لليل النوى:

أَمتَـى يطلـع يـا ليـل النـوى	قمـر غـاب ووصى بالسـمر
أتـرى يـا ليـل يبـدو قمـري	أَتُـرى هـل مـن طلـوعٍ للقمـر

فما استكملت الموال حتى قال على سبيل الاقتباس من هذا النوال:

مـا أحـر البـين يـا بُـومَ النَّـوى كلـما قـد مـر بالقلـب انـدمر

وإذا خــيم فيــه ســاعة كانــت الســاعة أدهــى وأمــر

ثم نظر إلى نظرة ذوي الهمم، وكأنه آنس منِّي التكبر والشَّمم، فقال لا والذي طرز الكلام بالمحسنات البديعية، وجعل الاقتباس فيه من أبدع الأطراز، لأبارزنك في هذه الليلة أو سلِّم لي في البراز، فاقتطفت من رياض الفكرة حدائق منيفة، وقلت وقد أوجست منه في نفسي خيفة، إليك عني بهذا فإني أخوض في المعقول والمنقول، فقال وأنا أقول ما تقول، فقلت إني أحسن المنظوم والمنثور، فقال وأنا حِبري في علم البلاغة منثور، فقلت إني أطبع الأسجاع بجواهر لفظي، فقال وأنا أقرع الأسماع بزواجر وعظي... ».

ثم تَتميما للفائدة ما دُمنا ننقل هذه القطع مِن النَّثر الفني نَختِمها بقِطعة قيِّمة لأكبر أديب عرفَته الجزائر في ذلك العصر، ولربما كان أوحد عصره حتى بالنِّسبة لمعاصريه في الأقطار الإسلامية، وهو الشيخ **أحمد بن عمار**، الذي هو كذلك مِن علماء الدِّين، ومع الأسف إن كثيرا مِن مُعاصرينا ظلموه حيث لم يطَّلِعوا إلَّا على كراريس مِن **(رحلته)** التي طبعت في **الجزائر**، وأرادوا أن يحكموا عليه وعلى عصره بما استَنتجوه من بعض القصائد المولَّدية، وأن ذلك العصر كان أدب هذه الطبقة، لا يجاوز الأمداح النبوية والدينية، وإن أحد الأصدقاء عثَر له على تأليفٍ في المدَّة الأخيرة، ومن جملة ما فيه قطعة فنية يصِف فيها حفلةَ تدشين قَصرٍ مِن قصور الجزائر، وهو **قصر آل عبد اللطيف**، وفيها وصفٌ دقيقٌ لسهراتِ الطبقات الرَّاقية بالعاصمة، قال:

«ولما افتر ثغر الزمان باسما، وأنشقت من نشر بشره أرائج ونواسما، وراض السعد منه ما صعب بعد جموحه، واقتاد الجد من إسعاده، ما ند بعد ميله للضد وجنوحه،

وكسر الدهر من حدته، ولانَ بعد شدَّتِه، استدعانا الوزير الكاتب، المشتمل على بهجة الثريا وظرف الكاتب، الحائز من ذخائر المجد التليد والطريف، المتبختر من رواق العز تحت ظله الوريف، مولانا **أبو العباس أحمد بن عبد اللطيف**... ما شئت من انفساح عرصات وارتفاع أرائك ومنصات، ودسوتٍ كأنها البدور بهالاتها محفوفة، وزرابي مبثوثة، ونمارق مصفوفة...

قطعنا به ليلتنا حتى الصباح، نغازل غصون القدود الرجاح، وبدور الوجوه الصباح، ونسكب من حميا السرور أنهارها، ونتتشق من الثغور الباسمة أقحوانها وأزهارها، ونقتطف الرياحين والورود من الأصداغ الرياضية والخدود النواضر، ونغازل النرجس المطول من هاتيك العيون النواظر، والظلام قد أرخى علينا رواقا والكؤوس بهرتنا شموسها بهجة وإشراقا، وعنبر الدجا يكاد من توقد السرج ينصع، وأسنة الشموع تشق حداده فيكاد يسطع، وقطع النّدّ والعود الهندي تشب، ومقطرات الورد والزهر من سماء القوارير تسكب علينا وتصب، في لمة من الأعيان، تهابهم القلوب وتجلهم الأعيان، ما تتلمح منهم إلا بدر محفل، وليث عرين وصدر جحفل، وبحرا يتدفق بالندى والأدب، وروضا تنسل إليك به نسماته من كل حدب، فناهيك من ليلة قطعناها بالمسامرة ما أقصرها بعمر، وأطولها في الفجر بباع، وناهيك من أنس أدرنا بها كؤوسه مثنى وثلاث ورباع، والسعد خديم، والسرور نديم».

وقد كان لابن عمار هذا كثير من معاصريه نقتصر على بعض أبيات من قصيدة بليغة للعلامة الأديب أبو العباس أحمد بن المهدي الغزال الأندلسي الأصل المغربي مولدا وموطنا، وهو صاحب الرحلة المشهورة (**نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد**)، ألفها عند ذهابه إلى إسبانيا لمبادلة الأسرى وقد أوفده ملك المغرب محمد بن عبد الله العلوي سنة 1182 وحضر دروس ابن عمار وتبادل معه الإجازة في الحديث فقال:

روينا أحاديث الأُلى ورثوا العُلى قديما ففازوا بالثناء المؤبد
فقيل أناس قد تقضى زمانهم فهل مثلهم يوما شهدت بمشهد
فقلت لهم والقول مني صادر ولم أك فيما قلته بمُفنَّد
إذا شئتمُ أن تنظروا شبه من مضى ومن فاز بالذكر الجميل المخلَّدِ
هلموا إلى بحر العلوم ومن غدا بأنواره أهل المعارف تهتدي
هلموا إلى مأوى المفاخر والعلا هلموا إلى الأسمى **ابن عمار أحمد**
له خضعت أرباب علم لعزه وكيف وفيهم قام أعظم مرشد
مُشاهِدُه في مجلس الدرس لم يزل مُقِرًّا له بالرِّقِّ في اليوم والغد
عبارته في العلم ما بين أهله تدل على الفتح المبين المؤبد
فما سمعت أذني ولا العين أبصرت شبيها له غربا وشرقا بمعهد

وقد رأينا أن معظم الرحالين الذين زاروا الجزائر في تلك الفترة أن السفراء كانوا لا يشتغلون بمهماتهم السياسية فقط بل رغم خطورة الأحوال وتأزُّمها في كثير من الأوقات فإنهم يتصلون بعلماء البلاد ويتبادلون الإجازات العلمية وقد زار الجزائر إذ ذاك الرحالة الأديب عبد الرحمن الجامعي صاحب الرحلة المسماة بـ (**التاج المشرق الجامع ليواقيت المغرب والمشرق**)، وكان من جملة من اجتمع بهم وأخذ عنهم العالم الفقيه مصطفى الرماصي بمعهده في نواحي معسكر والعلامة الشهير أحمد ساسي البوني صاحب (**الدُّرة المصونة في علماء بونة**)، وكذلك العلامة ابن زاكور الفاسي صاحب الرحلة المسماة: (**أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان**)، والمحدث الشهير محمد الطيب بن الشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي زار الجزائر موفدا من الملك ملاي إسماعيل سنة 1103 لتسوية قضية الحدود بعد واقعة المشارع قرب وادي ملوية، وظهر إذ ذاك عدة تآليف قيمة في التاريخ الجهوي والسير وغيرهما، كـ: (**بغية الطالب في ذكر**

الكواكب) للعلامة الشيخ أبي مهدي عيسى التوجيني دفين وادي الطاغية بالراشدية ضمنها تراجم معاصريه من علماء أواخر القرن العاشر الهجري وقريبه الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني ألف رسالة سماها: **(العِقد النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس)**، ذكر فيها علماء القرن العاشر والحادي عشر ومعظم من ترجم لهم خرِّيجو معهد مجاجة و**(فتح الرحمن في شرح عقد الجمان)** للجوزي الراشدي أيضا، وهو شرح لـ **(العِقد النفيس)** ومؤلفه من علماء القرن الحادي عشر، و**(سبيكة العقيان فيمن حل بمستغانم من علماء القرن الثاني عشر)**، و**(لواء النصر في فضلاء العصر)** للأديب المتحدث عنه **أحمد بن عمار** التلمساني الأصل الجزائري المولد والمنشأ.

سلك ابن عمار في تأليفه هذا طريقة **الفتح بن خاقان** في **(قلائد العقيان)**، ترجم فيه لأهل مائتي سنة ـ أي علماء الحادي عشر والثاني عشر ـ إذ توفي (رحمه الله) بعد سنة 1204هـ وهي السنة التي اجتمع به فيها الرحالة المؤرخ **أبو راس الراشدي**، ثم نجد العلامة **أحمد الساسي البوني** المتوفى سنة 1139هـ، وقد زاره الرحالة المتحدث عنه الأديب **عبد الرحمن الجامعي الفاسي** حوالي 1120 قال: «لما دخلت بونة أممت دار الشيخ الرباني العالم العرفاني الذي بنيت هذه الرحلة المباركة على قواعد بركته، **أبي العباس أحمد بن قاسم ساسي** فوجدته طلق المحيا، وأنزلني بمنزل لإكرام أضيافه مهيا، فأقمت عنده ينزهني في كل يوم في رياض تآليفه الحديثية وغيرها وينثر علي كل ساعة من فرائد فوائده ما تبخل به على الغائصين قعور بحرها، وكنت أحضر تلك المدة مجلس رواية الصحيحين بين يديه، من مشايخ بلده وولديه، ومما رويت عنه فسح الله في أجله وأسهب، وأن تآليفه بلغت ما ينيف على المائة ما بين مختصر ومسهب، ولما وقفت في علم الحديث على البحر العُباب والعجب العجاب سألته الإجازة... الخ». وهو صاحب **(الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة)**، وهي **الألفية الصغرى** اختصرها من

الكبرى المشتملة على ثلاثة آلاف بيت، وسلك فيها مسلكا يختلف عن تآليف التاريخ الجهوي التي ذكرنا بعضها، فقد خصَّ القسم الأول منها لجميع مَن سكن من العلماء بونة حتى الذين سبقه إلى ذكرهِم مواطنه **علي فضلون**، ثم ذكر آباءه وتلامذتهم، ثم علماء نواحي بونة القريبة والبعيدة، ثم ألحق ذيلا ذكر فيه العلماء الذين وفدوا على بونة على الترتيب التالي: علماء **قسنطينة**، ثم علماء زواوة، ثم **العاصمة**، ثم المغرب، فتونس.

كما ظهرت كتب أخرى وسجلات أدبية هامة منها: (**التحفة المرضية في أخبار الدولة البكداشية من بلاد الجزائر المحمية**)، وهو عبارة عن سجلِّ مقامات للعلامة الأديب الشيخ محمد بن ميمون الجزائري، جمع فيه كل ما قاله أدباء البلاد وشعراؤها عند فتح وهران الأول سنة 1119 في عهد **الباشا محمد باكداش**، وانهالت بسبب ذلك الفتح وفود المهنِّئين على العاصمة مِن كامل أنحاء القطر، وكان ممن حضر ذلك المهرجان وشارك فيه العلامة **أبو زيد عبد الرحمن الجامعي الفاسي**، إذ لا يخفى على حضراتكم أن وهران بقيت تحت حكم الإسبانيِّين ثلاثة قرون، اللهم إلا في فترة نحو العشرين سنة لما فتحها **باكداش** باشا، وكان أهم ميزة للجزائر في العهد التركي أيضا توحيد تراب الجزائر، ولهذا جمع هذا السجلُّ قصائد ما بين عنابة وتلمسان، امتازت هذه القصائد أنها لم تكن من المدح المجرَّد الذي تعوَّده الشعراء عند أبواب الملوك، بل نجِد فيه الشجاعة الأدبية، والصراحة، والنُّصح للممدوح، ولفتِ نظره إلى ما تشكو منه البلاد، وهذا دليل على أن العلماء في العهد التركي كانوا يتمتَّعون بالتَّجِلَّة والتَّقدير، وقد عثرنا على عدَّة وثائق تثبت أن جلَّ علماء القطر كانوا يحظَون بظهائر أو شهادات مِن ولاة الأتراك فيها توعية لممثلي السلطة باحترامهم وإعفائهم من الضرائب وما جرَت به عادة المخزن إذ ذاك مِن تسخير أفراد الرَّعية لإيواء جباة الضَّرائب، والمشاركة في الأعمال الإجبارية، كالجهاد، وحرس البريد، إلى غير ذلك، كما أننا وجدنا أن كثيرا

من الولاة كانوا يشجعون الحركة العلمية والأدبية من بذل أموال هامة للمؤلفين وإرسالهم إلى أداء فريضة الحج نيابة عنهم ـ حسب المذهب الحنفي ـ.

أما الكتب فإن أسعار نوادر المخطوطات بلغت في العهد التركي ما تسمح به نفوس كثير من هواة الآثار في عصرنا هذا، وعلى سبيل المثال نذكر أننا عثرنا على وثيقة للعلامة الشيخ سعيد قدُّورة مؤرخة في منتصف القرن الحادي عشر يذكر فيها قائمة الكتب التي اشتراها من ريع أحباس الجامع الأعظم المالكي من تركة العلامة المنعم الشيخ **محمد بن علي الخروبي** صاحب التفسير، وكان معظمها من المخطوطات الأندلسية وجدنا قيمة **شرح العيني على صحيح البخاري** 1400 دينار ونسخة من **صحيح البخاري** مكتوبة في رقِّ الغَزال تشتمل على 20 جزء بسبعمائة دينار، والدينار إذ ذاك وزنه أربع ڤرامات ذهب، وذهبه معيار 24 قيراط، ما استفادت به إذ ذاك كثير من المخطوطات الأندلسية وكذلك من النَّساخين والخطاطين الأندلسيين الذين كان يتبارى العلماء في استخدامهم للنسخ ولاهتمام الجزائريين بالكتب نذكر فذلكة أدبية وهي للأديب القاضي **محمد بن آقوجيل** أنه اشترى (**شرح فتح الباري على صحيح البخاري**) اشتراه من شيخه شيخ **سعيد قدورة** دفع منها البعض وبقيت عليه ستون ريالا بوجهه فضرب لها أجلا وسجل ذلك في هذه الأبيات قال:

الحمـــد للمهـــيمن المعـــين	عـــلى أداء ثقـــل الـــديون
وصـــلواته عـــلى المكـــرم	معيـــذه مـــن مـــأثم ومغـــرم
وبعـد فالقصـد بـذي الأبيـات	تـــذكرة خشـــية أمـــر يـــاتي
في ذمتـــي لشـــيخنا العلامـــة	حاوي العلـوم صـاحب الإمامـة
بالجـــامع الأعظـــم بـــالجزائر	عـــمّ نـــداها ثاويـــا وزائـــر
وهـــو ســعيد نجـــل إبـــراهيم	لازال في ســـــعادة مقـــــيما

ستون بيضا من كبار ما ضرب　　بصنع روم للريال تنتسب
ترتَّبت عليَّ باختياري　　من اشترائي منه فتح الباري
وأجل الدراهم المذكورهْ　　إلى انقضاء سنة موفورهْ
ومبدأ العدد من شوال　　من بعد ستين من الأحوال
بسنة من بعد ألف ماضيهْ　　بعون ربنا أكون قاضيهْ
ونسأل المعين في الإعانة　　والفتح في قضائها سبحانه
وخطه محمد سمي　　أبيه ثم جده علي
ذو نسب يعود بالقجيلي　　وفِّق في المقام والرحيل

وقد ظهرت في الجزائر إذ ذاك خزائن تحتوي على عشرات آلاف المخطوطات واستفادت كذلك الجزائر إذ ذاك من مكتبة الخلافة بالأستانة ومن إطارات العلماء الذين كانوا يُرسَلون إلى العاصمة لِخِطَّة الإفتاء الحنفي، وكان منصب المفتي الحنفي إذ ذاك شبيها بخطتي وزارة التربية والعدل، وترجم له محمد بن ميمون ضمن من شاركوا في تهنئة بكداش بفتح وهران وقال: «إن نثر رأيت بحرا يزخر، وإن نظم قلّد الأجياد درا تباهي به وتفخر... وله تصانيف في العلوم ألف فيها ما ألف وتقدم فيها وما تخلف ولو أدرك يوم الفتح لتعلق بأذيال المولى، ولهنّأه بقصائد تعيها القلوب وتتلى، ومما صدر في التحريض المشار إليه قوله...»، وذكر قصيدة كان قدمها إلى باشا الجزائر الحاج أحمد باشا لما تولى الباشوية على الجزائر 1067 وهي قصيدة هامة تدلنا على ما ذكرناه أن كثيرا من العلماء الذين كانوا يتصلون بولاة الأتراك كانوا لا يخفون عليهم آلام الشعب ومطالبه كما كانوا يحرضونهم على إخراج الإسبان من **وهران** قال **ابن آقوجيل**:

طلعت طوالع سعدكم مقرونة　　باليمن والتسديد والتيسير
فرحت جزائرنا بكم وتأنست　　بمقامكم فيها مجال حبور

يـدعو الإلـه جميـعُ مَـن فيهـا لكـم ... بالنصـــر والتأييـــد والتبشـــير

ضــاقت أمــور المســلمين واكفــوا ... غرمــا طــويلا في مديــد شــهور

والله حـــرَّم عِرضَـــنا ودماءنـــا ... والمـــالَ أيضـــا ثالـــث المحظـــور

فـــالله أولاك العبـــاد ورعـــيهم ... فـــانظر لهـــم في صـــالحات أمـــور

ولتلتفـــت نحـــو الجهـــاد بقـــوة ... والكفـــر اقطـــع أصـــله بـــذكور

وبغربنـــا وهـــران ضرس مـــؤلم ... ســـهل اقـــتلاع في اعتنـــاء يســـير

كم قد أذت من مسلمين وكم شبت ... مـــنهم بقهـــر أســـيرة وأســـير

خلــت بــأمر المســلمين فهــل لهــا ... بعســـكر عنـــد الصـــباح مغـــير

يُرخـــي كلاكِلَـــه عليهـــا بغتـــة ... تـــأتيهم في غِـــرَّة المغمـــور

فانهض بعزمـك نحوهـا مستنصـرا ... بـــالله في جـــد وفي تشـــمير

بعســاكر مثــل الســيول تزاحمــت ... للســبق تحــت لوائــك المنصــور

فــإذا فتحــت وقــد بشّــرت ببغيــة ... وقفلــت بعــد ســعيك المشــكور

فــارعَ الرعيــة خــير رعــي سُســهُم ... بسياســة مــن عــدلك المنشــور

شــاور ذوي علــم وديــن ناصــح ... ودع الغـــواة وكـــلَّ ذي تزويـــر

فـــالعلم مـــيراث النبـــوة نالـــه ... قـــوم لهـــم حـــظ مـــن التنـــوير

كــم في بــلادك مــن نجيــب حــافظ ... ومشـــارك في الـــنظم والمنثـــور

ومحقـــقٍّ ومـــدقِّقٍ ومُنـــاظر ... مِـــن كـــل درَّاك الحِجـــا نِحريـــر

يــا أيهــا الملــك الــذي نرجــو بــه ... عــدلا ينــوط بــذي الغنــا وفقــير

أني نصـــحتك والنصـــيحة ديننـــا ... فاقبـــل ولم ينصـــحك دون خبـــير

بقصــيدة مســبوكة الألفــاظ قــد ... حررتهـــا في غايـــة التحريـــر

ألفاظهــا الــدُّر النفــيس تنظمــت ... فاقَـــت نظـــام فـــرزدق وجريـــر

إذ قصــدهم بنظــامهم طلــب الــدُّنا ... والقصد في ذي الـنظم نُصـحُ أمـير

مــا إن بــه طمــع يشــين ولا هــوى　　من وصــل غانيــة ووصــف خــدور
أرجو بــه نيــل الأجــور مــع الرضــا　　وبصـــالح الأعـــمال نيـــل أجـــور

ولم يكن شاعرنا القوجيلي وحده الذي لفت نظر الولاة إلى حال الرعية بل نجد الشيخ **أحمد ساسي البوني** المتحدَّث عنه، كان من جملة المهنئين للباشا بكداش بعد فتح وهران قال في أرجوزته:

أريـــد أن أخـــبركم　　أدام ربي نصـــــركم
فحـــال هـــذه القريـــة　　بالصـــدق لا بالفريـــة
قد صـال فيهـا الظـالم　　وهـــان فيهـــا العـــالم
خربـــت المســـاجد　　وقـــلّ فيهـــا الســـاجد
حبســـها قـــد أشرفـــا　　نـــــاظره فأشرفـــــا
وأهملـــت أســـعارها　　وبـــدلت شـــعارها
والشـــرع فيهـــا باطـــل　　والظلـــم فيهـــا هاطـــل
والخـــوف في ســـبلها　　والقحـــط في ســـنبلها
وكـــم مـــن القبـــائح　　وكـــم مـــن الفضـــائح
أنـــتم قـــوام الـــزمن　　كوالـــــد مـــــؤتمن
وبصـــــفا الطويـــــة　　تغتـــــنم الرعيـــــة
فأنـــــت ذو فطانـــــة　　فحســـــن البطانـــــة
شـــاور ذوي العقـــول　　وزر ذوي الأصـــــول
لا تخلــف الوعــد ولا　　وعيدكم يــا ذا الــولا
وعـــيشُ هـــذه الـــدنا　　إلى الـــزوال والفنـــا
حياتهـــا كســـاعة　　حياتهـــا لســـاعة

وأما الشعر الشعبي فإنه كان على أقسام منه القديم والزجل والغنائي، فظهرت ملاحم منها ملحمة للشاعر الشعبي الشهير الشيخ الأخضر بن خلوف بأمداحه النبوية التي مازال المداحون ينشدوها في الشمال الإفريقي وقد كان جنديا وحضر لأعظم معركة هزم فيها الجيش الإسباني على أبواب مستغانم وكان الجيش الجزائري تحت قيادة الحسن بن خير الدين والجيش الإسباني تحت قيادة الكنت دالكادوت الصديق الحميم لشارلكان ورفيقه في احتلال تونس وهجومه على الجزائر، وكان هو أول من جمع له شارلكان القيادتين المدنية والعسكرية وذهب بنفسه إلى إسبانيا لاختيار نخبة من الجيش وكان أداة بين يدي الكاردينال (Ximenez) وكان ممن يحلمون بالقضاء على بلاد الإسلام وتنصير أهلها فمات في هذه المعركة التي دامت ثلاثة أيام ومات فيها عشرة آلاف جندي ووقع تسعة آلاف أسرى ولا تظنوا أننا ننقل مبالغة شاعر بل ما قاله شاعرنا في ملحمته بتفصيل هو ما ذكره المؤرخون الإسبانيون حسب وثائقهم، وفي هذه الملحمة يصف شاعرنا كيف ورد خبر هذا الهجوم إلى العاصمة وتجهيز الجيش وخروجه من العاصمة والطريق التي مر عليها ورؤساء القبائل الذين التحقوا بالباشا حسن، وكون هذا الانتصار يعد أخذا لثأر غرناطة... وإننا اقتطفنا بعض الأبيات من هذه الملحمة التي افتتحها شاعرنا يقول:

يا فارس من ثم جيت اليوم   عيد أخبار الصح معلومة
يا عجلان أوريم الملجوم   رييت أجناب الشلو موشومة
يا سايلني كيف ذا القصة   بين النصراني وخير الدين
أرفع راسك يا علي المفهوم   يا سيد الحسنين وافطيمة
شوف أبلادنا كيف راها اليوم   تسبيها الكفار ظالمة

وبعد أن يذكر كيف جهز الأسبان أسطولهم الحربي والطرق التي مروا عليها حتى

لا يلفتوا النظر إلى هجومهم:

أركــب فــارس أسـبق وذنــا	بــالتعريف أيبشــر السـلطان
البــارح يقــول جــات الــروم	يــا فرســاني غــاولوا انــتما
بــإذن الله الوحيــد القيــوم	تمســى بيــت الكفــر مهدومــة
اشــتد السـلطان في الحركــة	ســار لعــين الحــما وأنــزل
اســتوعظ في طلبتــه واشــتكى	أمســى لحـرم الثعـالبي ودخـل
ظــل يســير بعســاكره والقــوم	في وطــن ومتيجــة أولــج المــا
طبلــه عنــد الشــيفا نقــر	واعلامــات النصــر منشــورة
جــات اخيــول إفريقيــا تنجــر	وافراســين الحــرب مــذكورة
في زكــار أمقــيم كــم مــن يــوم	لــين جاتــه قيادهــا ورمــاة
أخــض الــواد الشــايع المعلــوم	فيــه أصــلان أســويد ملمومــة

وبعد أن يذكر بقية القبائل ورؤسائها الذين التحقوا بالجيش والهلع الذي استولى على المعتدين أخذته نشوة الانتصار وصار يمزج شعره بالمفردات الإسبانية:

كــبر لمــراس كلهــم مريــر	مــات أجــوان وزادت الطغيــا
أمرينــــا زارني كريــــر	قــال البنشــر مــا دري ميــا
حزنــاهم للســور ذات اليــوم	تســعة آلاف أبقــات مغنومــة
من حبط الـدشرة لحـوض الـدوم	عشــرة آلاف مشــات محطومــة

ثم يذكر كيف مات D'alcavants الذي كان يسمى بالفرطاس، وأعطى الباشا الأمر لنبشه مِن التراب وأرسل جثَّته لوهران:

طل على الفرطاس بيـوم إن مـات	في المغـرب أهـل الخزمـي ردمـوه

احلــف لهــم ســلطاننا بإثبــات شــيب النــار مــن الثــرى جبــدوه

وبعد أن يذكر الضباط الذين ماتوا والذين وقعوا في الأسر يقول:

احــل لهــم ســلطاننا وثبــت أخــذ الثــار ورجــع بالأمــان
ذي الأتــراك المجنــدة للــروم فزعــــت للكفــــار فهــــما
الأمــير حســن يــوم مزغــران أخلق الثار مــن العــدو تحقيــق
تــرى البهجــة روضــة البلــدان غرنــاوط والي امســات حريــق

وهناك ملحمة أخرى للشاعر الشعبي الشهير ابن السويكت السويدي كانت قبيلة سويد العربية تسكن ما بين العطاف وغيليزان في موطن مغراوة وبعد ما حضروا في هذه المعركة ثاروا على الأتراك لخبر يطول ولكنهم لم يستسلموا وفضلوا الجلاء إلى السرسو والجنوب وكان الحرب بينهم وبين الأتراك سجالا وقد ذكر شاعرهم بعض هذه المعارك:

على ارهيو وعلى جديويــة كارســين الترك جوف واسويد جــاو للقبلــة
خيمــة امــا خبــا وابنــود متقــابلين من الصبح للمساكن كل يوم مقتلا
الترك جارو وسويد اعقابهم طافحين والــترك شــاربين الهبــال في ســلطة
البـــــاي قـــــد شـــــور لـــــيهم واســـــويد ليـــــه زادوا حملـــــوا
أرفـــــد ســـــناجقوا والحقهـــــم عمـــــدوا للقتـــــال وقتلـــــوا
ذاك النهـــــار مـــــاشي لـــــيهم يتبـــــدّل الفضـــــل بانصـــــالوا
جابــا العــرّاج بيــده يالمســتحين احنــا اســويد وأهــل النقــار
احنا أهل الشنا واحنا الــلي طــايغين احنا أهل الطبل والعلام والصــولة
ربعين بان قبلك قعدت امــر شــقين ربــع والعشــرين شــاو مقــتّلا
اداكم الطمــع في امطافــل امتمقــين اسويد مــا يطيحــوا والــترك قتــالا

الـــــترك للـــــبلا ينـــــزادوا واســـويد اعطـــاوا الصـــفحا

البـــــاي جـــــاهم بجنـــــوده طيعـــوا يـــا ســـيود الوكحـــا

ســــور الحديــــد واش ايهــــدوا هيهـــات مـــا تصـــيبوا راحـــه

محمــــود ليـــه لفـــت عـــوده والبـــــاي واجبـــو باقباحـــــه

الســــنجاق حـــــم رفــــدو واســـــويد للـــــبلاد دلاجـــــا

ظهروا اشوايع سويد قعدت امتوخرين ملكوا الشرق والغرب تـلّ القـبلا

الســــنجاق حـــــم رفــــدو واســـــويد للـــــبلاد دلاجـــــا

ظهروا اشوايع سويد قعدت امتوخرين ملكوا الشرق والغرب تـلّ القـبلا

مـع الأمـير عقبـة جـاوا المجاهـدين امنـين كانـت النـاس كـل جهـالا

جازوا وجوزوا في أيامهم سـاعدين واجميـــع مـــن اقصـــد ادّا قلّـــة

يهـدوا ايـبلهم والمـال للقاصـدين غنيـات والحصـون ينقـادوا شـلاّ

وبعد ما سجل شاعرهم معظم المعارك وجلوا من وطنهم المشهور بشلف صار يتتبع آثارهم فينفث الزفرات:

لا مـــن جـــاب اخـــبر اســـويد أين مضـرب راهم نازلين المحـالي

اســـتفدت افراســـين الكيـــد اتوحشـت شـيّبني التـل الخـالي

لا مـــن جـــاب اخبـــارهم ويـــن أيـــن مضـــرب راهـــم فيـــه

حســـــراه الميعــــاد الــــزين والـــلي كنـــت اموتّـــع بيـــه

واجـــب عـــلي نحـــزن وانزيـــد اعلى الناس المسلبا نـاس ابطـالي

مـــن لا يســـوى درتـــه ســـيد لـو كـان نقـبلهم بـالحي العـالي

يضـــحوا في شـــلف امواليـــه تقـاصر مبنيـا كـي دهـر فـات

إذا مـــت نمـــوت اشـــهيد نبرا من قلبي وتزول عني اعلالي

سـلت عـلى انجـوع الريـاس	لا فـارس يعطـي الأخبـار
قـالوا حطـوا في منـداس	بلغـوا بمنـازل الاوعـار
بالعابـد ذكـروه أوغـاس	غـربي اللوحـة في الأجـدار
البـاي أظلـم واظلمنـاه	واحنـا درنـا فيـه العـار
رحنـا للقايـد جبنـاه	ظـاهر مـن عنـد الكفـار
حتـى هـروال اخـذيناه	وأعطينـا للـترك انهـار

وهذا النوع من الشعر الشعبي كان معروفا في الجزائر وهناك نوع آخر لم يعرف إلا بعد جلاء الأندلسيين وهو الزجل وكان أول من ابتكره فيما يظهر بالجزائر العلامة الأديب الشيخ أبو عثمان سعيد بن عبد الله الشهير بالمنداسي أصلا والتلمساني دارا كان من علماء القرن الحادي عشر إذ نظم قصيدته العقيقة المشهورة في الأدب الشعبي العربي سنة 1088 وقد تبارى الأدباء في شرحها حتى أن الشيخ أبا راس شرحها سبع مرات وهي التي افتتحها بقوله:

كيف ينسى قلبي عرب العقيق والبـان	والعقيـق اعيـوني باقلايـد انهـلّ
لي اقيـل مـنهم غـرا اشـقيقت البـان	هل لقلبي منها بعـض الوصـال هـلّ
بان صبري والسّرالكاتم الصدر بـان	كيف يمهل دمعي والوجد لا امهـلّ
اسـقني بـالكبير يـا خمـار اظميـت	هـذا وقـت المواصـل طـال ازمـاني
آش يصبر على البلا نـادب الاطـلال	واش ايداوي من الهوى قلب المجروح
كل ابكا دون فرقة المحبوب اضـلال	من خلاجاس صورتي جسم ابلا روح
أنا المقتـول بـالهوى صـدري محـلال	بـالهم والامتحـان والفرقـة مقـروح

إذا سدّ الحبيب بابه وين نروح

وهذه القصيدة تشتمل على نحو270 بيتا وأهم شروحها: (**الدرة الأنيقة في شرح**

العقيقة) لأبي راس وهناك شرح آخر لا يقل عنه أهمية للعلامة الأديب **مصطفى بن التهامي** خليفة **الأمير عبد القادر**.

وقد ظهر بعد ذلك كثير من هذا النوع من الأزجال منها قصائد للعلامة مفتي المالكية الشيخ **محمد بن الشاهد** تلميذ الأديب **أحمد بن عمار** الذي يقول:

ذاب جسمي بجمار الوحش والصبر بان ودموعي كالنهر على الخدود هملو

الغرام سقاني بعد الوصال كيسان امحاين والمرّ وسمّ بعد عسلوا

كيف يهنا قلبي المضني وكيف يسلوا

ومن هذا الصنف أيضا قصيدة للعلامة الشيخ **مصطفى الكبابطي** المفتي المالكي الذي نفته سلطات الاحتلال الفرنسي إلى الإسكندرية سنة 1843وبقي بها إلى أن توفي وكان له الفضل في نشر رواية الحديث هناك، وفي مدة إقامته تشوق إلى الجزائر وكان فنانا بارعا فنظم قصيدة ولحنها وبعث بها إلى أصدقائه هنا ومازال قسم الطرب الأندلسي بإذاعة الجزائر يقدمها من جملة الأغاني الأندلسية من دون أن تنسب إلى قائلها:

من يبات يراعي الأحباب آمن هي حالتو واد موعو على الخدّ شي غزاير

لا حنين لا رحيم يعرف آش بي حالتي حالة من لبد يبات ساهر

يا احمام اعتاني واعمل جميل في بلّغ سلامي يا لورشان للجزائر

... الخ

نكتفي بهذا القدر وننتقل إلى الخاتمة وهي التوجيه في الجزائر.

لا شك أن التيارات المذهبية التي عرفتها **الجزائر** في تاريخها تركت بعض الآثار، وأن الخلاف بين الفقهاء والمحدثين من جهة، وبعض علماء التصوف من جهة أخرى،

كان عاما في العالم الإسلامي، وكان لعلماء الجزائر أيضا نوع من هذه الخلافات من دون أن تؤدي بهم إلى توتُّر العلائق، بل كنا نجد تلك الخلافات بين المنتسبين لمدرسة واحدة كالحفيد **ابن مرزوق** مع زميله الشيخ **قاسم العقباني** وكالشيخ **الثعالبي** والشيخ **السنوسي** مع **أبي الحسن الصغير**، وقد ألف **السنوسي** رسالة ردَّ فيها على **أبي الحسن الصغير**، وفي أوائل القرن العاشر اشتد الخلاف بين الشيخ **أحمد بن يوسف** (دفين مليانة) وبعض معاصريه، منهم زميله في الدراسة **محمد بن على الخروبي** صاحب التفسير، وكان **الخروبي** من أجلِّ علماء عصره وترك تآليف قيمة في هذا الموضوع كشرحه لعيوب النفس وشرح أصول الطريقة لأستاذه **أحمد زروق** وغيرها وقد وقع بينه وبين علماء المغرب لما أوفده الباشا **حسن بن خير الدين** في مهمة في الموضوع، وكان من أنصار هذه الطبقة العلامة **عبد الرحمن بن الصغير الأخضري** الذي خصص لها منظومته المسماة بـ: (**القُدسية**) التي وصف فيها معاصريه المحترفين للتصوف، أما أصل التصوف والصلاح فكانت هذه الطبقة لا تنكره:

قد ادعوا مراتبا جليلة	والشرع قد تجنبوا سبيله
قد نبذوا شريعة الرسول	فالقوم قد حادوا عن السبيل
واعلم بأن الولي الرباني	لتابع السنة والقرآن
والفرق بين الإفك والصواب	يعرف بالسنة والكتاب
والشرع ميزان الأمور كلها	وشاهد لأصلها وفرعها
هذا زمان كثرت فيه البدع	واضطربت عليه أمواج الخدع
وخسفت شمس الهدى وأفلت	من بعد ما قد بزغت وكملت
والدين قد تهدمت أركانه	والرزق طابق الهوى دخانه
وظلمات الزور والبهتان	تزخرفت في جملة الأوطان

واحسرتي على الصراط المستقيم	قد ادعاها كل أفاك أثيم
قد أشرفوا على كهوف الكفر	وستروا بدعتهم بالفقر
واتخذوا مشايخا جهَّالا	لم يعرفوا الحرام والحلالا
فنفروهم من رعاة الدين	أولي التقى والعلم واليقين
فأعرضوا عن سبيل الرحمن	واتبعوا مسالك الشيطان

وهي أرجوزة تحتوى على 357 بيت.

وظهرت تآليف أخرى في هذا الموضوع، ثم نفس الطرق الصوفية التي ظهرت إذ ذاك في الجزائر كان كثير من رؤسائها يحاربون البدع، وذلك كالرحمانية التي نشرها الشيخ **محمد بن عبد الرحمن الخلوتي الجرجري**، فإننا نرى في تأليف الشيخ **ابن الحداد** بطل ثورة 1871م انكارا قويا للبدع المنافية للتصوف الحقيقي، فنجده يقول في تأليفه الذي ألَّفه سنة 1267هـ بعد هجرة شيخه **المهدي السكلاوي** يقول في وصف حالة معاصريه: «وأما القرآن فقد أهمل العمل به أصلا فترى حملته يحضُّون على حفظِ ألفاظه دون معانيه المقصودة، فلا يحللون حلاله ولا يحرمون حرامه، فيزعمون أنهم حملة القرآن، وأنهم أهل الله وأحباؤه... وانتشرت البدع وفاض بحرها على الأرض كلها، فلم تخل بلدة ولا قرية بل ولا بيت من بدع شتى، وشاهدت ذلك بنفسي وفي غيري إلا مَن عصمه الله بفضله، وخمدت السنة واندرست رسومها لكثرة الجهل وغلبة اتِّباع الهوى، فانقلبت السنة بدعة، والبدعة سنة فأهل السنة غرباء أذلاء، وأما أهل البدعة فهم الرؤساء والولاة والقضاة والعمال في كل الأقطار والأمصار... حملتني الغيرة أن أجعل تقييدا مشتملا على أشياء استعملها أهل الطريق وأنكرها عليهم أهل الظاهر جهلا بالشريعة».

ونجد نفس الخلاف وقع عند ظهور الطريقة التجانية مع الطريقة القادرية فإن

الشيخ **أحمد التجاني** (مؤسِّس الطريقة) كان زميلا في الدراسة وصديقا للشيخ **محمد بن عبد الله الجلالي الراشدي**، العالم الشهير الذي كان كلفه الباي **محمد بن عثمان** (فاتح وهران) بإدارة الرباط عندما هاجم **الباي** المذكور على الإسبان وأخرجهم للمرة الأخيرة مِن وهران سنة 1206هـ، كاتب الشيخ **أحمد التِّجاني** زميلَه هذا يخبره بأنه فُتح عليه وبصدَدِ تهيئة الجوِّ لنشر طريقته، فأجابه الشيخ محمد بن حواء برسالة هامة في الموضوع افتتحها بقوله: «من عبد الله سبحانه محمد بن حواء أبي يخلف إلى أخينا في الله ومحبنا من أجله السيد أحمد التجاني السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فقد ورد علينا كتابك الذي كتبته للسيد محمد بن عبد الله الجلالي فتصفحناه وقرأناه وعرفنا معناه وفهمنا عبارته وإشارته غير أننا تحيرنا في قولك: من آخر عصر الصحابة إلى يوم ينفخ في الصور، ما قاربني ولي من أولياء الله فيما أعطاني الله...»، فأوقعت الناس في أمر هائل وجدل طائل ومعارضة في الكلام ومخالفة فيه حتى وجد المعترض فسحة وفرصة للاعتراض ولا يدرى المجيب بماذا يجيب لاسيما من يحبك من الإخوان...

كان من آثار هذه الخلافات تهمة الطريقة القادرية التي كان يرأسها جد **الأمير** الشيخ **مصطفى بن المختار** أستاذ **الباي محمد بن عثمان** الذي حارب التِّجانية ثم الأمير عبد القادر كذلك حارب التِّجانية في عهده واتهم الأمير بالخصوص بأن محاربته للتِّجانية مبنية على مزاحمة طرقية والأمير كان لا يتلاعب بالدين ولا يستعمل الخلافات الشخصية حتى مع خصومه ذريعة للتخلص منهم فإنه كاتبه أحد أصدقائه في الموضوع وأجابه بجواب هام بيَّن له أن الداعي ليس كما يشاع، وهذه فقرات من رسالة الأمير: «ونحن بعون الله على بصيرة في ديننا، ولنا من أضواء الشريعة المحمدية بعض الضوء: خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر... الحديث، كيف تأمرني بترك قتالٍ أوجبه الشرع عليَّ... وكيف لا يسوغ لي قتاله وقد قتل مِن أهل **عين ماضي** تسعة عشر رجلا،

واستولى على ديارهم وأملاكهم، وهم الآن معنا يطلبون حقَّهم، وكيف لا يسوغ لي قتاله وعنده في المدينة نحوٌ من عشرين مُحصَنة كلهنَّ هربنَ مِن أزواجهنَّ، وبعض منهم حاضر لدَينا ينادي بالشريعة عليهن... وكيف لا يسوغُ لي قتاله وقد خرب تاولاله وأخذ أهلها وقتل منها خمسا وعشرين رجلا، مع أنه ما كلفه الله بأمر ولا نهي... فإن تركته كنتُ أظلم منه، وكنتُ غاشًّا لأمة محمد ﷺ، وقد قال: مَن ولي مِن أمر أمتي شيئا وغشَّهم لم يشمَّ رائحة الجنة، رواه مسلم، وكان الواجب عليك أن تسألني عَن وجه الأمر حيث حاك في صدرك شيء، فإني بحول الله لا أقدم على أقلِّ مِن هذا إلا بدليل شرعي، فكيف بأمرٍ فيه سفك دماء المسلمين... وأما ما ارتكبه هو وأصحابه من البدع في الدين فقد كاد أمرهم أن يجوز الملحدين، ولو قصصنا عليك ما اطلعنا عليه مِن اعتقاداتهم الفاسدة لقال العالم هؤلاء أحق باسم الملاحدة، وقال غير واحد: إذا ظهرت البدعة وسكت العالم، فعليه لعنة الله...».

ثم نرى علماء الحديث كانوا لا تخلو إجازة من إجازاتهم لم يوصوا فيها المجاز بهذه الوصية: «تمسَّكوا باليأس مما في أيدي الناس تعيشوا أعزَّة »، وكان الكثير منهم يأنفون من الوظائف وهذا عالم هو الشيخ محمد بن حواء صاحب (**سبيكة العقيان**) عنده وصية لأولاده وتلامذته وكان هذا النوع مشهورا في الأدب العربي كوصية **لسان الدين ابن الخطيب** لأولاده يقول فيها:

واجتنب الخطط والمراتبا	وكن إلى الأقاصي منها هاربا
لا سيما القضاء والإفتاء	إذ فيهما الآثام والبلاء
ومن يرد به الإله سخطه	يجعل له على الأنام خطة
واجتنب السلطان والأعوانا	والسوق والمجالس الشهيرة
وصن عن الإخوان والكرام	وجهك واحذر من منَّة اللئام

ولتلـــزم الرفـــق والاقتصــــادا في مـــؤن المعيشـــة اســـتعدادا
واجتنـــب الخلطـــة للتجـــار عبـــدة الـــدرهم والـــدينار
كـــي لا تكـــون شـــارها ولوعـــا أو خـــاسرا أو شـــاكيا جزوعـــا

هذا الخليط من التعاليم هو الذي كان يستمد منه التوجيه في ذلك العهد وكان كذلك لتربية الأسرة وبالخصوص الأمهات تأثير قوي فنرى مثلا في أوائل القرن الحادي عشر يذكر العلامة الشيخ **سعيد المقري** الظروف التي اجتمع فيها بأستاذه في القراءات الشيخ **أحمد حجي الوهراني** الذي خرج من وهران لاجئا إلى تلمسان، قال المقري: «فخرج منها حتى وصل إلى تلمسان فنزل بموضع منها يقال له: أجادير، فأتى الناس إليه يأخذون عنه... وكنتُ إذ ذاك صغيرا، فحملتني أمي إليه»، وكانت الأمهات حينئذ راغبات في الخير وأهله، ونجد ما يؤيِّد هذا أي اهتمام الأمهات بالتربية الدينية ما ذكره العلامة **محمد بن على السنوسي**، ذكر في ترجمته أنه لما ولد مات والده كفلته إحدى عماته قال محمد بن علي السنوسي في الموضوع «فكفلتني إحدى عماتي، وأحسنت تربيتي (رحمها الله)، وهذَّبت خلقي بما أمكنها مِن أنواع التأديب، وأحسنت معتقدي... فكنتُ أسمع حقائق التوحيد فأَحفظها وأتيقَّنها، وأحوال المبدأ والمعاد وما بينهما من بعثة الرُّسل وقصصهم وغريب السِّير مما لم أظفر به بعد قراءتي تلك العلوم إلا في أغرب الكتب وأصحِّها، وأكابر علماء الأمة وأفسحها، ممن أخذت عنه من مشايخي (رضي الله عنهم) فلا حديث لها غالبا مع بنيها وأهل بيتها إلا في أمور الآخرة وما يقرِّب إلى الله ويدلُّ عليه، وابنها وبنتها كهي في ذلك».

هذه نبذة من جوانب الثقافة والتوجيه بالجزائر في العهد التركي، ذكرناها مع عدم مراعاة ما تتطلَّبه في الغالب مثل هذه الدِّراسات من الدِّقَّة والنِّظام، وإنَّني قدَّمتُ طلب العذر سلفا، وإن هذه المعاهد وبالخصوص معاهد البوادي، سواء العلمية أو القرآنية

ضايقتها الحكومة الاستعمارية وغلقت أكثرها ما بين ثورة 1871 والحرب العالمية الأولى، وبقيت منها بقية أدَّت ما أمكنها، وحافظت على الفقه الإسلامي وحفظ القرآن الكريم، ومن هذه المدارس **مدرسة مازونة الفقهية** التي تخرَّج منها فطاحل العلماء، كالحافظ الرماصي، وأبي راس الناصري، ومحمد بن علي السنوسي، وغيرهم، وقد امتازت هذه المدرسة بأن معظم طلَّابها كانوا يأتون من **المغرب الأقصى**، وبقيت إجازتها تعتبر في تلك النواحي، ومعظم المتخرِّجين منها يوظَّفون في العدالة والقضاء بشرقي المغرب إلى أوائل الحرب العالمية الثانية، حيث لفظت أنفاسها وغادرها طلَّابها الجزائريون والمغاربة.

وإنَّني قبل الختام ألفتُ نظرَ كثير من كتَّابنا إلى إعادة النَّظر في أحكامهم القاسية على هذا العهد ـ أي: العهد التُّركي من ناحية الثقافة [1] ـ ويركِّزوا أحكامهم على التعمُّق في دراسة المصادر الأصلية حتى يتجنَّبوا الأخطاء الفادِحة.

المهدي البوعبدلي

---

(1) ألقيت هذه المحاضرة أمام ملتقى التعريف بالفكر الإسلامي (الثالث) المنعقد بمدرسة ترشيح المعلمين ببوزريعة من 26/ 12/ 1969 إلى 2/ 1/ 1970.

RESUME D'UNE CAUSERIE DIFUSEE PAR
(RADIO - ALGER)
LE 22 -1 -1952 / SOUS LE TITRE:

ES CAPITALES INTELECTUELLES DISSEMINEES A TRAVERS LE TERRITOIR ALGERIEN

(TENES)[1]

PAR **BOUABDELLI MEHDI**
MUPHTI D'ORLEANS VILLE

TENES fut fondée l'année 262 (Hégir) par des marchands ANDALOUS qui souvent, parcouraient les côtes Algériennes ; la région faisait, alors, partie du royaume des MAGHRAOUAS (puissante Tribus que nous avons souvent évoquée au cours de causeries antérieures , spécifiant entre autres que son royaume à l'arrivée des arabes ; s'étendait depuis ALGER, jusqu'à TANGER ; son pays d'origine se limitant à MILIANA, d'un coté, de l'autre à RELIZANE. Bien des déboires et bien des vicissitudes ont marqué la vie de Ténès et de nombreux monarques ; s'y sont succédé ainsi que nous allons le montrer de manière succincte.

Les Idrissides s'emparent de TENES quelques années après sa fondation ; avec l'aide de ses premiers maîtres, les Maghraouas qui leurs en cèdent le pouvoir dés leur arrivée à TLEMCEN.

Mais le règne des Idrissides ne fut pas long sur TENES que les chiites occupent vers la fin du 3° siècle H.

Au début du IV éme siècle, le prince Omeyade ; Annacir Cordoue sollicite les Maghraouas de lui faciliter la prise du pays ; ces derniers fidèles

---

(1) اعتمدنا في إثباتها على نسخة مرقونة تقع في صفحتين.

aux rapports amicaux qui liaient leur ancêtre Saoulat Ibn ouazmara et le grand Kalife Othmane Ibn Affane acceptent ; mais les chiites et leurs gouverneurs les Çanhadjas mécontents de cette conduite à leur égard ; ne tardent pas à se venger d'une manière retentissante.

Attaqués en 369 H par Bologuine Ibn Ziri à la tête d'une puissante armée ; les Maghraouas subissent une cuisante défaite ; 17 princes de sang périssent en un seul combat et leur roi devant les proportions de la catastrophe se suicide sur le champ de Bataille.

Il semble que c'est ce même Bologuine qui a mis fin à la domination des maghraouas et détruit toute trace de leur existence ; aussi bien en Algérie qu'au Maroc, C'est lui qui a fondé les villes d'Alger, Miliana et Médéa.

Le règne des çanhadjas sur Tenes, fut aussi éphémère : 30 ans au terme desquels elle est occupée par le prince ZIRI IBN ATTIA EL MAGHRAOUI qui avait obtenu l'appui des monarques de cordoue.

En 479 H, eut lieu par le célèbre Youcef Ibn Tachfine El Lemtouni, L'invasion de L'Algérie dont les villes de Tenes et Alger.

Au début du VI^{ème} siècle H, les Almohades succèdent aux Almoravides et concèdent à la famille Mendil de Maghraoua leur province d'origine entre Miliana el Relizane, C'est cette famille qui a fondée la ville de Mazouna, Tels sont les événements militaires qui se sont succédé à Tenes jusqu'à la fin du 6ème siècle H. Quand à la vie intellectuelle durant cette période, peu de traces en sont restées.

Nous en savons seulement que la ville était en relations contentés avec l'andalousie ; et qu'elle fut habitée par de nombreux émigrants andalous notamment le dernier roi d'Alméria IBN SAMADIH ETTADJIBI et sa sœur, l'intellectuelle et poétesse, OUM EL KIRAM. Histoire de la dynastie des samadih en Andalousie est analogue à celle des Béni-Abbad, princes de séville.

De nombreux poètes ont, à cette époque évoqué TENES, entre autre, l'écrivain Said Washkil Et-Tiherti qui y vécut, la maladie par laquelle il est mort :

« Le sommeil s'est séparé de moi, les liens de la passion se sont brisés.

Eloigné de mes amis, prisonnier, je me trouve loin de Tihert (TIARET) en un lieu isolé, abondonné du destin.

TENES, ville de déchéances, résidence de toute vie abrégée. Son signe maudit tient lien d'épée au destin. Envahie par les puces, refuge du chacal ».

Un autre poète en dit : « O toi qui cherchez le pays de Ténès, ville du mal distillé et de l'impureté, la pluie ne tombe pas et la racine du bien y est morte. Les habitants, éloquents pour signifier le refus, deviennent muets pour l'affirmation ; lorsqu' y arrive l'étranger, il s'en retire avant la nuit. Son eau est, entre autres distinctions, impure et coule sur un sol impur. S'il t'arrive de maudir un pays. Une fois ; adresse ta malédiction, sans arrêt à Ténès ».

Le célèbre écrivain le cheikh Hassan Ibn feggoun, de Constantine auteur de la fameuse relation de voyage de «Constantine à Mérrakech» ; lors de son passage à Ténès. L'évoque ainsi :

« En Alger mon cœur a aimé la beauté limpide des contours.

A Miliana la passion s'est saisie de moi pour la taille flexible au cœur dur.

A Ténès, j'ai perdu ma bonne patience et me suis mis à dévier toute figure aimable ».

Ceci est le résumé de la première période de l'histoire de Ténès, qui commence par sa création et se termine à la fin du VI éme siècle de l'Hégire.

La deuxième période s'étend du début du VII éme siècle à la fin du IX° siècle et se distingue de la première par la stabilisation relative du pouvoir entre les mains des princes Maghraouas, vasseaux des Béni-Hafs ; maîtres de Tunis. À Cette époque ; autrement dit à la fin du règne des Almohades.

La situation était la suivante, les Hafsides régnaient à Tunis, Les Mérénides, au Maroc ; prétendant, les uns et les autres à la succession des Almohades. L'Algérie se trouvait alors partagée en (3) provinces

administrées respectivement par :

- Les Beni-toudjini (Ouarsenis)
- Les Maghraoua (Chélif)
- Les Beni-Zian (Tlemcen)

Ces derniers étant, les plus puissants des trois. Aussi, s'efforçaient- ils d'annexer à leur province celle de leurs autres voisins. Ceux-ci ont alors recours au vasselage des Hafsides et devinrent de ce fait, plutôt gouverneur de province, roi.

Les Maghraouas se trouvent alors dans une situation fort précaire avec les Beni-Zian qui les attaquent souvent et à plusieurs reprises, envahissent certaines parties de leur territoire dont Tenes, qu'ils placent chaque fois sous l'administration de certains princes de leur famille. Du point de vue intellectuel. Tenes, produisit à cette époque des savants qui acquièrent une grande célébrité dans le monde Islamique. Parmi eux, le grand Abou-Ishak Ibrahim Ibn Ikhlef. Ettanassi et son frère Abou-el-Hassan.ces deux savants, nés à tenes, se rendirent à Tunis puis en Egypte ou ils occupèrent une place prestigieuse dans le monde de la science et contèrent comme disciples de nombreux savants orientaux; après leur retour à Ténès; l'aîné Ibrahim se déplaçait souvent à Tlemcen ; Invité par le roi yaghmourassane, il s'établit à Tlemcen. Le grand villégiateur EL-Abdari se trouvant en orient, déclara dans un cercle d'intellectuels : «il est fortement pessimiste » que le Maghreb s'était appauvri en savants. On lui répondit dans l'assistance : «un pays qui possède un homme comme Ibrahim -Ettanassi n'est pas pauvre en savants ».

A sa mort le cheikh Ibrahim est remplacé à Tlemcen par son frère Abou El Hassan, dont la ville a conservé le souvenir jusqu'à nos jours, ayant donné son nom à la mosquée aujourd'hui, érigé en musée. Il convient de citer parmi les enfants célèbres de Ténès, les deux frères Abou - Zaid abderrahmane et Abou - Moussa Aissa, connu sous le nom des (fils de l'Imam). Leur père était imam dans la tribu des Berchac, actuellement; Sidi Brahim El – Khaouass, entre Ténès et Cherchel, les deux frères étudièrent à Tunis et en Orient ou ils devinrent célèbres, notamment à la suite de leur rencontre avec l'imam Taki-Eddin Ibn Timmya, qui fut parmi les chefs de la réforme.

Au cours de cette entrevue, eut bien un entretien scientifique qui consacra la supériorité manifeste des (fils de l'imam).

On dit que cet entretien est à l'origine des déboires que devait connaître Ibn-timmya, par la suite.

A leur retour, les (fils de l'imam) trouvent TENES et Berchac assiégées. Ils séjournent Quelque temps à Alger puis se rendent à Tlemcen ou ils acquièrent la plus haute auto nu dans les milieux intellectuelle et sont admis dans la cour béni -zian puis celle de roi Abou - El-Hassan el-Mérini après son avènement à Tlemcen. Il n'existe presque pas à Fès, Alger et Tunis de savant de cette époque que les (Fils de l'Imam) n'eussent eu pour disciplines ; parmi les plus célèbres Abderrahmane ibn Khaldoun ; Eel-Makkari et autres princes et ministres.

La mosquée des (Fils de l'Imam) existe de nos jours encore à Tlemcen.

Nous citerons encore le célèbre savant et érudit Mohamed Ben Abdeldjalil Ettenessi ; Auteur du livre (Eddour Ouel Okian Fi Charafi Moulouki Béni Zian).

C'est de ce même ibn abdeldjalil parlant de la science à Tlemcen ; la science appartient à Ettenessi ; la vertu à Essanoussi, l'autorité à Ibn-Zekri. La ville actuelle de Ténès n'a conservé sa vielle mosquée dont l'origine est située par de nombreux spécialistes de l'architecture au IVéme siècle de l'Hégire ; étant donnée l'analogie de style qu'elle présente avec les mosquées de cette époque.

à Tunis, au Caire et en Syrie. C'est cette mosquée qui est décrite par El Bekri dans son ouvrage « El-Mecelik Oual Mamalik ». Nous savons aussi plusieurs de ses colonnes proviennent d'une église romaine en ruines qui existait prés de l'emplacement où TENES a été construite.

العواصم الثقافية في الجزائر (تنس)

ملخَّص حديثٍ بُثَّ في إذاعة الجزائر في 22/ 01/ 1952
المهدي البوعبدلي / مفتي مدينة (أُرليون فيل) (شلف حاليًا) (1)

أُسِّست مدينة (تنس) في عام 262 للهجرة من طرف التجار الأندلسيين الذين كانوا يقطعون الساحل الجزائري بكثرة، حيث كانت هذه المنطقة تابعة لإمارة (مغراوة)، قبيلة قوية تحدثنا عنها كثيرا في مناسبات مختلفة، وأوضحنا أن مملكتها كانت تمتد حين قدوم العرب من الجزائر العاصمة إلى مدينة (طنجة) المغربية، علما أن حدودها الأصلية كانت تمتد إلى مدينة (مليانة) فقط مقابلة لمدينة (غليزان).

لقد شهدت مدينة (تنس) كثيرا من التقلبات والتغيرات، تماما مثل مختلف المملكات التي بسطت هيمنتها عليها، وفق ما سنذكره بإيجاز.

استحوذ (الإِدريسيون) على المدينة سنوات قليلة بعد إنشائها، وذلك بمساعدة مؤسسيها الأوائل الذين وضعوا يدهم على المنطقة بعدما تنازل عنها (المغراويون) عند وصولهم إلى مدينة (تلمسان)، ولكن حكم (الإِدريسيِّين) لمدينة **(تنس)** لم يطل كثيرا، حيث احتلها الشيعيُّون في نهايات القرن الثالث الهجري.

---

(1) قام بترجمتها الأستاذ الصديق الفاضل **مصطفى فرحات**، ونشرنا النص الأصلي مع ترجمته في كتابنا: **الشيخ المهدي البوعبدلي: شهادات ووثائق** (ص: 167 ـ 182)..

وفي مطلع القرن الرابع الهجري، ناشد الأمير الأموي (الناصر القرطبي) المغراويِّين لكي يسهلوا عليه مهمة الاستيلاء على البلد، وأجابته القبيلة إلى ذلك لإخلاصهم للعلاقة الودية التي كانت تربط شيخهم (صولة بن وزمرة) بالخليفة الراشد (عثمان بن عفان)، غير أن الشيعيِّين وولاتهم (الصنهاجيين) انتقموا منهم نتيجة استيائهم من هذه المساهمة.

وتلقى (**المغراويون**) هزيمة ساحقة عندما هاجمهم (بلكين بن زيري) على رأس جيش عظيم عام 369هـ، حيث لقي (17) أميرا من القبيلة حتفهم في معركة واحدة، وهو ما جعل ملك القبيلة ينتحر على أرض المعركة.

ويبدو أن (بلكين) نفسه هو الذي قضى على سلطة (مغراوة) ودمَّر كل أثر من آثار وجودهم، سواء في الجزائر أو المغرب، علما أنه هو الذي أسس كلا من مدينة الجزائر ومليانة والمدية.

غير أن حكم (صنهاجة) نفسه على مدينة (تنس) لم يدم طويلا، فبعد (30) سنة استحوذ عليها (زيري بن عطية المغراوي) الذي تلقى دعم الأسرة الحاكمة في (قرطبة).

وفي عام 479هـ اجتاح يوسف بن تاشفين اللمتوني الجزائر، وشمل هذا الاجتياح مدينة (تنس) و(الجزائر العاصمة)، وفي مطلع القرن السادس الهجري، خلف الموحدون المرابطين وولوا عائلة (منديل المغراوية) حكم المقاطعة الممتدة ما بين مدينتي مليانة وغليزان، وهي الموقع الأصلي للقبيلة المغراوية، وأسَّست هذه العائلة مدينة (مازونة).

كانت هذه هي الأحداث العسكرية التي شهدتها مدينة (تنس) إلى نهاية القرن السادس الهجري، أما فيما يخص الحياة الثقافية في هاته الفترة، فإنه لم يبق من آثارها إلا الشيء النزر اليسير.

لا نعرف اليوم سوى أن المدينة كانت على علاقة ودية بالأندلس، كما استوطنها عدد كبير من المهاجرين الأندلسيين، بما فيهم **ابن صمادح التُّجيبي**، وهو آخر ملوك مدينة **المرية**، الذي حط رحله بها رفقة أخته العالمة والشاعرة أم الكرام، علما أن تاريخ أسرة بني صمادح بالأندلس تشبه إلى حد كبير تاريخ بني عباد أمراء إشبيلية.

وفي تلك الفترة، تحدث شعراء كثيرون عن مدينة تنس، ومن بينهم الكاتب **سعيد بن واشكل التيهرتي** الذي أصيب فيها بالمرض الذي توفي بسببه، وكان قد قال فيها:

نأى النوم عني واضمحلّت عرى الصبر ... وأصبحت عن دار الأحبّة في أسر

وأصبحت عن تيهرت في دار غربه ... وأسلمني مرّ القضاء من القدر

إلى تنس دار النحوس، فإنها ... يساق إليها كلّ منتقص العمر

بلاد بها البرغوث يحمل راجلا ... ويأوي إليها الذئب في زمن الحشر

وقال شاعر آخر:

أيها السائل عن أرض تنس ... بلد اللؤم لعمري و الدنس

بلد لا ينزل القطر بها للندى ... في أهلها حرف درس

فصحاء النطق في لا أبدا ... و هم في نعم بكم خرس

ماؤها من قبح ما خصت به ... نجس يجرى على أرض نجس

فمتى تلعن بلادا مره ... فاجعل اللعنة إذا بالتنس

كما وصف الكاتب الشهير الشيخ حسن بن الفقون القسنطيني، وهو مؤلف: (الرحلة من قسنطينة إلى مراكش)، مدينة تنس لما مر عليها، فقال:

وفي أرض الجزائر هام قلبي ... بِمعسول المراشف كوثَرِيِّ

وفي مليانةَ قد ذُبْتُ شَوْقًا ... بِلَيْنِ العَطْفِ والقَلبِ القَسِيِّ

وفي تَنَس نسيتُ جميـلَ صـبري وهِمْتُ بِكُلِّ ذي وَجْـهٍ رَضِــيِّ

كان هذا هو ملخَّص المرحلة الأولى من تاريخ مدينة تنس، بدأنا فيه بذكر بداية تأسيسها وانتهينا فيه إلى حدود القرن السادس الهجري.

وتمتد المرحلة الثانية من بداية القرن السابع الهجري إلى نهاية القرن التاسع الهجري، وتتميز عن المرحلة الأولى بالاستقرار النسبي لنظام الحكم الذي كان بين يدي أمراء مغراوة الذين انضووا تحت لواء بني حفص، أمراء تونس في تلك الفترة، أي بعد نهاية حكم الموحدين.

وبعدها، كان الأمر على هذا النحو: فلقد ملك الحفصيون تونس كما ملك المرينيون المغرب، مدعين في نفس الوقت أحقية كل منهما بإرث تركة الموحدين، وهكذا انقسمت الجزائر إلى (3) مناطق يُشرف عليها:

1) بنو توجين (الورسنيس).
2) بنو مغراوة (الشلف).
3) بنو زيان (تلمسان).

كان بنو زيان أقوى الثلاثة، ولهذا حرصوا على ضم المقاطعات المجاورة لهم إلى رايتهم، فاضطر المغراويون إلى الدخول في طاعة الحفصيين وأصبحوا حكاما على منطقتهم، واندرجوا في سلك الملوك.

وهكذا وجد المغراويون أنفسهم في مواجهة بني زيان الذين هاجموهم عدة مرات واحتلوا أجزاء من إمارتهم، حيث كانت تنس جزءا من هذه الأراضي المحتلة التي كان الزيانيون ينصبون عليها أمراء من بني زيان.

وفيما يتعلق بالجانب الفكري والعلمي، فقد أنتجت تنس في تلك الفترة علماء نالوا

شهرة واسعة في العالم الإسلامي، ومن بينهم العالم أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي، وأخوه أبو الحسن، ورحل هذان العالمان المولودان بتنس إلى تونس ثم إلى مصر، حيث حظيا بمكانة مرموقة على الصعيد العلمي وتتلمذ على أيديهما عدة علماء مشارقة، وبعد عودتهما إلى تنس كان إبراهيم كثيرا ما يتنقل إلى تلمسان، قبل أن يستقر فيها بدعوة من الملك يغمراسن.

وصرح الرحالة الكبير العبدري، الذي كان متواجدا بالمشرق آنذاك، أمام جمع من العلماء قائلا بأنه: «جِدُّ متشائم لأن المغرب ـ في نظره ـ قد خلا من العلماء، فأجابه بعضهم بالقول بأن بلدا يملك عالما من طراز إبراهيم التنسي لا يُعتبر عقيما عن إنجاب العلماء».

وبعد وفاة إبراهيم، خلفه أخوه أبو الحسن الذي تحتفظ المدينة بذكراه عن طريق تسمية مسجدها باسمه، وقد تحول اليوم إلى متحف.

كما ينبغي أن نذكر من أبناء مدينة تنس اللامعين الأخوين **أبا زيد عبد الرحمن وأبا موسى عيسى**، المعروفان باسم (ابنيْ الإمام)، حيث كان أبوهما إماما في قبيلة **(برشك)** المسماة اليوم سيدي **إبراهيم الخواص**، وهي متواجدة بين تنس وشرشال، وطلب الإخوان العلم بتونس ورحلا إلى المشرق وذاع صيتهما، وكانا قد التقيا بالإمام **تقي الدين ابن تيمية** الذي كان من زعماء الإصلاح، وجرت بينهم مناظرة علمية انتهت بظهور واضح لابني الإمام، ويُقال بأن هذه المناظرة كانت سبب المحن التي عرفها ابن تيمية بعد ذلك.

وبعد عودتهما إلى الجزائر، وجد ابنا الإمام تنس وبرشك محاصرين فمكثا قليلا بالجزائر العاصمة ثم توجها صوب تلمسان حيث حظيا بالرفعة في الوسط الثقافي وأدرجا في سلك قضاة بني زيان ثم بلاط الملك أبي الحسن المريني بعد قدومه إلى

تلمسان، وندر أن يتواجد في مدن فاس والجزائر وتونس علماء لم يتتلمذوا على أيدي ابني الإمام، ومن أشهرهم عبد الرحمن بن خلدون والمقّري وغيرهم من الأمراء والوزراء، ولا زال مسجد ابني الإمام قائما إلى يومنا هذا بتلمسان.

كما نذكر أيضا العلامة الشهير المتفنن محمد بن عبد الجليل التنسي، صاحب كتاب: (**الدُّر والعقيان في شرف ملوك بني زيان**)، وابن عبد الجليل نفسه عندما تحدث عن العلم في تلمسان، أوضح أن العلم ينتسب للتنسي، كما تنتسب العقيدة للسنوسي، وقوة الحجة لابن زكري.

ولم تحتفظ مدينة تنس الحالية بمسجدها العتيق الذي قدّر عدة خبراء معماريين بأن تشييده يعود إلى القرن الرابع الهجري، وذلك اعتمادا على مقارنة طرازه بطراز مساجد تلك الفترة بتونس والقاهرة وسورية. هذا المسجد نفسه هو الذي وصفه البكري في مؤلفه (**المسالك والممالك**)، ونحن نعلم اليوم أن عددا من أسطواناته أخذت من أنقاض كنيسة رومانية كانت متواجدة بالقرب من موضع بناء مدينة تنس.

أهم الأحداث الفِكرية بتلمسان عبر التاريخ
ونبذٌ مجهولة مِن تاريخ حياة بعضِ أعلامها[1]

إنَّ موضوع دراستنا هذه ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: نتحدَّث فيه عن أَبرز الأحداث والخلافات الفِكرية بتلمسان حيث إنَّها كعاصمة علميَّة لعبت أدوارا لها وزنها، وتأثيرها في الميدان العقائدي، داخل البلاد وخارجها عدَّة قرون.

أما **القسم الثَّاني**: فإنَّه يشمل الحديث عن جوانب مجهولة من تاريخ حياة بعض أعلام تلمسان الذين لا زالوا محلَّ عناية الباحثين والمؤرِّخين، كما لازالت الجهود مبذولة، لكشف ما يكتنف حياتهم من غموض ومن هؤلاء الفيلسوف الشَّاعر **أبو عبد الله محمَّد بن خميس التِّلمساني** المتوفى بغرناطة سنة 708هـ قتيلا.

اهتم بترجمة **ابن خميس** كبار علماء عهده، ومن بعدهم إلى زماننا هذا، حيث إنَّ جوانب من حياته اكتنفها السِرُّ والغموض، وحاول كثير من الباحثين ـ خصوصا المتأخِّرين منهم ـ إِماطة اللِّثام عنها، فأعوزتهم الأدلَّة، ولهذا نجدهم أَرْخَوا العنان للاستِنباطات التي تركتهم في متاهات التكهُّنات والتَّخيُّلات ـ وهي لا تمتُّ إلى الحقيقة بصلة إلى أن كشف الغطاء منذ سنوات قليلة على أهمِّ الوثائق المتعلِّقة بحياته، فأنارت تلك الجوانب، وذلك ما يشمله **القسم الثَّاني** من هذه الدِّراسة.

---

(1) **الأَصالة**: رجب ـ شعبان 1395هـ/ جويلية ـ أوت 1975م، السنة: 4، العدد: 26، ص: 124 ـ 135، كما اعتمدنا على نسخة بخطِّ الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، تقع في (41) صفحة. (ع)

وقبل الدُّخول فِي صلبِ موضوع **القسم الأوَّل** من دِراستنا هذه، اسمحوا لِي أن أقف وقفةً قصيرةً عند التُّراث الذي أثار كثيرا من خلافات وجهات نظر المعاصرين الذين بلغ ببعضهم العقوق ـ إن لم أقُل أكثر مِن ذلك ـ فَحكموا عليه بأن نَصيبه هو إِلقاؤه في سلَّة المهملات، وذلك أن السَّعي في إحيائه تضييع للوقت، إذ هو يتَنافى مع عصر الذرَّة الفضاء، الذي نعيش فيه، وقد غاب عن هؤلاء أن مكتشفي الذرة وروَّاد الفضاء الحقيقيِّين قولا وعملا هم في طليعة قادة الفكر العالميِّين الذين يحلُّون التُّراث مقاما بارزا في بلدانهم، ولم يقتصروا على تراثهم الوطني فحَسب، بل نجِدهم مهتمِّين بتراثنا الإسلامي، ومن ذلك ما طالعتنا به بعض المجلَّات العلمية في هذه الأيام، وله ارتباط بموضوع بحثنا كما سنبيِّن ذلك في **القسم الثاني**.

إنَّ أكاديميات العلوم في **كازاخستان** وفي جمهوريات آسيا الوسطى ساعية في تحضير عقد مؤتمر عِلمي عالمي بـ: **موسكو** في خريف السَّنة الجارية، موضوعه: **(الفارابي والحضارة العالمية)**، وسيعقبه مؤتمر ثان ينعقد في **آلما آتا** موضوعه **(الفرابي وتطوُّر العلم والثَّقافة في بلدان الشَّرق)**.

وقد سبق منذ سنتَين ـ أي: سنة 1973م ـ في **آلما آتا** أَن خصَّص المؤتمر الخامس لكتاب بلدان آسيا وإفريقيا الذي اجتمع فيها **(يوم الفارابي)**، وذلك إثر الِاحتفال الذي أقامته **أكاديمية العلوم السُّوفياتية** بمناسبة مرور مائة وألف سنة على ولادته، وقد خصَّص نائب رئيس أكاديمية العلوم السُّوفياتية **فِيدُوسْيِيفْ** دراسةً قيِّمة تعرَّض فيها لهذه المهراجانات، واهتمام أكاديمية العلوم المذكورة بتراث هذا العالم المسلم، حيث إنَّها ترجمت ما وصلها منه إلى اللُّغتين الكازاخية والرُّوسية، وقدَّمتها للطبع، وهذه فقرات من الدِّراسة المذكورة: «يدرس العلماء السوفيات التُّراث العلمي الفنِّي للمفكِّر الكبير، ويجري إعداد منشورات خاصَّة لتحليل مدَى مساهمة **الفارابي** في تطوير الرياضيات،

وآرائه حول الدَّولة والقانون، والأصول العقائدية للنَّزعة الإنسانية، وغيرها من المسائل المطروحة في مؤلَّفاته».

وإنَّنا لو تتبعنا اهتمام المعاصرين، خصوصا الأوربيِّين الذين بذلوا جهودا جبَّارة لبعث هذا التراث، سواء الموجود منه في بلدانهم أو في بقية أقطار العالم، وتحقيقه ونشره لاحتاج ذلك إلى تآليف خاصة، ولذا أكرِّر لفتَ نظر بعض كتَّابنا الذين يحكمون على التراث الإسلامي جُزافا حكمهم الجائر أن يعيدوا النَّظر ليفرِّقوا بين التُّراث العلمي الذي هو امتداد لأصول حضارتنا، وبه نربط صِلَتنا بماضينا، وبين التراث الزائف الذي أثقل تاريخنا بما يشمله مِن أساطير وأضارير وتَدجيل، واعترافا بالحق نذكر أن علماءنا لم ينتظروا عصر الذَّرة وروَّاد الفضاء، ليتبرَّؤوا مِن التُّراث الزائف، فقد خصَّصوا له تآليف أحصَوا فيها قوائم هذه التآليف ومؤلِّفيها، ولم يفرِّقوا بين المؤلِّفين الذين تعمَّدوا التضليل أو جهِلوه، سواء كانت نواياهم حسنة أو سيِّئة.

ولنرجع إلى الحديث عن **القسم الأول** من موضوع دراستنا، الذي هو كما يدلُّ عليه العنوان: **(أهم الأحداث الفكرية بتلمسان)**، فنقول:

تعاقب على **تلمسان** في عهدها الإسلامي أمراء وملوك، منهم أمراء قبيلة بني يفرن مؤسِّسو مدينة **تلمسان** قبل الفتح، وأمراء **مغراوة**، ثمَّ ملوك **الأدارسة**، فالفاطميِّين، ثم المرابطين، فالموحِّدين، وبعد انحلال دولة الموحدين المركزية، تنازع حكمها ملوك بني زيان من جهة، وبنو مرين ملوك المغرب مع بني حفص ملوك تونس من جهة أخرى، وبحكم الجوار، كان النزاع بين بني زيان وبني مرين هو الذي خلف آثاره، أما الخلاف مع بني حفص فكان أخف وطأة على **بني زيان**، الذين حكموا البلاد أزيد من ثلاثة قرون أمكنهم فيها رغم كل ما ذكرناه، ورغم الخلافات الداخلية التي كان يثيرها أمراء الأسرة، حيث كانوا يتمرَّدون المرَّة بعد المرة على السُّلطة المركزية، مستعينين في ذلك

برؤساء الإمارات الداخلية أو القبائل العربية والبربرية، رغم هذا كله تمكن ملوك بني زيان من جعل **تلمسان** عاصمة علمية ممتازة، ضاهَت عَواصم العلم والحضارة إذ ذاك، كمصر، وغرناطة، وتونس وفاس وبجاية، ولما يتطلبه هذا الموضوع من وقت سأكتفي باستعراض هذا القسم سردا لأحداثه مجنِّبا القارئ الدخول في التفاصيل، حيث يمكن مراجعتها في التآليف المخصَّصة لها.

إنَّ الغرض من هذه الدراسة استعراض أهم الأحداث الفكرية، واستعراض نبذ مجهولة من تاريخ بعض علماء تلمسان عبر تاريخها الزاهر، في الميدان الفكري، كما يدل على ذلك عنوان هذه الدراسة، فالجوانب المجهولة من تاريخ حياة هؤلاء العلماء، منها ما كان معروفا، ولكنه بقي مغمورا في كتب التراجم، ومنها ما كان مجهولا ولم يكشف عنه الغطاء إلا في زماننا هذا عندما اكتشفت بعض المصادر القيمة النادرة، وإنني سأكتفي في هذه الدراسة بسرد **القسم الأول** من الموضوع ـ أي: **أهم الأحداث الفكرية** ـ وأجنِّب القارئ الدخول في التفاصيل، حيث يمكنه مراجعتها في مظانها من التآليف المخصصة لها، أما فيها يخص **القسم الثاني** من الموضوع، وهو الجوانب المجهولة من تاريخ حياة بعض علمائها، فإنني اقتصرت فيه ـ لضيق مجال هذه الدراسة ـ على حياة عالمين لهما شهرة عالمية، ولا زالا محل عناية الكتاب والباحثين إلى زماننا هذا، وهما **أبو عبد الله ابن خميس** (650 ـ 708هـ)، و**أحمد المقري** (986 ـ 1041هـ).

إن الجوانب المجهولة من ترجمتيهما ـ خصوصا **ابن خميس** ـ تركت الباحثين الذين حاولوا إِماطة الِّلثام عن شخصيته الغامضة في متاهات التناقض والاضطراب والالتجاء إلى التكهنات كل ذلك بسبب فقد المراجع واحتياج الموجود منها إلى البيان والتوضيح.

أما **أحمد المقري**، وإن كان قريب عهد نسبيا، وكان معاصروه ومن بعدهم أكثر اهتماما به وبآثاره، فبقيت جوانب كثيرة تتعلق به وبأسرته مجهولة، ولم يكشف عنها

القناع إلا في عهدنا هذا، ثم إن الفرق بين الشخصيتين كبير فـ : **أحمد المقري** ينتمي إلى أسرة توارث أفرادها العلم والمجد ما يزيد على الخمسة قرون بتلمسان ثم انتقل في آخر حياته إلى فاس ومصر ودمشق فلقي التجِلَّة والتقدير وانتصب فيها للتدريس والتأليف، فلفت الأنظار، والتف حوله الطلاب، فأفاد واستفاد، بخلاف **ابن خميس** المجهول الأصل والفصل، الذي عاش منزويا في مسقط رأسه، ولولا الرحالة العبدري الذي مرَّ بتلمسان في طريق رحلته إلى المشرق سنة 688هـ ولقيه بها، فنوه بشأنه، لما لفت أنظار مواطنيه ولنرجع إلى الحديث عن القسم الأول من الموضوع، وهو أهم الأحداث الفكرية التي اجتاحت تلمسان عبر تاريخها، فكان أولها، تسرب مذهب الصفرية الخارجي في منتصف القرن الثاني من الهجرة، وقد تزعم هذه الحركة **أبو قرة الزناتي،** إلى أن قضى عليها والي إفريقية ابن الأشعث، في عهد الخليفة العباسي **أبي جعفر المنصور،** وبعد استيلاء الأدارسة على تلمسان أواخر القرن الثاني الهجري، كان المذهب السائد، هو المذهب المالكي، الذي انتشر إذ ذاك في كامل بلاد المغرب العربي والأندلس، ثم ظهرت الدولة الفاطمية، فانتشر بانتشارها المذهب الشيعي بتلمسان، عندما استولى عليها **بلقين بن زيري بن مناد** حوالي سنة 361هـ. ونقل جل سكانها إلى ـ عاصمة دولته الثانية ـ أشير، وفي أواخر القرن الرابع حل بتلمسان الفقيه **أحمد بن نصر الداودي،** أحد دعاة المذهب المالكي الذي سبقت له المشاركة في الحملة العنيفة التي قام بها فقهاء المذهب المالكي بالقيروان على المذهب الشِّيعي، وكان يتزعَّمها الفقيه **أبو محمد بن أبي زيد القيرواني،** أقام **أحمد بن نصر الداودي** بتلمسان على سنن علماء عهده، ونال شهرة، وحظوة، بدليل أن ضريحه بقي من معالم ومزارات **تلمسان،** إلى عهدنا هذا كما بقيت أسرته تتوارث التقدير والإجلال، وقد توفي **الداودي** في بداية القرن الخامس، قبل أحداث المدينة الحالية ـ في عهد الملك **يوسف بن تاشفين** ـ ولهذا دفن خارج سور المدينة القديمة، وهي ربض **أقادير** الحالي.

ثم شهِدت **تلمسان** في الميدان الفكري الحرب الطاحنة بين الفقهاء المالكيين ودولة الموحدين بعد استيلائهم عليها في أوائل القرن السادس، واشتهر من الفريقين أعلام لا يسع مجال هذه الدِّراسة إطالة الوقوف عندهم، إذ الخلاف العقائدي بين دولة الموحدين وفقهاء المذهب المالكي معروف، وقد خصصت له التآليف العديدة،وبعد معركة الموحِّدين شهِدت **تلمسان** معركة دامت ما يزيد على القرنين، بين السلفيِّين والمتصوفة، وكانت بدايتها القرن الثامن الهجري، وكثيرا ما اشتبهت سلفية تلمسان بسلفية المشرق التي تزعمها العالم المصلح **أحمد بن تيمية الحنبلي**، والحقيقة أن سلفية **تلمسان إذ ذاك** تسرَّبت إليها من المغرب الأقصى وبالضبط من مدينة **فاس**، وكان الداعي لها هو الفقيه **علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي** المشهور بـ: **أبي الحسن الصغير** الذي تولى قضاء مدينة **فاس** وتوفي بها سنة 709هـ، وقد امتازت سلفية **الزرويلي** هذا عن سلفية معاصره بالمشرق: الإمام **أحمد بن تيمية الحنبلي**، بأنها كانت تقتصر على محاربة البدع بجميع أنواعها في إطار المذهب المالكي، إذ كان **الزرويلي** من أشهر فقهاء زمانه، وكان داعية لنشر أمهات كتب المذهب المالكي، كـ: **(المدونة)** و**(تهذيبها)** لـ: **البراذعي**، التي كانت تواجه من ناحية أخرى، حملة عنيفة، شنها عليها بعض فقهاء المذهب المالكي أنفسهم، وقد خصص لها العالم المرحوم **محمد الفاضل ابن عاشور** (مفتي الجمهورية التونسية) دراسة قيمة نشرتها مجلة المجمع العلمي العربي، بدمشق بعد وفاته بشهور، وسمَّى هذه المعركة بثورة ثقافية تسربت من المشرق إلى المغرب بواسطة الإمام **ناصر الدين المشدالي البجائي**، ومن بجاية إلى تلمسان، فالمغرب الأقصى، بواسطة **عمران أبي موسى المشدالي** (670 ـ 705هـ) الذي كان يدير المدرسة التاشفينية بتلمسان ونال شهرة، إذ هو شيخ مشايخ **ابن خلدون**، امتدت المعركة بين السلفية والمتصوفة بتلمسان ما يربو على القرنين، إلا أنها كانت لا تجاوز صفوف الأوساط العلمية، كان يتزعم السلفية إمام **تلمسان** في عصره الحافظ **محمد بن مرزوق الحفيد** (دفين تلمسان)، ويرأس أنصار

المتصوفين قاضي قضاة تلمسان **قاسم العقباني**، ولكل منهما مكانة شخصية وعائلية، فأسرة **ابن مرزوق** كانت من الأسر التي توارثت العلم قرونا، وكذلك أسرة **العقباني**، والفارق بينهما أن أسرة **ابن مرزوق** أسرة تلمسانية وأسرة العقباني أسرة أندلسية الأصل، وقد احتفظ لنا التاريخ بتأليف الحافظ **ابن مرزوق** في الموضوع سماه: (**النُّصح الخالص في الرَّدِّ على مدَّعي رتبة الكامل للناقص**).

وأيَّد **ابن مرزوق** كثير من علماء **الأندلس** و**القيروان** و**فاس**، وكان لهذه المعركة امتداد إلى عهد الإمام **محمد بن يوسف السنوسي** المشهور بتآليفه في علم التوحيد والمتوفى بتلمسان سنة 895هـ الذي انتصر لقاسم العقباني وشيعته، وألف كتابه المسمَّى: (**نصرة الفقير في الرَّدِّ على أبي الحسن الصغير**)، وانتصر لـ : **السنوسي** شيخاه **عبد الرحمن الثعالبي** (دفين الجزائر)، و**الحسن أبركان الراشدي** (دفين تلمسان)، ولم تفارق المعارك العقائدية تلمسان حيث في وقت اشتغال السنوسي ومعاصريه بالمعركة بين السلفية والمتصوفة ظهرت معركة أخرى هزت الأوساط العلمية هزة عنيفة، وهي المعروفة بـ (**قضية يهود توات**)، أثارها الفقيه المشهور **أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي** عندما أمر مواطنيه بهدم بيعة اليهود التي أحدثوها بقصور توات، وعارضه في ذلك معاصره **أبو محمد عبد الله بن أبي بكر العصنوني**، فانقسم العلماء المعاصرون بتلمسان وفاس إلى قسمين، قسم أيد المغيلي، والقسم الآخر أيد العصنوني، ومن المؤيدين للمغيلي **محمد ابن عبد الجليل التنسي** والإمام **السنوسي**، وقد استفدنا مما ذيل به السنوسي فتواه الفقهيه، الصبغة السياسية هذا نصه: «... فقد بلغنا أيها السيد ـ يعني الفقيه **المغيلي** ـ ما حملتكم عليه الغيرة الإيمانية والشجاعة العلمية من تغيير إحداث اليهود أذلهم الله تعالى وأخمد كفرهم للكنيسة في بلاد المسلمين، وأنكم حرَّضتم أهل تمنطيط على هدم الكنائس التي لليهود ببلادهم فتوقفوا من جهة من عارضكم في ذلك

من أهل الأهواء، فبعثتم لأجل ذلك إلى بلدنا أسئلة ومكتوبات تستنهضون بها همم أهل العلم لينظروا في المسألة نظر أهل العدل والإنصاف، ويبينوا الحق فيها بيانا شافيا قاطعا لكل تخليط وتشغيب يرد من أهل الهوى والانحراف، فاعلم أخي أني لم أر من وقف لإجابة هذا المقصد، وبذل وسعه في تحقيق الحق وشفى غليل أهل الإيمان في هذه المسألة ولم يلتفت لأجل قوة إيمانه، ونصوع إيقانه، إلى ما يشير به الوهم الشيطاني، من مداهنة بعض من تُتقَّى شوكته، ويخشى أن يقع على يده إضرار، أو حط من المنزلة... الخ»، وقد نشر أحداث هذه القضية **أحمد بن يحيى الونشريسي** في: (**المعيار**) بمزيد من التفصيل.

ولنواصل بحثنا فيما يتعلَّق بـ : (**القسم الثاني**) من الموضوع وهو: (**نبذٌ مجهولة من تاريخ حياة بعض أعلام تلمسان**)، الذي اقتصرنا فيه على حياة العالمين **أبي عبد الله محمد ابن خميس** ومواطنه المقري.

كان **أبو عبد الله محمد بن خميس** من مواليد **تلمسان**، حيث ولد بها حوالي منتصف القرن السابع، وإنَّ جلَّ مترجميه لم يتعرضوا لنشأته أو مشيخته على وفرة عددهم، وهم الرَّحالة العبدري، و**لسان الدين بن الخطيب السَّلماني**، و**عبد الرحمن بن خلدون**، وأخوه يحيى، وأحمد المقري، وابن القاضي في: (**درَّة الحجال**)، و**أحمد بن القاضي**، المشهور بـ : **ابن قنفذ القسنطيني**، و**السيوطي** في: (**بغية الوعاة**)، و**ابن مريم** في: (**البستان**)، والشريف الغرناطي في تأليفه: (**رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة**)، ومن المتأخِّرين المعاصرين الأستاذ **عبد الوهاب بن منصور** مؤرِّخ المملكة المغربية، والأستاذ **عبد السلام بن مزيان التلمساني** في دراسته ـ بالفرنسية ـ التي قدَّمها بمؤتمر المستشرقين المنعقد في تلمسان سنة 1936.

وقد كانت دراسة الأستاذ **عبد الوهاب بن منصور** المسماة: (**المنتخب النفيس من**

شعر ابن خميس) جمعَ فيها صاحبها ما تفرَّق في غيرها مِن تراجم القدامى، وحاول شرح **(رسالة ابن خميس)** التي نشرها **لسان الدين بن الخطيب** في تأليفه: **(الإحاطة في أخبار غرناطة)**، ولكن غفل **لسان الدين** عن التعريف بالرِّسالة عمدا أو نسيانا، فلم يذكر عنها شيئا، بل غفل حتى عَن ذكر مَن وُجِّهت إليه، وكان نفس الموقف لأحمد المقري الذي أشار لهذه الرِّسالة المنشورة في **(الإحاطة)**.

ولهذا كانت محاولات من أرادوا شرح الرسالة المذكورة لم تجاوز حل وشرح ألفاظها اللغوية، وإن وجدنا الأستاذ **ابن منصور** يعترف بعجزه حيث ارتطم بالغموض الذي كان يكتنف الرسالة، ويقدم الاعتذار فالأستاذ **عبد السَّلام مزيان** رجع إلى التكهن والخيال فارتكب أغلاطا فادحة تأباها النزاهة العلمية كان هذا هو الوضع بالنسبة إلى **ابن خميس** أي بقي الغموض على أصله إلى سنة 1365هـ عندما نشر الأستاذ **ابن منصور**: **(المنتخب النفيس من شعر ابن خميس)** بالمطبعة الخلدونية في تلمسان سنة 1365هـ.

ومنذ خمس سنوات اكتشف أثر من أهم آثار **ابن خميس**، وهذا الأثر هو رسالة ثانية ـ الرسالة الأولى هي التي نشرها **لسان الدين** في **(الإحاطة)**، و**عبد الوهاب بن منصور** في: **(المنتخب النفيس)** ـ كتبها **ابن خميس** بخطه سنة 682هـ أي قبل وفاته بنحو 26 سنة وموضوعها نفس موضوع الرسالة الأولى، وكتبتا في وقت واحد، إلا أن الأولى ولو لم يعرفها **لسان الدِّين** ولا مَن بعده كـ : **أحمد المقري** إلا أنها حظيت بشرح قيم لمعاصر **ابن خميس** قاضي **تلمسان** الإمام **ابن هدية القرشي**، وقد ذكر هذا الشرح المسمَّى: **(العِلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس)** **أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي** في ترجمة ابن هدية القرشي في تأليفه الذي سماه: **(كتاب المرقبة العليا فيمن يستحقُّ القضاء والفتيا)** الذي حقَّقه ونشره المستشرق **ليفي بروفنصال** (أستاذ اللغة والحضارة العربية

بالسُّوربون، ومدير معهد الدراسات الإسلامية بجامعة باريس)، طبع دار الكاتب المصري، القاهرة، سنة 1948م.

وترجمة **النباهي لم** توضِّح موضوع الرسالة، إذ اقتصر فيه على وصف ابن هدية بقوله: «... إنه ذو حظ وافر من علم العربية واللغة والتاريخ، شرح رسالة **محمد بن عمر بن خميس الحجري** الذي استفتح أولها بقوله:

عجبا لها أيذوق طعـم وصـالها ... من لـيس يأمـل أن يمـر ببالهـا

وأنـا الفقـير إلى تعِلَّـة سـاعة ... منهـا وتمنعنـي زكـاة جمالهـا

إلى آخر الرِّسالة مِن نظمٍ ونثر شَرحاً حسنا، أتى فيه مِن فنون العلم وضروب الأدب بما دلَّ على براعته... الخ » اهـ.

كان هذا الشرح في حكم المفقود، إذ لم يذكره فيما وصلنا من تراجم مترجمي **ابن خميس**، ونفس مترجمي **ابن هدية** إلا النباهي المذكور، وقد اكتشفَ بإحدى خزائن بيوتات العلم بِنواحي بجاية، كما اكتشِفَت نسخة ـ أظنُّها... إذ هي مبتورة تنقص منها الصَّفحات الناقصة مِن النُّسخة البِجائية ـ ببقايا خزانة علمية شهيرة بمدينة قسنطينة، وإن هذا الشرح المبتور: **(العِلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس)** لابن هدية القرشي، والرِّسالة الثانية التي اكتشِفت منذ خمس سنوات، وقد كتبها ابن خميس بخطِّه سنة 682هـ ـ أي: قبل وفاته بستٍّ وعشرين سنة ـ أزالتا الغموضَ الذي اكتنفَ حياة ابن خميس قرونا، ولهذا سنحاول في هذه الدراسة أن نوضِّح بعض الجوانب من حياته بإيجاز إذ مجال هذه الدراسة محدودة، كان **ابن خميس** عندما لقيه الرحالة **العبدري** تحت مراقبة شديدة مِن خصومه الأقوياء، الذين كان في طليعتهم قاضي تلمسان ورئيس وزرائها ابن هدية القرشي، الذي كان بحكم مناصبه في البلاط الزياني حاكما بأمره، يقول **النباهي** في ترجمته: «كان أثيرا لدى سلطانه، قلَّده كتابة سرِّه، وأنزله مِن خواصِّه

فوق منزلة وزرائه، فصار يشاوره في تدبير ملكه ، فقلَّما كان يُجري شيئا مِن أمور السلطة إلا عَن مشورته، وبعد استطلاع نظره... الخ».

وزيادة على مكانة **ابن هدية** عند الملك فقد كان يتمتع بنفوذ أدبي، مرجعه إلى أنه سليل الفاتح **عقبة بن نافع الفهري،** وقد اتهم **ابن خميس** بالكفر والزندقة، حيث مثَلَ أمام محكمة خاصَّة بمدينة **فاس،** وأصدرت حكمها عليه، ولم ينجِه مِن تنفيذ حكم الإعدام عليه إلا فِراره مِن مدينة فاس، وهذا جانب من الغموض الذي كان يكتنف شخصيته بتلمسان، لم يفارقه إلى أن فارق تلمسان إلى سبتة ثم غرناطة حيث قتل ـ قيل: لأسباب سياسية ـ سنة 708هـ.

اتُّهِم **ابن خميس** «بأنه يتفلسف ويحيد عن الشَّرع عِلما وعملا وينحرف »، وهذه التهمة سجلها عليه ابن هدية القرشي، والفلسفة عند ابن هدية القرشي كفر صريح، وفي ذلك يقول: «... والفلسفة عند أهل السنة وكافة الأشعرية عبارة عن الزندقة البحتة والضلالة المحضة والكفر الواضح، الناشئ عن مطلق الخلاف الواضح...»، إلى أن يقول بعد ما بيَّن مذاهبها وأساطينها: «... فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميِّين، كـ: **ابن سينا،** و**الفارابي،** وغيرهما مِن المهتدين بهديهم، المقتدين برأيهم، عليهم لعنة الله أجمعين... الخ».

وقد صادفت محاكمة **ابن خميس** بمدينة **فاس** وجود ابن هدية القرشي بمدينة فاس، دعته شؤونه الخاصة وفي هذه المحاكمة قال **ابن هدية:** «... فاتفق أن اجتمع في بعض محافلها الحافلة ومجالسها العامرة بأهل الفضل الآهلة بطائفة من حذاق الأشعرية وجماعة من الفقهاء المالكية كالشريف أبي البركات وغيره من فقهاء ذلك القطر ففتحوا باب المذاكرة، وسلكوا سبيل المناظرة، وتفننوا في الكلام إلى أن أخذوا في علم الكلام، استدراجا لابن خميس، واستخراجا لخب مذهبه الفلسفي الخسيس... الخ».

وقد وقف **ابن خميس** موقف الأبطال حيث دافع عن آرائه وأفحم خصومه بحجج قاطعة حتى لم يبق في المناظرة إلا خصمه الذي نصب له الكمين بحكم مركزه السياسي، وفي ذلك قال **ابن هدية**: «فلم يلبث أن فاوضهم فيما عنده، وكشف لهم معتقده، فانبرى له **الشريف أبو البركات** معارضا، ولمذهبه السيىء مناقضا، وكثر القول منهما، وتخلى القوم عنهما ـ يعني بالقوم حذاق الأشعرية وجماعة من الفقهاء المالكية الذين حضروا للمناظرة ـ فامتدَّ مجال الجدال بينهما فلم يكن بأسرع من أن خاس **ابن خميس**، وخاست الفلسفة وسكت مدحوض الحجة، فلم ينطق ببنت شفة، ثم نظر في القول الصادر منه وما ينشأ من الحكم الشرعي عنه وخاف بوادر الحكام فادَّرع جِلباب الظلام، وفرَّ فرار الآبِق، ولم يلو على مرافق ولا موافق، ولم يلق عصا تسياره إلا بتلمسان داره ...» اهـ.

فتبيَّن أن سكوت **ابن خميس** لم يتسبَّب عن إفحام خصومه أو أنَّه «سكت مدحوض الحجة »، بل فطن للكمين الذي نصِّب له، وأن خصومه، وعلى رأسهم **الشريف أبو البركات**، كان يستدرجه لتسجيله في (**دفتر الزَّنادقة**) الذين تهدر دماؤهم لخبر يطول، وعند رجوعه إلى تلمسان كتب الرِّسالتَين، الأولى لمشرف فاس **أبي الفضل محمد بن يحيى بن عتيق العبدري**، وهذه هي الرِّسالة التي نشرها لسان الدين بن الخطيب في: (**الإحاطة**) ونقلها الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في دراسته: (**المنتخب النفيس من شعر ابن خميس**) وحاول شرحه وارتطَم باللُّغز الذي ذكرناه، وهي التي حظيت بشرح **ابن هدية القرشي** الذي لم يخف في مقدِّمة شرحه، أنه أُجبِرَ على هذا الشَّرح مِن مَلِكه، ولهذا اقتصر على شَرحه اللغوي عَن مَضضٍ كان يُظهِره طولَ شَرحه، ولم يمنعه تعهُّده والتزامه بالاقتصار على الناحية اللغوية، مِن نَبز **ابن خميس** وإظهار سخَطِه عليه، واحتِقاره وإهانته، من ذلك أن الداعي إلى إنشاء رسالته الدِّعاية لمبادئه الضالة، وفي ذلك يقول: «... فأنت ترى ما في كلام **ابن خميس** هذا مِن القُحَّة والجرأة على مُعاطاة

الرفعة التي ناطته بمناط الخمول والضعة... »، إلى أن قال: «... ليت شعري بمَ يُهيمِن، وبحقوق مَن اعتصم، حين صرَّح بخبث خلقه، ونطق بسجية خرقه، فلقد أمر أمره، وطال وعرض فخره، فوا عجبا كيف ركب ذلك اللُّكع الهلباجة في تلك الأساليب هجاجه، ماشيا فيها رويدا، آمنا من أن يصادف في مضلات سبابها كيدا، مع ما يعرف من أن معاناة معاني معارف الزندقة قطع السن، وأن أديمه في هجير الهجر استشن، إنا لله عز وجل الوازع، وقلَّ الجازع، على أنه تقدم له من السقط، ما يعد هذا النمط، إذ كل ما أسس من رسالته وبنى، فإنما هذا المعنى ـ إن تأملته ـ عنى، اللهم إلا خبط عشواء، إذ ركب عمياء... الخ».

نقتصر على هذه الفقرات واللقطات التي بينا فيها ما جد واكتُشِف من جوانب حياة شخصية علمية لفتت الأنظار، واهتم بها الباحثون القدامى والمتأخرون، رغم ما كان يكتنفها من غموض، وتعد الرسالة الثانية التي لا شك أنها كتبت في وقت واحد مع الرسالة الأولى بعد رجوع **ابن خميس** من محاكمة فاس وقبل اتصاله وتعرفه بالعبدري الذي لا شك أنه كان يجهل عقيدته، وإن عرفت الرسالة الأولى، فإن الثانية كانت مجهولة، وبقيت كذلك، إذ هي تختلف عن الأولى، فقد أرسلها إلى صديقه قاضي فاس إذ ذاك أبو **غالب المغيلي** ـ الذي خلفه بعد عزله من قضاء مدينة **فاس** الفقيه المشهور **أبو الحسن الزرويلي** المتحدَّث عنه في أول هذه الدراسة ـ.

و**أبو غالب المغيلي** ـ على ما يظهر ـ كان صديق فكرة لـ : **ابن خميس**، إلا أنه كان أكثر منه احتياطا وكتمانا لآرائه الفلسفية، وهذا مِن الأسباب التي جعلته يحتفظ برسالة **ابن خميس** بخزانته، ولم يبدِها لأحد، اللهم إلا ما وَجدنا من تعليق ولدِه عليها، من أن **ابن خميس** أرسلها إلى والده بعد رجوعه من فاس إلى تلمسان سنة 682هـ

ونفس ابن هدية القرشي عندما ذكر المناظرة التي حضرها ابن خميس بفاس لم

يتحقَّق تاريخ وقوعها بالضبط حيث نجده يقول في شرحه: «وبسببه وقعت **مخاطبة أبي عبد الله ابن خميس أبا الفضل بن عتيق** بهذه الرسالة **إذ** كان أبو البركات هذا هو متولي مناظرته حال حلوله بمدينة **فاس** واجتيازه بها وأحسب **ذلك** في سنة ما بين الثمانين والتسعين وستمائة أو قبلها بيسير الله أعلم بمدينة فاس كنت أنا قاطنا إذ ذاك مع والدي (رحمه الله تعالى) لسبب أوجب مفارقة الوطن يطول ذكره... الخ» اهـ.

هذه الخطوط العريضة التي استفدناها من شرح ابن هدية القرشي (**العِلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس**)، والرسالة الثانية المكتوبة بخطِّ **ابن خميس** ولم يشر إليها أحد حتى **ابن هدية** المعاصر والمتتبِّع لحركاتِ وسكنات عدوِّه اللَّدود، وهي تلقي أضواء على حياة **ابن خميس،** وتزيل التَّناقض الموجود عند مُترجميه الذين كان بعضهم يصفه بالضَّعة والخمول والشَّعوذة والسِّحر وما إلى ذلك، وبعضهم الآخر ـ وهم الأكثرية ـ يصِفونه بالعبقرية وسَعة المعارف وسموِّ الهِمَّة، مع اتفاق جميعهم على أنَّ نشأته وحياته في بلاده كانت حياة خمول ومسكنة وانزواء، وفي ذلك يقول صاحب (**المنتخب النفيس**): «ويغلب على الظن أن أسرة **ابن خميس** أسرة خاملة غير نابهة، وأنه نشأ في وسط فقير بئيس لا يمتُّ إلى العلم والمال بسبب، وما ظنُّك ببيئة رجلٍ كان يأوي إلى الفنادق، وينام على سلائم الضأن، وأجمع مَن كتبوا عنه على وصفه بالتقلُّل والانزواء والتجرُّد والعزلة... الخ» اهـ

فلنكتفِ بهذا الموجز من بيان ما انبهَم من حياة مترجمنا الذي غادر **تلمسان** كما غادر قبلها **فاس** خائفا يترقَّب إلى أن ختم به المطاف بمدينة **غرناطة،** حيث توفَّرت لدَيه إمكانيات حياة البذخ والتَّرف والقصور، ولم تنسِه حياته هذه **تلمسان،** فكان يتشوَّق إليها، ولهذا نَختم بإحدى قصائده التي بثَّ فيها نجواه، وذكر معالمها واحدة واحدة، وهي هذه:

تلمسان جادتك السحاب الدوالح وأرست بواديك الرياح اللواقح

وسحَّ على ساحات باب جيادها ملث يصافي تربها ويصافح

يطير فؤادي كلَّما لاح لامع وينهل دمعي كلَّما ناح صادح

ففي كل شفر من جفوني مائع وفي كلِّ شطر مِن فؤادي قادح

فما الماء إلا ما تسحُّ مدامعي وما النار إلا ما تجن الجوانح

خليليَّ لا طيف لعلوة طارق بليل ولا وجه لصبحي لائح

نظرت فلا نور من الصبح ظاهر لعيني ولا نجم إلى الغرب جانح

لساقية الرومي عندي مزيَّة وإن رغمت تلك الروابي الرواشح

فكم لي عليها من غدوٍّ ورَوحة تساعدني فيها المنى والمنائح

فطرفٌ على تلك البساتين سارح وطرفٌ إلى تلك الميادين جامح

تحار بها الأذهان وهي ثواقب وتهفو بها الأفكار وهي بوارح

ظباء مغانيها عواط عواطف وطير مجانيها شواد صوادح

وتقتلهم فيها عيون نواظر وتبكيهم منها عيون نواضح

على قرية العبَّاد منِّي تحيَّة كما فاح من مسك اللطيمة فائح

وجاد ثرى تاج المعارف ديمة تغصُّ بها تلك الرُّبى والأباطح

إليك **شعيب بن الحسين** قلوبنا نوازع لكنَّ الجسوم نوازح

سعيت فما قصَّرتَ عن نيل غاية فسعيك مشكور وتَجرُك رابح

وإن أنس لا أنس الوريط ووقفة أنافح فيها روضة وأفاوح

مطلا على ذاك الغدير وقد بدت لإنسان عيني مِن صفاه صفائح

أَماؤك أم عيني عشية صدقت علية فينا ما يقول الكاشح

لئن كنت ملآنا بدمعي طافحا فإنِّي سكران بحبِّك طافح

وإن كان مهري في تلاعك سائحا فذاك غزالي في عبابك سابح
فراح غدا ينصبُّ من فوق شاهق بمثل حلاه تستحثُّ القرائح
أرقُّ مِن الشوق الذي أنا كاتم وأصفى من الدمع الذي أنا سافح
أما وهوى مَن لا أسمِّيه إنَّني لعرضي كما قال النصيح لناصح
أبعد صيامي واعتكافي وخلوتي يقال فلان ضيِّق الصَّدر بائح
لبعث رشادي فيه بالغبن ضلَّة وكم صالح مثلي غدا وهو طالح
وأي مقام ليس لي فيه حاسد وأي مقام ليس لي فيه مادح
ألا قل لفرسان البلاغة أسرجوا فقد جاءكم منِّي المكافي المكافح
أيخمل ذكري عندهم وهو نابهٌ ويغمط شجوي عندهم وهو شائح
بدورٌ إذا جنَّ الظلام كوامل وأسدٌ إذا لاح الصَّباح كوالح
تركتُ سوق البز لا عَن تهاون وكيف وظبيٌ سائحٌ فيك سارح
وإني وقلبي في ولائك طامعٌ وناظر وهمي في سماطك طامح
أيا أهل ودِّي والمشير مؤمّن أتقضى ديوني أم غريمي فالح
وهل ذلك الظبي النصاحي للذي يقطِّع مِن قلبي بعَينيه ناصح
كنيتُ عنه حياءً وحِشمةً ووجهُ اعتذاري في القضية واضح

هذا، وإنني لم أنجز ما وعدتُ به من إلحاق ترجمة **أحمد المقري** في هذه الدِّراسة، فسأخصِّصها بدراسة أخرى، ولربما أضيف إليها شخصية علمية أخرى لا وجود لذكرها في كتب التراجم، وهي شخصية **محمَّد بن للو الأندلسي** الأصل، التلمساني الولادة والنشأة، كان من علماء القرن الثاني عشر الهجري.

(1)

أهم الاحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ
ونبذ مجهولة من تراجم بعض اعلامها

للمؤرخ الجزائري المهدي البوعبدلي

إن موضوع دراستنا هذه ينقسم الى قسمين:
القسم الاول نتحدث فيه عن ابرز الاحداث والخلافات
الفكرية بتلمسان حيث انها كعاصمة علمية
لعبت ادوارا لها وزنها وتأثيرها في الميدان
العقائدي، داخل البلاد وخارجها عدة قرون

أما القسم الثاني، فانه يشمل الحديث عن جوانب
مجهولة من تاريخ حياة بعض اعلام تلمسان الذين
لازالوا محل عناية الباحثين والمؤرخين، كما لا
زالت البحوث مبذولة، لكشف ما يكتنف حياتهم
من غموض ومن هؤلاء الفيلسوف الشاعر
أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني المتوفى بغرناطة
سنة 708 قتيلا

صورة عن الصَّفحة الأولى مِن النُّسخة المعتمدة

مساهمة بجاية الحمادية
في الحضارة والفكر الإسلاميَين والعالميَين
وأسباب وآثار انحطاطها[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن التاريخ الحضاري لبجاية الحمادية مرتبط ومتصل بنشأة الدولة الفاطمية في الجزائر، إذ دعائم الحضارة التي ارتكزت عليها الدولة الفاطمية كان لها امتداد لكامل بلاد المغرب العربي بعد انتقال الدولة الفاطمية إلى القاهرة وتعيين بلقين بن زيري لخلافتهما.

لا يمكن للباحث أن يفرق بين التاريخ الحضاري للدول الفاطمية بالجزائر قبل القطيعة ـ التي وقعت حوالي منتصف القرن الخامس ـ بينها وبين الدولة بني زيري التي انقسمت بدورها في تلك المدة إلى قسمين: دولة بني زيري التي كانت تطلق على جمهورية تونس الحالية وكانت قاعدتها مدينة القيروان، ودولة بني حماد التي كانت قاعدتها قلعة بني حماد ثم انتقلت إلى بجاية.

كما يمكن أن يفرق بين هاتين الدولتين مدة بقائها ـ نحو القرنين ـ إلى إن أطاح الزمان بهما ولفظتا أنفسهما الواحدة بعد الأخرى عندما اجتاحتهما دولة الموحدين

---

(1) ألقيت هذه المحاضرة في ملتقى التَّعريف بالفكر الإسلامي الثامن، المنعقد بمدينة بجاية سنة 1394هـ/ 1974م، انظر: ملتقى الفكر الإسلامي (3/ 1363 ـ 1384)، منشورات وزارة الشُّؤون الدِّينية (الجزائر). (ع)

حوالي منتصف القرن السادس، كانت بلاد المغرب العربي عند ظهور الدولة الفاطمية تتقاسمها عدو دول وإمارات فجمهورية تونس الحالية والقطاع الشرقي من ولاية قسنطينة، كانت تسيطر عليها الدولة الأغلبية الممثلة للخلافة العباسية، وكانت قاعدتها المركزية مدينة القيروان، والقاعدة الثانية مدين طبنة [1] الأثرية بالزاب الجزائري.

وكان المغرب الأقصى وولاية تلمسان تحت حكم الدولة الأدارسة، كما كانت الدولة الرستمية بتيارت وإمارة مغراوة وبني يفرن تحكمان وسط البلاد وشماله، وكانت قاعدة إمارة مغراوة بني اريفيان [2] بشلف وقاعدة بني يفرن[3] إذا كان قرب معسكر.

كان لظهور الدولة الفاطمية بالشرق الجزائر في أواخر القرن الثالث داوي، رددت صداه جميع الأمم وارتاعت له بالخصوص الخلافة العباسية ببغداد ودولة بني أمية بالأندلس.

لم يمضي ربع قرن على ظهور الدولة الفاطمية حتى اكتسحت الدولة الأغلبية، ومحت وجودها من خريطة المغرب العربي للأبد، وركزت على أنقاضها الناشئة، ثم ألقتها بالدولة الرستمية الإباضية، فبددتها وألزمت بقاياها بالهجرة إلى تخوم الصحراء حيث حافظو على مذهبهم، ثم واصلت زحفها فقضت على إمارتي بني يفرن ومغراوة ودولة الأدارسة بتلمسان، ثم واصلت مسيرتها إلى مدينة فاس العاصمة المركزية ولدولة الأدارسة فاحتلتها.

---

(1) **طبنة**: مدينة أثرية من عهد الرومان ذكر الراحلون أنها كانت أعظم مدينة بين القيروان وسجلماسة وبها كان مقر كسيلة واتخذها إبراهيم بن اغلب مقر لولايته وبعد أن عينه الرشيد عاملا على المغرب انتقل إلى القيروان قد اندثرت ولم يبقى إلا بعض آثارها الرومانية.

(2) **بني واريفيان**: محطة بين مليانة وتنس وموقعها بالضبط حيت ملتقى وادي الشلف بواد الفضة.

(3) **أفكان**: لازال اسمها يطلق على مدينة بقربها تسمى عين أفكان، وبنو يفرن هم كمغراوة وبقربهم المغراوة ينتمون إلى زناتة.

كانت الدولة الفاطمية منذ ظهورها تعتمد على عدة قبائل جزائرية، في طليعتها قبيلة كتامة التي كانت لبجاية في منطقتها، ثم انضمت إلى كتامة قبائل أخرى من أهمها وأخطرها قبيلة صنهاجة[1] التي كان يرأسها مناد بن منقوس البلكاني الصنهاجي [2] من عهد الدولة الأغلبية وخلفه ولده زيري بن مناد ـ الذي كان يشن الغارات على قبيلة مغراوة ـ فلفت نظر الفاطميين، واتصل بالملك القائم بأمر الله فساعده على تأسيس حصن، وكانوا المؤسسين الأولين لمدينة تلمسان وظهر من رؤسائهم محمد ابن يعلي اليفرني مؤسِّس أفكان وقتله جوهر الصقلي إذا كان مواليا لملوك الأندلس من بني أمية القبيلة الخالد بالجبل الأخضر الذي اشتهر بمدينة أشير، وعندما ترى أبو يزيد مخلد بن كيداد المشهور بالخارجي وبصاحب الحمار على الفاطميين، واشتد خطره على الملك القائم بأمر الله الذي غادر عاصمة المملكة المركزية ـ القيروان ـ وتحصن بالمهدية حيث اتَّبعه أبو يزيد وحاصره فيها، كان أبو يزيد، بمجرد احتلاله للقيروان لا يشك في النصر النهائي، ولهذا درب فيها دينارا ذهبيا رمزا للفتح ولتكوين وأحياء الدولة الرُّستمية التي كان شعارها: «لا حكم إلا لله »، وقد سجَّل أبو يزيد هذا الشعار على الدينار المذكور، كما بلغ اليأس ـ من جهة أخرى ـ بالقائم بأمر الله الذي كان يتوقع الهزيمة وينتظر بصبر وثبات أجلها المحتوم.

وحين إذا ظهر في الأفق البطل الصَّنهاجي زيري بن مناد فقلب أوضاع المعارك، حيث انتهت ثورة أبي يزيد بهزيمته سنة 336هـ بسفح جبل كيانة، ذلك الجبل الذي أسس فيه حمادة بن بلقين حصنا ثانيا عزَّز به حصن أشير مدة حروبه مع زناتة وصار

---

(1) **صنهاجة** التي قال ابن خلدون إنها تمثِّل ثلث البربر بالمغرب العربي، وقسَّمهم مؤرِّخهم أبو الفضل ابن النحوي القلعي إلى 72 فرقة.

(2) **بلكانة**: فرقة صنهاجة التي ينتسب إليها زيري بن مناد، وهناك من ينطق بها: تلكانة، والمؤرِّخ أبو راس في مخطوطاته ينطق بها: بلكانة، ومعظم المستشرقين ينطقون بها: تلكانة.

قلعة بني حماد، العاصمة الأولى لدولة بني حمادة بعدما انقسمت دولة بني زيري إلى قسمين في عهد الملك المعز بن باديس الذي قطع جميع صلات دولته بالدَّولة المركزية الفاطمية وتخليص من التَّبعية الثَّقيلة التي التزم بها جدُّه بلقين للدولة الفاطمية خصوصا في الميدان الرُّوحي.

كانت القلعة في أول عهدها كما وصفها ياقوت في (**معجم البلدان**) بعد إن شبهها بقلعة أنطاكية، وقال: «وليس لهذه القلعة منضر ولا رواء حسن، أنما اختطها حماد للتحصُّن والامتناع»، وعندما اتخذها حماد عاصمة مملكته، صادفت سقوط مدينة القيروان، فاستحالت إلى قاعدة علمية واقتصادية، إذ جل سكان القيروان انتقلوا إليها، وقد أشار البكري إلى مركزها الاقتصادي إذ ذاك فقال: «قلعة كبيرة ذات منعة وحصان وتمصرت عند خراب القيروان، انتقل إليها أكثر أهل أفريقية، وهي اليوم مقصد التجار، و بها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب، وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة».

وقد أجمع جل الرحالين الذين وصفوا حالة البلاد إذ ذاك خصوصا نواحي القلعة ـ التي هي الآن قاحلة ومعظم أرضيها لا تصلح إلا للرعي ـ فوصفوها بالخصب والرفاهية والازدهار، ومن هؤلاء الرحالين ابن حوقل والمقدسي واليعقوبي، فذكروا أنها كانت تنتج أحسن أنواع القطن والزعفران، وجميع أصناف الفواكه، علاوة على تربية المواشي ودود الحرير، كانت قنوات الري التي تركها الرومان مستعملة بطبنة ومجانة ونقاوس، هذا كله علاوة على الاتصالات التجارية التي كانت تربط بأقطار العالم برا وبحرا.

كان من جملة أسباب ازدهار البلاد إذ ذاك في ميادين الاقتصاد ما ذكره صاحب كتاب (**الإسلام في عظمته الأولى**) الذي طبع منذ خمس سنوات فقال: «إن العمود الفقري للاقتصاد العالمي كانت تحتكره روما وبعد سقوطها بقي الفراغ إلى ظهور

الإسلام، فورثه المشرق ثم تقتَسِمه معه البلاد الإفريقية بعد فتحها واكتشاف منابع الذَّهب التي بسببها انهالت قوافل تجَّار الدُّنيا على القيروان، وبعد سقوطها خلفتها قلعة بني حماد، ثم ظهرت حملة بني هلال فاشتدَّ ضغطها على القلعة، فحينئذ فكَّر ملكها النَّاصر بن علناس الحمادي في إنشاء مدينة ثانية يتحصَّن فيها إن دعاه الحال إلى مغادرة القلعة المهدَّدة، فكانت مدينة بجاية التي بناها الملك الناصر المذكور حوالي سنة 460هـ، وقد استرجعت مكانة القلعة الاقتصادية وصارت مِن أهمِّ المراكز الاقتصادية والثَّقافية، وقد وصف مكانتها الاقتصادية الشَّريف الإدريسي الذي كان أكثر أهل زمانه خبرة في الميدان الاقتصادي العالي، فقال: «ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط، وعين بلاد بني حماد، والسُّفن بها مقلعة والقوافل منحطَّة، والأمتعة إليها برًّا وبحرا مجلوبة، والبضائع بها نافِقة، وأهلها مياسير تجار، وبها مِن الصِّناعات والصنَّاع ما ليس بكثير مِن البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصَّحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود، وتباع البضائع بالأموال المقنطرة».

ودولة بني حماد وإن كان مؤسِّسها حماد وولده ـ ولي عهد القادة ابن حماد ـ التزاما بعد حروب طاحنة دامت سنوات بينهم وبين دولة بني عمِّهم التزاما لبني زيري ملوك القيروان بالتَّبعية والولاء، ولكن ظهور بني هلال ومُضايقتهم لبني زيري غيَّر الأوضاع، فصارت دولة بني زيري هي التَّابعة لدولة بني حماد التي تقدَّمت عليها في جميع الميادين، وتولَّت في مدَّة قليلة على ثلاثة أرباع مملكتها إلى أن التجأ إليها آخر ملوكها عندما سقطت المهدية ـ آخر معتقل دولة بني زيري ـ فآواه ملك بجاية الحمادي، وأسكنه عاصمة الجزائر.

فارقت دولة بني زيري مجدها بعد وفاة الملك المعز بن باديس، إذ بمجرَّد تولِّي الملك الناصر الحمادي خلعَت تونس بيعة تميم ابن المعز وبايعت الناصر، وفي ذلك قال ابن خلدون في معرض حديثه عَن دولة بني حماد: «وفي أيام الناصر كان استِفحال ملكهم

وتفوُّقه على ملك بني باديس إخوانهم بالمهدية »، ثمَّ ذكر أن الحروب كانت بينهما ـ أي الناصر وتميم ـ متواصلة مدَّة سنوات، « وقد ختمت بصلح زوَّج أثناءه تميم بنته بلارة إلى الناصر... »، ثم أشاد ابن خلدون بالناصر الذي كان أمثل وأقدر ملوك الأسرة، وأمكنه أن يجمع كلمة الأمراء الذين كانوا يدينون له بالطَّاعة والولاء والامتِثال، فلهذا تفرَّغ لردِّ العدوان الذي كان يهدِّد الدَّولة، حيث كان يتنازعها بنو هلال مِن جهة، وملك صقلية المسيحي مِن جِهة أخرى، ثمَّ ظهر في الأفق الملك يوسف بن تاشفين ـ لخبر يطول ـ فاحتلَّ مدينة الجزائر، ثم واصل هجوماته إلى أن احتلَّ أشير، فعندئذ تصدَّى له المنصور ابن الناصر فردَّ هجوماته، وألزمه الانسِحاب، ثمَّ لحقه، وكانت المعركة الحاسِمة بينهما في سفح جبل تاسالة ـ بين تلمسان ووهران ـ فهزم جيش يوسف بن تاشفين، وذلك سنة 476هـ، ودخل المنصور عنوة إلى تلمسان « فعاثت عساكر المنصور في تلمسان »ـ حسب تعبير ابن خلدون ـ ولما شرعَ الجيشُ الحمادي في نهبِ مدينة تلمسان خرجت إليهم زوجة الوالي الَّلمتوني تاشفين بن محمد تينمير فتقدَّمت إلى المنصور، وذكَّرته بأواصر القُربى، إذ كلُّهم مِن صنهاجة، فعفا المنصور الحمادي، وأمر جنودَه بمغادرة المدينة، وقد سبق هذه الغزاة أيضا غزوة ملك بجاية الحمادي بلقين بن محمد بن حماد الذي خلفه الناصر بن علناس، فوصل إلى فاس واحتلَّها، ليبيِّن ليوسف بن تاشفين أنه في استِطاعته احتلال مملكته، وإنما تأخَّر لئلَّا يتَّهم أنه عرقله أو ضربه مِن خلف، وهو مشتغلٌ بإنقاذ بلاد الأندلس، وقد قتل بلقين هذا بعد رجوعه مِن غزو فاس الناصر ابن علناس لخلافٍ شخصي عائلي بينهما ثمَّ خلفه ـ لخبر يطول ـ.

وقد ذكر **ابن خلدون** أيضا أسباب تدهور وضعف دولة بني زيري المركزية فتنة العرب الهلاليين إذ قال: «فاضطرب عليهم ـ أي بني زيري ـ أمرهم، وكثر الثوار عليهم والمنازعون مِن أهل دولتهم، فاعتزل حماد هؤلاء أيام الناصر هذا، وعظم شأن أيامهم، فبنى المباني العجيبة المؤنقة، وشيَّد المدُن العظيمة، وردَّد الغزو إلى المغرب

وتوغَّل فيهم، ثمَّ هلك سنة 481هـ... الخ».

ثمَّ انتقل **ابن خلدون** إلى ذكر ولده المنصور فقال: «اتخذ بجاية معقلا، وصيَّرها دارا لملكه، وجدَّد قصورها، وشيَّد جامعها » إلى أن قال: «وهو الذي حضر ملك بني حماد، وتأنق في اختطاط المباني، وتشيد المصانع، واتخاذ القصور، وجراء المياه في الرياض والبساتين، فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكواكب وقصر الشَّام، وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر اميمون... الخ».

هذه فقرات ذكرتها كمدخل لموضوع الدراسة التي هي كما يدل عليها عنوانها: **(مساهمة بجاية الحمادية في الحضارة والفكر الإسلاميَين العالميَين)**.

ساهمت بجاية الحمادية في الحضارة والفكر الإسلاميين والعالميين مِن معالمها، سواء في ميدان الفنون المعمارية، أو الميادين الثقافية والروحية، ففي الميدان الثقافي والرُّوحي نجد زيادة على نخبة علماء القيروان والقلعة ثمَّ صقلية الإسلامية بعد سقوطها، نخبة أخرى تمثَّل صفوة علماء الأندلس الذين التجئوا إلى بجاية إثر انحلال الدولة الأموية وما أعقبها من سقوط بعض العواصم العلمية بالأندلس، أو تعرضها للسقوط، فكان من نتائج هذه الهجرة إن استحالت بجاية إلى مركز ثقافي ممتاز، امتزجت فيه الثقافة الإفريقية بالثقافة الأندلسية، وكان الجامع الأعظم ببجاية هو ينبوع هذه المعارف، والجامع الأعظم ببجاية هو الذي كان محط حلقات دروس ومجالس الفتوى لفطاحل العلماء الواردين على بجاية من داخل البلاد وخارجها، وقد كان من بينهم الإمام الشهير **أبو علي المسيلي** المشهور بـ: **أبي حامد الغزالي الصغير**، كان المسيلي عالم بجاية ومفتيها ودفينها الأواه، الذي قال فيما حكاه عنه صاحب: **(عنوان الدراية)**: «أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيا ما منهم من لا يعرف أبا علي الحسن بن علي المسيلي مَن يكون »، ثم علَّق على **الغبريني** على قوله هذا فقال: «وإذا كان من المفتين تسعون، فكم يكون من المحدثين ومن النُّحاة والأدباء وغيرهم ممن تقدَّم عصرهم ممن لم يدركه »، ثم

أجاب **الغبريني** على السؤال الذي طرحه بقوله: «كان الناس على اجتهاد، وكان الأمراء لأهل العلم على ما يليق ويراد».

وحقيقة إن العلماء الواردين على بجاية إذ ذاك سواء الأندلسيِّين أو غيرهم، كانوا يلقون التأييد والتَّشجيع من ملوكها، فيمكنونهم من جميع مرافق الحياة ويولونهم أعلى المراتب، كما يجدون في الوسط البجائي التمتع بحرية الفكر المثالية، التي امتازت بها بجاية في العهد الحمادي، حيث اشتهر بني حماد بالاستقامة والتَّواضع، فلم يتجاسر واحد منهم على انتِحال ألقاب الخلافة أو إِمارة المؤمنين »، وذلك من عهد مؤسِّس الدولة الأول بلقين بن زيري، وقد خص بلقين من بين ملوك الدنيا، أنه لما تولىَّ خلافة الفاطميين وأورثوه فيما ورثه عنهم، قصور رقادة والقيروان والمهدية تلك القصور التي تفنُّن في تشييدها ملوك الأغالبة، ثم الفاطميين من بعدهم وتبارى في وصفها والإشادة بىناتها الشُّعراء والأدباء، فلم تستَهوه ولم يستبدل بها حصن الأسرة البسيط الحربي الذي أسَّسه والده بأشير، فأقام فيه مدة بقائه في الحكم ولم يفارقه إلا عندما كان يواصل حروبه، فلم يغادر أشير للاستجمام والراحة بل إلى مواصلة الحروب التي قضى فيها خمس سنوات متتابعة إلى إن أدركه المنون، وهو على صهوة جواده، بين أفراد عشيرته، الذين كان يقاسمهم حلاوة الحياة ومرارتها، ويرى أنه مدِين لهم بتوليه، إذ « ليس هو ممن يولون أو يعزلون بكتاب ».

وهذا الشعار توارثه أبناؤه وحفدته، وبه صرح علانية حفيده المعز بن باديس لوفد الإطارات الفاطميين الذين زاروه في مهمة إلى أشير، هذه السجايا التي امتاز بها ملوك صنهاجة، ولم تكن سجايا تلقائية أو أوجبتها الظروف وفرضتها، بل كانوا يربون أولادهم عليها، ويعدونهم إعداد القيادة الشعوب والأمم، وهي مبادئ مخططة مسطرة، كما سنبين ذلك في ختام هذه الدراسة، ولنرجع إلى الحديث عن مساهمة بجاية الحمادية في الحضارة والفكر الإسلاميين بعد استحالتها إلى مركز ثقافي هام، بفضل

إيوائها العلماء أجلة، لا زالت آثار الكثير منهم، محل اعتناء الباحثين إلى يومنا هذا، المسلمين منهم والأجانب، كان من جملة هؤلاء العلماء أمثال أبي مدين شعيب دفين تلمسان ومواطنه عبد الحق الاشبيلي دفين بجاية، وأبي على المسيلي دفين بجاية أيضا، وأبي يوسف حجاج بن يوسف الهواري البجائي قاضي مراكش، ثم يوسف أبو الفضل بن النحوي دفين قلعة حماد، الذي حافظت القلعة على قبره دون بقية أمواتها.

هؤلاء العلماء اشتهروا بعلوم الدين، وعلماء الدين هم الذين كانوا قادة الفكر إذ ذاك، ثم كانت طبقة علماء التصوف والفلسفة على اختلاف نزعاتهم ومذاهبهم مثل **محيي الدين ابن عربي**، و**ابن سبعين**، و**الحرالي** و**الششتري** وغيرهم، كان أفراد هذه الطبقة رغم اختلاف معاصريهم ومن بعدهم فيهم ـ بين مفكر ومقدس ـ كانوا يتمتعون بحرية الرأي ويصرحون بآرائهم ـ حتى الشاذة منها ـ من دون خوف، حيث كان ملوك بني حماد لا يتداخلون في الخلافات المذهبية، كان هؤلاء المتصوفون يتفقون مع المحدثين، إذ كان شعار كل منهم يتَّفِق مع الآخر في بعض جزئياته، مثل ما كان يعرف به التصوُّف مثلا: «التصوف الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق»، فهذا المبدأ لا يختلف عن شعار علماء الحديث الذي هو: «اتركوا اليأس مما في أيدي الناس تعيشوا أعزَّة».

كان أمثل هذه الطبقة في بجاية وأنشطها **عبد الحق الاشبيلي** (دفين بجاية)، فلنتخذه نموذجا لعلماء هذه الطبقة، فقد ترك تآليف قيِّمة لا زالت تتنافس مكتبات العالم الإسلامي في اقتنائها، كما لا زالت **الخزانة الوطنية بالجزائرية** تحتفظ بتأليفه: **(العاقبة)**، و**خزانة القرويِّين** بفاس تحتفظ بجلِّ تآليفه، منها كتاب: **(الأحكام الكبرى)** الذي كتب ببجاية و**(ديوان)** شعره الذي أملاه بـ (جامع بجاية) سنة 576هـ ـ أي: قبل وفاته بخمس سنوات ـ وقد ظهر في **ديوانه** هذا تقديسه للعلم إلى درجة أنه جرَّد الجاهل مِن الإنسانية حيث قال:

إذا أنـــت لم تعلـــم ولم تـــتعلَّم   وكنـــت امـــرءاً عـــما يـــراد بـــه عـــمِ
فكن صورة قد أكمل الله حظَّهـا   مِن الشَّكل والتَّخطيط والَّلحم والدَّمِ
ولا تَكُ إِنسـاناً فَـما أنـت مـنهم   وإن كنـــتَ لم تعلـــم بـــذلك فـــاعلم

كما كان **الإشبيلي** قاسيا على رؤساء الإقطاع والأمراء، الذين كان أكثرهم جهالا، فقد خاطب أحد أمراء بجاية رآه بالغ في زخرفة قصرٍ بناه ببجاية وخصَّص له جلَّ أوقاته، فقال:

يـــا بـــاني القصـــر الكبـــير   بـــين الدســـاكر والقصـــور
غـــرر الجـــيش الـــذي   مـــلأ البســـيطة والصـــدور
ومـــدوخ الأرض التـــي   أعيـــت عـــلى دهـــر الـــدهور
أمـــا فرغـــت فـــلا تـــدع   بيـــان قـــبرك في القبـــور
وانظـــر إليـــه تـــراه كيـــف   إليـــك معترضـــا يشـــير
واذكـــر رقـــادك وســـطه   تحـــت الجنـــادل والصـــخور
قـــد بـــددت تلـــك الجيـــوش   وغـــيرت تلـــك الأمـــور
واعتضـــد مـــن لـــين الحريـــر   خشـــونة الحجـــر الكســـير
وتركـــت مرتهنـــا بـــه   لا مـــال ويـــلا ولا عشـــير
حـــران تعلـــن بالأســـى   لهفـــان تـــدعو بـــالثبور
ودعيـــت باســـمك بعـــدما   قـــد كنـــت تـــدعى بـــالأمير
ولأنـــت أهـــون فيـــه   مِـــن جعـــل عـــن نـــتن يـــدور

وشعر **الإشبيلي** كلُّه على هذا النَّمط الدَّالِّ على علوِّ الهِمَّة، واحتقار المادة، وتقديسه للعلم والأخلاق النَّبيلة، وقد بَرهن على شجاعتِه الأدبية واستهانتِه الموت في سبيل المبدأ عندما رفَض قبول خطَّة القضاء مِن ملوك الموحِّدين لما احتلُّوا بجاية، وقبِلَها مِن

بني غنية بعد احتِلالهم لها، فكان سبب محنته.

ومن الفلاسفة المذكورين محي الدين بن العربي (دفين دمشق) الذي لا تزال تآليفه وآراؤه محل اهتمام وبحوث قيِّمة، وقد شغف بِبَعضها الأمير عبد القادر الجزائري فبذل جهودا في اكتِشافها واستنساخها، وأخيرا اقتبس منها تأليفه، ونرى كذلك ابن سبعين صاحب التآليف العديدة التي اشتهرت، منها: (**الرَّسائل الصِّقِلية**) التي أَلَّفها قبل مجيئه إلى بجاية، وأجاب بها العلماء الذين كان يغصُّ بهم بلاط ملك صقلية، وأكثرهم مسيحيون قسِّيسون، وقد تُرجِمت هذه الرَّسائل إلى عدَّة لغات، ولا زال ابن سبعين يحظى عند الباحثين الذين خصُّوه بالدِّراسات القيِّمة والتآليف في اتِّهامه بالزَّندقة والكفر، أو في الدِّفاع عنه وعَن أفكاره، وقد اشتهر في بجاية بعد انخِراطه في طريقة أبي مَدين شعيب، وتتلمذ له مريدون كثيرون، ثمَّ نجد أبا مدين شعيب علاوة على شهرته الخاصة، كان المثل الأعلى للمربِّين، فقد اشتهر كثير مِن تلامذته، حتى إن أسرتَين من الأسر العلمية توارث أفرادها العلم قرونا بتلمسان كانوا يفتَخرون بانتِساب آبائهم إليه بالتلمذة والخِدمة، وهاتان الأسرتان هما: أسرة المقري، وأسرة ابن مروان.

أما أبو علي المسيلي فإنه ترك تآليفه في مختلف الفنون، منها: (**التذكير**) الذي قال فيه الغبريني: «إنه سلك فيه مسلك الغزالي، وبه سمِّيَ: أبا حامد الصَّغير »، ثم قال: «وكلامه فيه أحسن مِن كلام أبي حامد وأسلم، ودلَّ كلامه فيه على إحاطته بعلم المعقول والمنقول، وعلم الظاهر والباطن».

وقد ترك تآليف أخرى في الفقه وأصوله اعتمدها كثير مِن المؤلِّفين المتقدِّمين منهم والمتأخِّرين، منهم: عبد الباقي الزَّرقاني الأزهري.

كما نرى إن بجاية أوت كثيرا من أئمة الأدب والشِّعر، وفي طليعتهم الملك الأندلسي الشَّهير عز الدين بن صمادح صاحب(**المرية**)، الذي هاجر إلى بجاية فيمن هاجر إليها بعد قضاء يوسف بن تاشفين على ملوك الطوائف، ثمَّ نجد الشاعرة

البجائية عائشة التي قال عنها الغبريني عندما ترجم لوالدها الأديب الشاعر أبي الطاهر عماة الشَّريف: «وكانت له (رحمه الله) ابنة تسمَّى: عائشة، كانت أديبة أريبة، فصيحة لبيبة، وكان لها خط حسن، رأيت كتاب الثعالبي بخطها في ثمانية عشر جزءا، وفي خاتمة كل سفر منه قطعة من الشعر من نظم والدها (رحمه الله)... وهي نسخة عتيقة، ما رأيت أحسن منها ولا أصح، ولقد رأيت نسخا كثيرة منتقدة إلا هذه النسخة» اهـ.

ثم ظهرت طبقة أخرى من المؤرِّخين، مثل: إبراهيم بن بلقاسم أبو إسحاق، والمعروف بالرقيق القيرواني، الذي تولَّى الكتابة في بلاط بلقين بن زيري بن مناد، ثم في دواوين والده المنصور، وحفيدَيه باديس والمعز، وترك أعظم كتاب وأصحَّ مرجع لتاريخ الدَّولة الصنهاجية، سماه: (**تاريخ إفريقية والمغرب**) في عشر مجلَّدات، أعجب به ابن خلدون حيث اعتمدَه كمصدر لتأليف (**ديوان العبر**)، وقال في مؤلفه: «ابن الرقيق مؤرِّخ إفريقية والدول التي كانت بالقيروان، ولم يأت من بعده إلَّا مقلدا».

ومِن حسنِ الحظِّ أنه عثر على قِطعة منه، وطبعت بتونس مِن خمس سنوات، كما ظهر إذ ذاك الكاتب الأندلسي الشَّهير ابن عبد العزيز الداني، المعروف بابن أبي الصَّلت، الذي لازم بلاط يحي ابن تميم بن المعز بن باديس في **المهدية**، فألَّف من جملة تآليفه العلمية العديدة مُلحقا لكتاب: (**تاريخ افريقية والمغرب**) لابن الرقيق، سمَّاه: (**أخبار بني زيري الصنهاجية**)، خصَّه لزيري بن مناد وولده بلقين المنصور، وقد نقل منه التيجاني في (**رحلته**).

ولابن أبي الصلت هذا شهرة في الأوساط العِلمية، وقد نشر له بعض تأليفه في زماننا هذا المستشرق الأسباني المشهور إنجيل قنزاليس بالانسيا (Angel Gonzales Palencia)، وترك ولدا لا يقلُّ عنه مكانة، فاختار الإقامة ببجاية إلى أن توفي بها، دفن في مقبرتها سنة 546هـ.

ومن أفراد هذه الطبقة وأبرزهم أبو عبد الله محمد بن علي بن حمادة الصنهاجي،

المعروف بابن حماد، نشأ في القلعة عاصمة أبائه، ثمَّ انتقل إلى بجاية فلزم دروس أكابر علمائها، مثل: أبي مدين شعيب، وعبد الحق الاشبيلي، وله تآليف عديدة، أهمُّها فيما يخصُّ موضوع بحثنا: (**النُّبذ المحتاجة في ملوك صنهاجة**) الذي قال عنه صاحب كتاب: (**مفاخر البربر**) عِند حديثه عن ملوك صنهاجة: «ومَن أراد الوقوفَ على أخبارهم وسِيَرهم فليُطالع: (**الديباجة في أخبار صنهاجة**)، وكتاب (**النُّبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة**)» اهـ.

كما أشاد به التيجاني في (**رحلته**)، وذكر نُتفا مِن قصائده التي رثى فيها القلعة بعد خَرابها، وقال: «وحيثما ورد شيء مِن هذه الأسماء في شعر أبي عبد الله محمد بن على بن حماد، فإنما يعني مباني القلعة، فإنه كان مَعينا بِنَدب تلك المعاهد».

ولنكتف بها القَدر، إذ لو تتبَّعنا المآثر الحضارية المعمارية والفكرية التي خلقتها الدولة الصنهاجية داخل البلاد وخارجها لما وسِعنا مجال هذه الدِّراسة المحدودة، ولنقتصر على ذكر بعض عيِّناتها، فنذكر قصور صقلية التي بقيت قرونا تحمل اسم: قصور القلعة وبجاية، وهي صورة منها، وكذلك النِّظام الذي اختاره ملوك صقلية المسيحيِّين في حياتهم العامة والخاصة، فقد بذلوا الجهود لجلب الشُّعراء والكتَّاب، وبقيت للغة العربية مكانة مرموقة في دواوين ملوكهم، رغم الحروب التي كانت متواصِلة بينهم وبين آخر ملوك بني زيري، الذي التجأ إلى بجاية بعد سقوط المهدية التي كانت آخر معقل تبقَّى له مِن مملكته الممتدَّة الأطراف.

كما بقي من آثار الصنهاجيِّين بالجزائر زيادة على آثار بجاية، آثار قلعة الملك المعز بن باديس المتجلِّية في جامع سيدي عقبة بالزاب، ومسجد أبي مروان ببونة والرباط الملاصق له، ومسجد مدينة تنس، وبقيت كتب مخطوطة في خزائن القيروان وخارجها، إذ اشتهر المعز ابن باديس بأنه كان يجمع في قصره الخطَّاطين والمسفِّرين والمذهِّبين، وقد حبس الكثير منها على الأفراد والجماعات، كما عوَّض ابنه تميم بيت الحكمة الذي نقله

الفاطميُّون إلى القاهرة، فأسَّس بيت الحكمة بالمهدية بجميع ما يتطلَّبه، وكان مِن جملة مَن تولَّى إدارته أمية بن أبي الصلت المذكور، وفي بيت الحكمة ترجمت عدَّة تآليف علمية لخبر يطول، وشقَّت طريقها إلى أوروبا.

وقد اعتنى بتسجيل الآثار المعمارية الصنهاجية الأثريان الشَّهيران جورج مارسي (Georges Marçais)، كما خصَّص الجنرال بيليي (Beylié) الفرنسي سجلًّا ممتازا لآثار قلعة بني حماد، وقد أطلعتنا **(مجلة الثقافة)** التي تصدرها وزارة الإعلام والثَّقافة بالجزائر على بحثٍ قيِّم للسيد **رشيد بورويبة** عنوانه: **(الفن المعماري الصنهاجي وأثره في صقلية)**، العدد: 19صفر 1394هـ.

هذا، وإن كثيرا مِن الكتَّاب يَرون أن عهد بجاية الحمادية توقَّفت عَجلة عظمتِه ابتداءً مِن سقوط بجاية في قَبضة الموحِّدين، وذلك رغم احتِفاظها بمَظهرها الحضاري في مدَّتهم، ومدَّة ملوك بني حفص الذين خلفوهم عليها، كان مِن أصحاب هذا الرأي الغبريني الذي ذكر في **(عنوان الدراية)** عِندما ترجم لأبي علي المسيلي، ونقلنا منها بعض انطباعاته التي علَّق فيها على ما قاله أبو علي المسيلي: «إنه أدرك بجامع بجاية تسعين مفتيا »، فقال في تعليقه: «فإذا كان عدد المفتين ما ذكر فكم يكون عدد المحدثين والنحاة والأدباء »، وختم تعليقه بقوله: «كان الناس على اجتهاد، وكان الأمراء لأهل العلم على ما يليق ويراد »، وكلامه صريحٌ حيث عبَّر بصيغة الماضي، وهو مؤمن لا يطلق الكلام على عواهنه، وشاطره في رأيه هذا الرَّحالة العبدري صاحب **(الرِّحلة المغربية)** الذي سجَّل انطباعاتِه بعد زيارته لبجاية في طريقه إلى الحجِّ في نفس الوقت الذي ألَّف فيه الغبريني: **(عنوان الدراية)**، قال العبدري: «وهذا البلد بقية قواعد الإسلام، ومحل جلَّة من العلماء أعلام، له مِن حسن المنظر طيب المخبر، ومع الرأي الرائق، المعنى الفائق » إلى أن قال: «غير أنه قد اعتراه مِن الغِيَر، ما شمل في هذا الأوان البدو والحضر، وقد غاض بحر العلم الذي كان به حتى عاد وشلا، وعفا رسمه حتى صار طللا، وبها

آحاد من طلبة العلم وقد اقتصروا على مطالعة الصُّحف والدفاتر، وسلكوا في ترك تصحيح الرِّواية طريقا لم يرضه الأعلام الأكابر »، فالعبدري وإن كان مشهورا بالانقباض، وكونه ضنينا للاعتراف لمعاصريه بالعلم، وكانت له مقاييس خاصة يزن بها مَن يخلع عليهم الألقاب العِلمية، إلَّا أن كلامه هنا له مدلوله ووزنه، وحقيقة إن بجاية ازدَهرت فترات قصيرة في عهد الحماديِّين ثمَّ تغيَّرت أحوالها، رغم أنها ظلَّت عاصمةً عامِرة، وورد عليها كثيرٌ مِن العلماء، خصوصا الأندلسيِّين الذين تدفَّق عليها سبيلهم في القرن السابع، إما للإقامة أو عابري سبيل إلى حاضرة تونس، المركز الرئيسي لدولة بني حفص التي خلفت الدولة الموحِّدية، وخضع لها ملوك المغرب الأقصى، وتلمسان، وبايعها ملوك الأندلس والأراضي المقدَّسة، وفي ذلك العصر ألَّف الغبريني **(عنوان الدراية)** في تراجم علمائها الذين كان أكثرهم أندلسيِّين.

لم تقتصر حضارة بني حماد وبني زيري على بلاد المغرب العربي بل امتدَّت إلى بلاد الأندلس بواسطة بعض زعمائها، وعلى رأسهم زاوي بن زيري أخ بلقين (مؤسِّس الدولة)، كان زاوي هذا مِن قادة الحرب المشهورين، وبعد وفاة أخيه بلقين وتولِّيه ولده المنصور وقعَ بينه وبين ابن أخيه المذكور خِلافٌ انتهى إلى تمرُّدٍ فثَورة، إلَّا أنَّ حماد انتصر لأخيه المنصور وقمعَ الثُّوار الذين كان مِن بينهم زاوي وأخوه ماكسن، فقتل ماكسن والتجأ زاوي إلى جبل شنوة ـ قرب شرشال ـ ومنه انتقلَ إلى الأندلس فالتحَق بِصفوف المجاهدين، ولما انحلَّت الدَّولة الأموية وتكوَّنت على أنقاضِها دول الطوائف، تولَّى زاوي دولةً مِن دُولها، وأسَّس دولة غرناطة، وقد عثر في السِّتينات مِن القرن الجاري الهجري على وَثيقة هامة سجَّل فيها أحد أحفاد زيري الظُّروفَ التي انتقل فيها زاوي بن زيري ابن مناد إلى الأندلس، وثورات أبنائه في مملكة غرناطة التي كان لهم الفضل في تأسيسها وتمصيرها إلى أن أزاحهم الملك يوسف بن تاشفين الَّلمتوني، والذي يهمُّنا من

هذه الوثيقة ـ مذكِّرات الأمير عبد الله[1] ـ.

إن صاحبها تعرَّض فيها لحياة أفراد عشيرته بالمغرب ثمَّ بالأندلس بِبَيَانٍ وتفصيل بيَّن فيها محافظة زعيم الأُسرة على عوائد وتقاليد أُسرته، وطبَّقها في الإمارة التي أحدثها بالأندلس، كما أفادنا في هذه **المذكِّرات** بالانحلال الذي وصلَ إليه الأندلسيُّون إذ ذاك، والظروف الحقيقية التي فتحت أبواب الهِجرة إلى الأندلس، ثمَّ كيفية تكوين ملوك الطوائف بعد احتلال الدَّولة الأموية، وتعرَّض لكلِّ ما ذكر بتفصيلٍ جليٍّ مفيد، وهذه **المذكِّرات** وإن كان يعارضها في بعض جزئياتها بعض المؤرِّخين كـ : ابن حيان، وابن حماد، وغيرهما، إلا أنها لها قيمتها ووزنها، حيت بيَّنت وجهة نظر شاهد عيان معنى بالأمر الذي تعرَّض إليه الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس، الذي استصحب عمَّه زاوي وخلفه على غرناطة عندما رجع حوالي 406هـ إلى إفريقية، والظروف التي كان يلتحق فيها المجاهِدون الأفارقة إلى الأندلس، وذلك أن كان أكثرهم ـ خصوصا الرؤساء ـ كانوا يذهبون إجابة لرغبة ودعوة ملوك الأندلس، قال في الموضوع عن المنصور بن أبي عامر الوزير المشهور: «فاستجاب مِن الرؤساء البربر وحماتها وإنجادها من بلغة فروسيته وشدَّته »، ثم قال: «وبهم كان يصوت ابن عامر[2] على العدو وهم كانوا العدة في الجيش والموثوق بهم عند الِّلقاء ومعترك الوغاء، وكان من أدهاهم همة زاوي بن زيري عمنا وبعده حبوس بن ماكسن بن أخيه ـ جد المؤلف الثالث ـ فإليهما كان الأمر والمشورة في الأمر والحكم على مَن دونهم مِن الأجناد... الخ».

(1) مذكِّرات الأمير عبد الله ابن بلقين بن باديس بن حبوس ابن ماكسن بن زيري بن مناد ـ أخر ملوك غرناطة من بني زيري (469 ـ 483هـ)، نشرها لفي بروفنصال بدار المعرفة بمصر، سنة 1955م، وترجمها إلى الفرنسية د. روجي إدريس التونسي وحقَّقها ثم نشرها بـ **(مجلة الأندلس)** التي تصدر بإسبانيا، عدد: 29، المؤرَّخ سنة 1964م.

(2) إن مترجمي المنصور بن أبي عامر متَّفِقون أنه خاض عشرات المعارك لم يهزم فيها قط.

كما تعرَّض الأمير عبد الله إلى حالة سكَّان الأندلس الذين عجزوا عن مقاومة العدو، وكانوا ينتحلون عدَّة أسباب عندما ناد المنصور ابن أبي عامر إلى التَّعبئة العامة للجهاد، فقال: «فرتَّب ابن عامر الرُّتَب، وأظهر هيبة الخلافة، وقمع الشِّرك وحضَّ المسلمين عامة على الغَزو، فعجزَ عن ذلك رعية الأندلس، وشكَوا إليه ضعفَهم عن الملاقاة، وشغلهم بالغزَوات عَن عمارة أَرضهِم، ولم يكُن القوم أَهل حرب، فقاطعَهم على أن يشتَغِلوا بِعمارة أَرضهم، ويُعطوا مِن أموالهم كلَّ عام ما يقيمُ به الأجناد مَن يكفيهم ذلك».

ثمَّ يذكر الظُّروف التي قامت فيها دول الطوائف فقال: «فلما تمَّت الدولة العامرية وبقي الناس لا إمام لهم، ثار كلُّ قائدٍ بمدينته، وتحصَّن في حِصنه، بعد تقديمه النَّظر لنفسه، واتخاذه العساكر وادِّخاره الأموال، فتنافَسوا على الدنيا، وطمع كلُّ واحد في الآخر، وكذلك لا يصلح أمر بين نَفسَين، فكيف سلاطين كثيرة وأهواء مختلفة »، مِن هذا يتبيَّن لنا أن الأمير عبد الله لم يكُن راضيا على دول الطوائف، وإن كانت دولته أعظم وأقوى دول الطوائف، ثم نفى التُّهمة التي ألصقَها الكثير مِن أنهم كانوا جنودا مرتزقة، فقال: «اعلموا أنه لم نأت الأندلس إلا وأجلبنا مع أنفسنا مِن الأموال ما لا نحتاج فيه إلى أحد، وإنما جئناها رغبة في الجهاد».

وفي الحقيقة إن المؤرِّخين متَّفِقون على أن زاوي بن زيري كان كثيرا ما يبيع القطع الثَّمينة مِن الذَّهب والزَّبرجد والياقوت ومختلف الجواهر إلى الأمير المظفر ابن أبي عامر.

ثمَّ انتقل المؤلِّف إلى الظروف التي تولى فيها أجداده إمارة ألبرية وتأسيسهم لمدينة غرناطة فوصف حالة البيرة وسكانها فقال: «إنه بلغ بهم الشقاق والتخاذل والتمرد على الحكم... وكانوا مع هذا اجبن الناس»، ثم قال في موضع أخر: «وهم مع هذا لا يستطيعون على قتال احد ولو كان الذباب »، ثم قال: «فلما رأوا ذلك وتوقعوا أن

يتخطفهم الناس وجهوا إلى زاوي المذكور، شاكين مما هم عليه وقالوا: إن كنتم جاهدتم قبل اليوم، فهذا الجهاد آكد عليكم: أنفس تحيونها، وديار تحمونها، وعزة تأوون إليها ونحن شاكروكم بأموالنا وأنفسنا، لكم منا الأموال والسكنى، ولنا منكم الحماية والذب عنا »، ثم قال: «وعندما تحققوا ـ أي: زاوي وولدا أخيه ماكسن ـ من صدق سكان البيرة اختاروا قاعدة تجمع بين الموقع الحبي وما تتطلبه الحياة من مرافق ومياه ن فكان موقع مدينة غرناطة، وعندئذ هدمت مدينة البيرة وبقيت غرناطة التي شارك فيها جميع السكان، أي بني كل واحد داره الخاصة سواء في ذلك السكان الأصليِّين أو بني زيري »، ثم جعل زاوي ابن زيري القرعة بينه وبين ابن أخيه حبوس بن ماكسن عندما تقتسما الإمارة، وبين الأمير عبد الله أن القرعة من تقاليد أسرتهم وعوائد بلادهم ولهذا استعملها لنفي تهمة الاستبداد بالرأي ولو مع ابن أخيه الذي كان له بمثابة الولد.

أسِّست غرناطة وكان اسمها يحمل الطابع البربري، كانت تُسمَّى في أوَّل عهدها ـ أي: بعد تأسيسها مباشرة ـ «اغرناطة»، ثم أسقطت منها الهمزة بعد طول زمان، وقد وقع الخلاف بين المؤرِّخين في ذلك، ذكر ياقوت في (**معجم البلدان**) في التعريف بها، فقال: «غرناطة بفتح أوله... قال أبو بكر بن طرخان: «الصحيح اغرناطة بالألف في أوله، أسقطها كما أسقطوها من البيرة، ثم ذكر المؤرخين المعارضين واحدا واحدا أي الذين قالوا: إنها مِن دون ألف».

وقد عثَرنا على ما يؤَيِّد قول **ياقوت** ـ أي: أنها بزيادة الألف في أولها ـ ذكر **ابن خميس** في **رسالتِه** إلى مشرف مدينة **فاس** التي نشرها لسان الدِّين بن الخطيب في (**الإحاطة**) وقال: «لا رفع وانسى من مقعد رقوطيهم المشهورة من اغرناطة الحمراء... الخ »، قال شارحُ (**الرِّسالة**) ابنُ هدية القرشي: «هي قصبة اغرناطة، واغرناطة مدينة كبيرة بغرب الأندلس محدثة بالنسبة إلى غيرها، وممن مدَّنها، وحصَّن أسوارها، وبنَى

قصبتها، حبوس الصنهاجي، ثم أكملها ابنه باديس بن حبوس بعد إذ خلفه، فعمرت أكثر عمارة ريئت حتى الآن (أبقاها الله دار إسلام وإيمان ما بقى الزمان)».

بقيت اغرناطة ببعض آثار فرع بني زيري الصنهاجيِّين كما اتَّفق مؤرِّخو الأندلس، وإن اختلفوا مع صاحب **المذكِّرات** في بعض الأحداث ـ أي: في عَرضها ـ واتَّفقوا على شجاعة وبطولة أفراد هذا الفرع في ميادين الحروب ،وقد أيَّدها الأمير عبد الله بقوله: «ابن هدية القرشي مِن أساتذة لسان بن الخطيب، تولَّى القضاء ورئاسة الوزراء عند ملوك بني زيان بتلمسان، وقد شرحَ رسالة ابن خميس، وسمى شرحه: (**العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس**)»، وقد توفي بتلمسان قبل 730هـ «وكان لزاوي ـ أي: جدِّه ـ بنون يعدل كلٌّ واحدٍ منهم ببدنه مائة فارس في نَجدته وقوة بأسه» اهـ.

نقتصر على هذه الصَّفحات من تاريخ امتداد الدولة الصنهاجية التي عمرت قرنين بالمغرب العربي، وزادت ما يقرب من قرن ونصف بالبلاد الأندلسية، واندمجت كثير من الأمم والجماعات في الأندلس ـ بعد وصولهم إليها ـ فقد احتفظ أفراد هذه الأسرة بعاداتهم وتقاليدهم التي كانوا يعتزون بها ويفتخرون، وقد فرضوا الكثير منها على البلاد الأندلسية، كما كان من جملة امتيازات الدولة الحمادية تسامحها في الميدان العقائدي حتى أنها ضرب بها المثل بأنها الدولة الإسلامية الوحيدة التي كانت علائقها بالدول المسيحية علائق ود واحترام وتعاون مثالي إنساني وقد بينت آثار الرسائل المتبادلة بين الملك الناصر بن علناس والبابا قريقوار تدلُّ على ما ذكرناه.

ولنختم هذه الدراسة بذكر أسباب وآثار انحطاط الحضارة والفكر الإسلاميين ببجاية الحمادية، فنرى أن بجاية بعد ما احتلها الموحدون الذين خلفوا بني حماد ثم الحفصيون واختيار بني غانية لجعلها منطلق ثورتهم على الموحدين، تلك الثورة التي كانت سببها في استئصال نخبة علمائها، فبنو غانية بمجرد وصولهم إلى بجاية ألقوا القبض على العلماء المتهيمنين بالانحياز إلى الموحدين، ولما استرجع الموحدون بجاية

الحقوا على كل من حامت حوله الشبهات بموالاة بني غانية وكان من بينهم أبو مدين شعيب وعبد الحق الإشبيلي ووالد عائشة البجائية... الخ.

ومن هنا كان مبدأ الضَّغط الفكري الذي ألزم كثيرا من العلماء بالهجرة والانزواء، كما نجد عهد الحفصيِّين الذي لم يكُن عهد استقرار بالنسبة للحياة الثقافية، فكان علماء البلاد فيه إما دعاة للحفصيِّين أو مُنعزلين كما ذكر ذلك **عبد الرحمن الثعالبي في (فهارسه)**، وحتى الذين تقرَّبوا منهم مثل **ابن الأبار البلنسي**، و**أحمد الغبريني** صاحب **(عنوان الدراية)**... الخ.

ثم نجد دولة الحفصيِّين لحِقها الضَّعف والهرم، فسقطت في أيدي الإسبان سنة 915هـ إثر تجدُّد واستئناف الحروب الصَّليبية التي تقمصَّت زعامتها وقيادتها إسبانيا وسقطت بسببها معظم مدن شواطئ المغرب العربي، كـ : سبتة، ومليلية، ووهران، وتونس، ثم طرابلس ـ **ليبيا** ـ فكان هذا الاحتلال سبب خرابها، وإنه رغم أن الإسبان لم يطل احتلالهم لبجاية إذ أخرجوا منها قبل نهاية نصف قرن، إلا أنها فقدت مكانتها كقاعدة، تلك المكانة التي ورثتها عنها عاصمة **الجزائر**، وقد زارها في أيام محنتها بعض الرَّحالين والكتَّاب، منهم: **الحسن الوزان** المعروف بـ: **ليون الإفريقي**، ووصفها في حالتها التي وجدَها عليها، إلا أنه وصف مدينةً أخرى مِن ولايتها كانت صورة مصغَّرة منها محافظة على مظهرها الحضاري الذي لا نُبالغ إن قلنا إنها يمكن أن تتَّخذ حتى في زماننا هذا نموذجا لأعلى وأرقى المدن الحضارية العالمية، وهذه المدينة هي: نقاوس بالأوراس، قال عنها الرحال المذكور: «**نقاوس**: مِن أعظم المدُن، كان أهلها متحضِّرون، لباسهم شبيهٌ بلباس حَضَرِ **بجاية**، ومنازلهم جميلة، كما توجد عندهم دور ضيافة، ومدرسة داخلية على نفقة الدَّولة، ومسجدٌ جامع، كل مسكن مِن مساكن المدينة له حديقته الخاصة، فيها جميع أنواع الزُّهور ـ خصوصا ورود دمشق، والبنفسج، والقرنفل، والآس ـ»، ثم عدَّد كثيرا من أنواع الزُّهور ـ وقال: «ومعظم الدُّور فيها المياه

الجارية، وتظهر على سكَّانها النظافة والأناقة لكثرة حماماتها، حتى أن المسافرين الذين يَردون عليها ويقيمون بها لا يفارقونها إلا عَن مضَض لجاذبية سكَّانها بحسن معاملتهم وأخلاقهم الكريمة وكرمهم المثالي».

هذا كلُّه يدلُّنا على أن حضارة بجاية كانت عميقة، بقيت آثارها جليَّة عند السكَّان رغم تدَهوُرها السياسي، وإذا فقدت بجاية مكانتها الحضارية بعد ما احتفظت بها ما يقرب مِن خمسة قرون، فإنَّ ناحيتها احتفظت بإمارتين تأسَّستا فيها، الأولى إمارة جبل كوكو بالقبائل لكبرى التي أسَّسها قاضي بجاية في العهد الحفصي أحمد بن القاضي الزَّواوي، والثانية آل مقران، فكان مِن جملة فضلهما على بجاية أنهما دافعتا عن بجاية مدَّةً الاحتلالَ الإسباني، ومنعتهم مِن التَّوغُّل داخل البلاد، والاتِّصال بسكَّانها، بل حاصرتا بجاية حتى صار الإسبان يجلبون تموينهم من إسبانيا أو المدُن الموالية لها، كما بقيت هاتان الدَّولتان مدَّة حكم الأتراك فحافظتا على وحدة التُّراب، وكان السكان يتمتَّعون بشبه استقلال داخلي، وإن الأتراك ـ كما هو معروف في تاريخ البلاد ـ قضَوا على القبائل البربرية والعربية إلا أنهم في بلاد القبائل الكبرى والصُّغرى حافظت هذه القبائل على وِحدتها وتضامنها ولم تمسَّ بأذى.

كما نجد بجاية حافظت على معاهدها العلمية التي انتشرت فيها بعد سقوط بجاية، وبلغت بعض هذه المعاهد إلى أن المواد التي كانت تدرس فيها هي نفس المواد التي كانت بأرقى الجامعات الإسلامية كالقرويِّين، والزيتونة، وكان لكل معهد من هذه المعاهد نظام داخلي وأوقاف تضمن بقاءها، ومن أهم المعاهد التي اشتهرت بها هذه الناحية معاهد القراءات ولم تقتصر على تعليم السكان بل كثيرا ما كان يلتحق بها علماء قسنطينة والجزائر وحتى تونس كما بقيت روح الوطنية تتأجج في صدور سكانها، حتى إن الاحتلال الفرنسي الذي تأخَّر في هذه النواحي لاقى من سكان الجبال ما لاقاه وكان في كل سنة يفقد خيرة قادة جيشه، إلى أن اندلعت ثورة القبائل المشهورة سنة 1871م،

وقادها السيد **محمد المقراني** أحد أفراد أسرة أمراء القبائل الصغرى، وصهره العالم البطل **محمد أمزيان بن الحداد** وقد لفتت هذه الثورة أنظار سكان العالم وخصصت بالتآليف الهامة، كما أفادت تاريخ البلاد الذي سجل صحف البطولة والتضحية والفداء والأغاني الشعبية المشيدة والممجدة للأبطال ثم شاءت الأقدار أن احتضنت هذه الناحية في أيامنا الأخيرة مؤتمر الصومام الذي وقِّع فيه لأول مرة النظام الداخلي لجيش التحرير الوطني ولجبهة التحرير الذي ختم باستقلال البلاد.

محتوى المحاضرة:

1) تقديم يشمل الظروف التي تكونت فيها الدولة الحمادية وارتباطها بدولة بني عبيد الفاطميِّين.

2) مساهمة بجاية الحمادية في الحضارة والفكر الإسلاميين وذكر نماذج من العلماء: فقهاء، محدثون، صوفيون فلاسفة، مؤرخون لعبوا أدوارا في تاريخ الدولة الحمادية عبر العصور وخلود آثارهم.

3) الآثار المعمارية والفنية للدولة المذكورة وما تبقى منها وذكر بعض الأثريين الذين اعتنوا بها.

4) امتداد الدولة الصنهاجية إلى بلاد الأندلس وتأسيس أفرادها المهاجرين إلى الأندلس مدينة غرناطة وتكوين دولة بالشرق الأندلسي إلى أن قضي على ملوك الطوائف.

5) أسباب تدهور بجاية وآثار انحطاطها وما تبقى من آثار حضارتها بعد انتقالها إلى قراها وجبالها، وما نتج عن تلك الآثار مما دل على عمق الحضارة التي صارعت الزمان عدة قرون وخرجت مرفوعة الرأس.

الحياة الفِكرية ببجاية
في عهد الدَّولتَين: الحفصيَّة، والتُّركيَّة، وآثارها[1]

إن مدينة **بجاية** التي أسِّست سنة ستِّين وأربعمائة على يدِ الملك **الناصر بن علناس** الحمادي وسمِّيت إذ ذاك بـ: **الناصرية**، لم يمضِ عليها ربع قرن حتى استَحالت إلى عاصِمة ضاهَت عواصمَ الدُّنيا الاقتصادية والعِلمية، وجاوز عددُ سكَّانها مائة ألف نسمة، وقبل التعرُّضِ لصميمِ الموضوع، نَرجع إلى الحديثِ عن الدَّولة الحمادية التي ينتمي إليها مؤسِّس المدينة والظروفِ التي تكوَّنت فيها قبلَ تأسيسِ **بجاية** بنحو القرن.

كلُّنا نعلمُ الظُّروفَ التي اختارَ فيها الخليفة **المعزّ لدين الله الفاطمي** نقل عاصمة الدولة الفاطمية إلى **القاهرة** واختياره لعامله **بلقين بن زيري** خليفة للدولة الفاطمية بالمغرب العربي الحالي، كان **لبلقين** هذا مِن جملة أولاده **حماد**، ولما توفي **بلقين** حوالي سنة 372هـ خلَفه ولدُه **المنصور** الذي انتقلَ مِن العاصمة الثانية **أشير** ـ قاعدة بني زيري ـ إلى عاصمة المملكة المركزية **القيروان**، كان مِن نتيجة هذا الانتقال تآمر أفراد عشيرة بني زيري على **المنصور** وثورتهم عليه، فحينئذٍ انتَصر **حماد** لمنصور وقمعَ الثُّوار، فاعترف له **المنصور** بمَواقفِه الحاسِمة وأَقطعَ له **أشير** وما أحيطَ بها وعيَّنه عامِلا عليها.

وبعد موتِ **المنصور** سنة 385هـ خلفَه ولدُه **باديس**، وحينئذٍ ظهرَ في الأُفقِ **زيري بن عطية المغراوي**[2] فتصدَّى **حماد** لمحاربته، وكانت الغلبة **لزيري** الذي حاصَر **أشير**،

---

(1) **الأَصالة**: صفر ـ ربيع الأول 1394هـ/ مارس ـ أفريل 1974م، السنة: 4، العدد: 19، ص: 133 ـ 147. (ع)

(2) **زيري بن عطية المغراوي**: مِن بقايا ملوك مغراوة الذين قضى على دولتهم **بلقين** سنة 360هـ=

فعندئذٍ عزَّز **حماد** بل فكَّر في تَعزيز حِصن **أشير** بحِصنٍ آخر، فكان **حصن كيانة** الذي استحالَ إلى (**قلعة بني حماد**).

كان ابتداء بناء **حصن كيانة**[1] الذي استَحال إلى عاصمة (**قلعة بني حماد**) سنة 398هـ، وانتهى بناؤه بعدَ سنتَين ـ أي: متمِّم سنة 400 هـ ـ كان بناءُ هذا الحصنِ بإِعانة **باديس**، إلا أنَّ العلائقَ توتَّرت بين **باديس** وعمِّه **حماد** لأسبابٍ كانت مِن نَتائجِها خلعُ **حماد** طاعة الفاطميِّين والبَراءة مِن مَذهبِهم، ومُبايعة خلفاء بني العباس ببغداد ومُبادلته الهدايا والرَّسائل معهم، فحينئذٍ أعلنَ عليه **باديسُ** الحرب، ووقَعت بينَهما عِدَّة مَعارك سقطَت أثناءها مَدينة **أشير**، فتحصَّن **حماد** بـ: **القلعة**، وكان على وَشكِ الاستِسلام لما بلَغه نبأ وفاة **باديس**، وذلك سنة 406هـ.

خلف **باديس** ولده **المعزّ**، وكان عمره حين تَوليَته ثمانِ سنَوات، فاضطرَبت أحوالُ المملكة، وكان المعزُّ تحت كفالةِ والدتِه التي أعَدَّته لِتَولية مَهامِ الحكمِ أَحسن إِعداد، ولهذا لم يسَع **حماد** وبقية أفرادِ الأسرة المتمرِّدين على والده **باديس** إلَّا الإستِسلام، توفي **حماد** سنة 417هـ، وخلَفه ولدُه القائد الذي جدَّد الحربَ مع **المعزِّ بن باديس** وانتهَت باستسلامِ القائد **بن حماد**، وفي تلك الأثناء تعرَّضت **القلعة** وسُهولها لهجماتِ **بني هلال**، ثمَّ استُئنِفَت الحربُ بين القائد **ابنِ حماد** و**المعزِّ** أعقَبها صلحٌ نهائيٌّ تعهَّد فيه القائدُ بالطاعةِ والولاءِ للمعزِّ، وجدَّد له **المعزُّ** الاعتراف بالإقطاع والولاية على **أشير** و**القلعة**، بل الجانب الغربي مِن المملكة الزِّيرية، فكان هذا الاتفاق مبدأ انقسام دولة **بني زيري** إلى دَولتَين:

=وكان ملوك **مغراوة** يُوالون ملوكَ الأندلس، فأقطعوا لزيري المغرب، فقصد **زيري** بني زير لأخذه بالثأر وذلك سنة 390هـ.

(1) **حصن كيانة**: ويعرف بجبل عجيسة، بنيَ على أنقاض حصنٍ روماني، وقد غلط بعض المؤرِّخين فسمَّوه: **حصن كتامة**، وفي هذا الحصن لقي أبو يزيد الخارجي حتفَه، وقال **ابن خلدون**: «إن في سفحه كانت تسكن قبيلة عياض العربية»، ولا زالت هذه القبيلة تسكنه إلى زمانِنا هذا.

الدولة الشَّرقية: التي كانت قاعدتها **القيروان**، وكان على رأسها **المعزّ ابن باديس**، وصارت تحمل اسم: (**دولة بني زيري**).

و**الدولة الغربية**: وقاعدتها: (**أشير**)، ورئيسها القائد **ابن حماد**، وصارت تعرف بـ : (**دولة بني حماد**).

وبمجرَّد ما اعترفَ **المعزُّ** للقائد **ابن حماد** بولاية **أشير** والناحية الغربية نقلَ القاعدةَ مِن **أشير** إلى (**قلعة بني حماد**) التي مصَّرها والده ونقلَ إليها سكَّانَ **طبنة** (1)، و**المسيلة** (2)، و**حمزة** (3).

ثمَّ شاءَت الأقدارُ أن تَسقط **القيروان** و**صقيلة** فتَستفيد **القلعة** مِن ذلك، حيث التَجأ إليها جلُّ علماء **القيروان** وتجَّارها وصنَّاعها، كما صارَت القاعدة التِّجارية العظمى، وقد وصفَها أول عهدها **أبو عبيد البكري** في تأليفه: (**المسالك والممالك**)، فقال: «قلعةٌ كبيرة ذاتُ منعة وحصانة، تمصَّرت عند خَراب **القيروان**، انتقلَ إليها أكثر أهل **إفريقية**، وهي اليوم مَقصد التجَّار، وبها تحلُّ الرِّحال مِن العراق والحجاز ومصر والشَّام وسائر بلاد المغرب، وهي اليوم مستقرّ مملكة صَنهاجة... الخ ».

هكذا تكوَّنت **دولة بني حماد**، وقد ذكَرنا هذه الفقرات توطِئةً ومَدخلا للدِّراسة

---

(1) **طبنة**: مدينة أثرية كانت مقرًّا للكاهنة، ثمَّ اتَّخذها المسلمون بعد الفتوحات قاعدة الزَّاب، قال بعض الجغرافيِّين: «إنها أعظم مدينة بين القيروان وسجلماسة»، وأنجبَت كثيرا من العلماء، عرفوا بـ: بني الطبني في **الأندلس** .

(2) **المسيلة**: وتسمَّى أيضا: المحمَّدية، أسَّسها علي بن حمدون المشهور بالأندلس في عهد العُبيديِّين، وبها نشأ المعزُّ لدين الله الفاطمي، وبلقين، وجعفر بن علي بن حمدون ممدوح الشَّاعر ابن هانئ الأندلسي.

(3) **حمزة**: تعرف الآن بالبويرة، بين الجزائر وسطيف، أسَّسها الأدارسة في مدَّة حكومتهِم بتلمسان والمغرب الأقصى.

التي هي كما يدلُّ عليها عنوانها: (**الحياة الفكرية ببجاية في عهد دولتي بني حفص والأتراك وآثارها**).

وقد علِمنا أيضا أنَّ دَولة الموحِّدين هي التي قضَت على **دولة بني حماد** ببجاية سنة 542 هـ وخلَفتها، ثمَّ تكوَّنت **دولة بني حفص** على أنقاضِ **دولة الموحِّدين**، إلا أنَّها في الميدان العقائدي كانت امتِدادا لمذهبِ **المهدي ابن تومرت** رغمَ إعلانِ الخليفة **المأمون ابن يعقوب المنصور** الذي قال: «أيها الناس لا تَدعوه المعصوم وادْعُوه المذموم... الخ»، وذلك في أَواخِر القرن السادس الهجري بعاصمة الدَّولة المركزية **بمراكش**، ولما أعلن **أبو زكرياء الحفصي** استقلالَه بتونس التي كان عامِلا عليها مِن قِبل دَولة الموحِّدين أَلحقَ بجايةَ بتونس، وعيَّن ولدَه ـ وليُّ عهده ـ بها لمكانتها، فصارت العاصمة الثانية للدولة الحفصية الناشئة، وكثيرا ما تقاسمَت تونس قاعدة الحكم.

سبق لنا أن **بجاية** بُنيت سنة 460هـ، بناها **الناصر بن علناس** الملك الرابع لدولة بني حماد، ولما توفي **الناصر** هذا خلفَه ولدُه **المنصور** ونقلَ مقرَّ العاصِمة مِن (**قلعة بني حماد**) ـ التي تَوالت عليها هُجومات بني هلال ـ إلى **بجاية**، ونظرا لموقعِها أَمكَنها أن تتجنَّب غارات بني هلال، وتربطَ صلتَها مع الدول التي كانت تَتبادل معَها التِّجارة عن طريق أُسطولها البحري، فحافَظت على مكانَتها الاِقتصادية، وقَد وصفها **الشَّريف الإدريسي** في (**نزهة المشتاق**)، فقال: «ومدينة **بجاية** في وقتِنا هذا مدينة الغرب الأوسط، وعينُ بلاد بني حماد، والسُّفن إليها مُقلِعة، وبها القوافل منحطَّة، والأَمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة، والبضائع بها نافِقة، وأهلها مياسير تجَّار، وبها مِن الصِّناعات والصُّناع ما ليس بكثير مِن البلاد، وأهلُها يجالسون تجار المغرب الأقصى، وتجار الصَّحراء، وتجار المشرق، وبها تحلُّ الشدود، وتباع البضائع بالأموال المقنطرة، ولها بوادٍ ومزارع، والحِنطة والشعير بها موجودان كثيرا، والتِّين وسائر الفواكه بها منها ما يكفي لكثير مِن البلاد، وبها دار صِناعة لإِنشاءِ الأساطيل والمراكب والسُّفن والحرابي، لأن الخشَب في

أوديتها وجبالها كثير مَوجود، وبها معادن الحديد الطيب موجودة ممكنة، وبها من الصِّناعات كل غريبة ولطيفة... الخ».

كما أمكَنها المحافظة على مركز **القلعة** الثقافي الممتاز، إذ علاوة على علماء **القلعة** الذين انتقَلوا إليها، وردَت عليها نخبة مِن علماء **الأندلس** الذين شجَّعهم **المنصور** وسهَّل لهم سُبل الإِقامة ماديًا وأدبيًّا، ففي مدَّةٍ قليلة صار علماءُ **الأندلس** يمثِّلون أَغلبية الطبقات المثقَّفة ببجاية، وقد طبعوا الثقافة الإسلامية بطابع خاص سنتحدث عنه في موضعه.

كان علماء الأندلس الذين وردوا على **بجاية** من بقايا أنصار الفقهاء المالكيين، وبالطبع كانت وجهتهم السياسية تميل إلى دولة المرابطين التي قضى عليها الموحدون، لم ينس الفقهاء الأندلسيون أنهم لم يشهدوا عهد استقرار وتقدير وتأييد في كفاحهم الطويل الذي ابتدأ منذ ظهور الدولة الشيعية في إفريقيا، مثل ما نالوه في عهد المرابطين، خصوصا بالأندلس والمغرب، ولهذا لم يطمئنوا للانقلاب الذي أحدثته دولة الموحدين بل عدوه كارثة.

كان من جملة اللاجئين الأندلسيين أساطين من قادة الفكر إذ ذاك، خصوصا الفلاسفة الذين أحدثت تآليفهم وآراؤهم دويا في العالم لا زال يردد صداه الباحثون والعلماء من مختلف الأجناس والأديان، ولما ذكرناه كان احتلال الموحدين لبجاية سنة 542 لم يرض العلماء الأندلسيين الذين لم يقاسموا السكان استبشارهم وتفاؤلاتهم بالانقلاب، ولم يكن ذلك راجعا إلى أزمة الحماديِّين من الحكم ببجاية فحسب، بل كان مرجع ذلك إلى القضاء على دولة المرابطين بالأندلس والمغرب، ولهذا كان رد الفعل مساهمتهم المبكرة في المؤامرة التي دبروها لبنى غانية، بقايا دولة المرابطين بجزر ميورقة وسهلوا لهم احتلال بجاية التي كانت منطلق شرارة هذه الثورة التي رغم ما لاقته من مقاومة كانت نتيجتها تفكيك عرى دولة الموحدين والإطاحة بها وقلع جذور الفكرة

الموحدية من أساسها عند ملوكها، حتى صاروا يتبرؤون منها، ويلعنون مؤسسها من أعلى منابر مساجد العاصمة أسوة بما فعله ملوكُ بنى زيري مع الفاطميين عندما صرح خطيب مسجد القيروان سنة 433 في عهد المعز ابن باديس وقال: «اللهمَّ العَن الفسقة الكفار والمارقين الفجار أعداء الدين وأنصار الشيطان».

أطلنا في هذا التقديم أو المدخل الذي فرضه علينا سياق الحديث إذ لم يمكن التعرُّض لجوهر الموضوع من دون ذكر هذه التَّوطئة، كما أن كثيرا من القراء لم تتح لهم دراسة تاريخ بجاية عبر عصورها حتى نكتفي بالإحالة أو الإشارة إلى الوقائع.

هذا ملخصٌ ما شاهدته بجاية العاصمة العِلمية التي لعبت أدوارا في تاريخ البلاد الفكري والسياسي، ولنرجع إلى موضوع الدراسة أي الحياة الفكرية في العهدين الحفصي والتركي بمزيد من التفصيل.

لا شكَّ أن دولة الموحدين لما تفكَّكت أوصالها، وتنازع ولاتها، وتقاسموا أعمالها أو ولاياتها مما هو مشهور، كانت مملكة بجاية من نصيب الولاة الحفصيِّين، الذين استقلوا عن الخلافة الموحِّدية بمراكش في عهد **أبي زكرياء الحفصي** (والي تونس) المتمرِّد على حكومة الموحِّدين المركزية.

كانت قاعدة الدولة الحفصية الأولى مدينة تونس، والقاعدة الثانية بجاية، التي تولى عليها ولى عهد الملك أبى زكرياء الحفصي.

ثمَّ شاءت الأقدار أن تكون دولة الحفصيِّين الناشئة هذه بلغت أوج العظمة، وأمكنها أن تحظى بمبايعة الأندلسيين والحماديِّين، ونفس مزاحميها في وراثة دولة الموحدين المركزية، كبني مرين ملوك المغرب، وبني زيان ملوك تلمسان.

امتازت الدولة الحفصية في أول نشأتها بملوكها الذين كانوا من أكابر العلماء فنالت الثقافة في عهدهم ازدهارا، وغص بلاط ملوكها بفطاحل العلماء والمؤلفين، الذين خلدوا العهد الحفصي وبوؤوه مكانة سجلها له التاريخ، ولم تحظ بها إلا دول قليلة.

ففي العهد الحفصي خصوصا في عهد مؤسس الدولة **أبى زكرياء** وولده المستنصر بالله، ظهرت تآليف **حازم القرطاجني**، وابن **عصفور النحوي**، وابن **الأبَّار الأندلسي**، **وأحمد الغبريني** وابن **المطرف المخزومي**، كما ظهرت بعدهما تآليف **التيجاني** صاحب **(الرحلة)**، وابن **قنفذ القسنطيني** صاحب **(الوفيات)**، و**(ديوان العبر)** لابن خلدون، وظهرت في ميدان الفلسفة تآليف ابن سبعين[1] خصوصا رسائله التي أحدثت هزة عنيفة في الأوساط العلمية المسيحية الذين كانوا في بلاط الإمبراطور فردريك الثاني ملك صقلية، وتآليف **محيي الدين ابن عربي الحاتمي**[2]، **والششتري**[3]، **والحرالي** وغيرهم، إذ ما زالت هذه التآليف محل عناية الكتاب والباحثين إلى يومنا هذا، وإنَّ تتبُّع كل ما ظهر من الآثار الثقافية في العهد الحفصي يحتاج إلى سلسلة مقالات.

وقد احتفظ لنا التاريخ بأهم أثر لذلك العهد وهو كتاب: **(عنوان الدراية في ذكر من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية)** الذي ترجم فيه مؤلفه لخمسين ومائة عالم، وقد كان هذا الكتاب من أنفس المصادر وأنفعها لتاريخ بجاية الثقافي، إذ لا يخلو تأليف من تآليف تراجم ذلك العهد من ذكره، خصوصا تاريخ تراجم علماء الأندلس، وقد ألفت كثير من الكتب الهامة في جميع فروع المعرفة ضاع الكثير منها، ونظرا لما يتطلبه بحث كهذا من الاختصار نقتصر في هذا العرض على ذكر عالم بجائي أمكنه أن يحدث

---

(1) **عبد الحق ابن سبعين** (613 ـ 667هـ): وقد اختلف فيه كثير من الباحثين فمنهم من كفره ومنهم من جعله في أعالي مراتب الصلاح وقد نشرت دراسات عنه بعدة لغات، ولا زال الكتَّاب يخصُّونه بالتآليف.

(2) **محي الدين بن عربي** (560 ـ 638هـ): له ما يزيد على 150 تأليفا، وقد اختلف أيضا فيه معاصروه ومن بعدهم وخصوه بتآليف قيمة منهم السيوطي.

(3) **أبو الحسن الششتري**: ولد سنة 610هـ، وقد اعتنى به كثير من الكتاب مسلمين وأجانب ومن أهم البحوث أطروحة د. سامي النشار أستاذ بجامعة الإسكندرية.

ما يسمَّى في زماننا هذا بثورة ثقافية في ميدان كانت له أهمية في ذلك العهد ألا وهو ميدان الفقه المالكي، والفقه المالكي إذ ذاك كان هو دعامة الثقافة الإسلامية خصوصا بالأندلس والمغرب العربي حيث كان الفقهاء قادة الفكر، إلا أن كثيرا منهم استغلوا الظروف التي أطلق لهم فيها قيادة وتوجيه الرأي العام، فبالغوا، وأسرفوا، حتى جر عليهم موقفهم وابلا من النقد، ومن جملة منتقديهم إذ ذاك **أبو بكر ابن العربي** الأندلسي الذي قال عنهم في كتابه: **(العواصم من القواصم)** قال: «صار التقليد ديدنهم، والاقتداء بغيتهم، فكلما جاء أحدهم بعلم حقروا أمره ودفعوا في صدره... الخ.

هذا العالم البِجائي هو **ناصر الدين المشدالي**[1] الذي أقام مدة في **مصر**، ونقلَ إلى **بجاية** ـ ومنها إلى المغرب العربي ـ الطريقةَ التي انتصر فيها أصحابها في ميدان الفقه المالكي، هذه الطريقة التي انتهج فيها الفقه المالكي منهجا جديدا، حيث دخل في مقاييس الاختيار، والترجيح مقياس جديد هو مقياس الفتوى والعمل وقد اعتنى أخيرا أحد أفاضل الباحثين[2] فقال في الموضوع: «كان دارِسُو الفقه إذ ذاك يطبقون الأحكام الشرعية على الوقائع بمُراعاة فرضت فيه تلك الأحكام من الظروف الزمانية والمكانية[3]، فإذا رأوا أن بعض تلك الظروف تبدَّل مالوا إلى العدول عَن القول المشهور إلى قول غيره اجتهادا منهم واستحسانا واعتبارا للمصالح الشرعية، وهذا كله ناتج عن الطريقة التي أحدثها **مختصر ابن الحاجب الفقهي** الذي جمع ستا وستِّين ألف مسألة وعظم الإعجاب به، وأقبل عليه دارسو الفقه وهو الذي قال فيه **ابن خلدون**: «إنه جاء كالبرنامج للمذهب»[4].

---

(1) **ناصر الدين المشدالي** (631 ـ 731 هـ): ذكره **ابن خلدون**، إذ هو أستاذ **عمران المشدالي** وصهره، وأشاد بعلمه وتحقيقه كما أشاد به تلميذه (كذا) ! **ابن مرزوق الخطيب** وغيرهما.

(2) **محمد الفاضل ابن عاشور** مفتي الجمهورية التونسية سابقا.

(3) كذا في الأصل، والمعنى واضح لمن أعمل فكره. (ع)

(4) من مقال قيِّم للمرحوم **محمد الفاضل ابن عاشور** (مفتي الديار التونسية) نشره قبل وفاته=

«كان طريق اتصال **مختصر ابن الحاجب** ببلاد المغرب العربي على يد ناصر الدين المشذالي الذي تخرج على تلامذة ابن الحاجب ونشره في تلاميذه ببجاية ومن بجاية انتقل إلى عامة أقطار المغرب العربي» هذا ما قاله **الفاضل بن عاشور** وقد أيده كثير من مؤرخي الفقه الإسلامي ومنهم محمد الحجوي في تأليفه: (**الفكر السَّامي في تاريخ الفقه الإسلامي**)، قال في الموضوع: «إن **ناصر الدين المشدالي** البجائي هو أول من ادخل **مختصر ابن الحاجب الفقهي** للمغرب ورغبهم فيه».

اقتصرنا على أثر **ناصر الدين المشدالي** لأنه أمكنه أن يخفِّف مِن وطأة الخلافات داخل صفوف الفقهاء، إذ رغم براءة ملوك الموحِّدين مِن مذهب إمامهم تحت ضغط الرأي العام الذي كان يقوده الفقهاء ويوجِّهونه، فقد بقيت طبقة تنتصر للظاهرية والموحِّدية، إلا أن الخلافات حينئذ لم تتعدَّ الأوساط العِلمية، بخلاف ما كانت عليه قبل، فكان العوام والساسة يتدخَّلون، وإن ملوك الحفصيِّين كانوا ينتصرون لمذهب إمامهم المهدي ابن تومرت، إلا أنهم وقف الكثير منهم ـ إن لم نقل جلُّهم ـ مواقف نزيهة حيادية، لم يستعملوا وسائل الضغط أو الإغراء لنصر مذهبهم كما فعل ذلك الخليفة **يعقوب المنصور** الذي حرق كتب مذهب **مالك**، وفعله قبله **الحاجب ابن أبي عامر** بالأندلس فحرق كتب الفلسفة في الشوارع العامة تحت تصفيق الجماهير ترضية للعوام وأشباههم الذين كان تداخلهم في الميدان من الكوارث وعلاوة على التآليف التي خصها أصحابها في تراجم ملوك الدولة الحفصية وما أظهوره من تشجيع للحركة الفكرية، ثم كتب تراجم علماء ذلك العهد فإننا نجد بعض الرحالين زاروا بجاية سواء زاروها عابري سبيل، أو طلاب علم، وقد سجلوا انطباعاتهم عن بجاية في القرون

=بأشهر في (**مجلة المجمع العلمي العربي**) بدمشق المجلد 44 رجب 1389 اقتبسه فيما يظهر من (**أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**) للمقري.

السابع والثامن والتاسع، وذلك مثل العبدري صاحب (**الرحلة المغربية**)[1] الذي وصف بجاية وصفا دقيقا وذكر مَن لقيه بها من علمائها ـ ومنهم ناصر الدين المشدالي ـ ووصف مسجدها الجامع وموقعها في أواخر القرن السابع ـ أي: حوالي سنة 680هـ ـ ثمَّ أعقبه خالد البلوي الأندلسي الذي زار بجاية حوالي سنة 730 وسجل انطباعاته في (**رحلته**)[2] المشهورة، وذكر كثيرا من علمائها، وتعرَّض بالخصوص لمآثرها وقصورها، وقد زارها عبد الرحمن بن خلدون الذي استقدمه ملكها **أبو عبد الله الحفصي** وولَّاه الحِجابة التي هي بمثابة (رئاسة الوزراء)، فذهب إليها من المرية سنة ست وستين وسبعمائة (766هـ)، ولم يتعرَّض **ابن خلدون** لوصف الحالة الثقافية ببجاية مدة إقامته إلا أننا استفدنا منه أنه أخذ عن بعض كبار علمائها كأحمد بن إدريس وقد كان في وقت اضطراب وخلافات بين أفراد أسرة ملوك **بني حفص** الذين تقاسموا ولايات تونس وبجاية وقسنطينة إلا أنه تقدم مدة إقامته لخطبة الجمعة بالجامع الأعظم ـ جامع القصبة ـ وفي ذلك قال عن الملك **أبى عبد الله الحفصي** الذي استقدمه: «وقدَّمني للخطبة بجامع القصبة لا أنفك عن ذلك».

وقال عن **أحمد بن إدريس** في معرض حديثه عن **القاهرة** التي بهرته إذ ذاك عندما وصلها قال: «وسألت شيخنا **أحمد بن إدريس أبا العباس** كبير العلماء ببجاية... الخ».

أقام **بن خلدون** ببجاية سنتين ـ أي: من سنة 766 إلى 768 وغادرها في ظروف خطيرة إذ تغلب عليها ملك **قسنطينة** إذ ذاك، ولولا علائق أسرته مع الحفصيِّين من عهد جده الذي تولى شبه وزارة المال حوالي سنة 727هـ وتواصلت العلائق إلى عهده إلى أن لقي حتفه، وهذا الجانب هو الذي تعرض إليه ابن خلدون مدة إقامته ببجاية،

---

(1) **الرِّحلة المغربية**: طبعت منذ سنوات قليلة بتحقيق محمد الفاسي (وزير الثقافة) سابقا بالرباط، و د. ابن جدو أستاذ بجامعة الجزائر.

(2) **رحلة خالد البلوى**: لا زالت مخطوطة في عدة خزائن: الجزائر، تونس، الرباط... الخ.

ومن حسن الحظ أننا وجدنا أحد طلاب العلم ورد على بجاية في نفس المدة التي كان فيها ابن خلدون ـ أي سنة 766هـ ـ وذكر انطباعاته عن الوسط البجائي، وهذا الطالب هو محمد بن عمر الهواري (دفين وهران) الشهير، المتوفى سنة 843هـ فقد ذكر مترجمه **ابن صعد الأنصاري الأندلسي**[1] ما يلي: «وكان مبدأ قراءته بمدينة **بجاية** دخلها بعد صومه بسنة، فقرأ على أعلامها الجلة، عين منهم الإمامين سيدي **عبد الرحمن الوغليسي،** وسيدي **أحمد بن إدريس،** وكلامه ـ أي: **الهواري** ـ في منظوماته [2] مليئات بالثناء على أهل بجاية، وذكر محاسنهم في الإيثار والصدقات، واشتمالهم على الغرباء، وحبهم للفقراء، ومحافظتهم في معاملتهم على [اجتناب] الرِّبا، وصرَّح في كثير من كلامه أنه لقي بها جملة من العلماء أهل الصدق والورع، أجازوه في جميع العلوم، وفى نظمه المسمَّى بـ (**التسهيل**)، قوله:

لو وصفت لك ما رأيت في بجاية وهـي   هيا بلد الورع والعلم وترابـى حقيقيـا

... الخ

ثم دخلها كطالب علم أيضا في تلك المدة أبو عبد الله الشريف التلمساني ـ أحد كبار مشايخ **ابن خلدون** الذين ترجمهم وأشاد بعلمهم وفضلهم فقال عنها: «إنه وجد العلم ينبع من صدور رجالها كالماء الذي ينبع من حيطانها.

ثم زارها بعدهما طالب ثالث وهو عبد الرحمن ابن مخلوف الثعالبي دفين الجزائر (المتوفى حوالي سنة 875هـ) فقال في (**فهرسته**) بعد أن عرَّف بنفسه ومقر ولادته وابتداء

---

(1) **ابن صعد الأنصاري الأندلسي** صاحب: (**روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخِّرين**) ألَّفه أواخر القرن التاسع لخزانة المتوكل على الله الزياني ملك تلمسان.

(2) **منظومات الهواري**: كلُّها باللغة الدارجة ـ أي: الزَّجل ـ ولهذا ظنَّ كثيرٌ مِن مترجميه أنه لا يحسن العربية الفصحى مع أنه كان من أكابر العلماء، فقد أخذ ببجاية، ثم بفاس، ثم ختم رحلته العلمية بالمشرق.

رحلته العلمية: «.. ثم تناهت بي الرحلة إلى بجاية فدخلتها عام اثنين وثمانمائة فلقيت بها الأئمة المقتدى بهم في علمهم ودينهم وورعهم أصحاب الشيخ الفقيه الزاهد الورع **أبي زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي**، وأصحاب الشيخ **أبي العباس أحمد بن إدريس**، وهم يومئذ مُتوافرون أهل ورع ووقوف مع الحدود، لا يعرفون الأمراء ولا يخالطونهم، وسلكَ أتباعهم وطلبتهم مسلكهم رضي الله عنهم أجمعين»، ثم ذكر **الثعالبي** بعض مَشايخه الذين أخذَ عنهم ببجاية بأَسمائهم، إذ طالت مدَّة إقامتِه بها.

و**الثعالبي** الذي أشاد بالعلماء الذين « كانوا لا يعرفون الأمراء ولا يخالطونهم »، لا يقصد مقاطعتهم للأمراء بل كانوا قائمين بمأموريتهم نشر العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والابتعاد كل البعد عن مواقف التهم، ملتزمين بما تعهدوا به لمشايخهم الذين كان شعارهم ـ خصوصا علماء الحديث ـ « اقطعوا اليأس مما في أيدي الناس تعيشوا أعزَّة»[1]، وقد رأينا آثار ما تركته مقاومة الفاطميين، فإن الفقهاء السنيين قاطعوهم مقاطعة شملت من انتصر لهم من العلماء، فقاطعوا تآليفهم، ومن جملتهم **البراذعي** صاحب (**تهذيب المدونة**) وغيره، فالثعالبي الذي وصف تلامذة ابن إدريس و**الوغليسي** بأنهم على سننهما « لا يعرفون الأمراء ولا يخالطونهم » بقصد أنهم لم يكونوا دعاة لمذاهبهم، ولا أبواقا لسياستهم إذ كان من جملة ما تساهلوا فيه سفك الدماء لأدنى تهمة، فالمستنصر بالله ووالده قبله قتلا كثيرا من أساطين العلم، وبلغ بهم الاستهتار والعتو أن حرقوا تآليف ضحاياهم ـ كابن الأبار ـ وقائمة ضحايا العهد الحفصي من العلماء طويلة ولا يتحمَّل مسؤوليتها الملوك الحفصيِّين وحدهم، وإنما يشاركهم في تحمُّل أوزارها كثير من العلماء الذين كانوا يستغِلُّون تقرُّبهم إلى البلاطات ليوشوا

---

(1) كان علماء الحديث عندما يجيزون الرواة عنهم الراغبين في سلسلة السند يوصونهم كتابة ومشافهة: «اقطعوا اليأس مما في أيدي الناس تعيشوا أعزة »، فصارت شعارا لهم.

بخصومهِم لعدَّة أسباب، ومعظمها يرجع إلى الحسد، ثم إن كثيرا من العلماء كانوا لا يعطون قيمةً لبعض الوزراء المقرَّبين، إذ هم أعرف الناس بقيمتِهم، ويتحقَّقون أنهم لم ينالوا مناصبهم باستحقاق، وإنما كانوا يستعمِلون طرق التزلُّف والتقرُّب، و**الثعالبي** الذي حمل على المخالطين للأمراء كان ينتمي إلى أكبر إمارة حكمت عاصمة **الجزائر** وسهول **متيجة**، انتصر أفرادها للمهدي ابن تومرت عندما مرَّ عليهم.

اشتهر علماء الدين في **بجاية** بالورع والنزاهة من زمان، ومترجموهم متَّفِقون على ذلك، إذ امتازت الثقافة ببجاية من أول عهدها ـ أي: ابتداء من القرن السادس ـ بطابع خاصٍّ بقيت آثاره ملازمة لها، ألا وهو التصوُّف، وكان هذا النوع من التصوف تمثله طبقة لها ميول خاصة للزهد والورع، لا ما يدَّعيه محترفو التصوُّف، ولهذا لما ظهرت طائفة ادَّعت الزهد والولاية، وأرادت أن تخلف الأئمة الأولين وتتشبَّه بهم لأغراض دنيوية محضة، فتصدَّى لكشف حقيقتها علماء التصوُّف أنفسهم، كما سيظهر ذلك بوضوح في ختام هذه الدراسة، والخلاصة في هذا الباب أنه رغم الاضطرابات السياسية التي تعرَّضت لها بجاية في العهد الحفصي فإن الحياة الثقافية كانت مزدهرة.

وفي أواخر العهد الحفصي ـ أي: أواخر القرن التاسع ـ لما ضعفت الدولة واندلعت عليها ثورات الأعراب، ورؤساء الإقطاع، استغلَّ كثيرٌ مِن ملوك أوروبا الوضع، فحصلوا لجالياتهم على امتيازات خوَّلت لهم الحرية التامة في تصرُّفاتهم، ذكر المؤرخ الفرنسي **فيرو** [1] أن ملك فرنسا **لويس الحادي عشر** كاتب ملك **بجاية** سنة 1482م (حوالي 887هـ) ليجدِّد المعاهدة التجارية بين بلديهما، فتجدَّدت المعاهدة التي التزم فيها ملك **بجاية** بضمانِ أمن الجالية الفرنسية المقيمة في **بجاية**، وحينئذ عقد المؤرِّخ المذكور فصلا ذكر فيه بتفصيل حالة الجالية الفرنسية المقيمة ببجاية وبقية الجاليات الأوربية

---

(1) **تاريخ بجاية**: لفيرو الترجمان العسكري ببجاية اثر الاحتلال الفرنسي والكاتب المشهور.

فقال: «فالجاليات الأوربية كانت تسكن بفنادق خاصة بها، فكل جالية يخصَّص لها فندق يقيم فيه أفرادها تحت نظر قنصلها الذي كان يسكن معها، فالفندق كان مخصَّصا للسُّكنى والتجارة، وكان عبارة عن قرية، إذ يشتمل على كنيسة ومقبرة (وكان قسيس الكنيسة تابعا لأسقف **جنوة**).

كانت شرطة الفندق تحت تصرُّف القنصل، والحرَّاس الذين كانت أكثريتهم من المسلمين، وكان لهم الحق أن يمنعوا أيَّ أحدٍ كان مسلما أو مسيحيا مِن الدخول إلى الفندق، إن لم يظهر جوازا للدخول.

فالضباط المسلمون ممنوعون مِن اقتحام حرم الفندق إذا دعَتهم المصلحة إلى تتبُّع متَّهم من الجاليات الأجنبية إلا بإِذن القنصل».

هذه هي حالة البلاد ابتداء مِن تدهور الحكم الحفصي في أواخر القرن التاسع، وقد وصف حالة بجاية إذا ذاك الفقيه **أحمد الشريف البجائي**[1] الذي وجَّه سؤالا إلى أستاذه **أحمد بن الحاج البيدري التلمساني** بعد رجوعه من **تلمسان**، ذاك السؤال الذي ضمَّنه وصفَ حالة **بجاية** قال: «ما جوابكم في موضع كثر فيه الظلم والأشرار وانتشر فيه الباطل والسكر كل انتشار، وذل فيه المسلمون وعز فيه الكفار، وارتفع فيه الجور والظلم، واتضع فيه أهل المعرفة والعلم، تمكس فيه جل المبيعات على المسلمين، وأشكل الأَمر على المسترشدين... الخ»، وهكذا نرى أنه رغم ما وصلت إليه بجاية في أواخر القرن التاسع حيث أمكن للجاليات الأجنبية أن تنال امتيازات لرعاياها كان من نتائجها انتشار الفجور والخمور والإباحية مما أدى بعلمائها إلى طرح استفتاءات (داخل البلدة وخارجها) في حكم الإقامة ببلاد إسلامية انقطع فيها الأمر بالمعروف والنهي

(1) نشر صاحب (**البستان في ذكر العلماء ولأولياء بتلمسان**) هذا السؤال في ترجمته التي عقدها لأحمد الحاج البيدري المذكور، المتوفى سنة 980هـ (ص: 140).

عن المنكر، وقد هاجر بالفعل البلدة كثير من علمائها، وانتقلوا إلى القرى المجاورة، ثم إلى قسنطينة وتونس، سنتحدث عنها بتفصيل في موضعها في هذه الفترة التي اجتازتها بجاية، ورد عليها أحد كبار علماء المغرب أمكنه أن يحدث بحق ثورة فكرية كتب لها الانتشار والخلود طيلة ثلاثة قرون بل لا زالت آثارها إلى زماننا هذا.

كان هذا العالم هو **أبو العباس أحمد زروق البرنسي الفاسي** الذي أخذ بتلمسان عن **السَّنوسي** وغيره، ثم عن **الثعالبي** بالجزائر، وكوَّن مدرسة ببجاية كان مِن أبرز تلامذته فيها أحمد بن يوسف دفين مليانة و**أحمد بن خدة الراشدي** ـ أحد أجداد الأمير **عبد القادر** الجزائري ـ وصغير **بن محمد الأخضري** ـ والد المؤلف الشهير عبد الرحمن الأخضري صاحب (**السُّلم**) و(**الجوهر المكنون**) ـ و**محمد بن على الخروبي** (دفين الجزائر)، وقد كان انتشار مذهب **زرُّوق** على طريق **محمد الخروبي**، و**عبد الرحمن الأخضري**.

كان **أحمد زروق** عندما وصل إلى بجاية وجد كثيرا من المبتدعين تقمصوا أثواب الصلاح والولاية وكونوا طرقا منحرفة عن تعاليم الدين فتصدى لمحاربتهم، ثم رأى أنه أمام الفوضى التي سادت إذ ذاك وتستر الدَّجاجلة والمبتدعين بعلم الحقيقة والتصوف والمراءاة الزائفة، رأى أن الوضع في حاجة إلى جعل حدٍّ لهذه الفوضى فألَّف كتابه الشَّهير (**قواعد التصوف**)، ثم (**أصول الطريقة**)، ونظم (**عيوب النفس**) للسلمي، فبهذه التآليف ضبط علم التصوُّف وقلع فكرة: أن الحقيقة تخالف الشَّريعة أو تُبايِنها، ثم ألف كتبا أخرى قيِّمة في الحديث والتفسير والفقه وما إلى ذلك، وإذا وجدنا تلميذه **محمد بن على الخروبي** نشر جلَّ تآليف أستاذه زروق التي تعهَّدها بالشَّرح والتعليق كـ : (**أصول الطريقة**)، و(**عيوب النفس**)، ثمَّ ألف: (**كفاية المريد**)، و(**تفسير القرآن**)، و(**الحكم**) وشرحها، وقد ظنَّ بعض مترجميه أنها (**حكم ابن عطاء الله**)، والحقيقة أنها

تأليف له مع شرحه[1]، انتشرت تآليف الخروبي وقد وصفها **العجيمي** أستاذ **أبي سالم العياشي** الرَّحَّالة، فقال: «ومن المعلوم أن تفاصيل السنة يطول، ومن أنفع الكتب لمن أراد الله له الجري على هذه المحجَّة (**كفاية المريد**) للشيخ **الخروبي**».

وذكر **محمد بن علي السنوسي** دفين جنوب (دفين ليبيا) في بعضِ **فهارسه** أن تآليف **الخروبي** شبيهة بتآليف **الغزالي**، فإن هذه التآليف لم تجاوز أوساط الخاصَّة، أما الذي خلد تعاليم زرُّوق ونشرها عند الخاصة والعامة فهو ولد تلميذه **عبد الرحمن الأخضري** (دفين بنطيوس) بالزاب (**بسكرة**) فقد ألف منظومة سماها: (**القدسية**) [2] تحتوي على 357 بيتا، ضمَّنها كشف حالة المبتدعة والدَّجالين والمنحرفين المدَّعين للصلاح، وقارن بينهم وبين الصالحين الحقيقيين، فكان الاقبال على هذه المنظومة التي تناقلها طلبة العلم، وصار أصحاب المعاهد يلزمون طلبة معاهدهم بحفظها وتحفيظها، كما اعتنى كثير من العلماء بشرحها والتعليق عليها، قال الأخضري في وصف المنحرفين الذين ادعوا التصوف في: (**القدسية**).

قــد ادعــوا مراتبــا جليلــة   والشَّرع قـد تجنبـوا سـبيله

إلى أن يقول:

قد ملكـت قلـوبهم أوهـام   فـالقومُ إبلـيس لهـم إمـام

كفـاك مـن جميعهم خيانـة   إذ ختلـوا الـدنيا بالديانـة

وهتكـوا محـارم الشـريعة   وسلكوا مسـالك الخديعـة

ثم بيَّن أن المقياس الذي تقاس به أعمال الناس في هذا الميدان هو اتِّباع السنة والكتاب، وأن كل ما خالف تعاليمهما فهو إفك وبهتان وإلى هذا أشار بقوله:

---

(1) وقد احتفظ معهد من معاهد قرى بجاية بهذا التأليف النادر القيِّم بخطِّ مؤلِّفه.

(2) نشرتها (**مجموعة الرسائل المنيرية**) المطبعة المنيرية 1346م، إلا أنها ناقصة.

من كان نيل الأماني راجيا وعن شريعة الرسول نائيا

فانه ملتبس مفتون وعقله مختبل مجنون

هذا محال لا يصح أبدا لأن سيد الورى باب الهدى

وقال بعض السادة الصوفية مقالة جليلة صفية

إذا رأيت رجلا يطير أو فوق ماء البحر قد يسير

ولم يقف عند حدود الشَّرع فإنه مستدرج وبدعي

إلى أن يقول:

والشَّرع ميزان الأمور كلها وشاهد لأصلها وفرعها

ثم يقول:

وقال بعض أولياء الله السالكين لصراط الله

فارفضه إنما الفتى دجال ولم يقف بأدب الجلال

ثم صرَّح **الأخضري** في ختام منظومته (**القُدسية**) بأنَّ أسوتَه في منهجِه هذا أستاذ والده **زرُّوق**، وفي ذلك يقول:

ومَن يُرد مَعرفةً بالبِدَع وما أقمنا عليه أصل المدع

ففي كتاب شيخنا الزرُّوق عجائب فائِقة تَروق

وقد كان ذكر مقارنة بين المدعي لرتب الكمال والولاية الصحيحة فقال:

واعلم بأن الولي الرباني لَتابع السنة والقرآن

والفرق بين الإفك والصواب يعرف بالسنة والكتاب

ففي هذه المنظومة أوضح **الأخضري** بطريقة جليَّة لا لبسَ فيها ولا غمُوض.

لم يقتَصِر **الأخضري** في مَنظوماتِه وفي دروسِه على محاربةِ المبتَدعين وأَشباهِهم، بل اشتغلَ أيضا بمَن سمَّاهم: (**علماء السُّوء**)، وقد كثُروا في ذلك العهدِ فترامَوا على أبوابِ قصورِ الأمراءِ ورؤساءِ الإِقطاع، الذين صدقَ **عبد الكريم بن الفكُّون القَسنطيني** (988

ـ 1073) حيثُ كان يسمِّيهم باللُّصوص، فخصَّهم **الأخضري** في مَنظومتِه المشهورة بـ: **(اللامية)** ـ تحتوي على (250) بيتا ـ وهذِه بعضُ أبياتٍ منها:

واحذَر **علماءَ السُّوء** فقَد ... خصُّوا بالإفكِ وبالخطل

حفظوا الأقوال وما عمِلوا ... بالعلمِ فساءَ القوم قل

ما حِرفتُهم إلَّا لعبُ ... ولحوم الناسِ بلا قلل

أرباب قلوب قاسية ... للطاعة أصلا لم تمل

لا نطق لذكر الله لهم ... إلا باللهو وبالهزل

لا يكسبون العلم سوى ... لرياء الناس وللجدل

طمس الأقوال تملقهم ... لولا السوء دوى الخلل

يصلون نارا كما وردا ... مِن قبلِ أُولي الأوثان قُلِ

فاترك أفعالهم أبدا ... وخذ الأقوال ولا تمل

حاش **علماء الخير** أولي ... حظ في العلم وفي العمل

فعليك أخي بمجالسهم ... واظفر بمحبتهم تَصِلِ

وإذا نظرنا إلى العصر الذي عاش فيه **الأخضري** ـ أي: في أوائل القرن العاشر ـ الذي سقطت فيه بجاية واحتلَّها الإسبان، ولم يبق من مملكتها إلا **عنابة** التي كان بها والٍ حفصي، وكذلك **قسنطينة** التي استبدَّ فيها الوالي الحفصي تبعا للملك **الحسن الحفصي** الذي كان بتونس واستعان بالإسبان وسهَّل لـ: **شارلكان** احتلال **تونس** بعد أن دخلَها **خير الدين باشا**، وكان سببا في تعصُّب والي **قسنطينة** الحفصي الذي انقسم سكَّان بلدة **قسنطينة** في عهدِه إلى قسمَين تَقاسما أحياء المدينة طيلةَ سنوات، وكان قسم الموحِّدين للوالي شيخ الإسلام **عبد المؤمن** وأتباعه، والقسم المؤيِّد للأتراك **عبد الكريم بن الفكُّون الجد** المتوفَّى سنة 988هـ، أما **الزاب** مسقط رأس **الأخضري** فقد قُطِعت صلته ببجاية وبقسنطينة، وتنازعه الثوار، ولهذا لم يبالغ **الأخضري** عندما وصفَ عصره في **(نظم السُّلم)** بقوله:

لا سـيما في عـاشر القـرون　　　ذي الجهل والفساد والفتون

كما أشار إلى تدهوُر البلاد والفَوضى السائدة إذ ذاك في عدَّة قصائد.

يعدُّ **أحمد زروق** خاتمة العلماء الجامعين بين الحقيقة والشريعة، وقد حظي بتراجم قيِّمة تدلُّ على الثِّقة التي كان يتمتَّع بها عند الطائفتَين معا، وقد أدَّى خِدمة جليلةً بتأليفه (**قواعد التَّصوُّف**)، وبقية تآليفه التي ضبطَ فيها علم التصوُّف وغلق كلَّ المنافذ على المبتدِعة، وهو لا يقلُّ قيمةً عن (**قواعد**) **محمد المقري الجد**، و(**قواعد**) **أحمد بن يحيى الونشريسي** في الفقه.

لم يصِلنا مِن شروح (**قواعد التصوُّف**) لزرُّوق إلَّا شرح أستاذٍ ليبي[1]، ذكَر في مقدِّمتِه عندَ شَرحه لقول **زرُّوق** في بيانِ منهجِه في التأليف: «وبعد، فالقصدُ بهذا المختصر وفصوله تمهيد قواعد التصوُّف وأصولِه على وَجهٍ يجمعُ بين الشَّريعة والحقيقة، ويصِلُ الأُصولَ والفقهَ بالطريقة»، قال في **الشَّرح**: «وسبب التَّفرقة ما ذكره **ابن خلدون** أنه لما انقضَت قرون السلفِ الصالح مِن الصَّحابة والتَّابِعين وتابِعيهم تَباينت الآراءُ وظَهر الخروجُ عَن طريقِ الاستِقامة، وأَغفل الناس تفقُّد قلوبهم، واشتغلَ الجمهورُ بإِصلاح أعمالِ أبدانهِم مِن غَير اهتمامٍ بإِصلاح الباطن، فاشتَغل الفقهاءُ بما تعمُّ به البلوَى مِن أحكامِ المعاملاتِ والعبادةِ الظاهرةِ حسبَما طالبَهم بِذلك منصبُ الفُتيا وهِداية الجمهور، واختفَى أربابُ القلوبِ باسم الزُّهادِ والعبَّادِ وطلَّابِ الآخرة، مُنقطعين إلى الله، قابِضين على أَديانهِم كالقابضِ على الجمر، حسبَما ورد، ثم عرضَت آية البِدع في المعتقَدات، وتداعى العبادةَ والزُّهدَ معتزلي ورافضي وخارجي لا يفقه إصلاح

---

(1) لم نطَّلع على اسمه، وإنما ذكر أن أستاذه أحمد بن جابر نزيل مدينة طرابلس أمَره بشرحه، ترجمه في (**نفحات النسرين والريحان**) أحمد النائب الأنصاري، تحقيق علي مصطفى المصراطي، مطبعة المكتب التجاري، بيروت، 1963م.

أعماله الظاهرة ولا الباطنة معَ فساد المعتقَد، فاشتغلَ بالردِّ عليهم وتَصفية الحقِّ مِن باطلِهم أهلُ أُصول الدِّين، وانفردَ خواصُّ أهلِ السُّنة بالمحافظةِ على أفعالِ القلوب مع حفظِ الأَعمال الظاهرة، فيظنُّ الجاهلُ مِن أجل هذا افتراق المعلومين والمعلمين وأهلهما، وما هو إلا دينٌ واحد. انتهى كلام **ابن خلدون**».

امتازت تعاليم **زرُّوق** أنه صار حجَّة عند الفقهاءِ والمحدِّثين والمتصوِّفين، كما انتشَرت تعاليمُه وآثارُه وحافَظت **بجاية** علاوة على تآليفه بِمُحافظتها على وَظيفته التي لا زالت تُسرد في مساجد **بجاية** وقُراها، هي ووظيفة أستاذه **يحيى العيدلي**[1]، كما لا زالت قريةً مِن قُرى **بجاية** تحتفظُ باسمِه، إذ ترك **زرُّوق** أسرةً ببجاية تَوارثَ أفرادُها العلمَ والفضل، كما تَوارثوا ـ مِن تراثِه ـ (**شَرحه على الوغليسية**) في الفقه بخَطِّه، وكان مِن جُملة أحفادِه المرحوم **الهادي الزرُّوقي** الذي كان له فَضلٌ في بعثِ الثَّقافة الإسلامية ببجاية، وناضلَ نِضالَ الأبطالِ في نَشر الوعيِ الإسلامي، وبُلِيَ في سَبيل مهمَّتِه والبلوغ إلى هدفِه، وأظنُّ أن القريةَ تسمَّى: (**ايزروقي**).

كان في عهد **زروق** ببجاية عدَّة معاهد واصلت التَّدريس ببجاية ثمَّ بقُراها المجاوِرة، خصوصا بعدَ احتلالِ **الإسبان** لبجاية، إلا أنَّ مدرسة **زرُّوق** امتازت عنها بأن تآليفه التي اعتنَى فيها بوَضع قواعد للتصوُّف واشتِغاله بمحاربة البِدع التي كثُرت في ذلك العهد، كان لها صدًى في **الجزائر** كلِّها، وكلُّ مَن تصدَّى لأَفكارِ الدَّجاجِلة والمبتدِعين كانت حجَّته تآليف **زرُّوق**، كما سنُنهي ذلك بِمَزيد مِن الإِيضاح في **القسم الثَّاني** لهذه الدِّراسة التي نخصِّصها للحياة الفِكرية في العهدِ التُّركي وآثارها.

---

(1) **يحيى العيدلي**: صاحب (**معهد تمقرا**) الشَّهير، تخرَّج مِن معهده كثير مِن العلماء، وأقام بمعهده **أحمد زروق** وأخذ عنه، وألف في **معهده** بعض تآليفه، له (**وظيفة**) حافظَ على سردها بعض سكَّان بجاية إلى زمانِنا هذا.

دور منطقة توات في تمتين الروابط الثقافية والحضارية بين مناطق الجنوب والشمال(1)

إنه لمن دَواعي الغبطة والسُّرور أن تشرفت بدعوة المشرفين على هذا الملتقى الثالث الثَّقافي بـ (**أدرار**) الذي أشرفت عليه مديرية التربية بالولاية، إذ سبق لي أن ساهمتُ في الملتقيَين الماضيَين ـ أي: الأول والثاني ـ بدراستَين حاولتُ فيهما لفتَ انتباه سكَّان هذه المنطقة إلى مزيد مِن الاهتمام والاعتناء لجمع ما تبقَّى مِن تراث هذه المنطقة، ونشره لتخليده وتعميم فوائده، وقد ركَّزت الدِّراستَين المذكورتَين على استعراضِ بعضِ المصادر التي وصلتنا بلغتها الأَصلية أو مترجمة إلى الفرنسية، إذ بطبيعة الحال أن طلائع الاستعمار مِن ضبَّاطٍ وقَساوِسة هم أوَّل مَن استَحوذَ على هذا التُّراثِ واستغلَّه.

وأما موضوع محاضرتي اليوم فهو مواصلة ما سبق لي تَناوله في المحاضرتَين السَّابِقَتَي الذِّكر، إذ نحن أحوَج النَّاس إلى ما تبقَّى مِن تراثنا وإِنقاذه مِن الضَّياع، أو على الأقلِّ معرفته ومعرفة مَواطنه.

امتازت منطقة (**توات**) التي كانت محوَر الاتصال بين السُّودان وبلاد الشمال من جهة، وبين المغرب الأقصى مِن جهة أخرى، تجوبها قوافل التجَّار والحجَّاج، واتخذوا فيها محطَّات ممتازة، خصوصا لقوافل الحجَّاج التي كانت تقيم فيها الأسابيع تحت رِعاية السكَّان والمبالغة في استِضافَتهِم، وقد حاول المستَعمِرون إِتلاف آثار هذه المحطَّات في

---

(1) اعتمدنا في إدراج هذه المقالة ضمن هذا المجموع على كتاب: **الرِّحلة العليَّة** (2/ 30 ـ 44) للشَّيخ **محمد باي بلعالم** (رحمه الله تعالى)، وهذه المقالة هي عبارة ـ كما ذكر ـ عن: «محاضرة ألقاها الشَّيخ **المهدي** في الأسبوع الثقافي في مدينة **أدرار** يوم 16 أفريل 1981م».

فَجر تاريخ الاحتلال بها، فارتبطت بالحصانة التي أحاطَها بها السكَّان ـ كما سنشير إلى ذلك عِندَ الحديث عَن محطَّة (**عين صالح**) الخالدة ـ.

كما امتازت منطقة (**توات**) بنخبة علمائها، وبأهمية تآليفهم، وخزائن كتبهم، وقد سبقَ لنا ذكر بعض هذه الخزائن التي نُقِلت إليها مِن اسطنبول (عاصمة الخلافة الإسلامية)، وذكَرها بتفصيلٍ الرَّحالة الشَّهير أبو سالم العياشي، كما تعرَّض لِذِكرها بعض الرحَّالة المحليِّين الذين كان لهم الفضل في تَسجيل رَحلاتهم، وأقل ما استفَدناه مِن رحلاتهم الإِشارة إلى أسماءِ الكتبِ التي اطَّلعنا عليها بهذِه المناطق، ولا يفوتُنا بهذه المناسبة أن نُلفِتَ أنظارَ المستَمعين إلى أهمية بعض تآليف هذه المنطِقة، إذ لم يتناول فيها أصحابها بعض الفنون التَّقليدية وفروع المعرفة مِن لغة وتفسير وحديثٍ وفقه، بل امتاز بعضها بإِعطاء صورة مصغَّرة عن الحياة اليومية للمنطقة، ولا نُبالغ إِن قلنا أنَّنا نجِدُ بعضَ هذه التآليف الممتازة النَّادرة جامعة مفيدة كـ (**البسيط في أخبار تمنطيط**) الذي ذكرناه مِراراً كنموذج في محاضرتنا السَّابقة، وهو رغم صِغر حَجمِه أمكن لمؤلِّفه أن يجمعَ فيه جوانب من تاريخ هذه البلاد ومؤسِّسيها وتطوُّرها مع الزَّمان، وذكر الأُسَر التي التجأَت إليها من بلاد الشمال ابتداءً مِن القَرن التَّاسع الهجري لما ابتليت بلاد الشَّمال بالغَزو الصَّليبي، وسقطت عواصمها الواحدة تلو الأخرى، كـ (**سبتة**)، و(**مليلية**)، و(**وهران**)، و(**بجاية**)، و(**تونس**)، و(**طرابلس**)، فانتقل كثيرٌ من سكان (**تلمسان**)، و(**وهران**)، و(**سعيدة**)، وفي طليعتهم العلماء الذين استَوطنوا (**تمنطيط**)، وكان فضل صاحب (**البسيط**) أن ذكر القصور التي أسَّسوها، والخزائن التي نقلوها، هذا زيادة على إحصاء عن عدد السكَّان ومعالم البلدة، حيث أثبت لنا بصفة جليَّة أنَّ الرابطة التي كانت تربطُ بين الشَّمال والجنوب ليست مِن باب الافتراضات أو التكهُّنات، بل هي حقائق ملموسة، وقد نتج عن هذا الاتِّصال بين الجنوب والشمال في المجالات الثَّقافية والسِّياسية أن تكوَّنت وِحدة ثقافية سياسية واقتصادية ببلاد الجنوب،

تركت بصمات أصابعها ما يربو على القَرنَين ـ كما سنشير إلى ذلك في هذه الدِّراسة ـ .

كان الاتصال بين الشمال والجنوب قديما حيث كانت قوافل التجار في عهد ازدهار الإسلام ابتداء من القرون الأولى تتردد على المنطقة وتكونت شركات تجارية خاصة تحدَّث عن بعضها العلَّامة **أحمد المقري** التلمساني في (**نفح الطيب**) عند حديثه عن جدِّه القاضي **محمد المقري** ـ أستاذ **ابن خلدون** ـ تحدَّث عنها بتفصيل مفيدٍ جِداً، كما تحدَّث عن هذه العلائق التِّجارية أبو عُبيد البكري الذي تعرَّض لها عند تَعريفه بقلعة بني حماد فقال: «وهي قلعة كبيرة ذات منفعة وحصانة وتمصَّرت بعد خراب (**القيروان**)، وانتقل إليها أكثر أهل إفريقيا، وهي اليوم مقصد التجار، وبها تحل الرحال مِن العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب... الخ »، ثمَّ وصف البكري العلائق التجارية بين قلعة بني حماد والجنوب، وبالخصوص (**أوداغست**) التي كانت بها مناجم التبر، وكانت مقصد هذه القوافل، فقال: «وهي مدينة كبيرة بها جامع ومساجد كثيرة، في جميعها المعلِّمون للقرآن »، إلى أن قال في وصف سكَّانها: «وهم أرباب نعم جزيلة، وأموال جليلة، وسوقها عامر الحركة لا يسمع فيها الرجل كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله، وتبايعهم بالتبر، وليست عندهم فِضَّة، وبها مياه حسنة ومنازل رفيعة، ويجلب منها العنبر الجيِّد لقرب البحر المحيط منهم »، ثم ختم البكري تعريفه لـ (**أوداغست**) فقال: «وذَهَبُ **أوداغست** أجود ذهب أهلِ الأرض وضاحة، وكان صاحب **أوداغست** في خمسين وثلاثمائة فيه يروشان رجل من صنهاجة، وكان قد دانَ له أَزيَد مِن عشرين ملكا مِن ملوك السُّودان، كلهم يؤدِّي له الجزية... الخ »، من هذا التعريف يتبيَّن لنا أن سكَّان السودان إذ ذاك كانت تتكوَّن منهم إمارات تتمتَّع باستقلال ذاتي.

هذا، وإن كانت البلاد في المجالات الاقتصادية متقدِّمة فإنها قبل انتِفاضة دولة المرابطين اللَّمتونية كان الدِّينُ فيها ضعيفا، وتعاليمه سَطحية، ولو وصلَها الدِّين الإِسلامي ابتداءً مِن سنة 62 هـ مع كتائب **عقبة بن نافع الفِهري**، وقد زار هذه المناطق

الرحَّالة **ابن حوقل**، وسجَّل انطباعاته عنها في (**رحلته**) المشهورة (**المسالك والممالك والمفاوز والمهالك**)، ابتدأ ابن حوقل تدوين رحلته سنة 331هـ وأَنهاها سنة 359هـ، وكان سكَّان هذه الناحية ينقسمون قِسمَين: قسم شيعي، وقسم سني مالكي، فقال عن الفرقة الأولى الشِّيعية: «والغالب عليهم الجفاء وغلظ الطَّبع »، ثم قال: «والفرقة الثانية سُنِّية مالكية حَشوية، وبينهم القتال المتَّصِل ليلا ونهارا، والدِّماء الدَّائِمة، ولهم مسجد يصلي فيه الفريقانِ فرادى عشر صلوات، إذا صلَّاها هؤلاء أتوها ولاء بعشر آذانات وعشر إقامات، والمالكيون منهم فوق الشِّيعة في الفظاظة وغلظ الطَّبع وجباسة الأخلاق... الخ».

ثم يتعرَّض ابن حوقل إلى حالتهم الاقتصادية فيصفهم ببلوغ ذروة الحضارة والرفاهية إلا أنهم كما قال وبقدر مالهم من مواد لذة العيش يتغالون في الجهل والطيش ثم يختم حديثه عنهم بأحكام قاسية حيث قال: وقد ألح الروم في وقتنا هذا على المسلمين الذين على سواحل بحر الروم بالغارات واختطاف مراكبهم من كل جهة ولا غياث لهم ولا ناصر والمليك فيهم حقير ذليل وهو جامع مانع والعالم يسرق ولا يشبع ويفتي بالتأويل على ما يختار ولا يخاف معادا ولا مرجعا والتاجر فاجر لا يعاف وبكل ريح يلقح فالثغور والجزائر إلى الأعداء مسلمة والأرض إلى الله من أربابها متظلمة... الخ» اهـ.

كانت هذه حالة البلاد ـ أي: الإمارات ـ الصَّحراوية والسودانية قبل انتِفاضة دولة المرابطين الَّلمتونية التي نشرت الدَّعوة الإسلامية ووحَّدت بين القبائل، وإِنَّ تمتُّع هذه الإمارات بالاستقلال الذاتي هو ما ذهبَ إليه العلَّامة **أحمد بابا التمبكتي**، حيث لما غزا بلادهم الملك أحمد المنصور الذَّهبي وألقى القبض على الشَّيخ **أحمد بابا** وأفراد عشيرته وقادَهم قائد الحملة جوذر المملوك إلى (**مراكش**)، ذكر صاحب كتاب (**بذل المناصحة**) فيما نقله عنه صاحب (**الاستقصاء**) قال: «سمعت الشَّيخ أبا العباس أحمد بابا التَّمبكتي

يقول: أنا أقل عشيرتي كتبا، وقد نهب لي ست عشر مائة مجلد »، ثم قال صاحب (**بذل المناصحة**) مؤرِّخا وقوع هذه الأحداث ما يلي: «كان القهر عليهم في أواخر المحرَّم سنة اثنتين وألف وصَلوا إلى (**مراكش**) في أول رمضان من السنة المذكورة، واستقرَّ مع عيالهم في الثقاف إلى أن انصرف أمد المحنة، فسرحوا يوم الواحد والعشرين من رمضان سنة أربع وألف، ففرحت قلوب المؤمنين بذلك ثم قال: ولما دخل الفقيه أبو العباس على المنصور بعد تسريحه من السِّجن وجده يكلم الناس من وراء حجاب، وبينه وبينهم كلة مسدولة على طريقة خلفاء بني العباس ومن يتشبَّه بهم، فقال له الشيخ ـ أي: **أحمد بابا** ـ إنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ (الشورى: 51) وأنت قد تشبَّهت بربِّ الأرباب، فإن كانت لك حاجة في الكلام فأنزل علينا وارفع هذا الحجاب، فنزل المنصور ورفعت الأستار، فقال الشَّيخ: أي حاجة لك في نهب متاعي وتضييع كتبي وتصفيدي من **تنمبكتو** إلى هنا حتى سقطت على ظهر الجمل واندقَّت ساقي ؟ فقال له المنصور: أردنا أن تجمع الكلمة وأنتم في بلادكم من أعيانها فإن أذعنتم أذعن غيركم فقال الشيخ أبو العباس فهلا جمعتم لكلمة ترك تلمسان فإنهم أقرب إليك منا... الخ ».

سقتُ هذا الحديث على طوله ولو لم يخل تأليف مِن تآليف المغرب العربي مِن ذكر ترجمة **أحمد بابا التنبكتي** ومحنتِه للاستِدلال على الاتِّصال الوثيق الذي كان يربِطُ بين بلادِ الجنوب وبلاد الشمال، وبينهما وبين العالم الإسلامي، كما نستدلُّ على انتشار الثقافة الإسلامية في هذه الربوع، وإن كان تصريح **أحمد بابا** يذكر أنه ضاع له في محنتِه ست عشر مائة مجلَّد، وهو أقل أفراد عشيرته كتبا، للتَّدليل أيضًّا على ما سبق لنا ذكره أن هذه المناطق كانت آهِلة بدور العلم وفطاحل العلماء الأباة، الذين إن اقتصرنا على موقف **أحمد بابا** مع الملك **أحمد المنصور الذهبي** وتعريفه إياه على مُعاملته له ولأفراد عَشيرته لكفانا دليلا، ورغم أن **مراكش** عاصمة **المنصور الذَّهبي** كانت مِن عواصم الدنيا في

ذلك العهد، ومركزا علميا جمعَ فطاحل علماء المشرق والمغرب، غادرها **أحمد** حيثُ كان الملك يغدِق عليهم الأموالَ الطائلة، فرغم هذا قال لمودِّعيه بعد أن دَعوه للأوبة قَولته المشهورة: «لا ردَّني الله إلى بلادكم» ، واتجه **بابا** إلى **تنبكتو** حيث واصلَ خِدمةَ العلم، وأوجدَ **بابا** نموذجا مِن العلماء الأحرار الأباة، ويكفيه فَخرا أنه ترك لنا موسوعةً لا تقدَّر بثَمن، وهي (**ذيل الدِّيباج**).

وغزو **أحمد المنصور الذهبي** على **تنبكتو** وامتحانه **أحمد بابا** وعشيرته له اتِّصال بمنطقة **توات،** حيث فقدت **توات** استِقلالها في تلك الحملة سنة 1581، ثم لحقت بها **تنبكتو** سنة 1591، ورغم ما صرفه الملكُ مِن أموالٍ وما دعَّم به هذه الإرسالية مِن رجال، فلم تؤتِ ثمرتها المرجوَّة، والمؤرِّخون متَّفِقون على أنَّ هذه الحملةَ باءت بالفشل، وهنا نقِف وقفةً قصيرة تخص المملوك الإسباني جوذر قائد الحملة وكان للملك المنصور الذهبي جيش مكون من اللفيف الأجنبي الإسباني، ومنذ سنوات قليلة شارك أحد كبار المستشرقين الإسبانيين في ملتقى الفكر الإسلامي المنعقد بباتنة كان موضوع دراسته ترجمة المملوك جوذر.

هذا، وذكر أنه من مواليد (**غرناطة**) المدجَّنين، وهذا المستشرق هو **ميكال ونالزا،** كما أستَسمِحكم العفو عن وقفة أخرى نرجع فيها إلى الحديث عن كتاب (**البسيط في أخبار تمنطيط**)، فإنَّ مؤلِّفه هو الشيخ محمد بن الحاج عبد الرحيم، وهذا لا يمنع أن الشَّيخ البكراوي وغيره اقتبسوا من التأليف الأصلي على العادة الجارية عند كثير من المؤلفين، حدد صاحب (**البسيط**) تاريخ تأسيس **تمنطيط** التي أسَّسها بقايا دولة المرابطين الَّلمتونيِّين بعد ما أطاحت بدولتهم مملكة دولة الموحِّدين، كما ذكر الأسباب التي جعلتهم يختارون الموقع، ثم تعرَّض المؤلف إلى وصف تخطيط **تمنطيط** وتتبَّع تراجم الأُسَر التي لجأت إليها منذ بداية تخطيطها، ثمَّ تعرَّض لضبط تاريخ تلك الأُسَر التي لجأت إليها منذ بداية تخطيطها، ثم تعرض لتاريخ تلك الأسر، ومن بينها أسرتي

العصنوني ومحمد بن عبد الكريم المغيلي بطلا قضية يهود توات التي تركت بصمات أصابعها وخلدت تاريخ توات التي لم تستفد منها قضية دينية في إطار الفقه الإسلامي، بل كانت لها أبعاد وجذور تظهر لنا حالة البلاد الثقافية والاقتصادية والسياسية والتَّدهور الذي تسرب إلى البلاد، وموقف علماء البلاد الذين انقسموا على قسمين قسم يناصر العلامة **محمد بن يوسف السنوسي** مجدِّد علم التوحيد بتلمسان، وقسم يناصر مواطنه العلامة **أحمد بن زكري** (مفتي تلمسان)، وانتصر لكلٍّ من القسمين نخبة علماء فاس وتونس وبلاد الصحراء، فإذا أمعنا النظر نجد القسم الذي انتصر وأيد محمد بن عبد الكريم المغيلي لا يشمل أي موظف بخلاف المؤيِّدين لخصمه القاضي **العصنوني**، وهذا ما يدلُّنا على الدَّور الذي لعِبَه في القضية ولاة الأمر، وقد وجدنا في (**رحلة**) العلامة الشيخ مولاي **أحمد بن هاشم** المنسوب لقبيلة أولاد عمر بتيمي التي قام بها داخل بلاد **توات** ودوَّنها سنة 1113هـ/ 1708م، قال: «ومن قرية فنوغيل ذهبتُ إلى زاوية ابن عبد الكريم في بوعلي، فاطلعت على عدَّة رسائل لهذا الشيخ، منها رسالة يذكر فيها أنه عندما وصل إلى بلد **توات** لم يجد فيها أي حاكم، ولا يدين سكانها لأي سلطان، وكل واحة مِن واحاتها إلا وهي تحت تصرُّف يهودي، وكان هذا اليهودي مطاعا محترما... الخ».

هذه في الجملة لقطات من الحياة الثقافية والسياسية بهذه المنطقة توات أشرنا إلى بعض خطوطها العريضة في المحاضرتَين السَّابِقتَين، فإنا أَعدنا ذِكرها لما يتطلَّبه سياق الحديث في هذه المحاضرة المعنونة بـ : (**دور منطقة توات في تمتين الروابط الثقافية والحضارية بين مناطق الجنوب والشمال**).

هذا، وإن كانت قضية المغيلي والعصنوني اصطبغت بالطابع المحلِّي حيث اشتهرت عند جلِّ مَن كتَب عنها وآثارها من المتقدِّمين والمتأخِّرين بـ : (**قضية يهود توات**)، وهي تناولها بعض المؤلِّفين الأجانب في الأربعينيات في قالب رواية صبَّ فيها جام غضبه

على العلَّامة **محمد بن عبد الجليل التَّنسي**، ورماه بالعنصرية، وقد كان فضل العلماء الذين انتصروا لكلٍّ من المغيلي أو خصمه القاضي **العصنوني** عرضوا القضية ببيان وتفصيل ولم يخرجوا بها عن إطارها الفقهي وكان فضل عرضها بنزاهة للعلامة **أحمد بن يحيى الونشريسي** الذي ضمَّنها موسوعته الفقهية كتاب (**المعيار المعرب عن فتاوى أفريقيا والأندلس والمغرب**)، وبهذه المناسبة يمكننا أن نتعرَّض لقضايا دينية أثيرت بالمنطقة وكان لها صدى في بلاد العالم الإسلامي شمالا وجنوبا شارك فيها علماء البلاد بالعالم الإسلامي مما يدلنا على أن الوحدة الثقافية بين الشمال والجنوب وحدة حقيقية.

ويمكننا أن نضيف إلى قضية يهود توات قضية الدخان التي كان منطلقها **تنبكتو** حيث كان السكان يستعملونه قبل الإسلام ولما زار وفد منهم الملك أحمد المنصور الذهبي قبل غزوته على تنبكتو بعاصمة مراكش لما كان ضمن الهدايا التي قدموه بين أيديهم الدخان ولنترك الكلمة لمحمد بن يوسف الزياني صاحب كتاب: (**دليل الحيران وأنيس السَّهران في أخبار مدينة وهران**) الذي قال متحدِّثا عن أحمد منصور الذهبي: «وفي أيامه ظهر الدخان بالمغرب وانتشر وسببه أن أهل السودان أتوا له بهدية وكان أهل السودان يشربون الدخان ويستعملونه استنشاقا وشربا حتى من لم يشربه منهم يقولون إنه به مرض وكان وقت إتيانهم به سنة 999هـ وكانوا كلما شربوه واستنشقوه ناولوه لجلسائهم من سكان مراكش فعمت بلوته، وحينئذ أمر السلطان **أحمد المنصور** بحرقه فحرق منه في يوم واحد مائة حمل وفي يوم آخر مائة ألف حمل ».

ثم تعرَّض صاحب (**دليل الحيران**) إلى الحكم في شربه من طرف الفقهاء فأثبت قصيدةً للعالم الأديب عمر الزياد علَّل صاحبها تحريمه من الناحية الطبية فقال:

الحمـــد لله العظـــيمِ القهـــرِ   حمـــدا يـــدوم بـــدوامِ الـــدَّهرِ
ثـــمَّ الصَّـــلاة وكـــذا التَّحيـــة   عـــلى النبـــي أشرف البريَّـــة

محمَّـــــد وصـــــحبه والآل عــلى مــرِّ الأيَّــام واللَّيــالي

وبعد فاسـمع لمقـال قـد جـلا وقلتـه لمـا قـد الفكـرُ انجـلا

في بدعــةِ الــدُّخان لمــا بانــا وأفســد الرِّجــال والنِّســوانا

وظهـــر في ســـائر الـــبلاد واســتعمله غالـــب العبـــاد

أعـزُّ مـن طعـامهم والشـرب وظهـر في شرقهـا والغـرب

وأعجـب الأمـور يـا مـوال أنَّ الـذي مـنهم فقـير الحـال

مـا يملـك في بيتـه رغيفـا وحالـــه بفقـــره ضَـــعيفَا

فـانظر تـرى أولاده جياعـا وعقلـه مـن رأسـه قـد ضـاعا

بشـربه قـد ضـاعت العقـول وطالــت الغفلــة والــذُّهول

يـا ويحكـم أتشـربون جيفـه وقــد جعلتمــو لــه وظيفــه

دخـان مـع ظـلام مـع نتـان وحرقـه يلـدغ في الأسـنان

وإنـه بكـلِّ ذمٍّ قـد وصـف ولم يـزل شـاربه في أخٍّ وتـف

وانظـر لـه يطرطـر لحيتـه في شربـه لمـا يمـدد بصـوته

فقـــل لمـــن بحلِّـــه يقـــول ألـيس أن الشـرع يـا جهـول

مصــــرِّح بحرمــــة الإسراف مخـالف يـا عـادم الإنصـاف

دعـه يكـن فقـيرا أو غنيـا فلـيس هـذا مصـروفا شرعيـا

وغـيرُ هـذا قـال أهـلُ العلـمِ قـولا بالاتِّفـاق يـا ذا الفهـم

يجــب عنَّــا كلُّنــا قبــول قول الأطبـاء السَّـادة العـدول

بأنَّـــه إن أضرَّ شيءٌ يحـــرم من شربٍ كان هذا أو ما يطعم

قال السَّـهاوي العـالم القليـوبي أعظِـم بـه مـن عـالم طبيـب

تـراه في كـل العلـوم بحـرا قـال مُضـرٌّ وحـرام جهـرا

وغـيره كالقـدوة اللقـاني أفتـى بحرمتـه لا كـتماني

والعــالم العلامــة الســهاوي الشيخ عيسى وكذا الشـيراوي
وشيخنا البحر الطامي النويب العــالم الحـبر الـذكي اللبيـب
قــال حــرام ثــم فيــه صــنَّفا رســالة ســماعها فيــه الشِّــفا
وكــم وكــم مــن عــالم عظـيم أفتــى وقــال فيــه بــالتحريم
قــول الأطبـاء العلـوم مسـتند بأنــه يــورث في العــين الرمــد
وقــال قــوم يــورث الغشــاوة فشـــربه منتهـــى الشـــقاوة
يســـوِّد الأســـنان باصـــفرار ويشـغل الفــم عــن الأذكــار
يضــرُّ بالأعضــاء عــن يقــين وهـــذه مصـــيبة في الـــدين
ويــورث في الــذَّكر اســترخاء منــه الرجــال تهجــر النســاء
وهـــذه مضـــرَّة بـــالخلق وإن هـذا القـول قـول صـدق
وكـــل مَـــن يشـــربه يُقـــر ويعـــترف بأنـــه يضـــر

... الخ

أثارت قضية الدخان ضجة في الأوساط العلمية تبودلت فيها رسائل وتآليف بين علماء المشرق والمغرب، ومن بين العلماء الذين خصَّصوها بتآليف قيِّمة **عبد الكريم بن الفكون القسنطيني**، من تآليفه: (**محدد السنان في نحور إخوان الدخان**) ذكره **أبو سالم العياشي** في (**رحلته**) وقال: «هو في عدة كراريس، مشتمل على أجوبة عدة من الأئمة، وقد لخصنا بعضه بحسب ضيق الوقت»، إلى أن قال **العياشي**: «قلت والذي أرتضيه ما ذكره شيخنا الَّلقاني (رضي الله عنه) من الوقف على الميل القوي إلى التحريم وغالب المتورِّعين من الفقهاء ومعهم جميع الصوفية أرباب البصائر الصافية يصرحون بالتحريم» اهـ.

تعرَّض لهذه القضية التي نبعت من **السودان** وكان لها صدى عند علماء المغرب والمشرق إلى أن رُمي كثير من الكُتَّاب، أمثال **عبد الكريم بن الفكون** و**اللقاني** ومَن أفتى بالتحريم بالتعصُّب وضيق أفق التفكير وما إلى ذلك، وفي هذه السنوات أثيرت مسألة

الدخان من جديد، وخرج للميدان علماء، وفي طليعتهم الأطباء، فأثبتوا ضرر شرب الدخان وأنه مؤذٍ وتنشأ عنه أمراض خطيرة فتاكة، كالسرطان، ومن حسن الصدف أن الجرائد الجزائرية والأجنبية نشرت هذه الشهر الجاري عدة مقالات تحت عنوان: **أول ملتقى وطني حول الأمراض الصدرية في مكافحة التدخين**.

ولنرجع إلى تتميم محاضرتنا والدَّور الذي لعبته منطقة توات في الصِّلة بين الجنوب والشمال، فترى أنه عندما تخلَّت الدولة المركزية الجزائرية عن حكم هذه المنطقة في عهد الدولة العثمانية فمنحتها الاستقلال الذاتي بدلا مِن ضريبة رمزية، وفي عهد باي قسنطينة **صالح** تأخَّر بعض سكَّان **توات** عن دفع الضريبة فغزاهم **صالح باي** سنة 1788 م، فأطلق اسم الباي على مدينة **عين صالح**.

ومن بداية هذا العهد تكوَّنت الوحدة السِّياسية وتمتَّنت الروابط الثقافية والعقائدية في هذه المناطق دامت ما يربو على القَرنَين، وقد تعرَّض لهذه الوحدة بعض المؤرِّخين والرحَّالين، في طليعتهم **أبو سالم العياشي**، فاستفدنا أن هذه الدُّوَيلات أو الإمارات التي تكوَّنت سلطتها في المناطق الصَّحراوية بعد انقطاعها عَن الدولة المركزية ببلاد الشمال أمكنها أن تحافظ على تعاليم الإسلام ونشرها، وتأمين السبل التي تجوبها القوافل التجارية وقوافل الحجَّاج، وإحداث معامل لضرب السِّكَّة، وكانت أبرز هذه الإمارات دولة بني جلاب بـ **(تقرت)**، التي كان نفوذها يمتدُّ إلى منطقة توات إلى حوالي سنة 1850م إثر احتلال الجزائر، وقد زار هذه المنطقة الرحال أبو سالم العياشي فوصف لنا إدارة هذه الإمارات وصفا مسهبا فقال: «وأمراء هذه البلدة ـ أي تقرت ـ أولاد الشيخ أحمد بن جلاب وأسلافهم من بني مرين، ووالدهم هذا كان من أمراء العدل على ما يحكى عنه، وأولاده على سيرته لا يقدمون على أمر إلا بعد سؤال فقهائهم».

إلى أن قال: «إلا أنهم ليس عندهم من يعتمد على قوله من الفقهاء، ولو كان

عندهم من يحمِلُهم على الشريعة ويدلُّهم عليها لأقاموا الدِّين على وجهه، وعلى كلِّ حال فهُم أعدل مَن رأينا من الأمراء »، ثم قال العياشي: «وليس عليهم أبهة الملك، بل يخرج الأمير منهم وحده أو مع رجلَين، وهو عند أهله كواحد منهم في جلوسه وكلامه، يتوصل إليه كل أحد، وأخوه سيد أحمد يحسن طرفًا من الفقه ويجالس الفقهاء، وله أخلاق حسنة ونية صالحة بل جل البلد من فقهاء وغيرهم لهم نيات صالحات وأخلاق حسنة ويهربون من التكبر والعجب كذلك ثم استرسل العياشي في حديثه فقال: «ولأمير البلد حكم نافذ في أهل مملكته والأعراب الذين يردون عليه»، ثم يستدل العياشي على يقظة أمير البلاد وفرضية الطاعة على رعيته فيقول بأنه: «عندما كانت قافلتهم بمنطقة ضاع لها جملان ليلة رحيلهم من تقرت فبلغ الخبر إلى الأمير وكان أحد السكان طلب من القافلة البشارة على العادة السارية المفعول إلى زماننا هذا فأمر الأمير بإلقاء القبض على الرجل وبعض الحرس لاسترجاع الجملين المسروقين»، ثم قال العياشي: «متعرضا للنظام الاقتصادي في الإمارة فقال: وأما دراهمهم فقَراريطُ صغيرة اثنان وثلاثون منها بِرُبع ريال... الخ».

ولنرجع إلى الحديث عن هذه المنطقة إثر الاحتلال الفرنسي لبلاد الجزائر الشمالية حيث إن فرنسا اتخذت الجزائر منطلق العبور إلى المناطق الصحراوية الفاصلة بين بلاد الشمال الإفريقي والسودان، كان هدف الدول الأوروبية، وفي طليعتها الدولة الفرنسية من احتلال المناطق الصحراوية أغراضا مادية وأدبية إذ بمجرد الاحتلال فتحت باب الصحراء على مصراعيه لرواد الصحراء الذين كانوا يتقمَّصون تارة ثياب العلماء الباحثين عن مجاري المياه ومنابعها وتخطيط طرق القوافل ومحطاتها وحفر الآبار، وتارة يتقمصون ثياب الأطباء لمقاومة الأوبئة والأمراض، وكان في طليعة هؤلاء الرواد المبشرون إلا أنهم ارتطموا بيقظة الشعب وحصانة التعاليم الإسلامية التي لم يخب لهبُها طيلة القرون التي انفصلت فيها المناطق الصحراوية عن الدول المركزية بالشمال، إذا كانت تعاليم الإسلام

هي السائدة كما تقدم لنا بيان ذلك فيما وصف به هذه المناطق شاهد عيان وهو **العياشي** صاحب الرحلة، وكان من جملة من اعترف بإمارات الصحراء بعض أساطين الاستعمار وأكثرهم تعصبا وفي طليعتهم العقيد (**بان**) قائد جيش الاحتلال الفرنسي فإنه اعترف في تأليفه الذي سماه رسائل عائلية عن الجزائر أو مملكة عربية طبع بالجزائر سنة 1893م، وهذا المؤلِّف لم يخفِ حِقدَه الدفين على تعاليم الإسلام التي كان هو وأمثاله يرَونَها عرقلةً وحجرَ عثرة في طريق التقدُّم الحضاري، ولهذا استعَملوا في محاربته جميع الوسائل، إلى أن ارتَطموا بالواقع، حيث إن السكَّان لم يُقبِلوا على تعاليمهم، وحاربوها سِراً وعلانية، فحينئذ اعترفَ مُعظمهم بأنَّ العقيدة الإسلامية بِمناعتها وحضارتها حالت بينَهم وبين السكَّان، حيث أنه ما دام القرآن كتابهم المقدَّس والذي يتدارسُونَه فلا مَطمعَ لهم في النَّجاح، ولهذا عرضوا حلَّهم للمشكل، وهو: بذل الجهود للحيلولة بين السكَّان ـ وخصوصا النَّشء الطالع ـ وبين التَّعليمِ والتَّربية الدِّينية، وقَد اعترَفوا أن ذلك يَستدعي وقتا طويلا ليتوصَّلوا إلى هدفهِم، أو على الأقلِّ يتوصَّلوا إلى نتيجة أخرى، وهي بلبلة الأفكار والتَّخفيف مِن التَّعصُّب الدِّيني على زَعمهِم، فكانت محاربةُ التَّعليم الدِّيني التي شَمِلت الجنوبَ والشَّمال، ثمَّ تشجيع فتح المخامر، ونوادي الفجور، ومنع التَّحاكم عند الفقهاء بِمُقتضى تعاليم الشَّريعة الإسلامية، ومع هذا كلِّه فلم يفلحوا، وباءت جهودُهم بالفشل الذَّريع، وذلك راجعٌ إلى الحصانة التي امتازَ بها الشعب الصحراوي المحافظ على دينه وتقاليد سلفه، التي كانت لا تضيق عن مسايرة الرَّكب الحضاري العالمي رغم المدَّة الطويلة التي قضاها السكان منعزلين عن حكم تصرفات الدولة المركزية، فكانوا إمارات أو دويلات قاسم فيها الأمراء شعوبهم في بساطة العيش، فلم يشيِّدوا القصور ويتَّخِذوها لمجالس اللَّهو والطَّرب، بل كانوا كما سجَّل ذلك المؤرِّخون والرحَّالون، وقالوا: كانوا لا يمتازون عَن الرَّعية، لا في لباسهم ولا في مساكنهم، ففرضوا محبة الشعب لهم وثقته بهم، فكانت الأوامر مطاعة، ومصالح الجماعات والأفراد مصونة، والأمن منتشر، وعندما بليت البلاد بالغزو

السياسي والعقائدي كانت اليقظة والحذر عامة، فلم يتسرَّب إلى السكان العقائد المستوردة، وحافظوا على مبادئهم وشعارهم، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران: 85).

الطَّريقة القادريَّة:

كما ظهرت إذ ذاك الطَّريقة **القادريَّة** التي تولَّى رياستها آباء الأمير **عبد القادر**، انطلاقًا من جدِّه **مصطفى بن المختار** مؤسِّس معهد **(القيطنة)**، حيث ولد الأمير **عبد القادر**، وتلقَّى معلوماته في عهد والده **محيي الدِّين** المتوفَّى سنة واحدة بعد مبايعته بالملك، إثر الاحتلال الفرنسي.

وقد احتفظ لنا التَّاريخ بوثائق أصيلة تتعلَّق بسجلِّ الاتِّصال المتين بين أسرة الأمير ورؤساء مركز القيادة الرُّوحية للطَّريقة القادريَّة بـ: **(بغداد)**، إذ كان اتِّصالاً مباشراً، كإذن التَّقديم، ونشر الطَّريقة وأورادها، ولم يكن الاتِّصال بواسطة الكتابة فحسب، بل كان بتبادل الزِّيارات، وقد تردَّد الشَّيخ **مصطفى** جدّ الأمير على زاوية **(بغداد)**، كما اتَّصل ولده **محيي الدِّين** وابنه الأمير **عبد القادر** قبل توليته المملكة برؤساء الزَّاوية **القادريَّة** بـ: **(بغداد)**، التي توارثها رؤساؤها خلفاً عن سلف، من عهد الشَّيخ **عبد القادر الجيلاني**، وقد يظهر أنَّ هذا الاتِّصال كان ممتازاً، حيث إنَّ السَّيد **محيي الدِّين** (والد الأمير) عندما أُطلِق سراحه من سجن **(وهران)** في عهد آخر (باياتها) **حسن** الذي استسلم للأتراك، وكان بصحبته الأمير **عبد القادر** لقيهما في مدينة **(جدَّة)** أحد المشرفين على زاوية **(بغداد)** الذي كانت له مكانة، واستضافهما ورافقهما إلى **(مكَّة المكرَّمة)**، ولمَّا أدَّيا مناسك الحجِّ رافقاه إلى مدينة **(بغداد)**، حيث قضيا سنةً كاملة بـ **(بغداد)** على ضيافة رئيس الطَّريقة، ثمَّ أعادا الحجَّ ورجعا مودَّعين من طرف مستضيفهما، وقد احتفظ لنا التَّاريخ أيضا بوثيقتين هامَّتين في الموضوع:

(**أوّلا**): رسالة كتبها السَّيد **محيي الدِّين** من (**الحجاز**) إلى عمِّه السَّيد **علي أبي طالب** الذي خلفه بمعهد (**القيطنة**)، وهو في نفس الوقت والد زوجته، وهذه الرِّسالة لها أهمِّيَّة عظمى، لا فيما يخصُّ وصف مراحل الرِّحلة إلى الحجِّ، ولكن كشف الغموض الذي كان يسود هذه الرِّحلة، وكثيرا ما تساءل بعض مؤرِّخي حياة الأمير أمثال الجنرال **أزان** (Azan)، هل استفاد الأمير من هذه الرِّحلة ثقافياً وسياسياً ؟

وتمتاز هذه الرِّسالة التي أطلقنا عليها اسم (**رحلة**) أنَّ كاتبها السَّيد **محيي الدِّين** لم يقتصر على تدوين مراحل الرِّحلة، بل سجَّل انطباعاته عمَّا لاقاه في (**مصر**)، حيث كانت الفتنة بين حكَّامها، وكذلك في (**الحجاز**) حيث كانت الثَّورة (**الوهَّابيَّة**)، وأراد أمير (**مكَّة**) تجنيد الحجَّاج المغاربة جبراً فامتنعوا، ووصل الأمر إلى أن دافع الحجَّاج عن أنفسهم بالسِّلاح.

كما تعرض الأمير نفسه إلى وصف ظروف هذه الرحلة بتفصيل، وهي أيضا من الاكتشافات التي يجود بها الزمان، إذ بعد استقلال الجزائر اكتشفت هذه الوثيقة التي أطلقنا عليها اسم (**مذكرات**) عند أسرة فرنسية تنحدر من أحد كبار الضباط الفرنسيين[1] أهداها وارثها إلى وزارة قدماء المجاهدين في عهده الدكتور **بوعلام بن حمودة** وهو أهداها بدوره إلى المكتبة الوطنية، حيث تشرفت بتحقيقها ونشرها، كما تولّتْ وزارة الثقافة بنشرها مجزأة، ومع الأسف نُشر منها فصل قصير في مجلة (**آمال**) وضرب عنها العنكبوت بيته، ويجدر بنا أن نكرر مع الشاعر الذي قال: «أصابتنا من الحسّاد عين... الخ»، وإنّ العين التي أصابتنا هي الحيلولة بيننا وبين الاهتمام بالتراث خصوصا المهدّد بالضياع، والتسابق إلى نشر الغث والسمين، والمقياس الذي يستعمل في إعطاء هذه الأولويات هو الترضية والمحسوبية على حساب التاريخ الأصيل، حيث

(1) هو الجنيرال بواصوني (Boissonet)، كان حارسا على الأمير مدة سجنه في **قصر أمبواز**.

نجد الأخطاء الفادحة والسكوت عنها، إذ لازال بعض باحثينا مع الأسف يعتمدون على المصادر الأجنبية وهي وإن لم ننس فضل بعض إيجابياتها لا تخلو من دسّ وتزوير وتأويلات تُخدَم بها الأغراض، والتخطيطات الاستعمارية والعقائدية المتمثلة في قول الشاعر:

إن يسمعوا سبّة طاروا بها فرحـا عني وما سمعوا من صالح دفنوا

وأهم ما يتجلى هذا التزوير في تاريخ العهد التركي الحربي والثقافي، ومقاومة الأمير طيلة 17 سنة وثورات **أولاد سيدي الشيخ** و**بوعمامة** ثم الشيخ **ابن الحداد والمقراني** وقد ظهرت مصادر أصلية خصوصا بعد الاستقلال إلا أن بعض مخربشينا لا زالوا يعتمدون المصادر الأجنبية...

وهنا بين قوسين نذكر أن الطريقة **القادرية** كان لها جذور بالجزائر، أي لم يكن ظهورها في العهد التركي كما سبق لنا ذكره، وإنما ذكرنا أن جد الأمير مؤسس معهد **(القيطنة)** هو أول ناشريها لما يقتضيه سياق الحديث وإلا فإن الطريقة **القادرية** كان منطلق انتشارها من معهد العلامة الصالح الشيخ **حسن بن باديس القسنطيني** أحد مشايخ **ابن خلدون،** فإنه ألف منظومة سينية ضمنها رحلته التي استهلّها بقوله:

أَلَا عُج إلى بغداد فهي منى النفس ...

وقد شرحها شرحًا علميا العلامة **أحمد بن الحاج البيدري التلمساني،** كما ظهرت فروع للطريقة **القادرية** لا يسع مجال المحاضرة المحدود إلى تتبعها، وإنما لا يفوتنا أن نذكر أن نفس أسرة الأمير **عبد القادر** كانت مرتبطة بهذه الطريقة وقد أخبرني المرحوم الشيخ **محمد المصطفى بن باديس** العضو في الجمعية الدينية بولاية **(قسنطينة)** لما كنت بـ **(بجاية)** وكان زميلنا في أعضاء الجمعية أن أسرتهم كانت تشرف على زاوية قادرية

وبقيت هذه الزاوية إلى بعد عهد الاحتلال لما أمّمت الحكومةُ الأحباس، فكانوا ينفقون عليها من أموالهم الخاصة.

(ولنواصل حديثنا عن الدراسة المنشورة في الشعب) .

... ومن هذه الطرق التي ظهرت بالجزائر في العهد العثماني، الطريقة **الرحمانية**، وكان رئيسها وناشرها **محمد بن عبد الرحمٰن الجرجري الخلوتي** خريج جامعة الأزهر وتلميذ **محمد الحفْني الخلوتي** الذي كان بعد انتهاء دراسته بالأزهر ودخوله في الطريقة **الخلوتية** أرسله شيخه إلى بلاد السودان كداعية ومرشد، فنوى الإقامة هناك إلى أن صادف أن أخاه رآه في طريقه إلى الحج وألحّ عليه في الرجوع إلى البلاد فرجع، وعندما أقبل عليه كثير من السكان ضاقت السلطات به ذرعا، فاتُّهِم باقتراف البدع والشعوذة، وكانت الحكومة التركية تستعين في هذه الميادين بالسلك الديني كما سبقت الإشارة إلى ذلك فيما يخص ثورة **درقاوة** والشيخ **أحمد التجاني**، فأُحْدِث مجلس علمي ترأسه العالم الشيخ **علي بن الأمين** المفتي المالكي ودافع الشيخ عن آرائه وكان قوي الحجة، كما كان مواطنون من سكان بلاد القبائل يمتازون بشبه استقلال داخلي طيلة العهد التركي[1] فبادروا بنقله إلى جرجرة، حيث أُسِّسَ له معهد علمي، اختير للتدريس فيه أهم كبار العلماء من (**مشدّالة**) وفقهائها البارزين وتخرج أيضا من جامعة الزيتونة واحتفظ لنا التاريخ بتاريخ ترجمته العلمية كاملة غير منقوصة، وقلما تعرض إليه مترجمو الحياة العلمية للشيخ **محمد بن عبد الرحمٰن**، اللهم إلا في ذكر مشايخه الأزهريِّين. ولم تطل مدة إقامته بـ (**جرجرة**) إذ وافاه المنون، كما حدث الاحتلال الفرنسي إلا أن الشيخ بمجرد رجوعه من محنته التي مثُل فيها أمام المجلس العلمي بمدينة الجزائر، انهال عليه في

---

(1) أشار العلامة **عبد الكريم الفكون** في تأليفه (**منشور الهداية في كشف حال مَن ادعى العلم والولاية**) إلى هذا الاستقلال.

جرجرة ثلثا سكان القبائل، وجانبٌ عظيم من سكان قسنطينة ووهران، شمالا وجنوبا، ومازالت طريقته إلى الآن منتشرة، وقد خلد لها التاريخ أمجادها وآثارها لا في الميادين الروحية فقط، بل حتى في الميادين العلمية والبطولية خصوصا الثورة التي قادها أحد مشايخها الشيخ **محمد أمزيان ابن الحدّاد** وهي المشهورة بثورة **المقراني** سنة 1871 م.

وفي عهد انتقال الشيخ **محمد بن عبد الرحمـٰن** من **الجزائر** إلى **جبل جرجرة**، وقع الاحتلال الفرنسي[1] فاستسلم الجيش التركي وعلى رأسه داي الجزائر ولم تقع مقاومة تذكر. وإن كان بعض المؤرخين ممّن يطلق عليهم «المخربشون»، وكذلك وسائل الإعلام الفرنسية ضخَّموا هذه المقاومة الخيالية، ولـمّا كان التاريخ كما يقال حقائق ووثائق تصدى بعض المؤرخين النزهاء ففنّدوا هذه المزاعم، ولما كان مجال هذه الدراسة محدودا نثبت عيِّنتين منها، الأولى لشاهد عيان إذ صاحبها من الأتراك الأصليِّين، ينتمي إلى أسرة علمية، تولَّى أفرادها مناصب سامية في العهد التركي كمشيخة الإسلام، ووزارة العدل، بالأستانة وبتونس، حيث إنهم أكثر الناس خبرة وغيرة ودفاعا على الخلافة العثمانية وممالكها الشاسعة بمعظم الدول العربية الحالية وهذا الشاهد أثبت في تأليفه المشهور المعروف بـ (**رحلة بيرم**) و (**مستودع الأبصار**) فضمنها فصلا تعرّض فيه لاحتلال الجزائر ومقاومة الأمير **عبد القادر** التي أشاد بها، وأهم ما كتبه **بيرم** في رحلته هو الرد على اتهام بعض المغرضين [الذين] أشاعوا أن من جملة غلطات الأمير التي لا يغتفرها التاريخ، أنه رفض ضم جيشه لجيش **أحمد باي القسنطيني**، فأماط **بيرم** عنها اللثام، وفنّد هذه التهمة التي لا أساس لها، بل كانت بالعكس، **فأحمد باي** هو الذي امتنع من ضم جنده إلى جند الأمير **عبد القادر** حيث كان الأمير هو الذي اقترح على **أحمد باي** أن يضما جهودهما ويتعاونا على مقاومة جيش الاحتلال الفرنسي فرفض **أحمد**

(1) بل توفي الشيخ **محمد بن عبد الرحمن** قبل الِاحتلال بمدَّة. (ع)

باي الاقتراح، وعلل **بيرم** امتناع **أحمد باي** من طلب الأمير لتكبّره وتجبرّه، وفاته – أي **أحمد باي** – أن الأتراك خسروا سمعتهم لدى الشعب الجزائري وفاتهم تداركها، ولهذا لم يقاوم الشعب الجزائري إلا بعد مبايعة الأمير... اه.

هذه شهادة لها وزنها، وكدليل على ما أثبته **بيرم** في رحلته على عدم المقاومة، بل كان استسلام الباشا وعساكره، ما أثبته بعض المؤرِّخين النزهاء، وفي طليعتهم **عبد القادر المازوني** الذي ضمَّن مرثيتَه البليغةَ لسقوط مدينة (**الجزائر**) في يد العدو وشهادته النادرة النظير في مصير معالم الجزائر أي المدينة بعد احتلالها مباشرة فقال :

للإيام يا اخواني تبدّل ساعاتها — والدهر ينقلب ويولّي في الحين

بعد ما كان سنجاق البهجة ووجاقها — الاجناس تخافها في البر وبحرين

امتين راد ربي ووفى ميجالها — واعطاوها أهل الله الصالحين[1]

الفرانسيس حرّك ليها واخْذَاها — لاهي ميات مركب لا هي ميتين

سفاينه بقاو في البحر قبالها — ....

إلى أن قال :

فات الحساب ودرق وانلف حسابها — الروم جاوا للبهجة مشتدين

راني ياناس على الجزائر حزين

(1) هذه شنشنة قديمة عند بعض المؤرخين المسلمين الذين يرون أن الصالحين لهم مجالس و يعاقبون فيها الملوك الظالمين بالعزل.

الكلب غير رَقبْ للمرسى شافها	شاف المدافع لوجْهُو منصوبين
جهة البحار قاع الناس تخافها	بُرج الفنار منّو كي مذعورين
برّم اسفاينه وتقدم قُدامها	في سيدي افرج نزل ذا اللعين
اسواحل البحر تحكي لك غطاوها	الوْطَا والسهل ثم اشعاب
لمّ المحال في يوم السبت وجابها	والسبت ما تو شي من المسلمين
المومنين فزعت هي وصغارها	الأبراج والطبابن يالمومنين

إلى أن قال:

لاغا[1] إبراهيم اركب وافزع في شاوْها	والباي والخليفة خذوا اليمين
للشط وصلوها وخذوا عقابها	ماذا ما العسكر جاوا مَسْعيين
ماذا من الريوس جابوهم اسنادها	ماذا من الفرايس إلا منشورين
اتخذت الجزائر ووفى ميجالها	زل الكلام عنها يا مسلمين
زلّ الكلام ودرق عنَّا	وافترقت الفزوع وراحت
ماشي هاكذا ظنينا	في المومنين هذا فايت
احسبنا على مزغنا	خلقا كبيرة تبقى ميت
في الحفير والجبانا	شبّان للبلاد تتفاوت
على سوارها تتفانا	يبقى الدم غير مقلّت
لاكن بالحزن اجزانا[2]	من بعد عزها وانهانت
حتى اليهود فرحوا لينا	وانساهم الكلاب تزغرَت
علاش شايعا مزغنا	وحتى النسا معانا حزنت

(1) ترجمه حمدان عثمان خوجة أنه كان نكرة ومن الصعاليك.

(2) وهذه الأبيات صريحة لا تحتاج إلى تأويل فهي تثبت تقاعس السكان عن الدفاع.

سعى بلا اطراد هـذا الكـب اخـذاها	وأدّى أموالهـا إخـوان الشـياطين
كيف جازو على سطاوالي واخـذاوها	بطبـول والعسـاكر والسـنجاقين
زادوا اخذاوا قهـوة الأبيـار وديارهـا	وتشـبطوا لبوزريعـة في الحـين
قـدّام الصـنوبر نـزّل امحالهـا	واخذاوا برج سيدي مولاي حسين
في الليل راحت الروم ضربت طنبورهـا	والمـومنين تبكـي يـا مسـلمين
البعض راح والبعض صبر لطرادهـا	شـدوه في الجنـاين نحـو اليـومين
المـومنين هامـت خـلات أوطانهـا	وافترقـوا عـلى البلـدان مسـاكين
حسـراه ويـن دار السـلطان وناسـها	حـدّوا ارجـاوا ليـه وجـوه اخـرين
حسـراه ويـن بايـات وقيادهـا	مـن درى عـلى ذوك القصـباجيين
حسراه عـلى السـرايا وعـلى حكامهـا	وعـلى مواضـع الحكـم المعـروفين
حسراه عـلى ذوك الشـواش طغيانهـا	حسراه ويـن الأتـراك النصناصـين
حسـراه عـلى المفاتـا وعـلى قضـاتها	علـماء الـبلاد مصـابيح الـدين
حسراه على الجوامـع وعـلى خطباتها	ومنـابر الرخـام الي مرفـوعين
حسراه عـلى الصـوامع وعـلى أذانهـا	وعـلى ادروسـها ثـم الحـزّابين

.....إلخ

هذه الوثيقة النادرة لشاهد عيان لها وزنها وأهميتها، وصاحبها استوعب فيها وصف مرحلة حاسِمة من تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر، ذلك الاحتلال الذي تناوله مئات المؤلِّفين والمؤرِّخين ـ معظمهم من الأجانب ـ وما زال إلى يومنا هذا محلّ اعتناء واهتمام الباحثين، أما فيما يخصُّ المصادر العربية فإنَّنا إن استثنينا **(مذكِّرات نقيب الأشراف)** التي اعتمدها المرحوم **أحمد توفيق المدني** ونشرها بعد الاستقلال، وكتاب **(المرآة) لحمدان بن عثمان خوجة**، نشره الدكتور **محمد بن عبد**

الكريم الزموري، وهو رغم أهميته ونزاهة مؤلِّفه إلا أنه لا زال مكتنفا بالغموض، حيث إن صاحبه **حمدان بن عثمان خوجة** لعب أدوارا سياسية في العهد العثماني، وقام بدور سياسي شارك فيه كثير من الفرنسيِّين وساساتهم، وحتى بعض الضُّباط، وقد احتفظ به أحد أبنائه، وختم به المطاف بـ: **ليبيا** مع وثائق، وهي في مجموعِها تعطينا صورة مصغَّرة عن العهد العثماني في أواخر عهده، عندما انقطعت باشوية الجزائر عن الخلافة، واستبدَّ بحكمها الجند المرتزق، ثم لعبت السياسة لعبتها التي تكمُن في قضية التاجر اليهودي **بكري** الذي ألقى عليه أضواءَ الملف الذي اكتشَفه الكاتب الفرنسي **سيرقي** في قصر المارشال **دوبورمون** بفرنسا، ونُشِرت خطوطه العريضة، أما بقية مَن تناولوا [هذه المرحلة من تاريخنا] خصوصا مِن كتَّابِنا، فإنها مجرَّد ارتجالات بمناسبات يصفِّق لها العوام وأشباههم، ولهذا نجِد أنهم [أي: الكتَّاب الأجانب] مصدر لظروف الاحتلال، خصوصا المقاومة الهزيلة الذي كان قائدها **إبراهيم** وغيره مِن أسفال العوام البسطاء، وهذا ما يؤيِّد كلام **بيرم** في رحلته على أن الأتراك خسروا الصفقة في الجزائر، وأن الفرنسيِّين لم يلقوا مقاومة، ومحاولات **أحمد باي** أيضا أضغاث أحلام، بل الحقيقة ما فاه به **بيرم** مِن أن الأمير **عبد القادر** هو الذي اقترح عليه توحيد الجهود وأبى تكبُّرا وتعنُّتا، يصدق عليه قول الشاعر:

كالهِرِّ يحكي انتِفاخًا صولةَ الأَسد

ولنواصل حديثنا عن (**لقطات من ظهور السلفية في الجزائر**) المنشور في جريدة الشعب:

...هذه صفحات ذكرناها من هذه الدراسة من دون مراعاة ما يتطلبه الموضوع من ترتيب ودقة.

ثم جاء عهد الاحتلال الفرنسي فكانت مقاومة الأمير التي دامت 17 سنة وقف فيها قادة جيش الأمير الذي كان معظمهم من خريجي معهد **(القيطنة)** الفقهي وكانت حرب الأمير من بدايتها حرب كرّ وفرّ، وكان جيش العدو يقوده ضباط سامون، جلهم تخرّجوا من الكليات الحربية الشهيرة وخاضوا غمار الحروب مع نابليون في مختلف ميادين الحروب بأوروبا وآسيا، ومع هذا أثبت التاريخ أن النصر كان حليف الأمير في معظم المعارك الحاسمة التي خاضها مع الجيش الفرنسي وكان منطلقها من معركة **(وادي المقطع)** وختامها معركة **(سيدي إبراهيم)** بقرب حدود **(المغرب)** وهي التي أعقبها وضع الحرب أوزارها.

ولعدم سماح مجال هذه الدراسة بتتبع هذه المعارك الواحدة بعد الأخرى نقتصر على المعركتين الأولى والأخيرة السابقتي الذكر.

فالمعركة الأولى أي **(المقطع)** أسفرت عن ست مائة قتيل وجميع العتاد (وهنا بين قوسين نذكر أن الجزائر ستحتفل بذكرى هذه المعركة في هذا الشهر أي آخر يونيو 88 في موقعها بـالمقطع).

أما المعركة الثانية وهي معركة **(سيدي إبراهيم)** التي كانت خاتمة معاركه فقد خسر فيها الجيش الفرنسي مائتي قتيل ومائتي أسير، في طليعة القتلى الكولونيل **دومنطانياك** DeMoutagnace قائد المنطقة، وامتازت هذه المعركة أن خصصها المارشال **أزان** Azan قائد منطقة **(تلمسان)** في عهده وعضو المجمع العلمي

العسكري بـ (**باريز**) خصصها بتأليف قيم بمناسبة الاحتفال المئوي الذي مرّ على وقوعها 1947م، وقد أطلق عليه **أزان** اسم (**سيدي إبراهيم**) وقد تعرض لظروف هذه المعركة وأداء المارشال **بيجو**، وأهم ما في هذا التأليف على صغر حجمه، نشر جميع الوثائق الرسمية المتعلقة بهذه المعركة التي أعقبها إنهاء مقاومة الأمير كلها منقولة من مستودع الوثائق بوزارة الحرب، وكان من الصدف أن الأمير الذي ألقي القبض عليه وهو راجع من (**المغرب**) وقد نصب له كمين إثر اجتيازه على (**وادي ملوية**)، وقيد الأمير إلى مرسى مدينة الغزوات القريبة مِن (**سيدي إبراهيم**) (موقع المعركة) وكان من جملة شروط إنهاء حربه تمكينه من الهجرة إلى بلاد المشرق وقد زاره في مدينة (**الغزوات**) **الدوك دومال** Duc D'aumale ولي عهد ملك فرنسا وتعهد له باسم والده بقبول شرطه، إلا أن **بيجو** كان لهم بالمرصاد لفّق له تهمة قتل الأسرى الفرنسيِّين الذين كان يبلغ عددهم ثلاث مائة، وأثار جدلا نتج عنه براءة الأمير من قتل الأسرى، كما ثبت أن المارشال ـ أي: **بيجو** ـ نفسه هو الذي عندما أبرم معاهدته[1] مع المملكة المغربية اشترط في أول بند من بنودها تسليم المملكة المغربية للأمير **عبد القادر**، فكان الخلاف الذي وقع للأمير مع (**المغرب**) ومعركة (**الحيابنة**) في الحدود المغربية، ومن أهم الوثائق التي تعرضت لها ما كتبه المؤرِّخ النزيه المغربي **الناصري** الذي عقد لها فصلا في تأليفه القيم المثالي (**الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى**) إذ لما تمكن له التسلل إلى الجزائر دُبِّر له كمين ألقي عليه فيه القبض ، وهنا أيضا بين قوسين نذكر أن الأمير الذي سجل ظروف إلقاء القبض عليه، علق عليها بقوله: «إنني كان بإمكاني أن أتخلص

---

(1) أبرمت هذه المعاهدة بطنجة وهي مشهورة بمعاهدة طنجة.

من الأعداء الذين نصبوا لي الكمين في الحدود، وأَلتحِقُ بالصحراء، حيث لا أعدم مقاسمة إخواني المسلمين قوتهم (تمر ولبن) إلا أن الداعي الحقيقي هو أنني أدركت أن شعبي أنهكت قواه هذه الحرب التي دامت سنين وتحمّل فيها الويلات خصوصا من الناحية المادية فأشفقت عليه، واخترت جعل حد لهذه الحرب» ولازالت الدار الذي أقام فيها بمدينة (**الغزوات**)، موجودة إلا أنها مع الأسف حتى بعد مرور سنوات على استقلال البلاد لم تعط لها الأهمية التي تستحقها، كما أن ضريح (**سيدي إبراهيم**) الذي اشتهرت المعركة باسمه، و إن كان هو عبارة عن قبة بسيطة، إلا أنه مرتبط بتاريخ معركة الأمير حيث اختلق بعض المؤرِّخين أن في هذه القبة التجأ جنود فرنسيون دافعوا عن أنفسهم وردوا محاصريهم خائبين[1].

والحقيقة أن السكان المسلمين كانوا يقدسون حرم الصالحين خصوصا أضرحتهم وكانت أيضا العقيدة السائدة أن الملتجئ إلى حرم الصالحين الأحياء منهم والأموات يجار، ولازالت بعض المدن تحتفظ بعلامات، كان إذا وصل إليها الملتجئ ينجو من أخذ الثأر والعقوبة، وهذا هو السر في واقعة اللاجئين من الجنود الفرنسين بقبة (**سيدي إبراهيم**)... ومن جملة هذه المعاملات نجد خشبة قرب ضريح سيدي أبي مدين دفين (**تلمسان**) من عهد دولة (**بني زيان**) من وصلها من المستجيرين أمن من هدر دمه..

---

(1) وجعلتهم الوسائل الإعلامية الفرنسية في مصاف الأبطال كما سبق لهذه الأكاذيب ترويجها في حرب مزغران في العهد الفرنسي، إن بعض هؤلاء الأبطال كانوا مجرد لصوص سراق.

ولنواصل حديثنا، فنذكر أن السر في انتصارات الأمير **عبد القادر** وصموده أمام جيش دولة كانت في عهدها في طليعة الدول القوية والغنية والتي اعترف بها المؤرخون وعلى رأسهم المؤرخون الفرنسيون نذكر من بينهم اثنين هما: **موريس واهْل** (Maurice Wahl)، وأوقستان **برنارد** (Augustin Bernard) (مطبعة Alcan 1903 باريس) قالا في كتاب (**الجزائر**):

«إن الذي يجمع بين سكان الصحراء وفلاحي التل، هو الدين، فكلهم مسلمون، فالمساجد والزوايا والقباب (**الأضرحة**) هي مراكز تجمعاتهم، إن الكثير منهم منخرطون في الطرق الصوفية: (**الرحمانية**) (**الطيبية**) (**التجانية**) (**السنوسية**) و(**القادرية**)، وهذه الطرق قوية، وأخطرها (**السنوسية**)، الدين هو القوة الكبرى في طريق الغزاة، إن الكثير منهم متشبثون بتعاليم دينهم وقليل منهم من لم يراع هذه التعاليم: وضوء، صلاة، صيام رمضان، وفي كل سنة يذهب منهم الآلاف إلى الحج فمنهم من يموت في طريق الذهاب أو الإياب، ومنهم من يرجع منهوك القوى من أثر التعب والحرمان، إلا أنهم مسرورون من أداء الواجب المقدس، فهذه الروح الحماسية في التعلق بالدّين هي العائق الوحيد الذي وجدناه في طريقنا، فهي التي تغذي الروح الوطنية لإيقاد نيران الغضب، وتشجيع المقاومة، إن معظم الثورات التي اجتاحت البلاد كانت نتيجة لدعاياتهم، والأنكى أنهم بمجرد إعلانهم للحرب ضد العدو الكافر، تزول الخلافات بين الأفراد والقبائل، فهذه هي الحقيقة دائما والتي لربما نصل إلى التخفيف من مفعولها، إلا أن القضاء عليها صعب جدا...» اهـ.

وقد صادرت الدولة الفرنسية أملاك المسلمين من بينها الأحباس وهدمت كثيرا من المساجد ثم حاولت إرسال لجان برلمانية (لتهدئة الخواطر) أشهرها لجنة أعضاء مجلس الشيوخ التي كان يترأسها الوزير **جول فيري** Jules Ferry الذي صرّح بعد رجوعه إلى فرنسا للصحافيين بحصيلة بحثه ومفاوضاته مع نواب الجزائر قال: «إنهم لا يريدون ولا يقبلون حقوقنا السياسية، ولا تعليمنا، ولا خدمتنا العسكرية إنهم يطلبون المحافظة على أحوالهم الشخصية وتعاليم دينهم الإسلامي بتمامها».

وقال عضو آخر من أعضاء هذه اللجنة جوابا عن سؤال طُرح عليه من أحد الصحافيين عن أسباب تذمر السكان من منع السلطات التعليم بالمساجد والزوايا: «إنّ هذه المراكز (أي المساجد والزوايا) لا يرجى من التعليم فيها أيّة فائدة، بل رأت السلطات التي أخذت قرار منع التعليم المذكور، أن هذه المراكز تبثُّ في تعليمها بذور العداوة والبغضاء لفرنسا ولهذا حطّمناها الواحدة بعد الأخرى، ومنعنا التعليم بها».

وقال عضو آخر من أعضاء لجنة البحث المذكورة: «إنّ الطرق الصوفية تتطلب من أتباعها الطاعة التامة لمشايخ الطرق، والمعارضة للقوانين الفرنسية، ولهذا فرضت الحكومة (الفرنسية) في ميزانية الدولة ابتداءً من أول سنة 1892م مائة وعشرين ألف (120.000) فرنك، لمراقبة هذه الطرق، ومتابعة نشاطها».

ثم قال العضو المذكور: «كما وجدنا أثرا آخر في ميزانية الجزائر لمحاربة هذه الطرق، وذلك برفع مرتبات رجال السلك الديني الموظفين من أئمة وقضاة ومفتين إلا أن هذه الطريقة (أي رفع المرتبات) لم تنتج عنها ثمرات إيجابية إذ كل

ما جنيناه من طرفهم التبسم في وجوهنا (بدلا من التكشير) أما التعصب الديني فيشملهم جميعا» اهـ.

وفي هذه الظروف (التي كانت قريبة عهد بالثورتين العارمتين: ثورة (**أولاد سيدي الشيخ**) سنة 1864م وثورة الشيخ (**ابن الحداد**) رئيس الطريقة (**الرحمانية**) 1871م) وكانت الحكومة تتابع سكان القبائل من أتباع الطريقة (**الرحمانية**) بالنفي والقتل وتأميم الأملاك وعلى رأسهم شيخ الطريقة الذي رغم كبر سنه مات بسجن (**قسنطينة**) ولم يسمح بدفنه في مسقط رأسه.

ولنواصل ما كتب في الدراسة فيما يخص محاربة الطرق في الميدان العقائدي... فأُحدِث نادي **صالح باي** بـ (**قسنطينة**) وتولى إلقاء المحاضرات فيه، المفتي المالكي المرحوم الشيخ **المولود بن الموهوب** فألقى فيه سلسلة محاضرات بلغ عددها 13 احتفظ لنا بها التاريخ، حيث تولى ترجمتها من العربية إلى الفرنسية المرحوم **الشريف بن حبيلص** القاضي الموثق بـ (**ذراع الميزان**)، وهو من متخرجي المدرسة الثعالبية بالجزائر، وله ثقافة فرنسية راقية، إذ هو من الصحافيين الممتازين والكتّاب البلغاء باللغة الفرنسية، فضمن تأليفه القيم الذي سمّاه «**الشاب الجزائري**» (Le Jeune Indigène) وكان موضوعه: (**الحياة الثقافية بمدينة قسنطينة**) حمل فيه حملة شعواء على الشباب المدلل، والوسط الحضاري المتعفن[1]، يهمنا منه محاضرات الشيخ **المولود بن الموهوب** الذي كان ينتصر للسلفية وكان تاريخ صدور هذا التأليف سنة 1912م، وفي تلك الأثناء زار المرحوم الشيخ **محمد**

---

(1) وهذا الوسط الحضاري المتعفن تعرض له بمزيد من البيان صاحب منشور الهداية، الذي حققه ونشره أخيرا د: بالقاسم سعد الله.

عبده الجزائر وبالضبط سنة 1903م فأقام مدة زار خلالها مدينة (**الجزائر**) حيث اتصل بكثير من أعلامها من مختلفي الطبقات والمذاهب العقائدية وقد كانت لزيارته هذه صدى وكان أحد كبار أدباء الجزائر من ملازميه فسجل رحلته ونشرها بجريدة (**المنار**) التي كان يصدرها الشيخ **رشيد رضا** بـ (**مصر**) كما تعرض لهذه الزيارة الدكتور **عثمان أمين** فضمّنها أطروحته التي نال بها الدكتورة وكان موضوعها (**حياة الشيخ محمد عبده**) وقد اكتشفت رسالة خاصة تبادلها عالمان جزائريان أي من مدينة (**الجزائر**) تخرجا من معهد العالم الشيخ **حميدة العمـّالي**، صادفت زيارة الشيخ **عبده**، أحدهما بالجزائر أستاذا بالمدرسة الثعالبية، وثانيهما بمدينة (**وهران**) مفتيا مالكيا[1]، وهما منخرطان في الطريقة (**التجانية**) وبعد زيارة الشيخ ومغادرته الجزائر، كاتب مفتي مدينة (**وهران**) صديقه الأستاذ بالمدرسة الثعالبية طالبا منه إفادته عن جوانب من ترجمة الشيخ **عبده** وانطباعاته عما يشاع عنه فيما يمس المذهب العقائدي فأجابه مراسله عن الخطوط العريضة من أسئلته التي طرحها والذي يهمّنا كثيرا من هاتين الرسالتين المتبادلتين أنه رغم صبغتهما في الميدان العقائدي وانتساب كل منهما إلى الطريقة (**التجانية**) فإن النزاهة والشجاعة الأدبية وحرية الفكر إلى أقصى حدودها كانت ميزة الرجلين في رسالتيهما المتبادلتين، وقد تشرفت من سنوات أي بعد اكتشاف هذه الذخيرة – إذ لم يشر إليها أحد من مترجمي الشيخ **محمد عبده** في رحلته إلى الجزائر– وضمّنت هاتين الرسالتين المحاضرة التي كنت ألقيتها بالجزائر في إطار النشاطات الثقافية

(1) هاذان العالمان هما: عبد الحليم بن سماية المشهور وزميله علي بن عبد الرحمٰن الجزائري مفتي وهران.

لوزارة الشؤون الدينية ونشرت بمجلة **الأصالة،** ومما يلحق بهذه الزيارة أنني اطَّلعتُ أخيرا من بعض الأصدقاء أمكنه أن يأخذ صورا من ملف الاستعلامات والتقارير السرية والعلنية التي أحاطت بها الحكومة من هذه الزيارة، فأحصت فيها الحركات والسكنات فكانت حصيلتها أن الشيخ **محمد عبده** كان نزيها شهما صريحا، لا تختلف أقواله العلنية وآراؤه العقائدية والسياسية عما كان يعرف عنه ويردده في محاضراته وتصريحاته العمومية والخصوصية ... اهـ.

إلحاق:

كانت جريدة الشعب نشرت نص الدراسة التي أعددتها لملتقى الفكر الإسلامي المنعقد في مدينة (**معسكر**)، إلا أنني مع الأسف غادرت ملتقى (**معسكر**) لأسباب صحية ولم أطلع على مصير هذه الدراسة، وقد لاحظت بعض الأخطاء أو الغلطات في النص المنشور في جريدة الشعب فاغتنمت هذه الفرصة لإعادة تحرير النص مع إضافة بعض زيادات وتوضيحات أهمها في نظري، نشر منظومة **عبد القادر المازوني** التي ضمّنها وصفا مسهبا مدققا للمرحلة الأولى من مراحل الاحتلال الفرنسي، قليلة النظير، وإنني بعد اطلاعي على معظم مؤرخي هذه الفترة، خصوصا المؤرخين الفرنسيين والأجانب، يمكن لي أن أصرح بأن أهم وثيقة أصيلة، تثبت أن الجيش التركي وعلى رأسه باشا البلاد **حسين** استسلم، وإن كانت هناك معارك، فهي صورية، وهذا ما أشار إليه المؤرخ الخبير **بيرم** التونسي في رحلته التي وإن كتبت بعد الاحتلال الفرنسي بمدة، في فصله الذي عقده للاحتلال الفرنسي ومقاومة الأمير التي أشاد بها وأشار إلى أن مقاومة الأتراك للاحتلال كانت ضعيفة جدا، وعللها بأن الأتراك خسروا سمعتهم عند سكان الجزائر، كما ركز روايته عن **أحمد باي** الذي حاول الدفاع عن الجزائر، ومقاومة الفرنسيين أنه لم يفكر جليا في أنّ الأتراك فقدوا ثقة السكان الجزائريين وزيادة على تجاهله لهذه الحقيقة، فإن الأمير عندما بويع وتولى زمام الحكم عرض على **أحمد باي** التعاون على الدفاع عن حمى الوطن فامتنع **أحمد باي** مما عرضه عليه الأمير وعلل **بيرم** سبب ذلك: «التكبر والتجبر والغرور» ويصدق على هذه

الرواية التي رواها **بيرم** أن تقدر حق قدرها، إذ لها وزنها وأهميتها، حيث إن صاحبها من الأتراك الأصيلين ومن أسرة يعد أفرادها ممن كانوا يمثلون الخلافة العثمانية وإطاراتها خير تمثيل في (**إسطنبول**) وفي تونس، حيث توارث بعض أفرادها كما سبق لنا ذكره وزارة العدل، ومشيخة الإسلام الحنفي، إلى حوالي 1932م، عندما ألغيت مشيخة الإسلام بمكيدة[1] استعمارية وقد علمنا أن مشيخة الإسلام في العهد التركي كان متوليها هو الشخصية الثانية بعد الخليفة العثماني في عاصمة الخلافة (**إسطنبول**) وكذلك في بقية الممالك كـ (**تونس**) و(**الجزائر**) وكان آخر مشايخ الإسلام بـ (**تونس**) من أسرة **بيرم**، ولهذا كله أثبتنا روايته في النقطتين الجوهريتين، وركزناها ـ كما يتطلبه الموضوع ـ على وثائق أصيلة:

1) لم تكن مقاومة الاحتلال الفرنسي في العهد التركي بعد انحطاطه وتدهوره الواقع بعد انفصال الجزائر عن الخلافة واستبداد اللفيف الأجنبي وانتشار الفوضى والرشى مما تعرض له مؤرخو هذه الفترة أمثال (**نقيب الأشراف**) وصاحب (**المرآة**) وغيرهما...

(1) عند مرور خمسين سنة على حماية فرنسا لتونس أقيمت احتفالات وزار خلالها رئيس الجمهورية الفرنسي تونس وأقيم ملتقى إسلامي ترأسه شيخ الإسلام وكان من جملة الحاضرين المستشرق ويليام مارسي فحافظ بيرم على تقاليد الإسلام فعزل والحق لهذا العزل خدمة الإسلام وهي التسوية بين المذهبين المالكي والحنفي وحينئذ تمكن للاحتلال أن يدخل الإصلاحات للزيتونة لخبر يطول.

2) قضية **أحمد باي** التي أثيرت أخيرا ليتوصل أصحابها إلى النيل من الأمير **عبد القادر** وعهده، وعدوها من غلطاته، فتبين أن **أحمد باي** هو البادي بالرفض «تكبرا وتجبرا وعجبا بحلفه» والراوي تركي أصيل له مكانة.

بهذا نختم هذه الدراسة وإن كان موضوعها في ملتقى الفكر الإسلامي المنعقد في (**معسكر**) وكان عنوان الدراسة «**لقطات عن ظهور السلفية بالجزائر والخلاف بين أنصار السلفية والمتصوفين**» إذ إننا في حاجة إلى إعادة النظر فيما نكتبه عن تاريخ بلادنا سواء الثقافي أو السياسي وعلى ضوء الحقائق والوثائق، ونجردها من التزييف والافتراء لا لصالح فئة أو أشخاص، كيفما كانت منازلهم في المجتمع أو حتى الغلطات التي نسبت لهم، أو تأييد الرأي العام الذي وصفه **ابن خلدون** بقوله: «إنّ العامة والجهلة يتبعون كل ناعق» وإنني بهذه المناسبة تعرضت لهذا الموضوع في ملتقى (**أدرار**) الأخير الذي حضرته نخبة من كبار الباحثين الشرقيين الموجودين حاليا بحكم وظائفهم بمختلف الجامعات الإفريقية ومن بينهم متخصصون في هذه الدراسات الفكرية التي اجتاحت بلادنا من عهد العبيديين الفاطميين الذين حاكموا فقهاء المالكيين، ومزقوا شملهم كل ممزق، ثم ظهرت في الأفق دولة الموحدين التي تركت بصماتها في التاريخ الثقافي والحضاري بـ (**إفريقيا**) و(**الأندلس**)، وكانت تحكم على فقهاء دولة المرابطين وملوكهم بالتجسيم والكفر واسحلّت دماءهم، إلا أنها لم يمر عليها قرن حتى صار خلفاؤها يتبرؤون من **المهدي ابن تومرت** وتعاليمه من أعلى منابر (**الأندلس**) و(**المغرب**)، كما سبق للعبيديِّين الفاطميِّين أن تبرَّأ منهم من أعلى منابر

عاصمة (**القيروان**) خلفاؤهم، وقاطعوا مساجدهم، وهذه سنَّة الله في الكون.

واسمحوا لي إن رجعت إلى الوراء قليلا إلى قضية أسرة **بيرم** وروايته فيما يخص موضوع حديثنا عن مقاومة الأتراك، وعن قضية **أحمد باي قسنطيني** التي رواها **بيرم** في رحلته، وبهذه المناسبة وفي التعريف بصاحب الرحلة وأسرته بـ (**تونس**) أن أسرته بقيت محتفظة بمشيخة الإسلام طيلة عهد الحماية، وبالضبط إلى الاحتفالات التي أقامتها (**تونس**) بعد مرور خمسين سنة على الحماية ، وأظن أن هذه الاحتفالات وقعت سنة 1932م، وقد ترأس بعض مهرجاناتها رئيس الجمهورية الفرنسي، ثم وقع ملتقى للغة العربية ترأسه شيخ الإسلام (**حميدة بيرم**) وكان من جملة المشرفين عليه المستشرق **ويليام مارسي** الأستاذ إذ ذاك بمعهد (**العطارين**)[1] في (**تونس**) فاغتنم فرصة الاحتفال فقدّم اقتراحا لترضية أغلبية السكان حسب زعمه: التسوية بين المذهبين المالكي والحنفي، فتحذف خطة شيخ الإسلام الحنفي الذي كان من جملة مهام وظيفه الإشراف التام والاستقلال بجامع الزيتونة والتعليم فيها، وأُحدِث مشيختان إسلاميتان: إحداهما للمذهب الحنفي ترك على رأسها الشيخ **حميدة بيرم**، والثانية للمذهب المالكي عُين على رأسها العلامة الشيخ **الطاهر بن عاشور**[2] ، ثم أحدثت مشيخة جامعة الزيتونة

---

(1) كان هذا المعهد خاصا لتدريس اللغة الفرنسية والترجمة وكان **ويليام مارسي** يشرف عليه ويلقي فيه دروس أهمها مقدمة ابن خلدون.

(2) الذي كانت وظيفته نائب مفتي مالكي والتصرف التام كان إلى ذلك العهد لشيخ الإسلام الحنفي.

فاستقل بها الشيخ **الطاهر بن عاشور**، وبالطبع تلقى علماء (**تونس**) وعمالتها، الذين كان جلهم مالكيين هذه الإصلاحات بالاستبشار، إلا أن هدف هذا الإصلاح، كان فتح باب الحماية الفرنسية للتدخُّل في تغيير وقلبِ أوضاع نظام التعليم وإصلاحه، وكذلك الديوان الشرعي الذي كان من أعضائه مُفتون وقضاة حنفيون ومالكيون وكانت رئاسته العليا لشيخ الإسلام الحنفي، وكان **حميدة بيرم** مشهورا بالصلابة والثبات، كما كانت له ثروة مادية وأدبية وغيرة مثالية على تعاليم الدين، وبهذه القنبلة فتح الباب على مصراعيه، وسخرت له وسائل الإعلام فقلبت الأوضاع وفتح من جديد باب الغزو الثقافي على مصراعيه، وكان من جملة ما فقدته (**تونس**) دروس أختام رمضان التي يحضرها بايات (**تونس**) في موكب بهيج ولا يخلو منها مسجد من المساجد، وتثار في هذه الدروس القضايا الهامة التي تجتاح البلاد المرة بعد المرة، وقد كان الكثير من هذه الدروس تتسابق إلى نشرها المجلات الإسلامية بمصر وغيرها كما كانت لا تخلو بيت من بيوتات العلم من هذه الأختام الخاصة، كما كانت تونس إذ ذاك تمتاز بأساطين علمائها وأدبائها وحضارتها المثالية، اختار الإقامة بها واستيطانها لدماثة أخلاق طبقات سكانها ولأضرب لذلك مثالا بأسرة الشيخ[1] **الطاهر بن عاشور** وولده النابغة **محمد الفاضل** فقد أخبرني المرحوم **الفضيل الورتلاني** أنه عندما مر في طريقه إلى الحج على (**مصر**) واجتمع مع كثير من علماء الأزهر وغيرهم من كبار علماء البلاد الشرقية لمؤتمر انعقد هناك فتعجبوا من وجود مثله في ذلك الزمان أما ولده فكان

---

(1) كما احتفظت تونس بأسر علمية توارث أفرادها التدريس بجامع الزيتونة خلفا عن سلف قرونا.

يحضر في مؤتمرات البحوث الإسلامية بمصر وفي الدروس الحديثية بالمغرب الأقصى فكان كذلك محل إعجاب الجميع وذلك رغم قلة عدد سكانها وفقرهم واستعمار بلادهم، كما كانت مأوى للجزائريين عند الاحتلال الفرنسي ثم الليبيين في مختلف عهود امتحاناتهم إثر الحروب التي شنّها عليها الإيطاليون، فكان منطلق مصائبها من القضاء على معهد جامع الزيتونة ومحاولة فرنستها وعقوق بعض أبنائها، وأذكر أن أحد المهاجرين الجزائريين قضى فيها أربعين سنة وكان من أعيانها ذكر لي مرة أنه خالط أكثر طبقاتها تلك المدة (أربعين سنة) فلا زال يذكر أنه لم يسمع يوما واحدا من أحد سكانها كلمة نابية.

وبهذه اللقطات أختم هذه الدراسة آمِلا أن أعود إلى الموضوع في فرصة أخرى.

المهدي البوعبدلي

ملتقى الفكر الإسلامي بمدينة معسكر

[رأيٌ في الإصلاح][1]

الحمد لله.

إنَّ المذهبَ السَّائد في بِلاد الجزائر منذ 13 قرنا هو المذهب المالكي، إذ هو الذي يَدينُ بِه جلّ النَّاس، وإنَّه رغمَ احتِلال الأتراك للبِلاد ما يَربو على الثَّلاثة قرون، ورغم أنَّ مذهب رجالِ الحكمِ والنُّخبة مِن رجالِ القضاءِ والفَتوى والتَّدريس حنفي، لم نجِد في البِلاد إلَّا بعض المئات مِن سُلالة الأتراك على المذهبِ الحنفي، ما زالت منهم بَقايا بِمدُن الجزائر والمدية والبليدة وقسنطينة.

إنَّ التأليفَ الفِقهي الذي يمثِّل المذهب المالكي بالقُطر الجزائري هو: **مختصر الشَّيخ خليل**، هذا التَّأليف انتشر انتِشارا بالبلاد لم يحظ بمثله تأليف غيره.

هذا، وإنَّ جميعَ الحركات التَّقدُّمية بالبلاد قبل حرب 39م حاولت أن توجِّه المتديِّنين ضد تعاليم خليل لتشدُّدِه وتزمُّتِ كثيرٍ مِن الفقهاءِ، إذ أنَّهم لم يقبلوا أيَّ حكمٍ مُخالفٍ لنصوصه، نرى هذه الحركات باءت بالفشَل مِن هذه النَّاحية، وبقيَت هذه الطَّبقة مُحافِظة على هذا التَّأليف وعلى نصوصِه، لا تعتَرف بأيِّ نصٍّ في أحكامِها يُخالِفُ نصُوصَه.

إنَّ مازونة التي اشتهرت بِمدرسة خصيصة لدراسة مختصر خليل كان يرِدُ عليها الطَّلبةُ مِن المغربِ إلى أن لفظت أنفاسَها سنة 1939.

---

(1) اعتمدنا في إثبات هذا النَّصِّ على صورة مِن نسخة خطية تقع في صفحتَين بخطِّ الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، وهي موجودة ضمن مجموع الأستاذ هاشمي عبد الحفيظ ياسين، المسمَّى بـ : **تعريف الخلف بمآثر السَّلف** (الشَّيخ المهدي البوعبدلي). (ع)

فمُعظم رجال القضاء والعدالة والفقهاء شَرقي المغرب وببلاد الرِّيف، مِن مُتخرِّجي هذه المدرسة يومئذ، ثمَّ إنَّ **مختصرَ خليل** حظيَ باعتناء طبقة لا يُستهانُ بها مِن الفقهاءِ الأوربوِّيِين، فترَجموا كثيرا مِن فصوله، وإنَّ نصوصَه حجَّة في القضايا الإسلامية بالمحاكمِ الفرنسويَّة.

والحاصِل أنَّ معظمَ سكَّان الجزائر خصوصا المتديِّنين سواء كانوا بالمدُنِ أو البوادي والقُرى، كلُّهم يعرفون إجمالا أو تَفصيلا الأحكامَ التي تتعلَّق بالنِّكاح والطَّلاقِ والميراث، وعلى هذا فمِن الصَّعبِ جِدًّا أن يُحاوِلَ أي إنسانٍ تغيِيرَ أحكامٍ هامَّة تتعلَّقُ بالنِّكاح أو الطَّلاقِ، بِدَعوى أنَّه إصلاحٌ تُوجِبُه الظُّروف لمصلحة الأسرة، لم توجَد في بِلادنا هذه أي شَخصية أو هَيئة دينية أو سياسية يُمكِنُ لها أن تغيِّر حكما مِن هذه الأحكام وتفرضُ قبوله على الناس طواعية ولو بلغَت مِن النُّفوذ أو السُّمعة الحسنة ما بلغَت، فإنَّ أركان النِّكاح الجاري به العمل منذ أربعة عشَر قرنا، هي: الزَّوجان، والولي، والمهر، والصِّيغة، والشُّهوة، ثمَّ إنَّ كلَّ امرأة يشترط في نكاحِها حضور الولي، وعقد الزَّواج بالبلاد الإسلامية يقَع بالمسجِد الجامع أو بِبَعضِ الزَّوايا أو بالمحلَّات الخاصَّة، ويحضُر جمٌّ غفير مِن النَّاسِ، وعلى رأسِهِم نخبة رجال الشَّرع والدِّين في البِلاد، أمَّا تسجيل العقدِ بالمحكمةِ الشَّرعية أو عند العدول (بتونس والمغرب) فإنَّه أمرٌ ثانوي، إذ المعتبَر في العقد هو النَّاحية الدِّينية، حتَّى إنَّ هذا العقد يسمَّى في كثير مِن البُلدانِ بـ : الفاتحة، نعم إنَّنا نجِدُ في كثير مِن حالاتِ الزَّواج أو الطَّلاقِ ظُلما يَرتَكِبُه الزَّوج كان أو الولي أو بعض الحكَّام، لكن هذه المخالفات لم تُبرِّر تَغيِير الأحكام، بل يمكِن لولاةِ الأمر أن يجِدوا إصلاحاتٍ أو يفرِضوا عقُوبات على المعتَدين مِن دون أن يلجئوا إلى تغيِير الحكم.

إنَّنا نجتازُ ظروفًا حَرِجة، وليسَ هذا الوقت وقت حلٍّ لمشاكل عَويصة كهذه، حيث إنَّ عدَّة مصلحين بالبلادِ الإسلامية يتمتَّعونَ بالسُّمعة الطَّيِّبة والثِّقة والاِحترام

إلَّا أنَّهم عِندما حاولوا إدخال إصلاحاتٍ أو تَغيِيرات فقط على مثلِ هذه المسائل ثار ضِدَّهم الرَّأيُ العام ثَورةً جعلتهم يتَراجعون، وانتظروا أجيالا أخرى نبذت أثناءها بعض آرائهم، ثمَّ إنَّنا نجِدُ في بِلادِنا هذه كثيرا مِن الحكوماتِ الإسلامية الشَّهيرة، كـ : العُبيديِّين، والمهدي، حاوَلوا أن يفرِضوا على النَّاسِ آراءهم، وذهبَ بعضُ ملوكِ الموحِّدين إلى حرقِ كتبِ الفروع، وسجنِ بل قتلِ كثيرٍ مِن زعماء الفقهاء، ولم يصِلوا إلى مَرغوبهِم، بل بالعكس فإنَّهم وقع ردُّ فِعل وتشبَّثَ النَّاس بآراء الضَّحايا.

إنَّنا في بِلادِنا هذه علاوة على الأمور الدِّينية نجِدُ تقاليد تشبَّث النَّاس بها يُحاربها الدِّينُ نفسه، وحاربها الفقهاء أجيالا، كمسائل تتعلَّق بالطَّلاق والميراث بِبلاد القبائل الكُبرى، فإنَّه رغم جهود فطاحل الفقهاء الذين تَداولوا على البِلاد في... [1] ورغمَ التَّعليم المنتشِر هناك فإنَّ هذه التَّقاليد ما زال العمل يجري بها إلى يَومِنا هذا.

حرِّرت بالأَصنام في 27 جوان 1959م

عبد ربِّه **المهدي البوعبدلي**

(مفتي بلدة الأصنام)

---

(1) مقدار كلمة لم نتمكَّن مِن قِراءتها. (ع)

[illegible]

صورة عن الوثيقة المعتمدة

فهرس الموضوعات

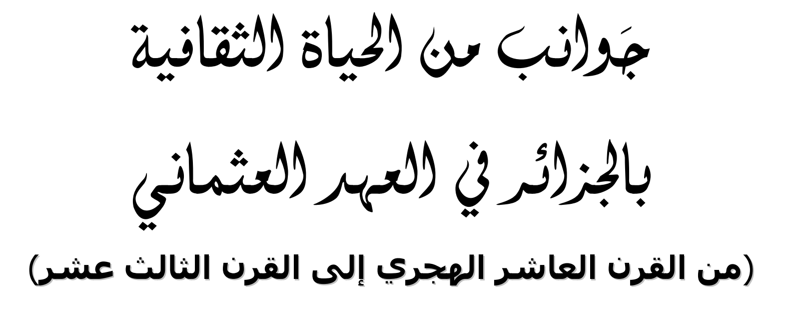
الفصل الرابع

المؤلفات

1) جَوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني (من القرن العاشر الهجري إلى القرن الثالث عشر)

2) الشريف بوبغلة بطل ثورة بلاد القبائل

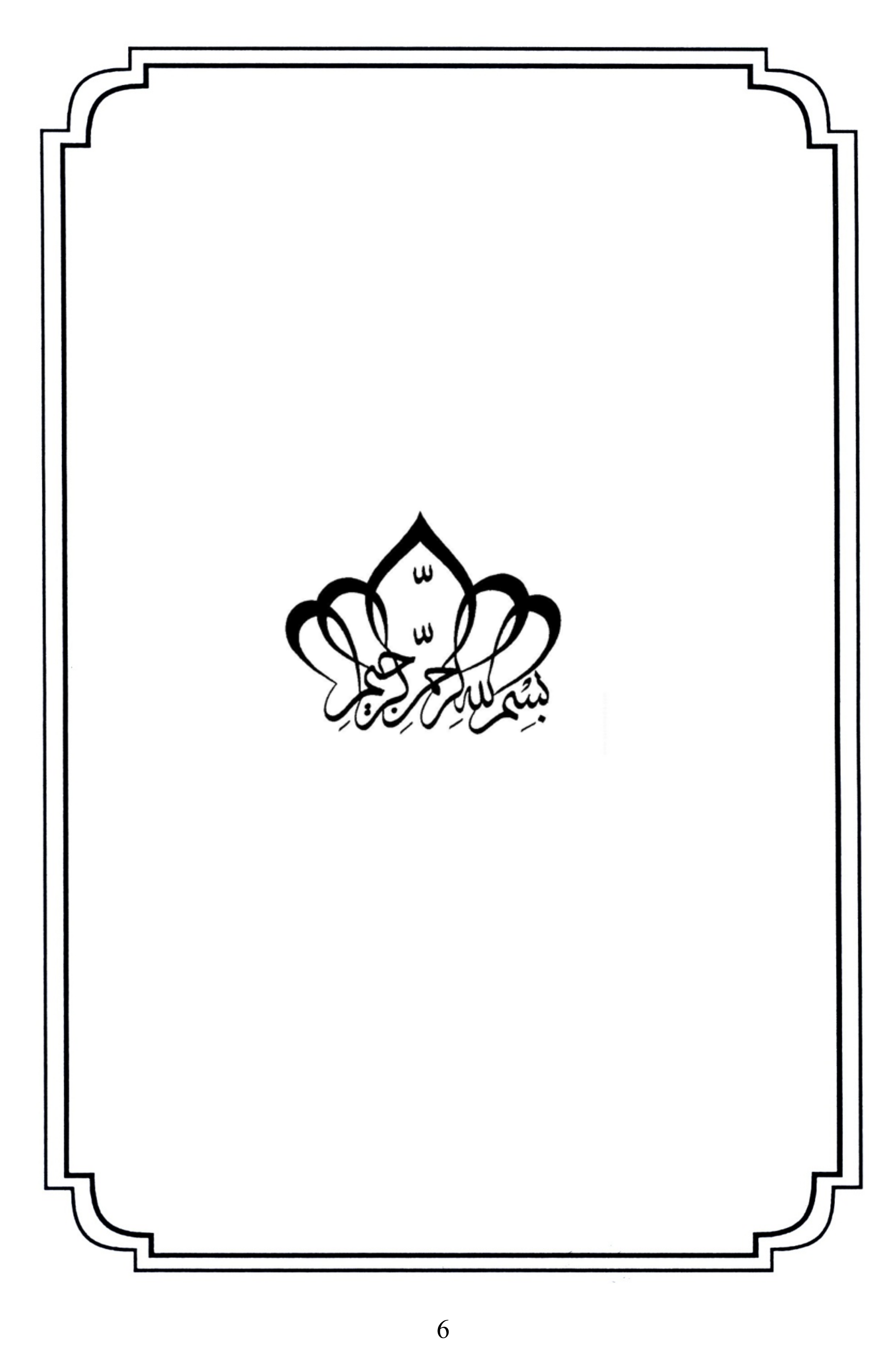




تأليف

الشَّيخ المؤرّخ المهدي البوعبدلي

(رحمه الله تعالى)


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وبعد.

فيُسعِدُنا أن نقدِّم بين يدي القارئ النَّصَّ الأصلي لكتاب: (**جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني، من القرن العاشر الهِجري إلى القرن الثَّالث عشر**)، الذي سبق نشره بتصرُّفٍ كبير مِن طرف الأستاذ **شهاب الدين يلس** الذي وهذا بتكليفه مِن قِبَل اللجنة العلمية للكتاب التي أشرفت على نشره، وبموافقة أيضا مِن الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى) كما في مقدِّمته، وطبع سنة 1984م بالمؤسَّسة الوطنية للكتاب، تحت إشراف (وزارة الثقافة والسياحة).

وفي هذه الطبعة الجديدة عمَدنا إلى نشر النصِّ الأصلي لهذا الكتاب، بعد وقوفِنا على نسخته الأصلية بخطِّ مؤلِّفها الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، وقد لاحظنا فروقا كثيرة بين ما نشره الأستاذ **شهاب الدين يلس** وبين نسخة المؤلِّف، وأغلب هذه الفروق يمكن حصرها في تقديمه بعض النصوص وتأخيره أخرى، وِفقًا للمناهج العلمية التي درج عليها أصحاب البحوث الأكاديمية، من تقسيم الكتاب إلى أقسامٍ، وعقد فصول وأبواب تسهِّل على القارئ الاستفادة منه، وهو تصرُّفٌ حميد، لكن ربما اضطرَّ إعادة ترتيب الكتاب أستاذنا **شهاب الدين يلس** إلى إنشاء صياغة جديدة له، وهذا ما جعل أصله يفقد روح الكتابة والأسلوب الذي عُرِف به الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى).

لهذا السَّبب توجَّه رأينا إلى إعادة نشره كما ألَّفه صاحبه، مع الإبقاء على المقدِّمة التي أنشأها الأستاذ **شهاب الدين يلس**، والله الموفِّق، وهو يهدي إلى سواء السَّبيل.

وصف النسخة المعتمدة:

وقفنا على أصل هذا الكتاب الذي يحتوي على جزأين بـ: **مكتبة الزاوية البوعبدلية**، وهو بخطِّ مؤلِّفه الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** (رحمه الله تعالى).

يقع المخطوط في كرَّاستَين أوراقها حديثة، وحبرها أزرق حديث أيضا.

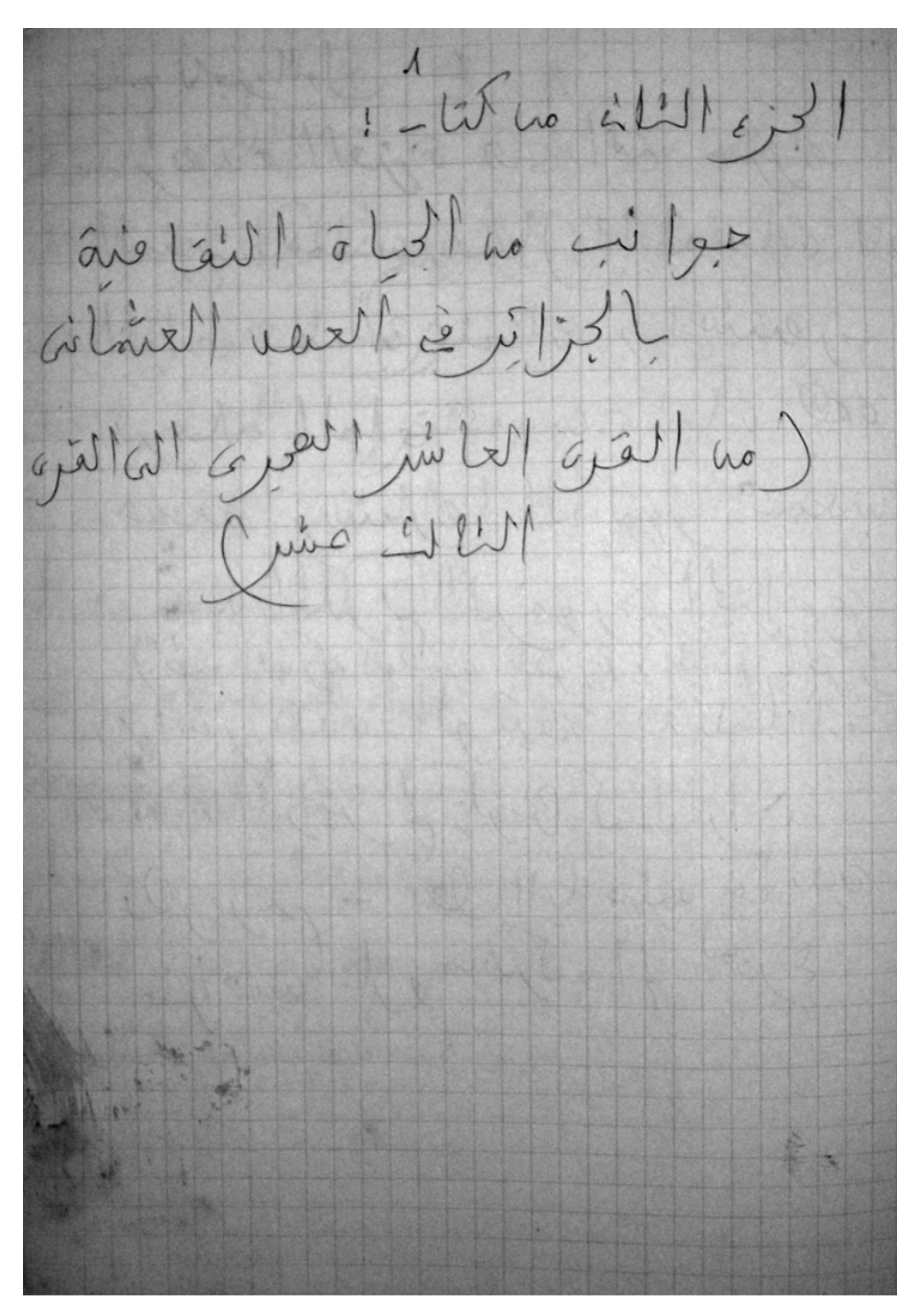
عدد صفحات الكرَّاسة الأولى في: 194 صفحة، والثانية في تقع في 189 ص، ومقاس كلِّ كرَّاسة: 22 × 5،17سم.

عبد الرَّحمن دويب

٤

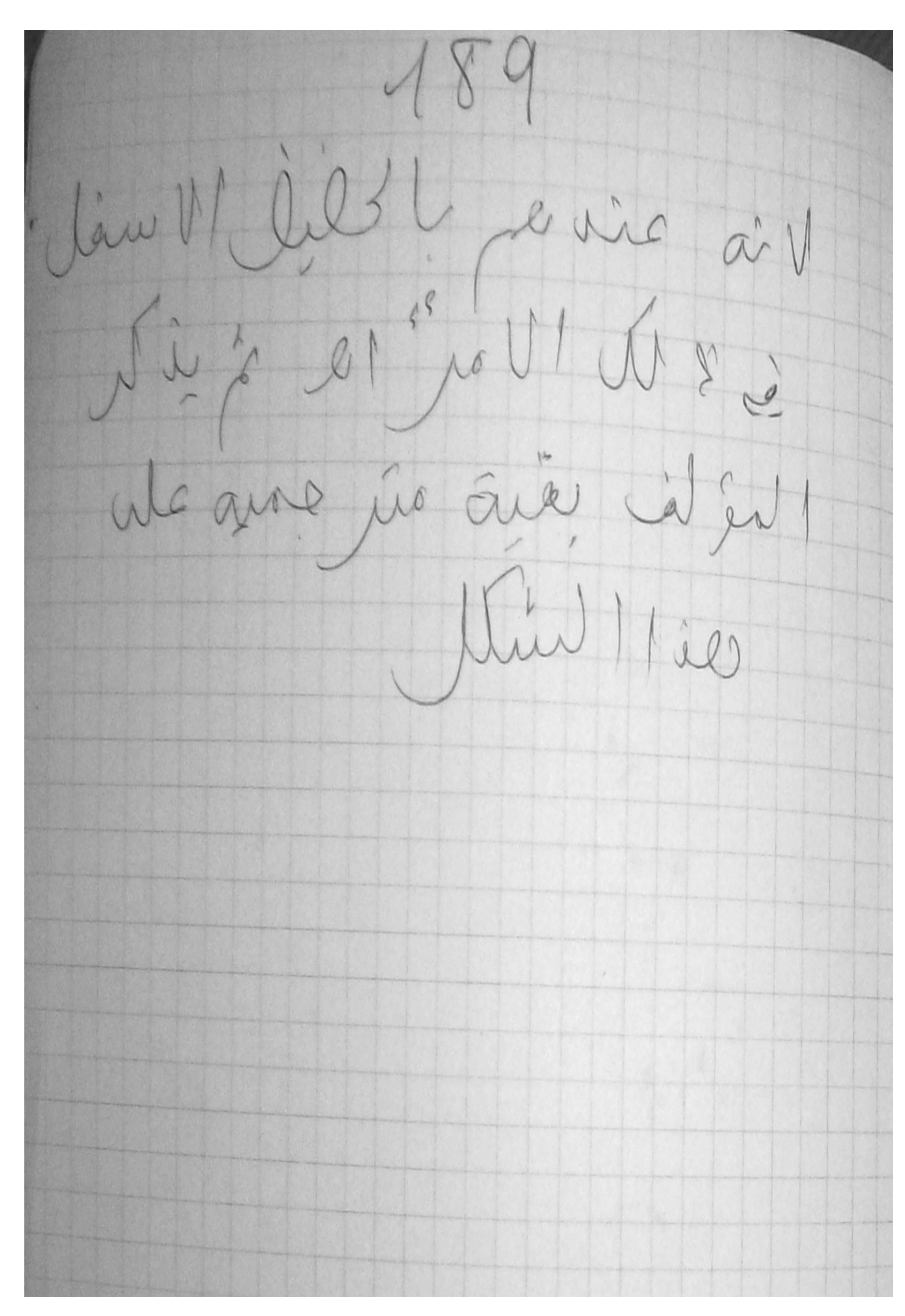
كانت الثقافة بالجزائر في العهد
العثماني تتركز على العلوم الدينية
من تفسير وحديث وفقه وعقائد
كما كانت معاهد التعليم منتشرة
في كامل البلاد مدن وقرى وبوادي
وكثيرا ما كانت معاهد التعليم
بالبوادي تضاهي معاهد المدن
في أواخر القرن التاسع الهجري
~~في أواخر القرن الهجري~~ وبالخصوص
بعد سقوط مملكة غرناطة
آخر معقل للدولة الإسلامية
بالأندلس تدفق سيل الهجرة
الأندلسية

الصفحة الأولى من الجزء الأول


1
الجزء الثاني من كتاب :

جوانب من الحياة الثقافية
بالجزائر في العهد العثماني
(من القرن العاشر الهجري الى القرن
الثالث عشر)

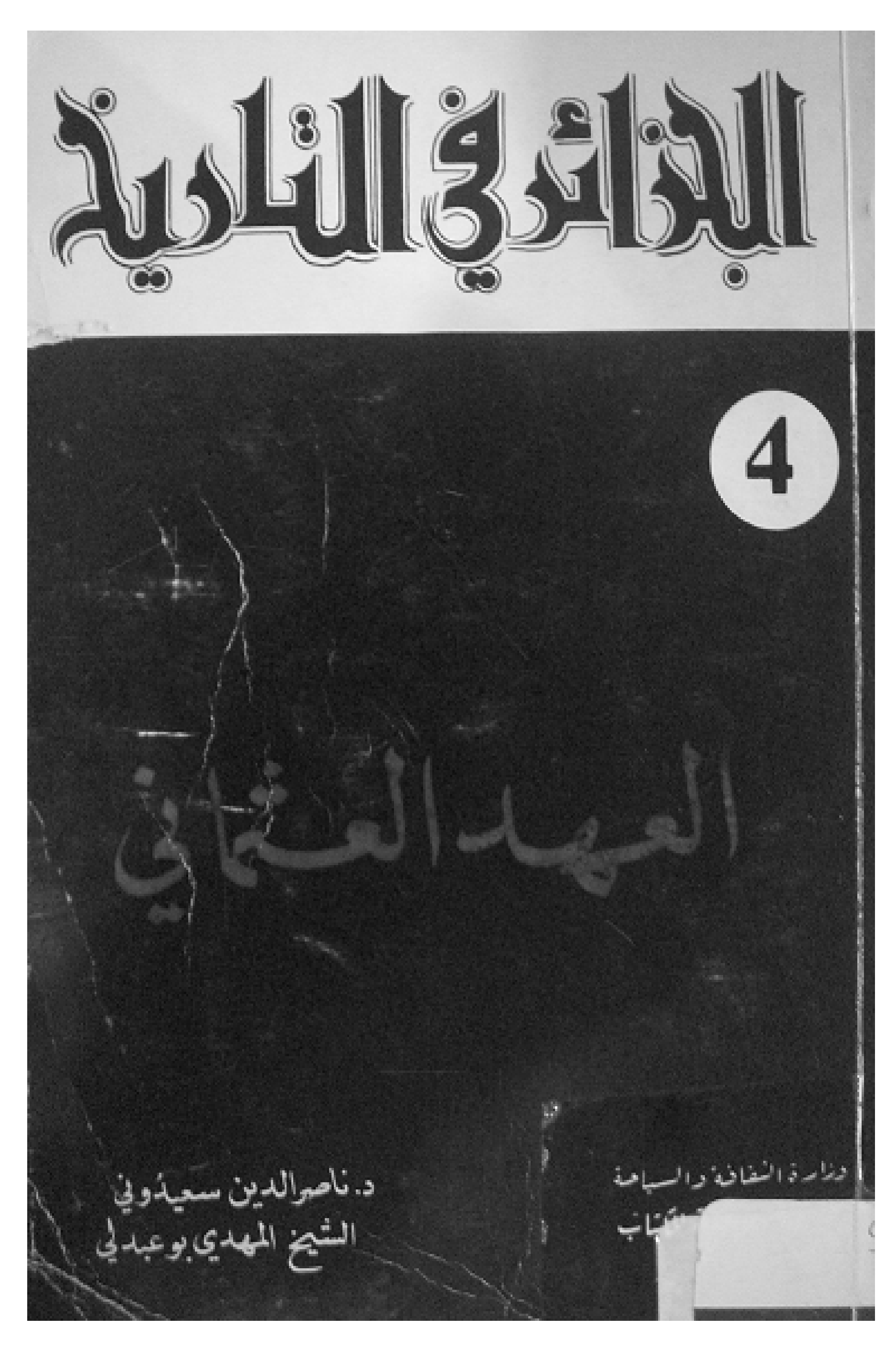
الصفحة الأولى من الجزء الثاني



189

لانه عنده علم بالكليل الاسفل
في كل الامر اهـ ثم يذكر
المؤلف بقية متن جميعه على
هذا الشكل

آخر صفحة من الكتاب



صورة عن غلاف الكتاب المطبوع

مقدِّمة الأستاذ شهاب الدِّين يلس

آثر أستاذُنا الفاضل الشيخ **المهدي بوعبدلي**، وكذلك **اللجنة العلمية للكتاب**، والذي اضطلع بمهام كتابتها، بِتكليفي بمُراجعة الجزء المتعلِّق بالعهد العثماني، وذلك محاولة مِنَّا لاستِكمال العمل الذي قام به الشَّيخ **بوعبدلي**، حيث لم يتسنَّ له ذلك نظرا لمرضه الذي حال دون ذلك، ولضيق الوقت، وعلى هذا الأساس فقَد قمتُ بتنظيم الكتاب إلى قِسمَين رئيسيَين:

الأول: ثلاثة فصول.

والثَّاني: أربعة فصول.

ويشكِّل **الفصلُ الرابع** خاتمة العمل نفسه.

وفي الحقيقة كانت هناك بعض الصُّعوبات واجهتنا أثناء العمل، وذلك نظرا لتداخُل الكثير مِن المواضيع، لهذا فقد حاوَلنا قدرَ الإِمكان تفصيل الكتاب بشكلٍ لا يؤثِّر على وَتيرته وأسلوبه الذي أراده له الشَّيخ.

ولقَد أَلحقنا ضمن العمل بعض التَّعاليق في الهامشِ لتَوضيح بعضِ النِّقاط التي تَستشكِلُ على القارئ، وهذا الجزء مِن الكتاب الذي بين أَيدينا ثَريٌّ بالمعلومات التاريخية والثَّقافية، وخصوصًا ما له صلة بعنوان الجزء نفسه، وهو جديرٌ بالقراءة والاطِّلاع، والشَّيخ **بوعبدلي** بذلَ جهدا كبيرا لتوضيح العديد مِن الجوانب التاريخية

بالنِّسبة للحياةِ الثَّقافية للعهد العثماني بالجزائر، ولقد اقتصَر على ذكر أهمِّها بما يمكن أن يفي بالغَرض، وحتى تكون مساهمته بالكتاب العام كمَدخل للتَّاريخ الثَّقافي، وأَعتقد أَن هذا العمل سوف يتلوه أعمال أخرى أوفى وأوسع، والله وراء القصد.

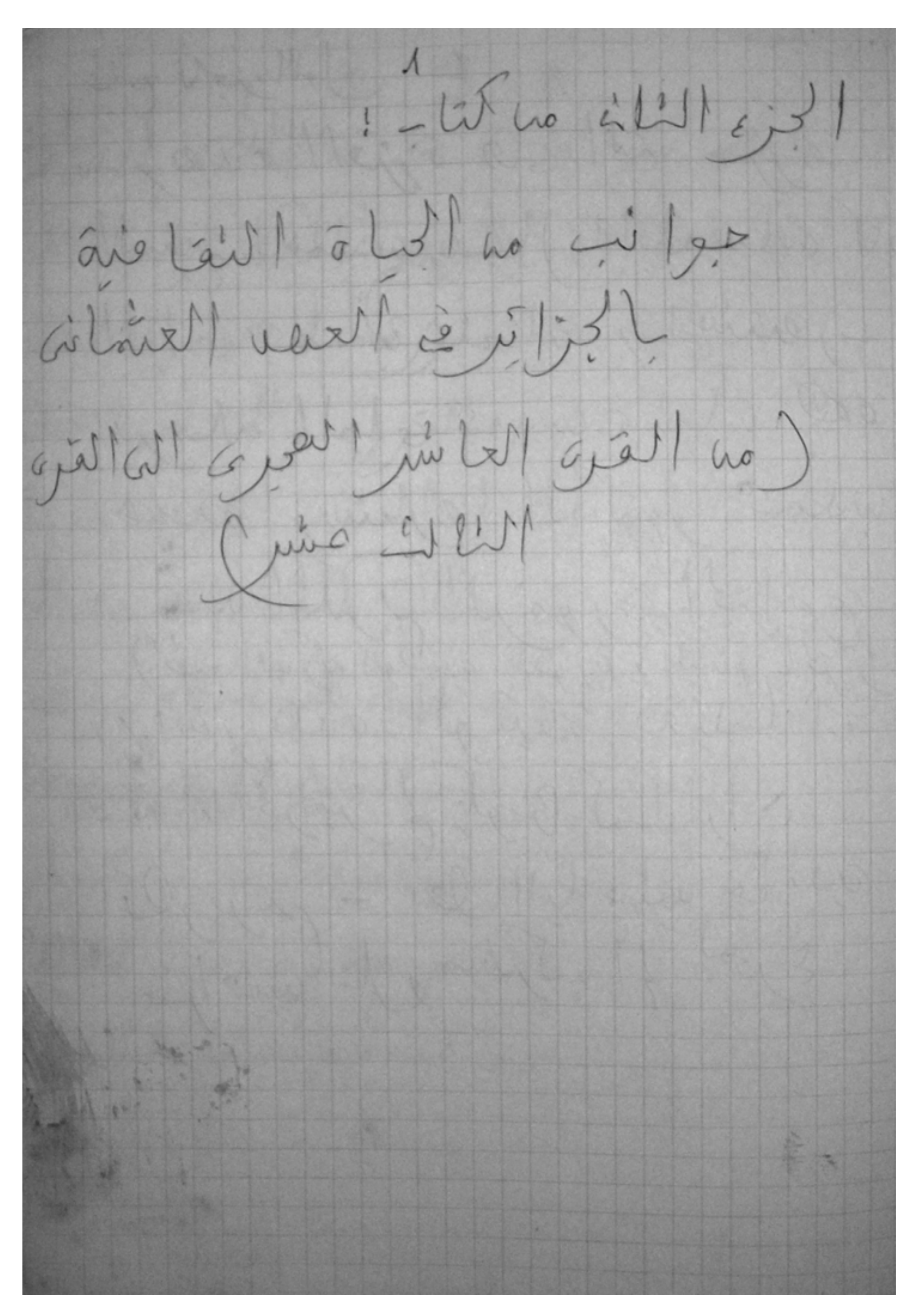
الجزائر: 23-10-1404هـ/ 22-07-1984م

شهاب الدِّين يلس

٤

كانت الثقافة بالجزائر في العهد
العثماني تتركز على العلوم الدينية
من تفسير وحديث وفقه وعقائد
كما كانت معاهد التعليم منتشرة
في كل من البلاد مدن وقرى وبوادي
وكثيرا ما كانت معاهد التعليم
بالبوادي تضاهي معاهد المدن
في أواخر القرن التاسع الهجري
~~في أواخر القرن الهجري~~ وبالضبط
بعد سقوط مملكة غرناطة
آخر معقل للدولة الاسلامية
بالاندلس تدفق سيل اللاجئين
الاندلسيين

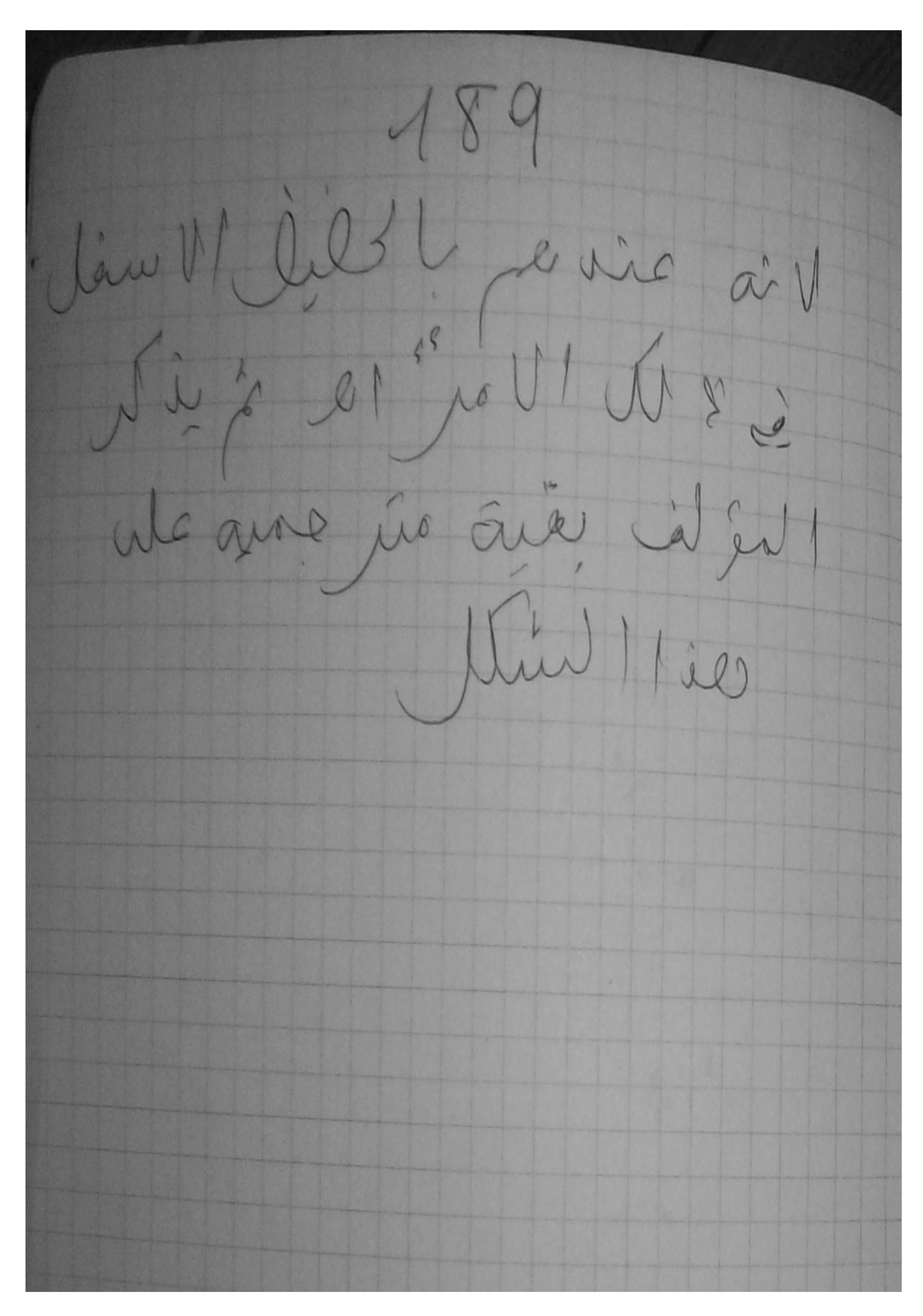
الصفحة الثانية من الجزء الأول



الجزء الثاني من كتاب:

جوانب من الحياة الثقافية
بالجزائر في العهد العثماني
(من القرن العاشر الهجري الى القرن
الثالث عشر)

الصفحة الأولى من الجزء الثاني



189

لأنه عنده علم بالخليل الأسفل
في كل الأمر اهـ ثم يذكر
المؤلف بقية شرحه على
هذا الشكل

آخر صفحة من الكتاب

جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني
(من القرن العاشر الهجري إلى القرن الثالث عشر)

الجزء الأول

كانَت الثَّقافة بالجزائر في العهد العثماني تتركَّز على العلوم الدِّينية، من تفسير، وحديث، وفقه، وعقائد، كما كانت معاهد التعليم منتشرة في كاملِ البلاد، مدُن، قُرى، وبواد، وكثيرا ما كانت معاهد التَّعليم بالبوادي تُضاهي معاهد المدُن.

وفي أواخر القرن التاسع الهجري، وبالضَّبط بعد سقوطِ مملكة غرناطة (آخر معقل الدولة الإسلامية بالأَندلس) تدفَّق سَيلُ الَّلاجئين الأندلسيِّين على شواطئ بلاد الجزائر، وقد أعقَبه مُباشرة الغزو الصَّليبي الذي تبنَّته مملكة إسبانيا المسيحية، وسقطت مِن جرَّائه مدُن شواطئ الجزائر، الواحدة بعد الأخرى، كـ: مدينة **وهران** سنة 914هـ، ثم **بجاية** سنة 915هـ، فحينئذٍ هاجر هاتَين المدينتَين سكَّانهما، وفي طليعتهم علماء البلاد الذين أسَّسوا معاهد عِلمية كانت مراكز إشعاع، خصوصا بـ: **وادي بجاية** وجبالها.

ولما ظهرت في الأُفق طلائع الجيش العثماني تحت قيادة **عرُّوج** و**خير الدين** اتَّصل بهما علماء البلاد وسهَّلوا لهم احتلال مدينة **الجزائر**، مِن بينهم الشَّيخ **أحمد ابن القاضي الزَّواوي**[1] (قاضي بجاية) في عهده المتوفَّى سنة 933هـ، و**أحمد بن يوسف**

---

(1) ذكر ذلك صاحب: (**دوحة الناشر في بيان علماء القرن العاشر**)، في ترجمة **أحمد بن القاضي**، كما ذكر ذلك صاحب: (**الزَّهرة النيرة فيما أصاب الجزائر حين أغارت عليها الجنود الكافرة**).

الراشدي[1] (دفين مليانة) المتوفَّى سنة 931هـ، صاحب المعهد الشَّهير بـ: **مسراتة،** ضواحي **قلعة بني راشد،** وبفضلِ هذا الاتِّصال تمكَّن **عرُّوج** مِن احتلال مدينة **الجزائر،** ورغم إمكانيات جيش الاحتلال الأسباني وانهيار دولة **بني زيان** التي كانت تحكم القطاع الغربي، فقَد انتصر السكَّان للعثمانيِّين وانضووْا تحت لوائِهم، خصوصًا بعد اتصال **خير الدين** بالخلافة العثمانية التي أقرَّته على ولايته، وعيَّنته باشا على البلاد الجزائرية، وقد ظهر انضواء السكَّان الجزائريِّين والتِفافهم حول العثمانيِّين غَربي البلاد وشَرقيَّها، وبصفة جليَّة في المعركة الحاسِمة التي قادها **حسن بن خير الدين** لما هاجمَ مدينةَ **مستغانم الكُنت دالكادوت**[2] (الوالي العام الأسباني لمدينة **وهران**)، وخسر فيها الجيش الإسباني حوالي عشرين ألف بين قتيلٍ وأسير، مِن بينهم قائد الحملة **الكنت دالكادوت** وخمسون ضابِطا مِن قادة جيشِه، وقد سجَّل هذه المعركة الشَّاعر الشَّعبي الشَّهير الشَّيخ **الأخضر بن خلوف** (دفين مزيلة) شرقي مدينة **مستغانم،** فقد ذكر الشَّاعر كلَّ القبائل التي أجابت نِداء **حسن بن خير الدين،** وشاركَت في هذه المسيرة مِن **الجزائر** إلى **مستغانم،** والذي يهمُّنا مِن هذه الملحَمة التي هي وثيقة أصيلة، ذِكرُ القبائل التي انتصرت للجيش النِّظامي العثماني الذي قاده الباشا **حسن بن خير الدين** مِن **الجزائر** إلى **مستغانم،** وذِكرُ مراحل انتِقال هذا الجيش، والظروف التي وقعَ فيها الاتصال بين **وهران** و**الجزائر،** حتى تمكَّن الجيشُ العثماني أن يصِل في الوقت المناسب للدِّفاع عن المدينة، وهذا دليلٌ على الفشلِ الذَّريع الذي لاقاه الجيش الإسباني، رغم إعانة بعض أمراء دولة **بني زيان،** وبعض أنصارهم مِن القبائل المرتَزقة الذين انتصروا للجيش الإسباني رغَبا أو رهَبا، ولم يقتصِر موقفُ علماء الدِّين على دعم محاصرة مدن

(1) ذكر **محمد الصباغ** (قاضي **قلعة بني راشد**) اجتماع **أحمد بن يوسف** بـ: **عرُّوج** في شاطئ **كرشتل،** في كتابه الذي خصَّصه لترجمة **أحمد بن يوسف.**

(2) هو صديق **شارلكان،** وأول وال إسباني جمع بين القيادتَين العسكرية والمدنية.

وهران و**بجاية** طيلة إِقامة **الأسبان** بها، بل حملوا حملةً عنيفة على الموالين للأَسبان مِن القبائل المجاورة لـ: **وهران**، وحكَموا عليهم بالكفر، ومِن جملة ما وَصلنا في الموضوع تأليف العلَّامة الشيخ **عبد القادر بن عبد الله المشرفي** المتوفَّى سنة 1192هـ (دفين **الكرط**)[1] قرب **معسكر** ـ سماه: (**بهجة النَّاظر في أخبار الدَّاخِلين تحت حكمِ الأسبان مِن الأعراب كبني عامر**)[2].

خصَّص **المشرفي** هذا التأليف للقبائل (**المُتَنَصِّرة**) كما كان يطلَق عليها إِذ ذاك، فاستعرضَ فيه هذه القبائل المتعاوِنة أصولها وفصولها، وبيَّن بمزيدٍ مِن التَّفصيل جَرائمَهم وأَنواعَ خِدماتِهم للمُحتلّ.

هذه لقطات ذكَرناها كتَمهيدٍ لموضوع دِراستِنا، وهي مذكورة بتفصيلٍ في جلِّ كتبِ تاريخ العَهد العثماني.

ولنرجع إلى موضوع دراستنا، وهو: (**جوانب مِن الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني**).

كانت الثَّقافة ببلاد **الجزائر** لا تختلف عَن الثَّقافة في بقية البلاد الإسلامية شرقا وغربا، وبِحكم فريضة الحجِّ إلى بيتِ الله الحرام، واهتمامِ رؤساء البلادِ بهذه الفريضة، والإِشرافِ على قوافلِها سنَويا، وتَعيينِ أمراءِ الرَّكب واختيارِهم مِن بين أَساطين العِلم، واتِّصالِ قَوافل **الجزائر** بقَوافل **المغرب** و**السودان**، فكانوا يتَبادلون الإِجازات العِلمية معَ بعضِهم بعضا، والتآليف والمناظرات، كما لا تخلو رحلة مِن هذه الرِّحلات مِن

(1) **عبد القادر بن عبد الله المشرفي**: مدير (**معهد القيطنة**) الذي أسَّسه جدُّ **الأمير عبد القادر** الشيخ **مصطفى بن المختار الراشدي**، كما كان **المشرفي** مِن أساتذة المؤرِّخ **محمد أبي راس الناصري** (1165 ـ 1237هـ).

(2) **بنو عامر**: قبيلة عربية نزحت في مسيرة بني هلال، وموقعها بين **وهران** ومدينة **بلعباس**.

ذِكرها، كما كانت هجرة الطلَّاب الجزائريِّين لبلادِ المشرق، والتِحاق الكثير منهم بـ: **الزيتونة** و**الأَزهر** حسبما تدلُّ على ذلك فَهارسهم، نجِد وحدةَ الثَّقافة بينَ المغربِ والمشرقِ وحدةً حَقيقية، والموادَّ التي كانت تُدرَّس بِمعاهد **الجزائر** لا تختلِف عن الموادِّ التي تدرَّس بـ: **الأزهر** و**الزَّيتونة** و**القرويِّين**، كما تدلُّ على ذلك بعضُ الإجازاتِ العِلمية.

ولننتقِل إلى الدُّخول في بعضِ التَّفاصيل، فنجِد بالنِّسبة إلى الفِقه، كان المذهبُ السَّائدُ بكاملِ بلادِ المغربِ العربي **مذهب الإمام مالك**، وكانت أهمّ الكتبِ الفقهية المتداوَلة بـ: **الجزائر**: (**رسالة ابن أبي زيد القيرواني**)، و(**مختصر خليل**) الذي عمَّ تدريسه بالمدُنِ والقُرى، وخصِّصت له مَدارس.

أمَّا التَّفسير فقد كان يدرَّس بـ: **الجزائر** زيادةً على التَّفاسير المتداولة المشهورة بالبِلاد الإِسلامية، تفاسير أَلَّفها بعضُ علماءِ **الجزائر**، مِن بَينها تفسير: (**الجواهر الحسان**) للشَّيخ عبد **الرحمن الثعالبي** (دفين الجزائر) المتوفَّى سنة 875هـ، وتفسير **محمد بن علي الخروبي** (دفين الجزائر)، توفي سنة 962هـ وهو دفين مقبرة **باب الوادي**، له تفسيرٌ سمَّاه: (**رياض الأَزهار وكنز الأسرار**)[1].

أما الحديث الشَّريف فقد ظهَرت شروح (**صحيح البخاري**) لعدَّة علماء، مِن بينهم: **محمَّد ابن مرزوق** (الحفيد) **التلمساني**، و(**مختصر فتح الباري**) للشَّيخ **عبد القادر المجاجي**، كما ظهَرت تآليف في علمِ التَّوحيد، أهمُّها: (**منظومة**) الشَّيخ **أحمد بن عبد الله الجزائري الزَّواوي** (تلميذ الشَّيخ **عبد الرحمن الثَّعالبي**)، وتآليف تلميذه **محمَّد بن يوسف السَّنوسي** (دفين تلمسان)، الذي يعدُّ مِن مجدِّدي علمِ التَّوحيد، حيثُ كتِب لتآليفه

---

(1) ذكر الشيخ **أبو القاسم الحفناوي** في تأليفه: (**تعريف الخلف برجال السَّلف**) في ترجمته قال: « وفي (**الجذوة**) أنه من أهل الحديث والفقه والتصوف...»، إلى أن قال: « وحدَّثني بعض الجزائريِّين أنه رأى تفسيرا له على القرآن العظيم بجزائر مزغنة... الخ ».

فيه الخلود، وشَرحَها علماءُ **الأزهر**، وكانت تدرَّس بـ: **الأَزهر** و**الزَّيتونة** و**القرَويِّين**.

وهنا ـ بين قوسَين ـ نذكُر أنَّ أحدَ تلامذة **محمَّد بن يوسف السَّنوسي** تولَّى بأَمر مِن أُستاذِه نشر التَّوحيد بـ: **الراشدية** ـ ما يعرفُ الآن بـ: **غريس** ـ ولاية **معسكر**، وبقي علماء البلاد يحتفِظون ويفتخِرون في تآليفهم باتِّصال سَندهِم في علمِ التَّوحيد بعلماءِ **الرَّاشدية** ـ أي: **معسكر** ـ فنَجِد **أحمد المقري التِّلمساني** صاحب (**نفح الطيب**) يذكُر في (**حاشيته على الصُّغرى**) للسَّنوسي[1] بأن سندَه يتَّصل بعلماء **الرَّاشدية** العارفين بهذا الشأن[2]، كما نجِد زميلَه ومعاصرَه **عيسى السكتاني** (قاضي مدينة مراكش) في (**حاشيته على الصُّغرى**) يقول: «إنَّ سندَه في هذا الفنِّ يتَّصِلُ بعلماءِ **الرَّاشدية** »، ويصِفُ **الراشدية** بأنَّها منبع علمِ التَّوحيد.

كما ظهرَت طائفة مِن علماء **الرَّاشدية** تخصَّصوا في الفقهِ المالكي، وكان على رأسهِم الحافِظ **محمَّد المصطفى الرماصي** المتوفَّى سنة 1137هـ، وقد نالَ شهرةً عند علماءِ **الأَزهر**، حتى إنَّ الشَّيخ **الدَّردير** صاحب (**شرح مختصر خليل**) كان يعتَمِدُه، ومِن ذلك ما حكاه الشَّيخ **محمَّد بن علي السنَّوسي** (دفين جغبوب) **ليبيا** المتوفَّى سنة 1276هـ في فهرسته (**الشُّموس الشَّارقة**) فيما رواه عَن أستاذه **محمَّد بن القندوز المستغانمي** ـ وهو أوَّلُ مَن أدخلَ (**شرح الدَّردير على مختصر خليل**) لـ: **الجزائر** ـ قال حاكيًا عَن شيخِه **الدَّردير**: «إنه عندَما كان بصدَدِ شرحِه على (**المختصر**) كان يعتَمِدُ (**حاشية الرماصي على التَّتائي**)، ويقول لتلميذِه **محمَّد بن القندوز**: إنَّ صاحبَها ـ أي: **الرماصي** ـ محقِّق، فهي تُغنيني عَن مُراجعةِ غَيرها».

---

(1) المسماة: **إفادة المغرم المغرا بتكميل شرح الصُّغرى**.

(2) قال في الموضوع: «وقد كنتُ قيَّدتُ عن أشياخنا بتلمسان قبل هذا الأوان، وغيرهم من علماء بني راشد العارفين بهذا الشَّان».

وقَد ذكر في الموضوع العلَّامة الفقيه الشَّيخ **محمَّد الحجوي** (وزير المعارف) في عهدِه بـ: **المغرب الأقصى** في تأليفه القيِّم: (**الفكر السَّامي في تاريخ الفقه الإسلامي**) أنَّ الشَّيخ **البناني الفاسي** كان يعتمِدُ في (**شرحِه على مختصر خليل**) (**حاشيةَ الرماصي**) المذكورة.

وامتازَ الحافظُ **الرماصي** بأنَّه كان يناقِشُ كثيرا مِن شرَّاح (**مختصر خليل**) وينتقِدُهم، وألَّف رسالةً أحصَى فيها غلطاتِ الشَّيخ **الخرشي** في (**شَرحِه على مختصر خليل**)، ونَرى **مصطفى الرماصي** يقولُ في بعضِ أَجوبتِه لأَحدِ تلامذَتِه في نفسِ الموضوع: «وأَراك أيها السَّائلُ تَحتفِلُ بِكلامِ **عبد الباقي الزَّرقاني**، وذلك بِمَعزلٍ عَن التَّحقيق، لأنَّ شرحَه وشرحَ **الخرشي** لا نكتَرِثُ بهما في بِلادِنا **الرَّاشدية**، لعدمِ تَحقيقهِما، وعُمدتُهما كلامُ **علي الأجهوري**، وهو كثيرُ الخطأ».

فعلَى هذا نَرى أنَّ كثيرا مِن كتَّابنا الذين يَرمون فقهاءَ ذلك العهدِ بالجمود، وأنَّهم عالةٌ على ما يكتبُه غيرُهم ويَصِلُهم مِن تآليفهم، مخطِئُون.

وقد كان الخلافُ بين علماءِ **الرَّاشدية** وعلماء **تلمسان** الذين انتصَروا للشَّيخ **الخرشي**، حيثُ تصدَّى لشرحِه **محمَّد بن عبد الرحمن اليبدري** (قاضي تلمسان) في عهدِه، وقد ذكَر في تقديمِه ما قرَّضَ به بعضُ علماءِ **تلمسان** (**شرح الخرشي**) المذكور، وهو العلَّامة **أبو عبد الله بن عزوز الشَّريف التلمساني** الذي قال:

حمِـــــدتُ الله حَمـــــدا نــــــواشي ... بِنعمتِـــــه علَينــــا بـــــالخراشي

فـــــاقَ مَــــن في العمــــر علــــما ... ونقــلا، لا تقــل مثــل الحــواشي

لقَـد شرحَ الغـوامض مِـن فـروع ... وحــــلَّ بصـــيرة عشـــيا لعـــاشي

فثِـــــق بقولـــــه يغنيـــــك عـــــمَّا ... تَــراه مــن الشــروح ففيــه نــاشي

وقال غيره مِن التِّلمسانيِّين:

أتانـا العلـم مـن أتـى الخـراشي	قيمنـا للشرـوح في التحـاشي
حـواشي للقـوم عنـدهم تلاشَـت	وحـوى مـن تحقيقـه التحـاشي
كتـاب عـال قـال لا يـرام	بكتـب لا، ولا حمـر الحـواشي
محاسـنه بـروض الحسـن حلَّـت	ولم يضـرَّه شـيئا وشي واشي
تـولى عـن تواليـف شـتى حتـى	توالـت للتقـاعس مـن تحـاشي

ثم تعرَّض بدَوره في التَّعريف أَو التَّنبيه على النَّواحي السّلبية في الشَّرح المذكور، فقال: «إلَّا أنَّه مِن فَرطِ الإِيجاز، كاد أن يكونَ مِن الألغاز، لا يُهتَدى لفوائِده إلا بتَعبٍ وعناية، ولا يستكشف خَبيئات أسراره إلَّا بِنظرٍ دقيقٍ ودراية، وقَد خفَّت الهِمم في هذا الزَّمان، وكثُرت فيه الهموم والأَحزان، وقلَّ فيه المساعِد مِن الإِخوان، خصوصًا بلَدنا **تلمسان**، عَن استِطلاع طوالع أَنواره، وبيان عبارته وتَقدير ما أَشكلَ مِن كلامِه، طلبَ منِّي بعضُ الإِخوان... الخ».

كان الخلافُ بين علماءِ **تلمسان** وعلماءِ **معسكر** غيرَ مقصور علَى قضيةِ **شرح الخرشي**، إذ كان التِّلمسانيُّون يحسُّون بالفراغ الذي سادَ عاصِمتَهم العِلمية والسِّياسية في العهدِ العثماني، حيث اتُّخذت **معسكر** عاصمةَ القطاع الغربي بَدلًا مِن **تلمسان**، وتبوَّأت **معسكر** مكانةً اعترفَ لها علماءُ بلادِ المغرب العربي، حيث كانت منبع علمِ التَّوحيد والفقه، باعترافِ كلِّ مَن أَلَّف في الفنِّ المذكور مِن علماء **تلمسان** و**المغرب الأقصى**، كـ: **أحمد المقري التلمساني**، و**عيسى السَّكتاني** (قاضي مراكش) في حاشِيتَيهما على (**صغرى السَّنوسي**) كما سبقَ ذِكره.

والمكانة التي بلَغها **مصطفى الرماصي** في الفقه والتَّوحيد معًا لم تقتَصِر على ما تقدَّمت لنا الإشارة إليه مِن استِمداد **الدَّردير المصري** مِن (**حاشيته**) على **شرح التَّتائي**، وكذلك **محمَّد البناني الفاسي** فيما ذكَره صاحب (**الفكر السامي في تاريخ الفقه**

الإسلامي)، بل كان له الحكمُ الفصلُ في عهدِه في القضايا الفِقهية الشَّائِكة، حيث نَجِدُه في كتابٍ أرسلَه إلى تلميذِه **أحمد بن عامر البرجي**[1] (دفين مدينة البرج) **معسكر** يؤَنِّبه فيه على فتوَى أصدَرها مُناقِضة لِفَتوى شيخه **الرماصي** المذكور، قال فيها: «أمَّا بعد: فكثيرا ما يردُ عليك كتابُنا فتَضرب عليه صَفحا، وتَطوي عنه كَشحا، سامحناك مِرارا، ولم نَهتك لك ضرارا، مع علمِنا أنَّ المسامحةَ في الحقِّ مُداهنة، ارتكبناها وما ينبغي لنا ذلك، سهل ذلك إبقاء مودَّة الائتلاف، وحَسما لمادَّةِ الشِّقاقِ والاختِلاف، وجمعًا للشَّتات، وخَوفًا مِن كلامِ الوُشاة، ورجاءً أن تَفيق مِن سَكرتِك، وتهب مِن رَقدتِك، فأَبَيتَ إلَّا التَّمادي على ذلك، حتى وقَفتُ على كتابك، تَقول فيه بعدَ وقُوفك على ما كتبناه، وعلمِك بما سطَّرناه وقرَّرناه، لـ: **أبي الحسن**[2] **والقلشاني**[3] وصاحب (**الدُّرر**)[4]، ما سِوى هذا جور وفجور، فإِن عنَيتَ بذلك الخصم، فهو لم يقُل شيئا يُنسب فيه للجور والفجور، وإنَّما أدلى بما كتَبناه، وإن عنيتَنا بالجور والفجور، فنحن محلُّه ونَسأل الله العِصمة، على أنَّنا لم نقُل مِن عندِنا شيئا، وإنَّما نقَلنا كلامَ مَن تقدَّم، والنَّاقل بِمنجاة، وقد قال **مالك**: أدِّ ما سَمِعتَ وحَسْبُك، وإن كذَّبتنا فيما نَقلناه، فالكتبُ موجودةٌ بِأَيدينا، تَشهد لنا وتنفي عنَّا وَصمَ الكذب...».

وبعدَ أن ذكَر مَوضوعَ الخلافِ بينَهما استَرسل في كتابِه، فقال: «فلَو اتَّصفتَ

---

(1) توفي **أحمد عامر** سنة 1150هـ، قال فيه صاحب: (**سبيكة العقيان في مَن حلَّ بمستغانم وأحوازها من الأعيان**):

والعابـــد الزَّاهـــد في دنيـــاه   العـــالم الخـــائف مِـــن مـــولاه

الصـــالح المشـــتهر الـــولي   أحمـد نجـل عـامر البرجـي

(2) **أبو الحسن** في شرحه على (**رسالة القيرواني**).

(3) **القلشاني** كذلك في شرحه على (**الرِّسالة**).

(4) ويقصد بـ : (**الدُّرر**): (**الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة**)، لـ : **المازوني**.

بالإِنصاف، وجانَبتَ التَّعسُّف والاعتِساف، أَو وقفتَ عندَ تخليطِ الأَمر عليك، وَقفةَ حَيران، مُتأدِّبا معَ أَئِمَّة الأمَّة تأدُّب الهدهدِ مع **سليمان**، سائِلا سؤالَ لهفانٍ مَن يُريد التَّحقيق، فَيهديك سَواءَ الطريق، فيُفهِمك كلامَ الأئمة، وينزل لك في محلِّه ويذهب عند التَّعارض والاختلاف، وينقشع عَن بصيرتك غشاها، وعن باصرتك غثاها، لكن استغنَيتَ بِنفسِك، واستَقللتَ بفهمِك على عادتك، إذ أنتَ قد أحللتَ نفسَك للفتوَى، لم تَسألني عَن مسألة، ولم تُباحِثني في قضيَّة، والأئِمةُ تَرِدُ عليَّ أسئلتُهم مِن **تلمسان** ومِن **المغرب الأقصى** ومن **الجزائر**، والإِخوان عَن يَمينك وشِمالك تُباحِثُني مكاتبةً ومُشافهة وكتابة بجودة الأبحاث، لتفتح أقفال المشكلات، وتلك طريقة أهل العلم، قال **سحنون**: أنا عند **ابنِ القاسم** وأجوبةُ **مالك** تَرِدُ علَينا، وأنتَ لم تلمم بِنا أَدنَى إِلمام، وسارعتَ النِّضالَ بِغَير سِنام، ألم تعلَم أنَّ مَن استقلَّ بِنَفسِه فقَد زل، يوشك أَن يضِلّ، وفي العلمِ مَهامِه تقصُر فيها الخطا، وتحارُ فيها القَطا، لا يَهتَدي فيها إلَّا مَن حقَّق النَّظر، وباحثَ أَهلَ التَّحقيق واعتَبر» اهـ.

وقد أَثبتنا هذه الرِّسالة على طولها، لأنَّها مِن الوَثائق الأَصيلة التي لها وزنٌ في مَوضوعها، حيث إنَّ كاتبها ولو بلغ مكانةً في عهدِه جاوَزت بلادَ المغرب العربي إلى بلاد المشرق إلَّا أن آثاره فُقِدت، وكان كثير مِن المعاصرين يعمِّمون أحكامَهم القاسية على فقهاء ذلك العهد مِن أنَّهم لا يحسنون اللغة، والأنكى أنَّ الكثير مِن هؤلاء الكتَّاب يفرغون كتاباتهم في قالب السُّخرية والاستِهزاء، فنَشرنا هذه الوثيقة الدَّالَّة على تضلُّع صاحبها في اللغة وأدبِ المناظرة، والصَّراحة والنَّصيحة لتلميذه الذي لم يقصد مجاملتَه عِندما خاطبه بقوله: «إذا أنت قد أحللتَ نفسك للفتوى... الخ »، إلى أن قال له: «وأنتَ لم تلمم بنا أدنى إلمام، وسارعتَ النِّضال بغير سنام، ألم تعلَم أنَّ مَن استقلَّ بنفسه فقَد زلّ، ويوشك أن يضل، وفي العلم مَهامه تقصر فيها الخُطا، وتحار فيها القطا، لا يهتدي فيها إلَّا مَن حقَّق النَّظر، وباحثَ أهلَ التَّحقيقِ واعتَبر» اهـ.

فمِن هذه الفقرات يتبيَّن لنا أن مترجَمنا **الرماصي** كان يشكُّ في تأهُّل تلميذه للفتوى، فنصحَه بإِعادة النَّظر في نفسه، وبِنقدها نقدا ذاتيا ـ على حدِّ تعبير المعاصرين ـ وقد نال **الرماصي** شهرةً عند مُعاصِريه ومُواطنيه، مِن بينهم الشيخ **محمد ابن حواء** (دفين مستغانم) [1] صاحب: (**سبيكة العقيان في مَن حلَّ بمستغانم وأحوازها مِن الأعيان**)، الذي قال في تعداد علماء البلدة ونَواحيها:

قلت وقد أدركت بذا الوادي	وغيرها من حوز هذا الوادي
مشايخا أئمة حفَّاظا	متابعين علمهم أيقاظا
أولهم شيخ شيوخ العصر	غرَّة جمع علماء القطر
خاتمة الحفَّاظ والنُّقاد	شمس بدور الأقويا الأفراد
فاتح قفل مشكلات الوصم	سراج غبش الظُّلمات الدُّهم
رئيس جمع الأقويا الغواص	المصطفى **محمد الرماصي**

.....اهـ

وقد بيَّن **الرماصي** في (**حاشيته على التَّتائي**) انطباعاته عَن (**مختصر خليل**) ومكانتَه في المشرق والمغرب، فقال: «لما كان علم الفِقه أَفضل العلوم بعدَ كتابِ الله وسنَّة رسول الله ﷺ الذي به تُعرف الأَحكام، ويتميَّز الحلال مِن الحرام، قد صنَّف فيه الأئِمة الأَعلام دواوينَ لا تُحصى، وأحسنُ ما صنِّف في ذلك (**مختصر خليل**)، إذ أقبلَت عليه الطَّلبةُ غربًا وشرقا، وله شروحٌ كثيرة أحسنُها شرح العلاَّمة **شمس الدِّين التَّتائي** (رحمه الله)، لِما اشتملَ عليه مِن الاِختصار وحُسنِ العبارة، وجمعِه للفَوائد، لأنه رجلٌ أديب، لكنَّه مات قبلَ أن يُصلِحَه، فلذا وُجِد فيه التَّصحيف في مَواضع، وزادَه الطَّلبةُ بإِقبالِهم

(1) **محمد بن حواء** (دفين مستغانم): كان من علماء القرن الثاني عشر.

عليه تَغيِيرا، رَغب منِّي بعض الإِخوان أَن أضعَ عليه حاشية تبيِّن مُشكِلَه، وتحلُّ مُقفلَه، فأجبتُه لذلك بعدَ الاِستِخارة، وربما تكلَّمتُ معَ غَيره مِن شرَّاح هذا الكتاب، ومع المؤلِّف، وقَصدي بِذلك إِيضاحَ الحقِّ لا إِذاعة النُّطق... الخ» اهـ.

ولنواصل حَديثنا عن **تلمسان** فنجِدُها فقدَت مكانتَها كعاصمةٍ سياسية وعِلمية بعدَ غَزو الصَّليبيِّين على شواطئ بلاد المغرب العربي التي كان مِن بَينها مدينة **وهران،** ثمَّ تفاقمَ عليها الخطَر بعدَما انضمَّ كثيرٌ مِن أُمرائِها إِلى الإسبان، وتعهَّدوا لهم بالمَدَدِ والإِعانة، فَحينئذٍ جهَّز لهم **عرُّوج** جيشًا قمعَ به الأمراءَ قمعًا مَريرا مُريعا، ورغم أنَّ بعضَ علماء **وهران** لجَأوا إِلى **تلمسان** إِثر احتِلال الإِسبان لها، فلم تَطل إِقامتهم بها، بل هاجَروها إِلى القُرى والبَوادي، وكان في طليعةِ علماءِ **وهران** اللَّاجئين إلى **تلمسان** المقرئ **أحمد حجي بابا الوهراني** (شيخ **سعيد المقري**)، وقد بيَّن **سعيد المقري** في إجازتِه لتلميذِه **سعيد قدُّورة** (المفتي المالكي بالجزائر) في عهدِه الظُّروفَ التي غادرَ فيها شيخه **أحمد حجي الوهراني وهران** إِلى **تلمسان،** وبالطَّبع إِنَّ سقوطَ مدُنِ الشَّواطئ ودول المغرب العربي، كـ: دولة **بني زيان** بـ: **تلمسان،** و**السعديِّين** بـ: **المغرب الأقصى،** و**الدولة الحفصية** بـ: **تونس،** والشَّرق الجزائري: **قسنطينة** و**بجاية،** كان له أثرٌ سيِّء، حيث انتشَرت الفوضَى، وتَسابق ما تبقَّى مِن أُمراءِ هذه الدولِ الهزيلة إِلى خِدمة الصَّليبيِّين، وهنا ظهرَت فتنة الإِقطاعيِّين مِن عربٍ وبَربر فاستأسَدوا، وقد وصفَ حالةَ البلادِ حينئذٍ كثيرٌ مِن العلماءِ وَصفًا دقيقا سنتحدَّث عنه.

أمَّا فيما يخصُّ **تلمسان،** فقد رأَينا مُزاحمةَ بِلاد **الرَّاشدية** لها في الميدانَين: الفقهي، والعقائدي، رغم أنَّ البلدةَ احتفَظت بِبَعضِ علمائها، وقد شهِدَت **تلمسان** قبلَ العهد العثماني بقليلٍ أزمةً فِكرية كان لها صدًى في كاملِ البلاد في الميدان العقائدي، حيث وقعَ خلافٌ حادٌّ بين السَّلفيِّين والطرق الصُّوفية، وانقسمَ علماءُ البلادِ إِلى قِسمَين:

قسمٌ أيَّد السَلفيِّين، وكان على رأسِه الحافظ **محمد بن أحمد بن مرزوق** الحفيد (دفين تلمسان).

و**القسم الثاني**: ـ أي: المنتصر للطرق الصوفية ـ يرأسه **قاسم العقباني** (قاضي قضاة تلمسان) في عهده.

كان مذهب السَّلفية بـ: **تلمسان** ينتَسِبُ إلى ناشِرها بـ: **المغرب الأقصى** الفقيه **أبو الحسن علي بن عبد الحق الزرويلي** (قاضي مدينة **فاس**) المشهور بـ: **الزرويلي**، وقد توفي عن سنٍّ عالية سنة 719هـ.

وهنا نجِد أن السَّلفية بالمغرب ظهرَت في نفسِ الوقتِ الذي ظهرَت فيه السَّلفيةُ بالمشرق، وكان ناشِرُها الإمام **أحمد بن تيمية**، ولم نَدر هل كان بينهما اتِّصالٌ؟

وعلى كلِّ حالٍ نجِد فَرقا بينَهما، حيث إنَّ القاضي **أبا الحسن الزرويلي** كان مالكيا ودعوته للسَّلفية تتجلى في إنكار البدع، أمَّا مُعاصِره الإمام **ابن تيمية** فكان حَنبليا، والمذهبُ المالكي كان هو السَّائد ببلاد المغرب، لا يزاحمه مذهبٌ آخر، بِخلاف المذهَب الحنبلي في المشرق.

وعلى كلِّ حال انقسم علماءُ **تلمسان** ـ موضوع دراستِنا ـ إلى قسمَين:

قسمٌ ترأَّسه **محمد بن مرزوق الحفيد**، وقد خصَّص **ابنُ مرزرق** للردِّ على متصوِّفة عصرِه والمنتَصِرين لهم تأليفا سمَّاه: **(النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكمال للناقص)**، كما أشاد **ابن مرزوق** بالفقيه **أبي الحسن الزرويلي** ناشر مَذهب السَّلفية بالمغرب، فقال في ترجمته: «شيخ الإسلام، ما عاصره مثلُه، ولا كان مثلُه، فيما قارب عصره، وبمقامه في الفقه يضرب المثل، قد جمع بين العلم والعمل... الخ ».

لم تبقَ المعركةُ في **تلمسان** بين **ابنِ مرزوق** و**قاسم العقباني** اللَّذَين نشَر فتاويهما في

الموضوع صاحبُ (**المعيار المعرب عن فتاوى إفريقيا والأندلس والمغرب**)، بل ظهَر في الميدان من علماء **تلمسان** الشَّيخ **محمَّد بن يوسف السَّنوسي** صاحب التآليف الشَّهيرة في علمِ التَّوحيد، الذي ألف كتابا سمَّاه: (**نصرة الفقير في الردِّ على أبي الحسن الصغير**)، وكثيرٌ مِن الكُتَّاب اشتبَه عليهم **أبو الحسن الصغير** هذا بِسَميِّه **أبي الحسن الصُّغيِّر** ـ بالتَّصغير ـ **الزرويلي** ناشر مذهب السَّلفية السَّابق الذِّكر، والحقيقة أنَّ المعنيَّ في ردِّ **السَّنوسي** هو **أبو الحسن الصغير** ـ فَعِيل ـ **السُّوسي** تلميذ [1] **الزرويلي**، إذ هو الذي حملَ على المتصوِّفين.

ولنترك الكلمةَ إلى الإمام **محمَّد بن يوسف السَّنوسي** الذي بيَّن في مقدِّمته لتأليفه: (**نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير**) الظروفَ التي ألَّف فيها تأليفَه، فقال: «فلمَّا لقيتُ الشَّابَّ الفقيهَ **أبا العباس أحمد زرُّوق** ـ يقصد الإمام الشَّهير **زرُّوق البرنسي الفاسي** الذي لَعِبَ دورا عظيما في حسمِ الخلافِ بينَ السَّلفية والطُّرقِ الصُّوفية، سنذكُره بِتفصيلٍ في هذِه الدِّراسة ـ **البرنسي الفاسي** وسأَلتُه عنه ـ أي: عن **أبي الحسن الصغير السُّوسي** الذي حملَ على المتصوِّفين ـ سنة 841هـ[2] قاصِدًا الحجَّ ... الخ »، ثمَّ ذكَر انطباعات **أحمد زرُّوق** على **أبي الحسن الصغير**.

لم نطَّلع على ما كتبَه **أبو الحسن الصغير** عَن المتصوِّفة، وإنَّما وصلَنا ما كتَبه تِلميذه المقرَّب والملازِم له، وهو الشَّيخ **أبو فارس عبد العزيز بن محمد القيرواني**، قال فيها في مَعرض استِفتاء، ونصُّ السُّؤال الذي طَرحه: «ما قَولكم في قومٍ تسمّوا بالفقراء، يجتَمِعون على الرَّقصِ والغِناء، فإذا فَرغوا مِن ذلك أكلوا طعاما كانوا أعدُّوه للمَبيت

---

(1) لم يكن تلميذا له، ولا أدركَه، لكن ترسَّم خُطاه، وقفا أثره، (من إفادات الصديق الفاضل **عشاب**). (ع)

(2) كذا، ولم يكن **الشَّيخ زروق** قد ولد في هذه السنة. (ع)

عليه، ثمَّ يصِلون ذلك بقراءةِ عشرٍ مِن القرآنِ والذِّكر، ثمَّ يغنُّون ويَرقصون ويَبكون، ويَزعمون في ذلك كلِّه أنَّهم على قُرْبة، ويَدعون الناسَ إلى ذلك، ويَطعنون على مَن لم يأخُذ بذلك».

كما سئِل في نفسِ الموضوع **أبو سعيد بن لب**، والشَّيخ **عبد الرحمن الوغليسي**، والشَّيخ **أبو إسحاق الشاطبي**، فأَجاب **أبو فارس عبد العزيز** المذكور (تلميذ **أبي الحسن الصغير السُّوسي**) بما ملخَّصه: «وإنما تكون مِن الله الكرامة لمن ظهَرت منه الاستِقامة، وإنما تكونُ الاستقامةُ باتِّباع الكتابِ والسُّنة وما كان عليه سلَف هذه الأمة، فمَن لم يَسلك طريقَهم، ومَن لم يتَّبع سَبيلَهم، فهو ممَّن قال الله فيهم: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ**﴾ (النساء: 115)، فمَن خالفَ كتابَ الله، أَو تركَ العملَ به، أو عطَّله، فقد افتَرى على الله كذِبا، واتَّخذ آياتِ الله هزؤا ولعبا، فإذا رأيتُم مَن يعظِّم القرآنَ فعظِّموه، ومَن رأيتُموه يجانب العلماءَ فجانبوه، فإنَّه لا يجانبهم إلَّا ضالٌّ مُبتدِع، غير مقتدٍ بالشَّرع ولا متَّبع، فإنَّ الشَّرائع لا تؤخَذ إلَّا عَن العلماء، الذين هم وَرثة الأَنبياء، كيف وقد جعلَ الله شهادتَه وشهادةَ ملائِكته، كشهادةِ أُولي العلم، قال الله تعالى ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ (آل عمران: 18)».

ثمَّ قال: «ولستُ أعني بالعلماء المشتَغلين في زمانِنا هذا بعلومِ الجِدال والمحاورات، ولا المعتَنين بِدَرس مَسائل الأَقضية والشَّهادات، فيتقرَّبون بذلك إلى الوُلاةِ والحكَّام، ونيلِ الرِّياسة عندَ العوام، وإنَّما نَعني بالعلماء الذين يَعملون بعلمهِم، وهم الذين قال فيهم النَّبيُّ ﷺ: يحملُ هذا الدِّين مِن كلِّ خلَفٍ عُدولُه، ينفونَ عنه تحريفَ الغالين، وانتِحالَ المبطِلين» اهـ.

بقيَ هذا الصِّراعُ بين الطَّبقتَين مستمِرًّا في **الجزائر** في الفترة التي سبقَت العهد العثماني بحوالي نصفِ قرن، وقد انتصَر ـ كما سبق لنا ذكره ـ لكلٍّ مِن الفريقَين أنصارٌ

كانت لهم مكانة في البلاد، وفي طليعتهِم الشَّيخ **عبد الرَّحمن الثَّعالبي** (دفين الجزائر) الذي وإن كان مِن تلامذةِ **محمَّد ابن مرزوق** (الحفيد التلمساني)، إلا أنَّه انتصَر لتلميذه **السنوسي** ـ أي: أيَّد المتصوفين ـ إذ نجِدُه يقول في الموضوع: إنه لما كان بـ: **تونس** في حلقة درس أستاذِه **أبي مهدي عيسى الغبريني ابن** الإمامِ **أحمد الغبريني البجائي** صاحب كتاب: **(عنوان الدراية)** اطلَّع على كتاب **(تلبيس إبليس)**، ذكر فيه صاحبه أنواعا من الكلام يقع في أكابر العلماء الذين جمعوا بين العلم الظاهر والباطن، المجمع على فضلهِم فوقع في **الغزالي**، وفي **المحاسبي**، و**أبي القاسم القشيري**، وبالجملة طعن على هؤلاء وضربائهم المجمع على فضلهم في زمانِنا هذا، ولما وقَف شيخنا **أبو مهدي عيسى الغبريني** خاتمة علماء إفريقيا على هذا الكتاب وتأمَّله، ألقاه مِن يدِه، وقال له: «عليك ـ والله ـ لبَّس إبليسُ يا مسكين».

ثمَّ قال **الثَّعالبي**: «ورأيت هذا الكتاب هناك مَهجورا لا يلتفَتُ إليه، وزعم كاتبه أنه لـ: **الجوزي**، وليس هو ـ إن شاء الله ـ الجوزي صاحب المورد، الذي ألَّف كتبا عديدة في المواعظ وحِكايات الصَّالحين » انتهى كلام **الثَّعالبي**.

والكتاب المذكور ـ أي: **(تلبيس إبليس)** ـ هو في الحقيقة: **(الناموس في تلبيس إبليس)** لـ: **أبي الفرج عبد الرَّحمن بن أبي الحسن** الشَّهير بـ: **الجوزي** البغدادي المتوفَّى سنة 597هـ.

كانت هذه الخلافات بين علماء **الجزائر** المحبِّذين للسَّلفية مِن جِهة، والمعارضين لها ـ أي: المنتَصرين للمتصوِّفين والطُّرقِ الصُّوفية ـ مِن جِهة أُخرى، في محيطها لا تتعدَّاه، ـ أي: لا يتدخَّل فيها العوام، ومَن هم في حكمهِم ـ كما كان معظم العلماء سواء الذَّابِّين عَن السَّلفية أو المنكرين علَيها نُزهاء، أصحاب مبادئ لا يتَّخِذون الدَّعوة المذهبِيَّة لأَغراضٍ شَخصية أو ماديَّة، كـ: جلب المال، والتَّزلُّف للعوام وذَوي الأغراض، فلهذا

لم تحدُث المقاطعةُ بينهم، فنَرى مثلا الإمام **محمد بن مرزوق** (الحفيد) مِن أصدقاء الشَّيخ **قاسم العقباني** (قاضي قضاة تلمسان) يتَبادلان الاحترام، ويتَعاونان على خِدمة العلم.

نكتفي بهذا القَدر مِن بيانِ مواقِف بعض علماء بلادنا، وهم بين محبِّذٍ ومنكر لقضية شائِكة شغلت الرَّأي العام في المجالاتِ العقائدية قرونًا، ولا زالت تتجدَّد المرَّة بعد المرَّةِ في البلادِ الإسلامية، وتحدِثُ هزَّاتٍ عنيفةٍ تترُك آثارها، وقد شهِدَت **الجزائر** بعدَ ظهور كتابِ الإمام **السَّنوسي**: (**نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير**) تيارا فِكريا آخر، كان منطلقه مِن مدينة **بجاية** التي ختِم بها مَطاف العلَّامة **أحمد زروق البرنوسي الفاسي** المتقدِّم الذِّكر، والذي ذكَره **السَّنوسي** في تقديمِ تأليفه: (**نصرة الفقير**)، وقال: إنَّه هو الذي سألَه عَن **أبي الحسن الصغير السُّوسي** واستقصاه عَن أحوالِه، وعن الدَّاعي له في الإنكارِ على المتصوِّفين.

جال **أحمد زروق** في بلادِ **الجزائر** وأخذَ عن كثير مِن علمائها، بدايةً مِن **السَّنوسي**، ثمَّ **عبد الرَّحمن الثَّعالبي**، وأقام بـ: **بجاية** حيثُ انتصبَ للتَّدريس والتَّأليف، فأقبلَ عليه طلبةُ العلم، ومِن بينهِم **أحمد بن يوسف الراشدي** (دفين مليانة)، الذي لعبَ دورا خلد ذكره ومآثره ببلاد المغرب العربي إلى زمانِنا هذا، كما سنتحدَّث عنه.

وفي مدَّة إقامة **أحمد زروق** بـ: **بجاية** ألَّف كتابَه: (**قواعد التصوف**)، ثمَّ (**أصول الطريقة**)، إذ سبقَ له أثناء تردُّدِه على **تلمسان** و**الجزائر** وأخذِه عَن أَشهرِ علمائها مُشاهدته للمعركة الفِكرية التي نجَمت عَن الخلاف بين السَّلفيِّين والمتصوِّفة، فكان لتأليفه (**قواعد التَّصوُّف**) التَّخفيف مِن آثارِ هذِه المعركة، وكانت آراء **زروق** في الموضوع مَقبولة لدَى الطَّرفَين، حيث لخَّصها في مبدأ الإمام **مالك** الذي كان يصرِّح في دروسِه بـ: **مسجد المدينة المنورة**، وهو قوله: «كلكم رادٌّ ومَردودٌ عليه، إلَّا صاحب هذا القَبر، فإن رأيتُم كلامي مُوافِقًا لكلامِه فاعملوا به، وإلَّا فاضرِبوا به عَرضَ الحائِط».

كانت آراءُ **زروق** في تأليفه: (**قواعد التصوف**) تتلخَّص في ما سبقَ الإمام **مالك** أن اتَّخذَه مبدأً وقاعدةً لمذهبِه، وقد كان لتأليفِ **زروق** كما ذكَرنا تأثيرا حسنًا عندَ كِلا الطَّرفَين الذَين كان الصِّراعُ بينهما حادًّا، ورضيَ الطَّرفانِ بِتَحكيمه في الموضوع، حيث كانت آراؤه تتلخَّص في قوله: «إن التَّعاليم الإسلامية مَرجعُها كلُّها إلى الكتابِ والسُّنة، فما وافقَ منها هذَينِ الأَصلَين فهو مَقبول، وما خالفَهما فهو مَردود».

وقد بسَّط كتابَ **زروق** العالمُ الجزائريُّ المشهور **عبدُ الرَّحمن الأخضري البنطيوسي** ـ بِنواحي **بسكرة** ـ الذي كان والده مِن تلامذةِ **زروق**، وقد اشتَهر **عبد الرَّحمن الأَخضري** في البلادِ الإسلامية بتآليفه القيِّمة التي كتِب لها الخلود، حيث اعتنَى بها كبار العلماء خلفًا عَن سلف، فشَرحوها وعمَّموا تَدريسَها بالمعاهد الإسلامية المشهورة، كـ: **الأَزهر** و**الزيتونة** وغيرها.

وكانت هذه التَّآليف في جلِّ فروع المعرفة، كـ: البلاغة، والمنطق، والرياضيات، والفقه، والفرائض... الخ، وكان في طَليعتها بالنِّسبة لموضوع بحثِنا منظومته المسَّماة: (**القدسية**)، التي ضمَّنها آراء شيخ والدِه ومَشايخه **أحمد زروق**، وقد نظَمها وبسَّطها ليسهلَ حِفظها.

وهي تَحتوي على (357) بيتا، وقد كتِب الخلودُ لهذه (**المنظومة**)، وانتشرت في **الجزائر** حتى صارت تُحفظ بِجميع المعاهد، ولم يقتصر **الأخضري** على محاربة البدع بل نظم قصائد أخرى خصَّص بعضها لطائفة سمَّاها: «**علماء السُّوء** »، يقصد بهم خطرهم على البلاد في الفترةِ الانتِقالية التي أعقَبت هُجوماتِ الصليبيِّين على مدُنِ شواطئ **الجزائر**، وسبقَت لنا الإشارة إليها، إذ لم نجِد مَن صوَّر حالةَ البلاد إذ ذاك مثل **عبد الرحمن الأخضري**، حيث عاش تلك الأحداث بمَسقط رأسِه بنَواحي **بسكرة**، فقَد كانت **بسكرة** إذ ذاك تابعة لـ: **قسنطينة** التي كانت تحكمُها **الدولة الحفصية** بـ: **تونس**،

ولما استولى **الأسبان** على **بجاية** ثم **تونس**، وكان آخر ملوك **الدولة الحفصية** الملك **الحسن**، وظهر في الأفق **عروج** و**خير الدِّين**، واحتلَّ **خير الدين تونس** فاستنجَد الملكُ **الحسن** هذا بالإسبان، فأمدَّه **شارلكان** وأجابه لطلبِه، ووصلت حملته إلى **تونس**، فأخرجوا **خير الدين** وعاثوا في البلادِ فَسادا كما هو مشهور في كتُبِ التَّاريخ.

ومن جملة ما اقترفوه إباحتهم **جامع الزيتونة** لفرسانهم الصَّليبيِّين، فربطوا ببرام **الزيتونة** خَيلهم، وحرَّقوا كتب خزائِنه، وقتلوا كثيرا مِن أعلامها في حلقات دروسهم، كما سنبيِّن ذلك اعتمادا على شاهدِ عيان.

عاش **عبد الرَّحمن الأخضري** هذه الأحداث، إذ هو مِن مواليد سنة 920هـ، وقد اختُلِف في تاريخ وفاته، وإن كان جلّ مُترجِميه متَّفقين على أنه مات صغيرا، وعلى كلِّ حال نذكُر بعض أبيات (**القدسية**) التي تعرَّض لوصفِ طريقةِ السَّلِف التي كان يذودُ عنها، كما صوَّر لنا حالةَ المبتدِعة الذين ادَّعوا مَراتبَ الصَّلاح والولاية، وقارنَ بينَهم وبين علماءِ السَّلف، فقال:

واعلـــم بـــأن الـــولي الربـــاني ... لتـــابع الســـنة والقـــرآن

والفـرق بـين الإفـك والصـواب ... يُعـــرف بالســـنة والكتـــاب

إلى أن قال:

مَـن كـان في نيـلِ الأَمـاني راجيـا ... وعَـن شريعــة الرســول نائيــا

فإنَّـــه مُلتـــبس مفتـــون ... وعقلـــه مختبـــلٌ مجنـــون

وبعد ما يشيد ببعضِ المتصوفِّين القُدامى، يتعرَّض لذكر المدَّعين للتصوُّف، ويقارن بينهم بِقوله:

فـــأين حـــال هـــؤلاء القـــوم　　مـــن ســـوء حـــال فقـــراء اليـــوم
قـــد ادَّعَـــوْا مراتبـــا جليلـــة　　والشـــرع قـــد تجنبـــوا ســـبيله
قـــد نبـــذوا شريعـــة الرســـول　　فالقوم قـــد حـــادوا عـــن الســـبيل
لم يـــدخلوا دائـــرة الطريقـــة　　فضـــلا عـــلى دائـــرة الحقيقـــة
لم يقتـــدوا بســـيد الأنـــام　　فخرجـــوا عـــن ملَّـــة الإســـلام

إلى أن قال:

قـــد ملكـــتْ قلـــوبَهم أوهـــامُ　　فـــالقوم إبلـــيس لهـــم إمـــام
كفـــاك مـــن جمـــيعهم خيانـــهْ　　إذ ختلـــوا الـــدنيا بالديانـــهْ
وهتكـــوا محـــارم الشريعـــهْ　　وســـلكوا مســـالك الخديعـــهْ

إلى أن قال:

هـــذا زمـــان كثـــرت فيـــه البـــدعْ　　واضطربت عليه أمواج الخُـدع
وخسفت شمس الهدى وأفلت　　من بعد ما قد بزغـت وكملـت
والـــدين قـــد تهـــدمت أركانـــه　　والـــزور طـــابق الهـــوى دخانُـــه
وظلـــمات الـــزور والبهتـــان　　تزخرفـــت في جملـــة الأوطـــان

ثم يقول:

يـــا ويلتـــى هـــذا زمـــان البِـــدَعِ　　مـــات بـــه أهـــل التُّقـــى والـــورعِ
واحَســـرتى عـــلى الكِـــرام الـــبررهْ　　قـــد أُخلِفـــوا بالمـــدعين الفجـــرهْ

كما نجد **الأخضري** الذي ضاقَ بكثير من علماء عهده الذين آزروا رؤساء الإقطاع، وأيَّدوا الملك الحفصي عميل الصليبيِّين، فخصَّصهم بقَصيدةٍ قال فيها:

فعليـــك بأَهـــلِ العلـــم إذا عملـــوا بـــالعلم هـــدى تَنَـــلِ
واحـــذر علـــماء الســـوء فقـــد خُصُّـــوا بالافـــك وبالخطـــل
حفظـوا الأقـوال ومـا عملـوا بـــالعلم فســـاء القـــوم قُـــل
مـــا حِـــرْفَتُهُم إلا لعـــبٌ ولحـــوم النـــاس بـــلا قلـــل
أربـــاب قلـــوب قاســـية للطاعـــة أصـــلا لم تَمِـــلِ
لا نطـــق لـــذكر الله لهـــم إلا بـــــاللهو وبـــــالهزل
لا يكســـبون العلـــم ســـوى لريـــاء النـــاس وللجـــدل

ثمَّ يصرِّح بما كان يؤاخِذُهم به، فيقول:

طمـــس الأقـــوال تملقُهـــم لـــولاة الســـوء ذَوي الخلَـــلِ
يَصْـــلَون نـــارا كـــما وردا مـــن قبـــل أهـــل الاَوثـــان قُـــلِ
فـــاترك أفعـــالهم أبـــدا وهـــذه الأقـــوال ولا تَمِـــل
حـــاش علـــماء الخـــير أولي حـــظ في العلـــم وفي العمـــل
فعليـــك أخـــي بمجالســـهم واظفـــر بمحبـــتهم تَصِـــلِ

تتبَّع **الأخضري** في كثير مِن قصائده وَصفَ حالةِ البلاد في عهدِه، خصوصًا بعد ظهور العثمانيِّين في الأُفق، وحاولوا الاستيلاءَ على مدينة **قسنطينة**، فتعرَّض لهم الوالي الحفصي، وانقسمَت البلاد حوالي سنتَين إلى أن تغلَّب أنصار العثمانيِّين، واحتلُّوا البلدةَ بِتمامِها، كما أشار **الأخضري** في تأليفه: (**السُّلم**) في المنطق إلى حالة البلاد، فقال:

لا ســـيما في عـــاشر القـــرون ذي الجهـــل والفســـاد والفتـــون

وقد أشار **الأخضري** في (**قدسيته**) إلى تآليف الشيخ **زروق** التي اعتمدَها في منظومته (**القدسية**)، فقال:

أما تأليف **زروق** الثَّاني، وهو: (**أصول الطريقة**)، فقد حَظِي بشرح تلميذه ووارث مقامِه **محمد بن علي الخروبي الطرابلسي** الأَصل، الذي أَشرنا إليه في بدايةِ هذه الدِّراسة عند تعدادِ تفاسير القرآن للعلماء الجزائريِّين.

و**محمَّد بن علي الخروبي** هذا، صادفَه احتلال العثمانيِّين للجزائر إمامًا خطيبا بـ: **الجامع الأَعظم المالكي**، وقد كلَّفه **الباشا حسن بن خير الدين** بالسفارة إلى **المغرب الأقصى** مرَّتين، وقد لعِب أدوارًا في سياسةِ البلادِ بعد احتلالِ العثمانيِّين لعاصمة **الجزائر**، ترجَمه **أبو القاسم الحفناوي** في كتاب: (**تعريف الخلف برجال السلف**)، فقال: «الفقيه الصالح **أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي** نزيل **الجزائر** ودفينها، تعيَّن للوفادة على **مراكش** سنة 961هـ.

وفي (**المرآة**) أن **أبا عبد الله الخروبي** قَدم **المغرب الأوسط** و**المغرب الأقصى** مرَّتَين على سَبيل السفارة بين ملوكِ **المغرب الأَقصى**، وأَخذ هو عَن الشَّيخ **زروق** (رحمه الله)، وفي قدمة **الخروبي** هذه إلى **مراكش** أنكَر على الشَّيخ **أبي عمرو القسطلي** حَلق شعر التَّائِب الذي يريدُ الدُّخولَ في طريقِ القَوم، وقال: إنه بِدعة، فقالوا له: إن الشَّيخ **الجزولي** كان يفعلُه، فقال لهم: لعلَّه بإِذن، والإذنُ له لا يعمُّكم، فإِنَّ الإِذنَ للنبيِّ يعمُّ أتباعَه، والإِذن للوليِّ لا يعمُّ أتباعَه، وأنكرَ عليه مَسائلَ كثيرة، وبعثَ إليه رسالةً أقذَع له فيها، وقد وقفتُ عليها (رحمَ الله الجميع).

وتوفي **الخروبي** هذا سنة 962هـ، ودفن خارج **الجزائر** »، بـ (**مقبرة باب الوادي**) التي كانت إذ ذاك خارج السُّور.

ثمَّ واصلَ **الحفناوي** تعريفَه، فقال: «وفي (**الجذوة**) أنه مِن أهل الحديثِ والفِقه

والتَّصوُّف، واقفٌ على أَغراضهِم، جمعَ في فنِّ التَّصوُّفِ والأَذكارِ والأَوراد كتبًا، منها: **(شرح الحِكم)** لـ: **ابن عطاء الله** [1]، ورسالة ردَّ فيها على **أبي عمرو القسطلي المراكشي**، وحدَّثني بعضُ الجزائريِّين أنه رأَى تفسيرا له علَى القرآنِ العظيم بـ: **جزائر مزغنة** [2]، وغَير ذلك، وكان جمَّاعا للكتب، وكان خطيبا بـ: **الجزائر**، وكان له وجاهة عند أمراءِ **بني عثمان**، استَعملوه في السفارة بينهم وبينَ **أبي عبد الله المهدي الشريف الحسني**، فورد **المغربَ** ودخلَ مدينةَ **فاس**، عاينتُ إجازتَه لشيخنا **أبي عبد الله الحضري الزروالي** لما دخلَها، مؤرِّخا لها سنة تسع وخمسين وتسعمائة، وذهبَ إلى **مراكش** وخلَّف خزانة [3] مِن كتب العلم... الخ ».

ولنرجع إلى الحديثِ عَن مساهمة الشَّيخ **محمَّد بن علي الخروبي** وأستاذِه **أحمد زروق** في ثَورته الفِكرية، فنرَى **الخروبي** تعرَّضَ في شَرحِه لـ: **(أصول الطَّريقة)**، وقد نالَ هذا الشَّرح إقبالا ومكانةً، واحتفَظ لنا به التاريخ، وقد ذكَر الإمامُ **محمَّد بن علي السنوسي** (دفين جغبوب) **ليبيا** في بعضِ فَهارسه ما كتَبه في الموضوع **حسن العجيمي** أستاذ **أبي سالم العياشي** صاحب **(الرِّحلة)** المشهور، قال: «ومِن المعلومِ أنَّ تفاصيلَ السَّندِ يطول، ومِن أنفع الكتُبِ لمن أرادَ الله له الجريَ على هذِه المحجَّة كتاب: **(كفاية المريد)** للشَّيخ **الخروبي**، فهي شَبيهة بتآليف **الغزالي** ».

---

(1) وقع خطأ في نسبة شرحه لحكم ابن عطاء الله، بل شرح الحكم التي هي تأليف له، وقد عثَرنا عليها وعلى شرحها بخطِّه (رحمه الله).

(2) اسم هذا التفسير: **(رياض الأزهار وكنز الأسرار)**.

(3) بقيت هذه الخزانة إلى أن اشتَراها العلامة **سعيد قدُّورة** (المفتي المالكي بالجزائر) مِن وَرثتِه في عهدِه مِن ريع أحباسِ **الجامع المالكي** حَوالي 1050هـ، وقَد ذكرها العمَّالي في **(كناشه)**، وأثبتَ قائِمتَها وقيمةَ كلِّ كتاب.

لعب **الخروبي** دَورا في الحياةِ الثَّقافية بـ: **الجزائر** في العهدِ العثماني، حيث تولَّى القيادةَ الرُّوحية مِن بداية العهدِ العثماني، لا في الميدانِ العقائدي فحَسب، بل في الميدانِ الفِقهي، حيث احتفظَ الفقهُ المالكي بمكانتِه رغم أنَّ مذهبَ الدَّولة العثمانية هو المذهب الحنفي، ولما استقرَّت الدَّولة العثمانية في **الجزائر** وبعدَ تعيين **الباشا خير الدين** بـ: **الجزائر** مِن طَرفِ الخلافة تمَّ تَعيين **شيخ الإسلام الحنفي** مِن **اسطنبول** مباشرة، وكان **شيخ الإسلام** هو الشَّخصية الثَّانية بعدَ **الباشا**، فبقيَ المذهب المالكي يتمتَّع بالتَّجِلَّة والتَّقدير والرِّياسة والقيادة، حيث كان هو مذهب الجمهور، كما تُركَ له الاستِقلال والتصرُّف في أحباسِه، وقد عيَّنت الدَّولةُ العثمانية بعض مَفاتي وقضاة حنفيِّين في بعضِ المدُنِ التي كانت الجالية العثمانية فيها متوافرة كـ: **البليدة، ولمدية**، أمَّا داخل البلاد، وبالخصوصِ في القِطاع الغربي، كـ: **تلمسان ومعسكر**، فكان مَفاتيها وقُضاتها مالكيِّين.

وقد احتفظَ لنا التاريخُ بوثيقة أصيلة هامَّةٍ في الموضوع، وهي مِن تحرير العلَّامة الأديب **محمد بن راس العين** الأندلسي الأصل، الجزائري المولد والمنشأ، لعبَ هذا العالم الأَديب دورا في الحياةِ الثَّقافية والسِّياسية بـ: **الجزائر** في أوائل العهدِ العثماني، وبالضَّبط في أوائل القرن الحادي عشَر، ورغمَ مكانته والأَدوار التي قامَ بها غفل عَن ذِكره المترجِمون الجزائريُّون، اللهمَّ إلَّا ما وصلَنا مِن بعضِ وثائق الأَحباس التي تَرجَمها إلى الفرنسية الكاتب الفرنسي (Devoulx)، ونشرَها في التأليفِ الذي سمَّاه: (**المؤسَّسات الدِّينية**) بـ: **الجزائر** (Les Edifices religieux)، وسبقَ له نشَرها فُصولا في (**المجلَّة الإفريقية**)، فذكر في الفصل [1] الذي عقَده لـ: **الجامع الأعظم المالكي** أن المفتي بالجامع المذكور **سعيد قدُّورة** كان له أربعة أئِمَّة يخلفونَه في إِمامة صلاةِ الجمعة، وكانت مرتَّباتهم مِن مالِه الخاصِّ، فذكر مِن بين هؤلاءِ الأئِمَّة: **محمد بن راس العين**، كما ذكَره في وثيقة

---

(1) **المجلة الإفريقية**: عدد: 25، تاريخ: 1861م، ثمَّ عدد: 57/ 1866م.

أُخرى ضِمنَ الأعضاء المشرفين علَى أحباسِ الأندلسيِّين بِالعاصِمة، وقَد ذكَر (Devoulx) أنَّ **سعيد قدُّورة** تولَّى الإفتاءَ بـ: **الجزائر** سنة 1028هـ، وكان يُساعده الأئِمَّةُ الأَربعة المذكورون، الذين مِن بينهِم: **محمَّد بن راس العين**، وذكر أنَّه تخرَّج على **عليّ الأَنصاري**، و**الأنصاري** هذا مِن كبار علماءِ **الجزائر**، أقام بها أربع عَشرةَ سنة، وله تآليف عَديدة، وهو مِن أصلٍ مغربي توفي بـ: **الجزائر** سنة 1057هـ، ولا يخلو تأليف مِن تآليف تَراجم علماء المغرب العربي مِن تَرجمتِه، وكان **الأنصاري** مِن تلامذة **أحمد المقري التِّلمساني** صاحب كتاب (**نفح الطيب**) الذي أثبتَ بعضَ رسائِله المتبادَلة بينَهما في كتابه (**نفح الطيب**).

أمَّا **محمَّد بن راس العين الأندلسي**، فإنَّه لم يصِلنا مِن ذِكره وترجمتِه إلَّا ما ذكرناه مِن ترجمة وَثائق الأَحباس التي تَرجمَها إلى الفرنسية (Devoulx)، ثمَّ عثَرنا على ترجمتِه في كتاب: (**درَّة الحجال في غرَّة أسماء الرِّجال**) للعلَّامة **أحمد ابن القاضي المكناسي**، وهذه هي التَّرجمة: «**محمد بن راس العين**: رجل جوَّاب رحَّالة مِن أهل **الجزائر**، له أمداح في النَّبيِّ ﷺ، وديوان شعر، ومَقامات، وغير ذلك، حيٌّ مِن أهل العَصر، مِن نَظمِه:

يـــا ابـــن راس العـــين صـــبرا   قـــد أعيـــد الحلـــو مـــرا
ومضـــت تلـــك الليـــالي   وأعيـــد الوصـــل هجـــرا

ثمَّ واصلَ ترجمتَه، فقال: «وله أمداحٌ في المخدوم مَولانا أمير المؤمنين ابن مولانا أمير المؤمنين **أبي العباس أحمد المنصور** (أبقى الله وجودَه، وأدام سعوده)، وحُكِيَ أنَّ **محمَّدا** المذكور دخلَ دارَ **أبي نواس** بشاطئ **وادي دجلة** ».

تولَّى **محمَّد بن راس العين** هذا عِدَّة مناصِب سامية في بلاطِ **باشا الجزائر**، وكان له اتِّصالٌ بالخلافةِ العثمانية، وصلَنا مجموعٌ مِن رسائلِه جلُّها نُقِلت مِن خطِّه، ومؤرَّخة حَوالي منتصف القرن الحادي عشر، وبالضَّبط ما بين 1050و1060هـ، والنقصُ

الوحيد الموجود في هذا المجموع هو أنَّ مالك المخطوطة لما قدَّمها للتَّسفير خرمَ بَعض أوراقها مِقصُّ المسفِّر، فحُذِفت بعض الكلمات.

أمَّا قيمة المخطوطة التاريخية فهي هامة جَوهرية في موضوعها، سنتعرَّض لها.

ولنبدأ بالوثيقة التي تهمُّنا، وهي مِن إنشائِه وتحريره على لسان **باشا الجزائر**، كاتبَ بها سكَّان **تلمسان**، بيَّن فيها منهاج الدَّولة في القضية الدِّينية، وذلك أن سكَّان **تلمسان** أرسلوا وَفدا يمثِّلهم لـ: **باشا الجزائر**، شاكين مِن تصرُّفات المفتي ـ المالكي بالطَّبع ـ الذي اتَّهموه بالاستبدادِ في تصرُّفاته كناظر الأَحباس، وهنا نَترك الكلمةَ للكاتبِ **محمد بن راس العين**، ولأَهمية هذه الوثيقة التي أفادَتنا بِمنهاج سلوكِ **باشا الجزائر** في القضايا الدِّينية إذ ذاك، فقد كان أُسلوبها البليغ الرَّاقي مِن ناحية أُخرى يظهر لنا أنَّ تَعميم حكم كثيرٍ مِن الكتَّاب بأنَّ العهدَ العثماني بلَغت فيه الُّلغة درجة تَدهوُر وانحِطاط [غير صحيح].

كما تدلُّنا هذه الوثيقة أيضا أن سكَّان **تلمسان** إذ ذاك رغم خطورة السَّفر، إذ كان **الإسبان** بـ: **وهران** يسَيطرون على الطريق بين **تلمسان** و**الجزائر**، فاقتَحموا مشقَّة السَّفر ذَهابا وإيابا، وتمكَّن لـ: **الباشا** أن لا يغترَّ بما قدَّمه له الشاكون، ففتح بَحثا سِرِّيًّا اطَّلع فيه على الدَّواعي الحقيقية لتقديمِ الشِّكاية ضِدَّ تصرُّفات المفتي، فكانت هذه الرِّسالة القيِّمة التي تعدُّ في طليعة رسائل النَّثر الفنِّي في ذلك العهد، كما تدلُّ على حَصافة رأيِ **الباشا** الذي لم يتسرَّع في حكمِه حتى تبيَّن الحقّ مِن الباطل.

وقَد حاولنا إِثباتَ هذه الوثيقة على طولها في هذا التأليف، الذي كما يدلُّ عليه عنوانه: (**جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني**)، فقَد ركَّزناه على إعطاء الأولوية للوثائق التي لم يسبق نشرها، ولم يُشر إليها أحدٌ مِن الكتَّاب، وهي علاوة على ما ذكر مفيدة مِن حيثُ الأَصالة، خصوصا وأنَّنا ابتُلينا في عصرِنا هذا بالارتجالِ

والافتِراض وتَقويل المؤرِّخين ما لم يقولوه، بل لربما لم يخطُر لهم ببال، ويتَّخذ ما قدَّمه بعض المؤرِّخين الأجانب قَولا فصلا في الموضوع، وقد أفادَتنا رسائل **محمد بن راس العين** فوائد جمَّة، لا في الميدانِ الثَّقافي فقط، بل حتى في الميدانِ السِّياسي كما سَنشير إلى ذلك في مَوضعِه، وإنَّني حاولتُ أن أنشرَ هذه الرِّسالة بِنصِّها الكامل، إلَّا أنَّ خرمَ مِقصّ المسفِّر للمخطوطة حال بيني وبين أُمنيتي، فسأَعوِّض الكلمات النَّاقصة بـ: (ببياض في الأصل)، على عادةِ النَّاقلين والنسَّاخ، وهذا نصُّ الرِّسالة: «الحمدُ لله الذي أسبغَ روح إحسانِنا على الأنام، فكان الحظُّ الوافر منه لعلمائنا الأئمة الأَعلام، وأفاض بحرَ عَدلِنا الوافر على الأوَّل منهم والآخِر، فلله الحمدُ سبحانه على ما أولانا، إذ فضَّلنا على كثير مِن عباده وولانا، وجعلَ عمودَيْ بيت دولتنا السَّعيدة عدلا وإحسانا، وجمع فيها القلوب، وألَّف بين المتنافرين مِن الصبا والجنوب، فعاد المتقاطعون في أيامها الرَّشيدة إخوانا، وصلَّى الله على سيِّدِنا ومَولانا، محمَّدٍ النبيِّ المصطفى الكريم، الذي أنزل عليه: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت: 34)، ورضيَ الله عَن الآلِ والأَزواج والأَصهار، وسائر المهاجِرين والأَنصار، وباقي الصَّحابة والتَّابِعين، وتابعيهم بإِحسانٍ إلى يومِ الدِّين، وعَن العلماء الرَّاشِدين، والأولياء الصَّالحين، والدُّعاء بتَخليد دولة أمير المؤمنين إلى يوم الدِّين، وبعد:

لما أن أنفذَ الله سبحانه القدَر، وأصمَّ الأذنَ وأَعمى البصَر، طال اللسان، وقطعت الأرسان، وجال في ميادين العلاج، العِناد واللجاج، (بياض بالأصل) مِن علماء **تلمسان**، وموجِبه مسألة عِلمية، وإنما الأعمال بالنية، وكل على هدى، ولم يتعد العدا، فتواطأ الجم الغفير، وكان بالله تعالى القوة والحول، والعالم الصدر، العلم الحبر بذا الزمان سليل بني عدنان، مفتي المدينة ذو العروة المتينة، والوقار والسكينة، أحمد المعين،

قَد انفرد بالقول الآخر وتعين، فأبوا أن يذعنوا لقوله الواقع، فاتَّسعَ الخرقُ على الرَّاقع، فعند ذلك حرَّكته الهِمَّة العلية، وهزَّته الأريحية الهاشمية، وصالت عليه النِّسبة الأحمدية، والقِسمة المحمَّدية (بياض بالأصل).

فقام وقعد، وبرق ورعد، وقالوا وقال، وجالوا في ذلك الميدان العَريض وجال، وأظهر كلٌّ منهم لصَحبِه قبيحَ الفِعال، وحذا له النِّعال بالنِّعال، وضاقَ عليهم الخناق، وقامت بينَهم على ساق، فمن يحل هذا المشتبك، ومن يعاني هذا الأمر المرتبك، ففزعوا للحضرة الزَّكية، والأبواب العلية، والأعتاب الشَّريفة، والمواقف المنيفة، بالجزائر المحميَّة بالله تعالى، فلما دخلوا أمام الوالي، صار كلٌّ منهم لصاحبه قالي، أنسوا (كذا) بعض انتصار، كاد أن لا يقرَّ لهم قرار، فنزلوا وصعدوا، واستنمروا واستأسدوا، وصالوا وجالوا، ومالوا عَن الصَّوابِ وقالوا، وخرجوا مِن قِصَّة إلى أُخرى، وارتكبوا أمرا إمرا، ومُرتقًى وعرا، وأوسعوا الأنام عُذرا، وادَّعوا أن السَّيد خالفَ الشَّريعة (بياض بالأصل) وأفسدَ الأَوقاف، ولم يستَعِمل الإِنصاف، فرمَوه بذلك في سِرداب، وأغلقوا دونَه الأبواب، ولا ملجأ إلا الله ولا ناصر، إذ همُّوا بعزلِه، ونقضِ ما كان أبرمَه مِن غَزله، وكادوا أن يظفروا بالمرام، ويفضحوه ما بين الأَنام، وكانت آراء العلية المرادية، والهِمَّة السَّنية الجهادية، لا تستعمل في الأمور البَداهة، ولا بمُقتضى الشَّهوة والنَّزاهة، بل يتثبَّت ويتوقَّف، ويضرب الأَخماسَ في الأَسداس ويتصرَّف، فلمَّا أن رُوجِعَت الأمور، ظهرَ أنَّ ذلك كلّه زور، وإنَّما حملَهم على ذلك الغبطة الفِقهية، والمنافَسة الأَدبية، فخيِّبت آمالهم وضرب كلٌّ مِنهم يدَه على فيه، ولم يَعد قط بَعدها يوافيه، أو يُجاريه في ذلك المضمار أو يناويه، وانقلَبت صفقتهم خاسِرة، وشَوكتهم كاسِرة، فلما ضاقَ عليهم الطوق، وصار أسفَلهم مِن فوق، (بياض الأصل) رغبوا في الصُّلح الذي هو خير، وأَقسموا أن لا ينافِسوا بعدَها الغير، ولا يعودوا لمثلِها أصلا، ولا يسدِّدوا نحوه مِن المكايد نصلا، فانعقدَ الصُّلحُ بينهم لدَى المواقف السُّلطانية، والمجالس العلمية النُّورانية، كلُّ ذلك

بِمَحضر علمائها وقُضاتها ومُفتيها وكُبرائها، والشَّيخ الأوحد البركة **سعيد** [1] السَّعي في حالتَي السكونِ والحركة، صانَه الله وصانَهم أجمعين.

وانقلَب السَّيد منصورا، فَرحا مَرِحا مؤيَّدا محبورا، مُقرًّا في مكانتِه ومكانِه، مُضاعفًا له في سموِّ قدرِه وشانِه، إماما مقتدى به مَهديا، وعالما فقهيا عليما مفتيا، (بياض بالأصل)، مقدر له سعد وإقبال لديهما تجديدا لا يبلى جديده، ولا يكل حديده، دائبا دائما، لازبا لازما، مباركا مرضيا، مؤيَّدا محميا، بقدرة الله تعالى وحوله، وأفضاله وطَوله، فعليه أن يعمل فيهما بما أراه الله وأن يُعرَف قدرُه، ولا يُتعدَّى صدرُه، ويلين الجانب، ولا يتجاوز الواجب، وأن يقِفَ عند حدِّه، وإلا أغمدنا فيه كما قيل سيف جدِّه، ويستَعمِل الرِّفق في الأمور، ويتجنَّب كلَّ محظور، ولا يتعدَّى الحدود، فإنَّ النُّزولَ يكون بقَدر الصُّعود، ويبذل غايةَ جهدِه وجلدِه، في إصلاح أهلِ بلدِه، وأن يروضَ نفسَه غايةَ الرياضة، ولا يقابل أحدا بالفَضاضة، لأنَّ الغليظ الفض، قلَّ ما تَسعه أَرض، وعليهم أن يسلِّموا له الأمر، ويوسِعوا له الصَّدر، ولا يخرجوا عَن حكمه، ولا ينقضوا برم عزمه وحزمه، ويكونوا له أطوع من خاتم، وأسمع من خادم، لأنه راعيهم، وإلى الرشاد داعيهم، وهو المسؤول عنهم يوم القيامة، فعليهم أن لا يخفروا له ذِماما، فمن كان كذلك استوجب الأوصاف، وأن يعاملَ بالإِنصاف، والله يوفِّقهم وإياه، لما يحبُّه ويَرضاه، وأن يُذهِبَ مِن قلوبهِم الأَضغان، ويُعامِلَهم بالإِحسان، إنَّه كريمٌ، جوادٌ حليم، فهذا الذي أستأهلَه قد أنعَمنا به علَيه، وأقررناه لدَيه، فليَحمد الله على ذلك، ولا يكُن لحقٍّ مِن حقُوقنا بعدَ حقِّ الله بالتارك، وليقيد النِّعمة بالشُّكر، ويستمدها بالدُّعاءِ والتَّضرُّع والذِّكر، والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب، فليَسْعَ الواقف على هذا التَّجديد، والأَمر المبارَكِ السَّعيد، والخِطابِ المؤيَّدِ الرَّشيد، النَّافذِ بأَمر الله

---

(1) فالغالب أنه يقصد الشيخ **سعيد المقري** (عم وأستاذ أحمد المقري).

نَواهيه وأَوامِره، المدرَجة كفلقِ الصُّبح دلائِله وأَمائره، في الإِنقياد والاستِسلام، والامتِثال والاستِلزام، والعمل بِمُقتضاه، والطاعة لمن أنفذَه وأَمضاه» اهـ.

إن هذه الوثيقة كما سبقَ لنا ذكره لها أهمية عظمى في موضوع دراستنا، خصوصا تحديد وظيفة المفتي الذي كان ناظر الأَحباس، وتحديد مسؤولية السكَّان وناظري الأحباس الخاصَّة، الذين هم مُلزَمون باستِشارة المفتي لمحاسبتهم في تَصرُّفاتِهم، وقد رأَينا أنَّ بلدةً كـ: **تلمسان،** كانت جالية سكَّانها الأَتراك قويَّة، ولكن كانت الرِّياسة الدِّينية للمُفتي المالكي، وإنَّنا بِمناسبة ذِكر **محمَّد بن راس العين** محرِّر هذِه الوثيقة على لسانِ **باشا الجزائر** وَجدنا له عِدَّة رسائل في المخطوطة السَّابقة الذِّكر، منها ما كان يكتُبها رأسًا إلى الخلافةِ العثمانية بـ: **اسطنبول،** ويقولُ إنَّه كتبها باسمِ سكَّان **الجزائر،** ومنها ما كان يكتبُه باسمِ **باشا الجزائر.**

وهناك وثيقة هامَّة تهمُّ موضوعَ بحثِنا، واضطربت فيها أقوال المؤرِّخين، وهي ثورة **أحمد بن الصخري** (رئيس قبيلة الذواودة) الذي ثار على **باي قسنطينة،** واختلفَت آراء الكتَّاب عَن أسبابِها وأبعادِها، فَوجدنا رسالةً كتبَها **محمد بن راس العين** إلى بعضِ الإِطارات المسؤولين بالخلافة، وهذه الرِّسالة وإن كانت مِن سِحر البيان إلَّا أنَّ فيها مِن الدلالة على أنَّ كثيرا مِن **الباشَوات** يخفون الحقائقَ على الخلافة، إذ وَجدنا مِن جملة مَن اهتمَّ بِقضيَّة ثورة **أحمد ابن الصخري** المؤرِّخ الفرنسي[1] (Berbrugger)، وراجعَ وثائق المعاصِرين لهذه الثَّورة وأسبابها، ولكنَّه لم يشف غليلي، إلى أن اطَّلعنا على مجموع رسائل **محمد بن راس العين** فأَلقى على تلك الأحداث أَضواء تبيَّن منها أنَّ السُّلطات المحلية حاولَت إخفاء الحقيقة التي أدَّت إلى الثَّورة، وبهذه المناسبة نَذكرها بإجمال، وإن لم نَخرج مِن الموضوع، حيث إنَّها تدخلُ في العهد العثماني كوثيقة أَدَبية وسياسية، وهي

(1) خصَّص مَقالا بـ: (**المجلة الإفريقية**)، المؤرَّخة في سنة 1866م، ص: 314 ـ 347.

مِن ناحية أخرى تَستحِقُّ الوقوفَ عِندها، إذ نحن في هذا التأليف نَقصد ـ كما سبقَ لنا ذِكره ـ نشر ما تمكَّن مِن الوثائق الأَصيلة التي لم يسبق نَشرها، خصوصًا إذا كانت تتعلَّق بأَحداثٍ لا زال يكتنِفُها الغُموض، وهي في حاجةٍ إلى تَوضيح وبيان، فهذِه الثَّورة التي اجتاحت ولاية **قسنطينة**، وكلَّفت الجيشَ العثماني خَسائر فادِحة حاولَ بعضُ المسؤولين إِخفاءها أَو التَّقليلَ مِن شأنها، وقد تولَّى دراستها الرائد **فيرو**، ثمَّ أعقبَه **بربريجير** (Berbrugger) الأستاذ بـ: **جامعة الجزائر** في عهدِه، والذي كان مَدرج مِن مَدارج **الجامعة** بـ: **الجزائر** يحمِلُ اسمَه إلى عهدِ الاستقلال.

خصَّص المؤرِّخ المذكور مَقالا عَن **يوسف باشا** نشرَه في (**المجلة الإفريقية**) المؤرَّخة في سنة 1866م، تحتَ عنوان: (**ثورة أحمد بن الصخري شيخ العرب**)، وبعدَما ذكَر صاحبُ المقالِ ما كتَبه الرَّائد **فيرو** في الموضوع، وذلك أنَّ لهذه الثَّورة أسبابا مِن جُملتِها انتِقام **أحمد ابن الصخري** مِن **مراد** (**باي قسنطينة**) الذي اغتالَ أخا **أحمد بن الصخري**: **محمَّد**، وولدَه **أحمد**، وبعضَ رؤساءِ القبيلة ـ الذواودة ـ وذلك في عهدِ **يوسف باشا** حسبَ بعضِ الوثائق التَّاريخية، إذ وُجِدت وثائق أُخرى تذكُر أنَّ ثورة **أحمد بن الصخري** المذكور كانت في عهدِ **علي باشا**، إلَّا أنَّ **بربريجير** (Berbrugger) ذكر أنَّه يختار الرُّجوع إلى ما قالَه قبل، وهو وقوعُها في عهدِ **يوسف باشا**، اعتمادًا على ما كتبَه الأب **دان** (Dan) الذي كان بِحكم منصبِه وزير وعميد (**دِير الثَّالوث وفدي الأَسرى**) المؤسَّس في قصر (Fontaine blanc)[1] له اطلاعٌ واسعٌ على مثلِ هذه الأَحداث.

وصل الأب **دان** إلى **الجزائر** سنة 1634، وفي **الجزائر** أَلَّف كتابَه المسمَّى: (**تاريخ البربر**) (histoire de barbarie)، وطبع هذا الكتاب طبعتَين، الأولى سنة 1637م، والثانية

(1) ministre et supérieur du couvent de la sainte trinité et rédemption de captifs, fondé au château de fontaine blanc.

سنة 1649م، وتمتازُ الطَّبعة الثَّانية عَن الأولى باشتِمالها علَى زياداتٍ وتَصحيحات.

يقصِدُ المؤلِّفُ بعنوانِ تأليفه: **(تاريخ البربر)**، تاريخ **الجزائر**، حيث إنَّ الأوربيِّين ـ خصوصًا المسيحيِّين ـ كانوا يطلِقون عليها (la Barbarie).

قال الأب **دان** في تأليفه مما يتعلَّق بِموضوع بحثِنا: «في شهر سبتمبر 1638 امتنعَ سكَّان **قسنطينة** مِن دفع الضَّرائب (الَّلزمة) فأرسلَ إليهم **يوسف باشا** كوكبةً مِن الجيشِ النِّظامي لِقَمعهِم، فاستعدَّ السكَّانُ للدِّفاع عَن أَنفسهِم، وتولَّى رياسةَ المحاربين ـ أي: السكَّان ـ **خالد** و**ابن علي** (الذواودة)، فَحينئذٍ طلبَ **الباي مراد** المددَ مِن **الجزائر**، فأجابَه **الباشا يوسف** لطلبِه، وأرسلَ إليه عشرين خيمة، كلّ خيمة تحمِل (20) جُنديا، فكان عدد الجيشِ الوارد مِن **الجزائر** أربعة آلاف جنديا (4000)، تحت قيادة **الباشا يوسف**، وكانت قوَّة المتمرِّدين عشرة آلاف محاربا، وكانت عادة الجيش النِّظامي العثماني الانتِصار على مثلِ هذا العدَد، فلما التقَى الجمعانِ لاحظَ **يوسف باشا** أنَّ المتمرِّدين ـ الذواودة ـ كانوا مصمِّمين على الِاستماتة، كما لاحظَ أنَّ هذِه القوَّة التي ظهَرت في الميدان لم يكُن السَّبب في جمعِها الامتِناع مِن دَفع المغارم، كما ادَّعى ذلك **باي قسنطينة**، ولهذا تولَّى **يوسف باشا** استِقصاءَ الخبر، فكانت نَتيجته أنَّ **الذواودة** ثاروا مصمِّمين على أخذِ الثَّأر لِقَتلاهم مِن **الباي مراد** الذي نصبَ كَمينا وقتلَ فيه بعضَ رؤسائهِم غَدْرا، وقد كان **يوسف باشا** قبلَ خروجِه مِن **الجزائر**، وكذلك بعضُ أعضاءِ ديوانه بلغَهم هذا الخبر ـ أي: ثورة **الذواودة** كان سببُها تهوُّر **الباي مراد** ـ فَحينئذٍ اتَّصلَ **يوسفُ باشا** ببعضِ رؤساءِ **الذواودة** خُفيةً ووعدَهم بِتَمكينهم مِن أخذِ الثَّأر مِن **الباي مراد**، إلَّا أنَّ الجيشَ العثماني خسِر المعركة وانهزمَ شرَّ هزيمة، وقد انسحبَ **مراد باي** في أوَّلِ المعركة، ولهذا لم ينجُ **يوسف باشا** مِن القتلِ أو الأَسر إلَّا بمعجزات، وبعد الهزيمة كالَ كلٌّ مِن **الباشا يوسف** و**الباي مراد** تهمَ الخديعة لبعضهِم بعضا، وقيل إنَّ سببَ الهزيمة مكيدة

دبَّرها **أحمد بن الصخري** وفاجأَ بها الجيشَ العثماني، إذ هيَّأ عددًا مِن الإبل جعلَ على ظهورها أكياسا مِن الرِّمال كمتارس، وبعد تَهييجِها صوَّب وجهتَها إلى مقدِّمة الجيش العثماني، فاضطربوا ودخلَهم الرُّعب والفزَع، وكان العربُ لهم بالمرصاد، فانهالوا عليهم وأَثخَنوهم قَتلاً وتَشريدا، كانت هذه المعركة سنة 1638، وفي سنة 1639 ـ أي: بعد المعركة الأولى ـ أرسلَت **الجزائر** جَيشا آخَر للانتِقامِ مِن الهزيمة الذي لحقَته سنة 1638م، فكانت المعركة الثَّانية في صالح الثّوار (الذواودة)، وحينئذٍ تَدخَّل أحدُ المرابطين في الصُّلح، واشترط الثُّوارُ على العثمانيِّين شروطًا، منها:

1) أن لا يطالب العثمانيُّون العربَ بالضَّرائب (الَّلزمة).

2) يرجع الجيش النِّظامي العثماني إلى **الجزائر** رأسا، مِن دون تغيير للطَّريق حتى لا يتعرَّضوا للنَّهبِ أو القتل.

3) يجدِّد العثمانيُّون المركز التِّجاري بـ: **القالة**، لاستِئناف التَّبادل التِّجاري مع الفرنسيِّين.

4) يأذن **الباشا** لـ: **الكراغلة** مِن الذين غادَروا العاصمة (**الجزائر**) [بالعودة] إليها، ويعودون إلى وظائفِهم.

وقد قَبِل الجيشُ النِّظامي هذه الشُّروط، وفي طريقِ عَودَتِه إلى العاصمة قُتِل **أحمد خوجة**، حيث اتَّهموه بِمُوالاةِ الثُّوار، ولهذا قَتلوه قبلَ وصُولِهم إلى **الجزائر**، وسجَنوا المرابِط الذي سعَى لهم في الصُّلح معَ الثُّوار ».

ثمَّ قال **بربريجير** (Berbrugger): «هذا رأيُ الأب **دان** (Dan) الذي نقلَه عنه ونقلَه أيضا (M.do rotalier la primandie)، ثمَّ ذكر (Berbrugger) في مقالِه ما يلي: «أمَّا المصادر العربية، فقَد ذكَرت ما يلي: في سنة 1641م خرجَ **يوسف باشا** مع جيشه مِن

الجزائر إلى الشَّرقِ على طريقِ البَحر، ثمَّ رجعَ بعد ذلك سنة 1642، وأدخلوه السِّجن، وخرجَ مِن السِّجنِ سنة 1053هـ ـ أي: سنة 1643 ـ 1644م.

وقَد ذكَر أحدُ الأَسرى المسيحيِّين (Emmanuel de dramada) في الموضوع فقال: في سنة 1641م ثار ملكٌ بربري على حكومة **الجزائر**، يُعرف بـ: **ابن علي**، وقد استعملَ **باشا الجزائر** المراكبَ البَحرية، وفي سنة 1642 أُعلِنَ في **الجزائر** أنَّ **ابن علي** (ملك كوكو) ثارَ على **الباشا**.

وفي سنة 1642م امتنَع أحدُ الملوكِ التَّابعين لـ: **الباشا** مِن دَفع الغَرامة، فذهبَ إِليه **الباشا يوسف**، وقَد أذن لَه جيشُه في الذَّهابِ على مَركبٍ بَحري.

ثمَّ ذكر أحدُ المؤرِّخين الأَهالي أنَّه في سنة 1643 انهزمَ جيشُ **الباشا يوسف** والقائد **مراد** والقائد **شعبان** بالشَّرق ».

ثمَّ تساءلَ الكاتبُ (Berbrugger) عَن الثَّورتَين، هل بطلهما واحد؟ وهو **أحمد الصخري**، أو إحداهما قام بها **الصخري**، والأُخرى صاحب **جبل كوكو** لغرضَين مختلفَين؟

فمالَ إلى ذلك ـ أي أنَّهما ثورتان ـ وإنَّما ورد اسم **ابن علي**، لأنَّ **الصخري** ينتمي إلى أهلِ **ابن علي (الذواودة)**.

ثمَّ تعرَّض إلى الخلافِ الواقع في **باشا الجزائر** إذ ذاك، هل هو **يوسف** أو **علي**؟

فأجاب عَن ذلك بِقَوله: «إنَّ وثائقَ كثيرة تثبِتُ أنَّ **يوسف باشا** كان على رأسِ **الجزائر** ابتداءً مِن يوليو (juillet) 1634م، يوم وصوله إلى **الجزائر** مِن **اسطنبول**، وبقي بها إلى سنة 1646، إلا أنَّه في الوثيقة التي أثبتَها **فيرو** (L. Féraud) أنه في صفر 1047هـ ـ أي: بين 21 يونيو (juin) و20 يوليو (جوليت) 1637م ـ طلبَ **باي**

قسنطينة مراد الإِذنَ مِن **باشا الجزائر علي**، وطلبَ مِن الدِّيوان أيضا إعدام شيخ العرب **محمد بن الصخري**، ومِن ناحية أُخرى نجِدُ عِدَّة وثائق أهلية تَذكر أنَّه في أوَّل صفر 1047هـ/ 27 يونيو (juin) 1637م، وصلَ إلى **الجزائر** باشا يسمَّى: **عليا**، ثمَّ إنَّ هناك وثيقة صَحيحة تثبِتُ أنَّه في أوت 1637 بنيت قشلة الانكشارية الجديدة بِنَهج (madée) الأَعلى، بناها **أبو الحسن علي باشا**، وهذا ممكِن، حيثُ جرَت العادةُ أنَّ الباشوات المعيَّنين مِن طرف الخلافة بـ: **اسطنبول** يتولَّون مدَّة ثلاث سنَوات، فـ: **يوسف باشا** وصلَ إلى **الجزائر** سنة 1634 فعيِّن خلفه سنة 1637.

وقد تَساءل الكاتبُ حيث اشتَبه عليه اسم **يوسف** الذي كان كثيرا ما يزجُّ به في السِّجن ويخلفه غيره طِوال سنَوات 1634 إلى 1642» اهـ.

أثبتنا مقال (Berbrugger) على طوله ويعد خارج الموضوع، حيث يتعلَّق بالتاريخ السِّياسي ونحن بصدَدِ تحرير جَوانب من التَّاريخ الثَّقافي، إذ نجِد وثائق **محمَّد بن راس العين** تعرَّضت لقَضية هذِه الثَّورة ـ أي: **ثورة أحمد بن الصخري** ـ ولـ: **يوسف باشا** الذي كانت له صَداقة معَ الكاتب **محمَّد بن راس العين**، فاغتَنمنا هذِه الفُرصة لإلحاقِ قضية **يوسف باشا** وثَورة **ابن الصخري** بِموضوع بحثِنا، ولنا ما يبرِّر ذلك، علاوة على إفادةِ الباحثين أنَّ سردَ هذِه الأَحداث الذي لم يَصِلنا إلَّا على طريقِ الكتَّاب الأَجانب عثَرنا على أَصلِه العربي المتاز، زيادةً عن أَصالتِه، إذ كاتبه كان مِن أمراءِ البيان، ثمَّ إنَّنا بنَشر مثلِ هذه الوثائق الأَصيلة التي يجودُ علينا بها الزَّمانُ المرَّة بعد المرَّة، يُمكِننا أَن نُعيدَ النَّظرَ ونصحِّحَ بعضَ أخطاءِ المؤرِّخين الذين شوَّه الكثيرُ منهم تاريخَ بلادِنا، والتاريخُ كما يعلمُ الكلّ وثائق، لا استِنباط وارتجال وافتِراض، كما أنَّنا مِن خِلالِ هذه الوثيقة اكتشَفنا أنَّ كثيرا مِن الأحداثِ الهامَّة في العهدِ العثماني حاولَ باشوات **الجزائر** إخفاءَها أو التقليلَ مِن شأنها لدَى الخِلافة العثمانية بـ: **الأستانة**، ومنها ثورة **ابن الصخري**

وثورات **الأوراس** التي سنتعرَّض لها في مَوضعِها مِن هذه الدِّراسة.

ولنَرجع إلى الحديثِ عَن ثورة **ابن الصخري** الذي استَولى على أراضي شاسِعة مِن **الزاب** وسهول **سطيف**، ومِن ذلك أنه اتخذ **مجانة** قاعدة ملكه أو إمارته، وقد اهتدينا إلى اتخاذ **ابن الصخري مجانة** قاعدة بفضل مخطوطٍ عثَرنا عليه ـ وهو الآن بـ: **المكتبة الوطنية في الجزائر** ـ والمخطوط هو: (**مختصر البخاري**)، المسمَّى بـ: (**جمع النهاية في بدء الخير والغاية**) للشَّيخ **عبد الله بن أبي جمرة**، كتب ناسخه في ختامه ما يلي: «كمل وتم بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه على يد عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى نيل فضله وجوده **أبي القاسم بن مبارك بن علي ابن** الحاج **الطلحي** نسبا الساكن بـ: **مجانة** صانها الله وحفظها لدين الإسلام ولأهله، بجاه محمِّد نبيه وعبده، نسخه بيده الفانية للخزانة العِلمية العلية، خزانة أميرنا ومولانا **أبي عبد الله محمد الصخري بن أحمد الشريف** أيَّده الله بنصره، وأدام حياته حِصنا منيعا لأهل طاعته، وأمدَّ أيامه، وجعله نقمةً لمن حادَّ الله ورسوله وألحد في آياته، بجاه سيدنا ومولانا محمَّد وعلى آله وصحبه، ووافق إتمامه ضحوة يوم الاثنين مِن شهر الله المعظَّم صفر عام 19 بعد 1000 ـ أي: تسعة عشر بعد الألف ـ عرَّفنا الله خيرَه وخيرَ ما بعده، ووقانا شرَّه وشرَّ ما بعده » انتهى ما بِه الحاجة.

وإن **مجانة** كما هو معلوم كانت قاعدة أو عاصمة **آل مقران** بعد خروجهم من **قلعة بني عباس** قاعدتهم الأولى، وقد وقعت حروب بينهم وبين **الذواودة**، إذ كان **آل مقران** بعد احتلال الأسبان لـ: **بجاية** في حالة حرب وسلم مع الأسبان مِن جهة، ومع الأتراك مِن جهة أخرى، وكانت قبيلة **الذواودة** مُهيمِنة على سهول **سطيف** و**الزاب** أقطعها لها العثمانيون، فاتخذوا **مجانة** عاصمة لإقطاعهم قبل ثورة **أحمد بن الصخري** موضوع حديثنا، وإنَّنا في نشر هذه الوثائق نريد تسهيل مهمَّة الباحثين ونمدهم بمصادر موثوقة.

ولنواصل حديثنا عن وثيقة **محمد بن راس العين** التي تعرض فيها لثورة **ابن**

الصخري في عهد يوسف باشا، وتعرض لها المؤرِّخ الفرنسي (Berbrugger)، وطرح أسئلة تدل على أنه رغم المعطيات التي توفرت لديه خصوصا من تآليف الأب (dan) و(de rotalier)، والوثائق العربية التي نشرها الرائد المترجم (Féraud)، فبقي في نفسه شيء، شأن الباحثين المتعطِّشين إلى استِقصاء الحقائق، فأضاءت لنا وثائق الكاتب **محمد بن راس العين** الطريقة إلى الظروف التي تولى فيها **يوسف باشا** على **الجزائر** وقيادته للجيش الذي ذهب لقمع الثوار بـ: **قسنطينة،** وكل ما نلاحظه هو أن **ابن راس العين** حاول إخفاء هزيمته الجيش النظامي التركي، كما استفدنا مِن هذه الوثائق أنَّ ما ذكره ومن نقل عنهم، كـ: الأب **دان** (dan)، و(de rotalier)، الذين حسموا الخلاف بين **مراد باي قسنطينة ويوسف باشا** مبالغ فيها، وإننا في هذا الموضوع نكتفي بإثبات هذه الوثائق آملين أن يُوقِظ الله لها بعض الباحثين ليلقوا عليها أضواء [1] هي في حاجة إليها كتب في الرسالة الأولى من المجموع الذي نقل من خطه حيث قال الكاتب ومن خطه ـ أي: **محمد بن راس العين** ـ أيضا ما صورته: «وفي أواخر ذي القعدة عام 1059 كتبت عن أهل الجزائر المحروسة: وزير المقام العالي السلطاني الكبير المحمدي العثماني **الخاقاني** (ضاعف الله تأييده) طالبين أن يقر لهم المولى (كذا) **يوسف باشا:**

حمدُ الله أولى ما استفتح به الطلاَّب، وَشْيًا أمام الخِطاب، وجعل فاتحة كل كتاب، وختما وإحراما استزيدت به المواهب، ونيلت به الرغائب، وقضيت به المآرب قِدما، وقدَّمته الموالي بين يدي الموالي، فنالت مِن إحسانهم الموالي قسما، فله الحمد على ما أولى، من جعل بعض عبيده من بعضهم أولى، فاستخلفهم في أرضه تعالى وولى حتما، واستوزرهم سبحانه الخلفاء، وجعلهم للعدل والإحسان نعم الخلفاء، واسترعاهم من

---

(1) ومن ذلك الاضطراب في تاريخ الوقائع أن رسائل **محمد بن راس العين** مؤرَّخة سنة 1057 ـ 1059م، والوثيقة الأصلية التي نشرها (Féraud) 1047؟

عباده الضعفاء رحما، وأفضل صلوات الله الطيبة، ورحماته الواكفة الطيبة، ورضواناته المقربة المعقبة غنما، وأزكى سلامه الأتمّ، المتأرج الأنمى، المزدري بمسك النوافح الأصم، شما على مَن أَيَّده الله بالروح الأمين، وأُنزِلَ عليه نصرٌ مِن الله وفتح قريب ومبين، وأسري به إلى أعلى عليِّين حسما، فرفع منار الإسلام، وفلَّ حزب عبدة الأوثان والأصنام، وخضعت له رقاب المتمرِّدين الطغام رغما، والرضا عن آله وأصحابه ووزرائه وأطهاره وأنصاره ورفقائه الذين أظهروا لنصر لوائه عزما، وعن تابعيه وتابعيهم بإحسان المقتفين أثرهم، فلا زيادة لهم ولا نقصان، المجالدين المجادلين بالمشرفية القاطعة البرهان خصما، وعن العلماء الأعلام، هداة الملة ومصابيح الإسلام، الذين لا يخافون في الملك العلَّام لوما، وعن الصالحين السائِحين في القفار، الصائحين بالتكبير والتهليل والاستغفار، الذين لا ينامون في ليل ولا نهار نوما، وعن الخلفاء الراشدين، والأئمة الهداة المهديين، المجاهدين في سبيل ربِّ العالمين دوما، الذين منهم مولانا الهمام، مالك رقاب الأنام، وحامي حمى الإسلام، مشيد ركنَي الصلاة والصيام على شريعته (عليه الصلاة والسلام)، المجاهد في سبيل الملك العلَّام، كاسر شوكة الملحدين ممن شاء [من] الكفرة والمعتدين، مُزيح الفساد، مُريح البلاد والعباد، مطوِّق الأنام أطواق المِنن والإنعام.

أقامــت في الرقــاب لــه أيــاد ... هــي الأطــواق والنــاس الحــمام

مجيب دعوة المضطرِّين[1]، مجيد الجميل صنعه للعافين والوافدين، منيل الرغائب ومنجح المطالب، كان له دينا على كلِّ مشرق من الأرض أوثار (كذا) (بياض بالأصل) مغرب، مالك المشرقين، المشرَّف بخدمةِ الحرمَين الشَّريفَين، ذو الطَّولِ والإحسان، والعدل والأمانة والأمان، مَن ألقت إليه السَّلاطين العظام، والخواقين الفِخام بزمام،

(1) هذه التوسُّلات لا تليق إلَّا بربِّ الأرضِ والسَّماوات. (ع)

فقادَها إليه طوعا أو كرها، ولم يضِق بها بل ضاقَت به ذرعا، ألا وهو سلطان السَّلاطين، وشاه كل خاقان، وخاقان كل شاهين، أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين، ذلك مولانا وسيدنا السلطان بن السلطان، السلطان **محمد خان** أيَّد الله أعلامه، ونصرَ أعوانه وخدَّامه، ولا زالت أياديه الكريمة، ومِننُه الجسيمة، وعَوارفه الوسيمة، وآراؤه السَّديدة، وآثارُه الرَّشيدة، على عبيد حَضرته السامية البعيدة، كاملة ووافرة ومديدة، وعن الوزراء الموالي، ما يزري قصبة المجد والمعالي، أركان الدولة وأرباب الصولة، وعيبة السلاطين وأعمدة الأساطين، وقواعد المملكة ودائرة الحركة، وحركة الدائرة، الذين منهم سيدنا المولى، ذو المقام الأعلى، والعدل الواضح الأجلى، والرِّفق بالرعايا، والنظر بعَين الرأفة والرحمة إلى سائر البَرايا، والذِّكر الذي سار في البلاد، وعمَّ الأغوار منها والأَنجاد، والنثر الذي طبق الآفاق، والنشر الذي كلُّ مَن على الأرض به فاق (بياض بالأصل) والثَّناء الذي يستغرق النفس واليراع والأوراق (بياض بالأصل) مدبِّر المملكة التي أعيا تَدبيرها فحول الوزراء، ممهِّد سورها العالي بجَديد التخمين ورشيد الآراء، يدبِّر الملك مِن **مصر** إلى **عدن** إلى **العراق**، و**أرض الروم** و**النوب**، ذلك مولانا وزير باشا.

سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته، يزري بالمسك فتيقا، والعنبر سحيقا، والياقوت فخرا، والإبريز شذرا، من مُقبِّلي بِساطاتك الشريفة، ومُعفِّري الوجوه في عتباتكم المنيفة، عبيد الأبواب، وخدَّام الأعتاب، المتطفِّلين على المقام العالي بمثل هذا الخطاب، الرَّاجين مِن الرحيب جوابكم حسن الجواب.

كن كيف شئت تصل إليك ركابنا   فالأرض واحـدة وأنـت الأوحـد

أهل بلد **الجزائر** حاطَها الله وأريحية (بياض بالأصل) المولوي كفيلة بنيل أمانيهم، وتشييد مبانيهم، أما بعد.

أدام الله رفع بنودكم، ونصر أعوانكم وجنودكم، وخفق راياتكم، وظهور آياتكم، وأشرق لياليكم، فبلدتنا هذه كانت قبل اليوم محط رحال، ومحط رجال، ومناخ جِمال، ومعدن جَمال، ومرسى مراكب، ومقر مواكب، ومجرى سوائق (بياض بالأصل) والأبارق، ذات بساتين وأنهار، وأوضات (كذا) وأطيار، وغدران وأشجار، وآصال وأسحار، وأعياد ومواسم، وثغور بواسم ونفحات ونواسم، وجهاد وملاحم، وكرّات ومزاحم، مشائخها تقاة، وكهولها ثقات، وولدانها طغاة، وعساكرها غزاة، وفرسانها عُقبان، وأفراسها عقيان، تسبق الأرواح، فتُخِفُّ على الأرواح، لا يقف لبأسهم واقف، ولا يذعن لرجعيتهم راجف، ما بغي عليهم باغية، إلا خصموه، ولا طاغية إلا حاربوه فهزموه وقصموه، الله أكبر ما أصعب حملتهم، وأعصب جملتهم.

ديار بأرض الغـرب شـاع جهادهـا   على مدن الكفار قد أضرمـت خزيـا

(مدى) الدهر للخنكار تدعو بنصره   ومن غيثـه الوسـمي تلـتمس الريـا

والآن ضعفت الرَّعية، فعظمت البلية، وحلَّت الرَّزية، وضاق المعاش، لما كثرت الأوباش، وضاقت الفقراء، إذ حارَت الأمراء، وعظُم الخطبُ، وتَضاعفَ الكرب، ونغَّص العيشَ طاغية [1] مِن طواغي البادية، فعظم الخطب وحلت الداهية، وأضاق الوطن، بعد أن ضرب الناس جميعا بعطن، وجعل ينهب الرعية نهبا، حتى ملأ قلوبهم فزعا ورعبا، ويسلبهم الزرع والضرع، ولم يُبقِ لهم من نفع، فأشكل أمر البلد، وأوشك أهلها أن يفروا بالأهل والولد، وحال الحال، وكاد إصلاحها أن يكون من المحال.

وراح عـــن الأيـــام نـــور وبهجـــة   وطبق (بياض بالأصل) البلاد ظلام

وكان الله علينا عليما حكيما، منعما محسنا حليما، فبينا القوم في إبرام ونقض، ورفع وخفض، وإثبات ومحو، وغيام وصحو، وملئت القلوب ذعرا، ولم يجدوا عذرا، من

(1) يقصد بالطاغية: أحمد الصخري فيما أظنُّ.

ضرب زيد عمرا، إذ أتى الله بالليث الهصور، والضرغام المنصور، ليث المعامع، المفرد الجامع، فأقسم لولا أن في كلِّ شعرة له ضيغما، قلنا له: أنت اليوم ضغيم (كذا)، الحازم الجازر الجازم.

مع الحـزم حتـى لـو تعمـد تركـه   لألحقـه تضـييعه الحـزم بـالحزم

آخر:

فتغبط الأرض منها حيث حل بهـا   وتحسـب الخيـل منهـا أيـما ركبـا

قامع الجبابرة الطغاة المعتدين، جامع أشتات فضائل الأقدمين، مؤيد دولة أمير المؤمنين .

إذا بيت لأعدائـه كـان اسـتماعهم   صرير العوالي قبل قعقعـة اللجـم

ذلك أميرنا الصوَّال، مُطهَّر الأقوال والأفعال، أبو الجمال يوسف باشا دامت أيامه فينا، حتى يعيد سالف أيامنا ولياليناـ.

هو الخلف بينـا مـدة الـدهر بيننـا   وما لعبت ريـح الصـبا والشـمائل

فاستقر أعزه الله داخل البلد إلا ريثما خلع نعليه، وغسل رجليه، فدوَّن الديوان والعساكر، وضرب الطبول والمزامر، فما كان إلا كلمح البصر أو أقرب، حتى أذاق سمَّ شوكتها العقرب، وشد عليه الغارة، ورد عليه لغارِه عاره، وأدار عليه الدارة، وفرق شمله وخرب داره، وشق عصاه على رأسه، وهدم بنيانه المشيد بفاسه، وها هو (أعزَّه الله) إلى الآن يتبعه في المهامِه، ليريه سواد أيامه، ويدور معه أينما دار، ليذيقه ما أذاق اسكندر دار، واستخلف على البلد (بياض بالأصل) الأروع التقي النقي الأورع، ذا المآثر الحميدة والمناقب الوافدة المديدة، أسد العرين، وملجأ الفقير الضعيف المسكين، فهو الحازم اليقظ الأريب، العالم الفطن اللبيب، الأريحي الأرومة، ذلك مولانا **أبو**

البركات شعبان كأخيه دام علاه، وأعانه على ما عليه وأولاه وولاّه، فقام مقامه، وجمّل بحسن السيرة أيامه، فجزاهما الله عن المسلمين خيرا، ووقاهما إذ رقاهما خيرا، فقد لاحت والحمد لله في أيامهما مخائل النصر، وأشرقت شمائل الإقبال جانب القصر، والملتمس من الجناب العالي المولوي أن يكون سببا عند الخنكار، في إصلاح هذه الدار، بأن يقر أعيننا بقرار والينا، ويمدنا بالإسعاف في ذلك ويوالينا، فإنها لا تزال بخير ما دام بها مقيما، وكهفا يفزع إليه في الشدائد وقيما، والله المسؤول أن يسبغ على العبيد ظلال الجناب الأسمى، والبلاد الأحمى، الوريفة ويتم عليهم نعمه الوسيمة، وآلائه الجسيمة الشريفة، فلا تزال أيامه أيام سرور، ومواسم فرح ومرح وحبور، ما نجحت آمال راغب، ورجحت أعمال طالب ـ إن شاء الله ـ » اهـ.

وقد عزَّز هذه الرسالة برسالة ثانية في نفسِ الموضوع، فقال بعدَ انتهائِه مِن الرسالة الأولى:

«وفي التاريخ المذكور كتبت عنهم إلى السيد المولى قبطان باشا نصره الله على أعداء دينه في المعنى ـ سأقتصر على ذكر بعض خطوطها العريضة ـ وهذا نصها: المقام الذي تُطرِقُ من هيبته الرؤوس، وتَفرَقُ من سطوته النفوس، وترعد من صولته المفاصل وتمتثل أوامره الغواصب والزوائل، مقام سيدنا الهمام، حامي حوزة الإسلام، بوقع السهام، المجاهد في سبيل ذي الجلال والإكرام، سيف أمير المؤمنين المسلول، وذابله العَضب المهند المصقل، وداهيته الدهيا ومرقبته العليا، وصاعقته الممطرة على أعداء دين الله خزيا، وصاعقته الطامة على العظام (كذا) الكفرة، ورحمته العامة على الكرام البررة، فدأبه ليلا ركوع وسجود وقرآن، ونهارا أمر بمعروف ونهي عن منكر وسعي في إحسان، فهو من القوم الذين أنزل في شأنهم مَن لا يزالُ رَحمانا: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ (الفتح: 29) .

فلـولاه بعـد الله مـا عُـرِفَ النَّـدا ولا جـال بـين الخـافقين قتـام
ولا سُلَّ في قصـر المكـارم صـارم ولا شيء (بيـاض في الأصـل)

إلى أن قال: «ذلك سيدنا ومولانا لا زالت عين عنايته ترعانا مولانا قبطان **باشا** نصر الله ألويته الخفاقة، لا زالت بحوله تعالى راقية رائقة وسيوفه القواضب جازمة كل معاند ومحارب من عبيد حضرتكم الشريفة، المتفيئين ظلال أدواحها الوريفة، المطوقين إنعاماتها الجسام أطواق الحمام، الراجين من المنيع جنابها الوثيق المباني، بلوغ الأماني، أهل **الجزائر** (كلأها الله)، سلام شريف، تتأرَّج النسمات بطيب على ذلك المقام، لا زال في عزٍّ واحترام، ورعيِ ذِمام إلى يوم القيام»، إلى أن قال: «والدعاء للمقام السلطاني، والهمام العثماني، والحسام الخاقاني، والسِّراج النوراني، والسر الرحماني، مولانا وابن موالينا العِظام، وساداتنا السلاطين الضخام، مالكي رقاب الأنام، السلطان ابن السلطان، السُّلطان **محمد خان** دامت أيامه، ونُصِرت أعلامه، لا زال ذكره الجميل يُنشر، وعدوه الخبيث يُقوَّض وينشر، فهذه بلدتنا الشهيرة بالجهاد، من دون سائر البلدان، السائر ذكرها مع مواخر المراكب وأواخر الركبان...»، إلى أن قال: «وأذقتها بعد العزة والأمان، كاسي فرق وهوان، ونَعَبت عليها الغِربان، وأحاطت بها القربان، وحمدَ الله فيها العُربان، وعظم على أربابها جَور السلطان، فما منهم إلا مَن ينهب ويخطف، ويتلف ولا يخلف، فلما ضاق الخِناق، وحان الفِراق، مِن العشرة والرفاق، أتاح الله لها حديد النِّصال، وشريف الخصال، فقعَّد قواعِدَها ونشر شَواردها، وانتهز الفرصَ لإذهاب الغُصص، وهو القِسوَرُ المِقدام، والهِزَبر الصَّدَّام، ذو الآراء السَّديدة، والعروة الشَّديدة، مولانا **أبو الجمال يوسف باشا،** بلَّغه الله في إصلاح الرعية ما شا، بأن جهَّز الجيوش والكتائب، وهيَّأ العِتاق والنَّجائب، وخرج بنفسه الزكية إلى براز الأعراب، الذين أظهورا في الأرض الخراب، فمزَّقهم الله أَيَّدي سبأ، لم يفل مِن مهنَّد

عزمِه شبا، فهو يقفو أثرهم في الشِّعاب والآكام، ليجرِّعه كأس الحِمام، وقد كان استخلف على البلد، مَن تَفديه الأنفس بالأهل والولَد، كأخيه الند في الأرض، من له مديد عزم، وسريع حزم، مِن السيف أمضى **أبا البركات شعبان،** كأخيه بلَّغه الله في إصلاح البلاد أمانيه، فضبط البلاد، وأحسن السيرة معَ العباد، فجَزاهما الله خَيرا عن صَنيعهما الجميل، وأعانَنا على مكافئتِهما بالسَّمع والطاعة والتَّوقير والتَّبجيل، بمنِّه، والمطلوب الآن مِن خِلال مولانا الشَّريفة، أن يكون لنا عَونا عِند الخليفة، بأن يقرَّ لنا سلطاننا، ليمهِّد لنا أوطاننا، فإنها ـ والعالم الله ـ إن أخطأها لفتة، لا تساوي لفتة، أو كانت يدُه منها منفوضة، لا تساوي جناح بعوضة، إن انقطع عنها خيرُه، لا يعالج كُلاها غيرُه، فليسعف مولانا العبيد بما اقترحوه على الجناب، وليصفح عن مخاطبتهم إياه بمثلِ هذا الخطاب، فإنه بذلك أحرى، والمعهود من سجيته الغرَّا، لا زال فِناهُ الرَّحب محط رحال الوفود، ومصرع الباغي المعاند الحسود ـ إن شاء الله ـ ... الخ» اهـ.

نقتصِر على هذه الفقرات مِن رسالتَي **محمد بن راس العين،** اللَّتين أرسلَهما إلى الخلافة، ولا شكَّ أنَّ هذه الثورة ـ أي: ثورة **ابن الصخري** ـ والظروف التي وقَعت فيها لم تُرضِ الخلافة، فكان **الباشا يوسف** في حاجة إلى تَعزيز مَركزه.

بقي لنا أن نعرِفَ الدَّور الذي لعبَه **محمد بن راس العين** ووظيفته في **الجزائر**، فلم نهتدِ إليها، إذ كلُّ ما وصلنا مِن ترجمة حياتِه مجموع رَسائله التي تحدَّثنا عنها، وعلاوة على الرِّسالتين التي كتبهما للخلافة يؤيِّد فيها **الباشا** باسمِ سكَّان **الجزائر**، نجد بعضَ رسائله الأخرى كاتبَ فيها شخصياتٍ أدبية وعلمية، منها شيخ الإسلام **محمد المهدي بن رمضان** الذي نجِده في قائمة المفتين الأحناف التي نشَرها صاحب (**تعريف الخلف**)، وذكر تاريخَ توليته حوالي سنة 1045هـ.

أمَّا حياته الخاصَّة وأسرتَه فلم نعلم عنه إلا ما كتبه عنه صاحب (**درَّة الحجال**) مِن

أنه كان كثيرَ الأسفار والجولان، وأن له اتِّصالا بالملك السَّعدي بـ: **مراكش**، وقد وَجدنا في إحدى رسائله أَرسلها في شعبان 1057 للسَّيد **محمد بن سليمان ابن** سيدي **محمد الشريف** (نقيب أشراف الجزائر) بمناسبة زَواجه، وهذا العنوان الذي علَّق به عليها النَّاسخ، قال: «تهنئة لأَخينا في الله السيد **محمد ابن سليمان ابن** قطب **الجزائر**، ولي الله حقًّا، سيدي **محمد الشريف**، حين تزوَّج بـ: بنت الولي الصالح **محيي الدين** [1] ابن قطب الأقطاب سيدي **علي بن مبارك** [2] (نفع الله ببركاته)، آمين ».

ونصُّ التَّهنئة: «الحمد لله الجامع شمل مَن اقتفى أثر نبيِّه محمَّد ﷺ ومِلَّتَه، وسمع أمره ونهيه فاتَّبعَ ولم يخالِف سبيلَه وسنَّتَه، ثمَّ نحمده ثانيا على ما أولانا مِن نعمائه العِظامِ العظائم، ومنَّ علينا بمولانا محمد الشريف العفيف من بني هاشم، القائم بأعباء النبوة، مَن أرسله الله فبلَّغ رسالاته، المحيي لدينه تعالى وكتبه وآياته، وعلى آله وصحبه الغرِّ الكرام، الطهرة البررة الأعلام، ما تفتَّق زهر الخمائل من الأَكمام، وما صدح في أفنائها الغضَّة قُمريٌّ أو حَمام، أدام المانِحُ تعالى النخبة الهاشمية المحمدية الهناء، وضاعف بدر أُفقِها السَّامي السَّني السَّناء، مَن حاز قصبة السَّبق في كلِّ حلبة للفضل، وكل ميدان، مولانا الشريف اللطيف، **محمد بن سليمان**، لا زال الطائر الميمون يحوم حول حِماه الشريف، وداعي الهناء يدعو بـ: حيَّ على الهناء واللقاء والتشريف، نحو فناه المنيع الرفيع المنيف، والكون يتلو في كلِّ سكونٍ وحركة، باليُمن والبركة، والمملوك ينشد والضد غما (كذا) قاله كمدا، سيدي فقد أنجز الإقبالُ ما وعدا، من علَوت به أعلى مناكب الجوزاء قدرا، فراح لسان سيادته العلية يتمثَّل فخرا، وناهيك عَن هاشمي يعتلي وقد اتَّصل يا مولاي بمسامعي قول البشير، وهو بالسلامة مع الهناء يُشير، فكدت ـ

---

(1) **محيي الدين بن علي بن مبارك**: توفي سنة 1058هـ ودفن مع والده في **القليعة** مركز الأسرة.

(2) **علي بن مبارك**: توفي سنة 1040 ودفن بـ : **القليعة**، عن (**تعريف الخلف**) للحفناوي.

ومقامكم الذي لم يزل ذا خطر كبير ـ، مِن فَرط السُّرور والفرح أطير، فاستعجلت في الحين هذه الورقة، وقلت: الحمدُ لله لقد وافق شنٌّ طبقه.

هذا، وكم لعبدكم من التِفات، لما قد فات، من تلك الليلات الزُّهر، التي تفضح الزَّهر، والأُوَيقاتِ الصِّباح، التي تَبهَرُ الصَّباح، مذ أَقفَر الرَّسمُ وشطَّت الدَّار، تنغَّص العيش منِّي، ودار شعرٌ لي:

تـنغَّص عيشـي يـوم بـانوا أحبَّتـي	وبان اصطباري والتجلُّد في الجسم
وما رمقي باق ولا الروح في الحشا	ولا نفَســي الموجــود إلا لأنَّنـــي
أعلِّل نفسي- بـالتَّمنِّي مـع الرَّجـاء	فأُنفِــدُ أوقــاتي بلَيْــتَ وعلَّنـــي

لو ساعد الدهر لانتهزت إليكم الفرصة، لأُذهِب عنِّي هذه الغصَّة، ولتجشَّمتُ لاستِلام أعتابكم الشَّريفة المشي ولو حَبوا، لأبردَ نارًا ظلَّ قلبي مِن تلهُّبِها يُكوى، ولكن حبل المودَّة بيننا محكوم الوثائق، والعبد على ما تعهدون عهد وميثاق.

قطعة لي: (أصل)

بحقِّك وحقك يا ابن الهاشمي محمد	ويا من سمى عن بـدر أُفـقٍ وفرقـد
لَطلعتُك الغرَّاء و الشَّمس والضُّحى	ألـــذّ لعينـــي مِـــن منـــام مســـهد
ولكن صروف الدَّهر ما برحت على	فؤادي المعنَّى الصَّبِّ تعلو وتعتـدي
فمنظوم شمل الوصل قد نثـرت ولم	تـــراع حقوقـــا للإخـــاء المؤكَّـــد
وما صـدَّني عـنكم وحقكـم سِـوى	أب وأمٌّ وقِلَّـــــــةُ مُســـــــعِدي
إذا كنـت في خطـبٍ تـودُّ لـو أنَّهـا	بمهجتها والـرُّوح والـنَّفس تفتـدي
ولا سـيما وقـت كهـذا الـذي تـرى	أجـــارك ربِّي مِـــن تَقلُّبِـــه الـــرَّدي
ولـولا الـذي قدَّمتـه مِـن مَعـاذر	لكنـت عـلى رأسي أروح وأغتَـدي

وبعد، يا مولانا، التحية الزكية، الطيبة النَّشر الذكية، التي ما تنفَّست في ليل أو نهار إلا وبهرت خمائل الورد والتبهار، ولا تحملها النسيم وضاع نشره.

هذا، وكم زجره عن تحملها حين أبى وتكبَّر، لاعج الشَّوق فاعتل (له) وراح في أذياله يتعثَّر، فقهقه ماء النهر عليه فوقع من شاهق وتكشر، فابتلت أذياله بذلك الماء السَّلسبيل يدعى بالعليل البلل، تخص الذات الكريمة الأَصل العديمة الشَّبه والمثل، المحمول أمرها ونهيها على الرأس والعين، مِن **عبد الله محمد بن راس العين**.

وقد استفدنا من هذه الرسالة أن مترجَمنا كان له أب وأم في قيد الحياة، وكان يشكو مِن تقلُّبات الدَّهر، ثم هناك رسائل أخرى خاصة لبعض معارفه وأصدقائه كلها درر وتستحق عناية خاصة، إذ زيادة على محتوياتها في الميادين السياسية والأحداث التي اجتازت البلاد في ذلك العهد، فإنها تدلنا على صور من المستوى الثقافي في ذلك العهد رائعة نجد ذلك بالخصوص في رسائل هي شبه مساجلات أدبية تبودلت بين مترجمنا وزميله **ابن شباح**، وبينه وبين صديق له كان يسكن بأزمير.

نكتفي بهذا القدر وأمنيتنا أن تنشر رسائل هذا المجموع الذي يعدّ في طليعة الوثائق الثمينة لأوائل العهد العثماني في المجالين الثقافي والسياسي، وقبل أن نستعرض عينات من المعاهد بالبلاد، كنماذج لموضوع بحثنا نواصل حديثنا عن بعض التيارات الفكرية التي يمكننا أن نطلق عليها ثورات ثقافية اجتاحت البلاد إذ ذاك، أي في العهد العثماني، ثمَّ أذكُر الصِّلةَ الوثيقة التي كانت تَربط بين بلادِ الشَّمال والجنوب في العهد العثماني .

كانت مِن جملة هذه الثورات الثقافية الحملة التي شنها بعض علماء الشمال والجنوب على الشيخ **محمد بن عبد القادر**(1)، المدعو بـ: **سيدي الشيخ**، عميد أسرة أبناء

(1) كذا، والمعروف أن اسمه: **عبد القادر بن محمد**. (ع)

سيدي الشيخ، المشهورين بثورة 1864م، وبثورة **بوعمامة** 1881م، وكان في طليعة حاملِي لواء هذه الحملة الشيخ **أحمد ابن القاضي**، المشهور بـ: **أبي محلي السجلماسي** صاحب المعهد بـ: **بني عباس** بـ: **السَّاورة**، حيث كان تلميذا لـ: **سيدي الشيخ** وصهره، ثم وقع خلافٌ بينهما ابتداءً مِن سنة 1010هـ، وتفاقمَ الخلاف بينهما، وشاركَ فيه كثير من علماء الجنوب والشَّمال، ومرجع هذا الخِلاف في الظاهر ما سبقت لنا الإِشارة إليه في هذه الدِّراسة، النِّزاع بين السَّلفية والمتصوِّفين الذي كان يتجدَّد المرَّةَ بعد المرَّة في البلادِ الإِسلامية، ويحدث هزَّات عنيفة تترك آثارها ثمَّ يخبو لهبها.

ولما كانت هذه الدِّراسة محدودة المجال، وكان تتبُّع هذه المواضيع يحتاجُ إلى مجلَّدات، نكتفي بالإِشارة إلى بعضِ الخطوط العَريضة منها، يدعونا لها سياق البحث، إذ من السهل مراجعتها في مظانها.

حمل الشيخ **أحمد بن القاضي أبي محلي** على صهره **سيدي الشيخ** حملةً نسب فيها إليه اقتراف بعض البدع في سلوكه، وخصَّص هذه المعركة بعِدَّة تآليف، كان الفضلُ له في بعضها نشر إنكاره ونشر ردود الشَّيخ عليها [1]، وكان الفضل لعالم **الجزائر** الشيخ **سعيد قدُّورة** الذي تولَّى الإفتاء المالكي بالجزائر حوالي 1028هـ ـ تقدَّم لنا ذكره ـ عند زيارته لنواحي الجنوب واجتماعِه بـ: **سيدي الشيخ** في **فجيج**، فطرحَ عليه أسئِلةً في المواضيع التي انتقدَه فيها **أبو محلي**، فأجابَه عنها بالنَّفي، ويظهر أنَّ **سعيد قدُّورة** اقتنعَ بِجواب **سيدي الشيخ**.

كان مِن جملة منتقدي **سيدي الشيخ** مِن علماء الشَّمال الذين شاركوا في المعركة الشَّيخ **المشرَفي المعسكري**، والشَّيخ **محمَّد بن علي المجَّاجي** صاحب **معهد مجاجة** الذي كان مِن جملة خرِّيجيه **سعيد قدُّورة**.

---

(1) كذا في الأصل !. (ع)

انتهت هذه الثَّورة بعد موتِ صاحبيها **سيدي الشَّيخ** وصِهره **أبي محلي** بقليل، حيث زار المنطقة إذ ذاك العالم **أبو سالم العياشي** صاحب (**الرحلة**)، فلم يجِد لها أثرا، وكان تعرَّفَ بولدِ **سيدي الشيخ أبي حفص** وأثنَى عليه وعلى والدِه، وذكرَ أنَّ هذه الأسرة لها سُمعة طيِّبة في كامل بلاد الصَّحراء، وترجمَ الشَّيخ **أبا حفصٍ** ترجمةً وافية، إذ اجتمعَ به مِرارا في رِحلاتِه المتعدِّدة إلى الحجِّ.

إلا أنَّ آثار هذه المعركة ردَّدها علماء البلاد خلفا عن سلف إلى عهدِنا هذا، والخلافُ لم يكُن في الميدان العقائدي فقط، بل كان له جانب سياسي، حيث إنَّ **أبا محلي** ثار على **زيدان** الملك السَّعدي [1]، واتَّهمه بموالاة البرتغاليِّين، وتسهيل احتلال **مرفأ العرائش** لهم، ولهذا أعلن الثورة عليه، واحتلَّ مدينتَي **سجلماسة** ثمَّ **مراكش**، ومات في بعض المعارك بـ: **مراكش** (رحمه الله)، وكان من جملة المشاركين في الحملة على **سيدي الشيخ** العلَّامة الشَّيخ **أبو القاسم بن عبد الجبار الفجيجي** (شيخ أبي محلي).

وهنا نقِفُ وَقفةً قصيرةً لنلفتَ انتباهَ القرَّاء بأنَّ ما سبق لنا ذكره عندما تحدثنا عن الدور الذي قام به في **الجزائر أحمد بن يوسف الراشدي** (دفين مليانة) في الميدان السياسي حيث اجتمع بـ: **عرُّوج** في **مرسى كرشتل** غرب مدينة **وهران**، وسهَّل له احتلال **الجزائر**، واعترفَ الأتراكُ لـ: **أحمد بن يوسف** بأياديه عليهم، فعيَّنوا أحد تلامذته المقرَّبين نقيبا للأشراف طيلة مدَّة حكمهم، كما كانوا يعيِّنون سنويا أحدَ أبنائه أميرا لركب الحجَّاج، ثمَّ بنَوا له مسجدا قُربَ ضريحه بـ: **مليانة**.

لعب **أحمد بن يوسف** هذا دورا آخر في الميدان العقائدي، إذ نشر طريقته الصوفية

---

(1) واتهم **سيدي الشيخ** بدوره أنَّه داعية لـ : **زيدان**، و**زيدان** هذا هو صاحب المكتبة التي حاول في تلك الظروف إنقاذها، فختم بها المطاف بمكتبة **الإسكوريال**، حيث لا زالت بقاياها إلى يومنا هذا.

المشهورة بـ: **اليوسفية** [1] شمالَ البلاد وجنوبها، ومن جملة ما خلَّده التاريخ منها زاوية أو معهد **بني عبد الجبار** بـ: **فجيج، ثمَّ معهد أحمد بن موسى بن خليفة الكرزازي**، بـ: **كرزاز** ـ بين **بشار** و**أدرار** ـ وزاوية الشيخ **سليمان** (جد **سيدي الشيخ**)، فهذه الزوايا الثلاثة تنتسِبُ للشَّيخ **أحمد بن يوسف الراشدي**، وكان هذا الاتصال في الميدان العقائدي له تأثير ملموس في الوحدة الثَّقافية بين الشمال والجنوب، وهي وحدة حقيقية لها جذورها ومكانتها في تاريخ البلاد، وقد تجلَّت لنا في التيارات التي اجتاحت البلاد، خصوصا في الفترة الانتقالية التي سبقَت العهد العثماني بحوالي نصف قرن، فالخلاف الذي وقع بين الشيخ **أبي محلي** وأستاذه **سيدي الشيخ** (دفين الأبيض) ردَّد صداه علماء بلاد الشمال، كما كان الخلاف الذي سبقه، وانقسم عالما **تمنطيط** ببلاد **توات**: القاضي **العصنوني**، والفقيه المرشد **[محمد بن] عبد الكريم المغيلي**، واشتَهر في كتب التاريخ بـ: **قضية يهود توات**، ساهم فيه علماء بلاد الشمال، كـ: الإمام **محمد بن يوسف السنوسي** مجدِّد علم التوحيد، وتلميذه [2] الحافظ **[محمد بن عبد الله بن] عبد الجليل التنسي**، والمفتي **أحمد بن زكري**، وغيرهم، بل شارك فيه أيضا علماء **تونس** و**فاس**، وبقيت تلك القضية مستمِرَّة يثيرها العلماء خلفا عن سلف، ثمَّ وصَلنا كتابُ: **(القول البسيط في أخبار تمنطيط)** ذكر فيه مؤلِّفه تاريخ تأسيس مدينة **تمنطيط** [3] العاصمة القديمة لبلاد **توات** التي كانت منطلقا للخلاف الذي وقع بين قاضيها **العصنوني** ومُواطنه **[محمد بن] عبد الكريم المغيلي**، إذ كلاهما مِن **تلمسان** ولجآ إلى **تمنطيط**، كما تعرَّض لذلك

---

(1) وقد ظهر في أتباعها غُلاة إباحيون اتُّهموا بالزندقة، وتبرَّأ الشَّيخُ منهم، وقال: « مَن قال عنَّا ما لم نقله، ابتلاه الله بالعِلَّة والقِلَّة، والموت على غير مِلَّة ».

(2) لم يكن تلميذا له، وإنَّما كان مِن أقرانِه. (ع)

(3) قيل: إنَّه أسَّسها بقايا الَّلمتونيِّين المرابطين بعد ما أطاح بِدَولتهم الموحِّدون.

مؤلِّف [1] كتاب (**البسيط**) السَّابق الذِّكر إلى سرد قائمة سكَّان **تمنطيط** الَّلاجِئين مِن مختلف بلاد الشمال، فذكر أنَّ أسرته لجأت مِن قبيلة **بني منيار** (الجعافرة) قرب مدينة **سعيدة**.

كلُّ هذا يدلُّنا دلالةً واضحة على الرَّوابط المتينة التي كانت تجمعُ سكَّانَ المناطق الجنوبية بالمناطق الشمالية، وإن وجدنا قضية يهود **توات** نشِرت بتفاصيلها في كتاب: (**المعيار**) لـ: **الونشريسي**، ولا يخلو تأليف مِن تآليف التراجم من ذِكرها، فإِنَّ كتاب (**البسيط في أخبار تمنطيط**)، بقيَ مغمورا إلى ما بعدَ استقلال الجزائر ـ أي: بعد 1962م ـ وأخيرا ـ أي: منذ سنتَين ـ جعلَه أحدُ الأساتذة مَوضوعا لأطروحة قدَّمها لـ: **جامعة الجزائر**، لنيلِ شهادة الدكتورة فيما بلغَني، وهو كتابٌ نفيسٌ جدًّا رغم صِغَر حجمِه، ومصدرٌ جوهري لا نَظير له في موضوع دِراستِه: (**الرَّوابط المتينة بين سكَّانِ الجنوب والشَّمال عبر العصور**).

هذه في الجملة لقطات مُبعثَرة مِن دراستِنا: (**جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني**)، ركَّزناها على بعض الوثائق الأَصيلة التي نسج عليها العنكبوت غَزلَه ببعضِ الخزائن الخاصَّة والعامة، اكتشِف جلُّها في السَّنوات الأخيرة.

ومما نُضيفه إلى هذا الفصل إلى التيارات الفكرية التي اجتاحت البلاد، ولم تُعطَ لها أهمية تَستحِقُّها: وثيقة أصيلة كتبها الشَّيخ **أحمد التجاني** مؤسِّس وناشر **الطريقة التجانية**، التي كان منطلقها مِن **عين ماضي** (قرب **مدينة الأغواط**)، ثمَّ مِن مدينة **فاس**، وانتشرت بِسرعة في جلِّ البلاد الإسلامية، وأثارت ضجَّةً في الأَوساط العِلمية، وكانت هذه الوثيقة، وهي عبارة عن رسالةٍ كتبها مؤسِّس الطريقة الشَّيخ **أحمد التجاني** إلى زَميله في أيام الدِّراسة بـ: **فاس** ـ حسبما يظهر ـ الشَّيخ **محمد بن عبد الله الجلَّالي المعسكري** عندَما كان **الجلَّالي** مُديرا للمدرسة

(1) وهو محمد بن الحاج عبد الرحيم.

المحمَّدية التي أَنشأها بِمُعسكَر **الباي محمد بن عثمان** فاتح وهران سنة 1206هـ، وكان **الجلَّالي** المذكور رئيس مجلس الشُّورى عند **الباي** المذكور، وهو الذي كلِّف برياسة الرِّباط الذي مهَّد به **الباي** فتحَ المدينة، ولم ندر هل كان إرسال الكتاب مِن الشيخ **أحمد التجاني** إلى **محمد بن عبد الله الجلَّالي** مجرَّد أخبار جمعت بينَهما الصَّداقة أيام الطَّلب؟ أم استئذان وطلب رُخصة رسمية لـ: **الجلَّالي** بصفته رئيس مجلس الشورى ببلاط **الباي محمد بن عثمان** الذي كانت علاقِه متوتِّرة مع الشَّيخ **أحمد التجاني**؟

وهنا نطرح سؤالا ثانيا: هل كان غزو **الباي محمد بن عثمان** لـ: **زاوية الشِّيخ أحمد التجاني** بـ: **عين ماضي**؟.

الجزء الثاني

وهذه الغزوة هي التي حرَّرها الشَّيخُ **أحمد بن هطال التلمساني** (كاتب الباي **محمد بن عثمان**)، واشتهَرت بـ: **(رحلة الباي محمد بن عثمان)**، حقَّقها ونشرها الدكتور **محمد بن عبد الكريم الزَّموري الجزائري**، طبع **الشركة الوطنية للنشر والتوزيع** بالجزائر، ونشرُ هذه الوثيقة يُفيدنا أنَّ علماء الجزائر لم يكونوا كما أراد تَصويرهم بعض الباحثين: جامدين، خرافيِّين، بل ومُشركين... الخ، بمجرَّد انتمائِهم إلى طريقةٍ مِن الطرق أَو زيارة بعض الأضرحة، فنراهم بالعكس مِن ذلك، كانوا أتقياء بررة لا يُقدِمون على شيء إلا بعد التَّروِّي والبحث والاستقصاء، إذ بمجرَّد اتِّصال الشيخ **محمد بن عبد الله الجلَّالي** بالرسالة كلَّف تلميذه الشيخ **يخلف بن حواء** [1] الذي حضر في بيعة الأمير عبد القادر الثانية بمسجد المبايعة سنة 1248 هـ بجواب الشيخ **التجاني** وحذَّره ـ في قالب النُّصح ـ مما عسى أن تحدثه هذه الرِّسالة عند علماء البلاد الذين لم يُخفوا امتعاضهم واستنكارهم لبعض فقراتها تتبين من قراءتها، وعلى كل حال إن الأدوار التي لعبتها الطرق الصوفية لم تكن كما تصورها البعض بأنها كلها سلبية، بل نجد لها آثارا في تاريخ البلاد، وبالخصوص في العهد العثماني حيث كانت بعض الطرق هي التي أطاحت بالحكم العثماني في **الجزائر**[2] أما **الطريقة التجانية** فقد حاربت العثمانيِّين وقُتِل أحد قادتها ومشايخها بـ: **معسكر** في عهد آخر باي للقطاع الغربي، قبل الاحتلال الفرنسي مباشرة، وقد اطَّلعنا على وثيقة هامة أصيلة تبيِّن لنا أسباب ثورة **محمد بن أحمد التِّجاني على باي**

---

(1) سيأتي قريبا أنَّ اسمَه: **محمَّد بن حوَّاء بن يخلف**. (ع)

(2) وهي **الطريقة الدَّرقاوية** التي قاد ثورتها الشيخ **عبد القادر بن الشريف**، وذكر مراحلها **محمد بن يوسف الزياني** في تأليفه: **(دليل الحيران وأنيس السَّهران في أخبار مدينة وهران)**.

وهران، كتبها **الأمير عبد القادر** عندما بلغه الخبَر وهو في **مكَّة المكرمة** رفقةَ والده قبلَ مُبايعتِه، كما نثبتُ في هذه الدراسة رسالة كتبها **الأمير عبد القادر** لأحد معارفه [حين] لامه وانتقده على محاربته **للتجانية** ومحاصرته لهم بـ: **عين ماضي،** وهذه الوثيقة أيضا لها أهميتها إذ لم يسبق نشرها، وهي زيادة على اختصاصها بالطريقة التجانية تعطينا صورة مصغرة عن الخلافات التي كانت تصبغ بها هذه التِّيارات في مختلف العصور، والتي مرجعها كما ذكرنا مرارا إلى الخلافات بين السلفيِّين والمتصوِّفة وهذا نصَّها:

«الحمد لله، مِن عبد الله سبحانه **محمد بن حواء بن يخلف** إلى أخينا في الله وحِبِّنا مِن أجله السيد **أحمد التجاني،** السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أمَّا بعد:

فقد وردَعلينا كتابك الذي كتبته للسيد **محمد بن عبد الله الجلَّالي،** فتصفَّحناه وقرأناه، وعرفنا مَعناه، وفهِمنا عبارتَه وإشارته، غير أنَّنا تحيَّرنا في قولك: مِن آخر عصر الصحابة إلى يوم ينفخ في الصُّور ما قاربني ولي مِن أولياء الله فيما أعطاني الله مِن اتِّساع العلم، إلى أن قلت: وذلك لا يدلُّ على التَّفضيل، واحْتَججت بما يدفع عنك دعوَى التفضيل، وأتيت بدليل ينفي عنك ذلك، ويثبت لك غير ما هنالك، مِن كثرة العلم والرُّسوخ فيه، ونقص الرغبة في المكانة والتفضيل، فأوقعتَ الناس في أمرٍ هائل، وجدل طائل، ومعارضة في الكلام ومخالفة فيه، حتى وجد المعترِضُ فُسحةً وفُرصةً للاعتراض، ولا يدري المجيب بماذا يجيب، لا سيما مَن يحبُّك مِن الإخوان، فقد انبهم عليهم الأَمر، وضاق منهم الصَّدر، وليس ذلك مِن أجل أنه محالٌ عقلا، بل مِن أجلِ أنَّهم لم يجِدوا دليلا يدلُّ على صدق الدَّعوى، فبقوا أبدا في دهش وحيرة، وأمَّا المعترض فقد وجدَ السَّبيلَ إلى الاعتراض رَحبا، وضيق على مَن يلتمس المعاذير شرقا وغربا، ووجد الماء الزلال فعبَّه عبًّا، وكل مَن سمعه يقول حُقَّ له أن يذبَّ عَن جميع أولياء هذه الأمة ذبًّا، وربما نسب القائل إلى الكذب وسبَّه سبًّا، ولما كان كذلك كتبت إليك أيها

المحبّ هذا الكتاب، لتُخبرني بِمُرادك ومقصودك بهذا العلم الذي فُقت به جميع أولياء هذه الأمة، حتى **أويس القرني**، و**محمد الباقر**، و**جعفر الصادق**، و**موسى الكاظم**، وغير ذلك مِن أولاد **الحسين بن علي**، وأولاد **الحسن** الذِين آخِرهم **محمَّد الفاطمي** المخبَر بإِتيانه في آخِر الزَّمان، إلى غير ذلك مِن أقطابِ هذه الأمة ونُجبائها، وأبدالها وأوتادها ومجتهديها، كـ: **مالك**، و**الشافعي**، و**أبي حنيفة**، و**أحمد بن حنبل**، و**سفيان الثوري**، و**إسحاق بن راهويه**، و**الأوزاعي**، وغيرهم من المجتهدين، هل هو علم المعارف والحقائق الباطنة والتوجه الخاص الذي انفرد [به] أهل التجريد والتفريد والذوق الكشفي؟ أو هو علم الأحكام الظاهرة التي يُعرف بها الحلال والحرام، وصحة الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، والزكاة والنكاح والبيوع، وغير ذلك من الأحكام التي تدخل تحت علم الظاهر ؟ أو المراد العلمان معا ؟ فبيِّن لنا يرحمك الله ما مرادك بهذا العلم ؟ فقد مسَّت الحاجة إلى بيانه، فإن قلت بالأول، يقول لك قائلٌ: الزيادة في المعارف الوَهبية والفتوحات الكشفية، والمحادثة والمكالمة القلبية بعد المشاركة في العلم الظاهر والعمل به تقتضي التفضيل، على أن التفضيل إنما يكون بالمعارف والاستغراق في التوحيد الخاص بعد المشاركة في علمِ المعاملة، وإن أردتَ الثاني فقط ـ وهو علم الظاهر ـ نَقول لك: على أيِّ مذهبٍ أنت الآن؟ فإن قلتَ: على مذهب الإمام **مالك** مثلا، نَقول لك: لم يقارِب درجتَك في العلم، فلِمَ تقلِّده وأنتَ أكثر منه علما، بل يليق بك أن تجتهدَ وتترك اجتهادَه إلا على سبيل الاتفاق، ولا يصحُّ لك أن تقول ـ على سبيل التَّمنُّع ـ: لم أُرد بذلك أربابَ المذاهب، لأنه لا يساعدك أحد على أنهم ليسوا بأولياء، وإن قلتَ بالثالث ـ وهو علم الظاهر والباطن معا، وأنك جمعتَ بينهما جميعا على أكمل الأمر ـ فهذه مرتبة للقطبانية والشيخوخة الكامِلة، لكن القطبانية لها شروط وعلامات يقصر عن دركها الفَهم، ولا يحيط بها الوَهم، وجلبُ ذلك وتتبعُ أقاويل القوم فيه يطول، فإن قلت: وأنا بفضل الله وجُودِه مِن أهل هذه المرتبة، يقال: إن القطب هو

الذي يحل المشكلات والمعضلات، ويشرح الكلمات التي حارت فيها عقول كثير من الخواص فضلا عن العوام، وبيّن مراتبَ الواجدين الذائِقين كم هي؟ وما وجه الفناء فيها ؟ وما تفسير الألفاظ الدالة عليها ؟ كقول قائلهم: فعلمٌ ثمَّ وَجدٌ ثمَّ رَمسٌ وحدسٌ ثمَّ نُطقٌ ثم خرس، وأخذٌ ثم ردٌّ ثم حَدبٌ ووصف، ثمَّ كشفٌ ثم لَبسٌ وقَبض ثم بسط، ثم محوٌ وفرقٌ ثم جمع، ثم طمس، بل وتبين أكثر من ذلك كمسألة ملك الملك، وكقول الشيخ **محيي الدين بن العربي الحاتمي**: إن الأعيان الثابتة في حضرة العلم أعطت العلم لله باستعدادها، وإن العلم تابع للمعلوم، وكقوله في قيام الحجة على العبد العاصي: إنَّما هي سابقة العلم بذلك، واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ (آل عمران: 117)، وكقوله فيما حكاه عن **سهل بن عبد الله التستري** أنه ظهر له الشيطان فقال له: يا سهل، لم لا يدخلني في قوله تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ (الأعراف: 156)، مع أن شيئا هو أنكرُ النكرات؟ فقال له **سهل**: يا شيطان، قد قيَّد الله ذلك بقوله: ﴿**فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ**﴾ (الأعراف: 156) الخ الآية، فقال له الشيطان: ما كنتُ أظنُّ أن يبلغَ بك الجهلُ إلى هذا، فقال له **سهل**: وكيف ذلك؟ قال: لأنَّ التَّقييد وصفك لا وصف الحقِّ تعالى، فقال **سهل**: والله ما أدري ما أقول، فسلَّم الشيخ **محيي الدين** ذلك لإبليس، وقال: هذه مشيخة لإبليس على سهل، أو كما قال، ثم قال: ما كنتُ أظنُّ أن يبلغ إبليس هذه المرتبة في العلم، أو كما قال.

فالعجب كل العجب ـ يا أخي ـ كيف سلَّم له ذلك الإِطلاق، وقيَّد الله ذلك بقوله: ﴿**فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ**﴾ ويؤتون الزكاة... الخ، والله الموفِّق للصواب، إلى غير ذلك مِن الأمور التي يَعجِز عنها القطب لأنَّه خليفة، والخليفة لابدَّ أن يعلمَ الأسماءَ والصِّفات، وأحكامَها ومُقتضياتها، وأنَّها مَصادر الأَفعال، بل يعلم علومًا غريبةً تذهلُ

فيها العقول، وتدهش فيها الفحول، ويردُّها قبل النَّظرِ الصَّحيح في مأخذِها المعقول والمنقول، وقد وقعَ ـ يا أخي ـ لأَولياءِ هذه الأمة العَجب العُجاب مِن العلوم الَّلدُنية، والمواهِب الرَّبانية، والكشوفات الواضحات البيِّنة، والإِخبارات الغَيبية واللطائف، والأَسرار القُدسية التي بلغَت حدَّ التَّواتر، حتى نقلَ عنهم المحقِّقون غَرائب وعجائب، وحِكاياتٍ يقصر عنها الحدُّ ولا يحيط بها العدّ.

حُكِي عَن الشيخ **عبد القادر الجيلاني** (نفعنا الله ببركته، وأفاض علينا مِن أنواره) أنه تكلَّم على الناس في مجلسِ الإفادة نحو العِشرين سنة بعلمٍ وَهبي جديد، مُوافق للكتاب والسُّنة، وأمَّا أخباره وأحواله وكراماته، فلا تَسل عَن البحر المحيط، بل احذَر أن تَغرق سفينتُك فيه، وكذلك غيره مِن أهلِ الحضرة القُدسية، الرَّاسخين في العلم الظاهر والباطن، الذين شَهِدَ الله لهم بالرُّسوخ في العلم، فقال: ﴿**وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا**﴾ (آل عمران: 7) ، وقد جاءوا بعلم ودقيقه رقيقه تكاد مِن شدَّة خفائها أَلَّا تدخلَ تحت العبارات، ولا توصل إليها الإشارات تذاق، فتعلم لا تعلم فتذاق، لكن يصل إليها من أراد الله أن يوصله إليها بسبب الأشياخ الكمَّل، هذا **ابن عبد الله التستري** يقول: أعرف تلامذتي من يوم ﴿**أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ**﴾ (الأعراف: 172)، ولم تزل طينة ترسم في الأصلاب حتى وصلوا إلى هذا الزمان، هذا الشيخ **محيي الدين ابن العربي** يقول: إنه ليس وراء الله مرقى، وما وراءك أيضا مرمى، لأنك معلوم علمه تعالى، وبك كمل الوجود، فهو حسبك،كما أنك حسبه، ولهذا كنت آخر موجود وأول مقصود، ولولا عدمك ما كنت مقصودا فصحَّ حدوثك، ولولا ما كان علمك به معلوما ما صحَّ أن تريد العلم به، وهذا من أعجب ما في الوجود وإشكاله على العقول، فكيف يكون من أعطاك العلم بنفسه لا يعلم نفسه إلا بك، فإن الممكنات أعطت الحق تعالى العلم بنفسها، ولا يعلم شيءٌ منها نفسَه إلا بالحق تعالى، فلهذا قلنا

إن الوجود حسبك، كما أنك حسبه، لأنه الغاية التي إليها ينتهي، وما ثمّ بعده إلا أنت ومنك علمك وما بقي بعدك إلا المحال وهو العدم المحض » اهـ.

وهذا فلان وهذا فلان وهذا فلان، إلى أن يقصُر اللسان عن التعبير عن العلوم التي أفاضها الله (الحق) تعالى على قلوبهم، وما رقموا منها في كتبهم إلا القليل، فكيف بالذي لم يكتبوه وشاهد منهم، لأنه لو سئل الواحد منهم عن مسألة واحدة غريبة لأجاب عنها ارتجالا مِن غير أن يأتي بِنُقول، ولو انتهى إلى تحصيل أجوبة كثيرة، فلا يعجز عن ذلك ولا يترك إلا أن يريد الرفق بالسائل، أو يخاف من أشياء (بياض بالأصل) الربوبية وهذا من أدل الدليل على أن ذلك فيض إلهي لا مدخل للعقل فيه، وهذا هو الفرق بين المفتوح والمفتوح له، لأن هذا الأخير لا يجيب إلا بالنقل، بخلاف الأول فإن علمه لَدُنِّيٌّ.

وحاصل الأمر أيها السيد أنِّي ما ذكرتُ لك هذا الأمر إلا لتخبرني: أين أنتَ مِن هؤلاء الأَقطاب الكِبار، والأَحبار الربانيِّين، والرِّجال العارفين، والهياكل الصَّمدانيِّين، والأشياخ المربِّين، والأساتيذ المحقِّقين، الكامِلين المكمَّلين، الطَّاهرين المطهَّرين، الفانين في الأَفعال والصِّفات والذَّات على تَرتيب مَراتب الفناء، وقد أورثهم الشَّراب علوم غيب تجِلُّ أن تُرقَم، وتكتب في مكتوب؟

أفِدني يَرحمك الله بنَموذج مِن علمهِم الذي لم يُقارِبوك فيه على تَظاهرهم وكثرة عددِهم ؟ واشرح تصلية الشَّيخ **عبد القادر الجيلاني**، وهي هذه: اللهمَّ صلِّ وسلِّم على طَلعة الذَّاتِ المطلسم، والغَيثِ المطمطم، والكمال المكتَّم، لاهوت الجمال، وناسوت الوصال، وطلعة الحقِّ، كنز إنسان عين الأَزل في نشر طي مَن لم يزل، من أقمت به نواسيت الفراق في قاب ناسوت الوصال الأقرب إلى طرق الحق، فصلِّ اللهمَّ به منه فيه عليه وسلِّم تسليما» اهـ.

نشرنا هذه الرسالة التي أجاب بها الشيخ **محمد بن عبد الله الجلَّالي** (رئيس المجلس العلمي) بـ: **معسكر** في عهد **الباي محمد بن عثمان** (فاتح وهران) سنة1206هـ، بواسطة تلميذه الشيخ **محمد بن يخلف ابن حواء** زميل الشيخ **أحمد التجاني**، إذ هي وثيقة أصيلة هامَّة، تبيِّن لنا مرحلةً مِن مراحل تطوُّر الحياة الثقافية التي كما سبقت لنا الإشارة إليها في هذه الدِّراسة مِرارا أنَّ الثقافة كانت في ذلك العهد، بل وحتى في العهود الإسلامية قبلَ العهد العثماني ببلادنا تتركَّز على الدِّين، وقد أثبتَ لنا التاريخُ الصِّراعَ المستمِرَّ في بلاد المغرب العربي في عهد العُبيديِّين والفقهاء المالكيِّين، ثم الصَّراعَ بين الفقهاء المالكيِّين والموحِّدين في **الأندلس**، ثم في **بجاية** .

وقد تطوَّر هذا الصِّراع بالمغرب والمشرق، واكتسى صبغة جعلت طائفة تنتصر للسلفية، وأخرى للمتصوفين، وكان كثيرا ما يعزِّز الفقهاء المالكيون السلفيِّين، فإن هذه الرسالة تمتاز، بأن صاحبها صرح فيها تصريحا جليا لربما كان غيره يتركونه لتلامذتهم حتى يمكنهم إنكاره عند الحاجة، ومن ناحية أخرى نجد أهمية الرسالة التي أحدثت رد فعل في أوساط علماء **معسكر** (العاصمة السياسية والثقافية) بالغرب الجزائري إذ ذاك، وقفوا موقفا مشرفا مع الشيخ **التجاني**، فإنهم لم يتسرعوا بإصدار أحكامهم عليه بمجرد إطلاعهم على فحوى الرسالة، بل ناقشوه الحساب وأمهلوه للتروِّي، فيما أوردوه عليه من الاستفسارات حتى يمكنه إعادة النظر فيما صدر منه، والشيخ **محمد بن عبد الله الجلَّالي** من أبرز علماء عهده، ونظرا للخطة التي اتخذناها في هذه الدراسة، وهي إعطاء الأولوية والتقديم للوثائق الأصيلة، فإننا ننشر إجازةً مِن إجازاته العلمية التي أجاز بها أحد كبار علماء عهده وهذا نصها:

«الحمد لله وحده، حمدا لا ينبغي لأحد سواه، تتجلى عاجزة عن القيام به الأذهان والأفواه، والصلاة والسلام على أفضل من آتاه هديَه وتقواه، وعلى آله الكرام الأطهار،

وصحابته الأعلام الأخيار، وأتباعه أفضل الأنام والأَخيار، صلاة وسلاما دائمين متلازمين ما بقي العلم دليلا لأهل الإسلام والأنوار.

أما بعد، لما كان العلم أشرف المكاسب، وأفضل المناصب، وأرفع المطالب، والغاية القصوى لكل طالب، وصاحبُه دائما إما راغب أو راهب، متعرض أبدا للخيرات والمواهب، لا يعطى إلا للسعداء، ولا يحرم منه إلا البُعداء، لا يرغب فيه إلا سعيد، ولا يعرض عنه إلا شقي عنيد، فهو المفيد لكلِّ مستفيد، في القديم والجديد، وهو الرافع لكل خامل، الراد لكل معاند، المشرِّف للأسافل، الخافض للخلو منه[عن] قدر أبناء الأفاضل، والجاعل للموالي موالي، في هذه العصور والعصور الخوالي، وأصحابه هم أهلُ الدَّرجات العوالي، والنفوس ذوات القيم الغوالي، لا يُعرض عنه إلا الجهال، ولا يرغب عنه إلا الضلال، ولا يرغب فيه إلا أهل الله الأبدال، ولم يقل الله تعالى لنبيِّه (عليه الصلاة والسلام): ﴿رَّبِّ زِدۡنِي﴾ في شيء إلَّا فيه، قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا﴾ (طه: 114)، ﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًا﴾ (الأنبياء: 79)، والعلماء عبيد من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، أهل التقوى والخشية، ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: 28)، وهم أهل الشهادة والتوحيد مع الله تعالى والملائكة، ولم يُشهِد غيرَهم معهم قط، ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾ (آل عمران: 18)، وهم الرافلون في ثياب الولاية، عند الناس وذوي الولاية، كما أخبر بذلك من له وصف الولاية، وهم أفضل المجاهدين، وأفضل المرابطين والمهتدين، وأفضل العابدين والذاكرين، وأشرف القانتين الشاكرين، فكل من زهد في العلم واشتغل بغيره، فهو مفضول، بل هالك وعمله ليس بسالم، بل فعلوا (بياض بالأصل) وإلى الأفهام.

أما بعد، فإن العالم النجيب، الحاذق الزكي اللبيب، الآخذ مِن كلِّ علمٍ بِنصيب، السيد **عبد القادر بن عبد الله الراشدي المعسكري** [1] أحد أولاد الشَّيخ البركة المزارة أبي زيد السيد **عبد الرحمن** المشهور بـ: **دحو**[2]، القاطن بـ: **جبل ابن راشد،** المشهور فيما مضى بـ: **جبل الذَّهب،** وأما الآن، فيقال له: **راس الماء،** ويقال له: **جبل معسكر،** ثم الوهراني الدار والاستقرار، ولما اقتدى بالسلف، وعمل بما عمل به الخلف، فأصاب وما تلف، سألني الإجازة كما أجازني شيوخنا الفاسيون، كـ: السيد **محمد جسوس،** والسيد **التاودي ابن سودة،** والسيد **محمد بناني،** والسيد **عبد الله السُّوسي،** والسيد **عمر الفاسي،** والسيد **إدريس العراقي الحسيني،** ومولاي **عبد الرحمن بن إدريس،** وغيرهم.

ومن أهل **تلمسان** السيد **محمد بن عبد الرحمن اليبدري،** والسيد **محمد بن للو،** والسيد **الداودي الفروي،** والسيد **الطالب.**

ومن أهل **تونس** الشيخ **الغزلاني،** ومن أهل **مصر** الشيخ **الدمنهوري** والشيخ **محمود** الكردي، وبـ: **المدينة** الشيخ **السَّمان،** ممن لقيناهم بالشَّيخ **الأمير،** وغيرهم، بعد أن جالسنا [في] **(ألفية ابن مالك)** مجالس عديدة وسلك معنا في المسائل الكثيرة أحسن المسالك، وظهرت نجابته فيما هنالك، فأجزته في الفقه والنحو والكلام موصيا له بتقوى الله تعالى في السر والعلانية، وأن يقول فيما يدري ورعاً لا أدري، ورفع الهمة وحفظ الحرمة، وأن يدعو لنا بعد دعائه لنفسه، كما أوصانا أشياخنا بذلك، والأعمال بالنيات والله تعالى يصلح السرائر والنيات ويُصلح للجميع الحال في الحال والمآل، ويرزقنا التوفيق إلى سواء الطريق بمنِّه، آمين، والسلام.

---

(1) **عبد القادر بن عبد الله الراشدي:** أخذ عن الشيخ **مرتضى الزبيدي** وغيره، وله عدَّة تآليف وفهارس، واستغاثة، وهو مِن مشايخ **أبي راس** المؤرِّخ.

(2) **عبد الرحمن:** المشهور بـ : دحُّو، هو الذي خصَّصه تلميذه بالتأليف المسمَّى: **(العقد النفيس في بيان علماء وأشراف غريس)**، ضمَّنه العلماء الذين كانوا في عهده، وهو من التآليف القيِّمة.

قاله ـ وكتبه سواه ـ جمادى الأخيرة مِن السنة الخامسة عشر من الثالث عشر ومائتين وألف **محمد بن عبد الله بن محمد الموفق ابن محمد**، المشهور بـ: **بغدرد، ابن عبد الرحمن بن محمد الموفق** الملقب بـ: **الحَفَا، ابن محمد بن محمد أبي جلال**، كان الله له وللمؤمنين في سائر الأحوال وعافانا من الأهوال في الحال والمآل، آمين.

يا ذا الإكرام والجلال، والفضل والجمال، فالاعتماد عليك والاتكال، سبحانك اللهم وبحمدك، سبحان ربِّك ربِّ العزة عما يصفون، وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله رب العالمين. **محمد بن عبد الله الجلَّالي** » اهـ.

هذا النوع مِن الإجازات له أهمية في موضوع دراستنا: **(تاريخ الحياة الثقافية)**، حيث إنه يصوِّر لنا مناخ المحيط الثقافي في عهد المجيزين، والمستوى الثقافي للمجاز، ثم التوجيه للتلميذ، زيادة على المستوى الثقافي للمجيز وللمعاهد التي تخرج منها، والتي كانت تتجلَّى فيها الرابطة الثقافية في أبهى صورها التي تربط بين بلاد المغرب العربي وبلاد المشرق، وإن هذه الإِجازات تختلف عن بعضها البعض، فمنها ما يركِّزها أصحابها على الفنون ويتتبع أسانيده فيها إلى مؤلفيها، ومنهم من يقتصر على الفنون التي حضرها التلميذ على المجيز، ومنها ما هو خاص برواية الحديث، وكثيرا ما يتعرَّض المجيز إلى انطباعاته عَن تلميذه المجاز.

ولما كان مِن الصَّعب تتبُّع هذه الجوائز وأصنافها، نكتفي بذكر نماذج منها خصوصا في العهد العثماني موضوع دراستنا.

ونضيف إلى إجازة الشيخ **محمد بن عبد الله الجلَّالي** بـ: **أم عسكر** (عاصمة القطاع الغربي) بالجزائر إجازة العلامة الشيخ **الحسن بن مصباح** بـ: **معهد بني يعلى العجيسي، بـ: وادي بجاية،** أجاز بها أحد أقاربه، وهو الشيخ **العربي بن مصباح** ذكرها في تأليفٍ مِن تآليفه، وقد أشرنا إلى هذه المعاهد عند ذكرنا للاحتلال الأسباني الذي سقطت من

جرَّائه مدينة **وهران** ثم **بجاية**، وانتقل علماء **بجاية** الذين كان معظمهم من اللاجئين الأندلسيين، وأسَّسوا معاهد، كـ: **معهد عبد الرحمن اليلولي** بـ: **بني يجر**، و**معهد سيدي موسى** بـ: **بني وغليس** و**معهد بني يتورغ**، و**معهد المقراني** بـ: **أَمَعْدَن**، قرب مدينة **القصر**، و**معهد زرخفاوة** بـ: **بني غبرين**، و**معهد شلاطة** الذي خصَّصه الشيخ **العربي بن مصباح** بتأليف.

وفي هذا التأليف أثبتَ الإِجازة التي أجازه بها عمُّه **الحسن بن مصباح**، صاحب **معهد بني يعلى العجيسي**، إذ كان أعظم معهد بتلك الناحية، وفي ذلك قال **العربي بن مصباح**: «وقد أجازني شيخي ومولاي علاَّمة الدنيا على الإطلاق، الشهير علمه وعدله في كلِّ الآفاق، **أبو أحمد** سيدي **الحسن بن أحمد زروق بن مصباح**، حشرني الله معهم في زمرة أهل الصلاح، من علم الحديث بـ: (**صحيحي البخاري ومسلم**)، وغيرهما مِن الكتب السِّتَّة، ومن علم التفسير بـ (**ابن عطية**) و(**البيضاوي**)، و(**ابن الجوزي**)، و(**الجلالين**) و(**الجواهر الحسان**)، وغير ذلك، ومن علم الفقه بـ (**مختصر الشيخ خليل**) وشرَّاحه وحواشيه، و(**الرِّسالة**) وشرَّاحها، و(**مختصر ابن الحاجب**)، وغير ذلك، ومن علم الكلام بـ (**المقاصد**) وشرحها للسَّعد التفتزاني، و(**العقائد النَّسفية**) وشرحها له أيضا، و(**أم البراهين**) وشرحها لمؤلِّفها، وحاشيتَي الشيخ **عيسى السكتاني**، والشيخ **يحيى الشاوي** عليها، و(**الكبرى**)، و(**الوسطى**)، وغيرها مِن مؤلَّفات **السَّنوسي**، و(**الجوهرة**) للَّقاني وشرحيها الكبير والصغير لناظِمها المذكور، ومن علم النحو (**الكافية**)، و(**التسهيل**)، وغيرهما مِن مؤلَّفات ابن مالك، و(**الشذور**)، و(**قطر النَّدى**)، و(**المغني**)، و(**قواعد الإعراب**)، وغيرها مِن مؤلَّفات **ابن هشام** الأنصاري، و(**التصريح**)، و(**الأزهرية**)، وجميع مؤلَّفات الشيخ **خالد الأزهري**، ومن علم التصوُّف بـ: كتب **ابن عطاء الله**، وتآليف **القشيري**، والشَّيخ **زروق**، و(**الإحياء**) للغزالي، ومن علم الأصول بـ: (**جمع الجوامع**) وشروحه، ومن علم البيان بـ: (**التلخيص**) وشرَّاحه،

و(**الجوهر المكنون**)، ومن المصطلح[1] بـ: (**ألفية العراقي**) وشروحها، وابن **سيد الناس**، وغير ذلك مِن صرف، ومنطق، وحساب، وفلك، وفرائض، وعروض، وقراءات، ودلائل الخيرات، وأحزاب **الشاذلي**، و**النووي**، و(**الوظيفة الزروقية**)، و(**نظم الدِّمياطي**)، و(**البردة**)، و(**الهمزية**)، و(**المنفرجة**)، وغير ذلك مما هو مرسوم في ثبته الذي أجازنا به (رحمه الله)، وقد مدحته بقصائد ورثيته بعد موته بأخرى» اهـ.

وقبل أن ننتقلَ إلى تتمَّة الحديثِ عن التأليف الذي خصَّصه صاحبه لوصفِ الحياة الثقافية بالقطاع الشرقي، [نستعرض الوقائع] التي نجَمت عَن احتلال **الإسبان** لـ: **بجاية ثم تونس**، وكانت شهادة صاحبه شهادة عيان، حيث لعبت أسرته دورا عظيما عِندما تعرَّض الملك **الحسن الحفصي** لدخول العثمانيِّين بـ: **تونس** وبـ: **قسنطينة**، واستعان على إخراجهم مِن **تونس** بالطاغية الإسباني **شارلكان**، كما تقدَّمت الإشارة إلى ذلك، وكان والي **الحسن** (كذا) بمدينة **قسنطينة** تعرَّض هو الآخر لدخول العثمانيين بـ: **قسنطينة**، فانقسم سكان **قسنطينة** إلى قسمين:

[1] **قسم** انتصر للملك الحفصي، وكان على رأسه شيخ الإسلام **ابن عبد المؤمن**.

[2] و**القسم الثاني** الذي انتصر للعثمانيِّين، كان يترأَّسه العالم الشهير **عبد الكريم بن الفكُّون**.

وكان صاحب التأليف الذي تعرَّض فيه للظروف التي احتلَّ فيها الإِسبانيُّون **تونس** بإعانة الملك **الحسن الحفصي**، ثم موقف أنصار الملك بمدينة **قسنطينة** الذين تعرَّضوا لاحتلال العثمانيِّين هو حفيد الشيخ **عبد الكريم بن الفكُّون** المنتصر للعثمانيِّين،

(1) كذا، والصواب: « ومن علم السِّير بـ: (**ألفية العراقي**) وشروحها، وابن سيد الناس، وغير ذلك مِن صَرفٍ ... »، كما في **الفصل الثاني**: التعريف بالكتب والمخطوطات، **كتاب توشيح طِراز الخِياطة بِشمائل شيخ شلَّاطة**، للشَيخ محمد العربي بن مصباح. (ع)

وبيت **ابن الفكُّون** كان من بيوتات العلم، الذي توارثوه طيلة قرون، فكان هذا التأليف المسمَّى بـ: **(منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية)** من أهم المصادر والوثائق الأصيلة، وهذا التأليف وإن كان معروفا إلا أنه كان في حكمِ المفقود، ولم يكتشف إلَّا بعد استقلال البلاد في بعض الخزائن الخاصة، سنتحدَّث عنه في ختام هذه الدراسة، وقد كانت سبقت الإشارة إلى أهمية دراسة الفقه في بلاد **الجزائر**، وقد أسسِّت له مدارس خاصة نالت شهرة واضطربت آراء المعاصرين فيها، فمنهم مَن كان يرى أن هذه المدارس، وبالخصوص المدرسة الفقهية التي أسِّست بـ: **مازونة**، وكتب لها الخلود إلى أوائل الحرب العالمية الثانية، كانت تقتصِر على دراسة **(مختصر خليل)**، وطلبته يلزمون بِحفظ متنه وقراءتِه جماعة، كقراءتهم للقرآن، وهم يجهلون القواعد العربية ويلحنون وما إلى ذلك، والحقيقة أن **مدرسة مازونة** نالت شهرة وتخرج منها فطاحل الفقهاء والعلماء، إلا أنها في أواخر العهد العثماني اقتصر كثيرٌ من فقهائها على تدريس **(مختصر خليل)**.

ولأهمية هذه المدرسة نخصِّص لها فصلا من فصول هذا التأليف، حيث إنَّ كثيرا ممَّن حاولوا الكتابة عنها أعوَزتهم المصادر، واختلَطت عليهم الوثائق الأصيلة بالوثائق المزيَّفة.

هذا، وإن كان موضوع الدِّراسة: **(جوانب من الحياة الثقافية في العهد العثماني)**، وقد تبوَّأت **مازونة** مكانةً علمية وسياسية في العهد العثماني، حيث اتُّخِذت قاعدةً وعاصمةً للقطاع الغربي بالجزائر بعدَما احتلَّ الإِسبان مدينة **وهران**، وقد لعبت دورا في الحياة الثقافية، وأنجبت علماء فطاحل تَركوا بصمات أصابعهم في التاريخ، فسنستَعرض في هذه الدِّراسة جوانبَ مِن تاريخها الثقافي كتوطئة لتاريخها في العهد العثماني، وإننا كما ذكرنا مِرارا وكرَّرناه، فالمقصود مِن هذا التأليف إعطاء الأولوية والأَسبقية لنشر الوثائق الأَصيلة، ولأهمية **مازونة** في تاريخ البلاد الثقافي والسياسي نَذكر نبذةً من تاريخها منذ

أسِّست واتُّخِذت عاصمة **مملكة بني منديل** المغراويِّين سنة 565هـ.

قال **ابن خلدون** في حديثه عَن **منديل بن عبد الرحمن المغراوي** مؤسِّس **مازونة** الذي لقي حتفَه في حروبه مع **بني غانية،** قال: «وانقبضوا إلى مركزهم الأول بـ: **شلف،** وأقاموا فيه مُلكا بدويا لم يفارقوا فيه الظعن والخيام والضَّواحي والبسائط، واستولوا على مدينة **مليانة** و**تنس** و**برشك** و**شرشال** مقيمين فيها للدَّعوة الحفصية، واختطوا قرية **مازونة**» اهـ .

ووَصْفُ **ابن خلدون** لـ: **مازونة** في أوائل عهدها، وإلا فإنها كانت عند قتل أميرها في حربه مع **ابن غانية** بـ: **وادي جرَّ** [1] مدينة **الجزائر**، وسهول **متيجة** تابعة لها.

ولنذكر أحد أعلامها نال مكانة وشهرة وترك آثارا علمية، كما ورثه أفراد أسرته أبا عن جدٍّ إلى أوائل عهد الاحتلال، وهذا العالم الذي يعد عميد الأسرة هو العلامة **أبو عمران موسى بن عيسى المازوني،** عرَّفه **أبو القاسم الحفناوي** في **(تعريف الخلف برجال السَّلف)**، فقال: «**أبو عمران موسى بن عيسى المازوني** عالم جليل، وعامل أصيل تمكن في السنة حتى لم يدع للبدعة مدخلا إلا سدَّه، ولا لأهلها مقفلا إلا قدّه، فهو في الدين طود شامخ، ذو مجد باذخ، عن أولياء الله مناضل، وفي سبيل الذب عن حماهم مقاتل» اه.

مِن آثار مترجمنا التاريخية الهامة، كتاب: **(ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار)**، وكتاب **(حلية المسافر وآدابه وشروط المسافر في ذهابه وإيابه)**، وهذان التأليفان جمع فيهما كثيرا من تراجم علماء بلدة **مازونة** وضواحيها، ابتداء من أوائل القرن السابع الهجري، وهذه الفترة من التاريخ، وإن لم يهملها المؤرِّخون أمثال **ابن خلدون** وغيره، إلا أن **أبا عمران موسى بن عيسى** مترجمنا كان له الفضل في ذكرها

---

(1) ثار **بنو غانية** على دولة الموحِّدين وفارقوا جزر **ميورقة** ونزلوا ببجاية سنة 581هـ، فذهب لقتالهم **عبد الرحمن بن منديل** (أمير مازونة)، فقتل في معركة بـ : **وادي جرّ** سنة 623هـ.

مفصَّلة، وتعرَّض في تراجم علمائها للأحداث السِّياسية التي عاشتها البلاد، ولها أهمية إذ شهِدت تلك الفترة انهيار **دولة الموحِّدين** المركزية والصِّراع بين الدُّول الثلاثة الذي ورثوها، وكانت دولة **مازونة** لها ارتباط بـ: **الدولة الحفصية** جرَّ لها انتقام **دولة بني زيان،** كما ظهر في الميدان أمير دولة **بني توجين** (أمير مملكة **ونشريس**) الناشئة الذي كان من أقارب الملك الحفصي، كان محور هذا الصِّراع بين الأمراء بسهول **مازونة،** وبالضبط بـ: **وادي ارهيو.**

كما ساهم **أبو عمران موسى بين عيسى المازوني** في الموسوعة الفقهية الخالدة التي ألَّفها ولده العلَّامة الذائع الصَّيت **أبو زكرياء يحيى بن موسى بن عيسى المغيلي المازوني** وسمَّاها: (**الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة**)، وهذه الموسوعة الفريدة في موضوعها ـ وإن أهملها الجزائريون ولم يقدِّروا قيمتها ـ فقد خلدها التاريخ حيث إن العلامة الفقيه **أحمد بن يحيى الونشريسي** ضمنها موسوعته: (**المعيار المعرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب**).

ولأهمية هذه الموسوعة ومؤلِّفها الشيخ **أبي زكريا يحيى بن موسى بن عيسى** التي لم تحظ بالنَّشر، إذ كلُّ ما يعرفه عنها القرَّاء أو معظمهم هو عنوانها، ومع الأسف أن جلَّ هؤلاء القرَّاء يظنُّون أن هؤلاء المؤلِّفين لكتبِ النَّوازل كانوا مجرَّد جمَّاعين للفتاوى، ينقلونها ويثبتونها في كتبهِم، فاغتنمنا هذه الفُرصة لنقلِ فَقرات مِن مقدِّمتِها ضمَّنها مؤلِّفُها مِنهاجَه في التأليف، وتعرَّض فيها لمساهمة والده القاضي **أبي عمران موسى** في التأليف، حيث كان له الفضل في البداية فيه، كما أنَّ كثيرا مِن المعاصرين يبالغون في تَسليط أحكامهم المفترضة والمرتَجلة على فقهاء البلاد، وبالخصوص فقهاء **مازونة،** بأن أسلوبَهم في كتبهِم ضعيفٌ مُهلهل، وتعميمُ هذا الحكم غير مسلَّم، ولرفعِ آثاره نُثبِت نُبذا من تقديم كتاب: (**الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة**)، تدلُّ على أن مؤلِّفَها ضليعٌ في

اللغة العربية وتَذليل قَواعدِها، قال في التَّقديم المذكور: «الحمدُ لله المانح عقول العلماء موهبة خصُّوا بها على سائر العقلاء بمنزلة التَّشريف، وفَّضل بعضهم فوق بعضٍ درجات بحسن الإلقاء والتَّقدير، وذكاء الفهم وعذوبة التأليف والتصنيف، وذلَّل لهم مِن الفصاحة والبلاغة ما تعصّب فَملكوه، وأوضحَ لهم مِن المشكلات والمعضلات ما تشعَّب حتى سلَكوه، وجعل عقولهم للنجاح ضمينا، وصدروهم للأسرار الحكمية كمينا، أسهروا في تقييد العقائد أجفانهم، وأجالوا في نظم قلائدها أفكارهم، ونادموا لاقتنائها الدَّفاتر، وسامروا الأقلام والمحابر، أبقاهم الله للمعارف الدينية يرفعون منارها، ويُطلِعون شموسها وأقمارها... الخ».

ثمَّ قال: «أما بعد، فإنِّي لما امتحِنتُ بخطة القضاء في عنفوان الشباب، وقادني إليها ما يعلمه الله من الأمور الصِّعاب، وكثرت عليَّ نوازل الخصوم، وتوالت لديَّ شكايات المظلوم، وقصر الباع عَن إدراك ما لا يتطرَّق إليه التباس، مِن نصٍّ جليٍّ أو واضح قياس، لجأتُ إلى كتب الأسئلة فيما يشكل عليَّ مِن نوازل الأحكام، متطلِّبا جوابها مِن الأئمة الأعلام، متخوِّفا بما قال (عليه الصلاة والسلام) في القضاة الثَّلاثة الحكام، واجتهدتُ في ذلك ـ عَلِم الله ـ جهدي، ولم أتجاسر على تنفيذ حكمٍ في قضية حتى أكون على بصيرة مِن ذلك، كي لا أهلك مع كلِّ هالك».

ثم قال: «وقد كان اتَّفق لمولاي الوالد (رحمه الله) في مدَّة قضائِه ما اتَّفق لي مِن الالتجاء إلى كتبِ الأسئلة للأئِمة المعاصرين له، حتى اجتمعَ له مِن أجوبتهم جملة وافرة، وكان (رحمه الله) عزمَ على ترتيبها على أبواب الفقه، فاختَرمته المنيَّةُ قبل ذلك، فضَممتُ ما كنتُ جمعتُه، وما جمعَ مولاي الوالد (رحمه الله)، وما وجدتُه بيد بعض الخصوم، ويد بعض قضاةِ وطننا مِن أجوبة المتأخِّرين المتضمِّنة مسائل العبادات ومسائل العادات، مع ما كنتُ أسأل عنه، أو سأله غيري بما يقع لي مع الأصحاب في

المذاكرات أو في مجلس الإقراء مِن إشكالٍ في كلام **ابن الحاجب** أو شرَّاحه، وفيما اعترض به بعضُهم على بعضٍ ليقع لي التحقيق في المسألة، وأضفت إلى ذلك ما كنت تلقيته من أشياخي من بنات فكرهم أو نقل غريب عن غيرهم، ويتشوف الطالب إليه، وتنشرح نفسه عند الإطلاع عليه، وصُنْتُ جميع ذلك في كراريس عديدة على غير ترتيب، خوف الضياع، وللعزم على ترتيبها على أبواب الفقه ليحصل بها الانتفاع، واقتصرت في جميع ذلك على أجوبة المتأخِّرين من علماء **تونس** و**بجاية** و**الجزائر** وأشياخنا التلمسانيِّين »، (ذكرَ مِن بَينهم **أبا الفضل قاسم العقباني**، و**أبا عبد الله محمد ابن مرزوق** (الحفيد)، و**محمدا أبا العباس**).

ثمَّ قال بعد قوله: «وأشياخنا التلمسانيِّين»، قال: «وغيرهم من أشياخنا وأصحابنا من أهل وطننا رحم الله من فني وأدام النفع بِمَن بقي... الخ».

نكتفي بهذا القدر من تقديم صاحب: **(الدُّرر المكنونة)** للاستدلال على أن المؤلف كغيره من مؤلفي النوازل، لم تكن هممهم مقصورة على جمع النوازل والفتاوى، وحشرها في تأليفٍ مُستقلٍّ مِن دون تمحيص، بل كان ممن باشروا خطَّتي القضاء والتدريس، واعتمد على ما جمَعه والدُه الذي تولَّى قبلَه القضاء والتدريس والتأليف بـ: **مازونة**، ثمَّ استفاءاته لعلماء عهدِه، وجلُّهم مِن مَشايخه، كـ: **العقباني**، و**ابن مرزوق** (الحفيد)، الذَين نالا شُهرةً في العالم الإسلامي، وكذلك فقهاء الوطن ـ أي: إمارة **مازونة** ومملكتها ـ سواء المدرِّسين أو القضاة أو المفتين، وقد كتب الخلود لهذه الموسوعة الفقهية، وإن أهملها الخلف وجَحدوا قيمتَها، فقد قيَّض الله لها تلميذ مؤلِّفها الحافظ الشيخ **أحمد بن يحيى الونشريسي**، فضمَّن فتاويها موسوعتَه الفقهية: **(المعيار المعرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب)**، التي لا تقل عنها شأنا، وقَد حظيت بالنَّشر، حيث طبعت بالمطبعة الحجرية في **فاس**، ولم يخل تأليف من تآليف التراجم من ذكرها، كما حظي مؤلف: **(الدُّرر**

المكنونة في نوازل مازونة)، من ترجمته في الكتب المذكورة، إلا أن ترجمته لم يخصص لها إلا سطور قليلة، إلى أن اكتشفتُ مخطوطة مِن **(الدُّرر المكنونة)** المذكورة ـ بعد استقلال الجزائر ـ منقولة عَن النسخة الأصلية للمؤلِّف في ختامها تقريض بخط **أحمد بن يحيى الونشريسي**، قرَّض فيه **(الدُّرر المكنونة)**، وأثنى على مؤلفها الذي أخذ عنه بـ: **تلمسان**، وأنه أي صاحب الدرر هو الذي قدم له الكتاب لتحقيقه وتقريضه، وفي هذا التَّقريض ترجَم **الونشريسي** لأستاذِه **المازوني** ترجمةً وافية، تعرَّض فيها لجوانبَ مجهولة مِن حَياتِه لم يتعرَّض لها أحدٌ قبله، وأَزال القِناعَ عَن الغموضِ الذي كان يكتنِفها، كـ: تولية **المازوني** خطَّة مستشار عند ملك **تلمسان** إذ ذاك **المتوكِّل على الله الزياني**.

وهذا ما كان مجهولا عند القراء، حيث اقتصر مترَجِمو **المازوني**، كـ: **أحمد بابا التنبكتي** في **(ذيل الدِّيباج)**، و**ابن مريم** في **(البستان)**، عند تَرجمتَيها له [على] أنَّه كان قاضيا بـ: **مازونة**، وتوفي بـ: **تلمسان** ودفن بها، مِن دون أن يَذكرا: هل كان مُقيما بـ: **تلمسان** أو عابر سبيل فأدركه المنون بها؟

وفي نفس هذه الفترة ـ أي: بعد استقلال الجزائر ـ عثَرنا على وثيقة أصيلة هامَّة، وهي عبارة عَن تعليق على مجموعة كراريس من **(الدُّرر المكنونة)**، كتب عليها حفيد **المازوني** ـ وهو الشَّيخ **محمد الصادق ابن الحميسي** (القاضي بـ: مازونة، ثمَّ بـ: **وهران**، في أواخر العهد العثماني ـ قال فيه: «كان جدُّنا الثامن سيِّدي **يحيى** (رحمه الله) ـ أي: صاحب **(الدُّرر المكنونة)** المشهور بـ: الإمام **المازوني** ـ له التآليف العديدة، وهو الذي أَلَّف **(الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة)** في سِفرَين، وكان حافِظا لمذهب **مالك**، صالحا زاهدا، مُشاركا في فنون، أخذَ من بعض علماء **تلمسان** وفقهائِها، نشأته بـ: **مازونة** وسُكناه بها زمن ولاية **بني زيان** مِن أمراء **تلمسان**، نقله السُّلطان **أبو حمو** لـ: **تلمسان**، وما صرفَه عنها إلَّا بعد جهدٍ جَهيد، لعلمِه وبَراعتِه، وأبوه الإمام الأسعد، والكوكب

الأزهر سيِّدي **موسى بن عيسى** (رحمه الله)، له تآليف عديدة أيضا، مِن ذلك: (**المهذَّب الرائق**)، و(**مناقب الأولياء في الصُّلحاء الشلفية**) في سِفرَين كبيرَين، وغير ذلك من الفتاوى وطريق التصوف، وقد نشأَ في المحلِّ المذكور، واستوطنَ به أوائل القرن الثامن مِن الهجرة، وتولَّى خطَّة القضاء بـ: **مازونة** و**تنس** و**مستغانم**... الخ».

«ذلك كان كله عملة واحدة لاتساع الحكم وإن بعد، وأما نسبته إلى **مغيلة** فَبعيد... الخ».

ولنرجع إلى ترجمة **محمَّد الصادق ابن الحميسي** هذا، فقد ترجم والدَه المؤرِّخ **أبو راس الناصري**، إذ كان ممَّن قرأ عليه بـ: **مازونة**، فقال في ترجمته: «ثم انتقلت إلى **مازونة** فجلستُ في حلقة العالم الكبير، الفقيه الشَّهير، الأقضى الأرضى الأمضى، شيخنا الشيخ **ابن علي بن** الشيخ **أبي عبد الله المغيلي**، فكانت في الأعيان كحلقة **ابن تيمية** التي مدَحها **أبو حيان**».

أما مترجمنا ولده **محمد الصادق** فإنه أخذ عن كثير من علماء بلده، ثم أخذ بـ: **معسكر** عن العلَّامة الحافظ **ابن عبد الله المشرفي** (وزير **الأمير عبد القادر**) في عهده، وقد زار الشيخ **ابن عبد الله المشرفي** المذكور **مازونة** في عهد تلميذه القاضي **محمد الصادق** هذا وسجَّل هذه الزيارة في أبياتٍ مدحَ بها تلميذه ضمنَ مدحِه لـ: **مازونة**، فقال:

مازونة خير القُرى	وأهلها خير أناس
لم تلق فيها خسا	إلا كريما ومواس
لاسيما قاض بها	حاز الفخار والترآس
العلم صار طبعَه	والمجد خير لا يقاس
أكرم به من عالم	سيما بفكر ودراس
ضاهى بفقهٍ مالكا	ولغةً أبا نواس

وقد كتب عقب هذه الأبيات الممدوح المذكور فقال: «قال كاتبه خار الله له **محمد الصادق بن الحميسي** سمعتُه بواسطة صدر الصدور والأعلام سيِّدي **ابن عبد الله بن** الشيخ **المشرفي المعسكري** الدار والمنشأ (رضي الله عنه) ونفعنا به وبأمثاله والسلام، وكتب تلميذه المذكور أول شوال عام 1242 من القرن الثالث عشر بعد المائتين والألف » اهـ.

ومن الوثائق الهامة الأصيلة التي عثرنا عليها بعد الاستقلال مرسوم ملكي لملك تلمسان **أبي عبد الله محمد الثابتي** (ولد الملك المتوكِّل على الله) ـ السَّابق الذِّكر ـ الذي كان صاحب **(الدُّرر المكنونة)** مستشارا في بلاطه، وقد خلَف المِلِكُ **الثابتي** والدَه سنة 880هـ الموافق لسنة 1475م، وبقي في الحكم نحو 30 سنة، وقد كان هذا الظَّهير الملكي ـ أي: المرسوم ـ لصالح الشيخ **أبي التقى** أخ صاحب **(الدرر المكنونة)** ـ حسبما يظهر ـ حبَّس عليه أراضي زراعية ذكَرها بتفصيل، وكان تاريخ هذا الظهير: 4 شوال عام 902هـ.

وبعد هذه الفترة التي تبوَّأت **مازونة** مكانة عاصمة الغرب الجزائري بدلا من **وهران** التي احتلها **الإسبان** وبقوا فيها ما يقرب مِن ثلاثة قرون، وحينئذ شهِدت **مازونة** ورود سيل من نخبة علماء البلاد أسسوا فيها عدّة معاهد، وقد وصف المؤرِّخ **أبو راس** في أواخر العهد العثماني **مازونة** ومعاهدها العلمية، إذ أقام بها مدَّة ثلاث سنوات كطالب علم، قال في **(رحلته)**: «ولما ذكر لي الطلبة **مازونة** وكثرة مجالسها، ونجابة طلبتها، سافرتُ إليها أوَّل صومي، سافرت إلى **مازونة** مدينة **مغراوة**، فلقيت من المشي على صغري مشقَّة، لكنَّ ذلك شأن السفر، وقد مررت في طريقي بالشيخ الكامل **أبي عبد الله محمد ابن لبنة** [1]، فوجدته قائما على عَمَلَةٍ يغرسون بستانا لله تعالى،

(1) كان عالما مشهورا، معهده بقبيلة **بني غدو** قرب مدينة **يلَّل (غليزان)**.

فسألني عن وجهتي وهو في عباء وبرنوص فقط، فقلت له: ذاهبٌ إلى **مازونة**، قال: لم؟ قلت: لقراءة الفقه، قال: والقرآن؟ فقلت له: نعرفه بأحكامه وأنصاصه وما يتعلَّق به، ولقد انتفع بي كثير من الطلبة في الأحكام ودرَّستُها لهم، فامتلأ سرورا وإعجابا، فسألته الدعاء، فدعا لي بنية صادقة، فحفظتُ (**المختصر**) حفظا ولفظا» اهـ.

كان **أبو راس**[1] قبل وصوله إلى **مازونة** ألقى عصا التِّسيار ببعض أرباضها، حيث قال: «فسكنت لما وصلت قرية الغيران أحد جهات **أبي علوفة**، فكنت أقرأ النهار وأصرّف ما آكل في الليل، فأول ما بدأت على الشيخ **محمد بن هني** ثم الشيخ **محمد بن إبراهيم** ثم الشيخ **مصطفى بن يونس** وناهيك به، وقد وجدت أولئك الشيوخ إذ ذاك بعضهم مشهور بمعرفة الأول ـ أي: الأول من (**مختصر خليل**) ـ والبعض بمعرفة الثاني، والبعض مقصور على الفرائض لا يتعدَّاه، ولا يعرف سواه إلا أن المقصور عليه هو حجة فيه، وقد وقفت على شرح مطوَّل في الفرائض للشيخ **الزناتي**، وقد توفي قبل مجيئي، فقرأت على الشيخ **البدالي** ـ وهو معروف بالفرائض ـ ثمَّ إنِّي انتقلت مِن قراءة شيوخ **أبي علوفة** المذكورين ـ وهم أربعة كما مرَّ ـ إلى القراءة على شيوخ **مازونة**، فجلستُ في حلقة العالم الكبير الفقيه الأقضى الأرضى الأمضى الشيخ **ابن علي بن** الشيخ **أبي عبد الله المغيلي** ـ الذي سبقَت الإشارة إليه عند ذكر ولدِه **محمد الصادق ابن الحميسي** عند حديثنا عَن أسرة صاحب (**الدُّرر المكنونة**) ـ كذلك كنت أتكلم في مجلس شيخنا المذكور، وأناقشه بها في الأمهات مزبور... ومنهم شيخنا السيد **العربي بن نافلة** صاحب الأصول والفروع، وكان ابنه السيد **أحمد** من شيوخي، ومن أجلاء أشياخي أيضا شيخنا **محمد الصادق بن أفغول** شيخ الإسلام الحافظ الزاهد، وشُدَّت إليه الرِّحال من **زواوة** و**غريس** ـ **معسكر** ـ ولم أر مثله فيما رأَيت، وابنه شيخنا السيد **محمد** الأسعد الأمجد...».

---

(1) **محمد أبو راس الناصري** (1165 ـ 1237هـ).

ثم ذكر الشيخ **أحمد بن** الشيخ **العربي ابن نافلة** المتقدِّم الذكر، والشيخ **إسماعيل** (قاضي مازونة) إذ ذاك الذي قال فيه: «وحضرت مجلس السيد **محمد بن عبد القادر** (القاضي)، أحد قُضاةِ **مازونة** المستقبل منهم والماضي، وحضرت مجلس شيخنا الصالح السيد **محمد بن عوالي الزلماطي**، وقد حضرت حلقة الشيخ **محمد بن أبي طالب** مِن نسل الشيخ **عبد العزيز البلداوي**... الخ».

نكتفي بقائمة هؤلاء الأعلام الذين ذكرهم **أبو راس** ضمن مشايخه الذين قرأ عنهم بـ: **أبي علوفة** و**مازونة**، واستفدنا من رحلة **أبي راس** أن معاهد **أبي علوفة** كانت مستقِلَّة عن معاهد **مازونة**.

كما استفدنا من ذكره لمراحل رحلته واجتماعه بالشيخ **محمد بن لبنة** الذي فاجأه عندما سأله عَن الغرض من وجهتِه إلى **مازونة**، فأجابه أنه يقصد قراءة الفقه، فقال له الشيخ **ابن لبنة**: والقرآن؟ إذ لاحظ الشيخ **ابن لبنة** صغر سنِّ **أبي راس**، حيث ذكر أنه ذهب إلى **مازونة** أول صومه، وكانت العادة أنَّ الطالب في كامل البلاد لا يقرأ الفنون حتى يُتِمَّ حفظَ القرآن وأحكامه.

كما أننا استفدنا من **أبي راس** الذي قال: «أنه مدة إقامته بـ: **أبي علوفة**، كان يقرأ في النَّهار ويصرف»، لا زالت هذه الكلمة مُستعملة، وهي ذهاب الطالب إلى البيوت تارة ينادي بأعلى صوته: «الموجود»، وتارة يدقُّ الباب بعصا، فيعرف أهل المنزل أنه الطالب الذي تعهَّدوا بِتَموينه.

كما وصف لنا مدارس مازونة بعد هذه الفترة بمدة قليلة العلامة **محمد بن علي السنوسي** (دفين ليبيا) في فهرسته (**الشموس الشارقة فيما لنا من أسانيد المغاربة والمشارقة**)، فبيَّن لنا قائمة مشايخه الذين قرأ عليهم الفقه، وروى عنهم الحديث النبوي الشريف، ذكر مِن بينهم الشيخ **محمد بن أبي طالب** وحفيده السيد **أحمد بن هني**،

والشيخ **أبا عبد الله محمد بن المهدي بن علي الحسني**، المعروفة أسرته اليوم بـ: **الكتروسي**، فهو ممن روى عنهم الشيخ **محمد بن علي السنوسي**، كما روى عن الشيخ **محمد المهدي** هذا المحدِّث الشهير **محمد التهامي بن المكي**، الشهير بـ: **ابن رحمون**، من علماء فاس المشهورين في تتبع رواية الحديث ولا زالت أسرة **محمد المهدي الكتروسي** تحتفظ باستجازة **محمد التهامي ابن رحمون** لعميد أسرتهم أرسلها من مدينة **فاس** سنة 1240 استهلَّها بهذه الأبيات:

يـــا إمامـــا إلى المكـــارم تحـــلى	وبفضـــل الإلـــه صـــار إعـــزازه
وهمامـــا بـــه الزمـــان تحـــلى	وتصـــدى إلى الكـــمال مجـــازه
وسريـــا في مضـــمار العلـــم جـــلَّى	كـــلَّ ذي نهايـــة وفهـــم فجـــازه
عبـدك الملتجـي لفضـلك يرجـو	مـن عُـلا مجـدكم عمـومَ إجـازة
يـــدرك الفـــوز بالفضـــائل عنهـــا	وتكـــون إلى الســـعود مجـــازه
دُم بِرَبْـع السـعودِ قـاموسَ علـمٍ	كـــلُّ نـــامٍ ينـــالُ منـــك مفـــازه

كما أرسلت أسرة علمية ولدها لطلب العلم بـ: **مدرسة مازونة** إلى الشيخ **محمد أبي طالب**.

وهنا بين قوسين، نذكر أن كثرة طلبة مدرسة **مازونة** كانوا مِن **المغرب** الشرقي ـ أي: نواحي **وَجدة** و**تازة** و**الرِّيف** ـ وكانت شهادة مدرسة **مازونة** الفِقهية تخوِّل لحاملها التوظيف في سِلك العدالة والقضاء، وفي عهد الاحتلال الفرنسي أحدثَت الحكومة الفرنسية مَدارسَ خاصَّة لمحاربة التَّعليم الأَصلي، خصَّصت لخرِّيجيها التَّوظيف الإِداري ومنَعت مِن التَّوظيفِ المذكور ـ وبالخصوص القضاء ـ المتخرِّجين مِن المعاهد الإسلامية، ومن بينها **مدرسة مازونة**.

بقي المغرب ـ الذي كان تحت الحماية الفرنسية ـ يعتبر **شهادة مازونة** بالنسبة

للمتخرِّجين المغاربة إلى أن لفظَت **مدرسةُ مازونة** أنفاسَها في أوائل الحرب العالمية الثانية، وبالضَّبط سنة 1939م، لأسبابٍ اقتِصادية وسياسية، حيث كان إحداث بطاقة التَّموين الفردية اتُّخِذ وسيلة للقضاء على **المدرسة**، كما كان إقبال طلبة **المغرب** على **مدرسة مازونة** الفقهية زيادةً على اعتبار شهادتها، كرمُ سكَّان **مازونة** وتموينهم لطلبتها مدَّة إقامتهم بها، حيث كانوا يتبنَّون ضِعافَ الطَّلبة، ويحرثون لهم سنويا (عزلة) يستَعينون بها على شِراء الكتُب وبقية الضَّروريات، فيبقى الطالبُ ثمانية أو عشر سنوات لا يكلِّف أهلَه دِرهما، ثم كان الإقبالُ على **مدرسة مازونة** أن حامِلي شهادتها الذين ينخَرطون في سِلك القضاء كانوا يتولَّون القضاءَ بالأَسواق العامة، فيقصدهم المتخاصِمون، فيقضون لهم تلقائيا ـ أي: يملون عليهم الأَحكام ارتجالا ـ إذ جلُّهم كان يحفظ متن (**المختصر**)، بخلاف المتخرِّجين مِن **القرويِّين** و**وجدة**، فكانوا يتوقَّفون على المراجعة والنَّظر، وقد تخرَّج مِن **مدرسة مازونة** علماء أجلَّة اكتسبوا شهرة، كـ: الحافظ **مصطفى الرماصي**، والشَّيخ **محمد بن حواء** (دفين مستغانم)، صاحب (**سبيكة العقيان فيمن حلَّ بمستغانم وأحوازها مِن الأعيان**).

تخرَّج **مصطفى الرماصي** على الشيخ **محمد بن الشارف** سليل **عبد العزيز البلداوي** الذي ورد على **مازونة** في سنة 1000هـ، وانتصب فيها للتدريس طيلة 65 سنة، إذ توفي سنة 1065هـ، ودفن في مدرستِه التي كتب لها الخلود، وذلك أنَّ حفيده الشيخ **محمد بن علي أبو طالب** المتوفَّى حوالي سنة 1237هـ شارك في حربِ فتح **وهران** سنة 1206 على رأسِ مائتَي تلميذ وولدَيه، فاعترفَ له **الباي محمد بن عثمان** بموقفه، إذ لما شاركَ في هذه الحرب كان عمره يجاوز الثمانين سنة، فجدَّد له بناءَ مدرستِه بعد الفتح، وحبَّس عليها كتُبا لا زالت المدرسةُ تحتفِظ ببَعضها، إلَّا أنَّ السُّلطات الفرنسية ضاقَت ذرعا بآثار العثمانيِّين فهدَّمت المدرسةَ والمسجدَ الملاصِق لها بدَعوَى التجديد، ولم يفُت ذلك على بال السكَّان، فاشترطوا إبقاء ضريح مؤسس المدرسة الشيخ **محمد بن**

الشارف السابق الذكر، فبقي هذا البيت بضريح مؤسِّس المدرسة، وهو إلى الآن معروف ببيت الشيخ **محمد بن الشارف**، تَوارث أحفاد الشيخ **محمد بن علي أبو طالب** إدارة المدرسة والتدريس بها، وحاولت الحكومة توظيفهم بها، فامتنعوا ورفضوا مناصب التدريس وواصلوا التعليم بها إلى أن لفظت أنفاسها، وقد زار المدرسة في عهد شيخها **محمد أبو راس** ومدحه أحد العلماء يمضي (**رحّالة شرقي**).

وقبل ختام تاريخ **مدرسة مازونة** التي أسَّسها الشيخ **محمد بن الشارف**، المتوفَّى سنة 1065، نرجع إلى الوراء قليلا لنَذكر بعض مناقب الشيخ **محمد بن علي أبو طالب** المتوفَّى سنة 1233هـ [1] في الميدان العِلمي، إذ هو الذي ركَّز عليه تلميذه **محمد بن علي السنوسي** (دفين ليبيا) فهرسته (**البدور السَّافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة**)، فقال: «فمنهم، وهو أجلُّهم وأكملهم وأفضلهم ناصر الدين المعمّر، الجِهبذ الأكبر، الولي الأشهر، مهيع العلوم والمعارف، **أبو طالب** سيدي **محمد بن علي بن الشارف**، قرأتُ عليه النِّصفَ الأول من (**المختصر**) مِرارا، قراءةَ تحقيقٍ وتدقيق، مطرَّزة بِجزيل الفروع النَّقلية والفوائد السَّنية، فالتزم (**شرح الخرشي**) غالبا مع (**حاشيته**) عليه، وقَد بلغ فيها إلى (**باب الرهن**) »، إلى أن قال: «وقرأتُ على حفيده وخليفتِه مِن بعدِه **أبي العباس أحمد بن هني** النِّصفَ الثاني من (**المختصر**) مِرارا، بأمرٍ منه على سبيل النِّيابة عنه، وسمعتُ عليه مجالس مِن (**البخاري**)، ومثلها من (**مسلم**) و(**الموطأ**)، وأخذتُ عليه علم التوحيد، وناولني شرحَه الكبير على (**صغرى**) الشيخ **السَّنوسي**، وكنتُ الجامع له بأمره قائلا لي: لم أجد أولى به منك، كما ناولني **البخاري** ومسلما، **وحاشيته** المذكورة على **الخرشي** في جزأين ضَخمَين، وأجازني في ذلك كلِّه، آمرا لي بإقراء ما أقرؤه عليه، وبمراجعة ما يقرؤه ويطالعه لنا حفيده المذكور مِن (**شرح الخرشي**)... الخ» انتهى ما

---

(1) سبق قبل قليل ذكر تاريخ وفاته سنة 1237هـ. (ع)

ذكره **السَّنوسي** في (**فهرسته**).

وتَتميمًا لموضوع دِراستنا هذِه نذكُر أنَّ الشيخَ **عبد القادر بن المختار الخطابي المجاهري** (دفين مصر)، المتوفَّى سنة 1336هـ، خصَّص الشيخ **محمد بن علي أبا طالب** بتأليف قيِّم سمَّاه: (**الكوكب الثَّاقب في أسانيد الشَّيخ أبي طالب**)، إذ كان **الخطابي** هذا مِن تلاميذ **مدرسة مازونة**، وقد مدحَ **مدرسة مازونة** وأساتِذتها الذين هُم مِن نسلِ الشيخ **محمد بن علي أبي طالب** بقصيدة، قال فيها:

إذا رُمتَ فقه الأصبحي فَعُج على	ديار بها خلت سعود الكواكب
وحُطَّ رحال السير وانْوِ إقامة	بمازونة الغراء ذات المناصب
تجد سادة للفضل والعلم مهّدوا	طريقا بها أضحى القصي بجانب
ولج بعظيم الجاه واحفظ جنابه	وقف بضريح الشيخ وقفة راغب
ولازم ذاك الركن واعرف مقامه	وقل يا شريف الأصل يا أبا طالب
فإنه ذو فضل وجود وسؤدد	وذو منح جلّت كثير المواهب

إلى أن قال:

فلا غرو أن ضاهت مازونةُ مصرَنا	وأن تفتخر لها الفخر واجب
حوت حَبْرا ما الدهر يأتي بمثله	بمنهلها العذب الرحيق تخاطب

ولنختتم هذا الفصل عن **مدرسة مازونة** بما ذكَره الشيخ **محمَّد بن علي السنوسي** السَّابق الذِّكر في فهرسته (**الشموس الشارقة فيما لنا مِن أسانيد المغاربة والمشارقة**)، فقد أثبتَ فيها معظم مَن أخذ عنهم مِن علماء **الجزائر**، وركَّزها على شيخه **محمد أبي راس** وطريقته في التَّدريس، فبعدَ أن ذكر سندَه عَن علماء مدينة **الجزائر**، قال: «ومنهم صاحبُنا الأَبر، وحِبُّنا الأَغر، **أبو العباس أحمد بن عبد الله الشريف الجزيري**، وهو يروي

عن أعلام أفاضل أئمة أماثل من أهل بلده، مِن أجلِّهم الشَّيخ **محمد بن جعدون**، والشيخ **ابن مالك**، والشيخ **ابن الأمين**، والشيخ **ابن الشاهد**، والشيخ **ابن الحفاف** وغيرهم من أهل بلده بأسانيدهم المتصلة بالشيخ **سعيد قدُّورة**[1] بأسانيده.

والعارف بالله **الثعالبي**، وكان أرغب شيء إليه الرحلة إليهم والأخذ عنهم، ولم تساعد الأقدار لذلك فمنَّ اللهُ بلُقِياه، فاستجازنا فأجزناه، وأجازنا بما له وعنه بحق أخذه عنهم وإجازتهم إياه... الخ».

ثم قال **السنوسي**: «ومنهم شيخنا وشيخ مشايخنا، الهمام الحافظ الإمام سيدي **محمد أبو راس المعسكري** البلد **الناصري** المحتد (رحمه الله)، كنتُ أتردَّد إليه كثيرا، وأستفيد منه استفادة عظيمة، لتمام حفظِه وإتقانه لكلِّ فنٍّ، حفَّاظا لمذاهب الأئمة الأَربعة، جوابُ كلِّ ما سئل عنه بينَ شفتَيه، وغالب مَن أخذنا عنه مِن أهل ناحيته أخذَ عنه، محقِّقا لمذهب الإمام **مالك** غاية، لا سيما (**مختصر خليل**)، فله فيه الملكة، بحيث يُلقيه على طلبته في أربعين يوما كل سنة، يتحيَّن بذلك وقت الخريف، فإذا جاء وقته كتب كتبا لأهلِ قطره فيأتونه لذلك، فيختمه لهم في المدَّة المذكورة، يقتصِر في ذلك على تقرير المتن مَنطوقا ومفهوما، وما يعرضُ لذلك مِن إزالة إشكال أو عَزو مَقال، وربما ظنَّ مَن سمعه أن ذلك منه قصور، مع براعته في كلِّ علم، سيما علم الفقه، وخصوصا (**المختصر الخليلي**)، و(**الألفية**) دأبه فيها عشرة أيام كذلك، على ما جَرت به عادة أهل قطره مِن تنويع القِراءةِ إلى نَوعَين.

فعادتُهم في النَّوع الأول أنَّهم يقرؤون تلك القِراءة، يقتصرون فيها على تقرير المتن وحلِّ المشكل، ويطيلون الدُّروس مع ذلك، بحيث يجعلون مِن طلوع الشَّمس أو قبلها

(1) خلَّد أسانيدَه العلامةُ الشيخ **محمد بن سليمان الروداني السوسي** في فهرسته (**صلة الخلف بموصول السلف**)، وهي مشهورة عند علماء الحديث في البلاد الإسلامية شرقا وغربا.

أو بعدها بِيسير إلى قُرب الزَّوال درسًا واحدا، ومِن بعد صلاة الظُّهر إلى قُبيل المغرب درسًا، ولا يستطيعُ ذلك إلا مَهرة ممَّن لا يحتاج غالبا إلى مُراجعة في تقرير المتن وحلِّ إشكاله، ويسمون تلك القراءة سردا، فبذلك تيسر إلقاء مثل (**مختصر الشَّيخ خليل**) في أربعين يوما، و(**الألفية**) في عشرة أيام، مِن تجزئة (**المختصر**) بأربعين جزءا لكل يوم جزء، نصفه في درس أول النهار ونصفه في درس آخره، ومن تجزئة الألفية بعشرة أجزاء لكل يوم جزء كذلك.

ولا أنفع من هذه القراءة مع تحصيل المطلوب في أقرب مدة، وقد حصل لنا بذلك نفعٌ كثير في علوم شتى، وعادتهم في النوع الثاني أنهم يفتتحون الكتب المرادة لهم أواخر الخريف أو أوائل الشتاء، فيقلِّلون الحِصَص ويبالغون في مطالعة الشروح وما عليها من الحواشي، وإكثار مواد الفن، ولا يأتي أحدهم لإلقاء الدرس إلا بعد تحقيقه وتدقيقه، ويخيله في ذهنه قبل الشروع فيه بما يحتاج إليه من الأبحاث الفائقة، وأجوبة الإيرادات الرائقة، فإذا شرع فيه أتى بالعجب العجاب في درسه ذلك من التحقيقات العجيبة، والنقول الغريبة، فلا يصادره أحدٌ ببحث إلا شفى فيه الغليل وأبرد أُوام العليل، فمن كان منهم يقرئ المختصر درسين في اليوم، فالغالب أنه يختمه في قريب من سنته تلك، ومن كان يقتصر على درس واحد في اليوم، فيختمه في سنتين لكل سنة نصف، والغالب إن لم يكن منهم قرأ المختصر هذه القراءة لا يستطيع قراءة السرد المتقدمة، لما لم يكن مستحضرا في الذهن قراءة النوع الثاني المسماة بالأصل لكون السرد فرعا عنها، فمن حصلت له أمكن له السرد ومن لا فلا، وبهذين النوعين يقرؤون سائر ما لديهم من العلوم من ألفية وغيرها.

وكان شيخنا حافظ عصره، وإمام قطره، المذكور من أماثل أئمتهم في ذلك، فإن الشائع عنه أنه لا يزيد على مرة في مطالعة أي درس، أو أي كتاب لما منَحه الله من

سيلان ذهنِه وسعة حافظتِه، وله (رحمه الله) مؤلَّفات عديدة تزيد على الخمسين، منها تفسير القرآن، ومنها (**حاشية على شرح المختصر**) للشيخ الخرشي، و(**حاشية المكودي**) شارح **الألفية**، وشرح (**العقيقة**)، و(**الحاوي الجامع بين التوحيد والتصوُّف والفتاوي**)، وغيرها مما يطول ذكره، وهو يروي عن جماعة مغاربة ومشارقة، فمِن أجلِّهم شيخنا **أبو المواهب محمد بن علي بن أبي طالب المازوني ونور الدين ابن الجندوز المستغانمي**، وغيرهما من أهل قطره، ومن أجلّ مشايخه المشارقة الشيخ **المرتضى** اليمني الأصل المصري الدار والوفاة، وغيره من معاصريه، مات (رحمه الله) في حدود السبع والثلاثين، وقد ناهز التسعين سنة، وعادته المذكورة وأشياخه في الاقتصار على تقرير المتن وحل المشكل هي عادة أكابر العلماء، كـ: الشيخ **مصطفى الرماصي**، والإمام الشيخ **عبد القادر الفاسي**، والإمام **أبي عبد الله محمد بن ناصر**.

قال في (**الدُّرر المرصَّعة في أخبار صلحاء درعة**) في ترجمته ما نصُّه: «وقد أخبرني... الخ »، قال في منظومة له في أدب الإقراء:

تقريـــر مـــتن ثـــم حـــل مشـــكل نـــافع الإقـــراء وســـواه عطـــل

ولننتقل الآن إلى ذكر نموذج عن طريقة التعليم بالجزائر في العهد العثماني، فإن التعليم كان لا يختلف بالجزائر عن بقية البلاد الإسلامية بصفة عامة، وعنه في بلاد المغرب العربي بصفة خاصة، وذلك في جميع مراحله «ابتدائي» و«ثانوي» و«عال».

كانت مراكز التعليم في مراحله المذكورة بالمساجد، فالتعليم الثانوي والعالي تعقد له حلقات في صحن المسجد أو براحه، أما التعليم الابتدائي وهو ما يعرف بالتعليم القرآني في عهدنا هذا، فتخصص له بيوت تابعة لمرافق المسجد، ويطلق على هذه البيوت أسماء «الكُتَّاب» أو «المْعَمّرة» و«المسيد»، وكان المشرف على هذا التعليم إمامُ المسجد، ويتولى مباشرته نخبة مِن حَفظَةِ القرآن، تُراعى فيهم عدة مقاييس، من بينها الاستقامة

والنزاهة والكفاءة والورع، كما كان لهذا التعليم نظام داخلي تحدد فيه بدقة أوقات التعلم والعُطَل، ثم تحديد أجرة المعلم، إذ في الغالب كان يتولى دفعها آباء التلاميذ.

فمنها أجرة تدفع أسبوعيا إذ العطلة الأسبوعية تبتدئ من عصر يوم الأربعاء إلى صباح يوم الجمعة، كما كانت تقدم أجور بمناسبة المواسم والأعياد زيادة على ختم التلميذ لبعض السور، كسورة الإخلاص والأعلى والجن والنبأ، فالملك والجمعة إلى سورة البقرة. وتنتهي هذا الأختام بنهاية حفظ التلميذ للقرآن، فحينئذ يقيم ولي التلميذ حفلة تكتسي بهجة يشارك فيها الأقارب وأصدقاء الأسرة.

ولعدم الإطالة نذكر على سبيل المثال وثيقةً فيها بيانٌ مسهبٌ عن حفلة مِن هذه الحفلات، أثبتها الرَّحالة المصري **عبد البسيط**[1]، وصف فيها ما شاهدَه عند زيارته لمدينة **وهران** سنة 869هـ/ 1465م، قال: «وفيه عملت وليمة بمدينة **وهران** في منزل خطيبها لأجل ختم ولده القرآن العظيم، وحضرها جماعة من الأعيان بوهران وأكل منها غالب أهل البلد، وحصل للشيخ **عبد الرحمن بن عزوز** (إمام زاوية الشيخ إبراهيم التازي)[2] وفقيه المكتب الذي أنشأه الشيخ المذكور، وهو فقيه هذا الولد الذي أحفظه القرآن، زيادة على المائة دينار ذهب[3]، كما كان تلامذة الكُتَّاب القرآني يقدمون يوميا بالتناوب فطور الصباح من قهوة ومرطبات وفي القرى الصغيرة وأحياء بعض المدن

---

(1) هذه (**الرحلة**) ترجمَ بعض فصولها المستشرق الفرنسي **برنشويق** (Brunchwig) تحت عنوان: (Deux Récits: Voyages Inédits en Afrique du Nord)، (Edition. Larose 1936- Paris).

(2) **إبراهيم التازي**: عالمٌ شهير توفي بوهران سنة866هـ-1462م ترك مآثر عمرانية بمدينة وهران وهو الذي أدخل إليها الماء.

(3) ذكر مترجم (**الرحلة**) أن الدينار الذهبي وزنه إذ ذاك: مثقال، وهو: (4.72) غرامات.

يجمع معلم الصبيان بين خطَّتي التعليم وإمامة الصلاة، ويتولَّى دفع الأجرة أولياء التلاميذ والسكان، هذا وإن التعليم القرآني لم يكن الهدف منه الاقتصار على حفظ السور وتعليم القراءة والكتابة، بل يضاف إلى ذلك التعليم الديني كأحكام الطهارة والصلاة والعقائد، ومن ذلك ما حكاه الإمام **محمد بن علي السنوسي** السابق الذكر(1202 ـ 1276هـ) في فهارسه، أنه بدأ قراءته بمسقط رأسه على عمَّتِه السيدة **فاطمة**، إذ هي التي كفلَته بعد موتِ أبيه وهو في السَّنة الثانية مِن عمره، وكانت عمَّتُه تعلِّمه زيادةً على حفظِ سور القرآن مبادئ العلوم اللغوية والتَّوحيد والفقه، بحيث إنه لما التحقَ بالمعاهد الثانوية لم يستفد منها أزيد ممَّا سبقت له استفادته مِن عمَّتِه، وقد ذكر مثل ما ذكره **السَّنوسي سعيد المقري التلمساني** الذي قادَته أمُّه في صِباه لاستقبال المقرئ الشَّهير **أحمد حجي بابا الوهراني**.

وذكر **سعيد المقري** أن الأمهات إذا ذاك كن يعتنين بتربية أولادهنَّ تربية دينية، وكانت هذه المعاهد على اختلاف مراحل التعليم بها تنفق مِن ريعِ الأحباس، وقد امتازت الجزائر في العهد العثماني بوفرة أحباسها حتى إنها كانت تبلغ حوالي ثلثي الأملاك الخاصة وذلك لإسهام الغزاة ونذرهم لهذه المعاهد، وعلى سبيل المثال نذكر ما نشرته (**المجلة الإفريقية**) في عددها المؤرَّخ سنة 1861م مقالا عنوانه: (**البناءات الدينية بالجزائر**)، للكاتب الفرنسي الموظَّف بإدارة الأملاك في عهدِه، والذي كان له الفضل في جمع ما يَربو على الخمسمائة وثيقة أحباس على المساجد والمعاهد والزوايا والكتاتيب القرآنية وأحباس الحرمَين وسُبل الخيرات، قال في المجلَّة المذكورة في صفحة: (370)، فيما نقله عن تصميم المؤرخ الأسباني **هايدو** (Haedo) في تأليفه المسمَّى: (**تصميم وتاريخ مدينة الجزائر**) (Topographies et Histoire général d’Alger)، وقد نُشِر هذا الكتاب سنة 1612م، ذكر فيه أنَّ مدينة **الجزائر** كان يوجَد بها في آخر القرن السادس

عشر مائة مسجد، بين كبير وصغير، كلٌّ له منها أحباس خاصَّة وإمام ووكيل، من بينها سبعة مساجد كبرى اهـ.

ثم علَّق (Devoulx) على ما كتبه المؤرِّخ الأسباني **هايدو**، فقال: «كان بالجزائر في سنة 1830 ثلاثة عشر مسجدا كبيرا، وتسعة عشر مسجدا صغيرا، واثنان وثلاثون معهدا، واثنا عشر زاوية، فالجميع ستَّة وسبعون بِناية دينية».

كما تعرَّض لوصفِ الجزائر ومعالمها وكثيرٍ مِن علمائها ومكانتِهِم في العلم بعضُ الرَّحالين، مِن بينهم **عبد الرحمن الجامعي الفاسي** الذي ذكر في (**رحلته**) عِند حديثه على مدينة **الجزائر** التي زارها في العشرينات مِن القرن الثاني عشر الهجري، ونقل عنه حديثَه **أبو القاسم الحفناوي** في تأليفه: **تعريف الخلف برجال السلف** (ص: 12 ـ 13) عند ترجمتِهِ للأديب الجزائري **محمد بن سيدي بن علي** قال: «وأما مدينة **الجزائر**، فأول بلد لقيتُ بها مثل ما فارقته مِن أدباء بلدي وبها تذكرت بعض ما كان نسيه خلدي، لاجتماعي فيها بالأديب..»، ثم بعد تعداده لنخبة علماء المدينة الذين اجتمعَ بهم، ختم مقاله بِقوله: «وهذه المدينة لا تخلو من قراء نجباء وعلماء أدباء وأعلام خطباء مساجدهم بالتدريس معمورة، ومكاتب أطفالهم بالقراء مشحونة ومشهورة، وقد ذكرت ما فيه غُنيةٌ من علمائها الأخيار... الخ».

وقد اجتمع **عبد الرحمن** في رحلته بالحافظ **مصطفى الرماصي** في معهده بـ: **غابة الجبل**، كما عبَّر عن ذلك، ثمَّ اجتمع أيضا بـ: **أحمد ساسي البوني** وترجمه وافية، كما اعتنى بعلماء **الجزائر** في ذلك العهد أي العثماني العالم الأديب **محمد بن زاكور** الفاسي، وضمن الكثير من تراجمهم فهرسته المشهورة المسماة: (**أزهار البستان في من أجازني بالجزائر وتطوان**).

وقد نشر هذه الفهرسة المرحوم **محمد بن شنب الجزائري**، ثم أعيد طبعها بالرباط سنة 1387هـ/ 1967م، كما نشرت (**المجلة الإفريقية**) بعددها المؤرَّخ سنة 1868 تحت

عنوان: (**تاريخ المعاهد الدينية بمدينة قسنطينة**) بقلم الرائد **فيرو** [1].

ذكر **فيرو** في مقاله هذا وثيقةً هامة لـ: **صالح باي**، مؤرَّخة سنة 1190هـ، ولأهمِّيتها وارتباطها بِموضوع دراستِنا نَنقلُها بِتَمامها، ونصُّها: «الحمد لله، ولما وقع التَّقصير مِن وكلاء مساجد قسنطينة، ولم يكن لهم اعتناء بشأن الأوقاف، وفرَّطوا في ذلك غاية التَّفريط، وضاع الكثير منها لعدم اعتنائهم بشأنها، ولم يبحثوا على ذلك، وتعطل البعض من المساجد بضياع أوقافها »، إلى أن قال: «عما نتج عن ذلك التفريط، وصار البعض منها بسبب ذلك مربطا للدواب، والبعض غلقت عليه الأبواب، وآل أمره إلى الخراب، وبلغ أمر ذلك لحضرة المعظم الأسعد المنصور، المؤيد ذي الآراء السديدة، وحسن الرأي سيدنا صالح باي أيده الله تعالى وأبقى وجوده، وأدام خيراته وجوده، فألهمه الله إلى إحياء ما اندرس من المساجد والأوقاف، وتوجه بكليته أعزه الله تعالى إلى الكشف عن ذلك، وأراد أن يثبت ذلك بثلاث سجلات متماثلة تحفظها، ويؤمن ذلك من التبديل والتغيير عليها، أمر حينئذ قضاته والمفتينَ أن يبحثوا على أوقاف المساجد التي دثرت، ويثبتوا ذلك بثلاث سجلات [2] متماثلة، فامتثلوا أمره، وبذلوا جهدهم في البحث عن أوقاف المساجد، وعن المساجد التي دثرت، واطلعوا على سجلات المساجد، وأثبتوا بعد الكشف عن ذلك أوقاف مساجد بلد قسنطينة بهذا السجل وبسجليْن ـ على الهامش ثلاثة ـ آخرين، مماثليْن له لفظا ومعنى، أحد السِّجلَّات عند أصحاب بيت المال، والثاني عند شيخ البلد، والثالث عند قاضي الحنفية، والرابع عند قاضي المالكية، فمن علم ذلك وتحقَّقه، وعلم أن الطابع المرتسم بِطرَّته أعلاه هو

---

(1) كان هذا الرائد ترجمانا عسكريا استولى بحكم وظيفته على كثير من الوثائق الأصيلة وترجمها إلى الفرنسية ونشرها مسلسلة.

(2) على الهامش: «أربع سجلات»، بدلا مِن ثلاث.

طابع المعظَّم الأرفَع سيدنا صالح باي أدام الله أوقاته، وبارك فيه، أواسط شهر ربيع الأول عام تسعين ومائة وألف (1190)».

وبعد نشر لهذه الوثيقة نشر وثائق أخرى منها هذه: «ومن تمامه أن سيدنا صالح باي أيده الله أعلن أن المعاوَضة لا تقع في أوقاف المساجد أصلا لا بالقليل ولا بالكثير، وأن وكلاء المساجد يحاسبون على أوقاف المساجد من الستة أشهر إلى الستة أشهر، وأن الفاضل من أوقاف المساجد، أي من غلتها يتفقده العلماء المنعقد بهم المجلس العلمي وصاحب بيت المال في كل سنة، ومن كثُرت غلَّة أوقافه من المساجد يشترون له بما فضل عن حاجة الأوقاف عقارا يصير من جملة الأوقاف صح ذلك **محمد ابن الموهوب وأحمد ابن جلول** المفتيان، عبده **صالح باي بن مصطفى** 1185هـ.

أما الدفاتر المسجل فيها الأحباس، فكان يوجد منها واحدٌ ببيت المال والآخر عند شيخ البلد، واثنان عند كل من القاضيين الحنفي والمالكي » اهـ.

ولنضف على هذه الوثائق الأصيلة وثيقة أخرى تخص القطاع الغربي، وهي ما كتبه الأستاذ **مارسيل إيمريث** (Emerit) (الأستاذ بجامعة الجزائر) في عهده في تأليفه القيِّم: **(الجزائر في عهد الأمير عبد القادر)**.

«L’Algérie à l’époque de l’émir Abdelkader, Edition Larousse1951 Paris 5e»

قال في (ص:13) في معرض حديثه عن الحياة الثقافية بعاصمة الغرب الجزائري تحت عنوان: **(تلمسان العاصمة الثقافية)** ما يلي: «إن تلمسان كانت مركزا ثقافيا، هذه المدينة التي كان يسكنها ما بين 12000 و 14000 نسمة، كانت تحتوي على خمسين مدرسة، يتعلَّم فيها ألفا تلميذا، أما التعليم الثانوي والعالي، فكان يتبعه حوالي ستمائة

تلميذ في مدرستي الجامع الأعظم وجامع ابنيْ الإمام[1]، وفي الضواحي كانت الزاوية الشهيرة بعين الحوت، وفي الفحص كان التعليم منتشرا إذ كان يوجد فيه ثلاثون زاوية، تختلف شهرتها قوة وضعفا، ومع هذا كله فحالتها الثقافية المذكورة لا تقاس بما كانت عليه في عصرها الذهبي، فالأتراك تقاعسوا عن الاهتمام بالحياة الثقافية، ولهذا كان شبان الطلبة الراغبين في تمتين ثقافتهم يلجئون إلى معاهد المغرب الأقصى » اهـ.

ثم واصل (Emerit) مقاله في موضع آخر مِن التأليف متحدِّثا عن الحياة الثقافية بـ: **الجزائر**، فقال: «إن أغلب الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين السنة السادسة والثانية عشر كانوا يتعلَّمون بالمدارس الابتدائية ـ الكتاتيب القرآنية ـ حيث كان المعلمون يتقاضون أجورهم من عند آباء التلاميذ»، كان هؤلاء التلاميذ يتعلَّمون القراءة والكتابة، وبعض مبادئ الدين واللغة.

وقد ذكر الكاتبان (Urbain) et (Walsin Esterhalzy): «أنَّ عددَ الأميِّين في **الجزائر** كان أقل ـ نسبيا ـ مِن الأميِّين في **فرنسا**، حيث كان يبلغ عدد الأميِّين في **فرنسا** إذ ذاك أربعين في المائة» اهـ.

ثم قال (Emerit): «أمَّا التَّعليم الثانوي، فكان يُتلقَّى بالمدارس والزوايا، فالتلامذة كانوا يزاولون تعلمهم على نفقة ريع الأحباس، وكان عددهم يصل في كل ولاية [2] ما بين الألفين والثلاثة آلاف، وأما التعليم العالي، وإن لم يشمل في مواده العلوم العصرية، فإن مواده الدينية كانت قوية، وهؤلاء التلامذة ـ التعليم العالي ـ هم الذين كوّنوا الوحدة الثقافية في البلاد أي الرأي العام، ثم قال: «فالسلطة العسكرية الفرنسية قضت

---

(1) منسوب إلى عالمين جليلين لهما شهرة في العالم الإسلامي ترجمهما تلميذهما **عبد الرحمن بن خلدون**.

(2) كانت الجزائر إثر الاحتلال تنقسم إلى ثلاث ولايات: وهران، الجزائر، قسنطينة.

على الأحباس إذ صادرتها، ثمَّ إنَّها طردت من المدارس والزوايا الفقهاء وطلبتهم بتهمة المعارضة للاحتلال، وفي سنة 1847م تفطَّن الرؤساء العسكريون إلى هفوتهم عند محاولتهم تنظيم المدارس، والاعتناء بالثقافة ترضيةً وجلبا للسكان الذين قاطعوا التعليم الرسمي المفروض عليهم، فوجدوا تصرُّفاتهم التعسفية ورَّطتهم، فصعب عليهم إصلاح أخطائهم » انتهى كلام (Emerit).

ومما يؤكِّد ما ذكره (Emerit) تصريح النائب (de Tocqueville) سنة 1848م أمام البرلمان الفرنسي الذي قال فيه: «إن المسلمين في إفريقيا الشمالية لم يكونوا غير متمدِّنين، وإنما كانت مَدنيَّتهم ضعيفة ناقِصة، كانت لدَيهم أملاك محبَّسة يُنفَق ريعها على التعليم وعلى المشاريع الخيرية، فأمَّمناها وحوَّلنا وجهتَها، فأنقصنا من المشاريع الخيرية وتركنا معاهد التعليم تَتساقط، وكذلك الزوايا، فكانت النَّتيجة أن بَصيص النُّور الذي كان حَولنا أعقبَه الظلام، ولهذا أهملت تولية الأكْفاء مِن رجال الدِّين لخطط الإفتاء والقضاء والإمامة »، وختم النائب (de Tocqueville) خطابَه بقوله: «فصيرنا جماعة المسلمين أفقر وأتعس مِن حالتهم التي كانوا عليها قبل الاحتلال» اهـ.

ولنختم هذا الفصل الذي أثار الرأي العام العالمي، ولا زال مَعينُه لم ينضب بعد بما نشرته أخيرا (**مجلة الثقافة**)[1] بالجزائر في عددها 46المؤرخ في شهري شعبان – رمضان 1398هـ/ أوت ـ سبتمبر 1978م.

نشرت (**مجلة الثقافة**) المذكورة مقالا تحتَ عنوان: (**حول بداية النهضة الجزائرية، كتيِّب لعبد القادر المجاوي**)، بقلم الأستاذ **آلان كريستلو** مِن (جامعة ميشيقان) الأمريكية، ضمنه محتوى ملفٍّ إداريٍّ يتعلَّق بالهزَّة العنيفة التي أحدثتها هذه التَّصرُّفات التي نتجَ عنها منع تولية المتخرِّجين من المعاهد الإسلامية التقليدية مِن وظائف الدولة،

(1) **مجلة الثقافة**: تصدرها وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر.

كـ: القضاء، والإفتاء، وتخصيصها للمتخرِّجين مِن المدارس الرَّسمية التي أحدثَتها الحكومة، وكان ردّ الفعل مِن السكّان مقاطعتها، فحينئذٍ لم يسَع الحكومة إلا التَّراجع والاستعانة ببعضِ رجال العلم الذين كانوا يتمتَّعون بالسُّمعة الحسنة، والنفوذِ الأدبي في الأَوساط الشعبية، أمثال: **عبد القادر المجاوي** الذي كان مدرِّسا إذ ذاك بـ: **مسجد الكتاني** بـ: **قسنطينة**، فطلبت منه تولية التَّدريس بالمدرسة في **قسنطينة**، وكان **المجاوي** قريب عهد بتأليفِ كتابٍ تناولَ فيه حالةَ التَّعليم، وطالب بإِصلاحه، فاشترطَ **المجاوي** على السُّلطات أن لا يتولَّى التدريس المعروض عليه إلَّا إذا وافقت السلطات على اقتراحِه في إصلاح التعليم الذي ضمَّنه كتابه المذكور، وقد أثار هذا الكتاب هزَّةً في الأوساط الاستعمارية إذ ذاك، تبودل أثناءها مراسلات بين والي **قسنطينة** ورئيسه الوالي العام بـ: **الجزائر**.

وهذا هو باختصار محتوى الملف الذي ضمَّنه الكاتب الأمريكي أطروحته التي قدَّمها لنيل الدكتورة من **جامعة ميشيـڤان**، والملف المذكور عثر عليه الأستاذ الأَمريكي بمستودع الوثائق الرسمية بجامعة (Aix en province)، وهذا المستودع هو الذي نقلت إليه السُّلطات الفرنسية الوثائق الرسمية التي كانت بمستودعات **الجزائر** حوالي سنة 1962، وأهم ما في هذا الملف قضية التعليم الرسمي الذي أُحدِث بـ: **الجزائر** وما نتجَ عنه.

نكتفي بهذا القدر الذي يعطينا صورة إجمالية على حالة التعليم بـ: **الجزائر** في العهد العثماني ـ موضوع دراستنا ـ وعملا بالقول المأثور، وهو: «ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه»، نختم هذه الدراسة التي هي كما يدلُّ عليها عنوانها: (**جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني**)، [التي] ركَّزناها على الوثائق الأصيلة، أو ما تبقَّى منها، إذ هي معرَّضة للتَّلف، وقد أضاعها جامد أو جاحد ـ على حدِّ تعبير المرحوم **الأمير شكيب أرسلان** ـ.

ولنختم هذه الدِّراسة بذِكر نُبذٍ مِن تأليف العلَّامة **عبد الكريم بن الفكُّون القسنطيني** [1]، الذي استعرض فيه جوانبَ هامة عَن الحياة الثقافية إثر احتلال العثمانيِّين لمدينة **قسنطينة** مباشرة، التي كانت تابعة إذ ذاك للدولة الحفصية بـ: **تونس، إذ** صاحبه شاهد عيان، وقد امتاز بتعرُّضِه أيضا للظروفِ التي احتلَّ فيها الإِسبان مدينة **تونس**، كما تعرَّض بتفصيلٍ إلى الحياة الثقافية إذ ذاك ـ أي: منذ بداية احتلال العثمانيِّين لـ: **الجزائر** و**تونس** ـ.

ولمكانةِ هذا العالم وتأليفه: (**منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**) نشرع أوَّلا في التَّعريف به، ثم نتعرَّض لذكر تأليفه:

عرَّف المؤلفَ **أحمدُ المقري التلمساني** صاحب (**نفح الطيب**)[2] فقال: «عالم قسنطينة وصالحها، وكبيرها ومفتيها، سلالة العلماء الأكابر، ووارث المجدِ كابرا عن كابر، المؤلِّف العلامة سيدي الشيخ **عبد الكريم الفكُّون** (حفظه الله)».

وذكر له **المقري** رسالة كاتبه بها سنة 1038هـ، جوابا عن رسالته التي أرسلها إليه مِن المشرق، وقد نقلَها عن (**نفح الطيب**) **أبو القاسم الحفناوي** في كتابه: (**تعريف الخلف برجال السلف**)، كما ترجمه **أبو سالم العياشي** في (**رحلته**) ترجمةً مسهبة، وذلك عندما اجتمعَ بولدِه الشيخ **محمد بن عبد الكريم** بـ: **طرابلس**، عند رجوعِه مِن الحجِّ، فقال: «وممن لقيتُه بـ: **طرابلس** الشيخ الفقيه النَّبيه سيدي **محمد بن** العلَّامة الفهامة الناسك الخاشع الجامع بين الظاهر والباطن، سيدي **عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكُّون القسمطيني**[3] ونفعنا به قدمها حاجا، وهو أمير ركب **الجزائر**

(1) **عبد الكريم بن محمد الفكُّون** (988 ـ 1073هـ).

(2) **نفح الطيب** (ج1 / ص: 564)، المطبعة الأزهرية مصر سنة 1903.

(3) هكذا كان **العياشي** يرسمُها في (**رحلته**): **قسمطينة**، بالميم بدَلا مِن النُّون.

و**قسنطينة**، وتلك النواحي على نهج أبيه وعادته في ذلك محافظا على سلوك سيرة والده في التؤدة والحِلم والوقار، فأحبَّتْه القلوب ومالت إليه النفوس ولم يطلع أميرا إلا في هذه السنة، وقبل ذلك إنما كان يطلع بالركب والده (رضي الله عنه)، فلما توفي قام ولده هذا مقامه في ذلك أعانه الله وسوّده، وكانت وفاته عشية الخميس السَّابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين وألف، شهيدا بالطاعون، وكانت لنا به وصلة وانتساب بالخدمة والولاء والاعتقاد الصالح لما حججتُ معه في سنة أربع وستين، ثمَّ ذكر أن ولده أعار له بعض تآليف والده فأثبت في رحلته نبذا من تأليفه المسمى: **(محدد السنان في نحور إخوان الدخان)**، ردَّ فيه على من أفتوْا بِحلِّية الدخان، وكان على رأسهم الفقيه علي **الأجهوري المصري**، كما نشر في **(رحلته)** ما يزيد على مائة بيت شعر في مدح النبيﷺ .

كانت أسرة ابن الفكُّون أسرة شهيرة توارث أفرادها العلم قرونا بداية من عميدها الأديب **أبي علي حسن بن علي بن محمد القسنطيني** المعروف بـ: **ابن الفكُّون**، بهذا عرَّفه **العبدري** صاحب **(الرِّحلة المغربية)**، نشرها وأشاد بها وبصاحبها **العبدري**، وهي منظومة تشتمل على اثنين وثلاثين بيتا، ضمَّنها رحلته مِن **قسنطينة** إلى **مراكش**، وقد استهلَّها بقوله:

أَلَا قُــل للسَّــريِّ ابــنِ السَّــريّ   أبي البـــدر الجـــواد الأريحـــيِّ

إلى أن قال:

فجئــت **بجايـــة** فجُلــت بــدور   يضـيق بوصـفها حـرف الـرويِّ

وفي أرض الجزائــر هـــام قلبـــي   بمعســـول المراشـــف كـــوثريِّ

ولا يخلو كتاب مِن كتب تاريخ الأدب العربي من هذه القصيدة.

ولنرجع إلى الحديث عَن مترجمنا **عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن يحيى**، إذ كثيرا ما اشتبه على بعض الباحثين بجده **عبد الكريم** المتوفَّى سنة 988هـ (وهي السنة التي وُلد فيها المترجَم).

شارك أفراد أسرة **ابن الفكُّون** في حياة مدينة **قسنطينة** السياسية والعلمية إلى العهد العثماني، حيث وقف والي **قسنطينة** بأمرٍ مِن الملك **الحفصي** بـ: تونس **الحسن** الذي أخرجَ **خير الدين باشا** مِن **تونس** بإِعانة الملك الصَّليبي **شارلكان**، فتعرَّض الوالي الحفصي لاحتلالِ العثمانيِّين لمدينة **قسنطينة** وانقسم السكَّان إلى قسمَين:

قسمٌ أيَّد الحفصيِّين، وكان على رأسه شيخ الإسلام **عبد المؤمن**.

وقسم انتصر للعثمانيِّين، وكان على رأسه الشيخ **عبد الكريم بن الفكُّون** (جد مترجمنا).

وقد تولى حمل بيعة سكان قسنطينة وذلك سنة 975هـ، ومن ذلك العهد نالت أسرة **ابن الفكُّون** مكانةً عِند العثمانيِّين، فخصَّصوا لها مناصب سامية، كـ: مشيَخة البلد، ومشيَخة الإسلام، وإمارة ركب الحجَّاج.

التَّعريف بكتاب:
منشور الهداية في كشف مَن ادَّعى العلم والولاية

بيَّن المؤلفُ في تقديمه الأسباب الدَّاعية إلى تأليفه، فقال: «أمَّا بعد، فلما رأيتُ الزَّمان بأهله تعثَّر، وسفائن النَّجاة مِن أمواج البدع تتكسَّر، وسحائب الجهل قَد أظلَّت، وأَسواقَ العلمِ قد كسدت، فصار الجاهلُ رئيسا، والعالم في منزلة يُدعى مِن أجلها خسيسا، وصاحبُ الطريقة قَد أصبح وأعلام الزَّندقة على رأسِه لائِحة، وروائح السَّلب والطَّرد مِن المولى فائِحة، إلَّا أنَّهم ـ أعني: الطائفتَين ـ تمسَّكوا مِن دُنياهم بِمناصب شَرعية، وحالات كانت قِدما للسَّادة الصوفية، فموَّهوا على العامة بأسماء ذهبت مُسمَّياتها، وأوصاف تَلاشت أهلها منذ زمان وأعصارها، لبَّسوا بانتِحالهم لها على أهلِ العصر أنَّهم مِن أهلها، فما راقبوا المولى أن يعاجلهم، ولا خافوا فجأةَ الموت فَما بعدَها أن تُصادِمَهم، لولا حلم مَن سبقَت رحمتُه غضبَه، فاغترُّوا وما نظروا، واستهونوا وما استبصروا، كلُّ ذلك والمولى يمهل لهم...»، إلى أن قال:

«والطائفة الأخرى سطَّرت أناملهم في قراطيس السِّجلَّات ما يُوهِم مَن لم يرَهم ممَّن يأتي في غابر الزَّمن، أنهم مِن حزب العلماء، بل ومِن مشايخهم الأَعلين، كلُّ ذلك والقلبُ منِّي يتقطَّع غيرةً على حزبِ الله العلماء، أن يُنسَب جماعةُ الجهلة المعاندين الضَّالِّين المضلِّين لهم، أو يذكروا في معرضهم، وغيرةً على جناب السَّادة الأولياء الصوفية أن تكونَ أراذل العامة، وأنذال الحمقى المغرورين، أن يتَسمّوا بأسمائِهم أو يظنّ بهم اللحوق بآثارهم، ولم آلُ في التَّنفير مِن كلتا الطائفتَين والتحذير منهم في كلِّ زمان وأوان، وبين كلِّ صالح مِن الإخوان، إلى أن أَحسستُ لسانَ القولِ قد انطلقَ

بنسبة ما لا يليقُ ذكره مِن أفواههم، فشرحَ الله صدري في أَن اعتكف على تقييد يُبدي عَوارَهم، ويفضحُ أسرارَهم، ويكونُ وسيلةً إلى الله في الدُّنيا والآخرة، لأنِّي غِرتُ على دائرة الكمال مِن أهل حضرته، وذبَبتُ جهدي باللسانِ والبنان على أهلِ صَفوته، فلا جَرم وإن كنتُ متلوِّثا بالخطايا والأَوزار، وممَّن أحمل عِدَّة مِن القبائح آناء اللَّيل وأطراف النَّهار، أن أرجو مِن الله المغفرة، فهذا الجهاد الذي هو أحدُّ مِن السَّيف، في نحور أعداء الله، وناهيك بهم أعداء، نسخوا شرع سيِّدِنا ومولانا محمد ﷺ بآرائهم، المسطَّرة بأقلامهم في سجلَّاتهم، وأحلُّوا الرشى بأَفعالِهم، والتَّمدُّح بها، والعكوف على طلبِها، والاعتِناء بأَخذها في أنديتهِم، فَهي عندهم مِن أرفع المكاسب، وأسنَى المطالب».

ثمَّ يذكر طائفة المشعوذين الدَّجالين بأَوصافهِم، ويختمُ تقديمَه بقَوله إنه رتَّب تأليفَه هذا على ثلاثة فصولٍ وخاتمة.

الفصل الأول: في من لقَيناه مِن العلماء والصالحين المقتدَى بهم، ومَن قَبل زمنهِم ممن نُقلت إلينا أحوالهم وصفاتهم تواترا، أردنا التَّنبيه عليهم، وذكر ما كانوا عليه، وزمانهم، وتاريخ وفاتهم.

الفصل الثاني: في المتشبِّهين بالعلماء، وهم الذين قصدنا بهذا التَّقييد إيضاح أحوالهم.

الفصل الثالث: في المبتدِعة الدَّجاجلة الكذَّابين على طريق الصُّوفية المرضية.

الخاتمة: في إخوان العصر وما هم عليه.

هذِه هي النِّقاط الرئيسية التي ذكَرها المؤلِّف في تَقديمه، وتعرَّض لتحليلها، وبسطها في التأليف.

والتأليف كما سبقت لنا الإشارة إِليه، فريدٌ في بابه، جديرٌ بالنَّشر لتعميم فوائدِه،

وهو علاوة على جمعِه لطبقاتِ نُخبة السكَّان مِن علماء وقُضاة ومفتين ومدرِّسين وزعماء وثوَّار ومَشايخ طرق، لم يقتصِر فيه على تراجم سكَّان مدينة **قسنطينة**، بل تحدَّث عن سكَّان الناحية، وخصوصا سكَّان الجبال المجاوِرة، كـ: **زواوة والأوراس**، ثم بعض علماء **الجزائر** و**متيجة** و**مجاجة**، وبالظُّروف التي تعرَّف فيها بهم، كما ذكرَ بعضَ علماء **تونس** الذين كانوا يُرسلون إلى **الجزائر** في مهام سياسية، أو تولَّوا وظائفَ سامية في أواخر العهد الحفصي، الذي كانت مدينة **قسنطينة** تابعة فيه لـ: **تونس**، ولهذا فإن الكتابَ ذخيرةٌ ومرجعٌ جَوهري لتاريخ **قسنطينة** في الفترة الانتِقالية مِن العهد الحفصي إلى العهد العثماني.

ويعدُّ هذا التأليف أيضا مصدرا نادر المثال للعهد العثماني في أوائله، جَرت عادة كثير مِن مؤلِّفي التراجم أن يُشيروا في تراجمهم إلى بعضِ الأحداث التي تتعلَّق بمُترجَميهم، خصوصا إذا كانت تَتعلَّق بِسيَرهم الشَّخصية، ومؤلِّفنا لم يسلك طريقتَهم، حيث قسَّم مترَجَميه إلى أربع طبقات، ثمَّ خصَّص كلَّ فرد مِن المترَجَمين بذِكر حياتِه الخاصَّة والعامة، محاسنه ومَساوئه، وجلُّ مُترجميه مِن مَعارفه ومُعاصريه، والكثير منهم مِن أَقاربه، ومن البيوتات المشهورة بالبلدة، فذكَرهم بأسمائهم وألقابهم ووظائفِهم، معتَمِدا على الحديث النبوي القائل في مثل هذه المواضيع الشَّائِكة: «اذكُروا الفاجِرَ بما فيه »، وهذا المنهج الذي سلكه المؤلِّف، وهو عالم محافِظ أجمعَ مترجِموه على أنه مِن أكابر علماء الصُّوفية الذين كانت لهم مقاييس خاصَّة يُراعونَها في سلوكِهم ومُعاملاتهِم، مُلتزمين مُراعاة الشَّرع، لا يحيدون عنه قَيد أنمُلة، هو منهج شائِكٌ وخطير في آن واحد، ولهذا نَراه مِن التآليف الغَريبة في نوعها، إذ طرقَ مَوضوعًا لم يَطرقه قبلَه غيره، وقَد اعترفَ بذلك، واتَّخذ مبررا لعملِه في منهج علماء الحديث الذين أحلُّوا تتبُّع الرُّواة بالتَّعديل والتَّجريح.

بدأ المؤلِّفُ في **(الفصل الأول)** بتراجم العلماء الذين اتَّخذهم قدوة، كـ: **عمر الوزان**، وتلامذته الذين ذكَر مِن بينهم بعض أفراد أُسرته، الذين مِن بينهم والد جدِّه **عبد الكريم**، وقد استفدنا مِن تَرجمته الظروفَ التي احتلَّ فيها الملك الصَّليبي **شارلكان تونس** بإِعانة الملك **الحسن الحفصي**، وهي صفحة لها وزنُها في تاريخ البلاد، إذ كان جدُّه **يحيى** هذا مِن جملة مَن قُتِلوا مِن علماء **جامع الزيتونة** في حلقاتِ دروسِهِم بِمَحضر الملك **الحسن الحفصي**، إذ كان يتَّهِمهم بِمُعارضتِه.

وخصَّص المؤلِّف **(الفصل الثاني)** للعلماء الذين تولَّوا مناصبَ عِلمية، كـ: القضاء، والتدريس، والإفتاء، مِن دون كفاءةٍ عِلمية، وإنما استَعملوا الرشى والتزلُّف، ولنذكر على سبيل المثال نموذجا ذكَره في ترجمة واحدٍ منهم، فقال بعدَ ذِكر اسمِه ولقبِه [1]: «كان في أول زَمانه ممَّن أحبَّنا لله وأحبَبناه فيه، وكان ذا نَجابة في أحوال الدُّنيا وطلب رياستها، تولَّى النيابة عَن قضاة العجَم ـ هكذا كان المؤلِّف يسمِّي العثمانيِّين ـ وامتُحِنَ مِن الولاة كثيرا، وسُجِن وأُغرِمَ المالَ مرَّات، وتشكَّت به العامة، وكان مَقلِيًّا عند الخاصَّة، وينسبون إليه أمورا لا يليقُ صدروها مِن عاقل، وكان يخدمُ الولاةَ ويعظِّمهم، ويَمتهِن نفسَه في مُوالاتِهم، ويعطيهم الرشى، وربما يقال ـ فيما اشتهر ـ أنَّه يتوسَّط لهم في ذلك مِن أهل البلد والرَّعايا، وينال هو مِن ذلك حظًّا، وتولَّى خطة الفتوَى في زمنِ **زكريا بن محجوبة**، وكانت له يدٌ عليه في بعضِ الأحيان، إلَّا أنه كان يستعينُ عليه بالجمع الخاص وفريق العامة، وبعدَ وفاتِه استقلَّ برياستها في التَّصدُّر، وكان أميَّ الخطاب والكتابة، لا يَعرف طريقَ الخطِّ ولا يحسنُ الرَّسم، غير عارفٍ بالهِجاء، حتى إنَّه في غالب أحواله يتفقَّد مَن يجالسه مِن أحبَّائه مَكاتبه ليصلحَ ما فيها مِن فساد

---

(1) هو أحمد ـ المدعو: حميدة ـ بن حسن الغربي، كما في **منشور الهِداية** (ص: 75)، تحقيق: أبو القاسم سعد الله. (ع)

الرَّسم، وكان في ابتداء أمره مُنصِفا واقفا عند ما يُحدُّ له »، إلى أن قال: «... وقد يكتَب له الإِفتاء في بطاقة ويصدعُ هو بها عند نقلِها بِخطِّه، ليستظهِرَ على غيره، وينسبَها إليه، وكان مَن عاصرَه لا يعتقِدون صدورها منه، لأنه عندَهم بالحضيض الأَسفل في ذلك الأمر» اهـ.

ثمَّ يذكر المؤلِّف بقيةَ مُترجَميه على هذا الشَّكل...

فهرس الموضوعات

ثورة الشَّريف بوبغلة

بطل ثورة بلاد القبائل

تأليف
الشَّيخ المؤرِّخ المهدي البوعبدلي
(رحمه الله تعالى)



مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وبعد.

فقَد اعتمدنا لإِعادة نشر هذه الرِّسالة على نسخة نشَرتها **مديريَّة الدِّراسات التَّاريخيَّة وإحياء التُّراث** التابعة لـ: **وزارة الثَّقافة والسِّياحة** ضِمن (**الموسوعة التاريخية للشباب**)[1]، والتي تهدِف كما هو مرقومٌ بظهر غِلافها بقلم الدكتور **محمد الطاهر العدواني**: «إلى تعميم الثَّقافة التَّاريخية الوطنية في أوساطِ الشَّباب الذي يبدو اليوم أكثر **تعطُّشًا** للمعرفة عامة، وللتاريخ خاصَّة»، ووافق صدور هذه الموسوعة احتفال **الجزائر** بذِكرى مرور ثلاثين سنة مِن اندلاع ثورتها المباركة.

كما اعتمدنا على نسخة خطية غير كاملة تقع في (10) صفحات، وهي بخطِّ الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** (رحمه الله تعالى)، وبعد مقابلتِها بالنسخة المنشورة لاحظنا فروقًا بينهما خاصَّة في طريقة عرض المعلومات مِن ناحية الأسلوب، وخلصنا إلى نتيجة فحواها أنَّ النَّاشر قد تصرَّف في الأصل تصرُّفًا لعلَّه يكون مأذونا فيه.

يبقى أن نشير إلى أنَّ هناك فروقا تخصُّ جانب المعنى، منها على سبيل المثال عندما تعرَّض الشيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى) للحديث عَن تفقُّد المَارِيشَال **راندُن** (Randon) لمنطِقة **القبائل الكبرى**، ذكر في المطبوعة أنه قام بذلك: «صُحبَةَ مساعِدِه الجنرال **ماك**

---

(1) طبعت بالمؤسَّسة الوطنية للفنون والطِّباعة (الرغاية) سنة 1985م، وعدد صفحاتها: 45 صفحة. (ع)

ماهون (Mac Mahon) قائِد منطقة قسنطينة»، في حين أنَّ النَّصَّ في المخطوط ورد بهذا الشَّكل: «وفي أثناءِ تفقُّدِه لمنطِقة **القبائل الكبرى** صُحبةَ زميله الجنرال (Bosquet) الذي كان يحكم منطقة **قسنطينة** »، ثمَّ علَّق **المهدي** على هذا الموضع بهامشه قائلا: «وقيل: الجنرال **ماك ماهون** (Mac Mahon) ».

وهذا التعامل مع النَّصِّ إن لم يكن بإذن الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى) فهو نوعٌ مِن التَّصرُّف المخلِّ بأمانة النَّقل.

ولما كانت النُّسخة الخطية غير تامَّة رأينا أن نُبقي الأصل المنشور على أصله، مع إضافة بعض الفقرات التي اختصرها النَّاشر الأول اختِصارا لا يخدُم المعنى الذي أراده المؤلِّف.

هذا، وقد وقَفنا بمكتبة الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** على المُراسالة التي حصلت في شأن إعداد هذه الرِّسالة بين مدير **الدِّراسات التاريخية وإحياء التراث** وبين الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، وهي وثائق لها صِلة بظروف هذا الكتاب، كما تشرح أَسباب اختيار الشَّيخ لهذا الموضوع، وجوانب اهتمامه بمضمون هذا البحث، فرأينا أنَّ إدراجها في مقدِّمة هذا الكتاب يخدمه.

عبد الرَّحمن دويب

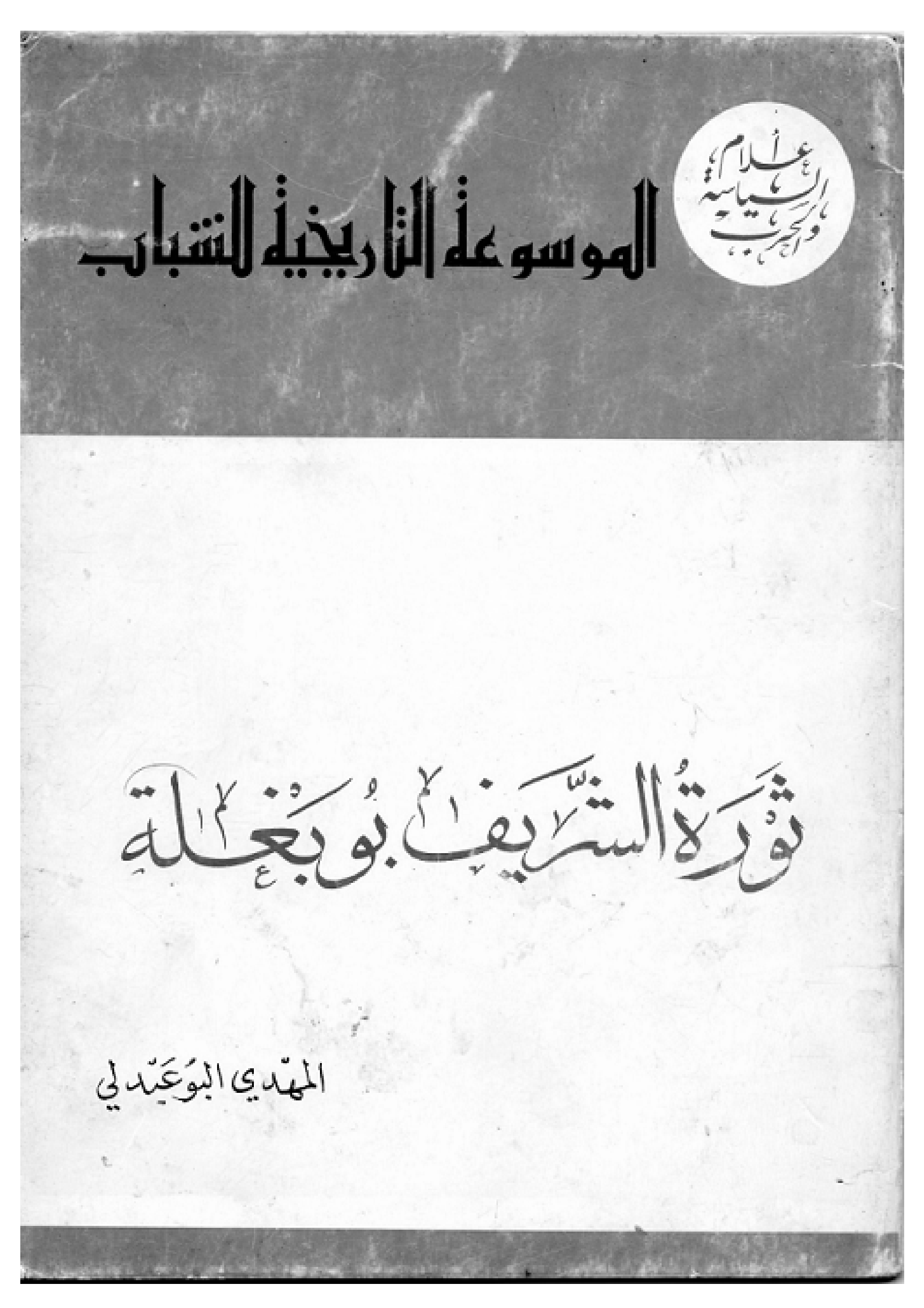
1

الشريف بوبغلة

بطل ثورة بلاد القبائل

احتلت فرنسا بلاد الجزائر سنة
1830 كما هو معلوم، ولقيت مقاومة
عنيفة محلية، الى ان ظهر في الافق
الامير عبد القادر فدامت حربه خمس
عشرة سنة وبالضبط كانت نهاية
حربه في 23 ديسمبر 1847، كانت فرنسا
بعد نهاية حرب الامير تهيمن على الجزائر
الشمالية التي تمتد رقعتها من حدود
المغرب الاقصى الى حدود جمهورية
تونس الحالية، ما عدا بلاد القبائل،
كانت بلاد القبائل آنذاك تطلق
على القبائل الكبرى (زواوة) والقبائل

صورة عن الصَّفحة الأولى من النسخة الخطية المعتمدة



صورة عن غلاف الكتاب

مراسلة بين الشيخ المهدي البوعبدلي ووزارة الثقافة

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الثقافة والسياحة.

مديرية الدِّراسات التاريخية وإحياء التراث.

السَّيد/ الشيخ المهدي البوعبدلي

الموضوع: المساهمة في تحرير موسوعة تاريخية للشباب.

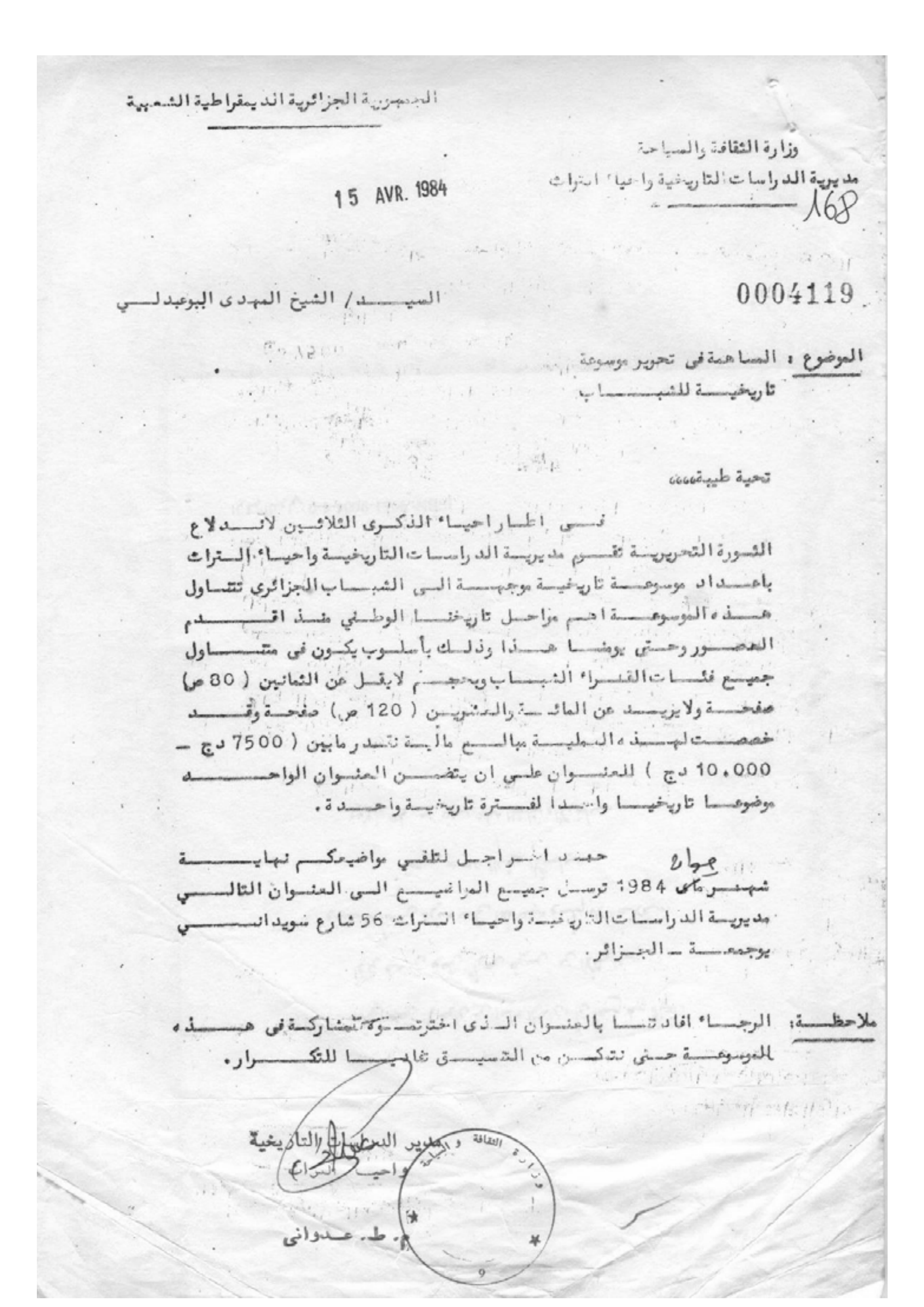
تحية طيبة:

في إطار إحياء الذكرى الثلاثين لاندلاع الثورة التحريرية تقوم **مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث** بإعداد موسوعة تاريخية موجَّهة إلى الشباب الجزائري، تتناول هذه الموسوعة أهم مراحل تاريخنا الوطني، منذ أقدم العصور وحتى يومنا هذا، وذلك بأسلوبٍ يكون في متناول جميع فئات القرَّاء الشباب، وبحجمٍ لا يقلُّ عن الثمانين (80) صفحة، ولا يزيد عن المائة والعشرين (120) صفحة، وقد خصِّصت لهذه العملية مبالغ مالية تقدَّر ما بين (7500 دج) ـ (10000 دج) للعنوان، على أن يتضمَّن العنوان الواحد مَوضوعا تاريخيا واحدا لفترة تاريخية واحدة.

آخر أجلٍ لتلقِّي مواضيعكم: نهاية شهر جوان 1984، تُرسل جميع المواضيع إلى العنوان التالي: **مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث** 56 شارع سويداني بوجمعة، الجزائر.

ملاحظة:

الرَّجاء إفادتنا بالعنوان الذي اخترتموه للمشاركة في هذه الموسوعة حتى نتمكَّن من التَّنسيق تفاديا للتكرار.



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الثقافة والسياحة

مديرية الدراسات التاريخية واحياء التراث

168

15 AVR. 1984

0004119

السيد/ الشيخ المهدي البوعبدلي

الموضوع: المساهمة في تحرير موسوعة تاريخية للشباب

تحية طيبة،،،،

في اطار احياء الذكرى الثلاثين لاندلاع الثورة التحريرية تقوم مديرية الدراسات التاريخية واحياء التراث باعداد موسوعة تاريخية موجهة الى الشباب الجزائري تتناول هذه الموسوعة اهم مراحل تاريخنا الوطني منذ اقدم العصور وحتى يومنا هذا وذلك بأسلوب يكون في متناول جميع فئات القراء الشباب وبحجم لايقل عن الثمانين (80 ص) صفحة ولايزيد عن المائة والعشرين (120 ص) صفحة وقد خصصت لهذه العملية مبالغ مالية تقدر مابين (7500 دج – 10.000 دج) للعنوان على ان يتضمن العنوان الواحد موضوعا تاريخيا واحدا لفترة تاريخية واحدة.

حدد اخر اجل لتلقي مواضيعكم نهاية شهر ~~ماي~~ جوان 1984 ترسل جميع المواضيع الى العنوان التالي مديرية الدراسات التاريخية واحياء التراث 56 شارع سويداني بوجمعة – الجزائر.

ملاحظة: الرجاء افادتنا بالعنوان الذي اخترتموه للمشاركة في هذه الموسوعة حتى نتمكن من التنسيق تفاديا للتكرار.

مدير الدراسات التاريخية واحياء التراث

م. ط. عدواني

صورة عن الصَّفحة الأولى مِن الرِّسالة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بطِّيوة في: 27 رجب 1404هـ/ 29/ 4/ 84م

حضرة الفاضِل المحترَم السيِّد مدير الدِّراسات التَّاريخيَّة بوزارة الثَّقافة.

تحيَّات الوُدِّ والإِخاء، وبعد:

فإِنِّي تشرَّفتُ بِكتابكم رقم: 0004119 المؤرَّخ في 19 أفريل الجاري، المتضمِّن الدَّعوة إلى المشاركة في تحرير الموسوعة التَّاريخيَّة للشَّباب، في إِطار إحياء الذِّكرى الثَّلاثين لاندلاع الثَّورة الجزائريَّة.

وإِنَّني مع أُمنيتي أَن أكونَ عِندَ حسنُ ظنِّكم اخترتُ موضوعَ المشاركة: **حياة الزَّعيم بوبغلة**، وذلك لعدَّة أسباب، مِن بَينها تسرُّب غلطة تاريخيَّة اعتمَدها جلُّ مَن كتبَ عنه مِن مُواطنين وأَجانب، وهي استِشهاده في معركة معَ خصُومه الموالين للجَيش الفرنسي، وقَد اكتشفتُ وثيقةً تاريخيَّة رَسميَّة بِأَنَّه قُتِلَ في كَمينٍ دبَّره له خصُومه، وهو على مائِدة فطور، ثمَّ أُشيعَ أنَّه قُتِلَ في معركة، وقد حرَّر تقريرا رَسميًّا في الموضوع رئيسُ الفِرقة الموالي للجيشِ الفرنسي إلى الحاكم العَسكري بالمنطقة، وبقيَ هذا التَّقريرُ بِبَعضِ مُستَودعاتِ الوثائق الرَّسميَّة التَّابِعة للجيشِ الفرنسي، إِلى أن اكتُشِفَ منذُ عشر سَنوات تَقريبا، أَطلعَني عليه مكتَشِفُه الذي عيِّن مُديرا لـ: **متحفِ الجيش**.

ونظرا لتسرُّبِ هذِه الغلطاتِ في تاريخِ بِلادنا، أَردتُ أَن أَغتَنِمَ هذِه الفُرصة لإِثباتِ الحقيقة، إِذ سبقَت لهذِه الغلطة غلَطات ما زالَت ساريةَ المفعولِ حتَّى في الدَّوائر الرَّسميَّة، مِثل تاريخ تأسيس **مسجد القيطنة،** الذي تربَّى فيه **الأَميرُ عبد القادر،** فقَد اتَّفق كلُّ مَن كتبَ عنه بأَنَّه أُسِّس سنة 1206هـ، ونجِدُ تاريخَ بعضِ الوَثائق الرَّسميَّة

الأَصيلة تُثبِتُ أنَّ هذا المسجِدَ الذي أسَّسه جدُّ الأَمير السَّيد **مصطفى ابن المختار** وعيَّن فيه أُستاذه **ابن عبد الله المشرفي** مدرِّسًا، و**المشرَفي** هذا توفي سنة 1192 ـ أي: قبلَ 1206 بأَربعة عشَر سنة ـ وهذِه الغلَطات صارَت تَنعكِسُ على صِحَّةِ تاريخنا الذي تربَّص به خصُومُنا به (كذ) الدَّوائر، واتَّهموا مؤرِّخينا بالزُّور، مثل ما قامَ به **وليام مارسي** في تأليفه الذي نشَره بِمُناسَبة الِاحتِفال المِئَوي للاحتِلال، وحكمَ على المصادِر الإِسلاميَّة بِعَدمِ الصِّحَّة، مُعتَمِدا على مِثل بعضِ هذِه الغلَطات.

وفي الخِتام تقبَّلوا تحيَّاتي الوِداديَّة.

المهدي البوعبدلي

بسم الله الرحمن الرحيم

المهدي البوعبدلي
ص.ب. رقم 2
بطيوة (وهران)

بطيوة في 27 رجب 1404 هـ
84 - 9 - 29

حضرة الفاضل المحترم السيد مدير
الدراسات التاريخية بوزارة الثقافة
تحيات الود والإخاء
وبعد فإني تشرفت بكتابكم (رقم 4119 000
المؤرخ في 19 أفريل الجاري) المتضمن الدعوة
إلى المشاركة في تحرير الموسوعة التاريخية
للشباب في إطار إحياء الذكرى الثلاثين لاندلاع
الثورة الجزائرية
إنني مع أمنيتي أن أكون عند حسن ظنكم
اخترت موضوع المشاركة حياة الزعيم بوبغلة
وذلك لعدة أسباب من بينها شيوع
غلطة تاريخية اعتمدها جل من كتب عنه من
مواطنين وأجانب وهي استشهاده في
معركة مع خلوصه الموالية للجيش الفرنسي
وقد اكتشفت وثيقة تاريخية رسمية بأنه قتل
في كمين دبره له خلوصه وهو على مائدة فطور

صورة عن الصَّفحة الأولى مِن الرِّسالة

الشَّريف بوبغلة
بطل ثورة بلاد القبائل سنة 1851م

احتلَّت **فرنسا** بلادَ **الجزائر** سنة 1830م كما هو معلوم، ولَقيت مقاومةً عنيفة محلِّية، وبعد مرُورِ سنتَين مِن احتِلالِ أمَّهاتِ مدُنِ الشَّواطئ: **الجزائر**، و**وهران**، و**عنابة**، ظَهرَ في الأُفقِ الأَميرُ **عبد القادِر** الذي دامَت مُقاومَته المسلَّحة (15) سنة، وذلِك أنها انْتَهت رَسميًّا في: 23 ديسمبر 1847م.

كانت **فرنسا** بعدَ نهايةِ حربِ الأَميرِ **عبد القادر** تُهيمِنُ على بِلادِ **الجزائر** الشَّمالية التي تَمتدُّ رُقعتها مِن حدودِ **المغربِ الأَقصى** إلى حدُودِ جمهورية **تونس**، ما عَدا بِلاد القبائل.

كانت بلاد القبائل إِذ ذاك تُطلقُ على القبائل الكبرَى (**زواوة**)، والقبائل الصُّغرَى التي تَشملُ: وادي **بِجاية**، و**جبل بني يعلَى** العَجيسي، ثمَّ قبائل الحضرة التي تَشملُ: شَرقَ **بجاية**، و**جيجل**، و**جبال بابور**، ومدينة **القُل**.

وفي سنة 1844م حاولَ الماريشال بِيجُو (Bugeaud) الهجوم على بلاد القبائل واحتلالها انطِلاقا مِن قبِيلة **بني عباس** بـ: **وادي بِجاية** و**سور الغزلان**، فلَم تُوافِقه حكومة بِلاده.

وفي سنة 1849م هاجمَ الجيشُ الفرنسي الذي كان تحتَ قيادةِ الكولونيل **سانْطارنو** (St.Arnaut) قبائل الحضرة مبتَدِئًا بـ: **ميلة** و**جيجل**، فباءَ بالفَشلِ الذَّريع.

وفي سنة 1851م ظهر الزَّعيمُ **الشَّريف بوبغلة**، الذي هاجمَ مدينة **بجاية**، فتولَّى

مُقاومتَه قائد المنطقة الجِنرال **هوطبول** (Haute-Poul)، وكانت حربَ كرٍّ وفرّ، حيث جرَّهُ إليها **بوبغلة،** واقتنعَ الجنرالُ **هوطبول** المذكور أن يتتبَّعَ آثارَ **بوبغلة** بتتبُّعِ آثاره والانتِقام مِن القبائلِ التي كانت تأْويه، فيهدمَ مساكِنها، ويحرق أشجارَها، ويختطف مكاسِبها، وحينئذ عُيِّن المَارِيشَال **رَانْدُن** (Randon) واليًّا عَامًّا علَى **الجزائر**، فأَرسلَ إلى **هوطبول** (Haute-Poul) الجنرالَين: **بوسكي، وكامو** (Bosquet) et (camou) ليشدَّا أزرَه، فلم يظهر لهما نتيجة في تتبُّع آثار **الشَّريف بوبغلة،** فاقْتنَعا بأن يتَّبِعا الخطَّةَ التي سلكَها **هوطبول،** أي: الانتِقام مِن القُرى التي كانت تتَّصِلُ بالزَّعيمِ **بوبَغلة،** حتَّى أُحصِيَت القُرى التي هدَّموها بثلاثمائة (300) قَرية، فحينئِذٍ انتقلَ الزَّعيمُ **بوبغلة** إلى **القبائل الكبرى (زواوة)،** فانتصَرت له قبائل **قَشْتولَة،** و**المعاتقة،** و**بَني عباس** [1]، و**فليسة،** وكانَ الذي تَولَّى تتبُّعَ آثارِه قائِدُ المنطِقَة الكولونيل **بُورْبَاكي** (Bourbaki)، إلا أنَّه لم يغيِّر خطَّةَ حربِ أَسلافِه: هدم المنازِل، وحرق الأَشجار، واختطاف الممتلكات.

كانَ المَارِيشَال **راندُن** (Randon) بمُجرَّدِ تَعيينه واليا عامًّا، ثمَّ وزيرَ حَربٍ يُخطِّط خططه لإلقاءِ القبضِ على **بوبَغلة** والاستيلاء على **القبائل الكبرى،** فابتدَأ بتَعبيد الطرُقِ الرَّئيسية الرَّابطة بين **بجاية** و**سطيف** و**سور الغزلان،** ثمَّ بين **بجاية** و**دلس**[2].

كان **راندُن** خَبيرا بأَحوالِ **الجزائر،** إذ سبَقَ له أن تولَّى سنة 1838، على منطقة **عنابة** ثمَّ منطقة **وهران** [3].

---

(1) في النسخة المخطوطة: «عيسى». (ع)

(2) في المطبوعة: «الطرق التي تربط بجاية بسطيف من جهة، وبدلس من جهة أخرى»، والمثبت مِن النسخة المخطوطة. (ع)

(3) في المطبوعة: «تولَّى قيادةَ مناطق عنابة سنة 1838، ثمَّ منطقتَي قسنطينة ووهران »، والمثبت مِن النسخة المخطوطة. (ع)

وفي أثناءِ تفقُّدِه لمنطِقة **القبائل الكبرى** صُحبةَ زميله الجنرال (Bosquet) الذي كان يحكم منطقة **قسنطينة** [1] شاهدا امرأة مرتدِيَة كساءً حمراء [2] تحرِّضُ فِرقةً مِن المقاتلين، ولاحَظا أنَّ أولئك المحاربين مِن نوع لم يسبق لهما رؤيتهم، وبعدَ نهاية المعركة وفَحصِ جُثثِ الأموات، وجَدوا الكثير مِن أولئكَ المقاتلين، زيادةً على أنَّهم كلهم شبَّان لا تَتجاوز أعمارهم العشرينَ سنة، والذي هالهم هو أنَّهم كانت ثيابُهم مربوطةً بعضُها ببَعضٍ، فأمر **رانْدُن** باستِقصاءِ الخبَر، وكلَّفَ الجنرال **هانوطو** بتلك المهمَّة، فأفادَه بأنَّ المحَرِّضة على القتال، هي: **لالَّا فاطمةَ اليتورغية** ـ مِن **بني يتُّورغ** ـ وهي زَميلة **الشَّريف بوبغلة** ومُساعدته، إذ هما مِن تلامذةِ الشَّيخ **المهدي السَّكلاوي** رئيس الطَّريقة الرَّحمانية في عهدِه.

أمَّا الفِرقة التي في مَيدانِ القِتال فَهي فِرقة **المسبَّلين** الذين يسمُّونَهم: «**ايمْسَبْلَن** »، فَسنَتحدَّث عنها في مَوضعِها مِن هذه الدِّراسة ـ.

وفي تلك الأَثناء كان بعضُ سكَّان **القبائل الصُّغرى والكُبرى** عقَدوا مع الجيش الفرنسي مُهادَنات احتفَظوا بها على استِقلالِهِم الدَّاخلي، وقد كلَّفتهم خسائر فادِحة، إذ دامَت هذه الحروب حوالي ثماني سنَوات ـ أي: مِن سنة 1849 إلى سنة 1857م ـ ولما هاجمَ الماريشال **راندُن** قبيلة **بني يراثن** سنة 1857، إذ كان سبقَ له أن عقدَ هُدنةً معها سنة 1854، كان جيشه الذي أرسله لقَمعهِم يشملُ 35 ألف جندي، ولم يبقَ في الميدان إلَّا قبائل **بني منجلات**، وحينئذ ألقي القَبضُ على **لالَّا فاطمة اليتورغية** التي كانت

---

(1) في المطبوعة: «صُحبَةَ مساعِدِه الجنرال **ماك ماهون** (Mac Mahon) قائِد منطقة قسنطينة »، والمثبت مِن النسخة المخطوطة، وعلَّق بهامشها الشَّيخ **المهدي** على هذا الموضع قائلا: «وقيل: الجنرال **ماك ماهون** (Mac Mahon)». (ع)

(2) في المطبوعة: «كساءً أحمر وهي على ربوة»، والمثبت مِن النسخة المخطوطة. (ع)

مرابطة بـ: **بني يليته،** وأشيع بأن **الشَّريف بوبغلة** قُتل في قرية مِن قبيلة **بني عباس** بـ: **وادي بجاية،** قتلَه سكَّانُ النَّاحية الذين كانوا يقاتلونَ في صفوفِ الفرنسيِّين، والخبر الذي أُشيعَ غيرُ صَحيح، حيث دبَّر له أعداؤُه كمينًا قتل فيه غَدرا كما سنبيِّن ذلك.

الفِداءُ والمسبَّلون

إنَّه كما سبقَت لنا الإشارة إلى ذلك أنَّ المسبَّلين اكتشِفوا لأوَّل مرَّة في ثورة الشريف بوبغلة لما زار منطقة الحرب الماريشال (Randon) الوالي العام بالجزائر، ومساعده **بوسكي** (Bosquet) قائد منطقة قسنطينة إذ ذاك.

وكانت **لالا فاطمة اليتورغية** تحرِّض مِن أعلى ربوة فِرقة لا عهدَ للجنرالَين بها، وكلَّفوا خبراءهم بالبحث عنها، فظهرت عدَّة دراسات قيِّمة، سنذكر بعضها.

والمسبلون الذين كان يطلق عليهم القبائل: (إِمْسَبْلينْ) (Imsseblen) نوعٌ مِن الفِدائيِّين، والفداءُ معروفٌ عند المسلمين مِن عهدِ الفتوحات الإسلامية، عرَّفه الباحثون المسلمون وقالوا: إنَّ أصلَه مِن الكتاب والسُّنة، فقَد وردت فيه آيات قرآنية وأحاديث نَبويَّة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ (التوبة: 111)، أي: سواء قَتلوا ورجَعوا أو قُتِلوا.

ولهذا ذهبَ بعضُ الصَّحابة إلى أن كلَّ مؤمنٍ له بيعة في عنقِه، فإنه بايعَ الله على القتالِ في سبيلِ الله، وجزاؤُه الجنَّة.

وقد ذكر **أبو عبد الله محمد الحضرمي الأَندلسي** في تأليفه: (**الفرائد المرويات في فوائد الثُّلاثيات**) ـ أَي: **ثلاثيات الإمام البخاري** ـ في حديثٍ يتَّصل سنده بالصَّحابي الجليل **سلمة ابن الأكوع** الذي قال: «بايعتُ رسولَ الله ﷺ، ثمَّ عدتُ إلى ظلِّ شجرة، فلما خفَّ النَّاس، قال: يا **ابنَ الأكوع**، أَلا تُبايع، قال قلت: قد بايَعتُ يا رسولَ الله،

قال: أيضا، فبايعتُه الثانية، فقلت: يا أبا مسلم، على أيِّ شيء كنتُم تُبايِعون يومئذ ؟ قال: على الموت».

وقد قام الصَّحابةُ الكرام (رضي الله عنهم) بأَعمالٍ فِدائية في عهدِ رسول الله ﷺ، وبأمر منه، فهي سنَّةٌ عملية مِن سُننِ الإِسلام.

فمِن هذا يتبيَّن لنا أن العملَ الفدائي مشروعٌ كتابا وسنةً وإجماعًا، وهو نوعٌ مِن الجهاد الذي حضَّ عليه الشَّرعُ ورغَّب فيه عَينيًّا على كلِّ مسلم، وأن القائمين به يعدُّون مِن السابقين الأوَّلين المستحقِّين للمدح الذي خصَّ الله به سلَفهم في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد: 10)، قيل: إنَّ أول فِدائي في الإسلام الخليفة **علي ابن أبي طالب** (كرم الله وجهه)، حيث خلَف النبيَّ ﷺ في فِراشه ليلة الهِجرة تضليلاً للمشركين الذين كانوا يتربَّصون إلى قتله، وتفقَّدوه بالفعل في تِلك الليلة، إلا أنَّهم كانوا يجِدونه مُلقى على فِراشه فاطمأنُّوا إلى وجوده، إلى أن بوغِتوا في الصَّباح حين رأَوا **عليا** خارجا مِن المنزل، فلم يتمالكوا وتَسابقوا إليه يَسألونه عَن النبي ﷺ: أين ذهَب ؟ فما كان جوابه إلا أنه لا يعلم عنه شَيئا، وقد ذكر المؤرِّخون وأصحابُ السِّيَر عِدَّة فدائيِّين مِن الصَّحابة والتابعين، كـ: **محمد بن مسلمة الأنصاري** ورفيقه، اللَّذَين قَتلا اليهوديَّ المتَّهم بإذاية النَّبيِّ ﷺ وأصحابِه، وإننا لا يمكِننا تتبُّع الأعمال الفِدائية في التاريخ المترع بِروعة التَّضحية في سبيل الله وبالفِداء.

إنَّ كثيرا مِن المؤرِّخين بهَرتهم انتصارات الفاتحين ومَن خلفهم، وقضائهم على دولٍ عظيمة قويَّة، فمِن ذلك أن **البابا ليون الرابع** (Léon 4) (886م ـ 912م) لما جمعَ المؤتمر الشَّهير للملوك المسيحيِّين في عهده بـ: **فرنسا**، لإِحداث جيش دولي موحَّد لمحاربة أَعداء المسيحية، وكان هذا الجيشُ أول نَواة للحملة الصَّليبية، وعدَ فيه **البابا** المذكور

المحاربينَ في سبيل العقيدة المسيحية، وَعدَهم بالجزاءِ الإلهي لكلِّ مَن مات مُقاتِلا، إذ كانت تعاليم المسيحية تحرِّم في أول عَهدِها قتلَ النَّفس، وتَرى المحاربَ الذي يموتُ في هذِه الأنواع مِن الحروب قام بمُنكَر في الدِّين المسيحي، حيث إنَّ رؤساءَهم كانوا يحرِّمون رفع السُّيوف وهَدرَ الدِّماء، إلى أن نقضَ هذه الفكرة **سانَت أوغستان** في عهدِه ـ أي: في القرن الرابع المسيحي ـ وفرَّق بين الحروب المباحة والحروب المحرَّمة.

ولننتَقِل الآن إلى الحديث عَن البيئة التي نشأَ فيها **الشَّريف بوبغلة** ـ موضوع دراستنا ـ.

البَيئة التي تكوَّن فيها الشَّريف بوبغلة

كانت هذه المنطقة ـ أي: بلاد القبائل ـ تابعة لقَبيلة **كُتامَة** المشهورة، التي آوت ونصرت مؤسِّسي الدولة **العُبيدية الفاطمية** على أَرجح الأقوال انطلاقا مِن القرن الثالث الهِجري، وقبيلة **كتامة** كما عرَّفها الكثير مِن المؤرِّخين والجغرافيِّين مَوقعها يمتدُّ مِن شمال جمهورية **تونس** الحالية شَرقا إلى مدينة **دلَّس**.

ولنقتَصِر على تعريف المؤرِّخ الخبير **عبد الرَّحمن ابن خلدون** الذي قال: «تمتدُّ مِن **دلَّس** غَربا إلى **عنابة** شَرقا إِلى **الأوراس** جنوبا، وكانت لهم مدن، منها[1]، **بجاية، إيكجان، سطيف، باغاية، نقاوس، يلزمة، قسنطينة، القل**».

ثم واصل **ابن خلدون** تعريفه فقال: «وعَدَّ **ابن حزم** مِنهم **زواوة** بجميع بطونهم، وهو الحقُّ على ما تقدَّم، ولم يزالوا على هذه الحالة مِن لدُن ظهور الملَّة [2] وملك المغرب إلى دولة **الأغالبة**، ولم تكن الدَّولة تسومُهم [3] بهَضيمة، ولا ينالهم تعسُّف لاعتِزازهم بكثرَةِ جموعِهم، كما ذكره **ابن الرَّقِيق** [في **(تاريخه)**]» اهـ تعريف **ابن خلدون**.

تركت قبيلة **كتامة** بَصمات أصابِعها في تاريخ البلاد، إذ في ناحية مِن نواحيها تكوَّنت الدَّولة **العُبيدية الفاطمية** التي ارتاعَت لظهورها الخِلافة **العباسية** بالمشرق

---

(1) في المطبوعة: «وكانَت لهم مدنهم بجاية ...»، وهذه النقول عن **ابن خلدون** نَقلها الشَّيخ **المهدي** بتصرُّف. (ع)

(2) في المطبوعة: «الملك». (ع)

(3) في المطبوعة: «تسمونهم». (ع)

والخلافة **الأموية** بالأندلس وبلاد المغرب، كما تكوَّنت في رُبوع قبيلة **كتامة** أَعظم دولة ثانية، وهي دولة **الموحِّدين** بـ: **ملَّالة**، بِضَواحي **بجاية**، والتي لا زالت تحتفِظ بمسجدها البسيط الذي أسَّسه الخليفة **عبد المؤمن بن علي**.

اشتهَرت بلاد القبائل ـ أي: الصُّغرى والكُبرى ـ بِمعاهد عِلميَّة تخصَّصَ الكثير منها في علمِ القِراءات، كما ذكر ذلك العلَّامة **عبد الكريم الفكون القسنطيني** (988هـ/ 1073م) في تأليفه النَّادر المِثال: (**منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**)، فقَد ذكر أنَّ كثيرا مِن علماء **قسنطينة** و**تونس** كانوا يشدُّون الرِّحالَ إلى مَعاهدِها للتخصُّصِ في فنِّ القِراءات، كما احتفظَت مَعاهدُها بدراسة العلومِ طيلةَ قرون، وقَد احتفظَ لنا التاريخُ بإجازاتِ بعضِ مَعاهدِها، لا تقِلُّ الفنون التي كانت تدرَّس فيها عن الفنون التي كانت تدرَّس بالجامعات الإسلامية الشَّهيرة، كـ: **الأزهر** بمصر، و**الزيتونة** بتونس، و**القرويِّين** بالمغرب، ورغمَ الاحتلال الإسباني الذي خرَّب **بجايةَ** وقضى على مآثرها، ثمَّ الاحتلال الفرنسي الذي استعملَ جميع الوسائل للحيلولة بين السكَّان وقراءة العربية، فقَد احتفظت البلادُ بكثيرٍ مِن معاهدها، كـ: **معهد أحمد بن إدريس** (**شيخ ابن خلدون**)، و**معهد عبد الرحمن اليلُّولِي**، و**معهد بني يعْلَى**، و**معهد يحيى العَيدَلِي** الذي أقام فيه سَنوات العالم الشَّهير **أحمد زرُّوق البرنسي الفَاسِي**، وألَّف فيه كثيراً مِن كُتبِه.

وبعد الحملةِ الصَّليبية التي ترأَّستها **إسبانيا** على بلادِ المغربِ العربي، وسقطت بسببهَا كثيرٌ من مدُنِ سواحلِ **المغربِ الأَقصَى**، كـ: **مليلية**، و**سبتة**، الَّلتَين لا زالتا تَرزحان في قُيود الاحتلالِ الإسباني، ثم **بجاية** فـ: **تونس** و**طرابلس**، فقَد انقَسمت بلاد القبائل إلى قِسمَين، فقَد تكونت إمارة بالقبائل الصُّغرى التي كان على رأسِها **أحمد ابن القاضي الزَّواوي**، الذي كان في أوَّلِ عهدِه قاضيا بمدينة **بجاية**.

ولما ظهرت الدَّولةُ العثمانية وأخرجَت **الإسبانَ** منها بعد احتِلالهم لها حوالي نِصف قرن، كانت الإمارتان تتمتَّعان باستقلالٍ داخلي، كما كان الحالُ أثناء ثورة **الشريف بوبغلة** ومُساعدته **لالّا فاطمة اليتورغية** (1851 ـ 1857)، التي رغم حَربِ الكرِّ والفرِّ كانت القَبيلتان تَحتفِظان بشِبه استِقلالٍ داخلي، ولو تكلَّف للسكَّان غاليا، إذ فُرضت عليهم ضرائب فادِحة، ورَهائن طيلةَ السَّنوات المذكورةِ إلى أن كانت ثورة الشَّيخ **ابن الحدَّاد** سنة 1871م، **فألغَت فرنسا** كلَّ ما تعهَّدت به نحو السكَّان، وفرضت على سكَّان القبائل (الصغرى والكبرى) ضريبةً ماليةً جائرةً قدرُها اثنانِ وثلاثونَ مليون فرَنك، ومُصادرةِ نصف مليون هكتار صالحةً للزراعة، والتي وزِّعَت على المعمِّرينَ مباشرة، وأحصي عدَدُ سكانِ القبائل عند اندلاع **ثورة ابن الحدَّاد** سنة 1871م، فكان عددهم ثمان مائة ألف نسمة، شارك في المقاومة المسلَّحة منهم مائتا ألف، بين رجالٍ ونساءٍ وصبيان.

واعترفت السُّلطات الفرنسية أنَّ عددَ أفراد جيشها النِّظامي كان عددُه اثنين وثمانين ألف جندي (82000)، كان عدد المعارك التي دارت رحاها في تلك الآونة: 300 معركة، وحينئذٍ أُلغيَت جميع المعاهدات التي أُبرِمَت أثناء **ثورة بوبغْلة** مع بعضِ القبائل التي احتفَظت بالاستِقلال الذَّاتي.

اصطبغَت ثورات بلاد القبائل مِن بدايتها إلى نهايتها بأنها اكتسبت صِبغةً دينية، وكان جلُّ قادتها ينتَمون إلى **الطريقةِ الرَّحمانية،** فكلُّ مَن كتبَ عَن هذه الثَّورات مِن العسكريِّين والسياسيِّين إلَّا واعترف أنَّ أولي الحلِّ والعقدِ في هذه الثَّورات كان لمقدمي الطريقة المذكورة.

وقبلَ أن نتحدَّثَ عن دَورِ **الطريقة الرحمانية** في هذه الثَّورات، نُنهي حديثَنا عن **الشَّريف بوبغْلة،** إذ تسرَّب خطأ في سَببِ وفاته، فكلُّ المصادر الفرنسية تَذكر أنه قُتِل

أثناء معركة قُرب **قبيلة بني عباس ـ وادي بجاية** ـ خاضَ غِمارَها مع مُواطنيه الذين كانوا مُوالين للفرنسيِّين، وسلَّم هذه الرِّواية حتى الرأي العام، ومنذُ ستِّ سَنواتٍ ظَهرت حقيقة مَوته بِصفة جليَّة، وذلك أنَّ الرائد **محمد زروال** عيِّن مديرا على **متحف الجيش** بـ: **حي القبة**، فوجَد في ملفٍّ مِن ملفَّاتِ **المتحف** المهملة وَثيقةً لها أهميةً عُظمى، إذ هي عبارة عَن تقرير يتعلَّق بالظُّروف التي استشهدَ فيها الزَّعيم **الشَّريف بوبغلة**، وذلك أنَّ قائدَ الجيشِ الفرنسي بالمنطقة التي قُتِلَ فيها الشَّريف **بوبغْلة** أَمرَ رئيسَ الفِرقة المرتَزقة بِمُوافاتِه بِتقرير مفصَّلٍ عَن مَوت **بوبغلة** الذي أَشاعوا أنه هاجَمَهم ليلاً وهم غافِلون، فالتقَى الجيشان ـ أي: المرتزقة مِن جِهة **وبوبغلة**، وأصحابه من جهة أخرى ـ فقتِلَ **بوبغْلة** أَثناء المعركة، وهذِه الرِّواية هي التي تَمالأَ عليها المؤرِّخون الفرنسيُّون، وسلَّمها الرأيُ العام، إلى أن اكتُشِفت الحقيقة في هذه السَّنوات الأخيرة كما سبقَت الإِشارة إلى ذلك، فتبيَّن مِن التَّقرير الذي عثَر عليه الرائدُ **محمد زروال** بـ: **متحف الجيش في القبة** بأنَّ **بوبغلة** قُتِلَ خَنقًا في دار مُضيفه الذي كان يتردَّد عليه المرَّة بعد المرَّة، ولما سمع به قائد المرتَزقة دبَّر له كميناً مع مُضيفِه، إذ لَّما قدَّمَ له طعامَ العشاءِ كان أربعة رجال أشدَّاء هيَّأوا له شبكةً مِن الحِبال ألقَوها عليه فخُنِق، وقد رأَى المدبِّرُ لهذه الخديعة أنه إِن أَعلنَ موتَ **بوبغلة** بهذه الكَيفية يخشَى على نفسِه، حيث إنَّ المقاومين لـ: **بوبغلة** لم تُرضِهِم [هذه الخديعة]، فدبَّر في المكيدة التي كلَّف بها بعض أصدقائه الخواص، فأطلقوا النار، وفي الصَّباح أَشاعوا أن **بوبغلة** هاجَمهم ليلا فَتقاتلوا وماتَ في المعركة.

وقد بلَغني وأنا بصدَدِ تحرير هذه الدِّراسة أنَّ التَّقريرَ المذكور نُشِر في المدَّة الأخيرة ببعض نَشراتٍ تابعة للجيش الشَّعبي الوطني.

هذه هي الظروف التي استشهدَ فيها البطلُ **الشَّريف بوبغلة**، الذي أقضَّ مَضاجع عَشرات الآلاف، بين جنود وضبَّاط طيلةَ سَنوات [1].

أمَّا مساعدتُه **لالَّا فاطمة اليتورغية** فقَد أُلقيَ عليها القَبض، وسُجنت بمُعسكرٍ للجَيش الفرنسي، إلا أنَّها كان السكَّان يشدُّون إليها الرِّحال يوميا، وكان عدد زوَّارها اليومي كثيرا ما يَربو على المائتَين، رجالا ونساءً وصِبيانا [2].

ولنَرجع إلى إتمامِ الحديثِ عَن الصِّبغة الدِّينية التي اصطبغَت بها ثوراتُ بلادِ القبائل مِن البِداية إلى النِّهاية ـ أي: مِن بِداية ثورة **الشَّريف بوبغلة** إلى ثورة **الحدَّاد** سنة 1871م ـ وقد خصَّهَا كثيرٌ مِن الباحثين الفرنسيِّين، مدنيِّين وعسكريِّن، بدراساتٍ قيِّمَة، وكلُّهم متَّفِقون على أنَّ **الطَّريقةَ الرَّحمانية الخلوتية** هي التي كان لها التَّصَرُّف المطلَق في هذه الثَّورات.

---

(1) قال **أبو القاسم سعد الله**: «أَرسل الفرنسيُّون رؤوسَ **الشَّريف بوزيان** (زعيم ثورة الزّعاطشة)، و**الشَّريف بوبغلة**، و**شريف** (ثورة تبسة)، وتسعة رؤُوس أُخرَى إلى قِسمِ الأُنثروبولوجيا بـ: **متحف باريس**»، وأحال على: **المجلَّة الإفريقية**: سنة 1885، (ص: 79 ـ 80)، انظر: **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر** (2/ 240)، هامش رقم: 2. (ع)

(2) وقفنا على معلوماتٍ دوَّنها الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى) في كناشٍ له لها علاقة بموضوع هذا الرِّسالة رأينا أنَّ إدراجها بهامش النَّصِّ يخدم الموضوع، قال: «**لالَّا فاطمة نسومَر**: أُلقيَ القبضُ عليها بـ: تيزي وزو (تيروردة) ومعها 255 جندي مِن أنصارها، فيهم الرِّجال والنِّساء والصِّبيان، واقتيدَ الجميعُ إلى **مُعسكَر** الجنرال يوسف العلج، ثمَّ إلى **معسكر** المارشال بـ: **جامع تمسقيدة** (Timésguida)، ثمَّ سُجِنَت **لالَّا فاطمة** بـ: تابلاط، بزاوية سيدي **الطاهر ابن محيي الدِّين باشاغا بني سليمان**، صُحبةَ إخوتها: سي **الطاهر بن أحمد أومزيان**، وسي **محمد**، وسي **الشريف**، وسي **الهادي**، وأفراد أُسرتها ـ ثلاثون فردا ـ وكانت ثروة الأسرة تقدَّر بـ: مائة ألف فرنك نَقدا وصِياغة، و(83) ثورا، و(10) بِغال، و(250) رأس غنم، و(50) بندقية، و(160) مخطوطة قيِّمة، مات أخوها سي الطاهر سنة 1861، وماتت لالَّا فاطمة سنة 1863، وقد أُلقيَ عليها القبضُ سنة 1855». (ع)

الطَّريقةُ الرَّحمانية
وتاريخُ انتِشارِها في بلاد القبائل

أصلُ هذه **الطَّريقة** في مصر، وتُعرف بـ: **الخلوتية**، وقد نقلَها مِن **مصر** إلى **الجزائر** الشَّيخُ **محمد بن عبد الرَّحمن القشتولي الجرجري** المولود في سنة 1126هـ بقرية **آيت إسماعيل**، قبيلة **قشتولة** بـ: **الجرجرة**.

كان **محمد بن عبد الرَّحمن** ينحدِر مِن أسرة دينية مشهورة، ابتدأ تعليمَه بزاوية الشَّيخ **أوعراب** بـ: **بني يراتن**، ثمَّ سافر إلى مدينة **الجزائر** ليواصلَ تعلمَه بها.

وفي سنة 1152هـ/ 1739م ذهبَ إلى الحجِّ، وبعد أدائِه فريضةَ الحجِّ ذهبَ إلى **مصر** فالتحقَ بـ: **الجامع الأزهر**، فأخذَ عن كثيرٍ مِن أعلامِها المشهورين، مِن بينهم الشَّيخ **محمَّد بن سالم الحفني**(1) الذي كان يترأَّس **الطَّريقة الخلوتية**، فانخرطَ **محمد بن عبد الرَّحمن** في الطريقة الخلوتية وكان من المقرَّبين لدَيه، وحينئذٍ كلَّفه شيخُه بالذَّهاب إلى **السُّودان** لنَشر الطَّريقة، وطالت إقامته بـ: **السُّودان** حَوالي ثلاثين سنة، إذ لقيَ إقبالاً لا نظيرَ لهُ، وبعد رجوعه من **السُّودان** إلى **مصرَ** أَذِنَ له شيخُه في الرُّجوع إلى **الجزائر**، فكان رجوعه إليها سنة 1183هـ الموافق لسنة 1770م.

رجع الشَّيخُ إلى **الجزائر** مَصحوبا بزَوجته وخادِمَين كانا عنده بـ: **السُّودان** ـ رجلٌ

---

(1) في المطبوعة: «محمد سالم الحنفي»، والصَّواب ما أثبتناه، وهو الإمام الشيخ نجم الدِّين أبو المكارم محمَّد بن سالم بن أحمد الحفني الشَّافعي الخلوتي (1100هـ/ 1181هـ)، ثامن شيوخ الأزهر الشَّريف، تولَّى هذه الخطَّة من سنة 1171 هـ إلى غاية وفاته سنة 1181هـ . (ع)

وامرأة ـ فاستقرَّ بمسقط رأسه والتفَّ حولَه كثيرٌ مِن طلبة العلم، ومن بينهم كثير من رؤساء المعاهد والزَّوايا، فتصدَّى لنشر **الطريقة الخلوتية**، ونظرا للشُّهرة التي نالها في مدَّةٍ قَريبة أَوجسَ خيفةً مِنه الحكَّام العثمانيون وبعضُ علماءِ عاصمة **الجزائر**، الذين كانوا يَرون مخالفاتٍ كثيرة في تعاليم **الطَّريقة الخلوتية** للعادات والتقاليد التي أَلِفوها، فكلَّف **باشا الجزائر** الشَّيخَ **علي ابن الأمين** (المفتي المالكي) بِعَقدِ مجلس علمي لمناظرته، فحينئذٍ بلغ صدَى هذا المجلس الذي انعقد لمحاكمته فأثَّر ذلك تأثيرا سيِّئاً في أوساط بلاد القبائل، الذين كان معظمهم مُنخَرطين في **الطريقة الخلوتية**، فخشيَ حكَّامُ **الجزائر** مغبَّة تلك المحاكمة، وحكموا عليه بالبراءة، وبأنَّ **الطريقة الخلوتية** وتعاليمها لا منافاةَ بينها وبين تعاليم السُّنة، واختار الشيخُ **محمد بن عبد الرحمن** الرجوعَ إلى معهدِه بـ: **جرجرة**، واستعانَ بأَحدِ كبار العلماء الذي كان متخرِّجا مِن **جامع الزَّيتونة** بـ: **تونس**، وهذا العالم هو الشَّيخ **محمد الصالح بن سليمان العيسيوي المشدَالي الزَّواوي**، فنظَّم التعاليم بالمعهد وبسطَ كثيرا مِن التآليف الفِقهية واللُّغوية، وقد احتفظَ لنا التاريخُ بِبَعضها، واسمُه كما كتبَه في تأليفٍ مِن تآليفه هو هذا: «وقعَ الفراغُ من هذا الشَرح المبارك على يَد كاتبِه **محمد الصَّالح نجل سليمان بن محمد الطالب** عند الأذان الأوَّل من يومِ الجمعة في **تونس** عام 1180هـ».

وقال في وثيقة أُخرى معرِّفا بنسبِه: «وهو ينسب إلى **أولاد رحمون** في بلد **مشدَّالة**».

أما **بنو عيسى** المنسوب إليها، فإنه استقرَّ فيها بعد رجوعه مِن **تونس**، وقَد اشتغلَ بالتَّدريس فيها إلى أن دَعاه العلَّامة الشَّيخ **محمد بن عبد الرحمن** إلى معهده بجبل **جرجرة** حيث ولَّاه التدريس، فبقيَ فيه إلى أن توفي سنة 1242هـ عَن سنٍّ يُناهِز التِّسعين سنة، ودفنَ بضريح مؤسِّس المعهد الشَّيخ **محمد بن عبد الرَّحمن**، وخلَّف ولداً عالماً يُسمَّى **أحمد الطيب** توفي سنة 1251هـ، وبقي أفرادُ أسرته يحتفِظون ويتَوارثون خِزانةَ كتبِه إلى

عهدِ **محمد الشَّريف بن محمَّد العربي العيسوي** ثمَّ **المحمودي** (كان حيًّا سنة 1289هـ).

هذا العالم الجليل لم نجِد له مِن ترجمة ـ خصوصًا وأنه كان أول مدرِّس شَدَّ عضُد الشَّيخ **محمد بن عبد الرَّحمن** ـ إلى أن عثَرنا على مجموعة مِن كتبه بعضها بخطِّه وبعضها بخطِّ ولدِه، وقد ترجمَه ترجمةً قصيرةً جِدًّا صاحِبُ **(تعريف الخلف برجال السَّلف)** الشَّيخ **أبو القاسم الحفناوي**.

ولنُواصِل حديثَنا عن الشَّيخ **محمد بن عبد الرحمن** ـ موضوع حديثنا ـ الذي بعدَما رجعَ إلى معهده بـ: **جرجرة** ـ بعد انعقاد المجلس العلمي الذي حاكمه ـ فأَقام فيه حَوالي ستَّة أشهر، وجمع جلَّ مُريديه فأَوصاهم على مَن يخْلُفه على رأسِ الطريقة بعد وفاته، وحرَّر عقدَ حبسٍ بجميع ما يَملكه، حبسَه على معهدِه، وقد عَيَّن خلفَه الشيخ **علي بن عيسى المغربي** رغم تَوافر عدد مُقدميه بِبلاد القبائل وغيرها، كـ: **قسنطينة**، وجنوبها، بل حتى في ولاية **وهران** التي كان كثير مِن تلامذته ينتمون إلى قبيلة عتيدة لها مكانة مرموقة.

توفي الشَّيخ **محمد بن عبد الرَّحمن** سنة 1208هـ/ (1835ـ 1836)، وقبلَ وفاتِه كانت **الطريقة الخلوتية** التي نشَرها الشَّيخ **محمد بن عبد الرَّحمن** تُعرف بـ: **الطريقة الرحمانية**، نِسبةً لأَبيه، ومعَ مرور الزَّمان تُنوسِيَ اسم **الطَّريقة الخلوتية** إلَّا عند خاصَّةِ الخاصَّة.

انتشَرت **الطريقة الرحمانية** بجلِّ بلادِ القبائل، ثمَّ ببلاد الجنوب، كـ: **الزاب**، و**نفطة**، فولاية **وهران**، ولا زالت إلى الآن كثير مِن الزَّوايا تُنسب إليها، واشتهرت كثير من هذه المعاهد بالعلم، كـ: معاهد **نفطة** و**طولقة** و**أولاد جلاَّل** و**الهامل**، وتخَرَّجَ مِن هذه المعاهد علماء أَجِلاَّء داخل البلاد وخارجها، مِن أشهرِهم: الشَّيخ **محمد بن عبد الرِّحمن الدِّيسي**، والشَّيخ **عاشور الخنقي**، والشَّيخ **المكي بن عزُّوز** الذي كان من علماء الحديث المشهورين في **الأستانة**، وقريبه الشَّيخ **الخضر بن الحسين** الذي تولَّى مشيخة **الأزهر** في

عهدِه، أي: في الخمسين مِن القرن الجاري الميلادي.

كان مِن أبرز مشايخ **الطريقة الرَّحمانية** الذي لعبَ أدوارا أثناء ثورة القبائل الأولى في عهد **الشريف بوبغلة** الشَّيخُ **المهدي السَّكلاوي** الذي هاجَر البلادَ سنة 1263هـ، وخلَّفَ على رأس الطَّريقة تلميذَه الشَّيخ **محمد أمزيان ابن الحدَّاد** بطل ثورة القبائل الأَخيرة سنة 1871.

هاجرَ إلى **دمشق** على رأس ثُلَّةٍ مِن أقاربه وتلامذته، وإن شَحَّتِ علينا المصادر التاريخية بتَراجم أفراد هذه النُّخبة، انطِلاقا مِن ترجمتَي **الشَّريف بوبغلة** ومُساعدته **لالَّا فاطمة اليتورغية**، بل وحتى الشَّيخ **محمد أمزيان ابن الحدَّاد** التي يكتنِفُها الغموض، فقد كان مِن حُسنِ حظِّ تاريخ البلاد أن ظَهر أخيرا ـ أي: عند استقلال **الجزائر** ـ تأليف قيِّم هو: **(حلية البشَر)**، للعلَّامة الشَّهير **عبد الرزَّاق البيطار** خصَّص الشَّيخَ **المهدي السكلاوي** ورُفقاءه الذين هاجَروا معَه بِتَراجم وافية، تَناول فيها تاريخَ حياتِهِم بـ: **دمشق**، كما سنبيِّن ذلك في هذه الدِّراسة.

خلَّف الشَّيخُ **المهدي السكلاوي** على رأسِ **الطَّريقة الرَّحمانية** تلميذَه **محمَّد أمزيان ابن الحدَّاد**، ومِن حُسنِ حظِّ التاريخ أن عثَرنا على تأليفٍ قيِّمٍ للشَّيخ **ابن الحداد** رغم أن كثيرا مِن المواطنين يَعتقدون أنَّ الشَّيخَ **ابنَ الحدَّاد** مجرَّد طالب مِن حفَّاظ القرآن كما أثبتَت ذلك جلّ المصادر الفرنسية، إلى أن ظهر تأليفٌ مِن تآليفه القيِّمة، ثمَّ اكتشفنا منذ سنواتٍ قليلة ـ وبالضَّبط في ملتقى الفكر الإسلامي الرابع عشر الذي انعقد في الجزائر ـ **(فهرسا)** (1) للشَّيخ **محمد بالقاسم البوجليلي** يذكُر فيه بعضَ مشايخه في فنِّ القراءات وبقية الفنون اللغوية، فذكر مِن بَينهم الشَّيخ **الحدَّاد**.

---

(1) قدَّمه للطبع الدكتور **عمار طالبي**، ووزَّع على المؤتمرين.

أمَّا تأليفه الذي أشَرنا إلى اكتشافِه فهو مِن التآليف المهمَّة في الموضوع، إذ بيَّن فيه مناخَ **الجزائر** في عهدِه، وبالضَّبطِ بعد هجرة الشَّيخ **المهدي السكلاوي** إلى **دمشق**، وقد استأذن شيخَه **السَّكلاوي** وأذِن له في تأليفه، وذلك في سنة 1261هـ ـ أي: قبل هِجرة الشَّيخ **السَّكلاوي** بسنتَين ـ إذ كانت هجرة الشَّيخ **السَّكلاوي** سنة 1263.

وتأليفُ **ابن الحدَّاد** المذكور يُلقي أضواءً على حالة بلاد القبائل، بالخصوص إثر انتهاء ثورة **الشريف بوبغلة** ومُساعدته **لالّا فاطمة اليتورغية**، تلك الثَّورة التي ظهرت فيها لأوَّل مرَّة فرقة المسبَّلين، وخصِّصت بِعدَّة تقارير ومؤلَّفات، ومن جملة مَن خصَّصها بتأليفٍ قيِّم [الجنرال **هانوطو** (Hanoteau)، والكولونيل (Bodin)، و][1] الرائد **لويس رين** (Louis rinne) مؤَرِّخ ثورة القبائل، وبالخصوص ثورة الشَّيخ **ابن الحدَّاد** وصهره **المقراني** سنة 1871م، وسمَّى تأليفه:

(Histoire de l'insoumission de 1871 en Algérie)

وخصَّص فيها فَصلا قيِّما للمسبَّلين، هذه خلاصتُه:

ظهَرت فرقةُ المسبَّلين الذين كان يُسمِّيهم سكَّان البلاد: (**اِيمْسَبْلين**)، في أواخِر ثورة **الشَّريف بوبغلة** ومساعدته **لالّا فاطمة اليتورغية**، وبالضَّبط سنة 1854م، عندما اشتدَّ خطرُ الثَّورة المذكورة، وعيِّن المارشال (Randon) صحبةَ مساعده الجنرال (Mac Mahon) (قائد منطقة **قسنطينة**)، خَرجا لتفقُّد بلادِ القبائل فلاحَظا إحدَى المعارك في بلاد **سباو**، وكانت قائدةُ المعركة امرأة مُرتدية كِساء أحمر وهي تحرِّض مِن أعلى ربوة فرقةً مِن المقاتلينَ لم يَعهدا بمثلِها في ميادين القتال، وبعد انتهائها كلَّف الجنرال **هانوطو** (Honoteau) باستِقصاء خبرها، إذ كان أعضاء هذِه الفرقة معظمهم شبَّان تتَراوح

(1) ما بين المعقفتين زيادة من النسخة المخطوطة المعتمدة.

أعمارهم بين 16 و20 سنة، والذي هالهم وفاجأهم هو أنَّ أموات تلك الفرقة كانت ثيابهم مربوطة بعضها ببعض، وقد كان سبقَ للجنرالَين المذكورَين حضور معارك قُمعَ فيها ثوار مِن **بني جناد** و**بني حساين**، وكان نظام هذه الفِرقة حسبما حرَّر ذلك الجنرال **هانوطو** هو أنَّ المنخرطين المتطوِّعين في سِلكها كلُّهم شبَّان عزَّب، ويُقبل المتزوِّجُ في الفرقة إلَّا أنَّ الأَولويةَ تُعطى للعزَّاب، يتقدَّم المتطوِّعون في الفرقة إلى الجماعة المكلَّفة بتَسجيلهم في قوائم خاصَّة، يقدُمهم أَولياؤهم، لم يشاركوا بَقايا الفِرق المقاتلة، وتخصَّص لأَمواتِهم مقابر خاصة لا يدفنُ معهم غيرهم، وتتولَّى الجماعة المكلَّفة بتَجنيدهم بدفع نفقاتِ أسرهم، ويحاطون بتَقدير وإجلال وتَعظيم، إلا أنه من نكصَ وولَّى الأدبار يهجر وتُضيَّق عليه المعيشة في البلاد، إذ في مقدَّمة السَّاخطين عنه أقاربُه، وقبل التِحاقهِم بجَبهات القتال التي يلتحقون بها بأمر مِن قائدهم المكلَّف بهم يحضرون مجمَّعا يُتلى فيه القرآن، ويعدُّ هذا التجمُّع: «صلاة على الميت».

وقد ذكر الرَّائد **لويس رين** (louis Rinne) في تأليفه المذكور سابِقا كنموذج لهذه الفِرقة عِند حِصارها لحصنِ **بني يراثن** أثناءَ ثورة 1871م، وكانت الفِرقةُ تَحت قيادةِ المقدَّم **وعلي سحنون**، فَحاصر المسبِّلُونَ الحصنَ مدَّة ونَصبوا سَلاليم الحبال على جُدران الحِصن، وقَد كان الجيشُ الفرنسي داخل الحِصن بلغَه الخبر بِطرقٍ سِرِّيَّة، فاستعدُّوا للمُجابَهة، ورَغم ذلك فقَد كانوا كلَّما قضَوا على فِرقة إلَّا وتَسابقَ المسبلون لأَخذِ أمكِنتهِم، وخصَّص القائدُ المذكور **رين** لهذِه المقاومة تأليفا قيِّما اكتفَينا بالإِشارة إِليه.

وفرقةُ المسبلين هذِه لم يكُن ظهورُها في بلادِ القبائل عندَ ثورة **الشَّريف بوبغلة**، و**لالَّا فاطمة اليتورغية**، ثمَّ في حِصارِ حصنِ **بني يراثن**[1].

(1) كذا في الأصل المطبوع، ولعلَّ الصواب: «لم يكن ظهورها إلَّا في... »، أو: «كان ظهورها في...»، والله أعلم. (ع)

ونفسُ هذا التأليف ـ [أي]: (**حلية البشر**) ـ لم يظهر إلَّا أخيرا ـ أي: سنة 1965 ـ فاستفَدنا منه أن الشَّيخ **المهدي السكلاوي** كان مِن أعلام البلاد، لا مجرَّد فقيه بسيط، وكذلك نخبة مُرافقيه مِن أقاربه وتلامذته، فاستفَدنا مِن تلك التَّراجم مناخَ بلاد القبائل إذ ذاك في الميادين الثَّقافية وفي القِيَم الأخلاقية، وعزَّز ذلك تأليف **ابن الحدَّاد** الذي وإن احتفظ لنا به التاريخ إلَّا أنه ما دام لم يحظَ بالنَّشر فهو مجهولٌ في تَفاصيله عند مُعظمِ السكَّان الذين ما زالوا يَلتجِئون ويَعتمِدون في دِراساتهِم لتلك الفترة على المصادر الفرنسية التي تصوِّر **ابنَ الحدَّاد** طالب ـ مِن حفَظَة القرآن ـ ومِن بَيتٍ خامِل، حيث إنَّ والدَه كان يحترِفُ الحدادة (Forgeron).

هذا، وإنَّه رغم ظهور كتاب: (**حلية البشر**) الذي خصص تراجم هامة لـ: **السَّكلاوي** ونخبة رفقائه، فإنه اعتنى بحياتهم بعد الهِجرة التي كانت سنة 1263هـ، وأما حياتهم في البلاد قبل الهجرة فما زالت مجهولة، وقَد كشفَ عن بَعضِها الغطاءَ تأليفُ الشَّيخ **ابن الحدَّاد**، إذ أفرغ تأليفَه في قالبِ مذكِّراتٍ أمكنَ لبعضِ الخواصِّ الاحتِفاظ بها، ولنَبدأ بتَرجمة المؤلِّف [1].

---

(1) في الأصل المطبوع: «وقد كشف عن بَعضها الغاء تأليف الشَّيخ **ابن الحداد** إذ أفرغ تأليفه في قالب مذكرات، ذكر ابن الحداد في تأليفه التي أمكن لبعض الخواص الاحتفاظ به، ولنبدأ بترجمة المؤلف». (ع)

محمَّد أمزيان ابن الحدَّاد
بطل ثورة 1871م

هو الشَّيخ **محمَّد أمزيان بن علي الحدَّاد** شيخ الطريقة **الرَّحمانية** في عهدِه خلَفا لشَيخه **المهدي السَّكلاوي** المهاجِر إلى **دمشق** سنة 1263.

كان تاريخ هذا التأليف سنة 1261هـ ـ أي: قبل هِجرة شيخه بسنتَين ـ قال في تَقديمه: «وبعد، فقَد أدركَنا الزَّمانُ الذي وصَفه المصطفَى ﷺ بِقَوله: **لم يبقَ مِن الإِسلامِ إلَّا اسمه، ومِن القرآنِ إلا رَسمه**، بِلا رَيب، وقد شاهَدنا ذلك في كلِّ قُطر وفي كل مِصر، بلغ إليه عِلمنا، فتَجِدُهم يدَّعون أنَّهم مسلمون، وهم لا يُصَلُّون ولا يَصومون، ولا يزَّكون ولا يحُجُّونَ عند الاستطاعة، ولا يؤمنون بالله ورُسله حقَّ الإيمان، فإِن فعلوا ذلك أو بعضَه فعلى وجهٍ غير شَرعي، فكلُّ مَن خالف الشَّرع فهو باطل، فإن صلُّوا لم يأتوا بشروطِ الصلاةِ وأَركانها».

ثمَّ يعدِّد الشَّيخُ المخالفاتِ في الوضوءِ والصَّلاةِ وبِتَفصيل، وحكم الفِقه فيها، ثمَّ يذكُر الصَّومَ ثمَّ الزكاة، فيقول: «أمَّا الزكاة فقَد هدِّمت قاعِدتُها بالكلِّيَّة إلَّا نادرا على وَجهٍ غير شَرعي، فيُعطونَها للأَغنياء دونَ الفُقراء، والأَشرارِ دون الأَخيار، أمَّا الحَجُّ فقَد فُقِدَت الِاستِطاعةُ التي هي شَرطٌ في وُجوبه في أهلِ غَربنا هذا، فالحمدُ لله على سقُوطه، وقَد نصَّ على سقُوطه على مَن ذُكِر غَيرُ واحدٍ مِن الأئِمة المقتدَى بهم، فعليكَ بالشَّيخ **سالم السَّنْهوري** على (**مختصر خليل**)، فقَد أجادَ في نقلِ نصوصِ المذهَب الدَّالةِ على سقُوطه»، إلى أن قال: «فمَن تكلَّفه وحجَّ أَجزأَه، ثمَّ إنَّا لم نرَ مَن تكلَّفه غالبا إلَّا الفقراء الذين يُعرضون أَولادَهم للسُّؤالِ أَو السَّرقة، وأَزواجَهم للزِّنا، وأَكثرهم جَهلَة

لا يَعرفونَ أحكامَه ولا يتَعلَّمونَها، وأمَّا أغراضُهم ونياتهم فَيعلمُها العليُّ الخبير، وأمَّا الإيمانُ بالله تعالى ورُسلِه (عليهم الصلَّاة والسلام) فالدَّاهيةُ العُظمى، فقلَّما تجِد مؤمنًا محقِّقًا لإيمانه، وكلُّهم أو جلُّهم مقلِّدونَ تَقليدًا رَديئا، فلا يفرِّقونَ بينَ الرَّسولِ ومُرسِله، ولا بينَ النَّبيِّ وأَصحابِه...»، إِلى أَن قال: «وأمَّا القرآنُ فقَد أُهمِلَ العملُ به أصلاً، فتَرى حملَته يحضُّون علَى حِفظ ألفاظِه دون مَعانيه المقصودة، فلا يحلِّلونَ حلالَه ولا يحرِّمُون حرامَه، ويزعمون أنَّهم حملَة القرآن، وأنَّهم أهلُ الله وأحبَّاؤُه، وأنَّهم لا يضرُّهم ما هم عليه مِن المخالفة معَ حفظِهم له، قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ (الحشر: 21) الآية، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ (محمد: 24)، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ (الجمعة: 5)، فالآيَةُ الأَخيرةُ وإِن كانَت نَزلت في حقِّ اليَهودِ المعاصرينَ للنَّبيِّ ﷺ الجاحِدين نُبوءته المقرَّرة في التَّوراة، فَحكمُها عامٌّ في كلِّ مَن يترك العمل بِالكتابِ والسُّنة كما هو مَعلومٌ في التَّفسير، فإذا كان حاملُ القرآنِ الذي لا يَعملُ بِه مُشبَّهًا بِالحمار يحملُ أَسفارا، فكيفَ يَعتَمِد علَى حِفظِه دونَ العملِ به ؟ بل يجِب علَيه أن يتكلَّف حِفظَه [والعملَ به]» اهـ.

ثمَّ تعرَّض **ابنُ الحدَّاد** إلى البِدع، فَعقد لها فَصلا له وزنُه وقيمتُه، فقال: «وانتشرت البدع وفاض بحرها على الأرض كلِّها، فلم تخل بلدة ولا قرية [بل] ولا بيت مِن بدع شَتَّى، وشاهدتُ ذلك بنفسي وفي غيري ـ إلاَّ مَن عَصمه الله تعالى بفَضله، وهو يسيرٌ جداً ـ لكثرة الجهلِ وغلبةِ اتِّباع الهوَى، فانقلبت السُّنةُ بدعةً والبدعَةُ سنَّة، فأَهل السُّنة [غُرباء] أذلَّاء، إذا حضَروا مجلسًا لا يُشاوَرون، وإذا غابوا لا يُنتظرون، وأمَّا أهل البِدع فهم الرُّؤساء والوُلاة والقُضاة والعمال في كلِّ الأقطار والأَمصار... حَملتني غيرة الإيمان مع سبقِ القُدرة وإشارةِ شَيخي في الطريقة، الجامع بين الشَّريعة والحقيقة، الحاج الإمام

المهدي السكلاوي اليراتني مَنشأً وبلَدا (رضي الله عنه، وأدام بقاءَه، ونفع به المسلمين) على أَن أَجعل تَقيِيدا مُشتمِلا على أشياء استَعملها أهلُ الطريق، وأنكرَها أهلُ الظَّاهر، جَهلا منهم بالشَّريعة وما كانت عليه بَواطن الصَّحابة (رضي الله عنهم)، والذين وصفهم النَّبيُّ ﷺ بقوله: **أَصحابي كالنُّجوم، بأيِّهم اقتَديتُم اهتدَيتُم**».

واسترسلَ الشَّيخُ **ابن الحدَّاد** في حَديثه، فقال: «وقدَّمتُ بين يدَيه مقدِّمةً في الاِعتقاد، ورتَّبته على اثني عشَر بابا وخاتمة».

وطرقَ في بعضِ الأبوابِ مَراحل اجتازتها **الطريقة الرحمانية** بعد مَوت مؤَسِّسها، وبعضَ الخلافاتِ الشَّكلية التي وقعَت بين مُريديها، مَرجعُها الخِلافُ بينَ السَّلفيِّين والمتصوِّفين الذي أُثير منذ قُرون وما زالَ يتجدَّدُ المرَّة بعد المرَّة إلى زَمانِنا هذا.

وعلى كلِّ حال فإنَّ الشَّيخَ **ابنَ الحدَّاد** في هذا التأليف طرقَ مَواضعَ تُلقي أَضواءً على دَور **الطَّريقة الرحمانية** في الثَّوراتِ الدِّينية.

والطَّريقة الرَّحمانية تَمتاز عَن كثيرِ مِن الطُّرقِ الصُّوفية بأنَّها سلفية في جلِّ تَعاليمها، مثل: **الطَّريقة السَّنوسية** بـ: **ليبيا** في عهدِ مؤسِّسها **محمَّد بن علي السَّنوسي**، و**الطريقة المهداوية** بـ: **السُّودان**، فلم تَقتصِر على تربية مُريديها على تلقين الأَورادِ والزُّهد وما إلى ذلك، بل كانت تُقاوِم البِدع والاستِعمارَ والغَزوَ الصَّليبي، حتى إنَّ **الكاردينال لافيجري** الذي شَنَّ حملات التَّبشير والتَّنصير ببلاد الصَّحراء مُستَعينًا بفِرق الآباء البِيض الذين أَحدثَهم للقيامِ بهذه المهمَّة، اعترفَ وهو بفِراش الموتِ بأنَّ كلَّ ما قام به خفق في الصَّحراء بسببِ منظَّمات **السَّنوسية** و**المهداوية** في **السُّودان**، لخبَرٍ يَطول، وقد خصِّص له **ملتقى الفكر الإسلامي** الذي انعقد بـ: **تيزي وزُّو** سنة 1973.

ولهذا كان لنِداء الشَّيخ **ابن الحدَّاد** إلى الجهاد بـ: **سوق صَدُّوق** ـ مَسقط رأسه ـ في

الثامن مِن شهر أفريل 1871، مدَعِّماً ثورة صِهره الشَّيخ **المقراني** صدًى في جميع أوساط أتباع **الطريقة الرَّحمانية**.

كان سِنُّ الشَّيخ **محمد أمزيان ابن الحدَّاد** عِندما أعلن الثورةَ يُناهِز الثمانين سنة، وكان ولداه الشَّيخ **العزيز** و**محمد** يشدَّان أزرَه، وحينئذٍ عرَضوا عليه ـ [أي]: بعض مقاديم الطريقة ـ الالتجاء إلى جِهةٍ يَستريحُ فيها نَظرا لهرمِه وانحرافِ صحَّتِه، فامتنعَ وأَجابهم بأنَّه نادى للجهاد، ويبتعد عن المشاركة فيه ! كَلاَّ، فإنه سَيُقاسِم المجاهدين في السَّراء والضَّراء، وبقيَ في رُفقتِهم إلى أن قاسَمهم مَرارةَ الهزيمة التي وقَعت إِثر استِشهاد **المقراني** بِشهور، إِذ استشهدَ **المقراني** في 13 يوليو 1871، وكان قائد المنطقة لتي أُنهيت فيها حربُ الشَّيخ **ابن الحدَّاد** الجنرال (Lallemant)، فَشاهد ما لم يكُن يتصوَّره، وذلك أنَّ الفِرَقَ التي كانت تُقاوِم ثَورة **ابن الحداد** في صفوف الفرنسيِّين مِن سكَّان القبائل بِمجرَّد ما شاهَدوا الشَّيخَ **ابنَ الحدَّاد** صاروا يتَسابقون إلى تَقبِيل أَطراف ثيابِه ويدَيه ورجلَيه، ودُموعهُم تَنهَمِر على خدودهِم، فأعلَن الجنرال إِعلانَه المشهور: إنَّ الشَّيخَ **ابن الحدَّاد** خسِر المعركةَ إلَّا أنَّ نفُوذَه الرُّوحي بقيَ كامِلا غير مَنقوص، لم تؤثِّر فيه الهزيمة.

حُوكم الشَّيخُ **ابن الحداد** بالمحاكم الفرنسية العَسكرية، وحُكِم عليه بخمسِ سَنوات سِجنا، فقضى منها سنةً واحدة بسجن الكُدية بـ: **قسنطينة**، [وتوفي به] وذلك في ليلة الثلاثاء أوَّل ليلة مِن شهر ربيع الأَول سنة تسعين ومائتَين وألف (1290هـ)، وكان أوصَى أن يُدفن بمقبرة أسلافِه بـ: **صَدُّوق**، إلا أن السُّلطات الفرنسية تعرضت لهذه الأُمنية، فدُفن بعد أَخذٍ وردٍّ بمقبرة **قسنطينة**، وقد خصَّصناه بهذه الدِّراسة التي تَناولنا فيها تَرجمةَ زَميله ورَفيقه **الشَّريف بوبَغْلة**، إذ لا يُمكن فَصل ثورة **الشَّريف بوبغلة** عَن **الطريقة الرحمانية** بصِفة عامة، ولا عَن ثَورة زميله والمتمِّمة لها ثورة الشَّيخ ابن

الحدَّاد، إذ كما تقدَّم لنا ذكره، فثَورات بلاد القبائل منذ بِدايتها إلى نهايتها اصطبغَت بصِبغة دينية، وكان للقائمين بها أَمثال **الشَّريف بوبغلة** ومُساعدته **لالَّا فاطمة اليتورغية** التي ختمت بثورة **ابن الحداد** ـ رئيس **الطريقة الرحمانية في** عهده ـ وصهره **المقراني**، وإن شحَّت علينا المصادر الإِسلامية ببعضِ الوثائق الأَصيلة والتَجأنا إلى استِثمار المصادر الفرنسية، خُصوصا التي أفرغها أَصحابها في قوالب شِبه مذكِّرات، فإِنَّ تأليفَ الشَّيخ **ابن الحدَّاد** الذي نَقلنا منه بعض الفَقرات [1]، إذ لا شكَّ أن **ابن الحدَّاد** شارك في ثورة زميله **الشَّريف بوبَغْلة**، فقد صوَّر لنا تأليف **ابن الحدَّاد** مناخ الجوّ العقائدي والاِجتماعي والسِّياسي حينذاك.

وقبلَ نهاية حديثنا عَن الشَّيخ **ابن الحداد** نذكرُ نُبذةً مِن أَفرادِ أُسرته مِن بعدِ وفاته، ثم نتعرَّضُ لترجمة الشَّيخ **المهدي السكلاوي** ورفقائه الذين هاجروا معه إلى **دمشق**، والذين وإن لم يحظوا بتَراجم حياتهم ببلادهم، فإنَّ التراجم التي خصَّصها لهم العلَّامة **عبد الرزاق البيطار الدِّمشقي**، والتي لم تَر النُّور إلَّا في السَّنوات الأخيرة، حيث طبعت سنة 1965 بـ: **المجمع العلمي العربي** بـ: **دمشق**.

وأهمية هذا التأليف الذي خصَّص تراجم وافية للشيخ **المهدي السكلاوي** ورفقائه، أنَّ كثيرا مِن كتَّابِنا صاروا يكيلون لسابِقيهم أوصافًا هم منها برآء، كالجمود، والطمع، والجبن، وما إلى ذلك، فجاءت تَراجم رجلٍ عالم عاشَرهم في أيام غُربتهِم سَنوات، وقد بَرهنَت هذه التَّراجم، خصوصًا ترجمة رئيسهم **المهدي السكلاوي** الذي نالَ سُمعةً في الأَوساطِ الدِّمشقية تدلُّ على [علوِّ] مَنزلته، حيث تَتلمذ له كثير مِن كبار العلماء، في طليعتهم حاكم البِلاد.

هذا، وإن فترةَ وصول **المهدي السكلاوي** ورفقائه إلى **دمشق** صادفَ هجرة الأَمير

---

(1) كذا في الأصل المطبوع. (ع)

عبد القادر ورفقائه أيضا إلى **دمشق**، وكانت روابط متينة تجمع بينهم، وقد تَشابه عند كثير مِن المعاصرين الهِجرتان، فظنُّوها وهِجرة الأَمير **عبد القادر** واحدة.

ومِن حُسنِ حظِّ التاريخ أنَّ حفيدَ الشَّيخ **عبد الرزاق** عثَر على كتاب: **(حيلة البشر)** المذكور، فحقَّقه وقدَّمه للطبع، فاستفدنا مِن هذه التراجم علاوة على قيمِ التَّراجم لهم مناخَ بلاد القبائل في عهد الثَّورتَين، كما سنُبيِّن ذلك عند التعرُّض لهذِه التراجم.

ولنَرجع إلى تتِمَّة حَديثنا عَن أُسرة الشَّيخ **ابن الحدَّاد** الذي عندما توفي بسجن **قسنطينة** كان ولداه معه فأُبعِدا إلى **جزيرة كالِدونية**، وكانت المكاتبة بينَه وبين أفرادِ أسرتِه بالجزائر مُستمِرَّة لم تَنقطع، وقَد احتفظَ التاريخُ لنا بكتابٍ مؤرَّخ في 27 مِن جمادى الأولى سنة 1294هـ يقول فيه ما يلي: «وبعد، فقد بلغَني عليكم الخبر التام أنكم وقَفتُم وقوفَ الصَّادِقين على عيالنا، وستَرتم عِرضَهم، وآنستُم وَحشتهم، بنفقتكم وسؤالكم أَكبرهما ـ وهو الشَّيخ **أعزيز** وارث مقام والده في إدارة **الطريقة الرحمانية** ـ عليهم، كل واحدٍ منكم على قَدر طاقتِه قَولا وفِعلا، وقَصدتُم بذلك وجهَ الله العظيم، ووجهَ شَيخكم المرحوم، وذلك كلُّه يَشهدُ لكم بالصِّدقِ والوفاء، بارك الله فيكم، وأَحسنَ لكم كما أحسنتُم إلينا، ولا شكَّ أنَّ وفاءكم هذا مع شَيخكم بعدَ وفاته أنفع وأَزيد لكم مِن حبِّكم له في حَياتِه، وأَجرُكم عندَ الله لا يخيبُ ولا يَضيع، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠﴾ (التوبة: 120).

ورويَ عن **عمر ابن الخطاب** (رضي الله عنه) أنه قيل: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل ؟ قال: إدخال السُّرور على المؤمن، وقيل: ما سُرور المؤمن، يا رسول الله ؟ قال: إشباع جَوعته، وتَنفيس كُربته، وقَضاء دَينه، فإننا على ثِقةٍ مِن ربِّنا الذي بيده ناصيتنا وناصية أميرنا، فهو لا ينفعُ ولا يضرُّ إلَّا بمشيئة الله، فإن كان قضي علينا بأمرٍ فلا حيلةَ لنا بدفعِه، ولا قدرةَ لنا على مَنعِه، وإن يكُن قد قدِّر علينا بشيءٍ فلا يَستطيع أحدٌ على

ضرِّنا إلا بإِذنه، فإن كان لابدَّ لنا مِن الرجوع والاجتماع بكم وبالأَهل، وأراد الله ثبوتَ إشارةِ شيخنا علينا بالإمارة، فلابدَّ مِن وَقتٍ وزَمانٍ يكون فيه ذلك، وإن كان لابدَّ مِن مَوتنا غُرباء، فلا هُروبَ لنا مِن حكمِه، فَعليكم وعلى الأَهل والوطن السلام، وقد رفعنا الهمَّ والغمَّ والجزعَ مِن قلوبنا، حيث ثبتَ عندنا أن النَّفعَ والضُّرَّ بِيد الله، وهو الذي اختار وخير ما نزلَ بنا، ونسأله الُّلطفَ إن شاء الله» اهـ.

مات الشَّيخ **اعزيز** (رحمه الله) في مَنفاه وتَرك ولَدا اسمه **صالح** مات بعدَ الأَربعينات مِن القرنِ الميلادي الجاري، كان مُترجِما بِدائرة **أريس (باتنة)**، وقَد تعرَّفتُ بِه (رحمه الله) بـ: بجاية، حيثُ كان يتَردَّد على زِيارة أَصهاره (أُسرة الشَّريف قاسي) الذي قيل: إنَّ والدَه كان مُترجِما بِالمجلسِ الذي حاكم الشَّيخَ **ابنَ الحداد**، ولما أرادَ تَرجمةَ الحكمِ أَخذَته عَبرةً فلَم يكَد يَنطق، وغلَبه البكاء، فالتفتَ إليه الشَّيخُ **ابنُ الحداد**، وقال: «انطق بها أُمِرت، فإِنَّ الحكمَ بِيَد الله لا بِيَد العَبد»، ثمَّ بعد وفاةِ الشَّيخ **صالح** تَركَ ولَدا عيِّن أَثناءَ الثَّورة (ثورة 1954) واليا علَى **قسنطينة**، ثمَّ انتقلَ إِلى فرنسا حيثُ قلِّد وَظيفا، وتوفي بها (رحمه الله)، كما تركَ الشَّيخُ أَقاربَ لا زالوا على قَيدِ الحياةِ يتَمتَّعون بالسُّمعةِ الطَّيِّبة، وبالتَّقدير عندَ المواطنين.

أمَّا الشَّيخُ **المهدي السكلاوي** الذي هاجَر على رأسِ نُخبةٍ مِن أَقاربه وتَلامِذته فلَم نَعثُر على وَثائق زائِدة، على أنه قبل هِجرته عيِّنَ شيخاً على **الطَّريقة الرَّحمانية**، وذلك ما تقدَّم لنا ذِكره عِند الحديثِ على تأليفِ الشَّيخ **ابنِ الحدَّاد**، إلى أَن طُبع كتاب: (**حِلية البشَر**) سنة 1963، فكانت تَرجمته وافية مُفيدة جِدًّا، إِذ صاحبُها كان مُعاصِرا ومُلازما لَه.

قال في هذِه التَّرجمة تحتَ عنوان: (**الشَّيخ محمَّد [المهدي] المغربي الزَّواوي المالكي** مقدَّم الطَّريقة الخلوتية)، وبعدَ هذا العنوان قال **عبد الرزاق البيطار** ما يلي: «شيخ الطريقة، ومعدن السلوك والحقيقة، صاحب الفيوضات الإلهية، والكشوفات الربانية،

العارف بالله والمقبِل بكليته على مَولاه، المرشِد الإمام والمسلك الهمام، ولِد في المغرب سنة ألفٍ ومائتَين، ولما استَولى الفرنسيُّونَ على **الجزائر** وتَوابعِها هاجَرها بِعياله إلى **دمشق** (الشَّام) سنة ثلاث وستِّين ومائتَين وألف (1263)، واستقامَ في حارة الحضيرية، وكان يُقيمُ الأَذكارَ ويَسلك المريدين في مَدرسة الحضيرية، وقَد أَخذ علَى كُبراء **دمشق** وعلمائها وحكَّامِها وفُضلائها، وأَخذ عنه الوزيرُ الكبِير، والمشيرُ الحكيم، صاحبُ الدَّولةِ **أحمد عزة باشا**، وكان والي **دمشق** ومشير الأوردي الهاماموني (الجيش السُّلطاني) الخامس، ولم يزل مُلازِمًا للطَّريق علَى أتمِّ حالٍ وأَكملِ منوالٍ إلى أَن دَخلت سنة 1277، وقَد أمرت الدَّولةُ بإِطلاق الرَّصاصِ على الوالي المرحومِ لِنسبتها القصور إليه، في حادثة مذابح المسحيِّين بـ: **دمشق**، وقَد كان مِن حُماتِهم الأَميرُ **عبد القادر**، كما هو مشهور، وقَد أُثيرت هذِه القضيَّة في **مُلتقى أقامَه الكوليج دو فرانس** بـ: باريس في ماي 1977، بمقرِّه في **باريز**، مَوضوعه: (**حياة الأمير عبد القادر في المشرق**)، وكان الذي أثارَ قضية المسحيِّين هذِه ومَواقف الأَمير فيها الأُستاذ أجرون (Ageron)[1]، فبيَّن أن القَضيةَ دبِّرت مِن طرفِ دُولٍ جرَّت مِنها فَوائد».

ولنُواصِل حديثَنا عن تَرجمة **المهدي السَّكلاوي**، قال **البَيطار** مُتمِّما لتَرجمتِه: «وأَمرت الدَّولةُ بإِطلاقِ الرَّصاصِ علَيه لِنسبتها القُصور إِليه، وترتب هذه الفِتنة علَى إِهماله وعَدمِ مُدافعتِه، ولم تتمكَّن الدَّولة مِن إطفاءِ نار الفِتن إلا بإِعدامِه، كما ذكرتُ ذلك بأَطول مِن هذا الكلامِ في تَرجمة الوالِي المذكُور، فماتَ شَهيدا مَظلوما ودُفِن بـ: **صالحية دمشق**، بجِوار سيدي **محيي الدِّين** (قدَّس الله سِرَّه)، ومِن المشهور أنَّ صاحبَ التَّرجمة قال له: يا **أَحمد**، ستَموتُ شَهيدا، ولما أَرادوا قَتلَه عَرضوا عليه كأسَ ماء، فقال:

(1) أجرون (Ageron) هذا أستاذ بجامعات فرنسا، كان يحضر في ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر.

إنِّي صائِم ولن أفطر إلَّا في الجنة، مات المترجَم ـ أي: **السَّكلاوي** ـ سنةَ ثمانٍ وسَبعين ومائتَين وأَلف (1278 هـ)، وحضَر غَسله الأَفاضل والأَعيان، ازدحمَ عليه النَّاسُ في **جامع بني أمية**، ودفن في **قاسيون** في مَقبرة سيِّدنا نبي الله **ذي الكفل**، وقبره معروفٌ مَشهور، علَيه مَهابة ونور» اهـ [1].

هذه ترجمة **المهدي السكلاوي** تدلُّ على قيمةِ الرَّجلِ وتأهُّله للقيادة الرُّوحية تِلقائيا.

والذين كانوا كثيرا ما يتبجَّحون بأن **الطريقة الرحمانية** انتصَرت في بلاد القبائل بدافع العَصبية القبَلية، فماذا نقول عَن الرَّجل الغَريب الذي هاجَر بلادَه والتفَّ حولَه سكَّانُ **دمشق** وعظماؤُها فتتَلمذوا له، وفي طليعتهِم حاكمُ **دمشق**، ممثِّل **الخِلافة العثمانية**، وقد ترجَم **البيطار** لجلِّ رفقاءِ **المهدي السَّكلاوي**، ونظرا لضيقِ المجال نُضيِّف بعالمٍ نالَ شُهرةً في البلادِ الإِسلامية ولا زالَ مَعينُ الكِتابة لم ينضَب بعدُ عَن تَرجمة حَياتِه وآثاره مِن لدُن العلماءِ والباحثين، مسلمينَ وغَير مسلمين، وهذِه الشَّخصية هي شخصية **طاهر الجزائري**، هاجَر والدُه رُفقةَ الشَّيخ **المهدي السَّكلاوي**، وهو **صالح السَّمعوني الوغليسي**، ووُلِدَ بعدَ وصوله إلى **دمشق**، وقَد ترجمَ **صالحَ السَّمعوني** هذا **البيطار**، وذكَر له عِدَّة تآليف.

قال **البيطار** في ترجمتِه معدِّدًا لبعضِ تآليفه، نَذكُرها بإيجاز، قال: «وله شرح منظومة في فقه السَّادة المالكية، وقد كتب عليها حاشية جليلة جليَّة»، ثمَّ قال: «وله تاريخٌ على طريقِ الرُّموز والإيماءِ والإِشارة، وصلَ فيه لقدومِ **محمَّد رشيد باشا الشروائي** الوزير الأعظم الذي كان قَد تولَّى الصَّدارة، وله فيه أسلوبٌ عَجيب، وطريقٌ نادر غريب، وكان صالحا تقيًّا، رفيعَ المقام، وافرَ الاحترِام، مُقبِلا على الله مدبرا [عمَّا] سِواه، جميلَ

(1) انظر: **حلية البشر** (1/ 1326 ـ 1327) بتصرُّف. (ع)

المقالِ جليلَ الخِلال، ولم يزل على حاله متخلِّيا مِن الدَّهرِ عَن أَوحالِه، إلى أَن خَطبته دَواعي المنيَّة... »[1].

كانت وفاتُه سنة 1285هـ، وقد تركَ أولادا، أشهرهم الشَّيخ **طاهر**، الذي ولِد بـ: **دمشق** سنة 1268هـ كما سبقَت الإشارة إلى ذلك، وقَد تَناولَ ترجمةَ حياتِه كثيرٌ مِن مُعاصريه، اخترتُ مِن بَينها ترجمةَ صديقه الوفيِّ **أحمد تيمور باشا** في تأليفه القيِّم: **(أعلام الفِكر الإسلامي في العَصر الحديث)**، إذ كان **أحمد تيمور** أعرف النَّاس بأَحوال **طاهر الجزائري**.

قال **تيمور** بعد أن تعرَّضَ لتاريخ وِلادتِه ونشأتِه: «كانت هِوايته الكتُب سببًا لتنقُّلِه في مختلفِ البلاد لجمع نَفائِسها، فأكسَبته رحلاتُه معارف جمَّة عَديدة، وتوثَّقت صِلاته بكثير مِن العلماءِ والأدباءِ في البلادِ التي زارَها، وصار مَرجعا يعتدُّ به في فنِّ وَصفِ المخطوطاتِ ومَعرفةِ مَظانِّها، وإلى الشَّيخ **طاهر الجزائري** يَرجع الفضل في السَّعيِ الحثيث في إِنشاء الكثير مِن المؤسَّسات النَّافِعة في **دمشق**، وفي مقدِّمتِها **الجمعية الخيرية** التي ضمَّ إليها مَشاهير العلماء والوُجهاء السُّوريِّين، وتمَّ تأسيسُها سنة 1894م، وأَنشأَت مَدراسَ عديدة، كما أَنشأت مطبعةً قامَت بِطبع كثير مِن الكتُبِ المدرسية، ومِن مَساعيه الحميدةِ تأسيس **المدرسة الظاهرية** بـ: دمشق، وإنشاء مكتبتها الكبيرة التي جمعَ فيها ما كان مُبعثَرا مِن الكتُبِ والمخطوطات القيِّمة في المساجد والمدارس وغَيرها، فَحفِظها بذلك مِن الضَّياع، ويسَّر الانتِفاعَ بها، كما يَرجع الفضلُ إلى الشَّيخ **طاهر الجزائري** [في إنشاءِ] **المكتبة الخالدية** بـ: **القُدس**.

وإلى جانب هذا كلِّه عكفَ (رحمه الله) على جمع نَفائس المخطوطات، ونوادر

(1) انظر: **حلية البشر** (1/ 733 ـ 734). (ع)

المطبوعات، وواصل جهودَه في التأليف والتَّرجمة، وقامَ بِرحلات عِدَّة إلى جزيرة العرب وغيرها مِن بلاد المشرق، ثمَّ أعقبَها برَحلاتٍ أُخرى إِلى **الأستانة**، و**مصر**، والبلاد الأوروبية.

وفي سنة 1316هـ/ 1898م، عيِّن مفتِّشا لمكاتب **الشَّام**، ولبثَ في هذا المنصب أربع سنوات، قدَّم خِلالها خدَمات جليلة لتَنظيم هذه المكاتب والنُّهوضِ بها.

وحدثَ أن قام بعد ذلك برحلة إلى **فلسطين**، وفي أثناء غَيبته هناك قامَت السُّلطاتُ الحاكِمة في **دمشق** بتَفتيشِ داره فيها ومُصادرةِ كتُبِه وأَوراقِه والتَّحفظ بها في مكتبِه الخاصِّ بمدرسة **عبد الله العظم باشا**، فاستاءَ مِن هذِه المعاملة واستقرَّ رأيه على المهاجَرة إلى **مصر**، وتمَّ له ذلك في 1905م، وحمَلَ إليها أكثر محتويات كتبِه الثَّمينة، تاركا بقيَّتها في **المكتبة الظاهرية** بـ: **دمشق** بعد أَن وقَفها علَيها، وقَد رحَّب به علماءُ **مصر** وأدباؤُها، وبقي فيها مَحوطا بالإِجلال والتَّكريمِ حتى أُصيب بِمَرضٍ طالَ عِلاجه في سنة 1919، فَعاد إلى **دمشق** حيث عيِّن مديرا للمكتبة الظاهرية، ثمَّ عضوا في **المجمع العربي** هناك، ولكنَّ مرضَه ما لبِثَ أن اشتدَّ وأسلمَ روحَه الطاهرة إلى بارئها بعدَ قليل » اهـ، هذا ما قال **تيمور** في ترجمته.

كما زار **طاهر** مدينة **الجزائر** قبل الحرب **العالمية الأولى**، فنزل ضيفا عند صديق أسرته الشَّيخ **محمد السَّعيد ابن زكري**، المفتي المالكي في عهده بالجزائر، والأستاذ بالمدرسة الثَّعالبية، الذي سبقَ له وأن زار **دمشق** صُحبةَ ولدِه الأستاذ **أحمد ابن زكري** (مدير المدرسة الثَّعالبية)، والذي توفي في أوائل ثورة جبهة التحرير، وقد ذكر الشَّيخ **أحمد ابن زكري** أن الشَّيخ **طاهر الجزائري** كان يتكلَّم اللغةَ القبائلية، ولاحظَ والدُه أن لغةَ القبائل التي كان يتكلَّم [بها] أحفادُ المهاجِرين أصحُّ وأفصحُ مِن لغةِ بلادِ زواوة إذ ذاك بالجزائر، حيث كثر فيها الدَّخيل.

لم تكُن علائق الشَّيخ **طاهر الجزائري** بعلماء البلاد الإسلامية فقط، بل كان له اتِّصال وصداقة بكثير مِن المستَشرقين، ومِن ذلك ما نشَره تلميذُه **محبُّ الدِّين الخطيب** (رئيس تحرير مجلَّة الأزهر) في عهدِه، فقَد نقلَ في المجلَّة المذكورة بعدَدِها المؤرَّخ في صفَر 1373هـ رسالة قيِّمة طويلة تحت عنوان: (**كولدزيهر والشيخ طاهر الجزائري**)، ذكر أنَّ المستشرِق المذكور كان سبقَ له الاتِّصال في عهدِ شَبابه بالشَّيخ **طاهر** في **دمشق**، وأخذَ عنه، وتَرجم له تأليفَه المسمَّى: (**توجيه النظر في علم الأثر**)، وقَد أرسلَ له هذِه الرِّسالة مِن **بودَبست** مؤرَّخة في شهر ذي الحجة سنة 1317، وهذه فقراتٌ مِن هذه الرِّسالة، استَهلَّها بقَوله: «سلامٌ إلى صاحبِ الشَّرفِ الباذِخ، والفضلِ الشَّامِخ، هو المرجع للأماثل والأفاضل، الحاوي لأقصى معارج الفضائل والفواضل، العالم العلاَّمة الشَّيخ **طاهر بن صالح المغربي الجزائري**، أدام الله تعالى فضله...»، إلى أن قال ـ مذكِّرا له عَن العلائق التي كانت تَربطُ بينَهما بداية مِن سنة 1290هـ عندما كان بـ: **دمشق** ـ: «مُقْتَبِسًا مِن أنوارِ عُلمائِها، وكثيرًا ما تَداوَلَ بَين فُضَلائِها وأُدَبَائِها، وصاحَبَكُم يومًا فَيَوْما، مُسْتَأنِسًا بِمُجاوَرَتِكم ومُذاكَرَتِكُم ... الخ»[1].

هذِه لَقطات ـ وإِن كانَت مُبعثَرة ـ إِلَّا أنَّها تُعطينا صُورةً عَن بِلادِ القبائل ومُجاهِديها وعُلمائها الذينَ وإِن بَقيت كثيرٌ مِن آثارهِم بِبلادِ المشرِق والمغرب [موزَّعة]، فإِنَّ عَصرَ الاِنحِطاطِ والتَّدهوُر لم تكُن [ميزة] بلاد القبائل كما صوَّرها بعضُ الكتَّابِ المُغرِضين المُصطادِينَ في الماءِ العكِر، بل كانَت في مقدِّمة سكَّانِ البِلادِ الجزائريَّة في الميادين البُطوليَّة والثَّقافية، وإِن شحَّت علَينا المصادِرُ التَّاريخية في عَهدِ الحكمِ العُثماني ثمَّ في العَهدِ الفرنسي الذي امتازَ بِثَورات بلاد القبائل موضوع دراستنا، وعلاوة على ما أَثبتناه مِن الإشارة إلى تأليف الشَّيخ **ابن الحدَّاد** الذي صوَّر مناخَ البِلاد الثَّقافي والسِّياسي وتَراجم

(1) انظر: ترجمة الشيخ **طاهر** في **فصل التَّراجم** من هذا **القسم**. (ع)

الشَّيخ **المهدي السكلاوي** ورُفقائه المهاجِرين إثر الاحتِلال الفرنسي إلى **دمشق**، فَنجِد كذلك مِن الوثائق الهامَّة لهذِه الفَترة (**رحلة الشيخ الحسين الورثيلاني**) (1125 ـ 1193هـ/ 1710م ـ 1779م).

وقد أَلَّف هذه **الرِّحلة** بِمُناسبة ذهابِه إلى الحجِّ سنة 1179هـ/ 1776م، وقَد سمَّى رِحلتَه هذِه: (**نزهة الأَنظار في فضلِ علمِ التَّاريخ والأَخبار**).

هذا، وإِن حَظيت هذِه الرِّحلة بِالطَّبع مرَّتَين:

الأولى: بِمَطبعة حَجرية في **تونَس**، عليها تَعاليق مُفيدة للعالم المرحُوم الشَّيخ **صالح ابن مهنا**، الإِمام المدرِّس في عَهدِه بِمَدينة **قَسنطينة**، ثمَّ طُبِعت مرَّةً ثانية بِالجزائر، بِتَقديمِ المرحومِ البحَّاثة الأُستاذ **محمَّد بن شنب**، المدرِّس في عَهدِه بـ: **جامعة الجزائر**، إِلَّا أنَّ عدَد طَبعتَيها كان ضَئيلا، وهي في حكمِ الكتُبِ المفقُودة، وامتيازُ رِحلة الورثيلاني هو أنَّه كان عقَد رِحلةً زارَ خِلالَها القَبائل الصُّغرى والكُبرى، سجَّلَ فيها مَعاهِدَها ومآثِرها الخاصَّة، وما زالت كتبٌ قيِّمةٌ مفيدةٌ بِبلادِ القبائل في بَعضِ الخزائن لم تُعطَ لها ما تَستَحِقُّ مِن العِناية.

المراجع

1) **تأليف الشَّيخ ابن الحداد:** أَلَّفه سنة 1261هـ.

2) **حِلية البشَر في علماء القرن الثَّالث عشر:** الشَّيخ عبد الرزَّاق البيطار الدِّمشقي، طبع المجمع العلمي العربي، بدمشق، سنة 1383هـ/ 1963م.

3) **تاريخ الجزائر:** لقزيل، وجورج مارسي، واسكير.

4) **الجزائر.**

5) **المجلَّة الإفريقية.**

فهرس المحتويات